

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الإمام جعفر الصادق عليه السلام

تأليف

المستشار عبد الحليم الجندي

تحقيق

الشيخ أحمد جاسم المالكي

جندي، عبدالحليم .
الإمام جعفر الصادق عليه السلام/ تأليف: عبدالحليم الجندي، تحقيق احمد جاسم المالكي. -- قرآن:
المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، ١٣٨٤ . -- چاپ دوم ١٣٨٥
٣٩٦ص. -- (اهل البيت عند اهل السنة)

ISBN: 964-8889-69-4

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیبا.

عربی.

کتابنامه: به صورت زیر نویس.

١. جعفر بن محمد(ع) ، امام ششم، ٨٠-١٢٨ق. الف. مالکی، احمد جاسم، محقق. ب. مجمع
جهانی تقرب مذاهب اسلامی. ج. عنوان.

٢٩٧/٩٥٥

BP ٢٥/ ج ٩ الف ٨

١٣٨٢

م ٨٢-٢٥٧٦١

کتابخانه ملی ایران



المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

اسم الكتاب:

الإمام جعفر الصادق(ع)

المؤلف:

المستشار عبدالحليم جندي

المحقق:

الشيخ أحمد جاسم المالكي

الناشر:

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية _ المعاونة الثقافية

الطبعة:

الثانية - ١٤٢٧ هـ. ق. ٢٠٠٦ م

الكمية:

٢٠٠٠ نسخة

المطبعة:

ياران

شابك:

ISBN: 964 - 8889 - 69 - 4 ٩٦٤ - ٨٨٨٩ - ٦٩ - ٤

السعر:

٣٥٠٠ تومان

العنوان:

الجمهورية الإسلامية في إيران _ طهران _ ص. ب: ٦٩٩٥ _ ١٥٨٧٥

تلفكس: ١٤ - ٨٨٣٢١٤١١ - ٢١ - ٠٠٩٨

جميع الحقوق محفوظة للناسر

المحتويات

٩	مقدّمة المجمع
١١	تقديم

القسم الأول

١٩	الباب الأول: ظهور الإسلام
٢١	[مقدّمة]
٢٣	الفصل الأول: أخو النبي ﷺ
٢٨	أخو النبي
٣٧	بين الخلفاء الراشدين
٤٦	الشيعة
٥٧	الفصل الثاني: أبو الشهداء
٧٢	ريحانة النبي في كربلاء
٨٧	الباب الثاني: السلطان والإمام
٨٩	مقدّمة
٩١	الفصل الأول: بين السلطان والإمام

٩١	أهل البيت
١٠٣	بين أبناء علي وبنو العباس
١٢٣	الفصل الثاني: الرجلان
١٤١	الباب الثالث: إمام المسلمين
١٤٣	[مقدمة]
١٤٥	الفصل الأول: في المدينة المنورة
١٥٧	أهل المدينة
١٦٨	زين العابدين (٣٨ - ٩٤ هـ)
١٧٤	الباقر (٥٧ - ١١٤ هـ)
١٨١	الفصل الثاني: إمام المسلمين
١٨٧	مجالس العلم
١٩٤	التلاميذ الائمة
٢٠١	كلّ العلوم
٢١٠	مع القرآن
٢٢٠	مع أهل الكوفة وأبي حنيفة
٢٢٧	المذهب الجعفري

القسم الثاني

٢٣٥	الباب الرابع: المدرسة الكبرى
٢٣٧	مقدمة
٢٣٩	الفصل الأول: المدرسة الكبرى
٢٣٩	المصحف الخاصّ أو كتاب الأصول
٢٤١	مصحف فاطمة
٢٤١	التدوين

٢٥٩	مشيخة العلماء
٢٦٧	ومن هؤلاء
٢٧٧	التلاميذ من الشيعة
٢٨٠	إليك بعض الأسماء
٢٩٥	الفصل الثاني: الدرس الكبير
٣٠٤	السنة
٣١٣	الإمامة
٣٣١	أُمور خلافية في الفقه
٣٣٢	١- الجمع بين الصلاتين
٣٣٣	٢- الأذان
٣٣٥	٣- المسح على الرجلين
٣٣٦	٤- الزواج والطلاق
٣٣٨	٥- زواج المتعة (إلى أجل معين)
٣٤١	٦- الميراث
٣٤٣	٧- متعة الحجّ
٣٤٤	٨- التفسير بالتأويل
٣٤٨	٩- البداء (ومفهومه الشائع: الظهور بعد الخفاء)
٣٥١	١٠- الرجعة
٣٥٥	الباب الخامس: المنهج العلمي
٣٥٧	مقدّمة
٣٥٩	الفصل الأول: التجربة والاستخلاص
٣٩٣	الفصل الثاني: في السياسة والاجتماع
٣٩٥	في الدولة وقواعدها
٣٩٥	المساواة أساس الدولة
٣٩٩	العدل ونزاهة الحكم

٤٠٣	الشورى والعناية بالعامّة
٤٠٦	الحكّام
٤١٠	المجتمع الجعفري
٤١٤	الجهاد
٤١٨	في المجتمع ودعائمه
٤١٨	الأُسرة
٤٢١	الأُخوة
٤٢٧	المرأة
٤٢٩	العلم
٤٣٢	الدعاء
٤٣٥	الفضل الثالث: المنهج الاقتصادي
٤٣٧	١- العمل
٤٤٠	المضطرب بماله والمترفق، بيده أو التجارة والصناعة
٤٤٨	التجارة
٤٥١	٢- المال
٤٥٣	العبادة وإنفاق المال
٤٥٨	أداء حقوق الآخرين في المال
٤٦١	كنز المال
٤٦٤	٣- التعاون
٤٦٥	الباب السادس: إلى الرفيق الأعلى
٤٦٧	إلى الرفيق الأعلى
٤٧٦	عدالة السماء
٤٨٣	الإسماعيلية

مقدمة المجمع

كما أنّ تراث الإسلام حافل بأسماء لامعة من الكتاب والباحثين الذين طووا بعض صفحاته باتجاه توثيق عرى المحبة والتقارب بين المذاهب الإسلامية، كذلك زخرت مكتبته بكتب جادة وهادفة أخذت موقعها في مظان رفوفها، واحتلت مكانة عند القراء، لمساهمتها الواعية في ضخّ هذا التراث بموضوعات علمية وثقافية وتاريخية من شأنها تعزيز أواصر الإخاء والموّدة بين المسلمين.

ذلك لما اتّسمت بها من موضوعية في الطرح، وصدق في العبارة، ومحاولة التماس الحقيقة من منابعها الأصيلة، والتقاط الكلمة المجرّدة عن كلّ الأهواء والميول، نحو رحاب الصدق والإنصاف والكلمة الطيبة، وهو ترجمة حقيقية لرغبة صادقة في تصعيد الوحدة، وتوثيق الصداقة الحقّة والتقارب بين طوائف المسلمين.

فليس المهم أن تكون هذه الكتب قد خطتها أقلام عراقية أو إيرانية أو مصرية أو سعودية أو...، أو أن تكون شيعية أو سنية، بل المهم أن تكون موضوعية وهادفة، تتخذ من «التقريب» منهجاً لها، وتساهم مساهمة جادة على هذا الصعيد.

ومن هنا رأى المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية أن يخطو الخطوة الأولى في هذا الاتجاه، وهو يتأمّل المزيد من باقي الأطراف، فقام مركز التحقيقات والدراسات العلمية التابع له بتبني بعض من هذه الكتب التي تعنى بالسيرة والمناقب، وكانت قد انطوت على أفكار تقريبية جادة، لغرض طبعها ونشرها بحلّة جديدة بعد توثيق مصادرها الواردة على يد محققين شمرّوا سواعدهم لهذا الغرض الشريف.

ومن أبرز هذه الكتب: هذا الكتاب المائل بين يديك عزيزنا القارئ والذي يحمل عنوان

«الإمام جعفر الصادق» للمستشار عبدالحليم الجندي الذي لمع اسمه على هذا الصعيد، بعد ما أتحت المكتبة الاسلامية بمجموعة كتب هادفة، اتّسمت بالصدق والرغبة في تصعيد الوحدة بين فرق المسلمين، فضلاً عن أنها اشتملت على جملة أفكار جديدة بمطالعتها ونشرها في الوسط الثقافي.

وفي الوقت الذي تقدّم شكرنا وتقديرنا للمحقّق الكريم الذي قدّم ما بوسعه في هذا السبيل، فإننا نكرّر دعوتنا لكافة الأطراف المخلصة إلى تبني هكذا مشروع من أجل الوحدة والاتّحاد، ونبذ الفرقة والاختلاف، والله الموفق.

مركز التحقيقات والدراسة العلمية

التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

تقديم

كان من المنطق أن يظهر هذا الكتاب قبل - أو مع - كتابنا «أبي حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام» سنة ١٩٤٥م، أو كتاب «مالك بن أنس». فلقد تتلمذ أبو حنيفة ومالك للإمام الصادق، وتأثراً كثيراً به، سواء في الفقه أو في الطريقة. ومالك شيخ الشافعي، والشافعي يدلي إلى أبناء النبي ﷺ بأسباب من العلم والدم، وقد تتلمذ له أحمد بن حنبل سنوات عشرة. فهؤلاء أئمة أهل السنة الأربعة، تلاميذ مباشرون أو غير مباشرين للإمام الصادق.

غير أن تعاقب الأئمة الأربعة لأهل السنة، وتقارب مذاهبهم في تعبيرها عن فقه «أهل السنة»، دفعاً إلى وجه آخر، فظهرت كتبنا عنهم بين سنتي ١٩٤٥، ١٩٧٠ للميلاد. وإلى ذلك فقد تأكد في كتابنا «توحيد الأمة العربية» سنة ١٩٦٥: أن «وحدة القاعدة القانونية» هي الطريقة المثلى لربط المسلمين، في شتى أقطارهم، بتشريع إسلامي شامل، تضوّل دونه التشريعات المعاصرة في الغرب أو في الشرق. والفقه «الشيوعي» واحد من النهرين اللذين تسقى منهما حضارة أهل الإسلام، وإليه لجأ الشارع المصري في هذا القرن؛ لإجراء إصلاحات ذات بالٍ في نظم الأسرة المصرية.

والإمام جعفر الصادق يقف شامخاً في قمة فقه أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام، هو في الفقه إمام، وحياته للمسلمين إمام، والمسلمون اليوم يلتمسون في كنوزهم الذاتية مصادر أصيلة للنهضة؛ مسلمة غير مخلطة ولا مستوردة.

هو الإمام الوحيد^١ من «أهل البيت» الذي أتاحت له إمامة دامت أكثر من ثلث قرن، تمخض فيها مجلسه للعلم، دون أن يمدّ عينيه إلى السلطة في أيدي الملوك. وبهذا التخصّص سلّم الأمة مفاتيح العلم النبوي، ومنه يبدأ التأصيل الواضح لمنهج علمي عام للفكر الإسلامي، نقلته أمم الغرب فبلغت به مبالغها الحالية، وعمل به بين يديه، ثم أعلنه، تلميذه جابر بن حيان أول كيميائي كما تباع له أوروبة الحديثة، وهو «منهج التجربة والاستخلاص» أي الاعتبار بالواقع وتحكيم العقل، مع النزاهة العلمية.

فالإمام الصادق هو فاتح العالم الفكري الجديد، بالمنهج العقلاني والتجريبي، كأصحاب الكشوف الذين فتحوا أرض الله لعباده فدخلوها آمنين.

والإمام الصادق هو الإمام الوحيد^٢ في التاريخ الإسلامي، والعالم الوحيد في التاريخ العالمي، الذي قامت على أسس مبادئه الدينية والفقهية والاجتماعية والاقتصادية دول عظمى.

ومصر تُذكر منها، أكبر دولة عرفها التاريخ فيها، من عهد الفراعنة - الدولة الفاطمية - التي امتد سلطانها من المحيط الأطلسي إلى برزخ السويس، ولولا هزيمة جيوشها أمام الأتراك لخفت أعلامها على جبال الهملايا في وسط آسيا. والعالم كلّه مدين لها بمدينة القاهرة.

١. لم يكن الإمام الصادق عليه السلام هو الوحيد الذي طالّت إمامته لأكثر من ثلث قرن، بل هناك أربعة أئمة آخرون: السجاد عليه السلام : ٦١-٩٥، والكاظم عليه السلام : ١٤٨-١٨٣، والهادي عليه السلام : ٢٢٠-٢٥٤، والإمام المهدي (عج) المولود سنة ٢٥٥.

٢. لا يختلف جميع أئمة أهل البيت عليهم السلام في الهدف إلا أنهم يتعدّدون بالطرق والسبل المؤدية إلى تحقيق الأهداف الالهية.

والمسلمون يدينون لها بالجامع الأزهر، الذي حفظ القرآن والسنة، واللغة العربية وعلومها كافة، ويدينون لتعاليم الإمام بقيام دولة كبيرة في إيران، ومجتمع عظيم بالعراق، ومعاهد علمية يتصدّرها النجف الأشرف، وشعوب قوية في الهند وباكستان واليمن وأفغانستان ووسط آسيا ولبنان وسورية، وكثير سواها.

وهو الإمام الذي علم بالمواقف التي وقفت، قدر ما علم بالمبادئ التي أرساها. فالمواقف أعمال، وهي أعلى صوتاً من الأقوال، ولقد يعدل الموقف الواحد جهاد عمر كامل، أو مهمة حياة رجل.

وهو، بمكانه من أهل البيت، وحقه في الخلافة، وإمامته للفقهاء بلا استثناء، كان غرضاً يطلبه معظم خلفاء بني العباس ليضيفه إلى قوائم القتلى من صناديد القواد، أو الشهداء من أهل البيت. وكان درساً من السماء أن يسيطر الإمام على الميزان إذ يلتقيان، فيضعف الطالب عن المطلوب، ويرتفع الإمام الصادق بالخليفة القاتل إلى مستوى الحاكم العادل^١.

والمستقبلون الذين يتكلمون اليوم عن الأخذ بأسباب النهضة العلمية، كمثّل السياسيين الذين لا يرون النهضة بالغة شأوها إلا أن تكون شاملة لأُمور الدين والدنيا، هؤلاء وأولاء، بحاجة إلى أن يظهروا على حياة الإمام الصادق، ليروا مقدار ما تغلغ الدعوة الصادقة بالمبادئ الصحيحة والخطط المنجحة في إقامة دول ومجتمعات قوامها الدين والعلم والعدل والاقتصاد العصري.

وكمثلهم دعاة الإصلاح الذين يمثلهم الشيخ عبد المجيد سليم^٢ شيخ الأزهر في النصف

١. إلا أن المتصور لم يستطع أن يرتقي بنفسه على الرغم من محاولات الامام الصادق عليه السلام. وذلك لسوء وخبث سريرته، ولحبّ الملك.

٢. هو الشيخ عبد المجيد سليم الحنفي المصري، مفتي الديار المصرية، تخرّج بالأزهر، وأخذ عن الشيخ محمد عبده. تقلّب في مناصب التدريس والقضاء والإفتاء، وتولّى مشيخة الأزهر مرّتين، والإفتاء نحو عشرين عاماً.

الأول من هذا القرن عندما قال: «إِنَّ الأُمَّمَ لَيْسَتْ بِكَثْرَةِ أَفْرَادِهَا وَعَدِيدِهَا، وَلَكِنْ بِرُوحِهَا وَإِيمَانِهَا وَخَلْقِهَا. وَلِعَمْرِي إِنَّ سَبِيلَ ذَلِكَ لَهُوَ العِلْمُ» وقال: «إِنَّ كُلَّ إِصْلَاحٍ لَا يَقُومُ عَلَيَّ أُسَاسُ تَقْوِيَةِ الرُّوحِ الدِّينِيِّ فِي الأُمَّةِ لَا بَقَاءَ لَهُ، وَلَا خَيْرَ فِيهِ، وَإِذَا قَلَّتْ: الرُّوحُ الدِّينِيُّ، فَإِنَّمَا أُرِيدُ: الأَخْذَ العَمَلِيَّ بِالشَّرِيعَةِ عَنِ إِيمَانٍ وَثِقَةٍ، لَا أَنَّ نَكْتَفِي بِمَا يَنْصَحُ عَلَيْهِ الدِّسْتُورُ مِنْ أَنَّ دِينَ الدَّوْلَةِ هُوَ الإِسْلَامُ، ثُمَّ نَكُونُ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِنَا وَتَشْرِيعَاتِنَا وَأَخْلَاقِنَا عَلَيَّ خِلَافَ مَا يَأْمُرُ بِهِ الإِسْلَامُ، وَيَنْهَى عَنْهُ الإِسْلَامُ».

والله نحمد، لقد غيّرت مصر في سنة ١٩٧١ دستورها الذي أشار الشيخ إليه. ونصت على أن «الشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع» وهي دعوة صادقة لتقوم القوانين المطبقة جميعاً على أساس الشريعة.



وبعد: فالكتاب الحالي يبلغ غرضه إذا كان صوتاً يدعو إلى الوحدة، والمسلمون تجمعهم أصول فكرية واحدة وإن اختلفت الفروع أو تعددت الآراء، وفي تعدد الآراء ثراء، ولما عرض تلميذ لأحمد بن حنبل تسمية كتاب له «كتاب الاختلاف» قال له: سمّه «كتاب السعة».

ألا وإنه لا صلاح للمسلمين والعرب اليوم في مواجهة التحدي العالمي إلا بالوحدة. والعالم الغربي الذي تهزّ الأفكار المادية والإلحادية عقائده، ويزعزع الرعب النووي اطمئنانه، بحاجة إلى مبادئ الإسلام، وعرض شريعته علمياً، كهيئة ما عرضها الإمام الصادق على الملاحدة في عصره فكانوا يسلمون، وكمثل ما علم تلاميذه ومعاصريه قواعد العلم والفقه والاقتصاد التي تكفل للمسلمين النماء الفكري والاجتماعي والاقتصادي.

→ ويقال: أصدر ما يقرب من ١٥ ألف فتوى، بينها ما يرجع إليه الفقهاء والقانونيون.

• ولد في سنة ١٢٩٩هـ، وتوفي بالقاهرة ١٣٧٤هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ١٤٩)

والعالم الغربي، الذي يحسب للعالم الإسلامي حساب الطاقة التي خزنتها السماء في الأرض الإسلامية، التي جعلها الله مقرأً لبيته العتيق، وحساب المعادن التي تعكس الأقيار الصناعية لمعانها وإشراقها كلما صوّرت أرض العرب، هذا العالم الغربي الذي جمعتة الحروب الصليبية في مقابلة العالم الإسلامي، والذي خطّطت حدوده الحالية حروب ومعااهدات دينية، وازدهرت قاراته الجديدة بعد هجرات تجري في جذورها النوازع الدينية، هذا العالم الغربي جدير بأن يواجهه المسلمون كالبنيان المرصوص، لا كهيئة الحجارة المتناثرة، قد بعثرتها في مهاب الرياح الأربعة أمم غلبت عليها بالقوة من الخارج، وبالتخلف الاجتماعي والعسكري والاختلاف الديني في الداخل.

والمسلمون اليوم لا يتنازعون سلطة كما كان الأقدمون منهم يتنازعون من أجل السلطة، وإنما يتنازع غيرهم السلطة عليهم.

وهم اليوم لا يتقاسمون القوة وإنما يتقاسمون الضعف المادي، في حين يختزنون القسيم العليا للتقدم، والقوى التي تحصى وتعدّ، فحيثما ابتغوا الوسيلة وجدوا نصر الله.

ويوم توجد فينا إرادة الانتصار سننتصر، والله متمّ نوره.



حياة الإمام تنقسم في ترجمتها قسمين: الأول عن الرجل، والثاني عن علمه. وعلى ذلك وردت الصورة التي صوّرنا فيها هذه الحياة في قسمين، كلّ منهما في ثلاثة أبواب.

القسم الأول: يدور حول ظهور الإسلام وتآلق علي وأولاده من فاطمة الزهراء في الصدارة من الأشخاص والأحداث، والبيئة التي نتج فيها الإمام الصادق، فتعاونت على إعداده ظروف الوفاء أو العداة لأهل البيت، لتهيء منه إماماً خصيسته تعليم العلم الذي تلقاه عن جديده، وطريقته الأسوة الحسنة في أعمال حياته، وتحمل التبعات حيث تزوغ الأبصار. والقسم الثاني من الكتاب: يعرض تصور المؤلف للعلم الذي علّمه الإمام، والمدرسة التي

أنتجته، والمنهج العلمي العالمي الذي أخذ به العلماء الدينيون والفقهيون، والرياضيون والفلكيون والكيميائيون وعلماء الطبيعة الإسلاميون، ونقله عنهم رياضيو العصور الوسيطة في أوربة، ليصير «منهج التجربة والاستخلاص» الذي يعمل به الفكر المعاصر، بعد إذ تُرجم من العربية في جنوب فرنسا وإسبانيا وصقلية وسواها من جامعات أوربة، وسبق إلى التنويه به «روجير بيكون» ثم نُسب إلى «فرنسيس بيكون» بعد ثلاثة قرون. وكذلك المنهج السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي أقام الدول العظمى والمجتمعات الإسلامية التي يباهي بها المسلمون في العصر الوسيط، وفي العصور الحديثة.

وفي هذا القسم باب أخير تبدو فيه عدالة التاريخ مصححة لانحراف الأعداء وافتياتهم على أبناء علي، كما يظهر فيه نصر الله للمسلمين إذ يتحدون.

والله نسأل أن يقينا الزلل.

القسم الأول

ويشتمل على ثلاثة أبواب:

الباب الأول: ظهور الإسلام

الباب الثاني: بين السلطان والإمام

الباب الثالث: إمام المسلمين

الباب الأول

ظهور الإسلام

وفيه فصلان:

الفصل الأول: أخو النبي ﷺ

الفصل الثاني: أبو الشهداء عليّ

«لأعطينَ الرايةَ غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَهُ،
ويحبُّهُ اللهُ ورسولَهُ، ليسَ بفرّارٍ، يفتحُ اللهُ عزَّوجلَّ
علَى يديه»^١.

«حديث شريف»

١. مسند أحمد: ج ١ ص ٩٩، البداية والنهاية: ج ٧ ص ٣٥٣، الصواعق المحرقة: ص ٢٦، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٢٤، مستدرک الحاكم: ج ٨ ص ٥، أمالي المحاملي: ص ٣٢٤، مسند سعد الدورقي: ص ٥١، فضائل الصحابة لعبد الله بن أحمد: ج ٢ ص ٦٥٩.

[مقدّمة]

الإمام جعفر الصادق نتاج قرن كامل من العظام، يحني لها الوجود البشري هاماته،
ويدين بحضاراته.

علّى رأسها نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، وفيها بطولات الإمام علي إلى جوار النبي،
وأثرها في ظهور الإسلام، ومشاركته في إبان خلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه،
وآيات نبوغه وتبريزه في السياسة والإدارة والقضاء والفقه والتشريع والبيان العربي والعلم
بوجه عام، وإجلال جميع المسلمين لمكانته، والتفاف شيعته حوله، وتفضيلهم له على سائر
الخلفاء الراشدين.

ثم قيام الفتنة في أخريات خلافة عثمان واغتياله وبيعة المسلمين لعلي، وخروج معاوية
عليهم بأهل الشام، وقيام الحرب بين أمير المؤمنين وبين جيش معاوية، وخروج الخوارج
واغتيال علي، والبيعة لابنه الحسن، ثم تصالح الحسن ومعاوية حقناً للدماء، واستقرار الأمور
للأخير نحو عشرين عاماً.

ولمّا آلت الأمور إلى ابنه يزيد استفتح حكمه بمذبحة كربلاء، حيث
استشهد الحسين بن علي أبو الشهداء، وأعقبها وقعة الحرّة، حيث سفك دم الصحابة
والتابعين، ثم ضربت جيوشه الكعبة بالمنجنيق، ومات وجيوشه
تضرب الكعبة، فتولّى بعده ابنه معاوية، فتنازل عن الخلافة، وولّى بنو أمية مروان بن الحكم،
وتتابع بعده بنوه.

أما أبناء الحسين فتتابعوا على حمل هموم المسلمين، وإعلاء كلمة الدين، والقيام في الأمة مقام جدّهم الإمام علي بن أبي طالب، والنهوض بتبعات الإمامة بتوفيق الله سبحانه، من علي بن الحسين زين العابدين، إلى ابنه الإمام الباقر، إلى حفيده الإمام الصادق. والإشارات السريعة إلى كلّ أولئك، مع الوجازة المفروضة، موضوع الفصلين: الأول والثاني في هذا الباب، وفيهما مدخل الكتاب.

الفصل الأول

أخو النبي ﷺ

«أنت أخي وصاحبي»^١.

١ حديث شريف

أول من آمن بالله ورسوله أم المؤمنين خديجة بن خويلد^٢ وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب. واختلف في الأول منهما، والأكثر يقولون: علياً^٣. واختلفوا في سنن علي

١. شرح أصول الكافي: ج ١٢ ص ١٨٦، مناقب أمير المؤمنين لمحمد بن سليمان الكوفي: ج ١ ص ٣١٤، بحار الأنوار: ج ٢٦ ص ٥٢، وج ٢٨ ص ٣٤٠، المعيار والموازنة لأبي جعفر الإسكافي: ص ٢٠٨، المصنف لابن أبي شيبه الكوفي: ج ٧ ص ٥٠٧، سنن النسائي: ج ٥ ص ١٢٦، مسند أبي يعلى: ج ٤ ص ٢٦٦، كنز العمال: ج ١٣ ص ١٠٩، الجوهرة في نسب الإمام علي وآله للبري: ص ٦٤، مسند أحمد: ج ١ ص ٢٣٠، الاستيعاب لابن عبد البر: ج ٢ ص ٤٦٠، ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق: ج ١ ص ١٢٢ ح ١٦٨، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد: ج ٥ ص ٤٦، تاريخ بغداد: ج ١٢ ص ٢٦٨، الإمتاع للقرويني: ص ٣٤٠.

٢. راجع سيرة ابن إسحاق: ج ٢ ص ١٢٠ ح ١٧٩، وغاية السؤل في سيرة الرسول: ج ١ ص ٣٢.

٣. أخرج القرطبي في تفسيره: ج ٨ ص ٥٩ عن السدي، والرازي في تفسيره: ج ١٦ ص ١١، والواحدي في أسباب النزول: ص ١٦٤ قول علي بن أبي طالب عليه السلام للعباس بن عبد المطلب، وشيبة بن عثمان محتجاً عليهما: أنا أول من آمن بالوعيد من ذكور هذه الأمة، وهاجر، فأنزل الله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾.

وأخرج صاحب تاريخ دمشق: ج ١٢ ص ٣٠٥، وفي ترجمة الامام علي بن أبي طالب: ص ٩١٧، والحافظ السيوطي في الدر المنثور: ج ٤ ص ١٤٦، وابن الصباغ في الفصول المهمة: ص ١٢٣ عن علي عليه السلام قال: «لقد صليت الى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد».

وذكر الخوارزمي في المناقب: ص ١١١ ح ١٢٠، و ص ٢٦٥ ح ٢٤٧ عن جابر قال: كنا عند النبي ﷺ فأقبل علي بن أبي طالب، فقال رسول الله ﷺ: قد أتاكم أخي، ثم التفت إلي الكعبة فضر بها بيده، ثم قال: والذي نفسي بيده، إن هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة، ثم قال: إنه أولكم إيماناً معي، وأوفاكم بعهد الله.

يومئذ^١. قال ابن إسحاق: إن علياً أول من آمن بالله، وصدق رسول الله^٢، وهو ابن عشر سنين يومئذ^٣.

لكن حسان بن ثابت^٤ وطائفة قالوا:
إن أبا بكر هو الأول^٥.

→ وفي كنز العمال: ج ٦ ص ١٥٣، ومسند أحمد: ج ٥ ص ٢٦، والاستيعاب: ج ٣ ص ٣٦، ومجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٠١ و ١١٤، والرياض النضرة: ج ٢ ص ١٩٤:

قال النبي ﷺ في علي عليه السلام: «إنه لأوّل أصحابي إسلاماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حلماً».

وفي المستدرک للحاكم: ج ٣ ص ١٤٧ ح ٤٦٦٢، وتاريخ الخطيب البغدادي: ج ٢ ص ٨١، والاستيعاب لابن عبد البر: ج ٢ ص ٤٥٧، والسيرة الحلبية: ج ١ ص ٢٨٥:

قال النبي ﷺ: «أولكم وروداً على الحوض أولكم إسلاماً: علي بن أبي طالب».

وأخرج الطبراني عن سلمان وأبي ذر، والبيهقي والعدني عن حذيفة، والهيثمي في المجمع: ج ٩ ص ١٠٢، والحافظ الكنجي في الكفاية: ص ٧٩:

قال رسول الله ﷺ بعد أن أخذ بيد علي: «إن هذا أول من آمن بي، وهذا أول من يصفحني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر، وهذا فاروق هذه الأمة، يفرق بين الحق والباطل، وهذا يعسوب المؤمنين». وزاد الحافظ الكنجي: «وهو بابي الذي أوتى منه، وهو خليفتي من بعدي». وكذا في أسد الغابة: ج ٤ ص ١٧.

وعقد النسائي لذلك فصلاً في كتابه خصائص الإمام علي: ص ٤٢ وما بعدها.

١. قال ابن عبد البر: «واختلفوا في سنّ علي يومئذ، فقيل: ثمانين سنين وقيل: عشر سنين وقيل: اثنتا عشرة سنة وقيل: خمس عشرة سنة قاله الحسن البصري وغيره» راجع الدرر في اختصار الغازي والسير: ج ١ ص ٣٨.

٢. سيرة ابن إسحاق: ج ٢ ص ١١٩ ح ١٧٦: قال: حدثنا يونس، عن يوسف بن صهيب، عن عبد الله بن بريدة قال: أول الرجال إسلاماً علي بن أبي طالب، ثم رهط الثلاثة أبو ذر وبريدة وابن عم لأبي ذر. وكذا ما ذكره الطبري في: ج ٢ ص ٥٥-٥٩ من أخبار في إسلام علي أولاً.

٣. سيرة ابن إسحاق: ج ٢ ص ١١٨ ح ١٧٤ و ج ٢ ص ١٢٠ ح ١٧٩، وانظر أسد الغابة: ج ٤ ص ١٧.

٤. حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، الصحابي، شاعر النبي ﷺ وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام. وكان من سكان المدينة. اشتهرت مدائحه في الغسانيين وملوك الحيرة قبل الإسلام، لم يشهد مع النبي مشهداً لعلته إصابته. قال أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي في النبوة، وشاعر اليمانيين في الإسلام. وكان شديد الهجاء فحل الشعر، توفي سنة ٥٤ هجرية. (الأعلام: ج ٢ ص ١٧٥).

٥. الدرر: ج ١ ص ٣٨ قال: «روي عن حسان بن ثابت وإبراهيم النخعي وطائفة: أبو بكر أول من أسلم. والاکثر منهم يقولون: علي».

وروى ابن إسحاق^١ كيف أسلم علي بن أبي طالب بعد إسلام خديجة وصلاتها مع النبي بيوم واحد، إذ جاء فوجدهما يصليان، فقال علي: يا محمد ما هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دين الله الذي اصطفى لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى عبادة الله، وكفر باللات والعزى». فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاضٍ أمراً حتى أحدث أبا طالب، فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سرّه قبل أن يستعلن أمره، فقال له «يا علي، إن لم تسلم فإتكم».

فمكث علي تلك الليلة، ثم إن الله أوقع في قلبه الإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله، حتى جاءه فقال: ماذا عرضت علي يا محمد؟ فقال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد» ففعل علي وأسلم. ومكث علي يأتيه سرّاً خوفاً من أبي طالب^٢. وكان ممّا أنعم الله به على علي أنه رُئي في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام.

ومن رسول الله ﷺ وخديجة - أول مسلمين - ولدت فاطمة الزهراء، ومن أبنائها ومن

١. سيرة ابن إسحاق: ج ٢ ص ١١٨ ح ١٧٣.

٢. هذا خلاف ما عُرِف من سيرة أبي طالب مع النبي ﷺ قبل بعثته الشريفة، فقد نقل صاحب غاية السؤل ج ١ ص ٣١: «وخرج به عمه إلى الشام، وجرت نوادر تشهد برسالته». وأفرد صاحب الخصائص الكبرى فصلاً لعلاقة النبي ﷺ مع عمه أبي طالب وأولاده في الجزء الأول: ص ١٤٢، وقصة الراهب بحيرا على مرأى ومسمع من أبي طالب حين قال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يمرّ بشجر ولا حجر إلا خرّ ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كفه» ج ١ ص ١٤٢.

وكذا قصة الرؤيا التي رآها عبد المطلب، وكان أبو طالب يحدث بها، والنبي قد خرج ويقول: «كانت الشجرة والله أبا القاسم الأمين» ج ١ ص ٦٧.

وكان أبو طالب يقول لولده علي عليه السلام: «قد بذلناك والبلاء شديد لفداء الحبيب وابن الحبيب».

أنظر أعيان الشيعة: ج ١ ص ٢١٩. وغيرها من الشواهد الكثيرة على ذلك.

وكان أبو طالب قد صنع شعراً في النبي ﷺ قال فيه:

ألم تعلموا أننا وجدنا محمداً نبيّاً خط في أول الكتب

(السيرة النبوية: ج ٢ ص ١٩٧)

وذكر الطبري في: ج ٢ ص ٥٨: أن أبا طالب قال لعلي: أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ قال: يا أبا أنت بالله ورسوله، وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله. فزعموا أنه قال له: أما أنه لا يدعوك إلا إلى خير، فالزمه.

أبناء علي وأبي بكر الصديق، أي من أبناء نبي الإسلام والمسلمين الثلاثة الأولين، ولد جعفر بن محمد الإمام الصادق^١.

ويدعوه أبي بكر أسلم خمسة من العشرة^٢ الذين بشرهم رسول الله بالجنة^٣، ومات وهو عنهم راضٍ: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة ابن عبيد الله، وعبدالرحمان بن عوف، وسعد بن أبي وقاص. وهؤلاء الخمسة هم أهل الشورى، الذين جعل عمر الخلافة فيهم وفي علي بن أبي طالب، ليختاروا واحداً منهم فيبايعه المسلمون.

فعلي بن أبي طالب يجيء دائماً في صدارة أهل الإسلام، وأبوه وأمه في الصدارة كذلك: لقد كفل أبوه محمداً ابن أخيه عبد الله وهو ابن ثمانين سنين^٤، وخرج به إلى الشام وهو ابن اثنتي عشرة^٥، وهو الذي مثله في الزواج من أم المؤمنين خديجة^٦. ولما ماتت فاطمة بنت أسد^٧ - أم علي - نزل النبي في لحدها وألبسها قميصه عليه السلام^٨ وقال «لم يكن أحد أبرّ بي بعد أبي طالب منها»^٩.

وجزى النبي صنيعهما في علي، إذ كفله وهو ابن ست سنين^{١٠}، ثم جعله سابقاً في

١. قال المسعودي في مروج الذهب: ج ٢ ص ٣٠٧: «وأم جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أم فروة بنت القاسم بنت محمد بن أبي بكر الصديق».

٢. علي ما نقله الطبري في تاريخه: ج ٢ ص ٦٠.

٣. أنظر صحيح الترمذي: ج ٥ ص ٦٠٦ - ٣٧٤٨. وسنن أبي داود: ج ٤ ص ٢١١ - ٤٦٤٨.

٤. السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٨٤، غاية السؤل في سيرة الرسول: ج ١ ص ٣١، مسائل الإمام أحمد: ج ١ ص ١٨.

٥. مسائل الإمام أحمد: ج ١ ص ١٨.

٦. المصدر السابق.

٧. فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية، أول هاشمية ولدت خليفة، وهي أم أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب. نشأت في الجاهلية بمكة وتزوجت أبا طالب. كان النبي يزورها ويقبل في بيتها، ثم هاجرت مع أبنائها إلى المدينة، وماتت بها، وكفنها النبي عليه السلام بقميصه واضطجع في قبرها، وقال: «لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها» وقبرها في البقيع. (الأعلام: ج ٥ ص ١٣٠).

وقال صاحب الذريعة نقلًا عن بحر الجواهر: إن فاطمة بنت أسد أول من آمن بالنبي عليه السلام، وذلك عندما رأت منه عليه السلام من أمر النخلة اليابسة، توفيت سنة ٥ هجرية.

٨. تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ١٤: «وقيل له: يا رسول الله، لقد اشتدّ جزعك علي فاطمة، قال: «إنها كانت أمي، إن كانت لتجع صبيانها وتشبعني، وتشعثهم وتدهني».

٩. الاستيعاب لابن عبد البر: ج ٤ ص ٤٤٦، الأعلام للزركلي: ج ٥ ص ١٣٠.

١٠. تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٥٧، وذكر الخبر كاملاً.

الإسلام. فلما كان النبي يعبد الله في غار حراء، كان علي يعبد الله وهو صبي مميز، ثم بسق الفرع وسمق في جوار أخيه^١ ومرّيه وعلى عين أبيه.

وفي سنة سبع من المبعث تأمرت قريش على قتل الرسول، وأبى قومه بنو هاشم، وظاهرهم بنو عمهم المطلّب بن عبد مناف^٢، فأجمع المشركون من قريش على إخراجهم من مكّة إلى الشعب، فخرجوا مؤمنهم وكافرهم. فلما عرفت قريش أنّ رسول الله قد منعه قومه أجمعت ألا تدخل إليهم شيئاً، وقطعت عنهم الأسواق ثلاث سنين^٣.

وكان أبو طالب يأمر رسول الله أن يأتي فراشه كل ليلة، حتّى يراه من أراد به شراً، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فاضطجع على فراش الرسول، وأمره أن يرقد على بعض فرشهم، فيرقد عليها^٤. حتّى إذا أكملوا ثلاث سنين أخبر الله رسوله أنّ العهد الذي تعاهدته قريش في صحيفه علقوها بالكعبة قد أكلته الأرضة، ولحست باقي الصحيفة، فخرجوا من الشعب إلى قريش، وأنبا أبو طالب قريشاً أنّ الصحيفة قد أكلت، وأسماءهم قد لحست، كما أخبره ابن أخيه، وأنباهم أنّه وأهله سيحمونه عن آخرهم^٥.

وذات يوم سأل النبي أهله: أيكم يواليني في الدنيا والآخرة؟ - وعلي جالس - فسكتوا، وقال علي: أنا وأوليك في الدنيا والآخرة. فكانت هذه أول موالاة من النبي لعلي^٦.

ولما حضرت الوفاة أبا طالب في السنة العاشرة من المبعث عن بضع وثمانين، جمع إليه وجوه قريش فقال بين ما قال: «... وإني أوصيكم بمحمد، فإنه الأمين في قريش، والصديق للعرب، وهو الجامع لكل ما وصّيتكم به. وقد جاءنا بأمرٍ قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة

١. العرب تسمي ابن العم الشقيق أخوا. (منه). و «سمق» بمعنى: طال وعلا.

٢. البداية والنهاية: ج ٢ ص ٢٥٤.

٣. تاريخ الطبري: ج ١ ص ٥٥٠. البداية والنهاية: ج ٢ ص ٨٨. البدء والتاريخ: ج ٤ ص ١٥٣. الكامل: ج ١ ص ٦٤.

٤. انظر إعلام الوري للطبرسي: ج ١ ص ١٢٥، والصحیح من السيرة: ج ٥ ص ٩١.

٥. تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ٣٢، وإعلام الوري للطبرسي: ج ١ ص ١٢٧.

٦. البداية والنهاية: ج ٧ ص ٣٥١. وذكر الطبري أيضاً في تاريخه: ج ٢ ص ٦٣ عن علي عليه السلام قول النبي ﷺ لعومته: «أيكم يوازرنني على هذا الأمر، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت، وأني لأحدثهم سنأ وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحشمهم ساقاً: أنا يا نبي الله، أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا...».

الشنآن...، يا معشر قريش كونوا له ولاة...»^١.

والنبي يقول: «ما زالت قريش كاعة حتى مات عمي أبو طالب»^٢.

وماتت خديجة بعد أبي طالب بأيام أو أشهر أو أكثر^٣. وأذن الله للرسول في الهجرة إلى المدينة، وكان قد أضر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، ولم يبق فيها إلى جواره إلا أبا بكر وعلياً، والأول هو الصديق، والثاني هو الفدائي الأول.

فلقد رأت قريش ذلك، فأجمعت على قتل النبي، فبيتوه ورسدوه طول ليلهم ليقتلوه إذا خرج، فأمر علياً أن ينام على فراشه، ودعا ربه أن يعمي علياً قريش أثره، وخرج وقد غشي أبناءها النوم، فلما أصبحوا خرج علي عليهم وقال: ليس في الدار ديار، فعملوا أن رسول الله نجا^٤.

وكان الفدائي الأول قد شارف العشرين من العمر، استبقاه الرسول لأمر يتعلّق بحياة الرسول، ليضحي من أجله بحياته، وسلمت الحياتان؛ لأنّ الأولى حياة الإسلام، ولأنّ الثانية سوف تفديها وتحرسها مرة إثر أخرى^٥.

أخو النبي

أقام علي بمكة أياماً ليرد فيها ودائع كانت عند الرسول، ثم لحق به في المدينة، فنزل مع

١. الروض الأنف: ج ١ ص ٢٥٩، المواهب: ج ١ ص ٧٢، تاريخ الخميس: ج ١ ص ٣٣٩، ثمرات الأوراق بهامش المستطرف: ج ٢ ص ٩، بلوغ الإرب: ج ١ ص ٣٢٧، السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٧٥، أسنى المطالب: ص ٥. ولكن الشيخ المفيد عليه السلام نقل وصيته لرسول الله ﷺ شعراً:

أوصي بنصر النبي الخير مشهده	علياً ابني وشيخ القوم عباسا
وحزمة الأسد الحامي حقيقته	وجعفرأ ليدودوا دونه الباسا
كونوا فدياً لكم أمي وما ولدت	في نصر أحمد دون الناس أتراساً

(راجع إيمان أبي طالب: ص ٢٧).

٢. مجمع الزوائد: ج ٦ ص ١٥، كنز العمال: ج ١٢ ص ٣٤٤٤، و«كاعة» بمعنى منجسة.

٣. البداية والنهاية: ج ٣ ص ١٢٧، البدء والتاريخ: ج ٤ ص ١٥٤، الكامل: ج ١ ص ٦٠٦.

٤. تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ٣٦ وقال علي في ذلك شعراً نقله الحاكم في المستدرک: ج ٣ ص ٤:

وقيت بنفسي خير من وطأ الحصا	ومن طاف بالبيت العتيق وبالبحجر
وبت أراعسي منهم ما ينويني	وقد صبرت نفسي على القتل والأسر

٥. إشارة إلى مواقف الإمام علي في الذود عن الإسلام والرسول في كل الغزوات، سيما أحد والخندق وحنين.

ببقاء، حيث أقام رسول الله مسجدها، ثم خرج إلى دور أخواله بني عدي بن النجار، فأقام بها أشهراً بنى فيها مسجده وأخى بين تسعين من المهاجرين والأنصار على الحق والمساواة والتوارث، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾^١.

أما أبو بكر فأخى بينه وبين خارجة بن زيد^٢، وأما عمر فأخى بينه وبين عتبان بن مالك^٣، وأما عثمان فأخى بينه وبين أوس بن ثابت أخي حسان^٤.

أما علي فأخى بينه وبين نفسه ﷺ^٥، بل هو قال له: «أنت أخي وصاحبي»^٦. وفي ذلك رواية ابن عباس^٧ أن علياً كان يقول: «والله، إني لأخو رسول الله ﷺ ووليّه»^٨. وهذه هي المؤاخاة الثانية، فالأولى كانت بمكة.

ثم خرج المسلمون ليوم بدر، فدفع رسول الله الراية إلى علي، وراية أخرى لرجلٍ من

١. الأنفال: ٧٥.

٢. هو خارجة بن زيد بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك الأنصاري الخزرجي. ذكره فيمن شهد بدرأً، وقُتل في أحد، وهو صهر أبي بكر، تزوج أبو بكر ابنته ومات عنها وهي حامل. (الإصابة: ج ٢ ص ١٩٠ رقم ٢١٤٠).

٣. عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري الخزرجي السالمي، صحابي من البدرين، أخى النبي بينه وبين عمر، وكان ضعيف البصر ثم عمي، مات في خلافة معاوية سنة ٥٠ هجرية. (الأعلام للزركلي: ج ٢ ص ٢٠٠).

٤. أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري، صحابي شهد العقبة الثانية وبدرأً، وقُتل في وقعة (أحد) سنة ٣ هجرية، وفيه يقول حسان: ومنا قتل الشعب أوس بن ثابت. (الأعلام للزركلي: ج ٢ ص ٣١).

٥. أسد الغابة: ج ٤ ص ٢٥.

٦. تاريخ بغداد: ج ١٢ ص ٢٦٨، وأيضاً روي في مثل هذا المعنى: قال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن أكون أخاك؟ قال: بلى يا رسول الله رضيت، قال: فأنت أخي في الدنيا والآخرة» السيرة النبوية لأحمد زيني دحلان: ج ١ ص ١٥٥، تاريخ الخميس: ج ١ ص ٣٥٣، السيرة الحلبية: ج ٢ ص ٢٠.

٧. عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ولد في مكة في السنة الثالثة قبل الهجرة، وهو قرشي هاشمي، يكنى أبا العباس، ويلقب حبر الأمة، صحابي جليل، نشأ في بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ وروى عنه الحديث، وشهد مع علي الجمل وصفين، كُفّ بصره آخر عمره، فسكن الطائف وتوفى بها، له من الأحاديث ما يقرب من ١٦٦٠ حديثاً في الصحاح الستة. قال عنه عمرو بن دينار: ما رأيت مجلساً كان أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس: الحلال والحرام، والعربية، والأنساب، والشعر. وكان آية في الحفظ، وينسب إليه كتاب في تفسير القرآن اسمه المقباس. توفي سنة ٦٨ هجرية. (الأعلام: ج ٤ ص ٩٥).

٨. ميزان الاعتدال: ج ٣ ص ٢٥٥ في ترجمة عمرو بن حماد برقم ٦٣٥٣ وفيه: «إني لأخو رسول الله ﷺ ووليّه وابن عمه ووارثه، فمن أحقّ به مني؟». وكذا خرّجها صاحب الجوهرة في نسب الإمام علي وآله: ص ٦٣. أما صاحب البحار فرواها هكذا في ج ٢٨ ص ٢٤٠ - ٢٣٠: «إني لأخو رسول الله ووزيره».

الأنصار^١. فهذه أولى معارك الإسلام وكبرها. وفعل علي الأفاعيل بالعدو: قتل من المشركين بيده أربعة، وقيل: خمسة^٢. وقيل: ستة، أكثرهم من أهل معاوية بن أبي سفيان، وهو ما يزال بين المشركين.

ثم قدّم الرسول فلذة كبده لبطل بدر، فبنى فاطمة الزهراء وهي في الثامنة عشرة^٣. روى ابن الأثير في أسد الغابة: أخبرنا... عن الحارث، عن علي، فقال: خطب أبو بكر وعمر - يعني فاطمة - إلى رسول الله ﷺ، فأبى رسول الله ﷺ عليهما، فقال عمر: أنت لها يا علي، فقلت: مالي من شيء إلا درعي أرهنها، فزوّجه رسول الله ﷺ فاطمة، فلما بلغ ذلك فاطمة بكت، قال: فدخل عليها رسول الله ﷺ فقال: «مالك تبكين يا فاطمة! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً، وأفضلهم خلقاً، وأولهم سلماً»^٤.

أما العلم والحلم والسلم فهي التي احتاج فيها علي - وهو في فتاء السن - إلى الشهادة بها من النبي لدى زهراء النبي.

وأما ميادين الوغى فقد شهدت له فيها رايات بدر، وستشهد له فيها الرايات الأخر: في يوم أحد - أخطر معارك الإسلام - كان علي في الحرس إلى جوار النبي، حين أصيب النبي في المعركة، وكان طبيعياً أن يُصاب علي بستة عشر ضربة^٥، كل ضربة تلزمه الأرض! وكما يقول سعيد بن المسيّب^٦ سيّد التابعين: فما كان يرفعه إلا جبريل عليه السلام^٧. فلما اشتدّ

١. هو سعد بن عبادة الأنصاري، وقيل: كانت الراية الثانية مع مصعب بن عمير. راجع مناقب آل أبي طالب: ج ١ ص ١٦٤.

٢. ذهب جماعة من العلماء والمحققين أنه قتل نصف القتلى، والنصف الآخر قتلهم المسلمون والملائكة. راجع الإرشاد للمفيد: ص ٤١. والبحار: ج ١٩ ص ٢٨٠، وكشف القمعة: ص ١٨٥، ومنتهى الآمال: ج ١ ص ٢٨٦، ونقل الدكتور الخليلي عن العقد الفريد: مناظرات المؤمن هذا المعنى في كتابه: أمير المؤمنين.

٣. الأعلام: ج ٥ ص ١٣٢، السيدة فاطمة الزهراء لمحمد بيومي: ص ١٢٠ و ١٢١.

٤. أسد الغابة: ج ٥ ص ٥٢٠.

٥. أسد الغابة: ج ٤ ص ٢٠، الصواعق المحرقة: ١٢٠، وذكر الشيخ القمي: أن علياً أصيب بتسعين جرحاً، مستهني الأعمال: ج ١ ص ١٣٤، وفي الناقب في المناقب: ص ٦٣ أنه أصيب بثمانين جراحة.

٦. سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي؛ أبو محمد، سيّد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءً، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته حتى سُمي راوية عمر، ولد سنة ١٣ هجرية، وتوفي بالمدينة سنة ٩٤ هجرية. (الأعلام: ج ٣ ص ١٠٢).

الخطب، وقُتل حامل الراية مصعب بن عمير^١، دفع الرسول الراية لعلي^٢.... فقتل علي يومذاك واحداً، وقيل: ثلاثة مشركين^٣.

وفي يوم الخندق أزفت الآزفة^٤ حيث تيمم المشركون مكاناً ضيقاً فاقتحموه بخيلهم، فخرج لهم علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها، وكان عمرو بن عبد ود^٥ - فارس العرب - يريد أن يعرف مكانه يوم الخندق، فنادى من فوق الخيل: هل من مبارز؟ فبرز له علي، قال له عمرو: ما أحب أن أقتلك لما بيني وبينك^٦.... وأصر علي، ونزل عمرو عن فرسه، وتجاولا، فما انجلى النقع حتى قتله علي، وفر أصحاب الثغرة بخيولهم منهزمين^٧.

٧. أسد الغابة: ج ٤ ص ٢٠.

١. مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، قرشي من بني عبد الدار، صحابي شجاع، من السابقين إلى الإسلام، أسلم في مكة وكنم إسلامه، فعلم به أهله فأوثقوه وحسوه، فهرب مع من هاجر إلى الحيشة، ثم رجع إلى مكة وهاجر إلى المدينة، فكان أول من جمع الجمعة فيها، وعُرف فيها بالمقرئ، وأسلم على يده أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، شهد بدرًا وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد فيها سنة ٣ هجرية، وكان في الجاهلية فتى مكة شيباباً وجمالاً ونعمة، وكان يلقب مصعب الخير، وقيل: إنه فيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى: ﴿ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ (الأعلام: ج ٧ ص ٢٤٨).

٢. مناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ٨٥.

٣. ذكر كثير من المؤرخين أنه قتل جميع حملة الرايات، وكان يرد الكتيبة تلو الكتيبة عن رسول الله ﷺ. راجع: الطرائف: ص ٦٥، ومناقب أمير المؤمنين عليه السلام للكوفي: ج ١ ص ٤٧٥ و ج ٢ ص ٥٣٦، والمسترشد: ص ٣١٣ و ص ٣٤٨. وفي الثاقب في المناقب: أنه قتل أربعة عشر رجلاً.

٤. أزف يعني: دنا، ومنه قوله تعالى: ﴿أزفت الآزفة﴾ يعني: القيامة. وأزف الرجل بمعنى: عجل. راجع صحاح الجوهري: مادة أزف.

٥. هو عمرو بن عبد ود العامري، من بني لؤي من قريش، فارس قريش وشجاعها في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يسلم، وعاش إلى أن كانت وقعة الخندق فحضرها، وقد تجاوز الثمانين، فقتله علي بن أبي طالب سنة ٥ هجرية. ٦٢٧ م (الأعلام: ج ٥ ص ٨١) وكان يلقب بعماد العرب، وكان في مائة ناصية من الملوك وألف مقرعة من الصعاليك، وهو يعد بألف فارس، وكان يلقب بفارس ليليل؛ لأنه أقبل في ركب من قريش حتى إذا كان يليل - وهو وادٍ - عرضت لهم بنو بكر، فقال لأصحابه: إمضوا، فمضوا، فقام في وجوه بني بكر حتى منعهم من أن يصلوا إليه. (المناقب: ج ٢ ص ٣٢٤).

٦. المستدرک: ج ٣ ص ٣٢، الاحتجاج للطبرسي: ج ١ ص ١٦٨.

٧. وهنا قال النبي ﷺ مقولته الشهيرة: «لضربة علي لعمرو يوم الخندق تعدل عبادة الثقلين» عوالي اللثالي: ج ٤ ص ٨٦.

وفي غزوة بني قريظة كانت له راية المسلمين^١.

وفي صلح الحديبية كان «كاتب» صحيفة الصلح علي بن أبي طالب^٢، يملي عليه رسول الله ﷺ! فلذلك كان أيمن صلح عرفه التاريخ البشري، فلقد أصبح الذين أسلموا بعده وقبل فتح مكة أكثر ممن أسلموا قبله، وبه حفظت دماء الذين بايعوا تحت الشجرة، ليظهر الإسلام على أعدائه، ويسر فتح مكة.

وفي غزوة خيبر فتح الله على المسلمين حصناً، واستعصي اثنان: عليّ أبي بكر وعمر، فقال عليه الصلاة والسلام: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار، يفتح الله عز وجل عليّ يديه». ولما أصبح دعا علياً وقال: «خذ الراية وامض حتى يفتح الله عليك»^٣.

وحمل الوطيس، وسقط ترس علي، فتناول ياباً وترس به نفسه، ولم يزل يقاتل حتى فتح الله عليه.

وصدق أبو بكر بعد سنين في وصف عليّ، عندما حدث المسلمين عن علي وعمر: إن علياً إذا اعترضته عقبة حاول اقتحامها، فإما كسرتها أو كسرها. أما عمر فإنه إذا صادفته عقبة دار لها.

وحمل الله فضائل الإسلام على يد علي، فلم يره أحد في موقف المنكسر، ولما استشهد في دفاعه عن هذه الفضائل كان الإسلام ينتصر.

وفي يوم حنين أعجبت المسلمين كثرتهم، فكادوا ينهزمون، وثبت الرسول، وقتل علي صاحب راية المشركين وأخذها منه، وكثر المسلمون عليهم فهزم موهم بإذن الله^٤.

ولما قتل خالد بنى خزيمة خطأً، وسباهم وهم مسلمون، بعث الرسول علياً فوداهم، ورد إليهم

١. تفسير القرطبي: ج ١٤ ص ١٣٤.

٢. شرح مسلم للنووي: ج ١٢ ص ١٣٥، تفسير مجمع البيان: ج ٦ ص ٢٩، تفسير القرطبي: ج ١٠٤ ص ١٠٤.

٣. صحيح البخاري: ج ٢ ص ١٩٧ باب مناقب علي، صحيح مسلم: ج ٢ ص ٢٧٨ باب فضائل علي، الإصابة: ج ٢ ص ٢٧٠، فتح الباري: ج ٧ ص ٣٢٤، مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ١٠٥، سنن الترمذي: ج ٢ ص ٢١٤، الاستيعاب: ج ٢ ص ٤٧٢، مستد أحمد: ج ٥ ص ٣٥٣، السيرة الحلبية: ج ٣ ص ٣٥، السيرة الدحلانية: ج ٢ ص ١٥٩، بهامش السيرة الحلبية، البداية والنهاية: ج ٤ ص ٨٥.

٤. ففي شرح الأخبار: ج ١ ص ٣١١، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «قتل علي بن أبي طالب عليه السلام بيده يوم حنين أربعين». وانظر الكافي: ج ٨ ص ٣٧٦.

أموالهم، وقال لهم: انظروا إن فقدتم عقلاً لأدينه، فهذا أمرني رسول الله ﷺ^١. وفي السنة التاسعة خرج رسول الله إلى تبوك، واستعمل علياً على المدينة، فسأل علي النبي في ذلك، فأجابه: «إنما خلقتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلقني في أهلي وأهلك، فأنت متي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي^٢...» فكان تخليفه عن هذه الغزوة تقديمًا له، إذ وضعه هارون من موسى ﷺ، أي في منزلة أخ الرسول من الرسول. وتتابع التقديم، إذ نزلت عشر آيات من صدر سورة «براءة» من عهد كلِّ مشرك لم يسلم أن يدخل المسجد الحرام بعد هذا العام، فقالوا للرسول: ابعث بها إلى أبي بكر - وكان علي الناس في حجِّ البيت الحرام - فقال عليه الصلاة والسلام «لا يؤذيها عني إلا رجل من أهل بيتي»^٣ وبعث علياً على ناقته ﷺ، فأدرك أبا بكر في الطريق، فسأله أبو بكر: هل جاء أميراً أو مأموراً؟ قال علي: بل مأموراً، فهو قد جاء بغرض خاص بتبليغ القرآن. أما إمارة الحاج فكانت لأبي بكر.

وفي كتب السنن: أن النبي بعد عودته من حجة الوداع نزل بغدير خم^٤ وأعلن أنه يترك القرآن و«عترته» للمسلمين^٥، ثم أخذ بيد علي ودعا ربه: «اللهم وال من والاه، وعاد من

-
١. مناقب آل أبي طالب: ج ١ ص ١٧٦، بحار الأنوار: ج ٢١ ص ١٤١ و ج ٣١ ص ٣٢٧، تفسير ابن كثير: ج ١ ص ٥٤٨، السنن للنسائي: ج ٥ ص ١٧٧.
 ٢. فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل: ص ١٣ - ١٤، صحيح البخاري: ج ٢ ص ١٩٧، صحيح مسلم: ج ٧ ص ١٢٠، سنن الترمذي: ج ٥ ص ٣٠٢، المستدرک: ج ٢ ص ٣٣٧، السنن الكبرى للبيهقي: ج ٩ ص ٤٠، مجمع الزوائد للهيتمي: ج ٩ ص ١٠٩، فتح الباري: ج ٧ ص ٦٠، الخصائص للنسائي: ص ١٧، الإصابة لابن حجر: ج ٤ ص ٥٦٨، وغيرها كثير.
 ٣. الدرر في المغازي والسير: ص ٢٥٠، تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٤٦، تفسير ابن كثير: ج ٢ ص ٣٣٣، خصائص النسائي: ص ٢، الأموال لأبي عبيد: ص ١٦٥، مسند أحمد: ج ٣ ص ٢١٢، ٢٨٣، الجامع للترمذي: ج ٢ ص ١٣٥، البداية والنهاية: ج ٥ ص ٣٨، المناقب للخوارزمي: ص ٩٩، شرح صحيح البخاري للقسطلاني: ج ٧ ص ٦٣٧، الدرر المنتور للسيوطي: ج ٣ ص ٢٠٩، كثر العمال: ج ١ ص ٢٤٩، تفسير الشوكاني: ج ٢ ص ٣١٩، روح المعاني للأوسمي: ج ٣ ص ٢٦٨، تفسير المنار: ج ١٠ ص ١٥٧، وغيرهم من حفاظ السنة والشيعنة كثير، وأوردتهم الأميني في الغدير: ج ٦ ص ٣٤٢ - ٣٤٦ وما بعدها.
 ٤. وهو الموضع المعروف الذي قام فيه النبي خطيباً بفضل الإمام علي.
 ٥. الخصائص للنسائي: ص ٧٠، المناقب لابن المغازلي: ص ٣٠ - ٣١، تفسير ابن كثير: ج ٤ ص ١٢٢، المستدرک عن الصحيحين مع تلخيص الذهبي: ج ٣ ص ٥٣٣ و ص ١٠٩، مسند أحمد: ج ٣ ص ١٧، سنن الدارمي: ج ٢ ص ٣١٠، سنن البيهقي: ج ٢ ص ١٤٨، البداية والنهاية: ج ٥ ص ٢٠٩.

عاداه»^١.

وكان للرسول كتابه، والمنقذون لأمره، والمفتون في حياته، ثقةً من الله والرسول في شجاعتهم وحكمتهم وسداد رأيهم، وفي كلِّ صفةٍ وكلِّ طائفة كان علي، فامتاز بهذه الخصيصة التي تحوي جماع خصائص أصحاب النبي.

فكُتِّبَ النبي: أبي بن كعب^٢، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت^٣، ومعاوية بن أبي سفيان^٤ وحظلة بن الربيع^٥.

١. مستند أحمد: ج ٥ ص ٥٠١ برقم ١٨٨٣٨، فضائل الصحابة: ص ١٥، خصائص النسائي: ص ٩٦، سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٢٨ - ٢٩، تاريخ الخطيب البغدادي: ج ١٤ ص ٢٣٦، تفسير الطبري: ج ٣ ص ٤٢٨، الاستيعاب لابن عبد البر: ج ٢ ص ٤٧٣، وعشرات الكتب إن لم نقل المئات التي روت حديث الغدير، قد أفرد له العلامة الأميني أحد عشر جزءاً في موسوعته المسماة بالغدير...، وقد روي عن مائة وعشرين صحابياً وأضعافهم من التابعين. وقد ذكر السيد علي الميلاني في كتبه «الغدير» ٤٣ رجلاً من مشاهير رواة حديث الغدير في القرون المختلفة، هو من الأحاديث المتواترة، بل لقد تجاوز حدَّ التواتر بأضعاف مضاعفة.

٢. أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجَّار من الخزرج؛ أبو المنذر، صحابي أنصاري. كان قبل الإسلام حبراً من أبحار اليهود، مطلعاً على الكتب القديمة، يكتب ويقرأ، ولما أسلم كان من كتَّاب الوحي. شهد بدرأً وأحدأً والخندق والمشاهد كلها مع الرسول، وكان يفتي على عهد، وشهد مع عمر ابن الخطاب وقعة الجابية، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس. وأمره عثمان بجمع القرآن، فاشترك في جمعه، وله في الصحيحين وغيرهما (١٦٤) حديثاً، مات بالمدينة سنة ٢١ أو ٢٠ هجرية. (الأعلام: ج ١ ص ٨٢).

٣. زيد بن ثابت بن الضحَّاك الأنصاري الخزرجي؛ أبو خارجة، صحابي من أكابرهم، كان كاتب الوحي. ولد في المدينة ١١ ق.هـ. ونشأ بمكة. وقتل أبوه وهو ابن ست سنين، وهاجر مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو ابن (١١ سنة). وتعلَّم وتفقه في الدين، فكان رأساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض، وكان عمر يستخلفه على المدينة إذا سافر، فقلماً رجع إلا أقطعه حديثه من نخل، وكان ابن عباس يأتيه إلى بيته للأخذ عنه، ويقول: العلم يؤتى ولا يأتي، وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الأنصار، وعرضه عليه، وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار. له في كتب الحديث (٩٢) حديثاً. توفي سنة ٤٥ هجرية، ورثاه حسان بن ثابت. (الأعلام: ج ٣ ص ٥٧).

٤. معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، مؤسس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار، ولد بمكة سنة ٢٠ ق.هـ، وأسلم يوم فتحها (٥٨) وتعلَّم الكتابة والحساب، فجعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كاتبه، ولما ولي عمر جعله والياً على الأردن، ورأى فيه حزمًا وعلمًا فولَّاه دمشق، فجمع له الديار الشامية، ولما قتل عثمان وتولَّى الإمام علي وجه أمره بعزل معاوية، وعلم معاوية بالأمر قبل وصول البريد، فنادى بثار عثمان وأتهم علياً بدمه، وبعد شهادة علي تسلم معاوية الخلافة بعد تنازل الحسن عنها سنة ٤١ هجرية، ودامت له الخلافة إلى أن بلغ سن الشيخوخة. (١٣٠) حديثاً في كتب

والمنفذون لأحكام - ومنها ضرب الأعناق بين يدي النبي -: علي، والزبير^٦، ومحمد بن مسلمة^٧.

والمفتون في عهده: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأبي بن كعب، وابن مسعود^٨، ومعاذ بن جبل^٩، وعمّار بن ياسر^{١٠}، وزيد بن ثابت، وسلمان^{١١}، وأبو الدرداء^{١٢}، وأبو موسى

→ الحديث. وهو أول مسلم ركب بحر الروم للغزو، وهو أول من جعل دمشق مقرّ الخلافة، وأول من اتخذ المقاصير المحصنة، وأول من اتخذ الحرس والحجّاب في الإسلام، وأول من نصب المحراب في المسجد. وكان يخطب جالساً. (الأعلام: ج ٧ ص ٢٦٢).

٥. حنظلة بن الربيع بن صيفي التميمي، صحابي، يقال له: (حنظلة الكاتب) لأنه كان من كتّاب النبي ﷺ وهو ابن أخي أكنم بن صيفي. شهد القادسية ونزل الكوفة، وتخلّف عن علي يوم الجمل، ونزل قريسياء (بين الخابور والفرات) حتّى مات في خلافة معاوية، نحو سنة ٤٥ هجرية (الأعلام: ج ٢ ص ٢٨٦).

٦. الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي: أبو عبد الله، الصحابي الشجاع، أول من سلّ سيفه في الإسلام، وهو ابن عمّة النبي ﷺ وله ١٢ سنة، شهد بدرأً وأحدأً وغيرهما، وكان على بعض الكراويس في اليرموك، وشهد الجابية مع عمر بن الخطاب. كان موسراً كثير المتاجر، خلف أملاكاً، وكان طويلاً جداً إذا ركب تخطّ رجلاه الأرض. قتله ابن جرموز غيلةً يوم الجمل بوادي السباع سنة ٣٦ هجرية. له (٣٨) حديثاً في كتب السنّة (الأعلام: ج ٣ ص ٤٣).

٧. محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري الحارثي: أبو عبد الرحمان، صحابي من الأمراء، من أهل المدينة، شهد بدرأً وما بعدها إلا غزوة تبوك. واستخلفه النبي ﷺ في بعض غزواته، وولاه عمر علي صدقات جهينة، واعتزل الفتنة في أيام علي، فلم يشهد الجمل ولا صفين، وكان عند عمر معداً لكشف أمور الولاة في البلاد، مات بالمدينة سنة ٤٣ هـ. (الأعلام: ج ٧ ص ٩٧).

٨. عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهزلي: أبو عبد الرحمان، صحابي، من أكابرهم فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله ﷺ، وهو من أهل مكّة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وكان خادم رسول الله الأمين، وصاحب سرّه ورفيقه في حلّه وترحاله وغزواته، يدخل عليه كلّ وقت ويمشي معه. نظر إليه عمر يوماً وقال: وعاء مليء علماً، وولي بعد وفاة النبي بيت مال الكوفة، ثم قدم إلى المدينة في خلافة عثمان، فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً (٣٢ هـ)، له (٨٤٨) حديثاً في كتب الحديث. (الأعلام: ج ٤ ص ١٣٧).

٩. معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي: أبو عبد الرحمان، صحابي جليل، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ. أسلم وهو فتى، وأخى النبي بينه وبين جعفر بن أبي طالب. وشهد العقبة مع الأنصار السبعين، وشهد بدرأً وأحدأً والخندق والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، بعثه رسول الله بعد غزوة تبوك قاضياً ومرشداً لأهل اليمن، له (١٥٧) حديثاً، توفي عقيماً بناحية الأردن سنة ١٨ هجرية، ودفن بالقصير المعيني. (الأعلام: ج ٧ ص ٢٥٨).

١٠. عمّار بن ياسر الكنانني المذحجي العنسي القحطاني: أبو اليقظان، صحابي من الولاة الشجعان ذوي الرأي، وهو

الأشعري ١٣.

ولمّا بعث النبي عليه الصلاة والسلام علياً إلى اليمن، قال علي: يا رسول الله، تبعني إلى اليمن ويسألونني عن القضاء ولا علم لي به، فضرب النبي بيده على صدره ثم قال: «اللهم ثبت لسانه واهد قلبه» قال علي: فو الذي خلق الحبة وبرأ النسمة، ما شككت في قضاء بين اثنين بعد ١٤. وهي خصيصة يدرك جلال اليقين فيها من ولي القضاء.

→ أحد السابقين إلى الإسلام والجهري به، هاجر إلى المدينة وشهد بدرأ وأحد الخندق وبيعة الرضوان، وكان النبي يلقبه (الطيب المطيب) وفي الحديث: «ما خير عتار بين أمرين إلا اختار أرحمهما» وهو أول من بنى مسجداً في الإسلام، بناه في المدينة وسماه قباء، وولاه عمر الكوفة، وشهد الجمل وصقن مع علي، وقتل في صفين سنة ٣٧هـ، وعمره ثلاث وتسعون سنة. (الأعلام: ج ٥ ص ٣٦).

١١. سلمان: صحابي من مقدّميه، كان يسمي نفسه سلمان الإسلام، أصله من مجوس إصهبان، عاش عمراً طويلاً، وقالوا: نشأ في قرية جيان، ورحل إلى الشام، فالموصل، فنصيبين، فعمورية، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود، وقصد بلاد العرب، فلقبه ركب من بني كلب فاستخدموه، ثم استعبده وباعوه، فاشتراه رجل من قريضة فجاء به إلى المدينة. وعلم سلمان بخير الإسلام، فقصد النبي ﷺ بقاء، وسمع كلامه. كان قوي الجسم، صحيح الرأي، عالماً بالشرائع، وهو الذي دلّ المسلمين على حفرة الخندق، حتى اختلف عليه الأنصار والمهاجرون، كلاهما يقول: سلمان منا، فقال رسول الله: سلمان منا أهل البيت. وكان أميراً على المدائن، فأقام فيها إلى أن توفي سنة ٣٦هـ. وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به، ينسج الخوص ويأكل الخبز الشعير من كسب يده، قال عنه أمير المؤمنين: امرؤ منا وإلينا أهل البيت، من لكم بمثل لقمان الحكيم، علم العلم الأول والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر، وكان بحرأ لا ينزف. (الأعلام: ج ٣ ص ١١١).

١٢. أبو الدرداء عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، صحابي، من الحكماء الفرسان القضاة. كان قبل البعثة تاجراً في المدينة، ثم انقطع للعبادة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك، ولآه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أول قاضٍ بها، قال ابن الجزري: كان من العلماء الحكماء، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً على عهد النبي ﷺ بلا خلاف، توفي في الشام سنة ٣٢هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ٩٨).

١٣. عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب: أبو موسى من بني الأشعر من قحطان، صحابي، من الشجعان الولاية الفاتحين، وأحد الحكمين. ولد في زيد باليمن سنة ٢١ ق. هـ، وقدم مكة عند ظهور الإسلام فأسلم وهاجر إلى أرض الحبشة، ثم استعمله رسول الله ﷺ على زيد وعدن، وولاه عمر ابن الخطاب البصرة سنة ١٧هـ، فافتتح إصهبان والاهواز، وولاه عثمان على الكوفة، وأقره علي عليها. وكان قد جبن الناس عن نصرته علي في الجمل، فغزاه علي، وخذعه عمرو بن العاص في التحكيم، فارتد إلى الكوفة وتوفي فيها سنة ٤٤هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ١١٤).

١٤. مسند أحمد: ج ١ ص ٨٣، الخصائص للنسائي: ج ١١، تاريخ بغداد: ج ١٢ ص ٤٤٣، تذكرة الخواص: ص ٤٩، تاريخ دمشق: ج ٤٢ ص ٢٨٩، أسد الغابة: ج ٤ ص ٢٢، مستدرک الحاکم: ج ٣ ص ١٤٦.

بين الخلفاء الراشدين

صعدت روح رسول الله إلى الرفيق الأعلى وعلي بطل جيوشه غير منازع، وكان قد درّبه على القضاء والإفتاء، فهاتان الوظائفان هما أسمى عملٍ في الدول، وبخاصة في الدولة المسلمة، حيث الحفاظ على الشريعة، وإدارة الدول وسياسة الأمم، واستقرار النظم، واطمئنان الجماعة واجبات دينية، والإفتاء يعدل التشريع في أيامنا هذه، والقضاء هو توزيع العدالة، والعدل صفة الله سبحانه.

لقد بعثه إلى اليمن، فقضى، وله قضاء مشهور عُرض على النبي فاستحسنه، وله السؤال المشهور يومذاك إذ سأل: أكون كالسكة^١ المحمّاة أو الشاهد يرى ما لا يراه الغائب؟ فأجابه عليه الصلاة والسلام: «بل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب»^٢. فدلّ بذلك على تفويضه في أن يجتهد، وأن يعمل بمقاصد الشريعة... وكان أيامئذٍ في عنقوان شبابه، فلم يفارقه الاجتهاد العظيم للأمة في كل مناسبة تقتضي الاجتهاد.

وبالتربية النبوية في القضاء والإفتاء نفذ علي إلى صميم الفكر التشريعي في الأمة، أي صميم شريعة الإسلام، فاحتاج أبو بكر وعمر إليه في جوارهما، ليشير عليهما ويقضي ويفتي.

أمّا فتاواه التشريعية فستبقى مثلاً أعلى للفكر الإسلامي في سياسة الدولة وسياسة الناس. إذا اشتهر عمر بأنه المجتهد الأكبر من كثرة ما واجه من ظروف طارئة على الدولة المنتصرة في الشرق والغرب، ومن طول ما حكم وهو خليفة، واتّسع ما فتح من الفتوح، واختلاف من أسلم من أهل البلاد المفتوحة، فعلي كان يصحّح الكثير للمجتهد الأكبر، وفي ذلك الحجّة القاطعة على أنه في أسمى وظائف الفكر، وهما التشريع والقضاء، كان بدوره مجتهداً أكبر.

إليك قليلاً من الأمثال، تخيّرناها من أمور معلّمة في الدين والفقّه والسياسة:

١. السكة: حديدة تحرث بها الارض. (صاحح الجوهري: مادة سلك).

٢. نوادر المعجزات لمحمد بن جرير الطبري: ص ١٧٧، دلائل الإمامة له أيضاً: ص ٣٨٧، رسالة حول خبر مارية للمفيد: ص ١٧، الأمالي للشيخ الطوسي: ٣٣٨، بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٥٣، مسند أحمد: ص ٨٣، مجمع الزوائد للهيتمي: ج ٤ ص ٣٢٩، كنز العمال: ج ٥ ص ٧٧٣، ١٤٣٤٥، فيض القدير للمناوي: ج ٤ ص ٢٢٦، الفصول في الأصول للخصّاص: ج ٤ ص ٢٧، الإحكام لابن حزم: ج ٣ ص ٢٦٨، التاريخ الكبير للبخاري: ج ١ ص ١٧٧، تاريخ دمشق: ج ٥٤ ص ٤١٦، أسد الغابة: ج ٥ ص ٥٥٤، البداية والنهاية: ج ٥ ص ٣٢٥.

❖ منع عمر تدوين الحديث^١ مخافة أن يخلط القرآن بشيء، وبهذا أبطأ التدوين عند أهل السنة قرناً بتمامه، وانفتحت أبواب للجرح والتعديل، وللوضع، وللضياح. أما علي فدوّن من أول يوم مات فيه الرسول، ولعلّه إذ دوّن صار مرجع الصحابة، بما فيهم عمر. وهذا الاتجاه العلمي للتدوين، يؤازره اتجاه ديني وفقهي وسياسي واقتصادي؛ لتوزيع الحقوق.

❖ قال عمر للناس يوماً: ما ترون في فضل فضل عندنا من هذا المال (مال الصدقة)؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، قد شغلناك عن أهلك وضيعتك، فهو لك، فالتفت إلى علي وقال: ما تقول؟ قال: قد أشاروا عليك، قال عمر: قل، قال علي: لِمَ تجعل يقينك ظناً؟ أتذكر حين بعثك رسول الله ﷺ ساعياً، فأتيت العباس بن المطلب فمنعك صدقته، فقلت لي: انطلق إلى رسول الله ﷺ، فوجدناه خائراً^٢، فرجعنا، ثم غدونا عليه فوجدناه طيب النفس، فأخبرناه بالذي صنع، فقال لك: أما علمت أنّ عم الرجل صنو أبيه؟ وذكرنا الذي كان من طيب نفسه في اليوم التالي، فقال: أما أنكما أتيتماني اليوم وكان عندي من الصدقة ديناران، فكان الذي رأيتماه من خثوري له، وأتيتماني اليوم وقد وجهتما غداً (صباح اليوم) فذاك الذي رأيتماه من طيب نفسي^٣.

❖ ودعا عمر امرأة فأجهضت مافي بطنها بفزعها، فاستشار في الدية، فقال له عثمان وعبد الرحمان: لا عليك، إنّما أنت مؤدّب، وقال علي: إن كانا قد اجتهدا فقد أخطأ، وإن لم يجتهدا فقد غشاك. أرى عليك الدية، فقال عمر: عزمت عليك ألا تبرح حتى تفرضها على بني عدي^٤. وهذه الفتوى تعتبر تقدماً تحاول أن تبلغه الحضارة المعاصرة، ولا تكاد.

❖ ورأى عمر ذات يوم رجلاً مع امرأة على معصية، فاستشار في أن يقضي بعلمه أم لا بدّ من شهادة غيره؟ قال علي: يأتي بأربعة شهداء، أو يُجلد حدّ القذف، شأنه في ذلك شأن

١. راجع تاريخ المدينة المنورة لابن شبة: ج ٣ ص ٨٠٠، وكنز العمال: ج ٢ ص ٢٨٥، وتذكرة الحفاظ: ج ١ ص ٧، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٣ ص ١٢٠، وسنن ابن ماجه: ج ١ ص ١٢، وطبقات ابن سعد: ج ٦ ص ٢، والمستدرک: ج ١ ص ١٠٢.

٢. أي ثقيل النفس، غير طيب ولا نشيط. راجع النهاية: ج ٢ ص ١١.

٣. مسند أحمد: ج ١ ص ٩٤ و ج ٢ ص ٧٢٤، تاريخ دمشق: ج ٣٨ ص ٧٤، مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٢٣٨، مسند أبي يعلى: ج ١ ص ٤١٥، أمالي المحاملي: ص ١٧٥، كنز العمال: ج ٧ ص ١٩٢.

٤. الإحكام للأمدى: ج ٣ ص ٢٧، الأصول للسرخسي: ج ١ ص ٣٠٤، المغني لابن قدامة: ج ١٢ ص ١٤٩.

سائر المسلمين^١.

❖ ولما فتح المسلمون الأمصار، طلب الفاتحون لأنفسهم أربعة أخماس الأراضي المفتوحة؛ أخذاً بظاهر الآية، فاستشار عمر الصحابة، فاختلّفوا، لكن علياً كان من الرأي الذي أخذ به عمر، وهو إبقاء الأرض في أيدي أصحابها، وتكليفهم الخراج تسدّ من حصيلته حاجات الدفاع عن الأمة، والإنفاق على المحتاجين^٢. وفي بقاء الأرض في أيدي أصحابها بقاء لهم أو لمن يجيئون بعدهم، وأثر هذه الفتوى في نشر الإسلام يذكر ويشكر.

❖ وعلي صاحب الرأي الشهير بتضمين الصنّاع ما يتلفونه، إلا أن يثبتوا أنه من عمل غيرهم بعد إذ كانوا لا يضمنون؛ لأنّ يدهم يد الأمين^٣، لكن الزمان تغيّر فاقضى تغيّر الناس التضمين، وفي ذلك قول علي: لا يصلح الناس إلا ذلك^٤. وهذا مضرب المثل على العمل بقصد الشارع من حفظ مصالح المسلمين وتوخي المصلحة الإسلامية حيث تكون.

❖ ورفعت إلى عمر قضية رجل قتلته امرأة وخليلها، فتردّد هل يقتل الكثيرين بالواحد؟ قال علي: رأيت لو أن نفراً اشتركوا في سرقة جزور، هذا عضواً وهذا عضواً، أكنت قاطعهم؟ قال: نعم، قال علي: فكذلك. فكتب عمر إلى عامله: أن اقتلها، فوالله لو اشترك أهل صنعاء كلّهم لقتلتهم^٥.

❖ وجيء عمر يوماً بأمرأة زنت وأقرت، فأمر برجمها، لكن علياً قال: لعلّ بها عذراً، ثم سألتها: ما حملك علي ما فعلت؟ قالت: كان لي خليط وفي إبله ماء ولين، ولم يك في إبلي ماء ولا لين، وظممت واستسقيته، فأبى أن يسقيني حتّى أعطيه نفسي، فأبيت عليه ثلاثاً، فلما ظممت وظننت نفسي ستخرج أعطيته الذي أراد، فسقاني، قال علي: الله أكبر ﴿فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾^٦.

١. الفتوحات الإسلامية لزينبي دحلان: ج ٢ ص ٤٨٢، كنز العمال: ج ٥ ص ٤٥٧ ح ١٣٥٩٧.

٢. المغني لابن قدامة: ج ٥ ص ٥٥٤، الشرح الكبير: ج ٥ ص ٥٤٦ ج ١٠ ص ٥٣٨، كشف القناع: ج ٣ ص ١٨٤، شرح مسلم للنووي: ج ١٠ ص ٢١١.

٣. المقنعة للشيخ المفيد: ص ٤٦٣، والمدونة الكبرى: ج ٤ ص ٣٨٧.

٤. كنز العمال: ج ٣ ص ٩١٧٩، وقد نقل سيد سابق في فقه السنّة: ج ٣ ص ١٩٨ عن البيهقي ذلك.

٥. فقه السنّة لسيد سابق: ج ٢ ص ٥٣١، المصنف للصنعاني: ج ٩ ص ٤٧٧، الفائق في غريب الحديث: ج ٣

ص ٣٩٧، الأحكام لابن حزم: ج ٧ ص ١٠٢٥.

٦. الطرق الحكيمة لابن القيم الجوزية: ص ٥٣، كنز العمال: ج ٣ ص ٩٦ نقلاً عن البغوي. والآية: ١١٥ من سورة

* لقد كان عمر على الحق، إذ أمر ألا يفتي أحد بالمسجد وعلي حاضر، فجعل القضاء وفقاً عليه في ساحة القضاء.

* وكان يقول: اللهم لا تنزل بي شديدة إلا وأبو الحسن إلى جنبي^{٢١}. بل يحيل سائله على علي، ويجيب أذينة العبد^٣ إذ يسأله: من أين أعتمر؟ إيت علي بن أبي طالب فاسأله^٤. بل يقول: لولا علي لهلك عمر^٥.

ولعلي عهده المشهور إلى الأشتر^٦ النخعي^٧ إذ وآه مصر، فهو دستور سياسي وديني

→ التحل.

١. وفي رواية (لا تراني شدة) الرياض النضرة: ج ٢ ص ٥٠ و ١٩٤، ذخائر العقبين: ص ٨٢، كفاية الشنقيطي: ص ٥٧، وخزجها ابن حزم في المحلى: ج ٧ ص ٧٦ مسنداً عن ابن أذينة العبدي.
٢. لا يتسع المقام في هذا الباب إلا لبعض أمثال:

* قاضاه خصم إلى عمر، وناداه عمر: قم يا أبا الحسن، ولاحظ عمر أنه تألم فسأله، فقال: «تألمت إذ كنتي ولم تكن خصمي، فلم تسو بيننا».

* وقاضاه يهودي - وهو خليفة - في درع، ولم تكن للخليفة بيعة، ففضى القاضي ضده، فأسلم اليهودي لما رأى من العدل.

* وأودع قرشيان مائة دينار لدى قرشية، على ألا تدفعها لأحدهما دون الآخر، وليثا حولاً، ثم جاء أحدهما وادعى أن الآخر مات، فدفعت إليه المال، ثم جاءها الآخر فأخبرته، فترافعا إلى علي، وعرف علي أن الرجلين مكرها، فقال للرجل: أليس قلتما لها: لا تدفعي لواحد دون صاحبه؟ قال: بلى، قال: اذهب فجيء بصاحبك، فذهب ولم يرجع.

وهذه اللفتات المرتجلة تصدر عن وحدة فكرية في أمور الإثبات والإجراءات وإدارة الجلسات، وهي دلائل متضاربة على اقتدار مقطوع القرن، لعقل قضائي أجمع الصحابة العظماء على أنه أقضاهم. (منه).

٣. أذينة العبدي، هو ابن سلمة بن الحارث، ولي قضاء البصرة، وكان رأس عبد القيس في زمن عثمان، ثم أدرك الجمل فكان له فيها ذكر. قال بعضهم: لا تثبت له صحة، وادعاه بعضهم مرسل، وقال بعض: هو تابعي من أهل الكوفة، وهو أعلم بأهل بلده من غيره. روى عن عمر، وروى عنه ابنه عبد الرحمان، وكذا روى عن النبي. (أسد الغابة: ج ١ ص ٥٨).

٤. المحلى: ج ٧ ص ٧٥، الاستيعاب: ج ٣ ص ١١٠٣ و ١١٠٦، الرياض النضرة: ج ٣ ص ١٦٢، ذخائر العقبين: ٧٩، أرجح المطالب: ص ١٢١.

٥. الاستيعاب: ج ٣ ص ٣٩ و ١١٠٣، الرياض النضرة: ج ٣ ص ١٩٤، مناقب الخوارزمي: ص ٤٨، شرح الجامع الصغير للشيخ محمد الحنفي: ص ٤١٧، تذكرة الخواص: ٨٧، مطالب السؤول: ص ١٣، فيض القدير: ج ٤ ص ٣٥٧، ينابيع المودة: ج ٣٩ ص ١٤٧، البداية والنهاية: ج ٧ ص ٣٥٩، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ١٧١.

٦. هو مالك بن الحارث بن عبد يقوث النخعي، المعروف بالأشتر، أمير من كبار الشجعان، كان رئيس قومه، أدرك

وعالمي، يضؤل دونه كلّ العهود، بما فيه من شمول وتفصيل لقواعد الحكم الصالح، وإليه يرجع كلّ من أراد نجاحاً للحكم بصلاح الدنيا والدين. والمصريّون - مسلمين ومسيحيّين - يحفظون قوله فيه لواليه: «واشعر قلبك الرحمة بهم، والمحبة لهم، واللفظ بهم، ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تفتنم أكلهم، فإنهم: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل»^٨.

* وعلي هو الذي يضبط فحوى الشرع ويرفعه إلى مقامه الحقّ في تعريفه للفقيه، فيقول للمسلمين: «ألا أنبئكم بالفقيه، حقّ الفقيه؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخّص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم من مكر الله»^٩.

* * *

كان منذ شبابه الذي أنضجته أحداث النزال والطعان في الميدان، أعبد الناس، وأكثرهم في عبادته جمعاً مع الله، لا يقطع صلاته والسهام تقع بين يديه يميناً وشمالاً، يربط على بطنه من الجوع في حين يتصدّق بأربعة آلاف درهم، وعليه إزار غليظ اشتراه بخمسة دراهم. أمّا قوته فمن دقيق الشعير، يأخذ قبضةً فيضعها في الماء فيصبّ عليها قدحاً فيشربه... وفي يده كلّ مال المسلمين!

ولمّا أصهر عمر إليه في «أم كلثوم»^{١٠} كان يتوسّل إلى الآخرة بلحمة النسب، فلقد كان

→ الجاهلية، وأول ما عرف عنه أنه حضر خطبة عمر في الجابية، وسكن الكوفة، وله نسل فيها، شهد اليرموك وذهبت عينه فيها، شهد يوم الجمل وأيام صفّين مع علي، وولاه علي مصر، فقصدّها، فمات في الطريق (٥٣٨هـ)، فقال علي: «رحم الله مالكاً، فلقد كان لي كما كنت لرسول الله». وله شعر جيد، ويعدّ من الشجعان الأجواد العلماء الفصحاء. (الأعلام: ج ٥ ص ٢٥٩).

٧. الأشر أول من عبّر التعبير الشهير في شأن معاوية حين سُئل: أشهد معاوية بداراً؟ فأجاب: نعم، من الجانب الآخر، أي جانب المشركين (منه).

٨. نهج البلاغة ضبط صحبي الصالح: ص ٤٢٧ الكتاب (٥٣)، تحف العقول للحراني: ص ١٢٧، شرح النهج لابن أبي الحديد المعتزلي: ج ١٧ ص ٣٢.

٩. ينابيع المودة: ج ٢ ص ٤١٦، تذكرة الحفاظ للذهبي: ج ١ ص ١٣، الدرّ المنتور للسيوطي: ج ٥ ص ٣٣٢، نظم در السمتين للزرندي الحنفي: ص ١٥١، سنن الدارمي: ج ١ ص ٨٩، حلية الأولياء: ج ١ ص ٧٧، كنز العمال: ج ١٠ ص ٢٦٢ ح ٢٩٢٨٧، الصواعق المحرقة: ١٣٠.

١٠. إن قضية تزويج أم كلثوم من عمر لم تثبت تاريخياً، لا رواية ولا رواية، حيث إنّها لم ترد في صحاح السنّة، بل

يقول: لقد أعطي علي بن أبي طالب ثلاث خصال، كلّ خصلة منها أحبّ إليّ من حمر النعم: تزويجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وسكنائه المسجد مع رسول الله يحلّ فيه ما يحلّ له...^١. ولم يبرح عمر المدينة في خلافته إلا استخلف عليها، فلقد كان ذلك سنّة عنده.

أليس صاحبهما ﷺ كان يستخلفه إذا برح المدينة؟

وعلي باب مدينة العلم، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأتِ بابه»^٢.

وهو إمام البلاغة، يجيء معاوية رجل من الكذبة^٣ فيقول له: جئتك من عند أعيان الناس - يقصد علياً - فيجيب معاوية، وهو أعدى الناس لعلي: ويحك، فوالله ما سنّ الفصاحة للناس غيره^٤. كيف لا وبلاغته من بلاغة النبي؟ مذ كان فكره من فكره، وكان قد ربّاه فأحسن

→ ولم ترد في الكتب الحديثية المعتمدة والأسانيد المعول عليها، وإنما وردت في بعض الكتب التاريخية. وكلّهما مناقش في سندها، إذ هي ضعيفة سنداً. وأمّا ما ورد في كتب الشيعة من الروايات فهي على ثلاثة أصناف:

١- ما كان منها ضعيف سنداً، ولا يعتدّ به.

٢- ما كانت غير مقبولة من حيث المضمون بأنّ الله زوج جنيّة تشبّهت بأم كلثوم.

٣- ما كانت صحيحة السند، وهي على نوعين: ما كانت مؤولة، وما كانت معارضة بروايات تكذّب خير التزويج. هذا ما يمكن أن يقال في أسانيد الروايات. أمّا من حيث دلالتها فهي بصورها المختلفة مخالفة للأدب الاجتماعية والعرفية والضوابط الشرعية التي لا تليق بأمر المؤمنين علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب، وقد صنّف علماء الشيعة عدّة كتب في ردّ هذه القضية. راجع في ذلك: تزويج أم كلثوم من عمر للسيد علي الميلاني، كشف البصر للسيد محمد علي الحلو. وقد ذكر السيدان جملة من الأدلة على ذلك، وأشاروا إلى بعض المصادر التي كتبت عن هذه الواقعة التاريخية منها:

نفي زواج أم كلثوم من عمر للسيد المقرّم، عدم تزويج أم كلثوم من عمر لمحمد جواد البلاغي، إقحام الأعداء والخصوم للسيد ناصر الهندي، الكنز المكتوم للسيد علي أظهر النقوي، العقد المنظوم لمحمد حسنين سابق، السرّ المختوم في ردّ زواج أم كلثوم للعلامة محمدان شاء الله الحنفي، وهو من علماء أهل السنّة.

١. والثالثة هي الراية يوم خيبر. راجع مسند أحمد: ج ٢ ص ١٤٤، الصواعق المحرقة: ١٢٧، البداية والنهاية: ج ٧ ص ٣٥٤، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٢١، وقال: رواه أبو يعلى في الكبير.

٢. لقد نقل الحديث جمع كثير من أئمة السنّة وحفّاظهم في الصحاح والمسانيد بطرق متعدّدة، وقد أرسلوه إرسل المسلمّات، وقد عدّ المحقّق الأميني منهم مائة وثلاثة وأربعين مصدراً، فإذا أردت الاستزادة فارجع إلى الغدير: ج ٦ ص ٦١-٧٧.

٣. وهو ابن أبي محضن.

٤. الأربعين لمحمد طاهر: ص ٤١٩، بحار الأنوار: ج ٤١ ص ١٤٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج ١ ص ٢٥، إرشاد الطالبين: ص ٣٦٤، الطرائف لابن طاوس: ص ٥١٥.

تأديبه، حتّى ليعيا بلغاء العرب عن فهم المعنى النبوي ويراها علي يادي الرأي.

شكا العباس بن مرداس^١ للنبي قسمه من الفيء بقوله:

أتجعل نهبي ونهب العبيد كنهب عيينة والأقرع

والعبيد فرس الشاعر، وعيينة بن حصن^٢ والأقرع بن حابس^٣ من المؤلفة قلوبهم، قال عليه الصلاة والسلام: «يا علي اقطع لسانه» فأخذه علي ومضى، قال العباس: أقطع أنت لساني يا أبا الحسن؟ قال علي: إني لممض فيك ما أمر. ثم مضى به إلى إبل الصدقة وقال له: خذ ما أحببت^٤.

ومن نهج بلاغته يسقى بلغاء العربية وحكماء الإسلام، ومن تعليمه وضع النحو العربي^٥.

١. العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمى، من مضر؛ أبو الهيثم، شاعر، فارس، من سادات قومه. أمه الخنساء الشاعرة، أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم قبيل فتح مكة، وكان من المؤلفة قلوبهم. ويدعى فارس السعيد - بالتصغير - وهو فرسه، وكان بدوياً قحاً، لم يسكن مكة ولا المدينة، وإذا حضر الغزو مع النبي ﷺ لم يلبث بعده أن يعود إلى منازل قومه، وكان ينزل في بادية البصرة، وبيته في عقيقها، وكان ممن ذم الخمر وحرّمها في الجاهلية، ومات في خلافة عمر سنة ١٨ هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ٢٦٧).

٢. عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، يقال: كان اسمه حذيفة فلقب «عيينة» لشجّة أصابته فجحطت عيناه. صحابي من المؤلفة قلوبهم، ولم تصح عنه رواية. أسلم قبل الفتح، وكان ممن ارتدّ في عهد أبي بكر، ومال إلى طلحة فبايعه، ثم عاد إلى الإسلام، وكان فيه جفاء البادية، يقال له: الأحق المطاع في قومه. (الإصابة: ج ٤ ص ٦٢٨).

٣. الأقرع بن حابس بن عقّال بن محمد بن سفيان التميمي المجاشعي الدارمي، وفد على النبي ﷺ وسلم، وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف، وهو من المؤلفة قلوبهم، وقد حسن إسلامه. كان حكماً في الجاهلية. (الإصابة: ج ١ ص ٢٥٢).

٤. تردّد الرواة بنقل هذه الرواية بين الإمام علي عليه السلام وبين بلال الحبشي، فقد ذكرها المجلسي في البحار: ج ٢١ ص ١٦٠ - ١٧١ بحقّ الإمام علي عليه السلام، وذكرها آخرون بحقّ بلال من مثل: حاشية رد المحتار: ج ٦ ص ٧٤٥، كنز العمال: ج ٣ ص ٨٤٨، تاريخ دمشق: ج ٣٧ ص ٣١٩، تاريخ جرجان للسهمي: ص ٢٨١، النهاية في غريب الحديث: ج ٤ ص ٨٣.

ومنهم من ذكرها بحقّ رجل من أصحاب النبي لم يعرف باسمه، فذهب الصحابي ليقطع لسانه بالنكين إلا أنّ علياً عليه السلام أدركه، وقال له: المراد: أحسن إليه. راجع شرح أصول الكافي للمازندراني: ج ١٠ ص ٢٨٠.

٥. روى الأنباري في تاريخ الأدياء أنّ سبب وضع علي كرم الله وجهه لهذا العلم ما روى أبو الأسود الدؤلي (٦٧ هـ) حيث قال: دخلت على أمير المؤمنين علي فوجدت في يده رقعة، فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعني الأعاجم) فأردت أن أضع شيئاً يرجعون إليه،

ووضع النحو بتعليم علي يذكر بالمكانة الخاصة لعلي في علوم الإسلام، فالنحو العربي هو الذي حفظ العربية، لغة القرآن، وهو أمر أصولي للغة، كأصول الفقه، وسنرى موقفه المبدع فيها.

وكذلك كانت مواقف علي بعد ظهور الإسلام، وفي خلافة سائقيه، تتصدى للأساسيات في الإسلام. لقد كان أطول الراشدين حياة في الإسلام، مما يظهر أثره عميقاً، عمق الحوادث والعلوم وأثرها في الإسلام، وطويلاً لطول المدة التي حياها في المراكز الأولى منذ ظهور الإسلام.

وربما أجمل القول في مكان علي بين المسلمين قول ابن عباس: «لعلي أربع خصال ليست لأحدٍ غيره: هو أول عربي أو أعجمي صلّى مع رسول الله ﷺ، وهو الذي كان لواؤه معه يوم الزحف، وهو الذي صبر معه يوم فرّ غيره، وهو الذي غسله فأدخله قبره»^١.

→ ثم ألقى إليّ الرقعة ومكتوب فيها: (الكلام كلّ اسم وفعل وحرف. فالاسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبأ به. والحرف ما أفاد معنى) وقال لي: انح هذا النحو، وأضف إليه ما وقع عليك، وأعلم يا أبا الأسود أنّ الأسماء ثلاثة.. ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر: وإمّا يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر (أراد بذلك الاسم المبهم) قال: ثم وضعت بابي العطف والنعته، ثم بابي التعجب والاستفهام، إلى أن وصلت إلى باب «إن» وأخواتها، فكتبها ما خلا «لكن» فلما عرضتها على أمير المؤمنين عليه السلام أمرني بضم «لكن» إليها. وكلما وضعت باباً من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية. فقال: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت! فلذا سمي النحو.

وإنّ المرء ليلاحظ أنّ هذا الفتح العظيم في العلم كان من اهتماماته وهو أمير للمؤمنين، ليس لديه يوم واحد خلا من معركة أو استعداد لمعركة، وأنّ أبا الأسود هو واضع علامات الإعراب في المصحف في أواخر الكلمات بصيغ يخالف لون المداد الذي كتب به المصحف، فجعل علامة الفتح نقطة فوق الحرف، والضم نقطة إلى جانبه، والكسر نقطة في أسفله، والتنوين مع الحركة نقطتين. ثم وضع نصر بن عاصم (٨٩هـ) تلميذ أبي الأسود النقط والشكل لأوائل الكلمات وأواسطها، ثم جاء الخليل بن أحمد (١٧٥هـ) فشارك في إتمام بقية الإعجام. والخليل شيعي كأبي الأسود، وهو واضع علم العروض، وصاحب المعجم الأول، وواضع النحو على أساس القياس. فاللغة العربية مدينة لعلي وتلاميذ علي، وكملها البلاغة العربية. وعلي معدود من خطباء التاريخ العالمي بخطبه والمناسبات التي دعت إليها. (منه).

١. المستدرك على الصحيحين: ج ٣ ص ١١١، الاستيعاب لابن عبد البر: ج ٣ ص ٢٧، شواهد التنزيل: ج ١ ص ١١٧، تاريخ دمشق: ج ١ ص ١٦١، تلخيص المستدرك للذهبي المطبوع بهامش المستدرك: ج ٣ ص ١١١، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٤٦، مسند أبي يعلى: ج ٦ ص ١٦٩، الطبقات لابن سعد: ج ٢ ص ٢٦٣، ذخائر العقبى: ص ٥٩، ٨٦. كفاية الطالب للمحافظ الكننجي: ص ١٩٣، الرياض النضرة: ج ٢ ص ٢٠٢، المناقب للخوارزمي: ص ٥٨.

أما عن العلم فيقول ابن عباس: «إذا ثبت لنا الشيء عن علي لم نعدل إلى غيره»^١. وأما عن العدل فيقول ابن مسعود معلّم الكوفة وسادس المسلمين: «كنا نتحدّث أنّ أفضى أهل المدينة علي»^٢.

من أجل هذا وكثير غيره، صحّ عند الشيعة: أنّ النبي أفضى إليه بظاهر الشريعة وخافئها، وإنه أفضى بها إلى من خلفه.

وليس يملك أحد أن يفاضل بين الخلفاء الراشدين الأربعة إلا باجتهادات تحتل الخطأ والصواب، لقد بايعهم المسلمون بيعتةً صحيحةً، وبايع علي الثلاثة السابقين عليه، فكانت بيعته شهادةً لهم وله، فلهم جميعاً مكانة الراشدين التي يؤمّم الله إياها في الزمن الذي أرادها. ومن الحكمة أن ندرأ أسباب المراء والشحناء، فننتهي عن المفاضلة بين السابقين الأولين إلا لحاجة، وأولى الناس بذلك الصحابة الذين أمرنا بالاستغفار لهم، وآلا نجعل في قلوبنا غلاً لهم.

ولئن فاضل الأشعري والغزالي وبعض المتكلمين بين الخلفاء الراشدين، فرتّبوهم على حسب ترتيب استخلافهم^٣، فربّما كان الأرجح أنّ مجيء علي في آخر الخلفاء الأربعة تنحصر دلالاته في أنّ الله تعالى أجاءه إلى حيث كان دوره - لا مرتبته - هو الرابع، والله الحكمة البالغة.

وعلي في كثير من الأمور هو الأوحّد، فالنبي هو الذي ربّاه، وآخاه، وأعدّه للعظائم فصنعها، وعهد إليه في تبليغ آي القرآن...، وهي جميعاً خصوصيات لا يرقى رقيه فيها أحد. أمّا ما لم يشركه فيه بشر فهو ما أجمعت عليه كتب الشيعة، وشاركها فيه كثيرون من علماء أهل السنّة منذ القرون الأولى؛ كالمسعودي^٤ والحاكم^٥ والكنجي^٦، حتّى القرون الحديثة؛

١. الاستيعاب: ج ٣ ص ١١٠٤، ينابيع المودة: ص ٣٧٢، فتح الباري: ص ١٣٧، أسد الغابة: ج ٤ ص ٢٣، الصواعق

المحرقة: ص ٧٦، تاريخ دمشق: ج ٣ ص ٤٥، تهذيب الأسماء واللغات للنووي: ج ١ ص ٣٤٤.

٢. الاستيعاب: ج ٣ ص ١١٠٣، المستدرک للحاكم: ج ٣ ص ١٣٥، أسد الغابة: ج ٤ ص ٣٢٢، الرياض النضرة: ج ٢

ص ١٩٨، تاريخ الاسلام للذهبي: ج ١ ص ١٩٩، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ٦٦، ينابيع المودة: ص ٢٨٦، نور

الابصار للشبلنجي: ص ٧٤، تاريخ دمشق: ج ٣ ص ٣٤، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١١٦، فتح الباري: ج ٨ ص ٥٩،

شواهد التنزيل: ج ١ ص ٢٤.

٣. راجع فتح الملك العلي لأحمد بن صديق المغربي: ص ١٥٧ و ١٥٨ - ١٥٩.

٤. مروج الذهب: ج ٢ ص ٤.

كالألوسي^٧، وهو أن علياً ولد بالكعبة^٨.

وإذا كان للصدّيق مكان الصّدّيقية، فعلي قولهُ عليه الصلاة والسلام: «علي منّي وأنا منه»^٩.

وإذا كانت لعمر مكانة الفاروق، فعمر نفسه كان يتمنّى لو كان له واحدة من ثلاثة من خصال علي^{١٠}.

وإذا كان عثمان ذا النورين بإصهاره إلى النبي في زوجتين لعثمان، فعلي وحده صاحب النسب والعقب الباقي من رسول الله.

لقد كان الحسن والحسين يسمّيان الرسول أباهما، كما كان الرسول يسمّيهما ابنه طول حياته. ولم يناديا علياً بأنّه أبوهما إلا بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى رسول الله ﷺ.

الشيعة

لعلي - علي ما رأينا - من فضل الله ما سلّمه الجميع له، وتؤثره من جرّائه الشيعة منذ القرن الأول، أي جيل الصحابة، ثم تلاحق عليه الجيلان التاليان، وهي الأجيال الثلاثة

٥. المستدرك: ج ٣ ص ٤٨٣.

٦. الكفاية: ص ٢٦٦ و ٢٦١.

٧. في كتابه شرح الخريدة الغيبية في شرح القصيدة العينية: ص ١٥ و ٧٥ وقال: وكون الأمير كرم الله وجهه ولد في البيت أمر مشهور في الدنيا. وذكر في كتب الفريقين: السنّة والشيعة.... ولم يشتهر وضع غيره كما اشتهر وضعه، بل لم تتفق الكلمة عليه، وما أحرى بإمام الأئمة أن يكون وضعه فيما هو قبلة للمؤمنين.

٨. وقد ذكره علماء آخرين: تذكرة خواص الأمة لسبط ابن الجوزي: ص ٧، الفصول المهمة لابن الصبّاغ المالكي: ص ١٤، السيرة النبوية لنور الدين الحلبي: ج ١ ص ١٥٠، شرح الشفا للشيخ علي القاري الحنفي: ج ١ ص ١٥١، مطالب السؤول لمحمد بن طلحة الشافعي: ص ١١، نزهة المجالس للصفوري الشافعي: ج ٢ ص ٢٠٤، نور الأبصار للشبلنجي: ص ٧٦، كفاية الطالب للشنقيطي: ص ٣٧، المستدرك على الصحيحين: ج ٣ ص ٤٨٣، تاريخ ابن الخشاب: ص ٨٨، أسد الغابة: ج ٤ ص ٣١.

٩. جامع الرواة: ج ١ ص ١٥٢، الخصائص للنسائي: ص ١٦، سنن الترمذي: ج ٢ ص ٢٩٧، صحيح البخاري: ج ٤ ص ٢٠٧، مسند أحمد: ج ٥ ص ١٧٠ ح ١٧٠٥١ و ج ٤ ص ١٣٦ و ص ٤٣٧، خصائص الوحي المبين للثعلبي: ص ١٤١، حلية الأولياء لأبي نعيم: ج ١ ص ٣، الكامل لابن الأثير: ج ٢ ص ٢٠٥، المناقب لابن المغازلي: ص ٢٢٤، تفسير الكشاف للزمخشري: ج ٢ ص ١٧٢.

١٠. مسند أحمد: ج ٢ ص ١٤٤، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٢١.

المفضلة بقوله ﷺ: «خير القرون قرني - جيلي - ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^١، وتوالت على تكريمه به جماعة المسلمين إلا من ظلم، وهو موقعه الخاص من النبي ومن علوم الإسلام.

إذ تفرّع عنه فروع النسب من أهل البيت، وتنبع منه بحار شتى للمعرفة، تُسقى منها المذاهب كسافة، وفيها المستوصفة والمعتزلة، وتفيد منها العلوم كسافة، ومنها العبادات والمعاملات، والحرب والسلم، والسياسة والاقتصاد والإدارة، فتطبع بطابعه العلوم الإسلامية عند الشيعة، وتظهر آثاره في علوم أهل السنة.

و«الشيعة» كلمة قرآنية ﴿وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربّه بقلب سليم﴾^٢.

والتشيع لعلي مكانته للفوز تقررت بالسنة، روى السيوطي عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي فأقبل علي، فقال النبي: «والذي نفسي بيده، إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة»^٣.

وعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات...﴾^٤ قال رسول الله لعلي: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين»^٥.

وعن أم سلمة رضي الله عنها: أن النبي قال لعلي: «أنت وأصحابك في الجنة»^٦.

١. فتح الباري: ج ٧ ص ٣ ح ٣٦٥١، البداية والنهاية: ج ٦ ص ٢٨٣ و ج ١ ص ١١٤، معجم البلدان: ج ٤ ص ٣٣٢، الإصابة: ج ١ ص ٢١، فيض القدير: ج ٦ ص ٥٧١، نيل الأوطار للشوكاني: ج ٩ ص ٢٣٠.

٢. سورة الصافات: ٨٤.

٣. الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ج ٦ ص ٣٧٩. وممن خرّجه من أهل السنة: تاريخ دمشق: ج ٢ ص ٤٤٢ ح ٩٥١ و ص ٣٤٨ ح ٨٤٩ و ٨٥١، فتح القدير للشوكاني: ج ٥ ص ٤٦٤، المناقب للخوازمي: ص ٦٢، شواهد التنزيل للحسكاني: ج ٢ ص ٣٦٢ ح ١١٣٩، كفاية الطالب للكنجي: ص ٢٤٥، ٣١٣، ٣١٤، تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ص ٥٤، فرائط السمطين: ج ١ ص ١٥٦، ينابيع المودة: ص ٦٢.

٤. سورة البيّنة: ٧، وتنمّتها التي هي محلّ الشاهد قوله تعالى: ﴿أولئك هم خير البرية﴾.

٥. الصواعق المحرقة لابن حجر: ص ٩٦، نور الأبصار للشبلنجي: ص ٧٠ و ١٠١، الدر المنثور للسيوطي: ج ٦ ص ٣٧٩، روح المعاني: ج ٣٠ ص ٢٠٧، الفصول المهمة: ص ١٠٥، نظم درر السمطين للزرندي الحنفي: ص ٩٢، ينابيع المودة للقندوزي: ص ٢٠١، كنز العمال: ج ١٥ ص ١٣٧ ح ٣٩٨، مجمع الزوائد للهيتمي: ج ٩ ص ١٣١، تفسير الطبري: ج ٣٠ ص ١٤٦.

٦. الصواعق المحرقة: ص ١٥٩، مجمع الزوائد للهيتمي: ج ٩ ص ٧٤٨ ح ١٦٤٣١، تاريخ بغداد: ج ١٢ ص ٣٥٨.

وفي نهاية ابن الأثير ما نصّه، في مادة «لواقح»: وفي حديث علي قال له النبي: «ستقدم علي الله أنت «وشيعتك» راضين مرضيين، ويقدم عليك عدوك غضاباً مقمحين»^٢.
والزمخشري يروي في ربيع الأبرار^٣ حديث النبي عن «شيعة ولدك» وهو يتحدث إلى علي. وفي مسند أحمد بن حنبل، وخصائص النسائي كثير في الدلالة على شيعة علي^٤.
ويخصّص المسلمون «الشيعة» بأنهم هم التابعون والمقتدون والمتميزون باتّباعهم واقتدائهم الكامل بالإمام علي والأئمة من بعده.

وربما كان تعريف ابن حزم للشيعة جامعاً مانعاً، فهو يقول: «من وافق الشيعة في أن علياً «أفضل» الخلق بعد رسول الله، و«أحقّهم» بالإمامة، وولده من بعده، فهو شيعي، وإن خالفهم فيما عدا ذلك فيما اختلف فيه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكر فليس شيعياً»^٥.
ظهر تفضيل الشيعة لعلي على جميع الصحابة بمجرد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، إذ دعت إلى ذلك دواعٍ سياسية. فقد اجتمع المهاجرون والأنصار - وعلي مشغول بتجهيز رسول الله لقبره - فبايعوا أبا بكر باقتراح عمر، وثقل على بطل الإسلام على أن يمضي الصحابة الأمور دونه، وثقل على الزهراء^٦ وعلى «شيعة علي» من صحابة الرسول، كما رأى البعض

→ مناقب آل الرسول: ص ١٢٦٤.

١. الإقماح: هو رفع الرأس مع غضّ البصر، يقال: أقمحه الغلّ، أي: ترك رأسه مرفوعاً لضيقه، ومنه قوله تعالى: ﴿مقمحون﴾.

٢. النهاية في غريب الحديث: ج ٤ ص ١٠٦. ولاحظ أيضاً مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٣١، والمعجم الأوسط: ج ٤ ص ١٨٧، وكنز العمال: ج ١٣ ص ١٥٦، وتفسير فرات: ص ٥٨٢، وشواهد التنزيل: ج ٢ ص ٤٦١ و ٤٦٤.

٣. ربيع الأبرار: ج ١ ص ٨٠٨.

٤. لم أجد في خصائص أمير المؤمنين للنسائي إلا مورداً واحداً في ص ٧٥، عند الحديث عن ابن عباس: قال: كان من شيعة علي عليه السلام.... ولم يرد مثل هذا المعنى في مسند أحمد.

٥. الفصل في الملل والنحل: ج ٢ ص ١١٣.

٦. لم يورث الخليفة الزهراء من أبيها، وقصد إليها مع عمر يذكران لها حديث الرسول في حرمانها من ميراثها، قال الصديق: إني سمعته عليه السلام يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» ثم قال الصديق: والله إن قرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي، وإنك أحب إلي من عائشة (بنته)، قالت: أرايتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله تعرفانه وتعملان به؟ قالا: نعم، قالت: ألم تسمعا قول الرسول: «رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي»، قالا: سمعنا، قالت: إني أشهد الله أنكما أسخطتماني، وما أرضيتماني، ولئن لقيت رسول الله لأشكونكما إليه.... وخرجا بيكيان.

أحقية علي بالخلافة^١.

ولكن علياً لم يلبث أن كمل إجماع المسلمين بالبيعة للصدّيق، وجعل خلافة الصدّيق بالمشاركة والمشورة، وتحمل في خلافة الفاروق أعباء في أخطر شؤون الدولة والدين والناس والخليفة.

لقد كان كلّه شجاعة نفس وسداد رأي يوم الرّدة، قالت عائشة رضي الله عنها: خرج أبي يوم الرّدة شاهراً سيفه راكباً راحلته، فجاء علي عليه السلام فأخذ بزمام راحلته وقال: أقول لك ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد: «شم^٢ سيفك، لا تفجعنا بموتك» فوالله إن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبداً^٣.

ولقد كان كلّه شجاعة فكري، وبراعة فقهية، يوم استشاره عمر في غزو الفرس بنفسه، وكسّر «أخو النبي» نصحه في بلاغة معلّمة وأسانيد تترى، لكنّه لم يذكر (السابقة) لعمر كما صنع مع أبي بكر. فالصدّيق هو إمام (الاتباع) الذي بلغ به مراتبه، أمّا عمر فهو «يجتهد» ويتّبع، وعند علي من (الاتباع) و (الاجتهاد) ما يروي الشيخين معاً:

قال لعمر بين ما قال: «إنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلّة، وهو دين الله الذي أظهره...، ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمّنه، فإذا انقطع

→ فلقد كانت تبكي، ولقد كانت لله لا للعالمين دموع الزهراء، والصدّيق والفاروق؛ وأهل السنّة ينحون نحوهما في تفسير الحديث النبوي، والشيعة لا يتسامحون في حرمان الزهراء ميراثها. ومن الغلاة في الخصومة للشيخين من يقولون: إنّ عمر كان سبب البيعة لأبي بكر يوم السقيفة، إذ قال له: امدد يدك بأبيك، وإنّ أبا بكر كان مصدر البيعة لعمر يوم استخلفه؛ ليصرف الأمر عن علي، مع أنّ البيعة كانت عامة من الأمة.

وأهل السنّة على أنّ الصحابة اجتهدوا للمسلمين، وأنّ علياً أيدهم في اجتهادهم إذ بايع، بل تبع رأي عمر فيما بعد لئلا يجعل عمر الأمر شورى في السنّة، ثم كان أصدق المسلمين في طاعة عثمان. (منه).

١. ومنذ كانت لعلي شيعة، قال أبان بن تغلب: قلت لجعفر بن محمد (الصادق) جعلت فداك، هل كان أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أنكر على أبي بكر فعله؟ قال: «نعم، اثنا عشر رجلاً، من المهاجرين: خالد بن سعيد بن العاص، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وعمّار بن ياسر، وبريدة الأسلمي. ومن الأنصار: أبو الهيثم بن النّهان، وسهل وعثمان ابنا حنيف، وخزيمة بن ثابت، وأبي بن كعب، وأبو أيوب الأنصاري». (منه).

٢. شم: من الأضداد، بمعنى السّل والإغماد. (النهاية في غريب الحديث: ج ٢ ص ٥٢١).

٣. الفائق في غريب الحديث لجزار الله الزمخشري: ج ٢ ص ٢٢٤، كسر العمال: ج ٥ ص ٦٥٨ ح ١٤١٥٨ و ٦٦٤ ح ١٤١٦٦.

النظام تفرّق الخرز وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع، فكن قطباً واستدر الرحنى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب. إنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع من الفورات أهمّ إليك ممّا بين يديك. إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولون: هذا أصل العرب، فإن قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشدّ لكلّهم عليك ومطمعهم فيك...»^١. فنلاحظ هذه الخطة المتعدّدة الغايات بالحركة الواحدة: أن يبقى قطباً للرحنى، وأن يستديرها بالعرب، وأن يجعلهم يحاربون العدوّ بدلاً من الخليفة، وأن يحميهم من تنازعهم ولم يكن قد مضى على توبة بعضهم من الردّة إلاّ شهور. ولنلاحظ ذلك الاحتياط في الحرب حتى لا يجد العدوّ الخليفة غرضاً قريباً في متناوله، يستमित في إصابته. ولنلاحظ تشبيه الخليفة بنظام العقد الذي يمسكه أن ينتشر. ولنلاحظ الوجازة، والنصاعة، والبلاغة «العلوية» ومستواها في لسان العرب.

ولمّا قبل الصّديق والفاروق نصيحتته في الحالين، وضعته النصيحتان في موضعه معهما ومن المسلمين - وهو في صدر شبابه - في الصدارة.

ولا ينال من هذه العبقرية في وضع الخطط، ما سيصيبه والمسلمين معه يوم يستحيّون الدعة، بعد ربع قرن، عندما آلت إليه المقاليد، وجاء إلى الوجود جيل جديد، فعلت الفتن فيه أفاعيلها، فأتاحت لعلي بدلاً من إنفاذ خططه، أن يلقي خطبه الخالدة التي تعتبر مصادر للبلاغة العربية، والحكمة السياسية والفلسفية على مرّ الزمان، فتخصّص الإمام بمقام بين خطباء التاريخ لا يرقى إليه أحد.



١. بحار الانوار: ج ٤٠ ص ١٩٤، شرح نهج البلاغة: ج ٩ ص ٩٥، الاخبار الطوال: ص ١٣٤، تاريخ الطبري: ج ٤ ص ١١٤-١٢٦، فتوح البلدان: ج ٢ ص ٢٨٦-٢٩٧.

عهد الصديق لعمر، فكان عهده له فتحاً من الفتوح على أبي بكر والأمة، منذ كان عمر كأبي بكر مطلوبين للأحداث، ولم يكن لدى المسلمين ساعة ليشتوروا، فأرواح الشهداء تساقط في الميادين، في الشرق والشمال، بالعراق والشام، لتضيء العالم بأنوار الإسلام.

ولا يمكن أن يرد على الذهن أن أبا بكر في عهده لعمر، فكّر لحظةً واحدةً تفكير بعض قريش في أن تصرف الخلافة عن بني هاشم، مخافة أن تبقى وراثته فيهم، فلا تنال قريش حظوظها من السلطة، فإنما كانت هذه الفئنة في فكرها ظالمة لنفسها ولبني هاشم، بمثل ما قد طالما ظلمت الصديق والفاروق معاً.

فلقد عهد الفاروق لعلي بين الستة الذين عهد إليهم أن يختاروا للمسلمين من يبايعونه، وهو القائل عن علي: «لو ولّوه لحملهم على الجادة»^١. وكان الجميع يعلمون أن الخلافة دائرة بينه وبين عثمان، ولم يشأ عمر أن يحمل مسؤولية الاختيار - وهو طعين - وكانت المشورة ممكنة، لا خطرة كما كانت عند وفاة أبي بكر.

ولمّا جاء دور علي - وهو طعين - لم يفكّر في أن يعهد لواحدٍ من بني هاشم، بل قيل له: «إن فقدناك - ولا نفقدك - هل نبايع الحسن؟» فأجاب: «لا أمركم ولا أنهاركم، أنتم أبصر»^٢. وترك الأمر شورى للمسلمين^٣.

وكذلك ليس من الدقة أن يستنتج من تقدير عمر لعلي، أو لأهل البيت، أو لأُم كلثوم بنت علي - وهي تحت جناح عمر - أن عمر كان يتمنى شيئاً خاصاً لعلي في صدد الخلافة، فلقد

١. ذكر اليعقوبي في تاريخه: ج ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩: «ولو وليهم يحملهم على منهج الطريق فأخذ المحجة الواضحة». وذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج: ج ١ ص ٦٢ و ١٨٥ و ١٨٦؛ وعبد الفتاح عبد المقصود في كتابه الامام علي: ج ١ ص ٣١٠: «أما والله لئن وليتهم لتحملتهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء».

٢. مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٤٢، المعجم الكبير للطبراني: ج ١ ص ١٠٠، نظم درر السمطين للزرندي: ص ١٤٠، إرواء الغليل للألباني: ج ٦ ص ٧٥، البداية والنهاية: ج ٧ ص ٣٦٢، تاريخ الطبري: ج ٤ ص ١١٢ - ١١٣.

٣. ولكن الشيعة تذهب إلى أنه عهد إلى الحسن بأمرٍ من رسول الله ﷺ.

كان عمر ينظر لمصلحة المسلمين أجمعين يوم عهد إلى الستة أن يختاروا واحداً منهم يبايعه المسلمون.

كان عمر ينظر لمصلحة المسلمين يوم دَوَّن الديوان، فدعا الأخ الأكبر لعلي، عقيل بن أبي طالب^١، ومخرمة بن نوفل^٢ وجُبَيْر بن مطعم^٣، وقال لهم: «اكتبوا الناس على قدر منازلهم» فكتبوهم مبتدئين ببني هاشم، ثم ببني تيم - قبيلة أبي بكر - ثم ببني عدي - قبيلة عمر - فقال: وددت أنه هكذا، ولكن ابدأوا بقرابة النبي ﷺ، الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله^٤.

ويوم فضّل بعض الناس في العطاء جزاء ما قدّموا للإسلام، فلما ذكر له صنيع أبي بكر يوم رفض التفضيل وقال: إنما أسلموا لله، ووجب أجرهم عليه، يوفيههم ذلك في الآخرة، وإنما هذه الدنيا بلاغ، أجاب عمر: «لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه...»^٥.

ويوم فضّل أهل بدر على من عداهم، ثم جعل الباقي درجات، ومع ذلك قدّم الأذنين من

١. هو عقيل بن عبد مناف (أبي طالب) بن عبد المطلب، الهاشمي القرشي، وكنيته أبو يزيد، أعلم قريش بأيامها ومآثرها ومثاليها وأنسابها، صحابي، فصيح اللسان، شديد الجواب، وهو أخو (علي) و(جعفر) لأبيهما، وكان أسنّ منهما. وبرز اسمه في الجاهلية، وكان أحد أربعة الذين يتحاكم إليهم في المناقرات، هاجر إلى المدينة سنة ٨ هجرية، وشهد غزوة مؤتة، وثبت يوم حنين. وكان الناس يأخذون عنه الأنساب والأخبار في مسجد المدينة، توفي أواخر خلافة معاوية سنة ٦٠ هـ، وكان في حلب وأطرافها جماعة ينتسبون إليه ويُعرفون ببني عقيل. (الأعلام: ج ٤ ص ٢٤٢).

٢. مخرمة بن نوفل بن أهيّب بن عبد مناف الزهري القرشي؛ أبو صفوان، صحابي، عالم بالأنساب، أسلم يوم الفتح، وكان النبي ﷺ يتقي لسانه ويداربه بعد أن أسلم، وقد عمّر طويلاً، قيل: مائة وخمسة عشرة سنة، وكفّ بصره في زمن عثمان، ومات بالمدينة سنة ٥٤ هجرية. (الأعلام: ج ٧ ص ١٩٣).

٣. جُبَيْر بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي؛ أبو عدي، صحابي، كان من علماء قريش وساداتهم، توفي بالمدينة سنة ٥٩ هـ. عدّه الجاحظ من كبار النشأين. وفي الإصابة: كان أنسب قريش لقريش والعرب قاطبة. له ستون حديثاً في الكتب الحديثية السنّية. (الأعلام: ج ٢ ص ١١٢).

٤. كنز العمال: ج ٤ ص ٥٦٥ ح ١١٦٥٧، فتوح البلدان للبلاذري: ج ٣ ص ٥٤٩، تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٢٧٨، شرح النهج: ج ١٢ ص ٩٤، طبقات ابن سعد: ج ٣ ص ٢٩٥.

٥. الأحكام السلطانية للماوردي: ص ١٧٧، وقد ذكر الماوردي أنّ علياً عليه السلام خالف عمر في ذلك.

رسول الله دون نظر إلى جهاد أو سابقة إسلام، ففرض للعباس^١ عمّ النبي اثني عشر ألف درهم، ولأخته صفية^٢ عمّة النبي وعلي ستّة آلاف...، ولكلّ واحدة من زوجات النبي عشرة آلاف، وميّز عائشة لمحبة رسول الله إياها فجعل لها اثني عشر ألفاً.

ويوم فضّل الحسن والحسين، إذ فرض لكلّ واحد شهد بدرأ خمسة آلاف، ولأبنائهم ألفين ألفين، إلا الحسن والحسين ابني علي من فاطمة الزهراء، ألحقهما بفريضة أبيهما لقرباهما من رسول الله، ففرض لكلّ منهما خمسة آلاف، حتّى أسامة^٣ بن زيد بن حارثة - مولى الرسول - فرض له أربعة آلاف. وأجاب ابنه عبد الله^٤ - فقيه المسلمين ومحدثهم - إذ

١. العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف؛ أبو الفضل، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، وجدّ الخلفاء العبّاسيين. كان محسناً لقومه، سديد الرأي، واسع العقل، مولعاً بإعتاق العبيد، كارهاً للرق، اشترى سبعين عبداً وأعتقهم، وكانت له سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام، أسلم قبل الهجرة وكنم إسلامه، وأقام بمكة يكتب إلى الرسول أخبار المشركين، ثم هاجر إلى المدينة، وشهد وقعة حنين، فكان ممن ثبت حين انهزم الناس، وشهد فتح مكة، وعمي في آخر عمره. وكانت وفاته في المدينة سنة ٥٢٢ هـ عن عمر ٨٣ سنة. وله في كتب الحديث السنّية (٣٥) حديثاً. (الأعلام: ج ٣ ص ٢٦٢).

٢. صفية بنت عبد المطلب بن هاشم، سيدة قريشية، شاعرة باسلة، وهي عمّة النبي ﷺ، أسلمت قبل الهجرة، وهاجرت إلى المدينة. وكان رسول الله إذا خرج لقتال عدوّه من المدينة، يرفع أزواجه ونساءه في حصن حسان بن ثابت، فلما كان يوم (أحد) صعدت صفية معهم، وتخلّف عندهنّ حسان، فجاء يهودي فلصق بالحصن يتجسس، فقالت صفية لحسان: إنزل إليه فاقتله، فتوانى حسان، فأخذت عموداً ونزلت، وفتحت الباب يهدوء، وحملت على الجاسوس فقتلته، ورأت المسلمين يتراجعون يوم (أحد) فتقدّمت ويبيدها رمح تضرب في وجوه الناس وتقول: أنهزتم عن رسول الله؟! فأشار الرسول ﷺ إلى الزبير بن العوام أن يبعدها عن أخيها (حمزة). لها مرثاة رقيقة، وفي شعرها جودة، ماتت سنة ٢٠ هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ٢٠٦).

٣. أسامة بن زيد بن حارثة، من كنانة عوف؛ أبو محمد، صحابي جليل، ولد بمكة ونشأ على الإسلام، لأنّ أباه كان من أوائل الناس إسلاماً، وكان رسول الله يحبّه. هاجر مع النبي إلى المدينة، وأمره النبي ولم يبلغ العشرين من عمره، فكان مظفراً موقفاً. ولما توفي الرسول ﷺ رحل أسامة إلى وادي القرى فسكنه، ثم انتقل إلى دمشق في أيام معاوية، ثم عاد إلى المدينة فأقام إلى أن مات بالجرف في أواخر أيام معاوية سنة ٥٤ هـ. وفي تاريخ ابن عساکر: أنّ رسول الله استعمل أسامة على جيش فيه أبو بكر وعمر. (الأعلام: ج ١ ص ٢٩١).

٤. هو عبد الله بن عمر بن الخطّاب العدوي؛ أبو عبد الرحمان، صحابي، كان جريئاً جهيراً. نشأ في الإسلام وهاجر إلى المدينة مع أبيه، وشهد فتح مكة، ومولده ووفاته فيها. أفتى الناس في الإسلام ستّين سنة، ولما قتل عثمان عرض

راجعته قائلاً: فرضت لي ثلاثة ولأسامة أربعة، وقد شهدت مالم يشهد أسامة؟! فقال لابنه: زدت له لأنه كان أحب إلي رسول الله منك، ولأن أباه كان أحب إلي رسول الله من أبيك^١.

وعبد الله أخ شقيق لحفصة أم المؤمنين.

ولمّا فرض لعمر بن أم سلمة^٢ - أم المؤمنين - أربعة آلاف، وكان من شيعة علي، استعتب

البعض الخليفة لحدائته، فأجاب: فليأتني الذي استعتب بأم مثل أم سلمة أعتبه^٣.

وأم المؤمنين أم سلمة أعلى الأصوات في الدفاع عن علي.

ولقد كان عمر صادقاً يوم عدل إلى رأي أبي بكر وقال: لئن بقيت إلى العام المقبل لألحقن

آخر الناس بأولهم، ولأجعلنهم رجلاً واحداً^٤.

→ عليه نفر أن يبأيعوه بالخلافة فأبى، وغزا أفريقية مرتين، وكفّ بصره في آخر حياته، وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة سنة ٥٧٣هـ، عن عمر يناهز ٨٣ سنة، له في كتب الحديث (٢٦٣٠) حديثاً. (الأعلام: ج ٤ ص ١٠٨).
١. تاريخ إصبهان: ج ٢ ص ٢٩٠.

٢. هي هند بنت سهيل بن المغيرة. القرشية المخزومية، زوجة النبي ﷺ، تزوجها في السنة الرابعة للهجرة، وكانت من أكمل النساء عقلاً وخلقاً، وهي قديمة الإسلام، هاجرت مع زوجها الأول إلى الحبشة، وولدت له ابنه (سلمة)، ورجعا إلى مكة، ثم هاجرا إلى المدينة، فولدت له ابنتين وابناً. ومات أبو سلمة في المدينة أثر جرح، فخطبها أبو بكر فلم تتزوج، وخطبها النبي فقالت لرسوله: مثلي لا يصلح للزواج، فإنتي تجاوزت السن فلا يولد لي، وإنتي امرأة غيور وعندي أطفال، فأرسل إليها النبي ﷺ: أما السن فإنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله، وأما العيال فإلني الله ورسوله، وتزوجها. وكان لها يوم الحديبية رأي أشارت به على رسول الله دلّ على وفور عقلها. توفيت سنة ٦٢هـ عن عمر كبير، ولها في كتب الحديث (٣٧٨) حديثاً. (الأعلام: ج ٨ ص ٩٨).

٣. الأحكام السلطانية للماوردي: ص ٢٠١.

٤. ربّما أوضح أنّ المال - بالنسبة للصحابة رضوان الله عليهم - لم يكن وسيلة للثراء، وإنما كان حقاً لهم يجيء من بيت المال، ليفقهه في وجوهه، ومساعدة المحتاجين. إن أم المؤمنين زينب بنت جحش تصدّقت بالمال كلّها، وتمنّت أن تموت قبل أن يحول الحول، فاستجاب لها ربّها، فكانت أسرع زوجات الرسول لحوقاً به، وإن أم المؤمنين عائشة لم ترض أن تنماز عن أمهات المؤمنين، وإن أموالهن كانت تجري إلى المسلمين.

وروى الطبراني وأبو نعيم عن خزيمة بن أوس قال: قدمت على النبي يوم تبوك، فسمعتة يقول: «هذه الحيرة قد رفعت إليّ، وإنكم ستفتحونها، وهذه الشيماء بنت فضيل الأزدي على بغلة سوداء معتجرة بخمار أسود» قلت: يا رسول الله، إن نحن دخلنا الحيرة فوجدناها على هذه الصفة فهي لي؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «هي لك». فأقبلنا مع خالد نريد الحيرة، فلمّا دخلناها كان أول من تلقانا الشيماء على بغلة سوداء معتجرة بخمار أسود،

وجرى قضاء الله بأن يطعن أبو لؤلؤة المجوسي^١ عمر في المسجد، فبعث عمر إلى قوم كانوا يجلسون بين منبر الرسول وقبره من يقول لهم: يقول لكم عمر: أنشدكم الله، أكان ذلك عن رضئ؟ فتلكأ قوم، فقال علي: «وددنا أننا زدنا في عمره من أعمارنا»^٢، هكذا أصاب البعض الحصر، وواتت علياً الإجابة الموسمية، وهي يقين عند عمر.

أوصى عمر أن تكون الخلافة لواحدٍ من الستة الذين مات النبي وهو عنهم راضٍ، ثم اختاره الله إلى جواره. واجتمع أصحاب الشورى وأدار المداولات عبد الرحمان بن عوف^٣ مذ أعلن أنه لن يكون له في الخلافة أرب، واستجوب الناس حتى استيقن من تحقيقاته أن لكل من علي وعثمان مؤيدين في جماعة المسلمين، فرقى المنبر وجلس مجلس النبي،

→ فتعلقت بها وقلت: هذه وهبها رسول الله لي، فطلب مني خالد البيئنة، فأتيته بها، فسلمها لي، ونزل إليها أخوها عبد المسيح فقال لي: أتبيعنيها؟ قلت: نعم، قال: احتكم، قلت: لا أبيعها بأقل من ألف درهم، فدفعها، فقيل لي: لو قلت: مائة ألف لدفعها! قلت: لا أحسب مالا أكثر من ألف درهم، قال الطبراني: وبلغني أن البيئنة كانت محمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر. (منه).

١. كان أبو لؤلؤة عبداً للمغيرة بن شعبة، وكان يصنع الأرحاء، وكان المغيرة يستغله كل يوم أربعة دراهم، فلقي أبو لؤلؤة عمر. فقال: يا أمير المؤمنين، إن المغيرة قد أثقل علي غلتي، فكلمه ليخفف عني، فقال له عمر: إتقى الله وأحسن إلى مولاك، ومن نية عمر أن يلقي المغيرة فيكلمه ليخفف عنه، فغضب العبد وقال: وسع الناس كلهم عدله غيري، فأضمر علي قتله، فاصطنع له خنجرأ له رأسان وشحذه وسمه، ثم أتى به الهرمان فقال: كيف ترى هذا؟ قال: أرى أنك لا تضرب به أحداً إلا قتلته، فتحين أبو لؤلؤة عمر، فجاءه في صلاة الغداة، حتى قام وراء عمر ووجاه في خاصرته، وقيل: ضربه ست ضربات، وقيل غير هذه القصة. (أسد الغابة: ج ٤ ص ٧٦).

٢. هكذا نقلها الصنعاني في المصنّف: ج ١٠ ص ٣٥٧: «لما طعن عمر أرسل إلى ناس من المهاجرين فيهم علي، فقال: أعن ملائمتكم كان هذا؟ فقال علي: معاذ الله أن يكون عن ملائمتنا، ولو استطعنا أن نزيد من أعمارنا في عمرك لفعلنا...». أمّا عبارة المؤلف فلم ينقلها بلفظها، ونقلها الشيخ مغنية في كتابه «الشيعة في الميزان»: ص ٢٩٣ مخرجة عن سلام بن أبي مطيع عن أيوب السخيتاني عن جعفر بن محمد عن أبيه. ولم يذكر المصدر.

٣. عبد الرحمان بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث: أبو محمد، الزهري القرشي، صحابي ومن أكابرهم، وهو أحد الستة من أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وهو أحد السابقين إلى الإسلام، قيل: هو الثامن، كان من الأجواد الشجعان العقلاء، أسمه في الجاهلية: عبد الكعبة، وسماه الرسول ﷺ عبد الرحمان، ولد بعد عام الفيل بعشر سنين ٢٤ ق ه وشهد بدرأ وأحداً والمشاهد كلها. جرح يوم أحد ٢١ جراحة، واعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً، وكان يحترف التجارة والبيع والشراء، فاجتمعت له ثروة كبيرة. له (٦٥) حديثاً في كتب السنة، توفي بالمدينة سنة ٣٢ هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ٣٢١).

وأخذ بيد علي وقال: هل أنت مبايعي علي كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟ قال علي: اللهم لا، ولكنني أحاول من ذلك جهدي وطاقتي^١. فأرسل عبد الرحمان يده وقال: هلم إلي يا عثمان، فأخذ بيده وقال: هل أنت مبايعي علي كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟ قال عثمان: اللهم نعم، قال عبد الرحمان: اللهم اشهد، اللهم اشهد. وباع عبد الرحمان عثمان، وقام الناس فبايعوا، وفيهم علي بن أبي طالب.

وظاهر أن فيصل التفرقة بين الجوابين هو قول علي: أحاول جهدي وطاقتي، وهو جواب رجل طالما حاول جهده وطاقته للنبي، ولأبي بكر وعمر، كما صنع أبو بكر وعمر، وكما سيصنع علي في خلافته، وسيصنع عثمان في خلافته، فلا عليه إن أجاب ذلك الجواب الفقهي الصادق من كل وجه، لكن السماء لم ترد أن يرضي ذلك الجواب عبد الرحمان، لتكون الخلافة يومئذ لعثمان بن عفان، باختيار من المسلمين، في حدود ما قدرته السماء، وكان في المسلمين يومئذ شبه إجماع على أن الخلافة آيلة إلى علي بحكم سنه.

الفصل الثاني

أبو الشهداء

«هذان ابناي وابنا بنتي، اللهم إني أحبهما، فأحبهما وأحب من أحبهما»^١.

حديث شريف

«هما ريحانتي^٢ من الدنيا»^٣.

حديث شريف

مضت سنوات ستّ على عثمان في الخلافة وهو راضٍ مرضي، يحدر إلى الثمانين أو منها، أعقبها ستّ أخرى، منها أربعة تتناهى إلى سمعه فيها وشوشة الشكوى من كلّ صوب، ومنها اثنتان يتعالى فيهما تشويش المشوشين ممن لا يصبرون، ومراجعة الذين يتحملون المسؤولية معه.

١. سير أعلام النبلاء: ج ٣ ص ٢٥١، صحيح الترمذي: ج ٢ ص ٢٤٠ و ج ٥ ص ٦٥٧ رقم ٣٧٦٩، كنز العمال: ج ٦ ص ٢٢٠، الخصائص للنسائي: ص ١٢٢. ولهذا الحديث طرق مختلفة وأسانيد صحيحة مع تغييرات طفيفة بالألفاظ تجدها في: مسند أحمد: ج ٢ ص ٢٨٨، وتاريخ بغداد: ج ١ ص ١٤١، وكنوز الحقائق: ص ١٣٤، ومجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٨٠، وكفاية الطالب: ص ٢٠٠، وذخائر العقبين: ص ١٢٣، وأسد الغابة: ج ٢ ص ١١، والصواعق المحرقة: ص ١٣٧.

٢. الريحان: يطلق على الرحمة والرزق والراحة، وبالرزق سمي الولد ريحاناً. (لسان العرب: ج ٢ ص ٤٥٩).

٣. صحيح البخاري: ج ٧ ص ٧٤٨، صحيح الترمذي: ج ٥ ص ٦١٥ رقم ٣٧٧٠، مسند أحمد: ج ٢ ص ٨٥ و ٩٣ و ١١٤ و ١٥٣، خصائص النسائي: ص ٣٧، مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ١٦٥، حلية أبي نعيم: ج ٣ ص ٢٠١ و ج ٥ ص ٧٠، فتح الباري: ج ٨ ص ١٠٠، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٨١، مسند الطيالسي: ج ٨ ص ١٦٠، الرياض النضرة: ج ٢ ص ٢٣٢، المعجم الكبير للطبراني: ج ٣ ص ١٢٧، كنز العمال: ج ١٢ ص ١١٣ ح ٣٤٢٥١، تهذيب الكمال للمزي: ج ٦ ص ٤٠١، سير أعلام النبلاء: ج ٣ ص ٣٨١، الإصابة: ج ٢ ص ٦٨، الأنساب للسمعاني: ص ٤٧٧، البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٢٣.

غاضبه عبد الرحمان بن عوف الذي اختاره للمسلمين، وغضب هو عليّ عبدالله بن مسعود وعليّ أبي ذر^١ أصدق الناس لهجة^٢، وعليّ عمار بن ياسر الذي واعده الرسول وأباه وأمه عليّ الجنتي^٣، وهذان الأخيران منذ انفجر فجر الإسلام شيعة عليّ.

أما ابن مسعود فهو القاتل يوم اختيار عثمان: بايعنا أفضلنا ولم نأل^٤. وأما عبد الرحمان فقد أوصى لعثمان بين أهل بدر، ولما مات أخذ نصيبه.

ونفى عثمان أبا ذر من المدينة إلى الربذة^٥، أو نفى أبو ذر نفسه؛ احتجاجاً عليّ ما صار إليه أمر معاوية وعثمان.

في هذه الفترة الأخيرة اجتمع الناس فتذكروا الأحداث، وكلفوا علياً أن يكلم عثمان، كما روى الطبري في أحداث سنة ٣٤، وعليّ وعثمان صهران للرسول، الأول في زهراء الرسول، والثاني في ابنتي الرسول. والرسول يقول وهو يزوجهم: «لو كنّ عشرأ لزوجتهن عثمان»^٦. ونصح عليّ عثمان أعلى النصيحة، وأجابه عثمان بمبرراته في تعيين الولاية له، ومما قال: إن معاوية عيّنه عمر، قال عليّ: لكنّه كان أخوف له من خادمه يرفأ^٧.

١. هو جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد، من بني غفّار، من كنانة؛ أبو ذر، صحابي، من كبارهم، قديم الإسلام، يقال: أسلم بعد أربعة وكان خامسهم، يضرب به المثل في الصدق، وهو أول من حيّا رسول الله بتحيّة الإسلام. هاجر بعد وفاة النبي إلى الشام، فأقام إلى أن توفّي أبو بكر وعمر وولي عثمان، فسكن دمشق، وجعل ديدنه تحريض الفقراء عليّ مشاركة الأغنياء في أموالهم، فاضطرب هؤلاء، فشكاه معاوية إلى عثمان، فلما رجع المدينة فعل مثل ما فعل بالشام، فأمره عثمان بالخروج عن المدينة إلى الربذة، وبقي بها منفياً إلى أن مات ٣٢ هـ ولم يترك حتّى كفنأ. روى له البخاري ومسلم (٢٨١) حديثاً. (الأعلام: ج ٢ ص ١٤٠).

٢. إشارة إلى قوله ﷺ: «ما أظلت الخضراء وما أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر» مسند أحمد: ج ٢ ص ١٦٣، و ١٧٥ و ٢٢٣.

٣. إشارة إلى قوله ﷺ: «صيراً آل ياسر: صيراً آل ياسر، إن موعدكم الجنة» السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص ٣٢٠، الاستيعاب: ج ٤ ص ١٥٨٩.

٤. الصواعق المحرقة: ١٠٦ وفيه: «أمرنا خير من بقي ولم نأل».

٥. قرية عليّ مبعدة ثلاثة أيام من المدينة (منه). أقول: سمّيت الربذة لنبيل عندها أسمه ربذ، وهي من قرى المدينة، قريبة من ذات عرق، على طريق الحجاز إذا وصلت من فيد تريد مكة، فيها قبر أبي ذر الغفاري، مات فيها سنة ٣٢ هـ (معجم البلدان: ٤١ ج ٣ ص ٢٤).

٦. الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٨ ص ٣٨، تاريخ دمشق لابن عساكر: ج ٣ ص ١٥٤، سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٢ ص ٢٥٣، البداية والنهاية لابن كثير: ج ٥ ص ٣٢٠، السيرة النبوية لابن كثير: ج ٤ ص ٦١١.

٧. تاريخ الطبري: ج ٥ ص ٩٧، أنساب الأشراف: ج ٥ ص ٥٩ - ٦٠، العقد الفريد: ج ٣ ص ٩٢. و«يرفأ» هو غلام

واستمرّ الناس في ضيقهم بالأُمور، حتّى إذا كان الموسم حجّ الولاية، فجمعهم عثمان للمشورة، فكانوا: معاوية بن أبي سفيان (الشام)، وسعيد بن العاص^١ (الكوفة) وكلاهما ابن عم لعثمان^٢، وعبد الله بن سعد ابن أبي سرح^٣ (مصر) وهو أخو عثمان من الرضاع، وعبد الله بن عامر^٤ (البصرة) وهو ابن خال عثمان^٥. فلمّا انصرفوا إلى

→ وحاجب عمر بن الخطاب.

١. سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية الأموي القرشي، صحابي من الأمراء الولاية الفاتحين، ربّي في حجر عمر بن الخطاب، وولاه عثمان الكوفة وهو شاب، فلمّا بلغها خطب في أهلها، فنسبهم إلى الشقاق والخلاف، فشكوه إلى عثمان، فاستدعاه إلى المدينة، فأقام فيها إلى أن كانت الثورة عليه، فدافع سعيد عنه وقاتل دونه إلى أن قُتل عثمان، فخرج إلى مكة وأقام فيها إلى أن ولي معاوية الخلافة فعهد إليه بولاية المدينة، فتولّاها إلى أن مات ٥٩ هـ. وهو فاتح طبرستان، وأحد الذين كتبوا المصحف لعثمان، اعتزل الجمل وصفين، وكان قوياً، وفيه تجبّر وشدة. (الأعلام: ج ٣ ص ٩٦).

٢. كان أبو سفيان إحدى تبعات معاوية، أرسل معه من دمشق أموالاً وأغلالاً إلى عمر ليظهره على الأغلال التي كان أسارى المسلمين مقيدين بها في حصون الروم، فلمّا رجع أبو سفيان إلى المدينة ذهب إلى عمر بالأغلال ولم يذهب بالمال، فسأله عمر: أين المال؟ قال: كان علينا دين ومؤونة، ولنا في بيت المال حق، فإذا أخرجت لنا شيئاً؟ قال عمر: اطرحوه في القيود حتّى يأتي بالمال، فأرسل أبو سفيان فجاء بالمال. (منه).

٣. هو عبد الله بن سعد بن أبي السرح القرشي العامري، فاتح أفريقية، وفارس بني عامر، من أبطال الصحابة، أسلم قبل فتح مكة، وهو من أهلها، وكان من كتاب الوحي للنبي ﷺ، وكان على يمينه عمرو بن العاص حين فتح مصر. وقد ولي مصر سنة ٢٥ هـ بعد عمرو بن العاص، فاستمرّ نحو ١٢ عاماً، زحف في خلالها إلى أفريقية، فافتتح ما بين طرابلس الغرب وطنجة، ودانت له أفريقيا كلّها، وغزا الروم بحراً وظفر بهم في معركة (ذات الصواري) سنة ٣٤ هـ، ثم عاد إلى المشرق، وعند عودته علم بمقتل عثمان، وأنّ علياً أرسل إلى مصر والياً آخر، فتوجّه إلى الشام قاصداً معاوية، واعتزل الجمل وصفين. مات بعسقلان سنة ٣٧ هـ فجأة. (الأعلام: ج ٤ ص ٨٩).

٤. عبد الله بن عامر بن كرز بن ربيعة الأموي: أبو عبد الرحمان، أسير فاتح، ولد بمكة ٤ هجرية، وولي البصرة في أيام عثمان سنة ٢٩ هـ، فوجّه جيشاً إلى سجستان فافتتحها صلحاً، وافتتح الداورة وبلاداً من دار أيجرد، وهاجم مرو الروذ فافتتحها، وبلغ سرخس فانقادت له، وغيرها من البلاد. شهد قتل عثمان وهو على البصرة، وشهد وقعة الجمل مع عائشة ولم يحضر صفين. ولّاه معاوية البصرة ثلاث سنين ثم صرفه عنها، فأقام بالمدينة، ومات بمكة سنة ٥٩ هـ ودفن بعرفات. قيل: هو أول من اتخذ الحياض بعرفة (في الحجاز) وأجرى إليها العين، وسقى الناس الماء. (الأعلام: ج ٤ ص ٩٥).

٥. عبد شمس أخو هاشم جدّ النبي، وهما ابنا عبد مناف. ولعبد شمس بنون، منهم: حبيب جدّ عبد الله بن عامر. ومنهم: أمية أبو حرب والد أبي سفيان، والد معاوية. ومنهم: أبو العاص، وله أبناء منهم عفان أبو عثمان، والحكم أبو مروان، ومروان كاتب عثمان. ومنهم: أبو عمرو، وله أبناء منهم: أبو معيط جدّ الوليد بن عقبة الذي حدّه

أقاليمهم ردّ أهل الكوفة سعيد بن العاص، وطلبوا أن يتولّى عليهم أبو موسى الأشعري، فولّاه عثمان. وأرسل المصريون في سنة ٣٥ وقدأ للعمرة يناظرون عثمان في سياسة ولاته، وكان علي^١ ومحمد ابن مسلمة رسولي السلام بين الخليفة^٢ وبين الناس^٣.

وانضمّ بعض أهل المدينة إلى الناقدين في تقديمهم، وعنفوا على عثمان بالمسجد، فقتنع بالبقاء في داره، وأحاط القوم بالدار. وأقبل بعض بني أمية يحرسونها، لكن الحراسة الحقّ كانت حراسة أبناء الصحابة: الحسن بن علي، والحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن طلحة^٤ وعلي^٥ أمرتهم عبد الله ابن الزبير^٥ إذ عينه الخليفة، وأمر الرجال ألا يحاربون أحداً. ولم يخرج الخليفة للحجّ وأمر عليه عبد الله بن العباس.

ولم يقدم للحجّ أحد من ولاية عثمان هذا العام، فلم يكن ذلك مفهوماً لأحد، إلا أن يكون تقصيراً من الولاية، وليس في المدينة جند، فهي كما يقول الرسول: «حرم آمن»^٦. وإنما الجند في الأقاليم وبخاصّة في الشام حيث معاوية.

ولمّا تلا ابن عباس خطاب الخليفة على الحجيج لم يخفوا لنصرته، وأصبح عثمان صائماً غداً ليلة، وبقي يحدث الحرس ألا يقاتلوا، حتّى أقبل الثوّار وقتلوه.



→ عثمان للخمر، وهو والد له، ومنهم: العاص أبو سعيد، أحد ولاية عثمان. ومنهم: أبو العيص جدّ عتاب بن أسيد عامل النبي على مكة، حيث ولّى النبي أعداءه السابقين ولم يولّ أهلهم. (منه).

١. هو أخو محمد بن مسلمة المتقدم ذكره وترجمته. وكان من رواة الحديث المتفق عليه سنة وشيعة.

٢. تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٣٩٤ - ص ٤٠٧، تفسير القرطبي: ج ٨ ص ٨٢، شرح نهج البلاغة: ج ٢ ص ١٤٥، الفدير: ج ٩ ص ١٨٢.

٣. راجع مالك بن أنس إمام دار الهجرة، للمؤلف، حيث تفصيل أكثر للخلاف بين أهل المدينة وعثمان. (منه).

٤. محمد بن طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي: أبو سليمان، صحابي، ولد في حياة النبي ﷺ وسمّاه باسمه، قُتل يوم الجمل سنة ٣٦ هـ. (الأعلام: ج ٦ ص ١٧٥).

٥. عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي: أبو بكر، أول مولود في المدينة بعد الهجرة. شهد فتح إفريقية أيام عثمان. وبيع له في الخلافة سنة ٦٤ هـ عقيب موت يزيد، فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وجعل المدينة قاعدة ملكه، كانت له مع الأمويين وقائع هائلة انتهت بمقتله سنة ٧٣ هـ بعد أن خذله عامة أصحابه. كان من خطباء قريش، وهو أول من ضرب الدراهم المستديرة، له في كتب الحديث (٢٣) حديثاً. (الأعلام: ج ٤ ص ٨٧).

٦. صحيح مسلم: ج ٤ ص ١١٨، السنن الكبرى للبيهقي: ج ٥ ص ١٩٧ و ١٩٨، المعجم الكبير للطبراني: ج ٦ ص ٩٢.

اجتمع أصحاب الرسول بعد مقتل عثمان يشتمون، وفيهم طلحة بن عبيد الله^١ والزبير بن العوام، فأتوا علياً وقالوا: لا بدّ للناس من إمام، فقال لهم والضيّق يغلب على نفسه: «لا حاجة لي في أمركم، فمن اخترتم رضيت به»^٢ قالوا: ما نختار غيرك، وألحوا، وهو يرفض ويقول: «لأن أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً»^٣ قالوا: والله ما نحن منصرفين عنك حتّى نباعك. ولما رأى إلحاح القوم خرج إلى المسجد وباعه الناس، فصعد المنبر وقال: «أيها الناس - عن ملأ وأذن - إن هذا أمركم ليس لأحدٍ فيه حقّ إلّا من أمرتم، وقد افترقنا أمس على أمرٍ، وكنت كارهاً لأمركم، فأبيتم إلّا أن أكون عليكم، ألا وإنه ليس لي دونكم إلّا مفاتيح أموالكم معي، وليس لي أن آخذ درهماً دونكم»^٤.

وفرق أمير المؤمنين عمّاله في الأمصار، وتوقّف بعض الناس في بعض الأمصار، فجمع رجلي شوره: طلحة والزبير، فقال^٥: «إنّ الأمر الذي كنت أهدركم قد وقع، وافترق المسلمون، وسأمسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بُدّاً فأخر الدواء الكيّ»^٦ وكتب إلى الأمصار فأجمعت الطاعة، إلّا معاوية بن أبي سفيان بالشام، حبس رسول أمير المؤمنين إليه ثلاثة أشهر، ثم بعث برده يصدره بقوله: من معاوية إلى علي! كأنه ندّ له، بل طالبه فيه يدم عثمان! كأنما علي هو الذي قتله! وكأنما معاوية صاحب دمه! وهو واحد من تاركيه بالمدينة

١. طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي المدني: أبو محمد، صحابي شجاع من الأجداد، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام.

قال ابن عساكر: كان من دهاة قريش، شهد أحد، وكان من الثابتين مع رسول الله ﷺ، وقد بايعه على الموت، فأصيب بأربعة وعشرين جراحة، وشهد الخندق وسائر المشاهد، قُتل يوم الجمل وهو بجنب عائشة سنة ٤٣هـ، ودفن بالبصرة. (الأعلام: ج ٣ ص ٢٢٩).

٢. شرح الأخبار للقاضي التعماني المغربي: ج ١ ص ٣٧٦، الكافية للشيخ المفيد: ص ١٢، بحار الأنوار: ج ٣٢ ص ٧ و ص ٣١، تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٤٥٠، الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ج ١ ص ٨١.

٣. تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٤٥٠، وسيلة المآل للعلامة المولوي محمد مبین الهندي: ص ١٥٢، الإباضية في موكب التاريخ العلمي يحيى الإباضي: ج ١ ص ٢١٠ طبعة القاهرة.

٤. تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٤٥١، بحار الأنوار: ج ٣٢ ص ٨، معاوية لإبراهيم الأبياري: ص ١٦٠.

٥. الكامل لابن الأثير: ج ٢ ص ٣١٠، معاوية لإبراهيم الأبياري: ص ١٧٠.

٦. قال المجلسي في البحار: ج ٣١ ص ٥٠٥: «ولعلّ المعنى: بعد الداء الكيّ، إذا اشتدّ الداء ولم يزل بأنواع المعالجات فيزل بالكّي وينتهي أمره إليه». وقال صاحب المستقصى: ج ١ ص ٥: «فهذا المثل يضرب في أعمال المخاشنة مع العدو، إذ لم يجد معه اللين والمدارة».

للتوّار، بلا نجدة! وعباً معاوية جيشه لقتال علي.

وفيما كان علي يتجهّز لقتال معاوية أتاه الخبر أنّ طلحة والزبير قد نقضا البيعة، وأنهما ومعهما أم المؤمنين عائشة وأهل مكة خالفوه، وخرجوا عليه قاصدين إلى البصرة، فنهد للحرب، وكانت وقعة الجمل حيث انتصر، وذكر يوم ذاك الزبير بقول النبي للزبير: «لتقاتلته وأنت ظالم له»^١ فترك الزبير حربه، وندم طلحة قبل أن يستشهد.

ثم رجع أمير المؤمنين يسوي حسابه مع جيش الشام بقيادة معاوية، وتلاقي الجيشان في صفين^٢ وفيها استشهد عمار بن ياسر وهو في التسعين من العمر. وفيه قول الرسول: «تقتلك الفئة الباغية»^٣. وهو حكم على جيش معاوية.

أمّا أمير المؤمنين يومئذٍ فقيه يقول ابن عباس جواباً لرجلٍ سأله: أكان علي يباشر القتال في صفين^٤? «والله ما رأيت رجلاً أطرح لنفسه في متلفئة مثل علي، رضي الله تعالى عنه، ولقد كنت أراه يخرج حاسراً عن رأسه بيده السيف إلى الرجل الدارع، فيقتله»^٥.

تراءت بشرينات النصر للبطل الذي تعود النصر، فرجع جيش المصاحف على أسنة الرماح طالبين تحكيم كتاب الله بينهم، فأبى علي أن يحارب والمصاحف مرفوعة، وتمت

١. المستدرک للحاکم: ج ٣ ص ٣٦٦، کنز العمال: ج ١١ ص ٣٣٠ ح ٣١٦٥٢، فتح الباری لابن حجر: ج ١٣ ص ٤٦، فیض القدير للمناوي: ج ٤ ص ٣٥٨، المصنّف لابن أبي شیبة: ج ٨ ص ٧١٩، تاریخ مدينة دمشق: ج ١٨ ص ٤١٠، البداية والنهاية: ج ٦ ص ٢٣٨، تهذيب التهذيب: ج ٦ ص ٢٩٠.

٢. شهد صفین مع علي ألفان وثمانمائة من الصحابة، منهم سبعة وثمانون من أهل بدر، وتسعمائة من الأنصار ومن بايعوا بيعة الرضوان. (منه).

٣. صحيح مسلم: ج ٨ ص ١٨٦، سنن الترمذي: ج ٥ ص ٣٢٣، المستدرک: ج ٢ ص ١٤٨ و ج ٣ ص ٢٨٦ و ٢٩١، السنن الكبرى للبيهقي: ج ٨ ص ١٨٩، مجمع الزوائد: ج ٧ ص ٢٤٢ و ج ٩ ص ٢٩٦ و ٢٩٧، فتح الباري: ج ١ ص ٤٥١، مسند أبي داود: ص ٨٤ و ص ٩٠ و ص ٢٢٣ و ص ٢٨٨ و ص ٢٩٣، السنن للنسائي: ج ٥ ص ٧٥ و ص ١٥٥، مسند أبي يعلى: ج ٧ ص ١٩٥، المعجم الأوسط للطبراني: ج ٧ ص ٢٩١، المعجم الكبير للطبراني: ج ١ ص ٣٢٠ و ج ٥ ص ٢٢١.

٤. صفين - بكسرتين وتشديد الفاء - موضع بقرب الرقة، على شاطئ الفرات من الجانب الغربي، بين الرقة وبالس. (معجم البلدان: ج ٣ ص ٤١٤).

٥. ذخائر العقبين: ص ٩٩، جواهر المطالب في مناقب الامام علي لابن الدمشقي: ج ١ ص ٢٦٦. وجاء بهذا المعنى في تاريخ دمشق في ترجمة الإمام، وحياة الحيوان الكبرى للدميري: ج ١ ص ٨١، وبعض اخبار أمير المؤمنين ص ٦٠٢.

خدعة التحكيم باختيار معاوية عمرو بن العاص^١ حكماً يمثله، واختار أصحاب علي أبا موسى الأشعري، وخديعة عمرو لأبي موسى، إذ راوده على أن يخلع كل منهما صاحبه ويترك الأمر للمسلمين يختارون من يشاءون، فقبل، ثم قدم عمرو أبا موسى فخلع صاحبه، فلما جاء دور عمرو ثبت صاحبه!

وخرج من أصحاب علي جماعة لقبوله التحكيم فيما هو حق له، فحاربهم وانتصر عليهم في «النهروان»^٢ وأطلق عليهم المسلمون اسم: الخوارج.

وأخذ يعبئ جنده لمنازلة جيش الشام، وبدا على جنده آثار التعب من القتال، وعلى جيش معاوية آثار شراثة للرجال، وانقسم المسلمون: فهذا حزب علي، وهذا حزب معاوية! والذين عاصروا الإسلام منذ ظهوره، كالذين درسوه والذين صدقوا فيه، يفهمون المرارة في قول أمير المؤمنين: «نزلني الدهر حتى قيل: علي ومعاوية^٣!». رضي الله عن أمير المؤمنين وأرضاه، فما كان ذلك ليقع إلا في آخر الزمان الذي قدره الله للخلفاء الراشدين^٤، وفي آخر الأيام التي قدرها الله لحياته.

١. عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي؛ أبو عبد الله، فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم، وأولي الرأي والحزم والمكيذة فيهم. كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام، وأسلم في هدنة الحديبية، وولاه النبي ﷺ إمرة جيش (ذات السلاسل) وأمدّه بأبي بكر وعمر، ثم استعمله على عمان، ثم كان من أمراء الجيوش في الجهاد بالشام في زمن عمر، وهو الذي فتح قنسرين، وصالح أهل حلب وأنطاكية، وولاه عمر فلسطين ثم مصر فافتتحها، وعزله عثمان.

ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية كان عمرو مع معاوية، فولاه معاوية مصر سنة ٣٨ هـ، وأطرق له خراجها ست سنين، فجمع أموالاً طائلة. توفي بالقاهرة سنة ٤٣ هـ عن عمر ناهز الثالثة والتسعين. (الأعلام: ج ٥ ص ٧٩).

٢. النهروان: وأكثر ما يجري على الألسن بكسر التون، وهي ثلاثة نهروانات: الأعلى والأوسط والأسفل، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط، من الجانب الشرقي. حدّها الأعلى متصل ببغداد، وفيها عدّة بلاد متوسطة. وقيل: إن نهروان معناه: ثوب العمل، لقصة ملك أراد أن يكفر عن فعله فاختر أرضاً خراباً وعمرها. وجعلها ثوباً لمن قتله خطأ. (معجم البلدان: ج ٥ ص ٣٢٤-٣٢٥).

٣. ذكرها إدريس الحسيني المغربي بلفظها في كتابه «لقد شيعني الحسين»: ص ٢٣٥ ولم يخرّجها. ولكن جاء بمعناها: «فباعجياً للدهر، إذ صرت يقرن بي من لم يسع بقدمي، ولم تكن له كسابقتي التي لا يدلي أحد بمثلها...» في نهج البلاغة: ج ٣ ص ١٠.

٤. أمّا أهل السنّة فيمثل رأيهم إمام أهل السنّة أحمد بن حنبل، إذ سئل: من الخلفاء؟ وأجاب: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، قال السائل: فمعاوية؟ قال أحمد: لم يكن أحد أحق بالخلافة في زمن علي من

لقد طعنه عبد الرحمان بن ملجم^١ في السابع عشر من رمضان سنة ٤٠، باتفاقٍ بينه وبين زميلين من «الخوارج» أن يقتلوا علياً ومعاوية وعمراً، فأصيب معاوية في عجزه، ولم يصب عمرو إذ لم يخرج للصلاة وأتاب نائباً عنه فقتل.

أمر معاوية بالرجل فقتل، وأمر عمرو برجله فقتل، لكنَّ أمير المؤمنين أمر باستيقاظ قاتله قائلاً - وهو الطعين المشرف -: إنه إذا عاش فهو وليّ دمه، وإذا مات فإنَّه ينهئ عن المثلة^٢. ليعلم الناس الدين، كمثّل ما علّم العالم جميعه قوانين الحرب والسلام في حروبه في «الجمال» سنة ٣٥، و«صفين» سنة ٣٦، و«النهران» سنة ٣٧، فتداولتها المذاهب الأربعة

→ علي، ورحم الله معاوية. ولما ذكر عنده سير عائشة مع طلحة والزبير قال: فكّرت في طلحة والزبير، أما كانا يريدان أعدل من علي بن أبي طالب؟! رضوان الله عليهم أجمعين. وجاء يوماً جماعة فأكثروا القول وأطالوه في خلافة علي، فرفع إليهم رأسه وقال: إنَّ الخلافة لم تزيّن علياً، ولكنَّ علياً زيّنها.

ومثّل الشافعي رأي المسلمين، عندما قال رجل: ما نفر الناس من علي إلاّ لأنّه كان لا يبالي بأحد، فبهته الشافعي بقوله: كان له أربع خصال، لا تكون واحدة منها لإنسان إلاّ ويحقّ له ألاّ يبالي بأحد: إنّه كان زاهداً، والزاهد لا يبالي بالدنيا وأهلها. وكان عالماً، والعالم لا يبالي بأحد. وكان شجاعاً، والشجاع لا يبالي بأحد. وكان شريفاً، والشريف لا يبالي بأحد.

وأما الخوارج على جيشه فكانوا ثمانية آلاف، دعاهم ليزيل شبهتهم، فأبوا أن يجيئوه إلاّ أن يقرّ بالكفر على نفسه ثم يتوب، فحاربهم ونصره الله عليهم، ثم حاربوا الأمويين والعباسيين. ومع تكفيرهم الكثيرين من جمهور المسلمين بدعوى التهاون في الدين، فالمسلمون لا يكفّرونهم لأنهم متأولون، وأمير المؤمنين علي يعلم المسلمين ذلك بقوله عنهم: «إخواننا بغوا علينا».

وقفه علي في معاملة العدو، وفي الحرب، عنوان علم الإمام وحلمه، فهما من علم النبي وحلمه. إذا كانت هند بنت عتبة (أم معاوية) مثلت بجثة أسد الإسلام حمزة يوم أحد، وقال النبي يومذاك: «ما وقفت موقفاً قطّ أغيظ لي من هذا» فلما جاءه يوم فتح مكة «وحشي» قاتل حمزة، اكتفى بقوله «ويحك، غيّب عني وجهك». وقال يومذاك لهند بنت عتبة، أكلة الأكباد: «مرحياً بك» وقال للأعداء: «أنتم الطلقاء». فلقد صنع علي صينته يوم الجمل عندما ظفر بابن الزبير، فاكتفى بأن قال له: «لا أريتك بعد اليوم» وظفر بسعيد بن العاص فأعرض عنه، وظفر بأهل البصرة فصفع الصفع الجميل. (منه).

١. عبد الرحمان بن ملجم المرادي التدولي الحميري، فاتك ثائر، من أشدّاء الفرسان، أدرك الجاهلية، وهاجر في خلافة عمر، وقرأ على معاذ بن جبل، فكان من القراء وأهل الفقه والعبادة. شهد فتح مصر وسكنها، فكان فيها فارس بني تدؤل، كان من شيعة علي عليه السلام وشهد معه صفين، ثم خرج عليه، فاتّفق مع البرك بن عبد الله التميمي وعمرو بن بكر على قتل علي، ومعاوية وعمرو بن العاص. (الأعلام: ج ٣ ص ٣٣٩).

٢. مجمع الزوائد: ج ٦ ص ٢٤٩ و ج ٩ ص ١٤٢، المعجم الكبير للطبراني: ج ١ ص ١٠٠، نصب الراية للزليعي: ج ٣ ص ٢٢٤.

لتقدمها هدية من فقه الإسلام للقوانين المعاصرة.

ومات أمير المؤمنين بعد يومين عن ٦٥ أو ٦٣ عاماً، وأربعة أعوام وتسعة أشهر ويوم واحد في خلافة كلِّها معارك.

ولمّا مات لم يوجد بخزائنه إلاّ ستمائة درهم استبقاها ليشتري بها خادماً. بل وكما لخص حياته سفيان الثوري: ما بنى لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، وإن كان ليؤتى بحبوته في جراب^١. الحبوة: الخراج.

وكما يقول محمد بن كعب القرظي: سمعت علي بن أبي طالب يقول: «لقد رأيتني وأنا أربط الحجر على بطني من الجوع وإنّ صدقتي لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار»^٢.

ولمّا قال معاوية لضرار من ضرة: صف لي علياً، قال فيما قال: كان بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من لسانه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحدته. وكان - والله - غزير الدمعة طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن. وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه ويبتدئنا إذا أتينا،... ونحن - والله - مع تقريبه لنا ودنوه منا لا نكلمه هيباً له، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله... يبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا إليّ تعرّضت أم إليّ تشوّقت، فههات هيهات، غرّي غيري^٣.

بايع المسلمون الحسن بن علي أميراً للمؤمنين، فخرج بجيشٍ قوامه أربعون ألفاً للقاء جيش معاوية، وتخاذل جنده كهيئة تخاذل الجند بين يدي أبيه، وجرت البرد بينه وبين

١. حلية الأبرار للسيد هاشم البحراني: ج ٢ ص ٢٣٩، المناقب للخوارزمي: ص ٦٧، أسد الغاية: ج ٤ ص ٢٤، الكامل لابن الأثير: ج ٣ ص ١٦٠. ونظيره ما رواه أحمد في فضائل الصحابة: ج ١ ص ٥٣٦، غاية المراد للسيد هاشم البحراني: ج ٦ ص ٣٤١، تاريخ الإسلام للعلامة محمد بن أحمد بن قايماز الدمشقي الشافعي: ج ٢ ص ٢٠٣، البداية والنهاية: ج ٨ ص ٣، ينابيع المودة: ص ١٤٦.

٢. أسد الغاية: ج ٤ ص ٢٣، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٢٣، حلية الأولياء: ج ١ ص ٨٦، وفيه: «أربعون ألفاً» وكذا كنز العمال: ج ١٣ ص ١٧٩ ح ١٦٥٣٣.

٣. ينابيع المودة: ج ٢ ص ١٨٨، سبل الهدى والرشاد للصافي الشامي: ص ٣٠٠، جواهر المطالب لابن الدمشقي: ج ١ ص ٢٣٤، الصواعق المحرقة: ص ١٣١ و ١٣٢، تاريخ دمشق: ج ٢٤ ص ٤٠٢ و ٤٠١، خصائص الوحي المبين لابن البطريق: ص ٣٢، حلية الأولياء لأبي نعيم: ج ١ ص ٨٤، الأمالي لأبي علي القاسمي: ج ٢ ص ١٤٣، زهر الآداب للقيرواني: ج ١ ص ٤٣، الاستيعاب لابن عبد البر: ج ٢ ص ٤٦٣، ربيع الأبرار للزمخشري: ص ١٥، صفة الصفوة لابن الجوزي: ج ١ ص ١٢١، الرياض النضرة: ج ٢ ص ٢١٢، ذخائر العقبى: ص ١٠٠.

معاوية، فأحدث بينه وبين معاوية صلحاً بعد خلافة دامت ستة أشهر وخمسة أيام «لعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»^١. فذلك قول جدّه عليه الصلاة والسلام.
ودخل المتصالحان الكوفة، فسُمّي البعض عامهما هذا عام الجماعة. وأسماء الجاحظ^٢:
عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة^٣.

حدّث الشعبي^٤ قال: شهدت خطبة الحسن عليه السلام حين صالح معاوية وخلع نفسه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإن أكيس الكيس التقى، وإن هذا الأمر الذي اختلفت أنا ومعاوية فيه، إن كان له فهو أحقّ به مني، وإن كان لي فقد تركته إرادةً لإصلاح الأمة وحقن دماء المسلمين» وإن أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين^٥. ورجع الحسن إلى المدينة، وعوتب عليّ صلحه فقال: «اخترت ثلاثاً عليّ ثلاث: الجماعة على الفرقة، وحقن الدماء عليّ سفكها، والعار على النار»^٦.

١. طبقات ابن سعد في ترجمة الامام الحسن: ص ٤٢ و ٤٤، مسند أحمد: ج ٥ ص ٢٧، فضائل الصحابة: رقم ١٤٠٠، مسند أبي داود: ص ١١٨ رقم ٨٧٤، المعجم الكبير للطبراني: ج ٣ ص ٢٢ رقم ٢٥٩١، حلية الأولياء لأبي نعيم: ج ٢ ص ٣٥، مجمع الزوائد للهيتمي: ج ٩ ص ١٧٥، تذكرة الحفاظ للذهبي: ص ٦٠٩، وفي الاستيعاب: ج ١ ص ٢٨٤، وقال: تواترت الآثار الصحاح عن النبي فيه. بحار الأنوار: ج ٤٣ ص ٣١٧، وأخرجه البخاري في صحيحه في عدة موارد في كتاب الصلح، وكتاب الفتن، وكتاب بدء الخلق، وباب مناقب الحسن والحسين، وباب علامات النبوة. الصواعق المحرقة: ص ١٣٧.

٢. هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي: أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، فُلج في آخر عمره، وكان مشوّه الخلقة، مات سنة ٢٥٥ هـ في البصرة أثر كتب وقعت عليه. له تصانيف كثيرة، منها: الحيوان، والبيان والتبيين، والبخلاء. (الأعلام: ج ٥ ص ٧٣).

٣. رسالة الجاحظ في بني أمية، تحقيق الدكتور حسين مؤنس: ص ١٢٤ دار المعارف القاهرة ١٩٨٨.
٤. عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي الحميري: أبو عمرو، راوية من التابعين، يضرب المثل بحفظه، ولد سنة ١٩ هـ بالكوفة، ونشأ ومات فجأة فيها سنة ١٠٣ هـ. اتصل بعبد الملك بن مروان، فكان نديمه وسميره. استقضاء عمر بن عبد العزيز، وكان قبيهاً شاعراً، لُقّب بالشعبي نسبة إلى شعب، وهو بطن من همدان. (الأعلام: ج ٣ ص ٢٥٠).

٥. الأنبياء: ١١١.

٦. الصواعق المحرقة: ص ١٣٧، المعجم الكبير للطبراني: ج ٣ ص ١٣ برقم ٢٥٥٩، حلية الأولياء لأبي نعيم: ج ٢ ص ٢٧، طبقات ابن سعد: ترجمة الإمام الحسن: ص ٨١، الاستيعاب لابن عبد البر: ج ١ ص ١٤١، ونقل عنه الشيخ مطهر المقدسي في البده والتاريخ: ج ٥ ص ٢٣٧، ورواها النهائي في الشرف المؤيد: ص ٦١، والجزري في المختار: ص ١٩.

٧. فلك النجاة لعلي محمد فتح الدين الحنفي: ص ٥٣، الكامل لابن الأثير: ج ٣ ص ١٦٢، تاريخ الطبري: ج ٦

وليس بغير هذا يتكلم الحسن، فلقد كان رجل عبادة وسلام للناس، خرج من ماله مرتين، وقاسم الله ماله ثلاث مرّات. وحجّ عشرين حجّة ماشياً من المدينة إلى مكة. وفي ربيع الأول سنة ٤٩ هـ شعر بالسّم يسري في جسده، لتبدأ به سلسلة أئمة أهل البيت الذين يموتون مسمومين على أيدي بني أمية وبني العباس، فأوصى للحسين، وقال: «إذا متّ فادفني مع جدّي ما وجدت لذلك سبيلاً»^١ لكن مروان بن الحكم^٢ والي معاوية على المدينة منع من تنفيذ الوصية، فدفن الحسن بالبقيع، وسيدفن معه في قبره أئمة أهل البيت: الرابع والخامس والسادس، فأكرمهم به قبراً! فيه أمير المؤمنين الحسن، وعلي زين العابدين ابن الحسين، وابنه محمد الباقر، وابن الباقر: جعفر الصادق.

لما مات الحسن كثير أهل الشام، فقالت فاختة بنت قريظة^٣ لمعاوية: أعلى موت ابن فاطمة تكبير؟ قال: ما كثرت شماتة بموته، ولكن استراح قلبي^٤. وقال له ابن عباس: «والله يا معاوية، لا تسدّ حفرتة حفرتك، ولا يزيد عمره في عمرك...»^٥.

→ ص ٩٥، حياة الحيوان للدميري: ج ١ ص ٥١.

١. الصواعق المحرقة: ص ١٤٠، طبقات ابن سعد ترجمة الامام الحسن ص ٨٥، ٨٦ بعبارات مشابهة، تاريخ مدينة دمشق في ترجمة الامام الحسن ص ٢١٦، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: ج ٧ ص ٤٢، احقاق الحق للستري: ج ٢٦ ص ٥٨٩.

٢. مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس؛ أبو عبد الملك، خليفة أموي، وهو أول من ملك من بني الحكم بن أبي العاص، وإليه ينسب بنو مروان، ولد بمكة ٢ هجرية، ونشأ بالطائف، وسكن المدينة، فلما كانت أيام عثمان جعله في خاصته وأخذته كاتباً له. ولما قُتل عثمان خرج مروان إلى البصرة مع عائشة يطالبون بدمه، وشهد صفين مع معاوية، ثم آمنه علي فأتاه فبايعه، وأقام بالمدينة إلى أن ولّاه معاوية عليها سنة ٤٢ - ٤٩ هـ، وأخرجه عبد الله بن الزبير منها، ولما تار أهل المدينة على يزيد أخرجوا مروان منها، وبعد وفاة معاوية بن يزيد دعا مروان إلى نفسه، فبايعه أهل الأردن، ثم سعى إلى باقي البلاد، توفّي بالطاعون بدمشق ٦٥ هـ. (الأعلام: ج ٧ ص ٢٠٧-٢٠٨).

٣. وهي زوجة معاوية.

٤. ربيع الأبرار للزمخشري: الباب الحادي والثمانين، فلك النجاة لعلي محمد الحنفي: ص ٤٥، نزل الأبرار للبديشي، نقل عنه الغدير: ج ١١ ص ١٣، المحاضرات للراغب: ج ٢ ص ٢٢٤، حياة الحيوان: ج ١ ص ٥٨، تاريخ الخميس: ج ٢ ص ٢٩٤.

وذكر ابن قتيبة: أنه سجد وسجد من كان معه. راجع الامامة والسياسة: ج ١ ص ١٤٤، وكذا في العقد الفريد: ج ٢ ص ٢٩٨ حيث قال: خرّ ساجداً. وراجع تاريخ دمشق: ج ٣ ص ٣٣٧، مروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٣٣٩.

٥. المصادر نفسها.

وطلب معاوية البيعة لنفسه من محمد بن مسلمة الفدائي الثاني من أصحاب الرسول - إذ علي الفدائي الأول^١ - فقال له: لعمرى يا معاوية ما طلبت إلا الدنيا، ولا أتبع إلا الهوى، ولئن كنت نصرت عثمان ميثماً لقد خذلته حياً، ونحن ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار

١. أول عمل فدائي في الإسلام قام به علي ليلة نام في فراش النبي.

ومحمد بن مسلمة هو الرجل الثاني في هذه المدرسة، سمع الرسول يقول في المدينة: «من لكعب بن الأشرف، فإنه قد أذى الله ورسوله» وكان كعب يؤذي المسلمين بهجائه، ويحرض قريشاً عليهم، فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: نعم، قال: فأذن لي أن أقول شيئاً (مما يتقرب به إلى كعب وهو بحسب الظاهر طعن في الإسلام) قال النبي: قل ما بدا لك، فأتاه محمد بن مسلمة في نفر من الأنصار، منهم أبو نائلة أخو كعب من الرضاع. قال ابن مسلمة: يا كعب، إن هذا الرجل (يعني النبي) قد عثانا بالصدقات، وإني قد أتيتك استسلفك، قال كعب: والله لتملته، قال ابن مسلمة: إننا قد أتبعناه، فلا تحب أن ندعه حتى ننظر ما يكون من شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين، قال: فأرهنوني نساءكم، قال ابن مسلمة: كيف زهنتك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فأرهنوني أبناءكم، قال ابن مسلمة: كيف زهنتك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال: زهين يوسق أو وسقين، زهنتك السلاح، فقيل.... وتواعدوا على الليل حتى جاءوه، فنزل إليهم من حصنه، فضربوه بأسياهم فقتلوه.

وكان ابن سلمة يسمى: فارس رسول الله، كان على رأس مائة فارس يسبقون المسلمين طلائع لهم يوم الحديبية، واستخلفه الرسول على المدينة عندما سار بجيش العسرة ليرد الروم إلى تخوم شبه الجزيرة بعد فتح مكة. وكان سعد بن أبي وقاص بطل القادسية وفتح العراق، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومنهم الراشدون الأربعة، والرسول يقول عنه: هذا خالي، فليات كل فتى بخاله! وقد دعا له الرسول بالاستجابة لدعائه. فكان الكل يخشى أن يدعو عليه، لكن عمر بلغه أن سعد بن أبي وقاص بنى لنفسه قصراً، وجعل عليه حاجباً، فبعث إليه محمد بن مسلمة ليحرق عليه القصر، وكتب إلى سعد يقول: بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً، ويسمى بيت سعد.... وجعلت بينك وبين الناس باباً، فليس بقصرك. ولكنه قصر الخبال. وصنع محمد بن مسلمة، وعاد بسعد وبالشاكين إلى عمر، فضع عمر بسعد عليهم، ورفض أن يعيده إلى بلدهم.... وقال لعثمان: إني لم أعزله عن خيانة، ووضع بين الستة أصحاب الشورى.

ولما دارت المكاتبات بين عمر وعمرو بن العاص فاتح مصر، بعث إليه محمد بن مسلمة وكتب إليه يقول: إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان، لم تكن لك حين وليت مصر. وأجاب عمرو: إن أرضنا أرض زرع وشجر، ونحن نصيب فضلاً عما نحتاج لنفقتنا، ورد عمر: إني خبرت من عمال سوء ما كفى، وكتابك إلي كتاب من ألقاه الأخذ بالحق، وقد سؤت بك ظناً، ووجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه طلعه، وأخرج إليه ما يطالبك، وأعفه من العلظة، فقد برح الخفاء.

فقسام محمد عمراً، وعمرو يقول متوجعاً: إن زماناً عاملنا فيه ابن حنتمه (أم عمر) هذه المعاملة لزمان سوء، لقد كان العاص يليس الخز بكفاف الديباج. قال محمد: لولا زمان ابن حنتمه هذا الذي تكره ألفت معتقلاً عنزاً بفناء بيتك، قال عمرو: أنشدك الله لا تخبر عمر بقولي، فإن المجالس بالأمانة، قال محمد: لا أذكر شيئاً مما جرى وعمر حي. (منه).

أولئ بالصواب^١.

ولما دخل سعد بن أبي وقاص^٢ على معاوية قال: السلام عليك أيها الملك، قال معاوية: ما كان عليك يا أبا إسحاق إن قلت: أمير المؤمنين؟^٣

كتب معاوية إلى عماله بنسخة واحدة: انظروا من قامت عليه البيئنة أنه يحب علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه^٤. وأمر من يأترون بأمره ألا يرووا أحاديث فضائل علي وشيعته، ثم تمادى فكلف ولاته أن يلعنوا علياً ومن أحبه على المنابر، فكتبت إليه أم المؤمنين أم سلمة تقول: إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم لأنكم تلعنون علياً ومن أحبه، وأشهد أن رسول الله ﷺ أحبه^٥.

ولما دانت الدنيا لمعاوية قيل له: قد بلغت ما بلغت، فلو كفت عن الرجل؟ فقال: لا والله حتى يربو عليها الصغير، ويهرم الكبير^٦.

١. الإمامة والسياسة: ج ١ ص ١٢١ بتحقيق الشيري، شرح ابن أبي الحديد: ج ١ ص ٢٦٠.

٢. سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي، الزهري: أبو إسحاق، الصحابي الأمير، فاتح العراق ومدائن كسرى، وأحد الستة أهل الشورى، وأول من رمى بسهم في سبيل الله. أسلم وهو ابن ١٧ سنة، وشهد بدرأ، وافتتح القادسية، ونزل الكوفة وظلّ والياً عليها مدة خلافة عمر، وأقره عثمان عليها زمناً، ثم عزله، فعاد إلى المدينة وقد بصره، اعتزل الجمل وصفين، توفي سنة ٥٥ هجرية. (الأعلام: ج ٣ ص ٨٧).

٣. الفصول المهمة لابن الصائغ المالكي: ص ١٦٤. ونقله الشيخ الماحوزي في كتابه الأربعين: ص ٣٨٧ عن صاحب تاريخ البديع. تاريخ دمشق: ج ٥ ص ٢٥١، ج ٦ ص ١٠٦، ج ١٧ ص ٣٢٤، المصنّف للصنعاني: ج ١٠ ص ٣٩١ ح ١٩٤٥٥، تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ٢١٧، النصائح الكافية لمحمد بن عقيل: ص ١٩٥.

٤. كتاب سليم بن قيس: ص ٣١٨ تحقيق الأنصاري، بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ١٨٠، شرح ابن أبي الحديد: ج ٣ ص ١٥، أمان الأمة من الاختلاف للطف الله الصافي: ص ٤٠، النصائح الكافية لمحمد بن عقيل: ص ٩٨، وروى ابن الأثير في الكامل: ج ٣ ص ٤٧٧ نقلاً عن المقرئ: «كان بنو أمية إذا سمعوا بمولود اسمه علي قتلوه».

٥. جواهر المناقب لابن الدمشقي: ج ٢ ص ٢٢٩، النصائح الكافية لمحمد بن عقيل: ص ٩٦، بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ١٧٧، العقد الفريد لابن عبد ربه الاندلسي: ج ٢ ص ٣٠١ نقل عنه الغدير في: ج ١٠ ص ٢٦٠، وفي معنى رسالتها جاء عنها وعن غيرها أحاديث مستندة موثوقة في كثير من مصادر الحفاظ، راجع خصائص أمير المؤمنين للنسائي: ص ١٦٩ - ١٧٣، ورواه الحافظ ابن عساكر في الحديث ٦٦٤ من تاريخ دمشق: ج ٢ ص ١٧١، وعيون أخبار الورق لمحمد بن علي البغدادي: في المجلس (٤).

٦. الحصون المنيعه للسيد محسن الأمين: ص ١٥، الشيعة في الميزان لمحمد جواد مغنية: ص ٣٤٠، الامامة وأهل البيت لمحمد بيومي: ج ٢ ص ١٥ و ص ٢٤٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٤ ص ٥٧.

ولو عاش بضع سنين بعد عام موته لشهد انهيار دولته، وانتهاء أسرته، أمّا الذين جاءوا بعده فسيشهدون صعود الشمس في السماء معلنة حقّ علي، مؤذنة بظهور أهل بيت النبي. جعل معاوية الخلافة ميراثاً لابنه يزيد، بالسيف على رؤوس أبناء الصحابة جهرةً، وبالرعب في قلوب المستضعفين، وبالرشى في جيوب الآخرين!^١

أمّا الحسين بن علي فلم يُستدرج ولم يستضعف، وأبى أن يبايع ليزيد. وأمّا عبد الرحمان بن أبي بكر^٢ فقال لمعاوية كلمته الخالدة في خلافته وخلافة ابنه ومن جاءوا بعده: إنهم جعلوها «هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل»^٣.

وعبد الرحمان بن أبي بكر هو جدّ «جعفر الصادق» من ناحية أمه وأمهات، أمّا الحسين فجده من ناحية أبيه.

كان رأي محمد بن مسلمة وسعد بن أبي وقاص: أن معاوية صاحب ملك...، ولكن ملك معاوية كان بصلح مشروط، فلما خرج على الشروط أمسى حقاً لكلّ مجتهد أن يقول فيه باجتهاده، في المرة الأولى والمرة الآخرة.

ولقد قال أمير المؤمنين علي قوله فيه، وكشف الله لحكمة الإمام وجه الحقّ فيما صار إليه أمر معاوية وأمور المسلمين، فحسبنا وحسبه قول علي فيه - وقد أسلفناه - بل قول النبي لعمّار عن جيش معاوية: «تقتلك الفئة الباغية»^٥.

١. انظر الغدير: ج ١٠ ص ٢٣٦.

٢. هو عبد الرحمان بن عبد الله أبي بكر الصديق ابن أبي قحافة القرشي التيمي، كان اسمه في الجاهلية: عبد الكعبة، فجعله الرسول عبد الرحمان. كان من أشجع قريش وأمرامهم بسهم، حضر اليمامة، وشهد غزوة أفرقيّة، وحضر الجمل مع عائشة، وكان شاعراً. مات في مكّة سنة ٥٢. له في كتب الحديث ثمانية أحاديث. (الأعلام: ج ٣ - ص ٣١٢).

٣. تاريخ دمشق: ج ٣٥ ص ٣٥، أسد الغابة: ج ٣ ص ٣٠٦، البداية والنهاية: ج ٨ ص ٩٦.

٤. فأتمه فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وتكنى أم فروة، وأمها أسماء بنت عبد الرحمان بن أبي بكر. راجع في ذلك: الكافي: ج ١ ص ٣٩٣، والإرشاد للمفيد: ص ٢٧١، ودلائل الإمامة: ص ٢٤٨، ومستدرک سفينة البحار: ج ٦ ص ٢٢٦.

ولذا كان يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أولدني أبو بكر مرتين» راجع: عمدة الطالب لابن عنبه: ص ١٩٥، والصورام المهرقة للتستري: ص ٢٥٣، وبحار الأنوار: ج ٢٩ ص ٦٥١، ومعجم رجال الحديث للخوئي: ج ١٥ ص ٤٩.

٥. الغدير: ج ١٠ ص ٢٣٦، الخلافة المغتصبة لإدريس المغربي: ص ١٩١، الكامل لابن الأثير: ج ٢ ص ٥١٠.

أما عمرو فلاتمة السنّة فيه ما يكفيه، وحسبه قول الشافعي^١ فيه، حول أساطين جامعه، حيث راح الشافعي يروي بعد قرن ونصف قرن في جامع عمرو بفسطاط مصر، دخول ابن عباس على عمرو، وهو ابن بضع وثمانين، وقول عمرو: أصبحت وقد ضيّعت من ديني كثيراً، وأصلحت من دنيائي قليلاً، فلو كان الذي أصلحت هو الذي أفسدت، والذي أفسدت هو الذي أصلحت لقد فزت...، فعظني بعظة انتفع بها يا ابن عباس، قال ابن عباس: هيهات...، قال عمرو: ابن بضع وثمانين وتقنطني من رحمة الله! ثم رفع يديه وقال: اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك، فخذ مني حتى ترضى، قال ابن عباس: هيهات يا أبا عبد الله، تأخذ جديداً وتعطي خلقاً، قال: من لي منك يا ابن عباس، ما أرسل كلمة إلا أرسلت نقيضها!^٢ والمسلمون يتناقلون قول الشافعي في جامع عمرو عن عمرو: قدم ابن عمارة على عمرو فألفاه صائماً وقد أحضر إخوانه طعاماً، وصلّى صلاةً فأقنعتها، ثم أتني بمالٍ فأمر بتفريقه، قال ابن عمارة: يا أبا عبد الله وأتاك مال أنت به أحق من غيرك ففرّقته، بم ذلك يا أبا عبد الله؟ قال: ويحك يا ابن عمارة، فلو كانت الدنيا مع الدين أخذناها وإيّاها، ولو كانت تنحاز عن الباطل أخذناها وتركناه، فلمّا رأينا ذلك كذلك خلطنا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى أن يرحمنا الله^٣.

وسمع العالم الشافعي في جامع عمرو يهتز تحتاناً إلى أبناء علي في الحجاز، فينشد:
يا راكباً قف بالمحصب من منى واهتف بقاعد خيفها والناهض

→ وأخرج البخاري الحديث في صحيحه بعد أن حذف قول عبد الرحمان (هرقلية...) وأبدله بقوله: «قال شيئاً في حين أنبتها ابن حجر في كتابه فتح الباري على شرح البخاري...، راجع: صحيح البخاري: ج ٣ ص ١٢٦، فتح الباري: ج ١٠ ص ١٩٧ وأخرج القصة بتفصيلها: أبو الفرج في الأغاني: ج ١٦ ص ٩٠، ومستدرک الحاكم: ج ٤ ص ٤٨١، وتاريخ ابن كثير: ج ٨ ص ٨٩، وتاريخ دمشق: في ترجمة عبد الرحمان بن أبي بكر.

١. محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي: أبو عبد الله، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنّة، وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزة بفلسطين سنة ١٥٠ هـ، وحمل منها إلى مكّة وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين. قصد مصر سنة ١٩٩ هـ وتوفّي بها سنة ٢٠٤ هـ، وقبره معروف في القاهرة. كان أشعر الناس وأديهم وأعرفهم بالفقه والقراءات، قال ابن حنبل: ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي في رقبته منه. (الأعلام: ج ٦ ص ٢٥).

٢. الاستيعاب لابن عبد البر: ج ٢ ص ٤٣٦، أسد الغابة: ج ٤ ص ١١٧، الغدير: ج ٧ ص ١٧٥، نهج السعادة للشيخ المحمودي: ج ٨ ص ٣٥٨، تاريخ مدينة دمشق: ج ٤٦ ص ١٧٨.

٣. تاريخ دمشق: ج ٤٦ ص ١٧٧.

إن كان رفضاً حبّ آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي^١

ريحانة النبي في كربلاء

انتهى عصر معاوية بعد خلافة طالت تسعة عشر عاماً وثلاثة أشهر وخمسة أيام^٢ ليبدأ عصر يزيد^٣ (٦١ - ٦٤) فكان أفسد حكمٍ، وقع فيه أفظع ظلمٍ، وأعمق جرحٍ في قلوب أهل الإسلام، أنهاه الله بإنهاء عمره، وانقطاع عقبه وعقب أبيه من سجلّ الدولة التي سعيها لها كلّ ذلك المسعى!

وسيخلفه ابنه معاوية بن يزيد^٤، فيعلن أنّه وأهله لا يستحقّون الخلافة^٥، ويعتزل بعد نحو

١. المناقب للبيهقي: ج ٢ ص ٧١، المناقب للرازي: ص ٥١، طبقات الشافعية للسبكي: ج ١ ص ٢٩٩، الانتقاء: ص ٩٠-٩١، معجم الادباء للحموي: ج ١٧ ص ٣٢٠، عيون التواريخ: ج ٧ ص ١٨٠، تاريخ دمشق: ج ٩ ص ٢٠ وج ٥١ ص ٣١٧، سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١٠ ص ٥٨، الصراط المستقيم لعلي ابن يونس العاملي: ج ١ ص ١٩٠، مفاتيح الغيب: ص ٧، بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٢٣٥، فرائد السمطين: ج ١ ص ٤٢٣، الصواعق المحرقة: ص ٧٩٤، نور الأبصار: ص ١١٨، نظم درر السمطين: ص ١١١.

٢. بنو أمية: معاوية (٤١-٦٠)، يزيد (٦٠-٦٤)، معاوية بن يزيد (ثلاثة أشهر في سنة ٦٤).

بنو مروان: مروان بن الحكم (٦٤-٦٥)، عبد الملك بن مروان (٦٤-٨٦)، الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦)، سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩)، عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩-١٠١)، يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥)، هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥)، الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥-١٢٦)، يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦)، ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦)، مروان بن محمد بن مروان (١٢٧-١٣٢).

٣. يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي، ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد بالماطرون سنة ٢٥ هـ، ونشأ بدمشق وولي الخلافة بعد أبيه سنة ٦٠ هـ، وفي أيامه كانت فاجعة المسلمين بالسيط الشهيد الحسين بن علي سنة ٦١ هـ، وخلع أهل المدينة بيعته سنة ٦٣ هـ، فأرسل إليهم مسلم بن عقبة فاستباحها ثلاثة أيام على أن يباعد أهلها عنهم عبيد ليزيد، فقتل الصحابة وفعل الأفاعيل القبيحة. هلك سنة ٦٤ هـ. (الأعلام: ج ٨ ص ١٨٩).

٤. معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، من خلفاء بني أمية في الشام، بويع بدمشق بعد وفاة أبيه سنة ٦٤ هـ، فمكث أربعين يوماً أو ثلاثة أشهر، فشعر بالضعف وقرب الأجل، فأمر فنودي الصلاة جامعة، فخطب بالناس وتنازل عن الأمر، ومات بعد قليل وهو ابن ٢٣ سنة، حيث ولد سنة ٤١ هـ وتوفي سنة ٦٤ هـ. وكانت كنيته (أبا ليلى) وفيه يقول الشاعر:

إني أرى الفتنة تغلي مراجلها فإلى أبي ليلى لمن غلبا

(الأعلام: ج ٧ ص ٢٦٢).

أشهر ثلاثة، فكان اعتزاله من تلقاء نفسه، وعباراته وهو يعتزل: شهادتين بالفعل وبالقول، من نفس بني أمية، بأنه جائرون.

أنهى يزيد سنوات حكمه بتجريد جيشٍ على المدينة، يسفك دمه، وينتهك حرمة، في وقعة الحرّة سنة ٦٣، ليقتل فيها ثمانين من صحابة الرسول، فلم يبق بعدهم على ظهر الأرض بدري واحد! وقتل من قريش والأنصار ثمانمائة! ومن الموالي والتابعين وسائر الناس عشرة آلاف، ثم لفظ آخر أنفاسه وجيشه يحاصر الكعبة بعد أن أحرقها! وأي نهاية لبشر أقطع من هذه النهاية! بل أي نهاية لدولة أبلغ في الدلالة على غضب السماء عليها! فما كان حرق الكعبة، ولا قتل الصحابة، وتذبيح الآلاف، إلا تتابعا للأحداث التي بدأ بها السنوات الثلاثة، وختاماً طبيعياً للبدية المفطعة لحكمه، وجزاءً له ولدولته، ينزله بها وبنفسه.

لقد استفتح حكمه بجريمة كربلاء في يوم عاشوراء! في العاشر من المحرم سنة ٦١، فوقع فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت مثله أو قريباً منه، من استشهاد أبي الشهداء: الحسين بن علي الذي دعا له النبي «اللهم إني أحبه، فأحب من يحبه»^١، والذي عظمه الخلفاء الراشدون والناس جميعاً على مدار العصور، وهو القدوة في عطائه وعبادته وتواضعه وشجاعته في كل موقف: في «الجمل» و«صفين» و«النهران» إلى جوار أمير المؤمنين علي، وفي غزوة أفريقية وخراسان وجرجان والقسطنطينية، متصدراً جيوش المسلمين في عهد معاوية.

كان بقية الرسول ﷺ، وكانت آمال الأمة فيه آمالها في بقية الرسول. وكان أبعد الناس عن أن يستخلف على المسلمين: يزيد، يزيد الصقور، يزيد الخمور، كما لقبه معاصروه^٢. فلم يكن أحد ليأمل شيئاً من عهد يزيد، إلا دنيا يصيبها، أو أموالاً يجمعها، ولذلك رفض الحسين أن يبايعه. ودعا أهل الكوفة الحسين إليهم، فبعث قبله مسلماً^٣ ابن عمه عقيل، وخرج في أثره،

٥. راجع الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ١٧، والبدية والنهاية: ج ٨ ص ٢٦١، تاريخ دمشق: ج ١٤ ص ١٥٤.

١. المستدرك للحاكم: ج ٣ ص ١٧٧، وخرجه آخرون بحق الحسن بن علي عليه السلام، ولا تنافي في ذلك، فإنه قال مثل هذه العبارة بحق علي وفاطمة والحسن والحسين.

٢. راجع العوالم للشيخ عبد الله البحراني: ص ١٧٤، الفتوح: ج ٥ ص ١٨.

٣. مسلم بن عقيل بن أبي طالب، تابعي من ذوي الرأي والعلم والشجاعة، كان مقيماً بمكة، وانتدبه الحسين عليه السلام

فقتل عبيد الله بن زياد^١ والي الكوفة مسلماً، وتخاذل أهل الكوفة عن نصرة الحسين، فمضى حتى بلغ كربلاء على مبعدة خمسة وعشرين ميلاً من الكوفة، وفي ركبته ثمانية عشر رجلاً من أهل بيته، وستون من شيعته. هنالك لقيهم جيش عبيد الله بن زياد، على رأسه عمر بن سعد^٢ والي عبيد الله على الري، فأعلن لهم الحسين أنه لا يريد الحرب، وخيّرهم بين ثلاث: «أن تتركوني ألحق بيزيد، أو أن أعود من حيث جئت، أو أمضي إلى بعض ثغور المسلمين فأقيم فيها»^٣ ورفض ابن زياد إلا أن ينزل الحسين على حكمه، أي أن يستسلم ليصير أسيراً لابن زياد ويزيد! ليصنعا فيه ما صنعا بأهل المدينة، بعد عامين من استرقاق الرجال والنساء.

وحاول ابن بنت رسول الله أن يسير بأهله في أرض الله الواسعة، فسدت الجيوش أمامه كل مخرج! وانقضت عليه سهام الآلاف وسيوفهم، وهو يحارب كالأسد، وتسيل جراحات جسمه وهو في السابعة والخمسين حتى استشهد^٤، واستشهد رجال أهل البيت جميعاً،

→ ليتعرف له حال أهل الكوفة حين وردت عليه كتبهم يدعونه ويباعون له، فرحل مسلم إلى الكوفة فأخذ بيعة ١٨٠٠٠ نسمة من أهلها، وكتب للحسين بذلك، فشر به عبيد الله بن زياد فطلبه، فمنعه الناس، ثم تفرقوا عنه، فأوى إلى دار امرأة من كندة فأخفته، ولم يلبث أن عرف مكانه، فقبض عليه ابن زياد وقتله سنة ٦٠ هـ. (الأعلام: ج ٧ ص ٢٢١).

١. عبيد الله بن زياد بن أبيه. والي جبار، ولد بالبصرة سنة ٢٨٧ هـ، كان مع والده لما مات بالعراق، فقصد الشام فولاه (عمه) معاوية خراسان سنة ٥٢ هـ، وفتح تلك البلاد وأقام فيها سنتين، ثم نقله معاوية إلى البصرة أميراً عليها سنة ٥٥ هـ وأقره يزيد على إمارته سنة ٦٠ هـ، وطلب منه قتل الحسين بعد هلاك يزيد، وفي سنة ٦٥ هـ بايع أهل البصرة عبيد الله ثم لم يلبثوا أن انقلبوا عليه إلى أن هرب للشام ولحق به إبراهيم ابن الاشر في خازر فقتله سنة ٦٧، وقيل: ٧١ هـ. كان يلقب بابن مرجانة وهي أمه. (الأعلام: ج ٤ ص ١٩٢).

٢. عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهري المدني، أمير سيره عبيد الله بن زياد لقتال الديلم. وكتب له عهده على الري، ثم لما سمع ابن زياد بمسير الحسين عليه السلام من مكة متجهاً إلى الكوفة، كتب إلى عمر بن سعد أن يعود بمن معه، فعاد فولاه قتال الحسين، فاستغاه، فهذه فاطمة. عاش عمر إلى أن خرج المختر الشقي يستع قبلة الحسين عليه السلام فبعث إليه من قتله بالكوفة سنة ٦٦ هـ (الأعلام: ج ٥ ص ٤٧).

٣. أخرج الطبري في تاريخه: ج ٤ ص ٣١٣ عن أبي مخنف أنه قال ذلك، وعيه جماعة المحدثين، إلا أن أبا مخنف روي عن عقبة بن سمران أن الحسين لم يقل لهم ذلك، ولكن قال: «دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلت سنة، أو أذهب في هذه الأرض العريضة» راجع: مقتل الحسين لابي مخنف: ص ١٠٠ ومقاتل الطالبين: ص ١٣٣، وتاريخ دمشق: ترجمة الحسين ص ٢١٩، والكامل في التاريخ لابن الاثير: ج ٢ ص ٥٥٧.

٤. كان المحرض على قتل الحسين وأهل البيت شمر بن ذي الجوشن رقيب ابن زياد على قائد الجيش، أما قاتل

والرجال السّون الذين يتألف منهم ركبهم، إلا غلاماً مريضاً عاجزاً أن يتحرك، هو ابنه زين العابدين علي بن الحسين! وساق المجرمون الحرّيم، وجّهز عبّيد الله بن زياد، زينب بنت علي^١ وهذا الابن الوحيد الباقي من ذرية النبي ومن معها من الحرّيم، مع الرأس التي طالما مسح عليها وقبّلها فاها رسول الله ﷺ، إلى يزيد بن معاوية في دمشق. وأعاد يزيد الوفد إلى المدينة.



إنّ في إنسانية البشر قابليةً للفساد، كهينة قابلية المواد للهبوط إلى الأرض بقانون الجاذبية، والإسلام لذلك يرفع الناس إلى أعلى، إذ يدفع الأَنفس إلى ما هو أقوم، بالعبادة اليومية على مدار الليل والنهار، وتطهير النفس على مدار العمر. ومن الفساد ما يستغلّظ فيحوج إصلاحه إلى آية من السماء، مثل: كسوف الشمس

→ الحسين فالتاث عقله، وحمل الرأس الكريم إلى فسطاط القائد، فصاح في وجهه - وهو مراقب من شمر بن ذي الجوشن -: أشهد أنّك مجنون، وحذفه بقضيب! فلقد كان المجنون يصيح والرأس في يده:

أوفر ركابي فضةً وذهبا	فقد قتلت السيّد المحجبا
قتلت خير الناس أمّاً وأبياً	وخيرهم إذ ينسبون نسباً

(منه).

١. اشتركت السيّدّة زينب أخت الحسين من أبيه وأمه معه في المعركة، وكان أثرها في مصير أهل البيت عظيماً. كانت زوجاً لابن عمها عبد الله بن جعفر، وكان قد أذن لها في الخروج مع الحسين، فكانت تمرض المصابين في الصفوف أثناء القتال، ولقد همّ شمر بن ذي الجوشن بقتل زين العابدين، فاحتضنته لتقتل معه، فانصرف المجرم مذموماً مدحوراً، ولما انتهت المعركة اقتيدت بين الأسرى إلى ابن زياد في الكوفة، وإلى يزيد في دمشق ومعها زين العابدين، تكلّوه بعناية الله على يديها لينجب، فيتسلسل منه أئمة أهل البيت الاثنا عشر، بل كلّ نسل الحسين من الرجال، وكانت مثال الشجاعة والبلاغة العلويتين في وجه ابن زياد ويزيد.

ولما أعيد الأسرى إلى المدينة أمر يزيد بإبعادها إلى مصر، فسارت إليها، فاستقبلها أهل مصر في بلدة «بلييس» على مبعده عشرات الأميال من الفسطاط، وعلى رأس مستقبلها أمير مصر مسلمة ابن مخلد، فعاثت في مصر عاماً، ثم ماتت سنة ٦٢، وقيروها في الحي المعروف باسمها، وهو من أقدم أحياء القاهرة. وعلى مقربة منها حي السيد نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن، جاءت إلى مصر مع زوجها في المائة الثانية للهجرة، ولقيها الإمام الشافعي. ولما مات حملت جنزاته إليها فصلّت عليها وقالت: «رحم الله الشافعي، إنّه كان يحسن الوضوء» ويحمل اسم السيّدّة نفيسة حي معروف بالقاهرة، كما يحمل اسم «الحسين» المسجد الأشهر بالقاهرة، والحي الذي يمجّد عاصمة مصر، وتتعالى فيه معاهد الجامع الأزهر، وغيره من آثار الدولة الفاطمية، والدولة الأيوبيّة، ودولتي المماليك. (منه).

وخسوف القمر، وفي استشهاد أبي الشهداء آية من الآيات.

كانت كربلاء قارعةً رجّت الأرض رجاً يعيد الإسلام غضاً في الأنفس، بما كان فيها من التصميم والإجماع على الاستشهاد في سبيله.

لقد انقضى بين يوم وفاة النبي وبين كربلاء خمسون عاماً، كانت ضروريةً لتدهور إحساس بعض الرجال في أجيال، تدهوراً كافياً ليقتلوا ابن نبيهم! وهم يصلون عليه وعلى آله الذين يقتلونهم!

وحسب هؤلاء المجرمين حكماً عليهم أن يقول لهم كبيرهم يزيد بن معاوية وعيناه تدمعان: قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين!!^١

وإنما أطلق الروح دموعه، وأنطق الفزع لسانه، مقالة رياء، فلقد كرّر جنده يوم «الحرّة» ما فعلوه منذ عامين في كربلاء، كما صنعوه مرةً ثالثةً إذ قذفوا الكعبة بالمنجنيق من أعلى جبل أبي قبيس. فالجريمة الأولى تدفع إلى الثانية فالثالثة وغيرها، والجرائم يصنعها المجرمون، وتصنع المجرمين.

ويبقى هذا الرياء من يزيد، صيحة استهزاء بقوم باعوا أنفسهم للشياطين، لقاء متاع قليل لا يلبث أن يزول، قد لا يرضى عنه من ارتكب لأجله، لكنّه مأخوذ به ولو لم يرض عنه، فالقائد الظالم مسؤول عما يقع من جنده، فما يظلمون إلا بظلمه، إن لم يظلموا بأمر صريح منه.

قالوا: كان الحسين يستطيع بالمداورة أو المناورة أن يكسب الزمن، أو يستطيع بالاستسلام أن يكسب الحياة، لكنّه الذي قال فيه وفي أمه وأبيه وجدّه إقبال^٢:

هي بنت من! هي زوج من! هي أم من!

من ذا يداني في الفخار أباه؟!!

١. جواهر المطالب: ج ٢ ص ٢٧١ عن العقد الفريد، ترجمة الامام الحسين عليه السلام لابن عساكر: ص ٢٣٧، اعلام الورى للطبرسي: ج ١ ص ٤٧٣، مقتل الحسين لأبي مخنف: ص ٢١١ و ص ١١٩، البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٠٨ و ص ١٩٩، تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٣٥٢ و ص ٣٢٤، سيرة اعلام النبلاء للذهبي: ج ٣ ص ٣٠٣، تاريخ دمشق: ج ١٨ ص ٤٤٥.

٢. الشاعر محمد إقبال، شاعر الهند وباكستان. (منه) أقول: هو محمد إقبال بن نور محمد الكشميري، ولد بسيالكوت من بلاد بنجاب في ٢٤ ذي الحجّة عام ١٢٨٩، وله عدّة كتب وأشعار. (الذريعة: ق ١ ج ٩ ص ٨٦).

ومن قبله رفض أبوه رأي المغيرة بن شعبه أن يكسب الزمن بترك معاوية على الشام حتى يبايع، فلم يقبل على أن يناور أو يكسب الزمن، وناور المغيرة فصار عاملاً لمعاوية ! الحق أن الحسين قدّم للمسلمين الذين تعاقبوا في آثاره على مدار الزمان حجةً بالغةً من أهل بيت الرسول، إذ ينفردون في التاريخ بهذه الخصيصة التي لم يعاينهم أو يقاربهم فيها أهل بيتٍ آخر في تاريخ الإنسانية: الاستشهاد في سبيل هداية البشر لما هو أقوم، وهي بعض خصائص الرسل.

منح الاستشهاد اسماً لكربلاء، وخذ الأسماء التي تساقط أصحابها كالكواكب المنتشرة من السماء فوق الصحراء، لا لتتكدر، ولكن لتقدّم للبشر درس الدفاع عن الحق، من فئة قليلةٍ واثقةٍ في الحق سبحانه، لا تهتمها أرواحها، وإنما يهتمها العمل الصالح في ذاته، ولا تنظر إلى الساعة التي هي فيها، وإنما تمدّ أبصارها إلى مستقبل الإنسانية كلّ، لترتفع بالدنيا إلى مستوى أفكار الائمة.

ولقد صدق الحسين المسلمين في كلّ موقف وقفه، وكان عند وصية أبيه له ولأخيه الحسن وهو وجود بأنفاسه الأخيرة: «أوصيكما بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما»^١ فلم يبتغ الدنيا واشترى بها الآخرة، فأمس يقول: «إني لا أرى الموت إلا سعادةً، والحياة مع الظالمين إلا برماً»^٢.

وشملت السماء ابن النبي في كربلاء بمزيد من التأيد، بمعانٍ جليّةٍ من جلال الإسلام، تختار منها هنا واقعة منه وواقعة من عدوّه: في الأولى أخذ أخذ أبيه، فسقى جيش العدو من العين التي نزل عندها^٣ ولم يحرم الماء قاتليه^٤. وفي الأخرى ترك قائدان من القوادم جيش

١. نظم درر السمطين للزرندي الحنفي: ص ١٤٠، تاريخ ابن خلدون: ج ٢ ص ٢٨٥، المناقب للخوارزمي: ص ٣٨٤، كشف الغمة للأربلي: ج ٢ ص ٥٨.

٢. حياة الإمام الحسين للقرشي: ج ٢ ص ٢٩١ و ج ١ ص ١١٢، ينابيع المودة: ج ٣ ص ٦٢، سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي: ج ١١ ص ٧٧، جواهر المطالب لابن الدمشقي: ج ٢ ص ٢٧٠، كشف الغمة للأربلي: ج ٢ ص ٢٤٢، ترجمة الامام الحسين لابن عساكر: ص ٣١٥، سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣١٠، حلية الأولياء: ج ٢ ص ٣٩، تاريخ الطبري: ج ٥ ص ٤٠٣ و ٤٠٤، المعجم الكبير للطبراني: ج ٣ ص ١١٥ تحت رقم ٢٨٤٢، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٤ ص ٢١٨، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٩٢.

٣. وذلك عندما سقى الحرّ وجيشه وخيولهم لما جاءوا لمتعه عن مواصلة طريقه، وجعجعوا به إلى صحراء كربلاء.

ابن زياد، في وطيس المعركة^١ إلى الجماعة العزلاء حول الحسين، ليستشهدوا في الدفاع عن سيّد الشهداء بين رجاله الذين ماتوا عن آخرهم، وهم عليمون أنهم يخوضون معركةً خاسرةً بكلّ المقاييس التي يتقاييس بها المتحاربون، مظفرةً بمقاييس المؤمنين. ولو عاش هؤلاء الشهداء العظماء سنوات أو أشهراً أُخرى، لماتوا كما يموت الآخرون، لكنهم ماتوا شهداء «كربلاء» ليحيوا في ضمير الزمان كلّ أمثالاً للحقّ، وعناوين على عظمة الإسلام.



كانت كربلاء رسالة من ابن النبي للمسلمين، هي الأولى من نوعها، بما تحويه من دروسٍ لا تُحصى، فحسبنا أن نشير إلى البعض منها، وفي الدرس الواحد جماع دروس: وأول الدروس يتعلّق بالحقّ ذاته، وفي الحقّ أعظم الدروس: أن لا يقرّ أحد الباطل، وأن يقَدّم في سبيل ذلك نفسه، وأن يكون قدوةً، وآل يهاب المكثورون كثرة الظلمة، فالأُم تبقى بالمقاومة، ولا تصيها الهزيمة إن فقدت معركةً، ما دامت فيها إرادة النصر، يسعنى إيمانها بين يديها لتبلغ غرضها كلّ إن لم يكن من فورها، فمرحلة بعد مرحلة.

وأول من تعلّم على الحسين بن علي درس سنة ٦١: كان عبد الله بن الزبير باستشهاده بمكّة بعد أعوام عشرة، وهو مكثور بجند عبد الملك بن مروان^٢ بعد إذ حرقوا الكعبة، كما حرقها جند يزيد بن معاوية.

٤. وتعلّم عليهما صلاح الدين في حربه مع الصليبيين يوم أرسل طبيبه إلى الملك ريتشارد قلب الأسد قائد الصليبيين. وأين من قواعد الحرب الإسلامية قواعدها عند الأوربيين، إن أبراط - أبا الطبّ اليوناني - الذي ورثت أوربة قسّمه الأشهر، يقسمه كلّ طبيب قبل أداء واجبه بالنزاهة والأمانة وعدم التعصّب، لكن أبراط علم الأوربيين درساً آخر حين رفض أن يعالج مرضى الطاعون في الجيش الفارسي، قائلاً: إن شرفه يمنعه من معالجة عدوّ لبلادته. (منه).

١. أحدهما الحرّ بن يزيد الرياحي، يصحبه ثلاثون آخرون، تسلّلوا ليلة عاشوراء إلى جانب الحسين عليه السلام.
٢. عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي؛ أبو الوليد. من أعظم ملوك بني أمية ودهاتهم. نشأ في المدينة وشهد يوم الدار مع أبيه، واستعمله معاوية على المدينة وهو ابن ١٦ سنة، وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ هـ، فضبط أمورها وظهر بمظهر القوة، ونقلت في أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية، وضبطت الحروف بالنقط والحركات، وأول من نقش بالعربية على الدراهم، توفّي بدمشق سنة ٨٦ هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ١٦٥).

وتعلّم عمر بن عبد العزيز^١ وعلم المسلمين - في مدة خلافته -: أنّ الكلام أو الصياح ليس الأداة المثلى للإصلاح، وإتّما المواقف هي التي تهزّ وجدان الشعوب، فكان له أعظم المواقف إذ بدأ بنفسه وأهله فضحّي، فكانت فيه الأسوة الحسنة، وكَلَل الله سعيه في أقصر مدّة: ثلاثين شهراً كانت كافية لإصلاح دولة أدمها نحو قرنٍ من الفساد، ولإسعاد أمةٍ تنتظر القدوة من حكّامها فلا تجدها.

والدرس الثاني يتعلّق بجزاء السماء وبمصائر الطغاة وطرائقهم. إنهم يحسبون الدنيا تدوم ولا تدور، ولا يدركون أنّ «الدهر بالإنسان دوارى» كما يقول الشاعر العربي، وتركبهم شياطين الشهوة فيخالون أنّهم يسكون كرة الأرض في قبضتهم، يصطنعون أسباب الوثوب على أعدائهم من حينٍ لآخر، ويتحيتون الفرص المؤاتية، ويختلقون الأعذار الزيوف ليقطعوا دابر العدو، وكلّما جدّ جيل جدّت لهم الأعذار. ولم تغنهم النذر...، فالذي حاوله فريق معاوية مع علي في صفين ولم يظفر به - من إفناء شيعة علي، أو من الإطاحة بأخصامه بالسّم من الوجود^٢ - قد أتاحت له ليزيد فرصة في كربلاء.

وللطغيان طبيعة ومنهج، ومن طبيعته أن يعمي ويصمّ، فلا ينظر ولا يسمع إلّا ذاته وأصواته. وأمّا المنهج فهو الغيلة مرة واحدة إن أمكنه، وإلّا فوثبة وثبة، ولكلّ واحدة ما بعدها.

والذي قارفه يزيد ليس مجرد سقطة، وإتّما كانت أم السقطات، فمن بعد كربلاء كانت وقعة الحرّة، ثم كان حريق الكعبة، في سنوات ثلاثة متعاقبة، فحقّ عليها جزاء السماء فأوردته حتفه، والسماء تملّي للظالم، حتّى إذا أخذته لم تفلته.

والدرس الثالث: يتعلّق بأهل البيت أنفسهم.

١ - فهم العترة الطاهرة، يدخلون الجنّة مع جدّهم بعلمهم، فلا يعملون إلّا العمل الأصلح،

١. عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي: أبو حفص، الخليفة الصالح. والملك العادل. وهو من ملوك الدولة مروانية الأموية. ولد في المدينة سنة ٦١ هـ ونشأ فيها، وولي إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بالشام، وولي الخلافة بعده من سليمان سنة ٩٩ هـ. وكان قد وضع سبّ علي بن أبي طالب، ولم تطل مدّته، قيل: دسّ إليه السمّ وهو بدير سمعان من أرض المعرفة، وتوفّي سنة ١٠١ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ٥٠).

٢. حسب النظرية الأموية «لله جنود من عسل». راجع مختصر تاريخ ابن عسّاك: ج ٢٤ ص ٢٤. السلفية بين أهل السنة والامامية للسيد الكثيري: ص ١٨٩. مروج الذهب: ج ٢ ص ١٣٩، مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ٤٧٦. أسد الغابة: ج ٣ ص ٤٤٠، الاصابة لابن حجر: ج ٣ ص ٣٨٤.

والذي صنعه في كربلاء هو الذي كان يصنعه جدّهم، والذي صنعه أصحابهم معهم هو الذي كان يصنعه الصحابة، وأعظم به وبهم صنيعاً وصناعاً! فما هو إلا صفحات جديدة يضيفونها إلى السيرة العطرة.

٢ - وهم مثل جميع المسلمين إن لم يكن قبل جميع المسلمين، مطالبون بالجهاد والتضحية، وليس فضلهم ليسقط التكليف عنهم، كما يزعم بعض المتصوّفة عن رجالٍ من المتصوّفين. وهذا درس للمتواكلين الذين لا يقبل الإسلام تواكلهم.

٣ - وهم يبلغون الذروة فيما يعملون: إذا حاربوا ماتوا شهداء، ولم يعطوا الدنية أو يستسلموا، لأن للمسلمين فيهم كما كان لهم في جدّهم: الأسوة الحسنة، وفي بيتهم سمقت الميادئ الكبرى، فمنهم يطلب البلاء الممتاز، ومن هذا كان صغارهم - كالكبار منهم - أبطالاً يستشهدون ولا يتراجعون.

لقد أذن الحسين لصحبه في أن يعودوا تحت جناح الليل، ويدعوه وحده يواجه مصيره، فلم يقبل ذلك واحد منهم، ولم يرجف المرجفون من خصومهم - حتّى اليوم - بأنّ واحداً منهم قد تردّد، بل قال له ابنه زين العابدين، وهو مريض طريح على الثرى لا يقدر على الحركة: «ألستا على الحقّ؟» قال: «بلى والله الذي يرجع إليه العباد» قال الفتى: «فإذن لا نبالي»^١.

والدرس الرابع: يدور حول وحدة العمل الصالح، وفيه يجتمع الحقّ والحقيقة في المبدأ والمنتهى وما بينهما. فإذا كانت الحقيقة أنّ أبناء الرسول رجال سلم وعلم وقيادة، فهم لا يدارئون وراء هذه الحقيقة، فيقعّدون عن الجهاد - جنوداً - للحقّ، أو يكتفون دونه بالعلم إذا دعا الداعي إلى الجهاد، أو يوصون بالسلم حيث الحرب واجبة لإعلاء كلمة الله، بل يستمسكون بالحقّ، ويضعون الحقيقة كلّها في خدمته.

والحقّ والحقيقة والعمل الصالح كلّ لا ينقسم، والأهداف العظيمة لا يبلغها الناس إلاّ

١. راجع أبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام للشيخ محمد السماوي: ص ٥٠، ولكن يذكرها في أثناء المسير، لا وهو غليل. وذكرها المجلسي في البحار: ج ٤٤ ص ٣٧٩ بقوله: «فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين» ولم يحدّه. وذكر الطبري: ج ٦ ص ٢٣١ أنّه علي الأكبر. وكذا لم يحدّد خالد محمد خالد في كتابه «أبناء الرسول في كربلاء»: ص ١١٨ من هو القاتل. ولكن المشهور عند الشيعة أنّه ابنه علي الأكبر الذي قُتل بين يدي أبيه في كربلاء. راجع أعيان الشيعة: ج ١ ص ٥٩٧.

بأعمال عظيمة ووسائل سليمة.

والدرس الخامس: درس في الواجب وأدائه في كل الظروف. وإن وهم المطالب به أنه غير مجدٍ عليه أو على غيره، فهو لم يصبح واجباً إلا لأنّ التكليف به يحقّق المصلحة العامة أو الخاصة، إن حالة وإن مؤجّلة، منظورة أو غير منظورة، وهو قد أصبح واجباً لأنّه فضيلة، وإذا لم يكن مجدياً في لحظة أو لرجلٍ، ففي القيام به خيرٌ للناس وللدنيا، في الظروف ذاته أو في ظروف أخرى.

والظروف غير المؤاتية لا تجعل الفضائل غير مؤاتية، فالفضائل مؤاتية أبداً، مطلوبة دائماً. وإذا كانت القدرة - شرط التكليف والرخص - متروكاً تقديرها للرجل، فبالمعاناة أو التضحية ينسلخ الأقوياء من مسلخ الضعفة، ويخلع الناس على العظماء وصف العظمة. وما المعاناة والتضحية إلا محاولات للثبات في وجه الخطر أو لاقتحامه، فهي درجات فضلٍ وأدوات تقدّم في معترك الوجود الإنساني، تضيف إلى تياره المتدفّق أسباب طهرٍ ونقاء، وأساليب بقاء، منظورة للكثيرين وإن عمي عنها آخرون.

والدرس السادس: يتعلّق بوظيفة التاريخ، فهو يصحّح العوج، ويصوّب الانحراف، بالاستقامة على الجادة؛ خضوعاً للعدل، وهو قانون السماء.

إنّ الغلام المريض الذي بقي في خيمة أبيه يوم كربلاء (زين العابدين) سيحيا ثلاثة وثلاثين عاماً حتّى عام ٩٤، لتتسلسل في عقبه ذرية ترفع أعلام الإسلام عاليةً في ضمائر البشر، في حين أنّ الطاغية الذي يرسل النار والدمار على البيت العتيق بالحجاز، وعلى أهل البيت في صحراء العراق، سيزول ملكه هو، وينقطع دابره هو بعد ثلاث سنين بتنازل من ابنه عن ذلك الملك، لينقطع اسم معاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية، من سجلّ الحوادث، وتخلّد آثار أهل البيت ما تعاقب الجديدان.

آية من السماء على أنّ دولة القتلة لم تعش، وأنّ دولة القتلى ستعيش أبداً. وأنّ دولة الظلم لا تبقى بمقاييس الزمن إلا ساعة أو هنيئة، أمّا دولة العدل فتبقى إلى قيام الساعة. وأنّه

تعالى صادق الوعد ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين﴾^١. وما أكثر ما كانت الغلبة ببقاء أسباب الانتصار، يتحقق بها النصر في مكان آخر أو زمان آخر، بقوم يحبهم الله فينصرهم مهما كان عددهم، ويحبونه فيجودون بأرواحهم. والدرس السابع: درس في مبلغ ما تنجح الاستقامة ويفلح الإخلاص. فإذا كان أقرب الخطوط إلى الهدف هو الخط المستقيم وإن كان ترسيمه أشد رهقاً، فإن استشهاد أبي الشهداء كان الأساس السليم لقيام الصرح العظيم الذي جمع بين عمله وبين اسمه، فصيرهما مبدأ، يحدث أثره في عمارة الدنيا وإصلاح الجماعة، في شكل قيام دولة، أو غلبة مذهب، أو وجود قدوة، أو ازدهار أمل في بعث منتظر.

بهذا دارت الأفكار الدينية والمذاهب الفقهية للشيعة، سواء الإمامية منها أو الاسماعيلية أو الزيدية، في آفاق الحسين العالية، وبلغت أوجها في الفقه العملي القدير على التطور وفق حاجات البشر، في العبادات والمعاملات والأخلاق والنهج العلمي.

واستمسك المسلمون عموماً، والشيعة خصوصاً، بالحسين وآله وأبنائه، واقتدوا ببطولاتهم ومقولاتهم، فاستخرجوا منها أصولاً زخّارة، وبنوا عليها فروعاً في الدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع، لتقيم نظاماً سياسية وعلمية وفكرية واقتصادية متكاملة، هي كالنهر العظيم يجري إلى جوار النهر الذي يسبح في تياره أهل السنة.

والنهران يتجاربان، كأنهما البحران يلتقيان على أصول الإسلام، ويعملان - كلٌّ على شاكلته - في تدعيم مبادئه.

وفي استشهاد علي بطعنة خارجي ركبته الشياطين، وفي ظلم معاوية وقومه له، حيناً وميتاً، وفي استشهاد الحسين وبنيه وبنو أخيه، ومن كانوا معه من الشهداء الذين ذكرناهم، والذين سنذكر البعض منهم، على أيدي الكثيرين ممن سئى فظائعهم بعد، نمت وترعرعت

عقيدة أهل الإسلام:

١ - أنّ علياً قبل التضحية دائماً، في جوار النبي وبعده، هو وبنوه، وأنهم ضربوا الأمثال من أنفسهم، لا بمجرد النصيحة أو الفصاحة أو السياسة، ولكن بالدم الذي يتكلم، فتكون له بلاغة الشهادة بين يدي الله سبحانه، فأصبحوا عنواناً على العدل المقتد، والأمل المنتظر، وباباً للرجاء في عدل السماء، لتتدارك المسلمين برحمتها ومغفرتها.

٢ - أنّ المسلمين يضيفون إلى حساب الحسين من حساب بني أمية وعمّالهم وسفّاحيهم، إذ أرادوا السلطة والمال وشفاء صدور قوم مبطلين، فقطعوا صلّتهم بالله يوم قطعوا رأس ابن بنت رسول الله، وفي حين يترأى قتلة أمير المؤمنين علي «خوارج» كما تضافرت الأمة على وصفهم^١، أو «بغاة» كما سمّاهم أمير المؤمنين نفسه، إذ لم يخرجوا عليه إلا لفهم مخالف من أجل الدين، يتدلّى قتلة الحسين إلى أدنى درك في جهنم، سفّاحين أجراء، وتعالى بطولات الحسين قدر ما تتعمق الحسرة من أجل استشهاده، فتبرز في إجماع المسلمين عليه بطلاً، وفي الفكر الشيعي حيث يضاف جهاده إلى الوصية له بالإمامة.

فهذا يوم للحسين وحده، ناله بحقه، وفيه سند لإمامة الأئمة من أبنائه: علي زين العابدين، فمحمد الباقر، فجعفر الصادق، فالباقيين من الأئمة.

ظلّت شجرة العدل والعلم والأمل تسقى بدماء الشهداء كلّما رأت السماء مصلحة للأئمة، فلم تلبث الكوفة بعد نحو عامٍ واحدٍ من وقعة الحرّة، أو ثلاثة أعوامٍ من يوم كربلاء أن هزّ ضميرها تقصيرها، فقامت من الفور حركة التوّابين^٢ سنة ٣٦٤ بين أهل الكوفة النداميّ عليّ

١. قال الشريف المرتضى في الانتصار: ص ٤٧٨: «ومن المعلوم أنّ الأئمة أطبقت في الصدر الأول على ذمّ البغاة على أمير المؤمنين ومحاربيه والبراءة منهم».

وقال الشيخ الطوسي في المبسوط: ج ٧ ص ٢٦٤: «فإنّ الإمامة بعد عثمان لعليّ عليه السلام بلا خلاف، وكلّ من خالفه فقد بغى عليه، وخرج عن قبضة الإمام، ووجب قتالهم، وتسميتهم البغاة عندنا ذمّ، لأنّه كفر عندنا».

٢. حركة التوّابين كانت بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي وأصحابه، وكانت لهم معركة مع شرحبيل بن ذي الكلاع،

ما فرط منهم من تقصير، فقتلوا قتلة الحسين وقواد جيش عبيد الله بن زياد، ولم تنته الندامة بقتل المختار بن عبيد^٤ زعيم التوابع سنة ٦٧، بل توالى الحروب على دولة بني مروان: بقيام دولة عبد الله بن الزبير، وخروج الخوارج، وقيام الفتن، ومنها: فتنة ابن الأشعث^٥ وقد انضم إليها العلماء، وخروج زيد^٦ بن علي زين العابدين، وخذلان أهل الكوفة له سنة ١٢١.

→ ثم مع الحصين بن نمير في عين الوردية من قرى «هيت». وكان المختار آنذاك في الحبس، ثم بعدها ظهرت حركة المختار الثقفي. راجع ذوب النصار لابن نما الحلبي: ص ٨٧ وما بعدها.

٣. تزعمها المختار بن عبيد الله الثقفي، قائد عمر لفتح العراق. وكان المختار بن عبيد الله ممن قدموا مع مسلم بن عقيل رسول الحسين إلى الكوفة، فحُبس، ثم شفع له صهره عبد الله بن عمر، فقبل ابن زياد الشفاعة فيه إذ لم يخف خطره. ولما خرج المختار أعلن أنه يحارب باسم محمد بن الحنفية (أخي الحسين لأبيه) ثاراً لدم الحسين، وانتصر المختار على جيوش بني أمية، ثم قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧، وأعلنت عليه حرب الدعايات، فاتهموه بادعاء النبوة، وأن من أتباعه من ينتظرون رجوعه. (منه).

٤. المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي: أبو اسحاق، من زعماء الثائرين على بني أمية، وأحد الشجعان الأفاضل، من أهل الطائف. لما قتل الحسين عليه السلام سنة ٦١ هـ انحرف المختار عن عبيد الله بن زياد، فقبض عليه ابن زياد وجلده وحبسه، ولما مات يزيد سنة ٦٤ هـ وقام عبد الله بن الزبير أعانه على أمره، ثم دعا إلى إمامة ابن الحنفية، وادعى أنه استخلفه، فبايعه زهاء (١٧٠٠٠) رجل، فخرج بهم على والي الكوفة، ثم استولى على الموصل، وتتبع قتلة الحسين حتى قتل ابن زياد نفسه. حصل خلاف بينه وبين ابن الزبير حتى وجّه إليه أخاه مصعب، فقتله ومن كان معه سنة ٦٧ هـ. (الأعلام: ج ٧ ص ١٩١).

٥. هو عبد الرحمان بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، أمير من القادة الشجعان الدهاة، وهو صاحب الوقائع مع الحجاج الثقفي، أرسله الحجاج لفتح بعض الثغور، ثم نبذ طاعته وزحف بجيشه سنة ٨١ هـ عائداً إلى العراق لقتال الحجاج، نشبت بينه وبين جيوش عبد الملك والحجاج معارك ظفر بها عبد الرحمان، ثم حدثت بينهما وقعة (دير الجماجم) التي دامت مائة وثلاثة أيام انتهت بخروج ابن الأشعث من الكوفة، فلجأ إلى (رتبيل) فحماه مدة، ثم وردت عليه كتب الحجاج تهذده، فقتله وأرسل برأسه إلى الحجاج سنة ٨٥ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ٣٢٣).

٦. هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام: أبو الحسين العلوي الهاشمي القرشي، ويقال له: زيد الشهيد. ولد سنة ٧٩ هـ، وعده الجاحظ من خطباء بني هاشم، وقال أبو حنيفة: ما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً.

أُشخص إلى الشام فضيق عليه هشام بن عبد الملك وحبسه، ثم أطلقه، وعاد إلى العراق ثم المدينة. فلحق به بعض الكوفيين يحرضونه على قتال الأمويين، فبايعه أربعون ألفاً، فقاتل والي الكوفة بجملة معارك انتهت باستشهاد زيد سنة ١٢٢ هـ، وحُمل رأسه إلى الشام فنُصب على باب دمشق، ثم أرسل إلى المدينة فنصب عند قبر النبي، ثم حمل إلى الشام فنُصب بالجامع. (الأعلام: ج ٣ ص ٥٨).

كما خذلوا جدّه سنة ٦١، فاستشهد زيد ومثّل برأسه^١ الخليفة هشام بن عبد الملك^٢، ثم استشهد ابنه يحيى^٣ سنة ١٢٥.

وكان جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن زين العابدين شجرةً باسقةً ترعرع في كلّ ورقة من أوراقها خصيصة من خصائص أهل البيت في عصر جديد للعلم، تعاونت فيه أجيال ثلاثة متتابعة منه ومن أبيه وجدّه. ولما استمسك بإمامته وفتح بمنصبه التعليمي، علا قدره في أعين طلاب السلطة، وأمنوا جانبه، واتخذوا من زهده فيها شهادة لهم ضدّ من ينازعونهم.

لكنّه كان الغرض الذي تنجذب إليه الأنتظار، فهو يمثّل العقيدة الدينية التي يقاس بفضائلها عمل الحكّام في الإسلام، وما يتبعه من رضا العامة عنهم أو سخطها عليهم. وهو - بوجه خاصّ - حجر الزاوية من صرح أهل البيت، ترنو إليه أبصار الذين يدعون الخلافة بدعوى أنّهم من «أهل البيت».

وهو مقيم في المدينة، العاصمة الأولى والدائمة للإسلام، يتحلّق فيها المتفكّهة حول علماء الإسلام في مسجد الرسول، يحملون بأيديهم مصابيح السنّة، أو يعلنون شرعية الحكومة أو عدمها، وحسن السيرة أو فسادها، وإقرار أهل العلم أو إنكارهم. وهي أمور أساسية تحرص

١. لم تمض أعوام حتّى دالت دولة بني مروان، ونشئ العباسيون قبور معاوية وابنه يزيد وعبد الملك بن مروان، فلم يجدوا فيها ما يصنعون فيه مثلاً. أمّا قبر هشام فوجدوا فيه جثة هشام لم تبل بعد، فصنعوا فيها أكثر مفاصل برأس زيد، إذ أمر السفّاح بضربها بالسياط وصلبها، وحرّقها وتذريتها في الهواء. (منه).

٢. هشام بن عبد الملك بن مروان، من ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد في دمشق سنة ٧١ هـ، وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة (١٠٥ هـ). نشبت في أيامه حرب هائلة مع خاقان الترك فيما وراء النهر، انتهت بمقتل خاقان واستيلاء العرب على بعض بلاده. اجتمع في خزائنه من المال ما لم يجتمع في خزائنه أحد من ملوك بني أمية. توفّي في دمشق سنة ١٢٥ هـ. (الأعلام: ج ٨ ص ٨٦).

٣. يحيى بن زيد بن علي، أحد الأبطال الأشداء، ثار مع أبيه علي بن مروان، ولما قُتل أبوه انصرف إلى بلخ ودعا إلى نفسه سرّاً، فطلبه أمير العراق، فقبض عليه نصر بن سيار، ثم أمن وأطلق وأبعد بين بلد وبلد، حتّى وصل إلى نيسابور وامتنع، فقاتله واليها عمرو بن زرارة وهو في عشرة آلاف ويحيى في سبعين، فهزمهم يحيى وقتل عمراً، ثم تتبعت الجيوش حتّى رُمي بسهم أصابه في جبهته فسقط شهيداً سنة ١٢٥ هـ في قرية (ارعوية) وحُمّل رأسه إلى الوليد، وصلب جسده بالجوزجان إلى أن ظهر أبو مسلم الخراساني فأنزل جسّته وصلّى عليها ودُفنت هناك. (الأعلام: ج ٨ ص ١٤٥).

عليها الدولة العادلة، وتتجنب الاتهام بمخالفتها أي دولة.

وإذا كانت دمشق قد أدارت ظهرها لمدينة الرسول، أو كانت بغداد قد فتحت أبوابها على العالم، وأوصدتها دون أهل المدينة، فالمسلمون يأتون إلى مدينة الرسول كل عام، خفافاً وعلى كل ضامر، إذ يحجّون إلى البيت العتيق بمكة، ويزورون قبر الرسول، ويشهدون آثاره في المدينة.

وإذا كان الخليفة المنصور يقول عن نفسه: إنما أنا سلطان الله في الأرض^١، فهو يحسّ وطأة سلطان الدين والعلم في المدينة، حيث إمام المسلمين غير منازع «جعفر بن محمد» الذي يصفه الناس - وأبو جعفر المنصور^٢ في طليعتهم - بالصادق^٣.
ومن أوصافه^٤ كذلك: الظاهر، والفاضل، والصابر.

١. الكامل في التاريخ: ج ٦ ص ١٢.

٢. والسبب في ذلك: أن أبا مسلم الخراساني طلب من الإمام الصادق عليه السلام أن يدلّه على قبر جدّه أمير المؤمنين عليه السلام فامتنع، وأخبره أنّه إنّما يظهر القبر الشريف في أيام رجلٍ هاشمي يقال له: أبو جعفر المنصور. وأخبر أبو مسلم المنصور بذلك في أيام حكومته وهو في الرصافة ببغداد، ففرح المنصور بذلك وقال: هذا هو الصادق، (أعيان الشيعة: ج ٤ ق ٢ ص ٩١) وذكره أبو الفرج في مقاتل الطالبين: ص ١٧٣، ونقل أبو زهرة في كتابه «الإمام الصادق»: ص ٤٩ هذا المعنى أيضاً.

٣. روى ابن بابويه والقطب الراوندي: «أنّ علي بن الحسين عليه السلام سئل: من الإمام بعدك؟ قال: محمد ابني، يجبر العلم بقرأ، ومن بعد محمد جعفر اسمه عند أهل السماء الصادق، قلت: كيف صار اسمه الصادق وكلمكم الصادقون؟ قال: حدثني أبي عن أبيه: أنّ رسول الله ﷺ قال: إذا ولد ابني جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فسمّوه الصادق، فإنّ الخامس الذي من ولده الذي اسمه جعفر يدّعي الإمامة، اجترأ على الله وكذباً عليه، فهو عند الله جعفر الكذاب المقترى على الله...» راجع الخرائج: ج ١ ص ٢٦٨، عنه البحار: ج ٤٦ ص ٢٣٠، وج ٤٧ ص ٩.

٤. وهي أيضاً لقباه الشريفة، راجع في ذلك مرآة الزمان: ٥ الورقة ١٦٦.

الباب الثاني

السلطان والإمام

وفيه فصلان:

الفصل الأول: بين السلطان والإمام

الفصل الثاني: الرجلان

«السلطان كراكب الأسد، يهابه الناس، وهو
لمركوبه أهيب».

(أفلاطون)

مقدّمة

آل الخلافة إلى بني العباس سنة ١٣٢، وكان «السفّاح»^١ أول خلفائهم، ثم مات فخلفه أبو جعفر المنصور^٢، ليبقى في الخلافة اثنين وعشرين عاماً (١٣٦ - ١٥٨). وطّد فيها أركان الدولة العباسية، وأخضع الخارجين عليها في كلّ أرجاء «الإمبراطورية»، فهي لم تعد دولة دينية كما دعوا لها منذ بثّوا دعواتهم من فاتحة القرن، ولم تصر «للرضا من آل محمد» كما كانوا يدّعون، بل غضبوا حقّ أبناء علي، كما كان بنو علي عند قيامها عاجزين عن تولّي السلطة، وكان أحقّهم بها - وهو جعفر بن محمد - عازفاً عنها^٣، عارفاً أنّ مهمة حياته هي

١. هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب؛ أبو العباس، أول خلفاء الدولة العباسية، وأحد الجبّارين الدهاة من ملوك العرب، ولد سنة ١٠٤ هـ بالشرأة، وقام بدعوته أبو مسلم الخراساني، فبوع له بالخلافة جهراً سنة ١٣٢ هـ.

كان شديد العقوبة، عظيم الانتقام، تتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق حتّى لم يبق غير الأطفال، لُقّب بالسفّاح لكثرة ما سفح من دمائهم، كان مقرّ خلافته بالهاشمية، وهو أول من أحدث الوزارة في الإسلام، مرض بالجدري وتوفّي بالأنبار سنة ١٣٦ هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ١١٥).

٢. عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس؛ أبو جعفر، ثاني خلفاء بني العباس، وأوّل من عنى بالعلوم من ملوك العرب. كان عارفاً بالفقه والأدب، محبباً للعلماء، ولد في الحميمة من أرض الثراء سنة ٩٥ هـ، وولي الخلافة بعد أخيه السفّاح سنة ١٣٦ هـ، وهو باني مدينة بغداد، أمر بتخطيطها سنة ١٤٥ هـ وجعلها دار ملكه بعد الهاشمية. عمل أول اصطرلاب في الاسلام، كان بعيداً عن اللهو والعبث، توفّي ببشر ميمون من أرض مكة سنة ١٥٨ هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ١١٦).

٣. إن عزوف الإمام الصادق عنها إنّما لأمر، منها: علمه أنّها لا تصير له، فقد روي أنّه لما أراد بنو هاشم مبايعة الإمام الصادق عليه السلام في أخريات الدولة مروانية بعدما وردتهم الكتب والرجال من خراسان لإعلان الثورة تحت شعار: «الرضا من آل محمد» قال الإمام عليه السلام لعبد الله بن الحسن: «والله إنّها ليست لك ولا لابنيك، وإنّها لصاحب

تعليم المسلمين.

وجرت الأمور مجراها الطبيعي للغالبين على السلطة، يطوون أضعافهم على الخوف والحقد والحذر، ويشرعون أسلحتهم في كل مكان للدفاع عن دولتهم، وكان ذوو القربى في طليعة الأعداء، فاستعرت الشحنة بين الأقرباء، ثم سالت الدماء، وجعفر الصادق بعزوفه واستعلائه بعيد عن المذابح، لكن بعده عنها لا يقيه بطش خليفة حذرٍ متنمّرٍ، تدعوه إلى المواجهة الشرسة ما توسوس له هواجسه : مخافة أهل البيت وشيعتهم. وكان توفيق السماء حليف الإمام في مواجهاته وإن بقيت الدولة على حذرها، تنزل بأهل البيت العذاب والاسترهاب، والحبس والقتل، للخلاص منهم، مع التظاهر بالعدل فيهم، حتى تقطع دابرهم.

→ القباء الأصفر، والله ليلعبن بها صبيانهم وغلماهم» ثم نهض وخرج، وكان المنصور العباسي يومئذ حاضراً وعليه قباء أصفر. راجع: يناييع المودة للقندوزي الحنفي: ص ٣٣٢، والصواعق المحرقة لابن حجر: ص ١٢١، وجامع كرامات الأولياء للعلامة النهائي: ج ٢ ص ٤، ومناقب آل الرسول للنجف آبادي: ص ١٧٥، وغيرهم كثير. بل أن العباسيين كانوا يذهبون إلى هذا المعنى، فهذا محمد بن علي العباسي يقول ليكير بن ماهان: «وحذر شيعتنا التحرك في شيء، مما تحرك فيه بنو عمنا آل أبي طالب، فإن خارجهم مقتول وقائمهم مخذول، وليس لهم من الأمر نصيب» طبيعة الدعوة العباسية: ١٥٢.

الفصل الأول

بين السلطان والإمام

«إنا أنا سلطان الله في الأرض»^١.

(أبو جعفر المنصور)

أهل البيت

اختلف أهل التأويل في صدد «أهل البيت»، وهم يفسرون قوله تعالى في سورة الأحزاب: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسْرَحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً»^٢ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً»^٣ ثم يوجه الخطاب في الآيات: ٣١ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٤، وفي الأخيرتين يقول لنساء النبي: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقْنِ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»^٤ وَأَذْكُرَنَّ مَا بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً».

وإذ كان التطهير هو الدرجة العليا للبشر^٥، والاختصاص به بين المسلمين يجعل لأهل البيت حقوقاً وامتيازات تؤهل لإمامة الدين وإمامة الدنيا، أي خلافة الدين والدنيا، وكان ثمة سنن مروية في تفضيل علي وبنيه، وجعلهم من الأمة مجعل الأوصياء أو الائمة، وهذا شأن لا يسلمه بنو أمية، ولا بنو مروان، ولا بنو العباس، ولا كثير من قريش.

فقد ذهب الفقهاء عموماً، والمفسرون خصوصاً، مذاهب شتى في تعريف «أهل البيت»

١. الكامل في التاريخ لابن الأثير: ج ٦ ص ١٢، من خطبة له في يوم عرفة.

٢. الآية: ٢٨ و ٢٩.

٣. قال ابن تيمية: «جمع الله لهم بين أن قضى لهم بالتطهير، وبين أن قضى بكمال دعاء النبي ﷺ، فكان ذلك ما دلنا على أن ذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم نعمة من الله». حقوق آل البيت: ص ١٢.

يمكن تحصيلها فيما يلي :

(١) قال الشيعة: إنَّ أهل البيت هم رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين .١

١. ذهب علماء أهل البيت إلى أنَّ «أهل البيت» المشمولين بأية التطهير هم: «محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين» عليهم السلام وقد ذكروا لذلك روايات كثيرة، قال عنها الطباطبائي في الميزان: ج ١٦ ص ٣١١: «هي روايات جملة تزيد على سبعين حديثاً، يربو ما ورد منها من طرق أهل السنة على ماورد منها من طرق الشيعة...» فراجع.

بل ادَّعى استفادتها كما ذكر ذلك السيد الحكيم في كتابه الأصول العامة للفقهاء المقارن: ص ١٥٠ حيث قال: «وحدث الكساء الذي كاد أن يتواتر مضمونه...» والتواتر فوق الاستفاضة بدرجة. وعبر السيد كمال الحيدري بكثافة الشواهد الروائية في بحثه حول الإمامة: ص ٢٤٠، وقال في ص ٢٤٢-٢٤٣: «إنَّ أهل البيت اسم خاص ينطبق على النبي والإمام علي وفاطمة والحسن والحسين، وتصريحها -الروايات- بعدم دخول من سواهم معهم في هذا الاسم، بحيث لا يطلق على غيرهم ولو كان من أقربائه الأقربين وإن صحَّ إطلاقه بحسب العرف العام.

«ومفهوم «أهل البيت» وإن كان قد أطلق على هؤلاء الخمسة، إلا أنَّ رسول الله وسَّعه ليشمل ذريتهم من بعدهم ولم يخصه ويقيده فيهم وحدهم، فقال: «في كلِّ خلف من أمتي عدول من أهل بيتي، ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين...» راجع الصواعق المحرقة: ٢٣١. فجعل ﷺ مفهوم أهل البيت منطبقاً على ذرية علي وفاطمة، والذي لا يخلو عصر منهم إلى قيام المهدي عليه السلام وهو من أهل البيت وإن تأخر زمانه، كما أطلق ﷺ ذلك عليه بالقول: «المهدي منَّا أهل البيت، يصلحه الله في ليلة» سنن أبي داود: ج ٤ ص ١٠٧، والجامع الصغير: ج ٢ ص ٩٧٢، وقوله ﷺ: «لؤلؤم يبق من الدهر إلا يوم، لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً» سنن أبي داود: ج ٤ ص ١٠٧.

ولهذا أيضاً قال الامام الصادق في تعريف أهل البيت: «الأئمة الأوصياء» راجع معاني الأخبار: ص ٩٤ للشيخ الصدوق.

فإذن «أهل البيت» على نحو القضية الخارجية زمان النصِّ هم: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وأما باقي الأئمة من ولد الحسين فهم من أهل البيت على نحو القضية الحقيقية.

وقد أكَّد كثير من علماء أهل السنة ومفسريهم على نزول آية التطهير في خصوص هؤلاء الخمسة، في كثير من كتبهم ونقلوا في ذلك روايات من طرق عدَّة: يقول ابن تيمية: «إنَّ هذه الآية لما نزلت أدار النبي ﷺ كساءه على علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فقال: «اللَّهُمَّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» حقوق آل البيت: ص ١٠.

وذكر مسلم في صحيحه: ج ٤ ص ١٨٨٣ هذا المعنى عن عائشة، وقال الواحدي في أسباب النزول ص ٢٣٩: «إنَّها نزلت في خمسة: في النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام». وأكَّده القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص ١٨٤ قائلاً: «إنَّ هذا شيء جرى في الأخبار». وقال السيوطي في الاتقان: ج ٢ ص ١٤٨: «أهل البيت... هم علي وفاطمة والحسن والحسين». وممَّن خرجها من أعلام السنة في هؤلاء الخمسة، نوردهم على سبيل المثال لا الحصر: الجامع الصحيح للترمذي: ج ٥ ص ٦٠٦ حديثه ٢٨٧١، الخصائص للنسائي:

يؤيدهم في ذلك حديث أم سلمة أم المؤمنين: أن النبي أجلس الأربعة حوله على كساء له وضعه فوق رؤوسهم، وأوماً بيده اليمنى إلى ربه، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل البيت، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»^١.

وعن أم سلمة: أن الآية نزلت والرسول صلى الله عليه وآله في بيتها، وأنها عندئذ كانت على باب البيت، فقالت: أنا يا رسول الله من أهل البيت؟ وأنه قال: «وإنك إلى خير، وأنت من أزواج النبي»^٢. وعنها أنها قالت: يا رسول الله أدخلني معهم، وأنه قال «إنك من أهلي»^٣.

(٢) وقال البعض: بل عنى الله بذلك أزواج النبي، والحجة في ذلك توجيه الخطاب إليهن، وتقلوا ذلك عن ابن عباس تلميذ علي وشيعته وعامله، وذهبوا إلى أن «البيت» أريد به مساكن النبي صلى الله عليه وآله^٤.

→ ص ٢٤، مسند الإمام أحمد: ج ٦ ص ٢٩٢ و ٢٩٨ و ٣٤٠، وفي ج ١ ص ١٨٥ و ٣٣٠ و ٣٣١، وشواهد التنزيل للحسكاني: ج ١ ص ١٢٤ و ٣٨١، وج ٢ ص ١٠، و ١١ و ١٢ و ١٦ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢ و ٣٣، والحاكم في المستدرک مع تلخیص الذهبي: ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ و ١٤٦ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٥٠ و ١٥٨، وجامع البيان لابن جرير: ج ٢٢ ص ٢٩٦، وتفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٤٩٢، وتفسير الخازن ج ٣ ص ٤٩٩، وعبارة البيضاوي وهو أحد مفسري أهل السنة واضحة جلية حينما يقول: «وتخصيص الشيعة أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيهما رضي الله عنهم لما روي أنه عليه الصلاة والسلام خرج ذات غدوة وعليه مرط مرجل.....» راجع أنوار التنزيل: ص ٥٥٧.

وقد ذكر مسلم حديثاً عن زيد بن أرقم يخرج فيه نساء النبي من «أهل البيت» كما في حديث الثقلين: «... فقلنا: من أهل بيته، نساؤه؟ قال: لا وأيم الله، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أهله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده» صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٨٨٣.

١. صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٨٧٤، الجامع الصحيح: ج ٥ ص ٦٥٦ - ٦٥٧ حديث رقم ٣٨٧١، مسند أحمد: ج ٦ ص ٢٩٢ و ٢٩٨ و ٣٣٠ و ٣٣١، أسد الغابة: ج ٢ ص ١٢.

٢. الجامع الصحيح للترمذي: ج ٥ ص ٦٥٦ حديث رقم ٣٨٧١، مسند أحمد: ج ٦ ص ٢٩٢ و ٣٤٠، الصواعق المحرقة: ص ١٤٣، أسد الغابة: ج ٢ ص ١٢، أعيان الشيعة: ج ١ ص ٣٠٨.

٣. الصواعق المحرقة: ص ١٤٤ والمراد: أنها من أهل بيت سكناه.

٤. ولعل أول من ذهب إلى ذلك هو عكرمة ومقاتل، وكان من أظهر إصرار عكرمة وتبنيها لهذا الرأي أنه كان ينادي به في السوق وكان يقول «من شاء باهلتها أنها نزلت في أزواج النبي صلى الله عليه وآله» راجع في ذلك أسباب النزول: ص ٢٦٨، والدرر المنتور: ج ٥ ص ١٩٨. وقد نسب هذا الرأي إلى ابن عباس.

والظاهر أن السبب في ادعاء عكرمة هذا الأمر هو أنه اعتنق مذهب الخوارج، وبخاصة رأي نجدة الحروري (راجع وفيات الأعيان: ج ١ ص ٣٢٠) وللخوارج موقف مع الإمام علي معروف، وقد استغل عكرمة علاقته

(٣) وقال فريق: بل أنّ (أهل النبي) هم أهل بيته، ولو كان أهل البيت هم زوجاته فقط لكان النصّ: (ليذهب عنك الرجس) لا ﴿عنكم﴾ كما هو النصّ في الآية، فدخل في ذلك رجال، وأهل النبي - بدلالة السنن التي أشرنا إلى بعضها - هم: فاطمة وعلي والحسن والحسين، ويؤيد ذلك قول الآية ﴿ويطهركم﴾. وهذا يوافق الرأي الأول.

(٤) وإذا دخل الرجال فهم - كما قال فريق آخر - بنو هاشم. و«البيت» يُراد به بيت النسب، فيدخل في ذلك أعمام النبي، وفيهم بنو العباس وبنو أبي طالب^١.
(٥) ويتوسّع محيي الدين بن عربي^٢ (٥٦٠) في الفتوحات المكيّة^٣ فيدخل «الفارسي»

→ بابن عباس وسيلةً للكذب، والخوارج يستسيفون الكذب في سبيل العقيدة، وقد اشتهرت قصة كذبه على ابن عباس بين خاصته حتّى كان يضرب المثل فيه.

فعن ابن المسيّب أنّه قال لمولاه له اسمه برد: «لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس» وعن ابن عمر أنّه قال ذلك - أيضاً - لمولاه نافع. (راجع ميزان الاعتدال: ترجمة عكرمة). وقد حاول علي بن عبد الله بن عباس منعه من ذلك حتّى أنّه كان ليؤتمقه على الكنيّف لأنّه كان يكذب على أبيه (راجع وفيات الأعيان: ج ١ ص ٣٢٠).

وأما مقاتل فحسابه من حيث العداة لأمير المؤمنين عليه السلام حساب عكرمة، وكذا كذبه، حتّى عدّه النسائي في جملة الكذّابين المعروفين بوضع الحديث (راجع دلائل الصدق: ج ٢ ص ٩٥). وقال الجوزجاني: «وكان مقاتل كذاباً جسوراً» (راجع ترجمة مقاتل في ميزان الاعتدال).

وممن ذهب إلى أن «أهل البيت» خاصّ بأزواج النبي إحسان الهي ظهير في كتابه «الشيعة وأهل البيت»: ص ١٩.

ويرد على هذا الرأي أنّه لم تدع أيّ من نساء النبي ﷺ هذا الشرف لنفسها، بل صرّحت غير واحدة بنزولها في الخمسة، كما ذكرت سابقاً.

١. ذهب إلى ذلك إحسان الهي ظهير في كتابه «الشيعة وأهل البيت»: ص ١٩. وعند مراجعة الروايات التي أدخلت أعمام النبي في «أهل البيت» تجدها روايات آحاد، ذكر بعضها ابن حجر في الصواعق المحرقة: ص ٢٢٢. يقول السيد الحكيم عنها في «الفقه المقارن»: ص ١٥١: «وهي لعدم طبيعتها، وضعف أسانيدها، ومجافاتها لواقع الكثير منهم، لا تستحقّ أن يطال فيها الحديث، ومن رغب في الاطلاع عليها فليقرأها مع محاكمتها في كتاب دلائل الصدق: ج ٢ ص ٧٢ وما بعدها، وحسبها وهناً أن لا يستدلّ بها أو يستند إليها أحد من أولئك أو أحد أتباعهم مع ما فيه من الشرف العظيم لأمثالهم». وممن ذهب إلى هذا الرأي النووي في المجموع: ج ٣ ص ٤٦٦ وابن حجر في الصواعق المحرقة: ٢٢٥.

٢. هو محمد بن علي بن محمد ابن العربي: أبو بكر الحاتمي الطائفي الأندلسي، المعروف بمحيي الدين بن عربي، ←

في أهل البيت، إذ الرسول يقول: «سلمان منا أهل البيت»^٤. ويضيف ابن عربي: «أن جميع ما يصدر عن أهل البيت معفو عنهم فيه، فهم مطهرون بالنص، معصومون وإن توجهت عليهم الأحكام الشرعية». ويذكر البعض قول الرسول: «سألت ربي أن لا يدخل النار أحداً من أهل بيتي، فأعطانا ذلك»^٥ وقوله: «يا فاطمة، تدرين لم سميت فاطمة؟ فقال علي: لم سميت؟ قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله عز وجل قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة»^٦.

(٦) وفريق يرى أن أبناء علي من الزهراء هم الذرية المقصودة في سورة الطور، حيث قوله جل ثناؤه: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ»^٧.

وروا عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته»^٨.

وبهذا ترتفع ذرية النبي - وهي ذرية علي من الزهراء - فتلتحق بالنبي، وهذا المعنى تفيدته الآية: ٢٣ من سورة الرعد: «جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ». فأهل البيت ذرية داخلية الجئة مع جدّها عليه الصلاة والسلام.

→ الملقب بالشيخ الأكبر، فيلسوف من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسية (بالاندلس) سنة ٥٦٠ هـ، وانتقل إلى أشبيلية، أنكر عليه أهل الديار المصرية (شطحات) صدرت عنه، فعمل بعضهم على إراقة دمه، وحبس، وسعي في خلاصه، فنجاه واستقر في دمشق إلى أن توفي بها ٦٢٨ هـ. وهو كما يقول الذهبي: قدوة القائلين بوحدة الوجود. له نحو أربعمئة كتاب ورسالة، منها: الفتوحات المكية، فصوص الحكم. (الأعلام: ج ٦ ص ٢٨٠).

٣. الفتوحات المكية: ج ١ ص ٢٦٩.

٤. الخلاصة للخزرجي: ص ٢٢٥، المستدرک علی الصحیحین: ج ٣ ص ٥٩٨، الاستيعاب: ج ٢ ص ٥٥٧، الصواعق المحرقة: ٢٢٧، كنز العمال: ج ١١ ص ٤٠ ح ٣٣٣.

٥. كنز العمال: ج ١٢ ص ٩٥ ح ٣٤١٤٩.

٦. بحار الأنوار: ج ٤٣ ص ١٥ و ١٦ و ١٩ و ٢٠، فضل آل البيت لأبي الحسن الشافعي: ص ٥١ ط القاهرة. وقال: وقد أخرجه الحافظ الدمشقي. شرح الفقه الأكبر لعلي بن سلطان الحنفي: ص ١٣٣، تفسير آية العودة لشهاب الدين الحنفي المصري: ص ٥٠، توضيح الدلائل لشهاب الدين الشافعي الشيرازي: ص ٣٢٦، وغيرهم كثير. ومنهم من خرّجها بلفظ «شيعتها» ومنهم بلفظ «محبّتها».

٧. الآية: ٢١.

٨. كنز العمال: ج ٢ ص ٣٠٤٥.

(٧) وهذا فريق يوسع فيشمل ذوي القربى، وتشمل آل محمد، بقوله تعالى في سورة الشورى: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى»^١.

وقال قوم: إن للنبي قرابة في كل بطنٍ من بطون قريش، وإن كان أخصّ القرابة هم الذرية.

وظاهر أن كل هذه الأفراف على أن ذرية علي من فاطمة من أهل البيت، وأن الخلاف فيما عدا ذلك، فيرجح البعض أن القرآن والسنة الشارحة يجعلان أهل البيت هم ذرية النبي من علي وفاطمة، وهما ومعهما أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.

لكن الشيعة يقولون قولاً واحداً: إن الذرية وحدها وعلياً وفاطمة هم أهل البيت، بدلالات شتى من الحديث^٢، ثابت منها: أن النبي طفق ستة أشهر - بعد نزول آية التطهير - يمرّ وقت صلاة الفجر على بيت فاطمة فينادي «الصلاة يا أهل البيت، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً»^٣. فهذا نص، وأنص منه حديث أم سلمة، إذ أفصح عنهم، واستبعد سواهم.

وفي بعض الروايات: أن النبي ﷺ أدخل علياً وفاطمة وابنيهما تحت الكساء، ثم جعل يقول: «اللهم إليك لا إلى النار، وأنا وأهل بيتي^٤. اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي - وفي رواية: وحامتي^٥ - اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»^٦.

وسيطّل وصف «أهل البيت» قضية بين بني العباس وبني علي، فهو من مسوغات الخلافة

١. الآية: ٢٢.

٢. وهذا ما حققناه سابقاً.

٣. المستدرک للحاکم: ج ٣ ص ١٥٨، مسند أبي داود: ص ٢٧٤، العمدة لابن البطريق: ص ٤٥، غاية المرام: ص ٢٨٩ نقلاً عن السنن، الدرّ المنتور للسيوطي: ج ٥ ص ١٩٩، مسند أحمد: ج ٣ ص ٢٥٩ - ٢٥٢، تفسير الطبري: ج ٢٢ ص ٥ - ٦، شواهد التنزيل للحسكاني: ج ٢ ص ١١، صحيح الترمذي: ج ٢ ص ٢٩، ذخائر العقبى: ص ٢٤، مجمع الزوائد للهيتمي: ج ٩ ص ١٦٨، أسد الغابة: ج ٥ ص ٥٢١، الفصول المهمة: ص ٨.

٤. تاريخ ابن عساکر: ج ١٤ ص ١٤٥ ح ٣٤٥٦، المعجم الكبير للطبراني: ج ٢٣ ص ٣٢٠ ح ٧٥٩، مسند أحمد: ج ٦ ص ٢٩٦، تاريخ دمشق: ج ١٣ ص ٢٠٣.

٥. ذخائر العقبى: ص ٢٣، أسد الغابة: ج ٤ ص ٢٩، الصواعق المحرقة: ص ١٤٣.

٦. فضل آل البيت للعلامة أبو كف: ص ٣٩، مناقب آل الرسول للنجف آبادي: ص ٢٩٦، رشفة الصادي للحضرمي: ص ١٣٩، تاريخ دمشق: ج ١٣ ص ٢٠٤.

من الإعداد السري، كان مقدمها استجابةً لهذا الشعار.



كتب أبو مسلم الخراساني أيامئذٍ إلى الإمام جعفر الصادق: إني قد أظهرت الكلمة، ودعوت الناس عن بني أمية إلى موالاة «أهل البيت»، فإن رغبت فلا مزيد عليك. وأجاب جعفر الصادق معلناً فلسفته: «ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني»^١.

وفي الوقت ذاته بعث أبو سلمة الخلال^٢ - الملقب بوزير آل محمد، والذي سيصبح وزيراً للسفاح أول خلفاء بني العباس - إلى جعفر الصادق، وعبد الله^٣ بن... «الحسن»، وعمرو الأشرف^٤، من أبناء علي مع رجلٍ من موالي أبي سلمة^٥ قائلاً له: إن أجب جعفر فلا تذهب إلى غيره، وإن لم يجب فاقصد إلى عبد الله، فإن أجب فأبطل كتاب عمرو. وذهب الرسول إلى جعفر فقال: مالي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري، ووضع الكتاب في النار حتى احترق،

١. حياة الإمام الرضا للسيد جعفر مرتضى: ص ٤٩، تاريخ الامامية للفياض: ص ٦٥، جهاد الشيعة للدكتورة سميرة الليثي: ص ٨٩، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة. لأسد حيدر: ج ٢ ص ٣٢٠، الملل والنحل للشهرستاني: ج ١ ص ٢٤٣.

٢. خرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على بني مروان سنة ١٢٧ في الري بخراسان، ثم استسلم لأبي مسلم بعد إذ ظفر الأخير بجيوش بني مروان، وكتب إليه يستعطفه بقوله: «من الأسير بين يديه، بلا ذنب إليه ولا خلاف عليه، فإن الناس من حوضك رواء ونحن منه ظماء، رزقنا الله منك التحنن...، فإنك أمين مستودع ورائد مصطنع، والسلام عليكم ورحمة الله» ولم يطلقه أبو مسلم، بل أورده حنفة، وقيل: ستمه. (منه).

٣. هو حفص بن سليمان الهمداني الخلال: أبو سلمة، أول من لقب بالوزارة في الإسلام، كانت إقامته قبل ذلك في الكوفة، وأنفق أموالاً كثيرة في سبيل الدعوة العباسية، كان يحمل كتب إبراهيم الإمام ابن محمد إلى النقباء في خراسان. استوزه السفاح وكان يستمتع بحديثه، اغتاله أشخاص كمنوا له ليلاً فقطعوه بأسياقهم سنة ١٣٢ هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ٢٦٤).

٤. عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي: أبو محمد، تابعي من أهل المدينة، قال الطبري: كان ذا عارضة وهيبة ولسان وشرف، حسبه المنصور عدة سنوات من أجل ابنه محمد وإبراهيم، ونقله إلى الكوفة فمات سجيناً فيها سنة ١٤٥. (الأعلام: ج ٤ ص ٧٨).

٥. هو عمر الأشرف بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قال الشيخ المفيد: كان فاضلاً جليلاً، وولي صدقات رسول الله ﷺ وصدقات أمير المؤمنين، وكان ورعاً سخيّاً. وإنما سُمّي بالأشرف في قبال عمر الأطراف ابن أمير المؤمنين عليه السلام، فقد كان أشرف منه لأن فضيلة الثاني من طرف واحد وهو طرف أبيه أمير المؤمنين، وكان عمر الأشرف يروي عن الإمام الصادق، قال عنه الباقر عليه السلام: وأما عمر فهو عيني التي بها أرى. (منتهى الآمال: ج ٢ ص ٦٩).

٦. هو محمد بن عبد الرحمان بن أسلم.

وأبى أن يقرأه، قال الرسول: ألا تجيبه؟ قال: قد رأيت الجواب^١.

ثم مضى الرسول إلى عبد الله، فقرأ الكتاب، وقصد إلى جعفر الصادق ينثبه بورود الكتاب إليه من شيعته بخراسان، قال الصادق له: ومتى كان لك شيعة بخراسان؟ أنت وجهت أبا مسلم إليهم؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه؟ فكيف يكونون شيعتك، وهم لا يعرفونك وأنت لا تعرفهم؟! قال عبد الله: كأن هذا الكلام منك لشيء؟ قال الصادق: قد علم الله أنني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم، فكيف أدخره عنك؟ فلا تمن نفسك، فإن الدولة ستتم لهؤلاء^٢.

و ذات يوم دخل على جعفر الصادق سدير الصيرفي^٣ قال: يا أبا عبد الله، ما يسعدك القعود، قال: لم؟ قال: لكثرة أنصارك.. مائة ألف، مائتي ألف^٤. فتساءل الإمام عن عدد المخلصين منهم، وأبدى زهداً، وبصراً بالعواقب.

والحق أن زين العابدين وابنه وحفيده وبينهم لم يتجهوا إلى أن تكون لهم «دولة»، ومن ذلك قول الكاظم لهشام بن الحكم^٥: «يا هشام، كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا»^٦. ولما خرج زيد بن زين العابدين على هشام، كان خروجه ثورة طارئة، والمنهج الزيدي غير منهج الإمام جعفر، وثورة زيد لم يسبقها إعداد، بل استجاب لأهل الكوفة فخذلوه كما خذلوا جدّه، وإنما الذي فكّر ودبّر، وأنفذ الدعاة، وتابع الدعوة، هم بنو العباس.

١. أعيان الشيعة: ج ١ ص ٦٦٥، أنصار الحسين لمحمد مهدي شمس الدين: ص ٢٠٩، الفرج بعد الشدة للقاضي

التنوخى: ج ٢ ص ٣٤٩، عمدة الطالب لابن عنبه ص ١٠٢، ينابيع المودة: ج ٣ ص ١٦١.

٢. مروج الذهب للمسعودي: ج ٣ ص ١٨٤، الآداب السلطانية: ص ١٣٧.

٣. هو سدير بن حكيم بن صهيب الصيرفي، يكنى أبا الفضل، من الكوفة، مولى من أصحاب السجاد عليه السلام، وعدّ في أصحاب الباقر والصادق عليهما السلام. قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله إذا أحب عبداً غنّته بالبلاء غنّاً، وأنا وإياكم يا سدير نصّح به ونمسي» الكافي: ج ٢ ص ٦٦ كتاب الإيمان والكفر. (معجم رجال الحديث للدخوي: ج ٩ ص ٣٧).

٤. الكافي: ج ٢ ص ٢٤٣.

٥. هشام بن الحكم الشيباني بالولاء، الكوفي: أبو محمد، متكلم مناظر، كان شيخ الإمامية في وقته، ولد بالكوفة، ونشأ بواسط، وسكن بغداد، وانقطع إلى يحيى بن خالد البرمكي، فكان القيم بمجالس كلامه ونظره. صنّف كتاباً منها: الإمامة، القدر، الشيخ والغلام،... الخ. ولما حدثت نكبة البرامكة استتر، وتوفي على أثرها بالكوفة سنة ١٩٠ هـ، ويقال: عاش إلى خلافة المأمون. (الأعلام: ج ٨ ص ٨٤).

٦. تحف العقول: ص ٣٨٩، بحار الأنوار: ج ١ ص ١٤١ وج ٧٥ ص ٣٠٣، نهج السعادة: ج ٧ ص ٣٤٦، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ج ٢ ص ١٠٨.

وإبراهيم الإمام^١ يكتب إلى واحدٍ من دعائه في خراسان: «.. وإن استطعت ألا تبقي في خراسان من يتكلم العربية فافعل» وهو تعطش للدم في سبيل السلطة، وسفك لدماء العرب خاصةً، لا يقول به واحد من الأئمة.



وكان بنو هاشم قد اجتمعوا قبل ذلك بالأيواء - مكان في أعلى المدينة - والتقدور تغلي في خراسان، والجو يزخر بالنذر، فعلى الذين يرسلون الدعوة إلى خراسان، والذين تجري الدعوة لهم، أن يتدارسوا أمورهم، ليعرفوا لمن تؤول الأمور. فمثل فرع العباس بن عبد المطلب عم النبي: إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأخوه أبو جعفر المنصور، وعمهما صالح بن علي^٢. ومثل فرع بني علي بن أبي طالب: عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وابناه: محمد^٣ وإبراهيم^٤، ومحمد بن عبد الله بن^٥ ... عثمان بن عفان، لأن

١. إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، زعيم الدعوة العباسية قبل ظهورها، أوصى له أبوه بالإمامة، فكان شيعتهم يختلفون إليه ويكاتبونه من خراسان وغيرها، وتأتيه كتبهم، وانتشرت دعوته، وهو الذي وجهه أبا مسلم الخراساني والياً على دعائه وشيعته في خراسان، فكان من أبي مسلم أن حارب ولاية بني أمية وسيطر على البلاد، ثم ظهر أمر إبراهيم وعلم به مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان، فقبض عليه وزججه في السجن بحران، ثم قتله في حبسه سنة ١٣١هـ. (الأعلام: ج ١ ص ٥٨).

٢. هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي، الأمير، عم السفاح والمنصور، وأول من ولي مصر من قبل الخلفاء العباسيين، تعقب مروان بن محمد لما فرّ من الشام، وقتله سنة ١٣٢هـ، فولاه السفاح مصر، ففتك بالكثير من أشياع بني أمية، وهو الذي كسر الروم في وقائع مرج دابق، وكانوا نحو مائة ألف، وكان شجاعاً حازماً، توفي بقنصرين سنة ١٥١هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ١٩٢-١٩٣).

٣. هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب: أبو عبد الله، الملقب بالأرقط وبالمهدي وبالنفس الزكية، أحد الأمراء الأشراف من الطالبين، ولد بالمدينة سنة ٩٣هـ، وكان يقال له: صريح قريش، كان غزير العلم، وفيه شجاعة وحزم وسخاء، لما انحلت الدولة الأموية بايعه بنو هاشم سرّاً، فلما قامت الدولة العباسية لم يبايع السفاح وتوارى، فطلبه المنصور وقبض على أبيه واثني عشر من أهل بيته وعذبهم، فماتوا بحبسه بعد سبع سنين، فلما علم محمد بموت أبيه خرج ثائراً، فقلب على مدن كثيرة. ثم حدثت بينه وبين جيش المنصور وقعة على أبواب المدينة، قتل بيده سبعين فارساً حتى قُتل سنة ١٤٥هـ. (الأعلام: ج ٦ ص ٢٢٠-٢٢١).

٤. وهو إبراهيم بن عبد الله، المعروف بقتيل باخمري، وكان جارياً على مشاكلة أخيه محمد في الدين والعلم والشجاعة والشدة والثورة على الظلم، بايعه أربعة آلاف مقاتل، فاستولى على البصرة وهزم المنصور منها إلى الكوفة، واستولى على بلاد كثيرة، وكانت بينه وبين المنصور وقائع شديدة انتهت باستشهاده. (مقاتل الطالبين: ص ٢١٠-٢٥٦) بتصرف.

أمه من بني الحسن بن علي، وهو أخو عبد الله لأمه.

وأجمع الفرعان علي «محمد بن عبد الله بن الحسن» الملقَّب بالنفس الزكية؛ لورعه الكامل، وعلمه المشهود به، بل قد تحمَّس له أبو جعفر، وكان يومئذٍ يلبس قباءً أصفر، ولَمَّا حجَّ محمد لقي أبا جعفر، فبايعه مرةً أخرى بالمسجد الحرام ذاته، وأمسك أبو جعفر بركابه يومذاك وراح يقول للناس: هذا مهدينا أهل البيت^١.

وإذ لم يكن لبيت الحسين ممثل في اجتماع يوم الأَبَاء، بعث عبد الله بن الحسن إلى كبيرهم جعفر بن محمد، فحضر واعترض عليَّ بيعة محمد بن عبد الله، قال: لا تفعلوا، فإنَّ هذا الأمر لم يأتِ بعد، لا ندعك وأنت شيخنا ونبايح ابنك. وفي روايةٍ أخرى أنه أضاف: إن كنت ترى أن ابنك هذا هو المهدي فليس به، وإن كنت إنما تريد أن تخرجه غضباً لله، وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فإنَّا والله لا ندعك وأنت شيخنا ونبايح ابنك^٢. فغضب عبد الله وقال: لقد علمت خلاف ما تقول، ولكن يحملك عليَّ هذا الحسد لابني^٣. قال جعفر: والله ما ذاك يحملني، ولكن هذا وأخوته وأبناؤهم دونكم، إنَّها والله ماهي إليك، ولكن لهم، وإنَّ ابنيك لمقتولان، ثم نهض وتوكأ عليَّ يد عبد العزيز بن عمران الزهري^٤ فقال: رأيت صاحب القباء الأصفر «أبا جعفر»؟ قال: نعم، قال: فإنَّنا والله نجده يقتله، قال عبد العزيز: أقتل محمداً؟ قال: نعم. قال عبد العزيز فيما بعد: فقلت في نفسي: حسده وربِّ الكعبة، ثم قال عبد العزيز: ثم والله ما خرجت من الدنيا حتَّى رأيتَهُ قتلها (محمداً وأباه).

قال: فلَمَّا قال جعفر ذلك انفضَّ القوم فافترقوا، ولم يجتمعوا بعدها. وتبعه أبو جعفر وعبد الصمد (من أعمام أبي جعفر) فقالا: يا أبا عبد الله (جعفر الصادق) أتقول هذا؟ قال: نعم، أقول والله وأعلمه^٥.

٥. محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وهو الملقَّب بالديباج، سبط الإمام الحسين عليه السلام من ابنته فاطمة، كما ذكر الذهبي في «من له رواية في كتب السنة»: ج ٢ ص ١٨٩، كان دائم الرواية عن أمه فاطمة.

١. مقاتل الطالبين: ص ٢٣٩.

٢. وليس في نصِّ الروایتين بيعة من جعفر الصادق لعبد الله أو لابنه محمد كما وهم البعض، وإنَّما فيهما تفضيل للأب علي الابن مع رفض البيعة. (منه).

٣. وفي روايةٍ أخرى أنه أضاف: «والله ما أطلعك الله عليَّ غيبه». (منه).

٤. وهو ابن أبي ثابت عبد العزيز بن عمران الزهري، صاحب كتاب الاحلاف (الفهرست: ١٢).

٥. الرواية كاملة في مقاتل الطالبين: ص ١٤٠ - ١٤٢، إرشاد المفيد: ج ٢ ص ١٩٢، ونقلها أيضاً السيد

قالوا: كان أبو جعفر يسميه الصادق؛ لصدق نبوءته.

وقالوا: دعا محمد عمرو بن عبيد^١ زعيم المعتزلة لمبايعته، فاعتلّ عليه وقال: لا أباع أحداً حتّى اختبر عدله.

ولقد ظلّ أبو جعفر المنصور يذكر هذا العمرو.

وكان جعفر الصادق إذا رأى محمد بن عبد الله بعد ذلك تفرغرت عيناه وقال: بنفسى هو، إنّ الناس ليقولون: إنّه المهدي، وإنّه لمقتول، ليس في «كتاب علي»^٢ من خلفاء هذه الأمة^٣. بايع أبو سلمة الخلال للسفاح، ولم يبايع لأبي جعفر الأخ الأكبر، لأنّ أمه كانت أم ولد بربرية تدعى سلامة^٤، وبدأ حكم بني العباس في سنة ١٣٢.

وأذيع في الملاء أنّ محمد بن علي^٥ - أبا السفاح - موصى له بوصية^٦ من أبي هاشم^٧ عبد

→ مرتضى العسكري في معالم المدرستين: ج ٣ ص ٣٢٥، وراجع كشف الغمة: ج ٢ ص ٣٨٦ - ٣٨٧، ومدينة المعاجز لهاشم البحراني: ج ٥ ص ٢٩٢، وبحار الأنوار ج ٤٦ ص ١٨٩ و ج ٤٧ ص ٢٧٨، ومعجم أحاديث المهدي للعالمي: ج ٣ ص ٤٣٢، وتفسير مجمع البيان الطبرسي: ج ٥ ص ٣٥٢، وأعلام الوري للطبرسي: ج ١ ص ٥٢٧.

١. عمرو بن عبيد بن باب التيمي بالولاء؛ أبو عثمان البصري، شيخ المعتزلة في عصره و فقيها، وأحد الزهاد المشهورين، قال فيه المنصور: كلّمك طالب صيد، غير عمرو بن عبيد. له خطب وكتب ورسائل كثيرة. توفي بمران قرب مكة سنة ١٤٤هـ، وقد رثاه المنصور. (الأعلام: ج ٥ ص ٨١).

٢. إنّ أول كتاب - في الحديث - ألف في الإسلام كتاب علي عليه السلام، أملاه رسول الله ﷺ وخطّه عليه عليه السلام علي صحيفة، فيها كلّ حلال وحرام. (مقدّمة كتاب الكافي، للدكتور حسين علي محفوظ) وكان الأئمة ينقلون عنه بقولهم: «وجدنا في كتاب علي».

٣. إعلام الوري: ج ١ ص ٥٢٨، مقاتل الطالبيين: ص ٢٠٦، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢٨٧، الإرشاد: ص ٢٧٧، نفس الرحمان في فضائل سلمان للطبرسي: ص ٣٠١، كشف الغمة: ج ٢ ص ٣٨٥.

٤. تاريخ بغداد: ج ١٠ ص ٥٥، تاريخ دمشق: ج ٣٢ ص ٣٠٧ و ج ٣٥ ص ٤٤٩، سير أعلام النبلاء: ج ٧ ص ٨٣، تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٣٦٤.

٥. محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، أول من قام بالدعوة العباسية، وهو والد المنصور والسفاح، ولي إمامة الهاشميين سرّاً في أواخر الدولة الأموية، عمل سرّاً لجمع الأموال من الأحماس والزكوات لدفعها إلى الدعوة إلى الدعوة العباسية، مات بالشرأة سنة ١٢٥هـ عن عمر يناهز ٦٣ سنة (الأعلام: ج ٦ ص ٢٧١).

٦. تاريخ الطبري: حوادث سنة ١٠٠ و ١٢٠ و ١٢٦، تاريخ اليعقوبي: ج ٣ ص ٧٢، ذيل المذيل: ص ٩٨، تاريخ ابن خلدون: ج ٢ ص ١٧٢، وفيات الأعيان: ج ١ ص ٤٥٤، الكامل لابن الأثير: ج ٥ ص ١٧ و ٢٠ و ٤٣ و ٥١ و ٥٣ و ٦٩ و ٧٢ و ٨٠ و ٩٦ و ١٠١، تاريخ الإسلام للذهبي: ج ٥ ص ١٣٣.

الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، إذ أحسَّ عبد الله أثر السم^١ الذي سقاه دسيس من الخليفة سليمان^٢ بن عبد الملك بن مروان (٥٩٨هـ) فمال في الطريق إلى حيث مات عند محمد بالحيمية^٣. وثمة من يعتقد أنَّ الإمامة قد انتقلت بعد استشهاد الحسين إلى أخيه محمد بن الحنفية، أمه خولة بنت جعفر من بني حنيفة^٤.

وهذه الوصية تغني بني العباس عن الخلاف مع أبناء علي، في أن يكون العباسيون من أهل البيت أو لا يكونون.

بهذا صيّر بنو العباس محمد بن علي بن عبد الله بن العباس إماماً، فلما مات آلت الإمامة إلى ابنه إبراهيم، فنودي بأنه «إبراهيم الإمام»، فلما قُتل إبراهيم بايعوا للسفاح سنة ١٣٢.

بين ابناء علي وبنو العباس

قضى السفاح على الأحياء من بني أمية وبني مروان، فاستحقَّ في التاريخ لقبه، وأدار وجهه للآخرين، فسأل عبد الله بن الحسن عن ابنه محمد (النفس الزكية) وأخيه إبراهيم، فلما علم باختفائهما سكت عن الطلب حيناً، ثم عاجله أجله. وولي أبو جعفر سنة ١٣٦، وألحَّ في طلبهما، فأعجزاه هرباً.

وللأقرباء أو الأصدقاء أولية في سورة السلطة إذا عُرِيت من خشية الله، وأولى الناس

٧. عبد الله بن محمد بن الحنفية، يكتنَى أباً هاشم، وأمّه أم ولد، وكان صاحب علم ورواية، ثقة، قليل الحديث، كانت الشيعة يلقونه ويتولونه، تعلّم واصل بن عطاء على يديه. (الطبقات الكبرى: ج ٥ ص ٣٢٨).

١. التنبيه والأشراف للمسعودي: ص ٢٩٢.

٢. سليمان بن عبد الملك بن مروان، أبو أيوب، الخليفة الأموي، ولد في دمشق سنة ٥٤هـ، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ، فأطلق الأسرى، وأخلى السجون، وعفا عن المجرمين وأحسن إلى الناس، حاصر القسطنطينية وفتح جرجان وطبرستان، توفي في دابق سنة ٩٩هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ١٣٠).

٣. هي بلد من أرض الشراة من أعمال عمان في أطراف الشام، وهي القرية التي أهداها عبد الملك بن مروان لعلي بن عبد الله بن العباس لترضيته، فكانت منازل بني العباس. (معجم البلدان: ج ٢ ص ٣٠٧. الإمامة والسياسة: ج ٣ ص ١٤٩).

٤. هي خولة بنت جعفر بن قيس، من بني حنيفة، وهي من سبي أهل الردة، قيل: اشتراها أسامة بن زيد وباعها من علي بن أبي طالب، فلما عرف الإمام صورة حالها أعتقها وتزوجها ومهرها. (عمدة الطالب: ص ٣٢٣).

بافتكة البكر منها: الأقرباء إذا خيف أن يصيروا أعداء، والأصدقاء الذين يحتمل أن يقدروا على الإيذاء. فالأولون يغري السلطان بهم الحسد أو الحقد أو الخوف من جانبه؛ لما يعرفون من دخائل يخشاها، أو لما يتضح لهم من عورات، أو فيهم من مطامع أو استخفاف بالسلطان الذي رأوه وهو سوقة، أو مطالبة السلطان لهم بإعطائه حقه أو أكثر من حقه. والآخرون أحرى بالخوف والحذر؛ سداً لذريعة الوثوب واقتراض الفرص، أو شغلاً لهم بأنفسهم، أو معالجة من السلطان لما يكابده من الشجن أو الفرع من جراء الحكم، أو من العجز أو الجشع أو ضيق الصدر أو الأفق، وكالسلطان أعوانه.

ولا يتوازن في سدة السلطة إلا القليلون، وقل ما يتوازنون. وللإمام الصادق في ذلك مقولة معلمة: «إذا كان لك صديق فولي ولاية، فأصبت على العشر مما كان لك عليه قبل ولايته، فليس بصديق سوء»^١.

قيل لأبي جعفر^٢: لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعمو! فقال: لأن بني مروان لم تيل رمهم بعد، ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة ونحن اليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا في نفوسهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة^٣.

وصاحب السلطة كراكب الأسد - على ما قال أفلاطون - يهابه الناس وهو لمركوبه أهيب. لهذا أخذ بنو العباس أبناء علي أخذ ظلوم غشوم، وبطشوا، وغدروا بمن حذروهم من أنصارهم وذويهم؛ كعبد الله بن علي^٤ عم المنصور، وأبي مسلم الخراساني قائدهم، وأبي سلمة الخلال وزيرهم، بمثل ما غدروا بأعدائهم بعد أن أمئوهم. ولما أعطى أبو جعفر المنصور محمد بن عبد الله أماناً، كتب إليه محمد ساخراً: أي

١. وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ١٢٤ و ج ٨ ص ٤٨٦، الأمالي للطوسي: ص ٢٧٩، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٧٦ و ج ٧٢ ص ٣٤١، مستدرک سفینه البحار: ج ٦ ص ٢٥٧.

٢. أي المنصور العباسي.

٣. تاريخ دمشق: ج ٣٢ ص ٣٣١، سير أعلام النبلاء: ج ٧ ص ٨٥.

٤. عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي، أمير، وهو عم الخليفة المنصور، وهو الذي هزم مروان ابن محمد بالزاب، وتبعه إلى دمشق وفتحها، وهدم سورها، وقتل من أعيان أمية ٨٠ رجلاً بأرض الرملة، ومهد دمشق لدخول السفاح، وظل أميراً عليها مدة خلافته، فلما ولي المنصور خرج عبد الله عليه ودعا إلى نفسه، فانتدب المنصور أبا مسلم الخراساني لإخضاعه، فقاتله، وهرب واختفى، ثم صار إلى البصرة، فأمنه المنصور واستسلم، وحبس في بغداد، وقتل في حبسه سنة ١٤٧ هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ١٠٤).

أماناتك هو؟ أمان ابن هبيرة^١، أو أمان عمك عبد الله، أو أمان أبي مسلم^٢. فقد أعطى أبو جعفر عهداً للكُلِّ، وقتل الأول والثالث ولم يكن قد قتل الثاني بعد، لكنّه كان قد حبسه من سبع سنين ليقبله بعد أن يقتل محمد بن عبد الله ابن الحسن ذاته، فصيّر خلافته كالمسبعة^٣، لا يأمن فيها الصديق أو العدو أو الصياد أو الفريسة!

وزاد ضراوة أبي جعفر على أقربائه أنّ لواحدٍ منهم في عنقه بيعة، على ملاءمهم، كانت حرية أن تمنعهم وتمنعه، لولا ما للشهوة من خدر يطيح بالتوازن، فسوّلت له نفسه أن يتخلّص من البيعة بالخلاص ممّن بايعه وإن كان من قبل يمسك بركابه، بل طوّعت له شهوته أن يتخلّص ممّن قد يشهد ضدّه، حتّى لا يراه الناس أو يسمعه يحكي لهم ما قد رأى وقد سمع!

قال يعقوب بن عربي^٤: سمعت أبا جعفر يقول في أيام بني أمية: مافي آل محمد أعلم بدين الله، ولا أحقّ بولاية الأمر من محمد بن عبد الله. وبايع له، وكان يعرفني بصحبته والخروج معه، فلما قُتل حبسني عشرين سنة^٥.



طلب أبو جعفر من عبد الله بن الحسن ابنيه: محمداً وإبراهيم، فأنكر مكانهما، فتقاولا، وأغلظ كلُّ لصاحبه، وانصرف الخليفة من المدينة، فبث الجواسيس يأتونه من كلِّ مكان بأخبار بني الحسن.

وفي سنة ١٤٠ قصد أبو جعفر للحجّ، فنزل بالمدينة، ودعا عبد الله بن الحسن وطالبه بولديه. وكانا يأتیان أباهما معتمّين في هيئة الأعراب، فيستأذنانه في الخروج، فيقول: «لا

١. هو يزيد بن عمر بن هبيرة، أبو خالد، من بني فزارة، أمير، قائد، من ولاية الدولة الأموية، ولتسا استفحل أمر الدعوة العباسية في أيام إمارته قاتل أشباعها مدة، وتغلّبت جيوش خراسان على جيوشه، فرحل إلى واسط وتحصّن بها، فوجه السفّاح أخاه المنصور إلى حربه، فمكث المنصور مدة يقاتله حتّى أعياه أمره، فكتب إليه بالأمان والصلح، وأمضى السفّاح الكتاب، فرضي ابن هبيرة وأطاع، وأقام بواسط، ونقض السفّاح عهده له وبعث إليه من قتله بقصر واسط سنة ١٣٢ هـ. (الأعلام: ج ٨ ص ١٨٥).

٢. تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ٥ ولكن فيه بلفظ: «أيّ الأمانات».

٣. الأرض المسبعة: أي ذات سباع (العين: ج ١ ص ٣٤٥).

٤. قال عنه ابن ماكولا في إكمال الكمال: ج ٦ ص ١٧٧: إنّه كوفي.

٥. مقاتل الطالبين: ص ١٧٠، وفيه: «حبسني بضع عشرة سنة».

تعجلاً حتّى تملكا، إن منعكما أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين»^١.
ولمّا لم ينل أبو جعفر منالاً انصرف من المدينة، وأمر بحبس عبد الله وأهل بيته، فبقوا في السجن ثلاث سنين في دار مروان - دار الإمارة في حكم بني أمية - حتّى إذا كانت سنة ١٤٤ ولّى أبو جعفر المنصور رباح بن عثمان^٢ عاملاً على المدينة^٣.
وحجّ في العام ذاته، فتلقاه عامله بالريذة فردّه إلى المدينة لإشخاص عبد الله بن الحسن وأهل بيته - بما فيهم محمد بن عبد الله.. بن عثمان - شاهد البيعة يوم الأواء، فكانوا خمسة عشر أخذوا في محامل إلى الريذة، ونظر الإمام الصادق إليهم وعيناه تهلان حتّى جرت دموعه على لحيته^٤، واقتيدوا إلى الريذة في الأغلال، ومزّقت السياط جسد (محمد بن عبد الله.. بن عثمان) حتّى إذا خرج أبو جعفر في محمل ناداه عبد الله بن الحسن قائلاً: يا أبا جعفر، والله ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر^٥، فلوى أبو جعفر رأسه كبيراً ولم يعرج.
وحمل أهل البيت تلقاء النجف، حتّى إذا دخلوا الكوفة حُبسوا في قصر كان لابن هبيرة في شرقي الكوفة، وهدم عليهم البيت بعد ستين يوماً! فمات الذين لم يموتوا في أثنائها، ودُفن الجميع تحت الأتقاض، وشيخهم عبد الله في الخامسة والسبعين^٦!
وخرج محمد بن عبد الله لليلتين بقيتا من جمادي سنة ١٤٥، فاستولى على المدينة، وخرجت المدينة بأسرها مع محمد، فكان في جيشه علماؤها الفحول، فيهم ابن هرمز^٧ شيخ

-
١. مقاتل الطالبين: ص ١٥١، الاحتجاج: ج ١ ص ١٥٤، عمدة الطالب: ص ١٠٤، تاريخ الطبري: ج ٦ ص ١٧٥، تاريخ ابن خلدون: ج ٣ ص ١٨٩.
 ٢. هو رباح بن عثمان بن حسان المري أو المزني، تولّى المدينة في رمضان ١٤٤ هـ، وهو الذي حبس بني الحسن ويَقْدَهُم. (تاريخ ابن خلدون: ج ٣ ص ١٨٩).
 ٣. تاريخ خليفة بن خياط: ص ٣٤٠، تاريخ دمشق: ج ٢٧ ص ٣٨٨، البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٨٦، تاريخ ابن خلدون: ج ٣ ص ١٨٨ و ٢٠١.
 ٤. مقاتل الطالبين: ص ١٤٩، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٣٠٥، تاريخ الطبري: ج ٦ ص ١٧٤.
 ٥. مروج الذهب: ج ٣ ص ٣١٠، مقاتل الطالبين: ص ١٥٠، تاريخ الطبري: ج ٦ ص ١٧٦.
 ٦. مقاتل الطالبين: ص ١٥٠.
 ٧. هو أبو بكر عبد الله بن يزيد المعروف بابن هرمز، المتوفّى سنة ١٤٨، وقد روي عن مالك أنّه قال: كنت آتي ابن هرمز من بكرة، فما أخرج من بيته حتّى الليل. ولم يؤرّخ له في كتب الطبقات، غير أنّ قدامة بن محمد يروي: «خرج ابن هرمز ومحمد بن عجلان مع محمد، فلمّا حضر القتال تقلّد كلّ واحد منهما قوساً، قال: فظننّا أنّهما أرادا أن يريا الناس أنّهما قد صلحا لذلك». (كتاب الموطأ: ج ١ ص ٢٠).

مالك، وابن عجلان^١، وابن أبي سبرة^٢، وعبدالله بن عمر العمري^٣، ومصعب بن ثابت الزبيري^٤. أمّا مالك^٥ فاكتفى في الحرب بفتياه: أن بيعة المنصور كانت مكرهة^٦، ومن أجلها أصابه ما أصابه^٧ من والي أبي جعفر وابن عمه سنة ١٤٦.

وخرج مع محمد موسى^٨ وعبد الله^٩ ابنا الإمام جعفر الصادق.

وقصد جعفر الصادق إلى محمد في مجلس حربه قال: أتحب أن يصطلم أهل بيتك (يستأصل)؟ قال: ما أحب ذلك، قال: فإن رأيت أن تأذن لي، فإنك تعرف علتي، قال محمد: قد أذنت لك^{١٠}.

١. محمد بن عجلان المدني، مولى فاطمة بنت عتبة بن ربيعة القرشي، سمع أباه وعكرمة، وروى عنه الثوري ومالك بن أنس (التاريخ الكبير: ج ١ ص ١٩٦).
٢. أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة بن أبي رهم، الفقيه الكبير، قاضي العراق. وكان جد أبيه (أبوسبرة) بدرياً، من السابقين المهاجرين، ولأه المنصور القضاء، مات سنة ١٦٢ هـ (سير أعلام النبلاء: ج ٧ ص ٣٣٠).
٣. عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب المدني، ضعيف. وقال الذهبي في الميزان: صدوق، في حفظه شيء، واختلفوا فيه. (تحفة الأحوذى: ج ١ ص ٤٤٢).
٤. قال يحيى بن مسكين: ما رأيت أحداً قط أكثر صلاةً من مصعب بن ثابت، كان يصلّي في كل يوم وليلة ألف ركعة، ويصوم الدهر. وكان أبلغ أهل زمانه (سير أعلام النبلاء: ج ٧ ص ٢٩) وهو ابن عبد الله بن الزبير بن العوام. ورغم ذلك فقد ضعفوه في رواية الحديث، إلا ابن حبان فقد وثقه. (مجمع الزوائد: ج ٩ ص ٢٩٩).
٥. هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري: أبو عبد الله، إمام دار الهجرة، وأحد الائمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية، ولد في المدينة سنة ٩٣ هـ، وتوفي فيها سنة ١٧٩ هـ. كان صلياً في دينه، سأله المنصور أن يضع كتاباً للناس يحملهم على العمل به، فصنّف (الموطأ). (الأعلام: ج ٥ ص ٢٥٧).
٦. روى ابن خلدون في تاريخه: ج ٣ ص ١٩٠: «واستفتى أهل المدينة مالكا في الخروج مع محمد وقالوا: في أعناقنا بيعة المنصور، فقال: إنما يابعتم مكرهين، فتسارع الناس إلى محمد، ولزم مالك بيته».
٧. مالك بن أنس - عبد الحلیم الجندي - طبعة دار المعارف: ص ٢٢٨، حيث تفصيل الواقعة. (منه).
٨. لعنه موسى بن جعفر الملقب بالكاظم عليه السلام، الإمام السابع: لأنه لم يعرف من أولاد الإمام الصادق عليه السلام باسم موسى غيره.
٩. هو عبد الله بن جعفر بن محمد، وكان أكبر أولاد الإمام الصادق بعد إسماعيل، ولم تكن له عند أبيه منزلة ولا مكانة كبيرة، واتهم بمخالفة أبيه في اعتقاده، وقيل: كان يخالط ويصاحب الحشوية، ويميل إلى المرجئة. أذعن الإمامة بعد أبيه، وحبته على ذلك أنه أكبر أولاد أبيه، ولذا تابعه جمع من أتباع الإمام الصادق عليه السلام لكنهم تركوه بعدما اختبروه، ورجعوا إلى الامام موسى الكاظم عليه السلام. وبعد عبد الله مؤسس الفسطحية، وسمي بالافطح لأن باطن قدميه غير مقعر. (منتهى الآمال: ج ٢ ص ٢٥١).
١٠. مقاتل الطالبين: ص ١٧٠.

ومضى جعفر الصادق، فالتفت محمد إلى ابني جعفر وقال لهما: إلهما بأبيكما فقد أذنت لكما، والتفت جعفر فقال: ارجعا، فما كنت لأبخل بنفسي وبكما^١ فحاربنا مع محمد أعظم حرب، وكان لعبد الله بلاء ممتاز.

ووجه المنصور إلى المدينة جيشاً بقيادة ابن عمه وولي عهده: عيسى بن موسى^٢. وفي غرة رمضان خرج إبراهيم أخو محمد واستولى على أكثر من مكان في إقليم البصرة، ثم استشهد محمد في ١٤ من رمضان سنة ١٤٥ هـ، واستشهد إبراهيم^٣ عند باخرى^٤ لخمس بقين من ذي القعدة، وأرسلت رأسه إلى أبي جعفر المنصور، فطوّف بها في الآفاق.

واستولى عيسى بن موسى على عين أبي زياد^٥، ضيعة جعفر الصادق التي يقتات منها^٦، ويشرك في ثمرها أهل المدينة.

١. المصدر السابق.

٢. عيسى بن موسى بن محمد العباسي؛ أبو موسى، أمير، من الولاة القادة، وهو ابن أخي السّاق، كان يقال له: «شيخ الدولة»، وولاه السّاق الكوفة سنة ١٣٢ هـ، وجعله ولي عهد المنصور، فاستتزل المنصور عن ولاية عهده سنة ١٤٧ هـ، وعزله من الكوفة، واسترضاه بمال وفير، وجعل له ولاية عهد ابنه المهدي، فلما ولي المهدي خلعه، فأقام بالكوفة إلى أن توفي سنة ١٦٧ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ١٠٩).

٣. كان صاحب فقه وأدب، سأل عن صاحب له فقيل: تركناه يريد أن يموت، فضحك قوم، فقال: لقد ضحكتم منها عريية! قال عز وجل: ﴿فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه﴾ يعني: يكاد أن ينقض، فوثب أبو عمرو بن العلاء فقبّل رأسه وقال: لا يزال والله بخير مادام مثلك فينا، وأبو عمرو من أئمة اللغة الأولين. (منه).

٤. باخرى: قرية تقارب الكوفة على ستة عشر فرسخاً. (البحار: ج ٤٧ ص ٢٩٦).

٥. نقل فقهاء وعلماء الشيعة الحديث المروي في عين أبي زياد ومافيه من دلالة على غصبيته:

عن جميل بن صالح قال: أرادوا بيع تمر عين أبي زياد، فأردت أن أشتريه، ثم قلت: حتى استأمر أبا عبد الله عليه السلام، فأمرت معاذاً فسأله، فقال: قل له: يشتريه، فإنه إن لم يشتريه اشتراه غيره». راجع: الكافي: ج ٥ ص ٢٢٩، تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي: ج ٦ ص ٣٧٥، رسائل الكركي: ج ١ ص ٢٧٢، مجمع الفائدة للأردبيلي: ج ٨ ص ١٠٠، كفاية الأحكام للسبزواري: ص ٧٨، الحدائق الناضرة: ج ١٨ ص ٢٤٧.

٦. روى أبو الفرج في المقاتل: ص ١٨٤ عن مولى أبي جعفر قال: «أرسلني جعفر بن محمد انظر ما يصنعون، فجننته فأخبرته أن محمداً قُتل، وأن عيسى قبض على عين أبي زياد، فأبلس طويلاً، ثم قال: ما يدعو عيسى إلى أن يسبنا ويقطع أرحامنا، فوالله لا يدوق هو ولا ولده منها شيئاً أبداً». وكذا في البحار: ج ٤٧ ص ٣٠٥. وذكر أن الإمام الصادق لقي المنصور فقال له: «أردد علي عين أبي زياد أكل من سعفها» وهذا يعني أن الإمام كان يقتات منها.

وسنرى المنصور بعد عامين من انتصار عيسى بن موسى يخلعه من ولاية العهد، ويولي ابنه المهدي سنة ١٤٧، وكان قد حبس عمه عبد الله بن علي من سنة ١٣٨ في دارٍ لتخرجه عليه فيموت سنة ١٤٧!

وعبد الله عمه وقائده المنتصر على آخر ملوك بني أمية يوم الزاب، لكنه خرج عليه، فأرسل إليه جيشاً بقيادة أبي مسلم الخراساني، ولجأ عبد الله إلى أخويه سليمان وعيسى، فأخذوا له عهداً على المنصور كتبه «ابن المقفع»^١ وفيه: «ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه فمساؤه طوالق، ودوايه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حلٍّ من بيعته!»^٢. فأما أبو مسلم فسيدهوه أبو جعفر إلى قصره بعد أمانٍ يعطيه إياه، ثم يخرج عليه عبيده فيقتلونهم أمامه.

وأما عبد الله بن المقفع فسيقتله والي أبي جعفر سنة ١٤٢، فيشفي صدر أبي جعفر!!



روى الإمام الصادق ما كان بعد أن هدأت الأحوال، قال: «لَمَّا قُتِلَ إبراهيم ابن عبد الله بياخمرى، حُسِرنا عن المدينة، ولم يُترك فينا محتلم حتّى قدمنا الكوفة، فمكتنا فيها شهراً نتوقّع القتل، ثم خرج إلينا الربيع الحاجب فقال: أين هؤلاء العلوية؟ أدخلوا على أمير المؤمنين رجلين منكم من ذوي الحجبى، فدخلنا إليه أنا والحسن بن زيد، فلَمَّا دخلنا عليه قال: أنت الذي تعلم الغيب؟! قلت: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: أنت الذي يُجيبني إليه هذا الخراج؟ قلت: إليك يُجيبني - يا أمير المؤمنين - الخراج، قال: أتدرون لِمَ دعوتكم؟ قلت: لا، قال: أردت أن أهدم رباعكم، وأرؤّع قلوبكم، وأعقر نخلكم، وأترككم بالسراة لا يقربكم أحدٌ من أهل الحجاز وأهل العراق، فإنهم لكم مفسدة!! قلت له: يا أمير المؤمنين، إن سليمان أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت من ذلك النسل»^٣.

١- هو عبد الله بن المقفع، من أئمة الكتاب، وأول من عنى في الإسلام بترجمة كتب المنطق، أصله من الفرس، ولد في العراق سنة ١٠٦ مجوسياً مزدكياً، وأسلم على يد عيسى بن علي (عم السفاح) وولي كتابة الديوان للمنصور. اتهم بالزندقة فقتله سفيان بن معاوية المهلبى أمير البصرة سنة ١٤٧ هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ١٤٠).

٢- الأمالي للسيد المرتضى: ج ١ ص ٩٤.

٣- أعيان الشيعة: ج ٢ ص ١٨، جهاد الشيعة: ص ١٩٨، المناقب: ج ٣ ص ٣٥٨، نزهة الجليس: ٥٦-٥٧، الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي: ج ١ ص ٧٠، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢١٢، مقاتل الطالبيين: ص ٢٣٤، شجرة طوبى: ج ٢ ص ٣٧٨.

فتبسم وقال: أعد علي ما قلت، فأعدت، فقال: مثلك فليكن زعيم القوم، وقد عفوت عنكم، ووهبت لكم جرم أهل البصرة. حدّثني الحديث الذي حدّثني عن أبيك عن آباءه عن رسول الله ﷺ.

قلت: حدّثني أبي، عن آباءه، عن علي، عن رسول الله ﷺ: «صلة الرحم تعمّر الديار، وتطيل الأعمال وإن كانوا كفّاراً» قال: ليس هذا.

قلت: حدّثني أبي... عن رسول الله ﷺ: «الأرحام معلقة بالعرش تنادي: اللهم صل من وصلني، واقطع من قطعني» قال: ليس هذا.

قلت: حدّثني أبي: أن الله عز وجل يقول: «أنا الرحمان، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن بترها بترته» قال: ليس هذا الحديث.

قلت: حدّثني أبي...: «أن ملكاً من الملوك كان في الأرض، كان بقي من عمره ثلاث سنين، فوصل رحمه، فجعلها الله ثلاثين سنة. قال: هذا الحديث أردت، أي البلاد أحب إليك؟ فوالله لأصلنّ رحمي إليكم. قلنا: المدينة، فسرحنا إلى المدينة، وكفى الله مؤمنته»^١.

في هذا اللقاء دليل على ما يخشاه من بني علي، ومن الصادق بالذات، فما يخشاه من بني علي هو فتنة الناس إذ يجتمعون إليهم، أمّا ما ينهه على الصادق - وهو الوحيد الباقي ممّن يمكن أن يجتمع بنو علي والناس حولهم - فلقد كان خليفاً أن تطيب به نفسه؛ لما فيه من مصلحة له، وهو الادّعاء على الصادق بأنّه يعلم الغيب، فإنّه لم يبايع لأحد يوم الأبواء، بل ذكر أنّها (الخلافة) ستكون لصاحب القباء الأصفر، وهو أبو جعفر.

لكنّ الصادق كان حاسماً في ردّه عليه بأنّه لا يعلم الغيب إلا الله.

وكان ممّا يخشاه أن يُجبي إلى الصادق خراج بعض الرعية، ممّا يُعطى للإمام، وكان الصادق في ذلك حاسماً أيضاً، إذ أعلن أنّ الخراج لا يُجبي إلا لأبي جعفر، لأنّه أمير المؤمنين، قال: إليك يُجبي - يا أمير المؤمنين - الخراج، وجعل التسليم بإمارة المؤمنين يسبق كلمة الخراج، فهذه العبارة بيعة بتمامها^٢، والخراج حقّ من بويع له.

وكان انتقال أبي جعفر من استجوابهم إلى إخبارهم بأسباب دعوتهم، نقله من الغضب إلى غيره، ومن الاستجواب إلى الوعيد، وإلى الاستعلاء. لكنّ الصادق نقله من عالم الكبرياء

١. المصادر السابقة.

٢. من باب التقيّة، لا من باب القناعة بذلك.

المظلم، إلى آيات الله التي تطمئن لها القلوب، فجعله - دون أن يشعر - مقارناً في موقفه بمواقف الأنبياء، لعلّه يهتدي بهم، وذكره كلام ربّه جلّ وعلا، وذكره الشكر والصبر والمغفرة، وذليل ذلك كلّه بأنّه من نسل الذين يغفرون ويشكرون ويصبرون.

بهذا أمكن الرجل الذي قد قلبه^١ من الصخر أن يبتسم، بل أقبل يسأل أن يتعلّم، فحدّثه الإمام الأحاديث، واحداً بعد واحد، حتّى وقف منها عند حديث طول العمر، فلقد كان يرجو أن يطول عمر دولته، التي يخسر من أجلها في كلّ يوم آخرته، إلا أن يغفر الله له، فظنّ أنّه بهذا الحديث يجد أماناً لنفسه، أو تخفيفاً لما تكابده، وعندئذ ظهر ضعف نفسه، وجلال شأن المعلم الذي يتعلّم عليه.

ولم يكد الإمام يأخذ زمام الكلام حتّى راح يعلّمه درساً من الدروس في البداء: وهو أنّ القضاء^٢ الذي يتوقّف على الشرط يتحقق عند وقوع الشرط، فهذا ملك وصل رحمه فطالت عمره من ثلاث إلى ثلاثين، وكان أبو جعفر ملكاً، ولكم طالت العمر على ملك بنيه وحفدته، فلقد كان كلّ خلفاء بني العباس بعده منهم، ملكوا خمسة قرون، حتّى دمّر الظلم دولتهم.

إنّما كان أبو جعفر يتداول الإمام الصادق بحذرٍ خليق بما للصادق من كرامة عند الله والناس، وهو صاحب أكبر مدرسة شهدتها حواضر الإسلام في ذلك الزمان: المدينة ومكّة والكوفة وبغداد والفسطاط، وكان في السّتين من العمر، يروي عنه الآلاف حديث النبي وقعه الصادق وأبيه وأجداده^٣.

والذين يحسنون الظنّ بالمنصور لا يتصوّرون حلمه يطيش فيفقد الأمة الإمام الذي لا ينازعه ملكه، وربّما جاز للذين لا يحسنون الظنّ أن يخالوه يحسب حسباً للأعداد التي لا تُحصى من تابعي الإمام، وقد كان أبو جعفر يحسب حساب العلماء. ومن بطش الحكّام بالعلماء ما يدمّر الدول.

١. الصحيح: «قد كان قلبه» ولا تخلو الكتب من الأخطاء المطبعية.

٢. لا مطلق القضاء، بل يراد منه القضاء غير المحتوم.

٣. هذا ابن أبي الحديد قد أرجع علم المذاهب الأربعة إليه في الفقه (شرح النهج: ج ١ ص ٦).

يقول الشيخ محمد حسين المظفر في كتابه «الإمام الصادق»: «ج ١ ص ١٣٥: «قد بلغ من عرفوه، ممّن استقى منه العلم أربعة آلاف أو يزيدون» وقال في ص ١٤٠: «ولقد ذكر أرباب الرجال أنّ أبان بن تغلب وحده روى عنه ثلاثين ألف حديث، ومحمد بن مسلم ستّة عشر ألف حديث، ولا تسلم عن مقدار ما رواه جابر الجعفي...».

وقال أبو الحسن الوشاء: «أدركت في مسجد الكوفة تسعمائة شيخ، كلّهم يقول: حدّثني جعفر بن محمد».

ومن فداء الأتباع ما يستهان فيه بعين الأسد، لقد اقتحم الفدائيون من أتباع سنان (شيخ الجبل)^١ خيمة صلاح الدين وهو في عسكره ليصيبوه بخناجرهم في وجهه.

* * *

ظاهر من حديث الإمام أنه حدّثه في صلة ذوي الأرحام. وإن كانوا كفّاراً، فما أحرّاهم بالصلة إن كانوا غير ذلك. ويظهر ممّا يرويه الطبري أنّ أبا جعفر كان يودّ أيامئذٍ لو نسي الناس ما كان من أهل البيت في حقّه، وما كان منه في حقّهم.

روى الطبري: لمّا أتى المنصور برأس إبراهيم بن عبد الله وضعه بين يديه، وجلس مجلساً عاماً وأذن للناس، فكان الداخل يدخل فيسلم ويتناول إبراهيم فيسيء القول فيه، ويذكر منه القبيح؛ التماساً لرضى أبي جعفر، وأبو جعفر ممسك متغيّر لونه، حتّى دخل جعفر بن حنظلة البهراني فسلم ثم قال: «عظّم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك، وغفر له ما فرط فيه من حقّك» فاصفرّ لون أبي جعفر وأقبل عليه فقال: أبا خالد، مرحباً وأهلاً، فعلم الناس أنّ ذلك قد وقع منه، فدخلوا فقالوا مثل ما قاله جعفر بن حنظلة^٢.

وربّما دلّ على ذلك الميل ما يرويه عيسى بن ربيعة^٣: لمّا جيء برأس إبراهيم فوضع بين يدي أبي جعفر بكى، حتّى رأيت دموعه على خدي إبراهيم، ثم قال: أما والله إن كنت لهذا لكارهاً، لكنك ابتليت بي وابتليت بك^٤.

١. شيخ الجبل هو الحسن بن الصباح بن علي الاسماعيلي، داهية، شجاع، عالم بالهندسة والحساب والنجوم، كان مقدّم الإسماعيلية في إصبهان، ورحل منها وقدم مصر، وأكرمه المستنصر الفاطمي وأعطاه مالاً، وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته، ففعل ذلك، واستولى على قلعة الموت من نواحي قزوين، واستقرّ فيها إلى أن توفي سنة ٥١٨ هـ ويسمّى الأوربيون أصحاب الحسن هذا «أساسان» وهي فرقة من الإسماعيلية برزت في الحروب الصليبية، وأن كلمة «أساسان» أصلها: حشاشون. وأنشأ علي بن نزار بن الحاكم بأمر الله منصور العبيدي الفاطمي، أول أئمة الإسماعيلية النزارية في قلعة الموت «فرقة الفدائية» للاغتيال. (الأعلام: ج ٢ ص ١٩٤ و ج ٥ ص ٢٩).

٢. تاريخ الطبري: ج ٦ ص ٢٦٣، وذكره أيضاً تاريخ ابن خلدون: ج ٣ ص ١٩٦، والبداية والنهاية: ج ١٠ ص ١٠١، وتاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٣٧٩، ولكن بتغيير لطيف لبعض العبارات.

٣. عيسى بن ربيعة الطفاوي ورد ذكره بهذا اللقب فقط في كتاب أخبار الدولة العباسية لمؤلف مجهول، ولم نقف عليه في كتب التراجم.

٤. مقاتل الطالبين: ص ٢٣٤.

ولقد ترك أبو جعفر الذين تواروا عنه ممن خرجوا مع محمد وإبراهيم، ومنهم: الحسين بن زيد^١، وكان الحسين قد تربى في بيت جعفر الصادق بعد قتل زيد، وكان يسمّى: «ذا الدمعة الكبيرة» لكثرة بكائه على أبيه وأخيه يحيى، ولم يسأل أبو جعفر ولدي جعفر الصادق «عبد الله وموسى» وقد خرجا مع محمد، وترك علماء المدينة، وترك عيسى بن زيد^٢ إذ توارى عنه، ولما قيل له - من حرسه أو من المناقبين -: ألا تطلبه؟ قال: لا، والله لا أطلب منهم رجلاً بعد محمد وإبراهيم، أنا أجعل لهم ذكراً؟^٣

ومن ناحية أخرى ففقه الإمام الصادق يعلم الناس طاعة الإمام العادل، والصادق هو القائل: «لا يستغني أهل بلدة عن ثلاثة، يفرغ إليهم في أمر دنياهم وآخرتهم: فقيه عالم ورع، وأمير خير مطاع، وطبيب بصير ثقة، فإن عدموا ذلك كانوا همجاً»^٤.

وهو فقه في طاعة الخليفة العادل أو الأمير الخير، وأبو جعفر يتمنى أن يظهر في الناس كذلك.

والصادق يقول - ولا نحسبه يقصد إلا أبا جعفر وأبناء عمه -: «ما تثبت الدنيا إلا على بني العم، المتعاطفين بالبر، المتعلقين بالأدب، المجتمعين على التناصر»^٥. فهذه يد ممدودة

١. وهو الحسين ذو العبرة، ويكنى أبا عبد الله، وهو من أصحاب الصادق عليه السلام، قُتل أبوه وهو صغير فرباه جعفر بن محمد، فأعقب، عمي في آخر حياته، زوّج ابنته من محمد المهدي بن المنصور العباسي، توفي سنة ١٣٥ هـ. (عمدة الطالب: ص ١٤١).

٢. عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، نائر، من كبار الطالبين، كنيته: أبو يحيى، ويلقب بعموم الأشبال، قتل لبوة، فقيل له: أيمت أشبالها، فقال: نعم أنا موتم الأشبال. ولد في المدينة، وصحب (النفس الزكية) وأخاه إبراهيم، وثار مع «محمد» على ميمته، وأوصى له بالأمر بعد أخيه إبراهيم، ولما لم يجد ما ينهض بالأمر تركهم وتوارى، ولم يجد المنصور في طلبه، فعاش بقية حياته متوارياً إلى أن توفي سنة ١٦٨ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ١٠٢).

٣. مقال الطالبين ص ٢٢٣، ونقل عنه أيضاً السيد علي الشهرستاني في كفاية وضوء النبي: ج ١ ص ٣٠٩.

٤. تحف العقول للحراني: ص ٣٢١، البحار: ج ٧٥ ص ٢٣٥، مستدرک سفينة البحار: ج ٦ ص ٤٩٩، ميزان الحكمة: ج ١ ص ٢٨٨. و«الهمج» بالتحريك: السفلة والحمقى والرعاغ من الناس، يقال: قوم همج، أي: لا خير فيهم.

٥. راجع جهاد الشيعة للدكتورة سميرة الليثي: ص ٢٠٦، حيث نقلت هذه العبارة عن الإمام، وعلقت قائلة: هذه العبارات لها مغزاها، فهي موجّهة إلى الخلفاء العباسيين الذين أقدموا على قتل أبناء عمهم العلويين... «أقول: لم

بالسلام من الإمام، ودرس للرعية لتسلم العنان لأميرٍ خيّرٍ، وما أحرى أبي جعفر أن يكونه. وفي سنة ١٤٧ عزم المنصور وهو راجع من موسم الحج أن يسير الإمام الصادق من المدينة إلى العراق، فاستعفاه الإمام، فلم يعفه وحمله معه، ولكن الصادق كان يقبل عليه بمقدار، فليست دنيا أبي جعفر لتجدر بالمقاربة.

وفي ذات يوم أرسل إلى الصادق: لماذا لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟ فأجاب: «ما عندنا ما نخافك عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهتلك عليها، ولا نعدنا نعمة فنعزيك عليها، فلم نغشاك؟» ويجيب أبو جعفر: تصحبنا لتنصحننا، ويجيب الإمام: «من أراد الدنيا فلا ينصحك، ومن أراد الآخرة فلا يصحبك»^١ فالذي يريد الدنيا يسير في ركب صاحبها، فلا يقول كلمة لله، والذي يريد الآخرة يعتزل مجالس رجلٍ يعجزه عمله ويعميه أمله عن طريق الآخرة.

وصدق جعفر الصادق، ولم يكذب أبو جعفر المنصور، فلقد كان أحوج الناس إلى النصيحة، وكانت صحبة الصادق له أماناً من النار.

دخل عليه سفيان الثوري^٢ يوماً فقال له: أتق الله، فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً، فطأطأ رأسه وقال: ارفع حاجتك! قال سفيان: حج عمر، فقال للخازن: كم أنفقنا من بيت المال؟ قال: بضعة عشر درهماً! وأرى هنا أموالاً لا تطيق الجمال حملها^٣.

وخرج سفيان، ولما راجع المنصور كاتبه ليقتل سفيان، قال له: أسكت يا أنوك (أحمق)،

→ أجد هذه المقالة في كتب الشيعة فضلاً عن أهل السنة. ومع فرض صحة ورودها، فإنها إنما تكون في مقام التقيّة أولاً، والحث على حفظ هذا النسل الطاهر من أبناء علي ثانياً، لأن بني العباس إنما حصلوا على ملكهم بشعار «الرضا لآل محمد».

١. مستدرک الوسائل: ج ١٢ ص ٣٠٧ و ج ١٣ ص ١٢٨، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ١٨٤، درر الأخبار: ص ٣٥٠، كشف الغمة: ج ٢ ص ٤٢٧، شرح إحقاق الحق: ج ١٩ ص ٥٣٠ و ج ٢٨ ص ٥٣٠ و ص ٣٩٨ و ٤٦٦، النظام السياسي في الإسلام: ص ١٠٦، الإمام الصادق لمحمد أبو زهرة: ص ١٣٩، العقد الفريد: ج ٢ ص ٨٠، كشف الغمة في أموال الصادق لابن حمدون: ج ٢ ص ٢٠٨، الامام الصادق لأسد حيدر: ج ٣ ص ٢٠.

٢. سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، كان سيّد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، راوده المنصور على أن يلي الحكم فأبى، وطلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة، ومات فيها مستخفياً سنة ١٦٦ هـ. له «الجامع الكبير» و «الجامع الصغير» في الحديث. (الأعلام: ج ٣ ص ١٠٤).

٣. ذكرها محمد بيومي مهران في كتابه: «الإمامة وأهل البيت»: ج ١ ص ١١٧.

فما بقي على الأرض من يُستحي منه غير مالك^١ وسفيان^٢.

١- يروي مالك أنه استدعاه، فدخل فوجد عنده ابن أبي ذؤيب (١٥٩) والقاضي ابن سميان، فسأل مالكا عن حكمه (حكم المنصور) هو عدل أم جور؟ فاستغفاه مالك من الجواب، فسأل ابن سميان عن حكمه فأثنى عليه، فسأل ابن أبي ذؤيب فأجاب: أنت والله عندي شرّ الرجال، استأثرت بمال الله ورسوله، وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين، وأهلك الضعيف وأتعبت القوي، وأمسكت أموالهم، فما حجتك غداً بين يدي الله، قال المنصور: وبحك، ما تقول؟! قال: رأيت أسياً، وإنما هو الموت ولا بدّ منه، عاجله خير من آجله.

قال مالك: ثم خرجا وجلست، فقال المنصور: أجد رائحة الحنوط عليك؟ قلت: أجل لما نمى إليك عني ما نمى وجاءني رسولك ظننت أنه القتل، قال: أو ما تراني أسعى في أود الإسلام وإعزاز الدين عائداً بالله؟ يا أبا عبد الله، انصرف إلى مصرك راشداً مهدياً، وإن أحببت ما عندنا فنحن ممن لا يؤثر عليك أحداً، قلت: إن يجبرني على ذلك أمير المؤمنين فسمعاً وطاعةً، وإن يخيرني اخترت العافية، قال: انصرف إلى أهلك معافى مكلوفاً، فلما أصبحنا أمر بصرر دنائير في كل صرة خمسة آلاف درهم، ثم دعا برجل من شرطه فقال له: تدفع إلى كل رجل منهم صرة، أما مالك إن أخذها فبسييله، وإن ردّها عليك فلا جناح عليه، وإن كان ابن سميان ردّها فأنتي برأسه، وإن أخذها فهي عافيته، وإن أخذها ابن أبي ذؤيب فأنتي برأسه، وإن ردّها عليك فسييله، قال مالك: أما ابن سميان فأخذها وسلم، وأما ابن أبي ذؤيب فردّها وسلم، وأما أنا فكنت والله محتاجاً إليها فأخذتها، ثم رحل أبو جعفر متوجّهاً إلى العراق.

وروى مالك: أنه استدعاه يوماً وعبيد الله بن طاوس بن كيسان، وكان طاوس فقيه اليمن حتّى مات في سنة ١٠٦ (طاوس بن كيسان تلميذ ابن عباس جدّ أبي جعفر) قال أبو جعفر: حدثني حديث أبيك، قال عبيد الله: حدثني أبي: أن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في سلطانه فأدخل عليه الجور في حكمه، قال مالك: فضممت ثيابي خوفاً من أن يصيبني دمه، فقال المنصور: ناولني هذه الدواة، ثلاث مرّات، فلم يفعل، قال أبو جعفر: لم تتناولني؟ قال: أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها، قال: قوما عني، ذلك ما كنا نبغي، قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاوس فضله منذ ذلك اليوم.

ويروي الامام الشافعي حول أساطين جامع عمرو عن عمه محمد بن علي بن شافع مثل ذلك، عندما قال له ابن أبي ذؤيب: أخذت المال من غير حلّه وجعلته في غير أهله، وأنّ المنصور ردّ عليه بقوله: والله لولا أنا لأخذت أبناء الفرس والروم والديلم هذا المكان منك، فوالله لولا أنّي أعلم أنّك صادق لقتلتك.

أما عمرو بن عبيد فكان أبو جعفر المنصور يستقبله بالترحاب، وينشد في زواجه الشعر: «كلّكم يمشي رويد، كلّكم طالب صيد، غير عمرو بن عبيد» وهو زعيم المعتزلة الذين يطلقون ألسنتهم في الملوك والصحابة، دخل عليه فقال له: إنّ الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها، واذكر ليلة تمخص عن يوم لا ليلة بعده، قال الربيع بن يونس حاجب المنصور: يا عمرو، غممت أمير المؤمنين، قال عمرو للمنصور: إنّ هذا صحبك عشرين سنة، لم يرك عليه أن ينصحك يوماً واحداً، وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيّه، قال أبو جعفر المنصور: فما أصنع، قلت لك: خاتمي في يدك فتعال وأصحابك فاكفني؟ قال عمرو: لا، إدعنا بعدلك، تسخّ أنفسنا بعونك، ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئاً نعلم أنّك صادق. ولما مات عمرو كان أول واحد من الرعية،

وإذا كان هذان الإمامان اللذان ليس في الأرض غيرهما، تلميذين في مجلس الإمام الصادق، يلتزمان علمه، ويتزمان هديه، فما أحوج الخليفة إلى أن يقارب مجلس الصادق بأن يدعو إلى مجلسه.

الحق أن أبا جعفر كان من فرعه من الآخرة، وحاجته إلى رضى الرعية، صادق الرغبة في التقرب إلى العلماء، ومن أجل ذلك كان يرضى منهم ما يصك مسامحة من النقد وإن كان لا يستجيب له.

طلب ذلك من صديقه عمرو بن عبيد. والمعافري^٣، فاعتزلاه لكثرة الظلم على بابه كما قال له، وهز ضميره ابن أبي ذؤيب وتوعده بجهنم، وكمثله صنع ابن طاوس، فقبل استعفاء الصديقين، وأقر صدق ابن أبي ذؤيب^٤ فقال له: لولا أنني أعلم أنك صادق لقطعت عنقك. كما ارتاح لابن طاوس مع رفضه أن يطيعه مخافة أن تؤدي طاعته إلى المشاركة في معصية.

→ وآخر واحد، ينظم في رثائه الخليفة شعراً، ومن أبياته:

وإذا الرجال تنازعوا في شبيهة وصل الحديث بحجة وبيان
ولو أن هذا الدهر أبقي صالحاً أبقي لنا عمراً أبا عثمان

والجاحظ من تعصبه لزعيمه يقول فيه: إن عبادته تفي بعبادة عامة الفقهاء والمحدثين.

وستبقى صلة المعتزلة بالدولة العباسية طويلاً بعد وفاة عمرو وأبي جعفر، لأن المعتزلة يمدون إلى بني العباس سبباً علمياً وسبباً سياسياً، قالوا: إن وأصلاً (وهو زعيمهم مع أخي زوجته عمرو بن عبيد) أخذ أصوله عن أبي هاشم (٩٨) عبد الله بن محمد بن الحنفية ابن علي بن أبي طالب، وكان أبو هاشم قدرياً مثلهم - ينفي القدر - ويضيفون: أن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس تعلم على أبي هاشم وتلقى منه الوصية بالإمامة بعده دون بني علي بن أبي طالب، عندما أحس أبو هاشم بدنو أجله، إذ دس السم إليه سليمان بن عبد الملك. (منه).

٢. راجع الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ١٩٥.

٣. لما استخلف أبو جعفر قصد إليه عبد الرحمان بن زياد بن أنعم المعافري قادماً من القيروان، وكان زميلاً له في عهد الطلب، فعرض عليه المقام ببغداد، وقال له: كيف رأيت ما وراء بابنا؟ فأجابه: رأيت ظلماً فاشياً وأمرأ قبيحاً، قال: لعلّ فيما بعد من بابي، فأجابه: بل كلما قربت استفحل الأمر وغلظ، قال: ما يمنعك أن ترفع ذلك إلينا وقولك مقبول عندنا؟ فأجابه: رأيت السلطان سوقاً، وأتما يرفع إلى كل سوق ما ينفق فيها، قال: كأنك كرهت صحبتنا؟ فأجابه: ما يدرك المال والشرف إلا من صحبتكم، ولكني تركت عبوراً، وإني أحب مطالعتها. (منه).

٤. يفضّل أحمد بن حنبل ابن أبي ذؤيب على مالك: لمجاهرته بالحق في وجه أبي جعفر. وتقدير الشافعي لابن أبي ذؤيب يتراءى في رأي تلميذه أحمد، وفي رواية الشافعي عن عمه في صده. أما تقدير مالك فكان عن مشاهدة أو مشاركة. (منه).

ولقد رفض أبو حنيفة أن يجلس للقضاء في دولته بحجة الخوف من أن يظلم الناس إرضاءً لحاشية يحب أبو جعفر أن يكرمها، وما إكرام الحاشية إلا الحكم لمصلحتها فيما ترتكب من مظالم لحساب صاحب السلطان أو نتيجة إغضائه، وهذا ردّ فقهي من إمام أهل الرأي يتضمّن التنديد بأبي جعفر وصحبته.

وصحبة الظالم وجه مشاركة في الحكم، وربما في الظلم، بتوطيد الأمور للظالم أو بتمكينه أن يبلغ غرضه، أو تقديم مصلحته على مصلحة المحكومين، وفيها شهادة له في الناس، فهي شركة خاسرة في الدنيا والآخرة.

والإمام الصادق هو القائل: «أَيُّمَا مُؤْمِنٍ قَدَّمَ مُؤْمِنًا إِلَى قَاضٍ أَوْ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، فَقَضَى عَلَيْهِ بِغَيْرِ حُكْمِ اللَّهِ، فَقَدْ شَرِكُهُ فِي الْإِثْمِ»^١.
وعلي يقول: «كفالك خيانة أن تكون أميناً للخونة»^٢.

وذات يوم دخل زياد القندي^٣ على الصادق فقال له: «وليت لهؤلاء؟» - يقصد أصحاب السلطان - قال: نعم، لي مروة وليس وراء ظهري مال، وإنما أواسي إخواني من عمل السلطان، فقال: «يا زياد، أما إذ كنت فاعلاً، فإذا دعيتك نفسك إلى ظلم الناس عند القدرة على ذلك، فاذكر قدرة الله عزّ وجلّ على عقوبتك وذهاب ما أتيت إليهم عنهم، وبقاء ما أتيت إلى نفسك عليك»^٤.

وفي واحدٍ من اللقاءات يقول الصادق لأبي جعفر: «لقد بلغت ثلاثة وستين، وفيها مات أبي وجدّي»^٥ ليعلم له الاستخفاف بالموت الذي يتهدّد الناس به، وأن الإمامين اللذين قضيا - زين العابدين والباقر - لم يعمرّا أكثر ممّا عمّر، ولكلّ أجلّ كتاب، فماذا يهاب؟ إنّه يطلق إعلانه بلغة عالية، وفي هدوء قادر على أن يطفئ جذوة رجلٍ خصم، وفي توكلّ على الله

١. الكافي للكليسي: ج ٧ ص ٤١١ ح ١، من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ٣٤، التهذيب: ج ٦ ص ٢١٨ و ٢١٩ ح ٥١٥. الوسائل: ج ١٨ ص ٢ ص ١.

٢. شرح نهج البلاغة: ج ٢٠ ص ٣٢١.

٣. هو زياد بن مروان أبو الفضل الأنباري القندي، مولى بني هاشم، روى عن الصادق والكاظم عليهما السلام، ووقف في الرضا عليه السلام وعدّ من أركان الوقف. وقيل: أن سبب وقفه أنّه كان قيماً على أموال أبي الحسن، فلما مات وقف عليه لأجل المال الذي عنده. (بتصرف من معجم رجال الحديث للخوئي: ج ١٨ ص ٣٢٦).

٤. الأمالي للشيخ الطوسي: ص ٣٠٣، بحار الأنوار للمجلسي: ج ٧٢ ص ٣٤١.

٥. مقاتل الطالبين: ص ١٨٤، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢١٠، تاريخ الطبري: ج ٦ ص ٢٢٥.

يبلغه مأمنه، فهو إذا واجهه واجهه والله معه.

أرسل إليه أبو جعفر ذات يوم زمام بن قيس^١ يدعو للقاءه، ففصلا عن المدينة، حتى بلغا النجف، فنزل جعفر عن راحلته فأسيغ الوضوء وصلّى ركعتين ثم رفع يديه وهو يقول: «اللَّهُمَّ بك أستفتح وبك أستنجح، وبمحمد عبدك ورسولك أتوسّل، اللَّهُمَّ سهّل حزونته، وذلل لي صعوبته، وأعطني من الخير أكثر ممّا أرجو، واصرف عني من الشرّ أكثر ممّا أخاف»^٢. ثم ركب راحلته حتى إذا بلغا قصر المنصور، أعلم المنصور بمكانه، فلم يحجبه قليلاً أو كثيراً، بل تفتّحت الأبواب ورفعت الستر، فلما قرب من المنصور قام إليه فتلقاه، وأخذ بيده وماشاه، حتى انتهى به إلى مجلسه، ثم أقبل عليه يسأله عن حاله.

وذات يوم عزم المنصور على حاجبه الربيع بن يونس^٣ أن يدعو، وكانت تبرق في أساريره بوارق الخطر، فلما خرج من اللقاء بسلام سأل الربيع الإمام الصادق عن الدعاء الذي دعا به ربّه فأكرمه الله في لقاء المنصور، فأخبره به، فالصادق يستحضر رضی باری السماء في كلّ آونة، وتعيّنه السماء^٤.

ومع ذلك السلام الذي نشده الصادق وعلمه، يروي الطبري^٥: أن المنصور لما عزم الحجّ - في آخر أيامه - دعا ربيعة بنت أبي العباس؛ زوج المهدي، وكان زوجها بالري، فأوصاها بما شاء ودفع إليها مفاتيح غرفة بها خزانته، وأمرها ألاّ تسلّمها إلى المهدي إلاّ عندما يجيء نبأ موت المنصور، فلما مات ذهبت ربيعة والمهدي فتحتا الغرفة، فإذا بقتلى من بني علي في أذنانهم رقاع، فيها أنسابهم، وهم بين شيوخ وشباب وأطفال! فلما رأى المهدي ذلك ارتاع،

١. زمام مولیٰ خالد بن عبد الله القسري، وقيل: هو ورام أبو قيس، ويقال: أبو القصر، ويقال: أبو العنص، وقيل: أبو قمر (تاريخ مدينة دمشق: ج ١٨ ص ١٣٧).

٢. تاريخ دمشق لابن عساکر: ج ١٨ ص ١٣٦.

٣. أبو الفضل الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة كيسان العباسي بالولاء، المعروف بالحاجب، من عظماء رجال البلاط العباسي، وكان يتشيع ويعتقد بإمامة الإمام الصادق عليه السلام، وكان حسن الاعتقاد، وكان وزيراً حازماً عاقلاً، اتخذ المنصور الدوانيقي حاجباً، ولما اطمأن من حزمه وحسن تدبيره استوزره وقدمه، ولم يزل يلي الوزارة حتى هلك المنصور، فقام بأخذ البيعة للمهدي العباسي، ولما ملك المهدي قدّمه وجعله في سدة الوزارة، وفي عهد الهادي العباسي تصدّر للوزارة مدّة، ثم أمر الهادي بقتله سنة ١٧٠هـ، وكانت ولادته سنة ١١١هـ. (أصحاب الإمام الصادق: ج ١ ص ٥٧٢).

٤. عيون أخبار الرضا: ج ١ ص ٣٠٤، ح ٦٤، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ١٦٢، ح ١، منتهى الآمال: ج ٣ ص ٢٣١.

٥. تاريخ الطبري: ج ٦ ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

فحفرت لهم مقبرة دُفِنوا فيها، ثم بنى عليها دكاناً.

لم يكن المنصور يكتفي بأن يقول مقالة لويس الرابع عشر^١ بعد ثمانية قرون: «أنا الدولة»!! ذلك المقال الذي نبذه واستهجنه الساسة والمؤرخون في الشرق والغرب، بل كان المنصور يدعى دعوى أبعد وأشدّ، كان يخطب فيقول: «إنما أنا سلطان الله في الأرض»^٢ فيجمع في يده ما عجز عنه الأباطرة والبابوات جميعاً! فإنما تقاسم الامبراطور والكنيسة الأشياء في القرن التاسع للميلاد، فصار لقيصر ملك الأرض، وللكنيسة مملكة السماء، أما أبو جعفر المنصور فأدعى في الأرض سلطان السماء، وأي شيء يستبعد على صاحب هذه الدعوى؟!!

وأبو جعفر - مع ذلك - ليس إلا واحد من المستبدّين الذين يزخر ثبت التاريخ بخطاياهم أو ضحاياهم.

إليك مثلاً واحداً من تاريخ الدولة التي تلقي إليها الديمقراطية الغربية مقاليدها: لقد أرسل هنري الأول^٣ ملك إنجلترا فرسانه يقتلون توماس بيكت^٤ رئيس أساقفة لندن، من أجل خلافه معه في ولاية العهد لابنه في الثالث الأخير من القرن الثاني عشر^٥. وفي الثالث الأول من

١. هو ملك فرنسا، حكم وعمره أربع سنوات ونصف، بين ١٦٦١م إلى ١٧١٥م، بعد أن انتظر أبواه ولادته عشرين سنة، حكم تحت شعار: «بالعمل نحكم» واتّسمت فترة حكمه بقوة القانون، وهو ملك مستبدّ، جسّد المبدأ القائل: «الحقّ الإلهي في الحكم» وله جملة مشهورة: «الدولة هي أنا» (موسوعة السياسة: ج ٥ ص ٥٣٢).

٢. الكامل في التاريخ: ج ٦ ص ١٢، من خطبة له في عرفة، ولعلّه يريد أن يشير من خلال كلامه هذا إلى الحديث: «من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله» وهو حديث إسناده حسن، وهو في مسند الطيالسي: ج ٢ ص ١٦٧، وأحمد: ج ٥ ص ٤٢ و ٤٩، وسنن الترمذي: ج ص ح ٢٢٢٤ في الفتن، وقال: هذا حديث حسن غريب.

٣. هنري الأول: ولد عام ١٠٦٨م، وتوفي عام ١١٣٥م، وحكم بين ١١٠٠ - ١١٣٥، وهو أصغر أبناء وليم الأول ملك انكلترا، حصل على التاج بالقيام بانقلابٍ أخرج أخاه روبرت الثاني فيه من الحكم. (موسوعة السياسة: ج ٧ ص ١٥٢).

٤. توماس بيكت: رئيس أساقفة كانتربوري، كان بينه وبين هنري الثاني صراع، حكم بين عام ١١٥٤ - ١١٨٩. ومحور النزاع هو انفراد المحاكم الكنسية بمحاكمة رجال الدين ممّن يتهمون باقتراف الجرائم. تبنّى هنري الثاني قوانين كلاريندون عام ١١٤٦، التي سمحت لمثل هؤلاء بدخول المحاكم العلمانية. فاحتجّ بيكت وهرب إلى فرنسا، وبعد عودته واستمراره في الإصرار على الامتياز الكنسي قُتل على يد أربعة فرسان في كندراثة كانتربوري. (موسوعة السياسة: ج ٧ ص ١٥٣).

٥. يبدو أنّ المراد هو هنري الثاني لا هنري الأول، لأنّ هنري الأول قد مات عام ١١٣٥م، وتوماس بيكت مات

القرن السادس عشر بعث هنري الثامن^١ ملك إنجلترا توماس ولزي^٢ رئيس أساقفة يورك إلى السجن ريثما يصدر عليه حكم الإعدام، فمات قبل أن يُعدم، ثم أرسل إلى المقصلة توماس مور^٣ كبير قضاة من أجل خلافتها له في زواجه وطلاقه.



ولقد كان فزع المنصور من أجل دولته حريياً أن يخرجه عن الاتزان فيستحوذ عليه الشيطان، لولا إمساك الإمام الصادق بالأعنة كلها كلّمًا لقيه، فكان يضعه في موضع النصفه. والذين يهابون لقاء الملوك ضعفاء عن إخفاء دخالهم من البغض أو الحسد أو الخوف، والذين ليس في قلوبهم من ذلك شيء يشجعون، أمّا الائمة فآله معهم، وهو حسبهم.... وأين من هذا الذي معه مالك الأرض والسماء، ملوك دولة أو إقليم!

من أجل ذلك يشجع الرجال الصدق إذ يستشهدون، ومن أجله نظر الصادق إلى أبي جعفر في شجاعة وصدق، فكان يلزمه التقصد والنصفه.

ولا عجب إذا كان أبو جعفر في دخيلة نفسه يريد ليحفظ ظاهر الأمر في وقار من لا يسفك الدم إلا بقدر، والصادق حجة له في ثبات حكمه، مذ كان لا يرى بيعه غيره.

→ عام ١١٨٩.

١. هنري الثامن: ١٤٩١م - ١٥٤٧م. حكم بين عام ١٥٠٩ - ١٥٤٧، وتزوج من أرملة أخيه «كاترين»، وكان قد انضم سنة ١٥٢٢ إلى الامبراطور شارل الخامس الاسباني في الحرب ضد فرنسا.

منح لقب حامي الدين من أجل مقالٍ ضد «لوثر» زعيم الإصلاح الديني، وأصبح رئيساً أعلى للكنيسة الانكليزية، فانفصلت الكنيسة عن روما تماماً، نشر التوراة باللغة الانكليزية، واستطاع توحيد المملكتين: انكلترا واسكتلندا، شهدت نهاية حكمه سيراً تدريجياً نحو البروتستانتية. (موسوعة السياسة: ج ٧ ص ١٥٤).

٢. توماس ولزي، كبير وزراء هنري الثامن، كانت بيده السلطة الفعلية تقريباً، في عهده ازدهرت انكلترا داخلياً، عزل من منصبه بعد فشله في تحقيق أمل هنري الثامن بالزواج من «آن بولين» الذي عارضه البابا كليمنت السابع برفض طلاقه من «كاترين». (موسوعة السياسة: ج ٧ ص ١٥٤).

٣. توماس مور: ١٤٤٧م - ١٥٣٥م سياسي وقانوني ومفكر انكليزي، ولد في لندن، وعيّن عضواً في مجلس المحامين، ثم عضواً في مجلس النواب، ثم مساعداً لحاكم لندن.

وفي عام ١٥١٨ عيّن عضواً في مجلس الملك الخاص، وأخيراً رئيس القضاء الأعلى في المملكة عام ١٥٢٩ - ١٥٣٢. ومنح لقب فارس عام ١٥٢١. كان زاهداً في السلطة، فاستقال من القضاء الأعلى عام ١٥٣٢، ورفض حضور حفلة تتويج الملكة (آن بولين) عام ١٥٣٣، والاعتراف بالملك هنري الثامن رئيساً للكنيسة في انكلترا عام ١٥٣٤، فأعدم لذلك سنة عام ١٥٣٥. (موسوعة السياسة: ج ١ ص ٨١٣).

وأبو جعفر عليم بما يجري في ملكه، وهو من مطالع حكمه يستعمل العسس^١ في كلّ اتجاه، فلم يلبث سنين حتّى أصبح يعلم بكاء بنت مالك بن أنس من الجوع في داخل الدار، وهي وأبوها يكتمانه إلا على الله سبحانه!

وأبو جعفر هو القائل عن أوتاد حكمه: ما أحوجني إلى أن يكون عليّ بابي أربعة نفر لا يكون عليّ بابي أعفّ منهم، وهم أركان الدولة، لا يصلح الملك إلاّ بهم: أما أحدهم: فقاضي لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر: صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث: صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية، ثمّ عضّ عليّ إصبعه السبابة ثلاث مرّات يقول: آه آه، قيل: ماهو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريدٍ يكتب خبر هؤلاء على الصّحة^٢.

١. العُسس: هو الطّواف بالليل، والاسم منه: عاسٍ، والجمع: عُسس، وهم من يطوفون بالليل لحراسة الناس. (تاج العروس: ج ٤ ص ١٩٠).

٢. تاريخ الطبري: ج ٦ ص ٣١٣.

الفصل الثاني

الرجُلان

«يا بني: إنَّ الذين حولنا لو يعلمون عن علي ما نعلم، تفرَّقوا عنَّا إلى أولاده»^١.

(عبد العزيز بن مروان)

الحقُّ أنَّ الاختلاف كان شديداً بين الإمام جعفر الصادق وبين الخليفة أبي جعفر المنصور: في طبيعتهما وطريقتهما وغاياتهما.

هذا صاحب سلطان، فيه شركاء متشاكسون، تركبه هموم الدنيا، وتلبس جلده شياطينها، يترافع لينحني الناس له، ويجمع دنياهم في قبضته، شحيح النفس منقبض اليد، «دوانيقي» يحسب بالدرهم والداق^٢، تبدو منه صعقات السلطان عند الفزع، وتحوِّله مطامعه من المائة إلى الشراصة، فلا يطمئن له أحد، أقام دولته على أشلاء الأعداء، وفرع الأقرباء، وجماجم أهل البيت في خزائنه!

أمَّا الإمام فرجل سلم لكلِّ رجل، يتواضع ليرفع الناس كلَّهم، ولا تستعبده الدنيا قيد أنملة، يعطي ولا يأخذ، ويحيى أنفس الناس بالعطاء المسموح من العلم والجاه والمال «ما قال لا قطَّ إلَّا في تشهده»^٣ فهكذا كان أبوه وجدّه.

والحقُّ كذلك أنَّ المنصور - بنجاحه في إقامة أكبر دولة في التاريخ الوسيط - يعتبر واحداً

١. الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٥٦.

٢. الدايق: سدس درهم. (منه).

٣. من أبيات قالها الفرزدق الشاعر في حقِّ الإمام زين العابدين:

ما قال لا قطَّ إلَّا في تشهده لولا التشهد كانت لاه نعم

راجع: كشف الغمة للأربلي: ج ٢ ص ٣٠٥، وديوان الفرزدق.

من ثلاثة لا يعرف لهم التاريخ الإسلامي رابعاً، ولا ينزل بهم التاريخ العالمي عن أعظم المؤسسين للدول.

أولهم: معاوية بن أبي سفيان، وثانيهم: عبد الملك بن مروان، مصائرهم متشاكلة، ووسائلهم متشابهة، وخصامهم لأهل البيت أساس دولتهم، ونجاحهم في دنيا السلطة مقطوع القرين:

بدأوا علماء، وانتهوا ملوكاً؛ كالمملوك الأعاجم! والإسلام فضل من الله، يسخر لخدمته من يشاء، ولو مال عن الجادة رجل فإتماً يخذل نفسه، ولا يصيب الإسلام بسوء.

لقد أخطأ معاوية في إقامة دولته وفي حربه، وكان لزاماً أن يقوده خطؤه إلى أن يجعل الدولة «هرقلية»، كلما مات هرقل قام هرقل^١ فيكون ابنه يزيد أشأم وألأم خلف لسلف، لكن أحداً لا يتنازع في أن دولته - وإن لم تمثل دولة الدين - قد انتشرت في البر والبحر، ونشرت الإسلام، وجاهد في غزواتها الصحابة وبنوهم والعلماء والفقهاء، بل غزا وجاهد فيها بين جيوش المسلمين أبو الشهداء: الحسين بن علي، في فتح أفريقية، وغزو جرجان وطبرستان والقسطنطينية.

ومعاوية هو الذي مهد لدولة ابن عمه مروان بن الحكم.

وعبد الملك بن مروان هو المؤسس الحقيقي للدولة المروانية التي أئبعت فروعها بالأندلس، وأبقت الإسلام في أوربة ثمانمائة عام، لتتهيئ للحضارة الحديثة أن تنطلق من جامعات الأندلس وجوامعها، وهو عم عمر بن عبد العزيز وصهره.

وعمر - خامس الراشدين في مدة خلافته - الذي كتب لعامله على المدينة يوم ولي الخلافة: أقسم في ولد فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار، فقد طالما تخطتهم حقوقهم. وقال معلناً حق علي وباطل بني أمية ومروان: «كان أبي^٢ إذا خطب فنال من علي تلجلج، فقلت: يا أبت، إنك تمضي في خطبتك، فإذا أتيت علي ذكر علي عرفت منك تقصيراً؟ قال: أو فطنت إلى ذلك؟ يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم تفرقوا

١. كما روي عن عبد الرحمان بن أبي بكر، وقد خرجه سابقاً.

٢. عبد العزيز بن مروان بن الحكم، عينه عبد الملك على مصر وأفريقية، وهو الذي بنى مدينة حلوان ضاحية القضاة بالقاهرة، وفيها عاش عمر بن عبد العزيز زماناً، وجيوش أفريقية هي التي فتحت الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير. (منه).

عنا إلى أولاده...»^١.

لكن أبا جعفر كان أثقل الثلاثة حملاً، إذا كان معاوية وعبد الملك قد سبقاه ففصلاً بين الدين والدولة، فجزءاً نظرية الدولة الإسلامية، كان هو قد سار على الدرب الذي اختطأه. إنَّ المعارك التي خاضها من أجل دولته كانت أوسع مدىً.

ففرغه من أبي مسلم وجنده لم يكن إلا رجوع الصدى لصوت يتصايح في آفاق حياته، وأعماق ذاته: أنهم سرقوا الدولة من أبناء علي، ومن هنا خوفه المستمر من انتقاص أهل خراسان الذي جاءوا لمبايعة «الرضا من آل محمد»، وأهل البيت أولى منه في أنظار الذين جاءوا به وبأخيه إلى السلطة.

وخوفه من أعضاء بيته أشدّ، فلقد كان عمه عبد الله بن علي قائد جيش الشام، لكنّه خرج عليه، وأحمد فتنته أبو مسلم الخراساني، حتّى إذا استسلم على عهد حبسه أبو جعفر ليقته بعد زمن من قتله أبا مسلم ذاته، وكذلك غدر بعيسى بن موسى الذي انتصر على محمد وإبراهيم فسلبه حقّه في ولاية العهد، وولى ابنه المهدي عهده، فكان غدره كهية ما غدر عبد الملك بعمر بن سعيد الأشدق في ولاية العهد، قائلاً: ما اجتمع فحلان في شولٍ إلا أخرج أحدهما صاحبه!^٢

وما كان نقض معاوية عهده مع الحسن بن علي إلا درس المعلم الأول للرجلين: أن يستعملا الزمن، وأن ينتهزا الفرص، وأن يحركا الحوادث بدهاء، وأن يقطفوا الثمر: ثمرة ثمره. وأبو جعفر لا يتردد في إعلان التشابه بينهم، وفي تعطشه للدم، فيعلن في الناس أن «الملوك ثلاثة: معاوية وكفاه زياده، وعبد الملك وكفاه حجاجه، وأنا ولا كفاه لي»^٣.

كأنما لم يكن فيما سفكه كفاية، فكان يريد أن يسفك له دماً أكثر، سفاحون أصغر! الواقع أن أزمات أبي جعفر كانت آخذة بخناقها من كل صوب، فهي في نفسه، وفي بيته، وفي دولته، وفي صلته بالأمة: أن كانت القوة العسكرية التي أجهزها إلى الحكم قد تخلت

١. الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٥٦.

٢. تهذيب الكمال للمزي: ج ٢٢ ص ٣٨، تهذيب التهذيب لابن حجر: ج ٨ ص ٣٤، وذكره ابن الاثير في النهاية: ج ٢ ص ٤٦، وابن منظور في اللسان: ج ٤ ص ٢٥٠، والزيدي في تاج العروس: ج ٣ ص ١٨٣ بتغيير طفيف بالانفاظ.

٣. تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ٢٨٧، ولكن فيه: «وأنا لا كافي لي».

عنه، بل حملت السلاح ضده، وكانت القوة الفكرية التي قامت عليها الدولة قد صار أصحابها فرائس له، وكانت القوة العصبية: قوة أسرته، تترنح بخروج عمه عبد الله وقتله، وبمغامرته للاستثمار لبنينه بالخلافة دون سائر أهله. فإذا كان ثمة من أحبه، فإن حبه كان أقيح من البغض، مذ كانوا يؤلّهونه، فيكفرون أنفسهم ويفضحونه، بل كادوا يقتلونه، يوم أحاط الراوندية^١ بقصره، فلم يمكّنه الله منهم إلا بمساعدة عدوّ كان يطلب رأسه^٢، هو معن بن زائدة الشيباني^٣. وكان معن حربياً أن يقتله في وطيس المعركة. حتّى الذي أنجاه كان عدوّاً له!

وفي سنة ١٤٥ انتفضت خراسان، فقتلت جيوشه من أهلها سبعين ألفاً، وأسرت بضعة عشر ألفاً.

ولم يكن شغله بالجيوش المحاربة في المشرق أو في جزيرة العرب أهمّ أشغاله، ففي إفريقية خرج عليه محمد بن الأشعث والي إفريقية، فجرّد عليه جيشاً بقيادة الأغلب بن سالم^٤، وسيقتل الأغلب بعد سنين، سنة ١٥٠!! ولم يهزم الخوارج إلا بعد أن خاضوا ثلثمائة وخمسة وسبعين وقعة! وأمام جيش قوامه خمسون ألفاً.

كلّ أولئك وهو من شخّ نفسه، ومن اصطحاب جماجم أهل البيت في خزائنه، في أمرٍ مريب، يحسب أنّ كلّ صحيحة عليه هي العدو، وأنّ كلّ خروج عليه يدعو الجميع ليخرجوا، وهم على خروج قادرون.

مع كلّ ذلك نجح أبو جعفر بالحدز والغدر ومعالجة الخصوم، فاستبقى دولته لتكون أطول

١. الراوندية: هم شيعة ولد العباس بن عبد المطلب، قالوا: إنّ أحقّ الناس بالإمامة بعد الرسول ﷺ العباس بن

عبد المطلب؛ لأنّه عمه ووارثه وعصبته. راجع المقالات والفرق: ص ١٨٠.

٢. كان المنصور قد طلب معن طلباً شديداً، وجعل لمن يأتي به مالاً. الفرج بعد الشدة: ج ٢ ص ٣٧٢، وقال ابن خلدون في تاريخه: ج ٣ ص ١٨٥: «فنازل وقاتل حتّى ظفر بالراوندية».

٣. هو أبو الوليد معن بن زائدة الشيباني أحد الأمراء وأبطال العرب وعين الأجواد، ولي اليمن وسجستان وغيرها من البلاد. (تاريخ دمشق: ج ٥٣ ص ٤٢٧).

٤. الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي، أمير، من الشجعان القادة، وهو جدّ (الأغلبية) ملوك أفريقيا، وأول من وليها منهم، كان مع أبي مسلم الخراساني حين قيامه بالدعوة العباسية، ورحل إلى أفريقية مع محمد بن الأشعث، ثم ولّاه المنصور الإمارة بأفريقية سنة ١٤٨ هـ، فأقام في القيروان ووطد الأمور، وانصرف يريد قتال الصفرية، فبايع أهل تونس للحسن بن حرب الكندي ودخل بهم القيروان، فعاد إليه الأغلب فقاتله، واستمرت الحرب بينهما إلى أن أصاب الأغلب سهم قتله بقرب تونس. (الأعلام: ج ١ ص ٣٣٥).

الدول الإسلامية عمراً، وأبعدها في الحضارة العالمية أثراً.
 لكنّ التاريخ - وقانونه: الاستقامة - وطبيعة الأشياء - وقانونها: لكلّ فعل ردّ فعل، مساوٍ له في المقدار، ومضادّ له في الاتجاه - لم يتركأ أبناءه وحفدته دون عقاب، وكأنّما كان طول عمر دولته تطويلاً للعقاب عليهم، وتكثيراً لمن ينزل بهم.

* * *

كان من لوازم السلطة، أو علامات عدم الثقة بالنفس أو بالغير: أن تتراءى من أبي جعفر في لقائه لأهل البيت أو التعامل معهم نزعات المستوفر الحذر، أو مظاهر الاستعلاء عند مواجهة الأعداء، أو من يضعهم في مواضع الأعداء. لكنّ الإمام الصادق كان يمسك بالزمام، فيردّ الخليفة دائماً إلى حيث يطلب الموعظة أو العلم.

ومن إمساك الزمام في أحد هذه اللقاءات إمساك الخليفة ذاته أن يميل على أهل البيت، فيقول له: «لا تقبل في رحمك وأهل الرعاية من أهل بيتك من حرّم الله عليه الجنة وجعل مأواه النار، فإنّ النمام شاهد زور وشريك إبليس في الإغراء بين الناس، فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوهَا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^١ ونحن أنصار وأعوان، وللملك دعائم وأركان، ما أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، وأمضيت في الرعية أحكام القرآن، وأرغمت بطاعتك الله أنف الشيطان، وإن كان يجب عليك في سعة فهمك وكثرة علمك، ومعرفتك بآداب الله: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمنّ ظلمك، فإنّ الكافي ليس بالواصل، إنّما الواصل من إذا قطعتة رحمه وصلها، فصل رحمك يزد الله في عمرك، ويخفف عنك الحساب يوم حشرك»^٢.

ويقول المنصور: قد صفحت عنك لقدرك، وتجاوزت عنك لصدقك، فحدّثني عن نفسي بحديثٍ أتّعظ به، ويكون لي زاجر صدق عن الموبقات.

وبهذا السؤال انتشل المنصور نفسه من موقع قاطع الرحم، إلى موضع المواسي لذوي القرابة، ومكانة طالب الموعظة، فأدلى بها إليه الإمام.

قال: «عليك بالحلم فإنّه ركن العلم، واملك نفسك عند أسباب القدرة، فإنك إن تفعل ما

١. الحجرات: ٦.

٢. (٢) الأمالي للشيخ الصدوق: ص ٧١١، وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ٣٠٩ رواه ناقصاً، بحار الانوار: ج ١٠

ص ٢١٨ وج ٧٢ ص ٢٦٤ وج ٤٧ ص ١٦٨.

قدرت عليه كنت كمن شفى غيضاً وداوى حقدًا، وأحب أن يذكر بالصلوة. وأعلم أنك إن عاقبت مستحقاً لم يكن غاية ما توصف به إلا العدل، والحال التي توجب الشكر أفضل من الحال التي توجب الصبر»^١ تلك آداب الله، وأسباب الحكم الصالح، وملاك السيطرة للحاكم المسلم على قلوب الرعية.

وظاهر أن أبا جعفر كان يتظاهر بالاستعلاء إذ يدعي الصفع، وليس لديه تهمة، ولو كانت عنده تهمة للصادق لما طلب الموعدة إليه.

وللملوك سماعات أو أبقاق دعايات، منتشرة في الرعية، تلتقط موجات الرضا والغضب، والهدوء والقلق، وتبث نظائرها حسب الحاجة. والنامون كثر؛ كالفراشات التي تدور حول النور، تلتمس الدفء أو الظهور. ولأبي جعفر جهاز لايني عن استعماله ليروع خصومه، أو ليجعلهم في قبضة يده.

فلقد يدس من أجهزته دسيساً بعد دسيس على بني الحسن والحسين، مثل أن يدعو ابن مهاجر^٢ ذات يوم فيقول له: خذ هذا المال وائت المدينة، والقي عبد الله بن الحسن وجعفر بن محمد (الصادق) وأهل بيتهم، وقل لهم إني رجل من خراسان، من شيعتكم، وقد وجهوا إليكم هذا المال، فادفع إلى كل واحدٍ منهم على هذا الشرط، كذا وكذا، فإذا قبض المال فقل: إني رسول، وأحب أن تكون معي خطوطكم بقبض ما قبضتموه مني. وذهب ابن مهاجر، فلما رجع قال له أبو جعفر: ما وراءك؟ قال: أتيت القوم وهذه خطوطهم، ما خلا جعفر بن محمد، قال لي: يا هذا اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد، فإنهم قريبو العهد بدولة بني مروان، وكلهم محتاج، فقلت: وما ذاك أصلحك الله، فقال: إدن مني، فدنوت، فأخبرني بجميع ما جرى بيني وبينك؛ كأنه ثالثنا! قال المنصور: يا ابن مهاجر، إنه ليس من أهل بيت نبوة إلا وفيهم محدث، وإن جعفر بن محمد محدثنا اليوم^٣.

فالصادق يكشف للمنصور ودسيسه حقائق يعلمونها، وينبههما على ألا يورطا أهل البيت من جزاء حاجاتهم، يريد لأهله السلامة، وللخليفة الاستقامة، وللأمة الطمأنينة، وفي كل

٢. هو خال محمد بن الامتعت، وقد وصف بالروايات أنه رجل ذو عقل. راجع: الكافي: ج ١ ص ٤٧٥، ودلائل

الإمامة: ص ٢٦٧، والثاقب في المناقب: ص ٤٠٧، والخرائج والجرائح: ج ٢ ص ٧٢١.

٣. شرح أصول الكافي: ج ٧ ص ٢٥٠، الخرائج والجرائح: ج ٢ ص ٧٢١، إثبات الهداة: ج ٥ ص ٣٣٩، بحار

الأنوار: ج ٤٧ ص ٧٥، دلائل الإمامة: ص ٢٦٦.

ذلك خير لأبي جعفر المنصور.

ولقد كان المنصور نفسه يجعل الصادق حجّةً من حججه، وإذا فاخر أهل البيت فاخرهم به !

كتب إليه محمد بن عبد الله (النفوس الزكية) يدعوه لبيايعه، وعيّره بأمهات العباسيين لأنهن أمهات ولد، وأم المنصور بربرية تدعى «سلامة»، يتردد اسمها على السنة الذين فاخروه، فتولّى المنصور كبره في الردّ على محمد، ولم يدع الفرصة تفوته ليستفيد حجّة من مكانة الإمام الصادق، قال فيما قال: «وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن الحسين زين العابدين، وهو لأُم ولد، وهو خير من جدك حسن بن حسن، وما كان فيكم بعده مثل محمد بن علي الباقر وجدته أم ولد، وهو خير من أبيك، ولا مثل ابنه جعفر، وجدته أم ولد، وهو خير منك»^١.

وغضّ المنصور طرفه عن أنّ أم الولد في شجرة الباقر «شاه زنان»^٢ بنت كسرى ملك الفرس. وأين منها - بعد إذا أسلمت - سلامة !

على أنّ اللقاءات - أو الاحتكاكات - بين الرجلين لا تتوقّف. فهذان قطبان، لكلّ منهما عالمه، وهما ضدّان لهما مستويان، والشرف فيهما لرجل الدين والزهد والعلم، والملوك أحوج إلى العلماء من العلماء إلى الملوك.

وأبو جعفر حريص غدر، يسلط على الصادق من وقتٍ لآخر، وفي مكانٍ بعد آخر، وجوهاً من التهديد لشخصه، والاتّهام لولائه، والإزراء بعلمه.

يقول له ذات يوم في لقاءٍ له بالكوفة: أنت يا جعفر ما تدع حسدك وبغيك وفسادك على أهل البيت من بني العباس، وما يزيدك الله بذلك إلا شدة حسدٍ ونكيدٍ، وما تبلغ به ما تقدره. فيجيبه الصادق: «والله، ما فعلت شيئاً من ذلك، ولقد كنت في ولاية بني أمية، وأنت تعلم

١. تاريخ الطبري: ج ٦ ص ١٩٨.

٢. لفظ فارسي معناه: سيدة النساء أو ملكة النساء، قيل: هي بنت ملك قاشان، وقيل: هي بنت كسرى يزجرد بن شهريار، واسمها شهربانويه، تزوّجها الإمام الحسين وأولدت له زين العابدين، وكان يقول: أنا ابن الخيرتين من العرب محمد، ومن الفرس كسرى.

راجع في ذلك: بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ١٥، العدد القوية: ص ٥٦.

أنهم أعدى الخلق لنا ولكم، وأنه لا حقّ لهم في هذا الأمر، فو الله ما بغيت عليهم، ولا بلغهم عني شيء مع جفائهم الذي كان لي، وكيف أصنع هذا الآن، وأنت ابن عمي، وأمس الخلق بي رحماً، وأكثر عطاءً وبراً؟ فكيف أفعل هذا؟!^١

والصادق بهذا يسجل للخليفة برّه، ويقدر له أولية ذوي الأرحام عنده في البرّ بهم، ويقرّر له حقّه في الخلافة، وليس للمنصور فوق ذلك طلبات، وبهذا يستلّ الضغن من صدره، ليدعه في ميدانه الذي يسره الله له.

ومع ذلك يعاد المشهد في بغداد، بعد سنة ١٤٥، فيستحضره المنصور لمواجهة جديدة. يقول له: يا جعفر، ما هذه الأموال التي يجيئها لك المعلنّى بن حنيس^٢؟ قال الصادق: معاذ الله، ما كان من ذلك شيء، قال المنصور: تحلف عليّ براءتك بالطلاق والعتاق، قال الصادق: نعم، أحلف بالله ما كان من ذلك شيء، قال المنصور: بل تحلف بالطلاق والعتاق، قال الصادق: ألا ترضى يميني: الله الذي لا إله إلا هو! قال أبو جعفر: لا تتفقّه عليّ، قال الصادق: وأين يذهب الفقه مني؟ قال المنصور: دع عنك هذا، فإني أجمع الساعة بينك وبين الرجل الذي رفع عنك هذا حتّى يواجهك، فأتوه بالرجل، قال الصادق: تحلف أيها الرجل أنّ الذي رفعتة صحيح؟ قال: نعم، ثم بدأ باليمين، قال: والله الذي لا إله إلا هو الغالب الحي القيوم، قال الصادق: لا تعجل في يمينك فإني استحلفك، قال أبو جعفر: ما أنكرت من هذه اليمين؟ قال الصادق: إنّ الله تعالى حيّ كريم، إذا أتني عليه عبده لا يعاجله بالعقوبة، ولكن قل أيها الرجل: أبرأ إلى الله من حوله وقوته، وألجأ إلى حولي وقوتي، إني لصادق برّ فيما أقول، قال المنصور للرجل: احلف بما استحلفك به أبو عبد الله.

قال راوي الخبر: حلف الرجل، فلم يتمّ الكلام حتّى خرّ ميّتاً، فارتعدت فرائص المنصور، وقال للصادق: سر من عندي إلى حرم جدّك إن اخترت ذلك، وإن اخترت المقام عندنا لم نأل جهداً في إكرامك، فو الله لا قبلت بعدها قول أحدٍ أبداً^٣.

١. بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ١٩٦ و ج ٩١ ص ٢٩٠.

٢. المعلنّى بن حنيس، مولى أبي عبد الله عليه السلام، وهو من أهل الفقه والمعرفة بمنزلة الإمام، ومن أعيان أصحابه، وقد حزن الإمام على قتله، وخرج مفضباً إلى الموالي يعنّفه ويدعو عليه لما بلغه خبر مقتله عليه السلام، قال في حقّه: «أما والله لقد دخل الجنة». (الإمام الصادق للمظفر: ج ٢ ص ١٦٨).

٣. الصواعق المحرقة: ص ١٠١-١٠٢، مستدرک الوسائل: ج ١٦ ص ٧٢، بحار الأنوار: ج ٩١ ص ٢٩٦.

وأين يذهب الفقه من إمام المسلمين، وهو الذي يوجّه اليمين، ومن حقّه صياغتها! وفي الصيغة ما ذكر المفتري بعظم افترائه، وبالخالق سبحانه ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾^١. ومن الإنساني، ومن جلال مقام الإمام عند الله والناس أن يخزّ صريعاً من يفترى على الله وعلى الإمام في مجلس الخليفة.

بهذه الآية هدى جبار السموات جباراً على الأرض لا يطأطي رأسه، فإذا حرّكها عندما يناوشه الذباب، سأل حضّاره كالمستكر: لِمَ خلق الله الذباب؟! وكان الصادق حاضراً يوماً فأجاب: لينذّل الله به الجبابة^٢.

ولئن كان في وجود الذباب في المجلس تذكرة للجبابة، ففي سقوط المفترى على الإمام بين أيديهم آية ما بعدها آية.

وكما يضمن أبو جعفر طاعة الإمام بالفتات يصطنعها من حين لآخر، لا يتورّع عن محاولة إفحام الإمام بين علماء العصر، أو تسخير أعظم علماء العراق لينصب منه شركاً يوقع فيه الإمام! وليس هوى أبي جعفر مع أيّ منهما، ولا بأس عنده إذا أعجز كلُّ منهما أو أحدهما صاحبه.

وإنّ المرء ليلمس خساسة الحيل الظاهرة من أبي جعفر، باتّخاذ العلم والفقه أداةً للشّرّ المدبّر، وعظمة العلماء وسائل للإساءة للمسلمين الذين يأمن جانبهم، فلنقس عليها فظاعة تدابير السريّة لمن يخشى العواقب منهم، ولنذكر جلالة الحقّ إذ ينتصر على الحيلة، وجلجلة الحقيقة إذ تظهرها وسيلة أريد بها طمس معالمها، ومكانة الإمام الصادق في العلم إذ يتواضع أمامه العظماء من الفقهاء، في مجلسٍ علمي يسيطر عليه خليفة عالم.

أقدم المنصور الإمام الصادق من المدينة إلى العراق، وبعث إلى أبي حنيفة^٣ فقال له: إنّ

١. الأنعام: ٢١.

٢. حلية الأولياء: ج ٣ ص ١٩٨، عيون التواريخ: ج ٦ ص ٣١، وفيات الأعيان: ج ٤ ص ٣٤١، مناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ٣٧٥، تهذيب الكمال: ج ٥ ص ٩٣، سير أعلام النبلاء: ج ٦ ص ٢٦٤، كشف الغمّة للأربلي: ج ٢ ص ٣٧٠.

٣. النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء، الكوفي: أبو حنيفة، إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق. أحد الأئمة الأربعة عند السنّة، قيل: أصله من أبناء فارس. ولد بالكوفة سنة ٨٠ هـ ونشأ بها، وكان يبيع الخبز، ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء، أرادته عمر بن هبيرة للقضاء فامتنع ورعاً، وأرادته المنصور العباسي بعد ذلك على

الناس قد افتتنوا بجعفر، فهَيَّئْ له المسائل الشداد. ويقول أبو حنيفة عن لقائه بعد ذلك: بعث إليَّ أبو جعفر وهو بالحيرة، فأتيته، فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلَمَّا أبصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسَلَّمْتُ عليه، فأومأ إليَّ، فجلست، ثم التفتَ إليهِ فقال: يا أبا عبد الله، هذا أبو حنيفة، قال جعفر: إنَّه قد أتانا، ثم التفتَ إليَّ المنصور وقال: يا أبا حنيفة، ألقى عليَّ أبي عبد الله (الصادق) مسائلك، فجعلت ألقى عليه فيجيبني، فيقول: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا، فرَبَّمَا تابعهم، ورَبَّمَا خالفنا جميعاً، حتَّى أتيت عليَّ أربعين مسألة^١.
ولقد قال أبو حنيفة في مقام آخر: «السنا روينَا أنَّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس»^٢.

وإنَّما يقصد أبو حنيفة باختلاف الناس: الاجتهاد الفقهي للمقارنة بين مذاهب المجتهدين، فأبو حنيفة - وهو الإمام الأعظم عند أهل السنَّة - يقرِّر أنَّ الإمام الصادق أعلم الناس باختلاف الناس في المدينة حيث علم المحدثين، وفي الكوفة حيث علم أهل الرأي، وكانتا قد بلغتا أوجهما عليَّ أيدي أبي حنيفة ومالك، وهما التلميذان في مجالس الإمام الصادق، وكمثلهما كان إمام العراق الآخر: سفيان الثوري.

وأبو حنيفة أكبر سنّاً من جعفر الصادق، ولد قبله بأعوام، وسيموت بعده، وكان أبو حنيفة كما قال مالك: لو حدّثك أنَّ السارية من ذهبٍ لقم بحجّته^٣.
والجاحظ كبير النقدة، يقول بعد مائة عام: «جعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه، ويقال: إنَّ أبا حنيفة من تلاميذه، وكذلك سفيان الثوري، وحسبك بهما في هذا الباب»^٤.
والجاحظ يذكر تلاميذ العراق، ولو ذكر تلاميذ المدينة لما نسي مالك بن أنس.

→ قضاء بغداد فأبى، فأصرَّ عليه، فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل، فحبسه إلى أن مات ١٥٠ هـ. قال الإمام مالك يصفه: رأيت رجلاً لو كلمته في السارية أن يجعلها ذهباً لقم بحجّته. وكان كريماً في أخلاقه، جواداً، حسن المنطق والصورة، جهوري الصوت، إذا حدّثت انطلق في الكلام، وكان لكلامه دوي. (الأعلام: ج ٨ ص ٣٦).
١. و (٢) مناقب أبي حنيفة للموفق: ج ١ ص ١٧٣، جامع أسانيد أبي حنيفة: ج ١ ص ٢٢٢، تذكرة الحقاظ للذهبي: ج ١ ص ١٥٧، العدد القوية للحلي: ص ١٥٤، البحار: ج ٤٧ ص ٢١٧، تاريخ الاسلام للذهبي: ص ٨٩، الكامل في الرجال: ج ٢ ص ٥٥٦، سيرة أعلام النبلاء: ج ٦ ص ٢٥٧ و ٢٥٨، تهذيب الكمال: ج ٥ ص ٧٩.
٢. انظر ذيل تاريخ بغداد لابن الدمياطي: ج ٢ ص ٧٣، وأشدّ الجهاد للشيخ داود الموسوي البغدادي: ص ٣.
٤. رسائل الجاحظ للسندوبي: ص ١٠٦.

بلغ الإمام الصادق بمسالمة المنصور بعض آماله لأهل بيته، بقية أيام حياته، بل طوال خلافة أبي جعفر المنصور، فكان ميمون النقيبة بالسلام الذي نشده، والأمان الذي دعا له وأطال زمانه، ومنع كثيراً من الطغيان الذي طالما شكاه أبوه، علي ما سيروي ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: «ثم لم نزل أهل البيت نُستذَلُّ ونُستَضام، ونُقَصَّى ونُمتَهَن، ونُحرم ونُقْتَل، ولا نأمن علي دماثنا ودماء أولياتنا، ووجد الكاذبون والجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً.... فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووا عنا ما لم نقله وما لم نفعله ليبغضونا إلى الناس. وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن، فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقُطعت الأيدي والأرجل على الظنَّة، ومن يذكر بحبِّنا والانتقاع إلينا سُجن أو نُهب ماله أو هُدمت داره، ثم لم يزل البلاء يزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين، ثم جاء الحجاج^١ فقتلهم^٢ كلَّ قتلته، وأخذهم بكلَّ ظنَّة وتهمة، حتى أن الرجل يقال له: زنديق أحبَّ إليه من أن يقال: شيعة علي»^٣.

وفي عصر الباقر، كان الحسن البصري^٤ (١١٠) الجسور، قاضي عمر بن عبد العزيز وشيخه الذي لا يهاب الخلفاء، إذا روى عن أمير المؤمنين علي قال: «قال أبو زينب»^٥ ليخفي الاسم الذي لا خفاء له!

بل كان الشعبي (١٠٤) شيخ المحدثين بالعراق يقول: «ماذا لقينا من آل علي: إذا

١. الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، قائد، داهية، سفاك، خطيب، ولد في الطائف سنة ٤٠٠هـ، وانتقل إلى الشام فلحق بزوج بن زبياع، فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قُله عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال ابن الزبير، فرحف إلى الحجاز وقتله، وقمع جميع الثورات في عصره، وهو الذي بنى مدينة واسط. (الأعلام: ج ٢ ص ١٦٨).

٢. أطلق الخليفة سليمان بن عبد الملك من سجون الحجاج في يوم واحد ثمانين ألفاً، منهم ثلاثون ألفاً بغير ذنب، ومنهم ثلاثون ألف امرأة. (منه).

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٤ ص ٦٣-٦٤، شرح منهاج الكرامة للعلامة الحلبي: ص ٢٨٧.

٤. هو الحسن بن يسار البصري؛ أبو سعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمانه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء السَّاك، ولد بالمدينة سنة ٢١هـ، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب. عظمت هيئته في القلوب، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، قال الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بالأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة، توفي بالبصرة سنة ١١٠هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ٢٢٦).

٥. الصراط المستقيم للسنابطي العاملي: ج ١ ص ١٥١، أمالي المرتضى: ج ١ ص ١١٢، تهذيب الكمال: ج ٦ ص ١٢٤، المناقب لابن شهر آشوب: ج ٢ ص ١٧٤، بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ٣٨ و ص ١٤٤.

أحببناهم قتلنا، وإذا أبغضناهم دخلنا النار»^١.

وكان طبيعياً في دولة «هرقلية» أن يكون همها الملك لا الدين، تعاقب من تتوهم خطره عليها وتترك من تزندق، أن تزداد الاستهانة بالدين في مقابل السلام الذي تنشده الدولة، والبلهنية التي يؤثرها دعاة الدعة. بدأ ذلك من عهد معاوية وسيستمر استمرار فساد الدولة، وستستبقيه لتصرف الناس عن الاهتمام بأهل بيت النبي، أو توقع بهم لفرط من أهدمهم، أو تعزى كذباً إليهم، منتهزة للفرص حيناً، أو مفتعلة لها في أغلب الأحيان.

كانت الأوامر تصدر من بغداد إلى أرجاء الامبراطورية التي تدين لبني العباس، ومنها مصر: «أن لا يقبل علوي ضيعة، ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد - والرقيق يومذاك قوة العمل - وإن كانت بين العلوي وبين أحد خصومة فلا يقبل قول العلوي، ويقبل قول خصمه بدون بيّنة»^٢!

وكانوا يسقرون من الأطراف إلى العاصمة؛ ليكونوا تحت الرقابة، بل أمر الرشيد أن يضمن العلويون بعضهم بعضاً، وكانوا يعرضون على السلطان كل يوم، فمن غاب عوقب^٣، وكان أهل بيت النبي جالية من العدو، أو شذمة من المشبوهين.



ولقد كان يكفي للحيفة أقلّ القليل من حاكم يريد أن يطمئن، وإتّما كان ذلك الكيد سياسة إبادة مستمرة، يشترك في تنفيذها الخلفاء والأشباع الظلمة، تدفع الشائرين إلى أن يثوروا، فيؤخذوا بثوراتهم، أو يؤخذ غيرهم بجرائر تُنسب إليهم. أمّا سياسة أهل البيت فواضحة من شعار أبناء علي في كلمة مسلم بن عقيل: «إنا أهل بيت نكره الغدر»^٤ قالها عندما عرض عليه البعض قتل عبيد الله ابن زياد في إحدى زيارته، فنجا ابن زياد بهذا الشعار ليقتل مسلماً

١. لم أجد تخريجه، إلا المصنف يذكر الخبر في ص ٣٢٣ و ص ٤١٠ أيضاً، لكن بلفظ «إن عاديناهم دخلنا النار».

٢. النزاع والتخاصم للمقريري: ص ١٤٩، وتاريخ الطبري: ج ٧ ص ٤٠٠ حوادث سنة ٢٤٧هـ، والكامل في التاريخ: ج ٤ ص ٣٤٧. وكان هذا في عهد محمد المنتصر. وراجع العواظ والاعتبار للمقريري: ج ٢ ص ٣٣٩، وخطه أيضاً: ج ٤ ص ١٥٣.

٣. راجع: الولاية والقضاء للكندي: ص ١٩٨، وتاريخ كربلاء لعبد الجواد الكلّيدار: ص ١٩٦.

٤. تاريخ الكوفة للبراقبي: ص ٣٨٤ و ص ٢٨٩.

فيما بعد، أما شعار حاشية معاوية فكان «إِنَّ اللَّهَ جُنُودًا مِنْ عَسَلٍ»^١ يقصدون دَسَّ السم إلى أعدائهم فيه.

ولقد طالما استعمل الطغاة السمَّ في أهل البيت في القرون التالية، فإن لم يكن سمَّ في خفاء فالقتل جهرةً. ومن الروايات: أن أئمة أهل البيت - الاثني عشر - ماتوا مسمومين^٢، ما عدا أمير المؤمنين علياً وأبا الشهداء الحسين ماتا شهيدين.

في أيام الخليفة الهادي^٣ (سنة ١٦٩) كان أهل بيت النبي في المدينة يُستعرضون كلَّ يوم! لكلِّ واحد منهم كفيل من نسيب أو قريب، بل ولي عليهم واحد من ذرية عمر بن الخطاب هو عبد العزيز بن عبد الله^٤، فوَلَّى بدوره على أهل البيت رجلاً يقال له: عيسى الحائك^٥، فحبسهم الحائك في المقصورة. فثارت لأجلهم المدينة إذ ناروا، وكُسرت السجون، وأُخرج المسجونون، وبويع للحسين بن علي بن الحسن^٦، فبقي واحداً وعشرين يوماً بالمدينة، ثم ارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحجِّ.

وكرر التاريخ نفسه في خروج الحسين ومن معه من أهل المدينة، إذ جاءه الإمام موسى الكاظم يستقبله من الخروج معه، كما صنع أبوه مع النفس الزكية محمد بن عبد الله، قال

١. بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ٥٩١، المصنَّف للصنعاني: ج ٥ ص ٤٦٠، شرح النهج: ج ٧ ص ١٦٠، التاريخ الكبير للبخاري: ج ٧ ص ٣١١، تاريخ مدينة دمشق: ج ٥٦ ص ٢٨٩، سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٤ ص ٣٥، معجم البلدان: ج ١ ص ٤٥٤، تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٣١٨.

٢. فقد روي عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْأَمْرَ يَمْلِكُهُ اثْنَا عَشَرَ إِمَامًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَصَفْوَتِهِ، مَا مَنَّا إِلَّا مَقْتُولٌ أَوْ مَسْمُومٌ». راجع كفاية الأثر للخزاز القمي: ص ١٦٢، وبحار الأنوار: ج ٢٧ ص ٢١٧.

٣. موسى الهادي بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، من خلفاء الدولة العباسية ببغداد، ولد بالرِّي سنة ١٤٤هـ. استبدت أمه الخيزران بالأمر، أراد خلع أخيه هارون من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر، فلم تر أمه ذلك، فزجرها فأمرت جواربها أن يقتلنه فختقته ودُفِن في بستانه. (الأعلام: ج ٧ ص ٣٢٧).

٤. هو عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي المدني القرشي (التاريخ الكبير: ج ٦ ص ١٣، ومقاتل الطالبين: ص ٢٩٥، وفي تاريخ الطبري هو عمر بن عبد العزيز... ج ٦ ص ٤١٠).

٥. هو أبو بكر بن عيسى الحائك، من موالي الانصار (مقاتل الطالبين: ص ٢٩٥).

٦. هو الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسين المثنى بن الحسن السبط عجل الله الشهيد بفتح (موضع بمكة) في يوم التروية سنة ١٦٩ هـ قتله موسى بن عيسى من قبل موسى الهادي. خرج على الهادي في المدينة وبإيعه الناس على الكتاب والسنة للمرضى من آل محمد.. (الأعلام: ج ٢ ص ٢٤٤).

الكاظم للحسين: «أحب أن تجعلني في حلّ من تخلفني عنك» قال: أنت في سعة، قال الكاظم: «أنت مقتول، وعند الله عزّ وجلّ أحسبكم من عصبه...»^١.

وجّهز الهادي جيشاً لاقاه، حيث استشهد في موقعٍ يقال له: (فخّ)^٢ ومعه كثير من العلويين، وحملت رأس (الحسين شهيد فخّ) إلى القائد العباسي بالبشرى! مع رؤوس مائة آخرين.

واستعرض القائد الرؤوس بالمدينة، فقال الإمام الكاظم عندما عرضوا رأس الحسين: «إنّا لله وإنا إليه راجعون، مضى والله مسلماً صالحاً، صوّماً قوّاماً، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ما كان في أهل بيته مثله»^٣.

وكان مع الحسين يحيى^٤ بن عبد الله بن الحسن (أخي محمد وإبراهيم وإدريس أبناء عبد الله بن الحسن) فلما انتهت المعركة استتر، ثم ظهر، فخرج على الرشيد في بلاد الديلم، ووجه إليه الرشيد جيشاً بقيادة الفضل بن برمك حتّى استسلم بهدٍ مكتوبٍ، ومع ذلك استفتى الرشيد العلماء لقتله، فأبى ذلك محمد بن الحسن^٥ صاحب أبي حنيفة وصاح: ماذا تصنع لو كان محارباً وولّي كان آمناً.

لكسّن الرشيد وجد من علماء السوء من أفتاه بقتله، وكان هو أقدر على النفاق السياسي من مفتيه، أخذ من المفتي ما يملكه، ليصنع هو ما يقدر عليه، فسجن يحيى

١. مقاتل الطالبين: ص ٢٨٩، الكافي: ج ١ ص ٣٦٦ ح ١٨، البحار: ج ٤٨ ص ١٦٠ ح ٦.

٢. فخ - يفتح أوله وتشديد ثانيه - : وإد يمكة (معجم البلدان: ج ٤ ص ٢٣٧).

٣. مقاتل الطالبين: ص ٣٠٢، بحار الأنوار: ج ٤٨ ص ١٦٥.

٤. يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، من كبار الطالبين في أيام موسى الهادي وهارون، رباه جعفر الصادق في المدينة، فروى الحديث وتفقّه، بعد استشهاد (الحسين شهيد فخّ) دعا إلى نفسه، فبايعه كثير من أهل الحرمين واليمن ومصر، وتنقل بالبلاد حتّى وصل إلى خاقان ملك الترك وأقام فيها سنتين، ثم خرج إلى طبرستان في بلاد الديلم وأعلن دعوته سنة ١٧٥. وكثر جمعه فندب الرشيد لحره الفضل بن يحيى البرمكي، وضعف أمر يحيى، فطلب أمان الرشيد، فأجابه بخطّه، واستقدمه بغداد، وبعدها حبسه حتّى مات جوعاً وعطشاً. (الأعلام: ج ٨ ص ١٥٤).

٥. لم يعرف إلاّ بالإمام، وهو من ذريّة شيبان بن ذهل.

وضيَّق عليه الخناق حتَّى مات في سجنه، كمثل ما سيموت في سجن الرشيد الإمام موسى الكاظم، ويشهد الرشيد الناس عليه، ليبرئ نفسه من تهمة اغتياله.

أمَّا الأخ الرابع إدريس^١ فأقلت هارباً إلى مصر، ثم إلى المغرب، وقيل: دس إليه الرشيد هناك من سمِّه، فأسس ابنه دولة الأدارسة.

وسيموت في حبس الرشيد كذلك عبد الله بن الحسن الأفضس^٢، قتله جعفر بن برمك^٣ وزير الرشيد، وسيموت في حبسه محمد بن يحيى بن محمد ابن عبد الله بن الحسن، والعباس بن محمد بن عبد الله، وكذلك الحسين بن... عبد الله بن جعفر^٤.

وفي عهد المأمون وجَّه إلى جماعة من آل أبي طالب، فحملوا إليه في مرو عاصمة خراسان، وفيهم الإمام علي الرضا ابن الكاظم ابن الصادق، فخاطبه في أن يكون ولي عهده، فأبى، فتهدَّده بقوله: «إنَّ عمر جعل الشورى في سنَّة آخرهم جدِّك، وقال: من خالف فاضربوا عنقه، ولا بدَّ من قبول ذلك»^٥ فقَبِل، وباع له المأمون، والعباس بن المأمون.

١. إدريس بن عبد الله بن الحسن بن المشثى. مؤسس دولة الأدارسة في المغرب، كان مع الحسين شهيد فحُجَّ ثم انهزم إلى مصر فالمغرب الأقصى سنة ١٧٢، ونزل مدينة (وليلي) وجمع البربر على القيام بدعوته، وخلع طاعة بني العباس، فجمع جيشاً وخرج غازياً، ففتح «تادلة» و«غزا» «تلمسان» فباع له صاحبها، وعظم أمره إلى أن مات مسموماً في (وليلي) سنة ١٧٧هـ. (الأعلام: ج ١ ص ٢٧٩).

٢. عبد الله بن الحسن الأفضس، كان مع الحسين صاحب فحُجَّ وحسن بلاؤه، وعهد الحسين إليه أن يقوم بالأمر من بعده، قتله جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك بغير إذن الرشيد، وقتل الرشيد جعفرأ به، يلقَّب عبد الله الشهيد، قبره ببغداد بسوق الطعام، عليه مشهد. (المجدي في أنساب الطالبين: ص ٢٢٠).

٣. جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد العباسي وأحد مشهوري البرامكة ومقدميهم، ولد سنة ١٥٠ في بغداد، واستوزره هارون، وكان يدعو أخيه، فانقادت له الدولة، إلى أن نقم الرشيد على البرامكة، فقتله في مقدمتهم عام ١٨٧هـ، ثم أحرق جسَّته بعد سنة. (الأعلام: ج ٢ ص ١٤٠).

٤. وتستمرَّ عجالات الطغيان في الدوران، وتوالي مقاتل الطالبين توالي الخلفاء العباسيين. ففي بدء عهد المأمون يَقتل بالعراق: الحسن بن الحسين بن زيد عند قنطرة الكوفة مع أبي السرايا، والحسن بن إسحاق بن علي في وقعة السوس مع أبي السرايا، ومحمد بن الحسن بن الحسين يُقتل باليمن في أيام أبي السرايا، وعلي بن عبد الله بن محمد يُقتل باليمن في أيام أبي السرايا، ومحمد بن إبراهيم بن إسماعيل (وهو ابن طباطبا) الخارج مع أبي السرايا سنة ١٩٩، مطالبين بالبيعة (لرضا من آل محمد)، وقد انهزموا بجيش هرثمة بن أعين قائد المأمون سنة ٢٠٠. وقتل العلويين على يد هذا الجيش كثيرون. (منه).

٥. مقاتل الطالبين: ص ٣٧٦. مناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ٤٧٣.

ثم دعاه المأمون للخطبة، فأوجز، وكأنه يتوقّع وجازة أيامه، فاكتفى بعد أن حمد الله بقوله: «إِنَّ لَنَا عَلَيْكُمْ حَقًّا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا حَقٌّ، فَإِذَا أَدَيْتُمْ إِلَيْنَا ذَلِكَ وَجِبَ عَلَيْنَا الْحَقُّ لَكُمْ»^١. لكنّه مات بعد قليل في ظروف مبهمّة، لا يستبعد منها دسّ السمّ كما تؤكّد الشيعة، فموت علي الرضا كان حلاًّ لإشكالات بني العباس، سواء من يحيون المأمون، أو الكارهين للرضا أو للمأمون ذاته^٢.

ولا نستطرد للسرد، فليس في تاريخ البشرية كلّها أسرة شُرِّدت وجرّدت، وذاتت العذاب والاسترهاب، مثل أهل بيت النبي ﷺ.

بدأ بهم تاريخ الإسلام مجده، واستمرّ فيهم بعيرته وعظمتها، قدّم أبوهم للبشرية أسباب خلاصها بكتاب الله وسنة الرسول، وقدم أهل بيته أرواحهم في سبيل القيم التي نزل بها

١. الإرشاد: ج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦٢، مقاتل الطالبين: ص ٥٦٢ - ٥٦٥، الفصول المهمة: ص ٢٥٢ - ٢٥٣، بحار الأنوار: ج ٤٩ ص ١٤٥ ح ١٣، إعلام الورى: ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

٢. وفي عهد المعتصم خرج محمد بن القاسم .. بن علي بالطالقان، قبض عليه عبد الله بن طاهر وبعث به إلى الخليفة، وحبس المعتصم عبد الله بن الحسن ... بن جعفر حتّى مات في مخبئه، فلمّا جاء الواثق أمن العلويون بضع سنين، إذ جمعوا ثم حبسوا عن الانطلاق خارج العاصمة سامراء، فظامنوا وأطمأنت السلطة، ثم هبّت عليهم في أيام المتوكل ريح عاتية من جنون الفرع، فلقد أزال قبر الحسين، وحرثه حتّى لا يزار، وشتّت شمل شيعته وفرّقهم في النواحي، فمنهم من حبسوا، ومنهم من تواروا حتّى ماتوا في مهربهم وتناقل الناس أشعاراً منسوبة إلى ابن السكيت عالم النحو الكبير، وكان يعلم ولدي المتوكل، وفي هذه الأشعار:

تالله إن كانت أمية قد أتت	قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله	هذا لعمرك قبره مهذوما
أسفوا على ألا يكونوا شاركوا	فسي قتله فستبغوه رميما !

وربّما أراد المتوكل أن يتيقّن من صدور هذا الشعر، أو من ولاء العالم حين سأله: أيّهما أحسن: ولداي (المؤيد والمعتز) أم الحسن والحسين؟ ... ولم يرضه جوابه، فأمر بقتله، فقتلوه، ولم يلبث المتوكل إلا قليلاً حتّى قتله ابنه «المنتصر» في مؤامرة!

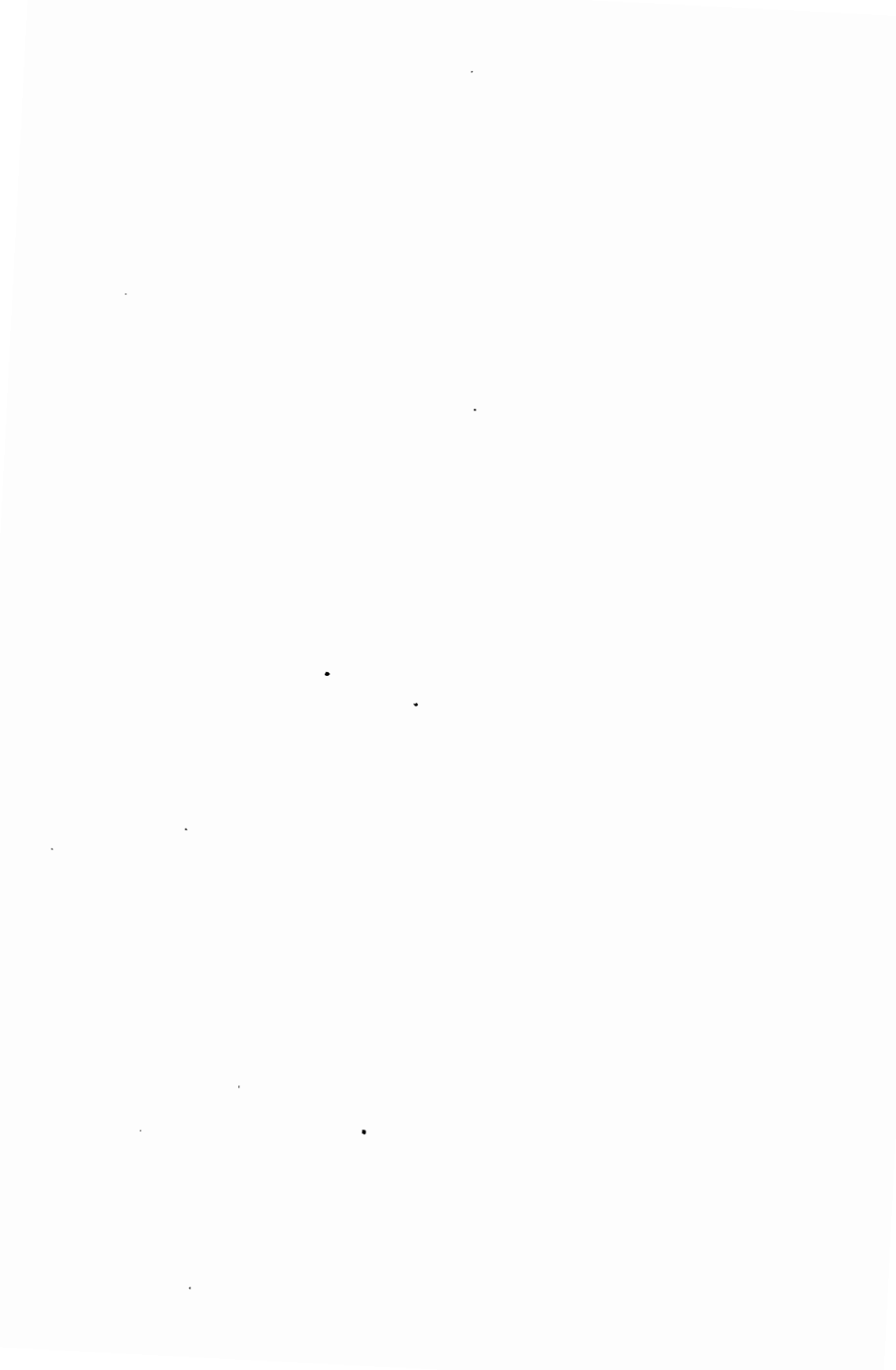
وإنّما كانت فظاعة الجريمة الأخيرة قصاصاً عجّلت به السماء: لمقتل عالم أثر الصدق. ولم يصلح للعلويين بال إلا أشهراً بعد مصرع المتوكل، ليعود البطش بهم إلى عفوانته في أيام المستعين، فمنهم من خرج وخرج الناس معه؛ كيحيى بن عمر خرج فقتل، ومنهم من خرج ولم يخرج الناس معه، فحبس ليموت سنة ٢٧١، وهو الحسن بن محمد المعروف بالحرون، ومنهم محمد بن جعفر خرج وحبس حتّى مات في سامراء، ليتتابع سجلّ الشهداء. (منه).

القرآن وجاءت بها السنّة. كانت مصابيحهم تتحطّم لكن شعلتهم لا تنطفئ، لتخلد الجهاد والاستشهاد والإرشاد بالمثل العالي الذي كانوه، والضوء الذي لم تمنع الموانع من انتشاره، وعلم فيه أبناء النبي أمته بعض علومه: أنّ الاستشهاد حياة، للمستشهدين وللأحياء جميعاً^١.

١. نقف عن السرد، عند أبيات لابن الرومي (٣٢١ - ٣٨٤) من جيميته في رثاء يحيى بن عمر بعد مقتله، إذ خرج على بني العباس في القرن الرابع من جرّاء ظلمهم:

أمامك فانظر أيّ نهجيك تنهج
أكلّ أوانٍ للنبي محمد
بني المصطفى كم يأكل الناس شلوكم
أبعد المسمّى بالحسين شهيدكم
أيحيى العلاء لهفي لذكراك لهفة
لمن تستجد الأرض بعبدك زينة
سلام وريحان وروح ورحمة
ألا أيّها المستبشرون بيومه
نظار لكم أن يرجع الحق راجع
غررتم إذا صدقتمو أن حالة
أبى الله إلا أن يطيبوا وتخشوا
لعلّ قلوباً قد أطلتم غليلها

طريقان شتّى: مستقيم وأعوج
قتيل زكيّ بالدماء مضرّج؟
لبلواكموا عمّا قليل مفرج
تضاء مصابيح السماء فتسرج؟
يباشر مكواها الفؤاد فينضج
فتصبح في أثوابها تتبرّج؟
عليك ومحدود من الظلّ سجسج
أظلمت عليكم غمّة لا تفرج
إلى أهله يوماً فتشجوا كما شجوا
تدوم لكم، والدهر لوان أخرج
وأن يسبقوا بالصالحات ويفلجوا
ستظفر منكم بالشفاء فتشج



الباب الثالث

إمام المسلمين

وفيه فصلان:

الفصل الأول: في المدينة المنورة

الفصل الثاني: إمام المسلمين

أنت يا جعفر فوق الـ
جاز حدّ المدح من
مدح والمدح عناء
قد ولدته الأنبياء
(عبد الله بن المبارك)

١. أورد البيهقي في بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢٦، ومناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ٣٩٧، ومستدرك سفينة البحار: ج ٥ ص ٤٨٦، وذكروا بيتاً بين هذين البيتين هو:
إنما الأشرف أرض ولهم أنت سماء

[مقَدِّمة]

قامت الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة، حيث طَبَّقَ الدين أكمل تطبيق، فلم تكن العاصمة المناسبة لدول ثلاثة أقامها أصحابها من أجل خلافة الدنيا لا خلافة الدين.

والمدينة هي المقرُّ الأمثل لأهل بيت الرسول، حيث يرتبطون بكلِّ أثر فيها، وترتبط بهم المعاني التي خلَّد بها الإسلام، وانتصر المسلمون.

والسنة هي الشجرة المباركة وفروعها، في ثمرها اليانع رحمة ويسر ومعرفة، وفي ظلها الوارفة مودة وإيلاف وتواصل، ومن هذه العناصر نتج الفكر الرفيع للمجتمع العظيم، يسقى من القرآن ويحيا به.

وبالقرآن والسنة، والفكر الرفيع، والفقهاء المحيط، اعتصم أهل البيت في المدينة، فاختصم وإياهم خلفاء الدول الثلاثة: الأموية والروانية والعباسية، وولاتهم على المدينة، لكنَّها ظلَّت مدرسة السنة والفقهاء، وتتابع فيها أئمة أهل البيت: زين العابدين، والباقر، والصادق.

والفصل الثاني من الباب الحالي مداره مجلس إمام المسلمين جعفر الصادق، وأمثال لما يجري فيه من أقوال، ومن يشرف بالانتهاء إليه من رجال، ليسوا كسائر الرجال، فهم أئمة الفكر الإسلامي جميعه، من سننٍ وفقهٍ، وزهدٍ وكلامٍ، وعلومٍ تطبيقية، منذ القرن الثاني للهجرة حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها.

الفصل الأول

في المدينة المنورة

«اللهم إن إبراهيم عبدك وخليك ونيك، وإنه دعاك لمكة، وإنني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه»^١.

ولي مروان بن الحكم إمرة المدينة لمعاوية سنة ٤٢، وكان مروان طلبة الشوار على عثمان، لو تسلّموه لما قتلوا الخليفة كما قيل، وكان مروان يبحث لنفسه في الفتنة عن مكان^٢، ومن أجل ذلك رمى معاوية المدينة به، أو رماء بها، من فور ولايته للسلطة، وهو ابن عمه وابن عم عثمان.

كان معاوية يصرفه عن الإمرة ثم يعيده، وآثر مروان وأهله الإقامة بالمدينة في الحالين على الذهاب إلى دمشق عاصمة بني أمية، حيث الصدارة لغيره، وحسن صلاته بأهل المدينة، فلمّا وقعت مجزرة كربلاء كانت عواطفه مع أهل بلده.

ثم أجاّته الرياح إلى حيث نصبه أهله خليفة سنة ٦٤، بعد اعتزال معاوية ابن يزيد، ثم خلف مروان ابنه عبد الملك لتبقي خلافته عشرين عاماً، من سنة ٦٦ إلى سنة ٨٦. وفي عبد الملك يقول عبد الله بن عمر: «إن لمروان ابناً فقيهاً فاسألوه»^٣ لكنّه بعد الخلافة صار ظلوماً غشوماً.

١. صحيح مسلم: ج ٢ ص ١٠٠٠ ح ١٣٧٣، صحيح الترمذي: ج ٥ ص ٤٧٢ ح ٤٧٢، كنز العمال: ج ١٢ ص ٢٤٥ ح ٣٤٨٨٢ وأحاديث غيره بالمضمون نفسه، تفسير ابن كثير: ج ١ ص ١٧٨.

٢. راجع تاريخ الطبري: أحداث سنة ٣٥ ص ٣٧٨-٤٤٢.

٣. تهذيب التهذيب: ج ٦ ص ٣٧٤، تهذيب الكمال: ج ١٨ ص ٤١٠، تاريخ بغداد: ج ١٠ ص ٣٨٩، المنتظم: ج ٦ ص ٣٩، تاريخ دمشق: ج ٣٧ ص ١٩، سير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٢٤٧.

أدخل عليه الأسرى ذات يوم، فأمر بضرب أعناقهم دون استجواب! فقال له رجل من أهل الشام كان يعرفه أيام تنسكه: لقد أقست الخلافة قلبك، وكنت رؤوفاً! فأجاب: كلاً، ولكن أقساه الضغن بعد الضغن.

كان يستنكر ضرب جيوش يزيد بن معاوية للكعبة سنة ٦٣ في حصار مكة، حتى إذا ولي الخلافة ضربها الحجاج له في سنة ٧٣!! ولما سئل الحسن البصري أن يقول قوله في عبد الملك بن مروان، أجاب: ماذا أقول في رجل الحجاج إحدى سيئاته!!^١ ولم يتمهد الملك لابنه الوليد^٢ إلا بعد عشرين عاماً من حكم عبد الملك. فلقد بويغ لابن الزبير بمكة سنة ٦٤ من أهل الحجاز والعراق ومصر، فدارت رحى الحرب، واستمرت بيعة العراق لابن الزبير حتى سنة ٧١ عندما قتل جند عبد الملك مصعب بن الزبير، وهدموا قصر الخلافة الزبيرية بالكوفة. وفي العام التالي استرجع «المدينة» لعبد الملك طارق بن عمر^٣، وفي سنة ٧٣ قتل عبد الله بن الزبير، واستسلم للحجاج أهل مكة.

وفي حياة الإمام جعفر كان على إمرة المدينة أبان بن عثمان^٤ حتى سنة ٨٢ حين عزل عبد الملك بهشام بن إسماعيل^٥ الذي ضرب سعيد بن المسيّب سنة ٨٥ من جزاء رفضه بيعة

١. تاريخ دمشق: ج ١٢ ص ١٨٠، البداية والنهاية: ج ٩ ص ١٥٦. وفي الأمالي للمرتضى: ج ١ ص ٢١١، روى بهذا المعنى: قال الحجاج للحطيط الخارجي: ما تقول في عبد الملك؟ قال: ما أقول في رجل أنت خطيئة من خطايا.

٢. الوليد بن عبد الملك بن مروان، أبو العباس، من ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد سنة ٤٨هـ، وولي بعد وفاة أبيه سنة ٨٦هـ، فوجه القواد لفتح البلاد، وكان ولوعاً بالبناء وال عمران، وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام، هدم مسجد المدينة والبيوت المحيطة به ثم بناه من جديد، وبنى المسجد الأقصى في القدس، وبنى مسجد دمشق الكبير، توفي بدير مروان في دمشق سنة ٩٦هـ. (الأعلام: ج ٨ ص ١٢١).

٣. طارق بن عمر، مولى عثمان، وهو الذي بعثه عبد الملك بن مروان لقتال ابن الزبير، ففضى على جميع جيوش ابن الزبير التي أرسلها لقتاله، حتى وصل الحال إلى أن أخرج عامل ابن الزبير عن المدينة، واشترك مع الحجاج في قصف مكة بالمنجنيق. (تاريخ ابن خلدون: ج ٣ ص ٣٧ بصرف).

٤. أبان بن عثمان بن عفان الأموي القرشي، أول من كتب في السيرة النبوية، ولد في المدينة وتوفي بها سنة ١٠٥هـ، شارك في وقعة الجمل مع عائشة، وتقدم عند خلفاء بني أمية، فولى إمارة المدينة سنة ٧٦هـ إلى ٨٣هـ، وكان من رواة الحديث. (الأعلام: ج ١ ص ٢٧).

٥. هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، والي المدينة، كان من أعيانها، وكانت بنته زوجة الخليفة عبد الملك، ولأه عبد الملك على المدينة سنة ٨٢هـ، ولما صارت الخلافة إلى هشام أمره: «أن أقم

الوليد وسليمان ابني عبد الملك، وطاف به في المدينة.

ثم عزل الوليد هشاماً بعمر بن عبد العزيز سنة ٨٧، وعمر زوج أخته وهو زوج أخت عمر، والأربعة حفدة مروان.

وأمر الوليد عمر أن يوقف هشاماً للناس أمام دار مروان، ولكلّ عنده مظلمة، فمرّ الناس به يلمزونه ويغمزونه، فصاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد متكأً. وكان هشام من كثرة ما أساء إلى علي بن الحسين زين العابدين يقول: ما أخاف إلا من علي زين العابدين، فلو أزرى به زين العابدين لحق عليه الدمار من العابدين ومن العامة، لكن زين العابدين ومواليه وخاصته مروا به لا يعترضون له بكلمة، فلما مروا وسلم هشام، صاح: الله يعلم حيث يجعل رسالته^١.

وردّ عمر بن عبد العزيز لأهل البيت فديكاً^٢، وكان النبي قد أعطاهها لفاطمة الزهراء، ولم يورثها أبو بكر وعمر لها^٣. فكان اجتهاد عمر بن عبد العزيز خلافاً في الفقه مع أبي بكر ومع جدّه عمر بن الخطاب.

ومنع عمر الشعار الأموي الآثم، وهو سبّ علي، وزاد إنصافاً فاستعاض عنه شعاراً تبدو فيه معاني التوبة النصوح والاستغفار من الذنوب، وهو الآية الكريمة^٤: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا

→ آل علي يشتمون علي بن أبي طالب...» وشاع الخبر في أهل المدينة، فبادر آل علي إلى كتابة وصاياهم استعداداً للموت. استمرّ في الإمارة إلى ٨٧ هـ حيث صرف عنها بعمر بن عبد العزيز، وإليه ينسب «المدّ الشامي» يريدون: الهشامي، وهو أكبر من المدّ الذي تكال به الكفار في عصر النبي ﷺ. (الأعلام: ج ٨ ص ٨٥).

١. أعيان الشيعة: ج ٤ ص ١٩٣، تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٢٨٤، تاريخ الطبري: ج ٦ ص ٤٢٨، الكامل لابن الأثير: ج ٤ ص ٥٢٦، الارشاد: ج ٢ ص ١٤٧، البحار: ج ٤٦ ص ٥٥، الطبقات لابن سعد: ج ٥ ص ٢٢٠.

٢. فديك: قرية بخيبر، وقيل بناحية الحجاز، فيها عين ونخل، أفاءها الله على نبيه...، وأن النبي جعلها في حياته لفاطمة (رض). (لسان العرب: ج ١٠ ص ٤٧٣). وفديك عند الشيعة لها معنى آخر غير الأرض، وهي عندهم بمعنى الخلافة كما بيّنها الإمام الكاظم في محضر هارون عندما سأله عن حدود فديك حتّى يردها إليهم، فقال: «من الصين إلى المغرب» أي: سعة دولة هارون آنذاك.

٣. راجع مسند أحمد: ج ١ ص ٦.

٤. راجع مروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ١٦٧، تاريخ اليعقوبي: ج ٣ ص ٢٨، الكامل لابن الأثير: ج ٧ ص ١٧، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ١٦١، وقيل: إنّه جعل مكانها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾ وقيل: إنّه جعلهما معاً. وعلى ذلك جماعة.

وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان^١. وكان معاوية قد استحدث نظام القصص ليشني القصاص على الخلفاء من بني أمية، ويزينوا للناس حالهم^٢، فأمرهم عمر أن يقتصروا الثناء على المؤمنين^٣.

وفي عمر يقول أحمد بن حنبل: «ليس أحد من التابعين قوله حجة، إلا عمر بن عبد العزيز» ويخاطبه كثير^٤ - وهو من شعراء الشيعة - بقوله:

وليت ولم تسبب علياً ولم تخف مريباً ولم تقبل مقالة مجرم
وصدقت بالقول الفعال مع الذي أتيت فأمسى راضياً كل مسلم^٥

وفي العام التالي لولاية عمر على المدينة حجّ الوليد، وبدا له أن يأمر بتوسعة المسجد، لتدخل فيه حجرات أمهات المؤمنين، وبيت علي الذي أذن له به النبي في حين ردم أبواب سائر الصحابة، فنصح الناس الخليفة أن يعود إلى مقرّ الملك في دمشق ويصدر أوامره منها بتوسيع المساجد عامة في مكة والمدينة وبيت المقدس، وأن يبني مسجداً بدمشق، وبهذا يتحقّق غرضه دون أن يلومه الناس، فرجع إلى دمشق وأصدر منها أوامره^٦.

وشقّ الأمر على أهل المدينة، وتظاهروا عليه طالبين ترك «الحجرات» كما تركها صاحب الشريعة، فأصرّ الوليد وأنفذ - لتنفيذ أمره - بعثة من العمال من بلاد الروم^٧.

قال حُبيّب بن عبد الله بن الزبير لعمر: نشدتك الله يا عمر أن تذهب بآية من آيات الله تقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَأَدُّونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^٨، وطعن في بني أمية، وبلغ

١. الحشر: ١٠.

٢. راجع: شرح نهج البلاغة: ج ٤ ص ٦٣، وضوء النبي: ج ١ ص ٢٥٦.

٣. تاريخ المدينة لابن شبة: ج ١ ص ١٥، والخطط والآثار للمقرزي: ج ٢ ص ٢٥٤.

٤. هو كثير بن عبد الرحمان بن الأسود الخزاعي؛ أبو صخر، شاعر متيم مشهور، من أهل المدينة، أكثر إقامته بمصر، يقال له: ابن أبي جمعة، وكثير عزة. قال المرزباني: كان شاعر أهل الحجاز في الاسلام، لا يقدمون عليه أحد، له أخبار كثيرة مع عزة بنت جميل الضمرية، وكان عفيفاً في حبه. توفي بالمدينة سنة ١٠٥ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ٢١٩).

٥. الكنى والألقاب: ج ٢ ص ٣٣.

٦. تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ٢٨٤.

٧. ذكر يعقوبي في تاريخ: ج ٢ ص ٢٨٤: «أن الوليد بعث الى ملك الروم ليعينه على بناء مسجد النبي، فبعث إليه بمائة ألف مثقال ذهباً، ومائة فاعل، وأربعين حملاً فسيفساء» نقلاً عن الواقدي.

٨. الحجرات: ٤.

خبره الوليد بدمشق فأمر بجلده، فجُلد^١، ومضى زمن ومات خبيب^٢. فكان عمر يقول كلما بشره بالجنة أحد: كيف! وخبيب على الطريق!^٣
وفي سنة ٩١ حجّ الوليد فزار المسجد، وخطب على منبر الرسول قاعداً في كبرياء! فنفر الفقهاء، وترضى السادات، فاستقرّ الفقراء^٤.
وكان عمر يؤوي بالمدينة من يتهدّدهم بطش الحجاج في العراق، لكن الوليد ولى الحجاج على الحجّ سنة ٩٢، فاستعفاه عمر من مرور الطاغية بمدينة الرسول، فقبل.



ولم يكن عدل عمر مانعاً، بل ربّما صار مقتضياً أن يعزله الوليد بعثمان بن حيان المري^٥ سنة ٩٣، فأنزّل الوالي الجديد النكال بالعلماء، ومنهم: ناسك المدينة محمد بن المنكدر^٦ فقيه بني تميم قبيلة أبي بكر وأحوال جعفر الصادق، وقذف أهل المدينة من فوق المنبر بقوله: أيها الناس، إنا وجدناكم أهل غشّ لأمر المؤمنين في قديم الدهر وحديثه^٧.

١. كتب الوليد التي عمر وهو على المدينة أن يضرب خبيب بن عبد الله، فضربه أسواطاً، فأقامه فمات. راجع التاريخ الكبير: ج ٢ ص ٢٠٨.

٢. تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٢٨٤.

٣. قال المنصور العباسي بحق عمر بن عبد العزيز: «زعمتم أنه كان ناسكاً ورعاً تقياً، فكيف وقد جلد خبيب بن عبد الله بن الزبير مائة جلدة، وصبّ على رأسه جرة من ماء بارد في يوم شاتٍ، حتى كزّ فمات. فما أقرّ بدمه، ولا خرج الي وليّه من حقّه.....» (شرح النهج: ج ١٥ ص ٢٥٤).

٤. تاريخ الطبري: ج ٥ ص ٢٤٥، وقيل: إنّ أول من سنّ الخطبة قعوداً هو معاوية بن أبي سفيان. قال ابن حجر: ج ٢ ص ٤٧ عن الشعبي: «إنّ معاوية إنّما خطب قاعداً لما كثر شحم بطنه ولحمه».

وروى أحمد في مسنده: ج ٥ ص ٩٧ بسنده عن جابر بن سمرة: «من حدّثك أنّ رسول الله ﷺ خطب قاعداً فلا تصدّقه». وكذا النسائي في سننه: ج ٣ ص ١٩١، والمصنّف للصنعاني: ج ٣ ص ١٨٧.

٥. عثمان بن حيان المري، قيل في صفته: إنّهُ رجل أمر أصحاب السبال، وهو الذي قضى على الفرقة البيهسية من الخوارج سنة ٩٤ هـ، ولي المدينة للوليد وعزله سليمان. روى الحديث عن مولاته أم الدرداء، وروى عنه جماعة منهم عبد الرحمان بن يزيد وهشام بن سعد، كان جائرأ في ولايته. (تاريخ مدينة دمشق: ج ٣٨ ص ٣٤٧، ومن له رواية في كتب السنّة للذهبي: ج ٢ ص ٦).

٦. محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير، زاهد، من رجال الحديث، من أهل المدينة، أدرك بعض الصحابة وروى عنهم، له نحو مائتي حديث، قال ابن عيينة: ابن المنكدر من معادن الصدق، ولد ٥٤ هـ، وتوفّي سنة ١٣٠ هـ (الأعلام: ج ٧ ص ١١٢).

٧. تاريخ دمشق: ج ٣٨ ص ٣٤٤.

وامتدّت يد البطش إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري^١ (وجده عمرو عامل الرسول)، فأمر بخلق لحيته لولا أن عزل الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك عثمان بأبي بكر ذاته سنة ٢٩٦، وبقي أبو بكر أميراً على المدينة حتى سنة ١٠١، واجتمع له القضاء والإمرة عليها في خلافة عمر بن عبد العزيز. ولمّا عزله يزيد بن عبد الملك^٣ بعد وفاة عمر بعبد الرحمان بن الضحّاك ابن قيس^٤، عدّب الوالي الجديد أبا بكر^٥. فلمّا عُزل عبد الرحمان سنة ١٠٤، حاقت البأساء والضراء بعبد الرحمان، حتى صار يلتمس الصدقة من سوء حاله^٦. وفي سنة ١٠٦ تولّى إبراهيم^٧ بن هشام بن إسماعيل، وهو خال الخليفة هشام ابن عبد الملك، فبقي إبراهيم والياً إلى سنة ١١٤، ثم عُزل بخالد^٨ بن عبد الملك بن الحارث بن أبي العاص، فبقيت له الإمرة حتى سنة ١١٨.

١. قال ابن حجر في التّريب: أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري النجاري المدني القاضي، اسمه وكنيته واحد، وقيل: إنّه يكنى أبا محمد، ثقة، عابد، مات سنة ١٢٠. وقيل: إنّه راوي حديث الإسراء (مرآة الكتب للتبريزي: ص ٤٧).

٢. تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ٢٩٤.

٣. يزيد بن عبد الملك بن مروان: أبو خالد، من ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد في دمشق سنة ٧١هـ، وولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١هـ، كانت في أيامه غزوات، كان عنده انصراف إلى اللذات، مات في الاردن سنة ١٠٥هـ بعد وفاة جاريته حبّابة التي كان لها الأثر في التولية والعزل. (الأعلام: ج ٨ ص ١٨٥).

٤. عبد الرحمان بن الضحّاك، كان عاملاً على الحجاز منذ أيام عمر بن عبد العزيز، وأقام عليها ثلاث سنين، ثم حدّثه نفسه خطبة فاطمة بنت الحسين، فامتعت، فهدّدها بأن يجلد ابنها عبد الله بن الحسن في الخمر، فاشتكت إلى الخليفة يزيد، فجعل الخليفة ينكث الأرض بخيزرانه ويقول: هل من رجل يسمعي صوته في العذاب، فقيل له: عبد الواحد بن عبد الله القسري، فعذّبه وغرّمه، ولقي منه شراً، حتى أنّه لبس جبّة صوف وأخذ يسأل الناس! (تاريخ ابن خلدون: ج ٣ ص ٨٤).

٥. تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ٣١٢.

٦. تاريخ ابن خلدون: ج ٣ ص ٨٤.

٧. إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي القرشي، أمير المدينة المنورة، وخال هشام بن عبد الملك، اشتهر بشدّته. ولي مكّة والمدينة والطائف سنة ١٠٧هـ، وكثرت شكوى آل الزبير وغيرهم منه، فعزله هشام سنة ١١٥هـ. وانتطعت بعدها أخباره. (الأعلام: ج ١ ص ٧٨).

٨. هو خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص، استعمله هشام على المدينة، وكان يؤذي بقوله علي بن أبي طالب من علي المنبر، حتى أنّه اشتهر في ذلك (تاريخ مدينة دمشق: ج ١٦ ص ١٧٠).

وخطب خالد على منبر الرسول، فانتقص أولاد الرسول وأباهم علياً! فقام إليه داود بن قيس^١ فبرك على ركبتيه وقال: كذبت كذبت، حتى حيل بينهما^٢. ثم عُزل بمحمد بن هشام بن إسماعيل^٣ أخي إبراهيم، فبقي حتى سنة ١٢٥.

وكما ولي محمد وإبراهيم ابنا هشام؛ لخولتهما لهشام بن عبد الملك، ولي الوليد^٤ بن يزيد إمرة المدينة خاله محمد^٥ بن يوسف الثقفي، وأمره أن يعدّيهما^٦. وأن يقيمهما للناس، وأن يبعث بهما إلى والي العراق^٧ ليذيقهما الهوان حتى يموتا من العذاب، ففعل، وبقي حتى سنة ١٢٦، فعزل بعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز^٨ ليبقي ثلاث سنوات حتى سنة ١٢٩، فيحلّ

١. داود بن قيس الغراء الدباغ؛ أبو سليمان القرشي المدني، مولاها، ثقة فاضل، مات في خلافة أبي جعفر.

(تقريب التهذيب: ج ١ ص ٢٨٢).

٢. تاريخ دمشق: ج ١٦ ص ١٧٢.

٣. هو محمد بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وهو خال عبد الملك بن مروان، ولي لهشام سنة ١١٥ هـ مكة والمدينة، كان رجلاً متعاضماً، ويحكى عنه في العنف أخبار صعبة، وقد نqm عليه ذلك الوليد بن يزيد، فلما ولي الخلافة بعد عمه هشام كتب إلى يوسف بن عمر، فقبض على محمد هذا وعلى أخيه إبراهيم فعذبهما حتى ماتا سنة ١٢٥ هـ. (تهذيب التهذيب: ج ٩ ص ٤٣٧).

٤. الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، أبو العباس، من ملوك الدولة المروانية، وكان من فتيان بني أمية وظرفائهم، يُعاب بالانهماك في اللهو وسماع الغناء، له شعر رقيق وعلم بالموسيقى.

قال السيد المرتضى: كان مشهوراً بالإلحاد، متظاهراً بالعناد. ولي الخلافة سنة ١٢٥، نqm الناس عليه للهوه، فبايعوا سرّاً ليزيد بن الوليد بن عبد الملك، فتدأى بخلع الوليد، وكان غائباً في (الاعغد) فسار إليه جمع من أصحاب يزيد فقتلوه سنة ١٢٦ هـ. (الأعلام: ج ٨ ص ١٢٣).

٥. المقصود هو يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي، وهو أحد ممن تولوا أمر مكة من غير الأشراف، وهو ابن أخي الحجاج، ولأه الوليد إمارة مكة والمدينة والطائف سنة ١٢٥ هـ، ودامت ولايته إلى انقضاء دولة الوليد سنة ١٢٦ هـ. (الأعلام: ج ٨ ص ٢٤٦) ولعلّه من سقط المطبعة وهفواتها.

٦. تهذيب التهذيب: ج ٩ ص ٤٣٧.

٧. هو يوسف بن عمر على ما رواه تهذيب التهذيب: ج ٩ ص ٤٣٧، والبداية والنهاية: ج ١٠ ص ٦.

٨. عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي، أمير من سكان المدينة، ولأه يزيد بن الوليد إمارة مكة والمدينة سنة ١٢٦ هـ، وأقرّه مروان بن محمد، ثم عزله بعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك. توفي بعد سنة ١٤٧ هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ٢٣).

محله عبد الواحد^١ بن سليمان بن عبد الملك^٢.

وفي ولاية عبد الواحد كانت شمس بني أمية في الغروب، لقد طرد الحارث بن سريح^٣ عاملهم نصر بن سيار^٤ من أقصى الشرق في مرو، وأقبل أبو حمزة «الخارجي»^٥ يخرجهم من قلب الإسلام في المدينة سنة ١٣٠ بعد وقعة قُديد^٦، وفيها قُتل من أهل المدينة خلق

١. عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، أمير مرواني أموي، ولي إمرة مكة والمدينة سنة ١٢٩ هـ لمروان بن محمد، وله خبر مع الحرورية أيام فتنة أبي حمزة (المختار بن عوف) بمكة، وفرّ منهم عبد الواحد إلى المدينة، فعيّره أحد الشعراء بأبيات منها:

ترك الإمارة والحلالل هارباً ومضى يخبط كالبعير الشارد

ولما ظفر العباسيون بالأمويين كان عبد الواحد في جملة من قتلهم صالح بن علي العباسي سنة ١٣ هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ١٧٦).

٢. تاريخ خليفة بن خياط: ص ٣٢٨.

٣. الحارث بن سريح التميمي، نائر من الأبطال كان من سكان خراسان، وخرج على أميرها سنة ١١٦ هـ، فليس السواد خالماً طاعة بني مروان (والخليفة يومئذ هشام) داعياً إلى الكتاب والسنة والبيعة للرضي، وسار إلى الفارياب، ومنها إلى بلخ، فقاتله أميرها، فهزمه الحارث ودخلها، واستولى على الجوزجان وطالقان ومرو الروز، وعظم أمره، ثم انهزم جيشه على أبواب مرو، وأرسل إليه أمير خراسان نصر بن سيار رسلاً، فحملوا إليه أسان يزيد بن الوليد، فعاد وردّ عليه جميع ماله، وطلب منه أن يوليّه، فرفض وقال: إنّه ليس من أهل الدنيا، ثم قتلوه سنة ١٢٨ هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ١٥٤).

٤. نصر بن سيار بن رافع بن حري بن ربيعة الكناني، أمير من الدهاة الشجعان، كان شيخ مضر بخراسان ووالي بلخ، غزا ما وراء النهر ففتح حصوناً وغنم مغانم، قويت الدعوة العباسية في أيامه، فكتب إلى بني مروان بالشام يحذّره، فصر يدير الأمور إلى أن ظهر أبو مسلم الخراساني، فخرج نصر من مرو، وأخذ يتنقل بين البلدان يطلب النجدة، إلى أن مرض ومات بساوة سنة ١٣١ هـ. (الأعلام: ج ٨ ص ٢٣).

٥. هو المختار بن عوف بن سليمان بن مالك الأزدي السلمي البصري، أبو حمزة، نائر فاتك، من الخطباء القادة، أخذ بمذهب الإباضية، كان في كل سنة يوافي مكة يدعو الناس إلى الخروج على مروان بن محمد، ولم يزل كذلك إلى أن التقى بطالب الحقّ عبد الله بن يحيى سنة ١٢٨، فذهب معه إلى حضرموت وبايعه بالخلافة، وهو صاحب وقعة «قُديد» التي قُتل فيها نحواً من سبعمائة، أكثرهم من قریش، ثم توجه إلى الشام والتقى مع جيش الشام، فانهزم أصحابه، فدخل مكة، وتبعهم جيش الشام، فكانت وقعة انتهت بمقتل أبي حمزة سنة ١٣٠ هـ. (الأعلام: ج ٧ ص ١٩٢).

٦. قُديد - بالتصغير -: موضع قرب مكة، وفيه كانت وقعة بين جيش مروان بن محمد الأموي سنة ١٣٠ هـ وبين جيش عبد الله بن يحيى الكندي، وكان مستغلباً على اليمن، قتل فيها خلق كثير، حتّى قيل: إنّه ما سمع بواكي أوجع للقلوب من بواكي قُديد، ما بقي بالمدينة أهل بيت إلا وفيهم بكّي. (تاريخ خليفة: ص ٣١٦).

كثير، وهرب عبد الواحد.

وسفر إلى أبي حمزة - وهو على أبواب المدينة - السفراء: شيخ بني هاشم عبد الله بن الحسن، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان؛ وكان محسوباً مع بني هاشم لما يجمعه بهم من رحم، وعبد الرحمان^١ بن القاسم بن محمد بن أبي بكر خال الإمام جعفر، وعبد الله بن عمر بن .. عمر، ومعهم ربيعة الرأي^٢ شيخ مالك بن أنس في رجال آخرين، فعامل أبو حمزة الوفد معاملة الخوارج للصحابة: عبس وبسر في وجه الأولين حفيدي علي وعثمان، وبشر في وجه الثالث والرابع حفيدي الشيخين: أبي بكر وعمر، وقال لهما: والله ما جئنا إلا لنسير بسيرة أبيكما. قال شيخ بني هاشم: والله ما جئناك لتفضل بين آبائنا، ولكن بعثنا إليك الأمير برسالة، وهذا ربيعة يخبرك بها...^٣.

أقام أبو حمزة بالمدينة ثلاثة أشهر، ثم خرج لقتال جند الشام فانهزم.

ثم جاءت دولة بني العباس، وتولّى إمرة المدينة للسفاح عمه داود بن علي^٤، فقام فخطب فقال: أيها الناس أغرّمكم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال؟! والسيف مشهور^٥:
 حتى يبيد قبيلة فقييلة ويعضّ كلّ مثقف بالهام
 ويقمن ربّات الخدور حواسراً يمسحن عرض ذوائب الأيتام!
 لكنّ الله عاجله بعد ثلاثة أشهر فلقني حتفه، وولي بعده زياد بن عبد الله بن المدان خال

١. عبد الرحمان بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق التيمي القرشي؛ أبو محمد، من سادات أهل المدينة فقهاً وعلماً وديانةً وحفظاً للحديث وإتقاناً. توفّي في الشام سنة ١٢٦ هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ٣٢٢).

٢. هو ربيعة بن فروخ التيمي بالولاء، المدني، إمام حافظ فقيه مجتهد، كان بصيراً بالرأي فلُقّب بربيعة الرأي، وكان من الأجواد. فقد أنفق على إخوانه أربعين ألف دينار، ولما قدم السفاح المدينة أمر له بمال فلم يقبله. قال ابن الماجشون: ما رأيت أحداً أحفظ للسنة من ربيعة. وكان صاحب الفتوى بالمدينة، وبه تفقه مالك. توفّي بالهاشمية من أرض الأنبار سنة ١٣٦ هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ١٧).

٣. تاريخ الطبري: ج ٦ ص ٤٢.

٤. داود بن علي بن عبد الله بن العباس، عم السفاح، كان خطيباً فصيحاً، من كبار القائمين بالثورة على بني أمية، ولّاه السفاح إمارة الكوفة، ثم عزله عنها وولّاه المدينة ومكة واليمن واليمامة والطائف، وهو أول من ولي المدينة لبني العباس. ولد سنة ٨١ هـ، وتوفّي سنة ١٣٣ هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ٣٣٣).

٥. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ج ١ ص ١٢٩، أولاد الإمام الباقر السيد الزرباطي: ص ٥٣.

السَّقَاحُ^١

وأحاط السَّقَاحُ ببني أمية، دعاهم ومنحهم الأمان، حتَّى إذا اجتمعوا به أعمل رجاله السيوف فيهم، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً، وفي سنة ١٣٣ قتل عمّاله من أشياعهم ثلاثين ألفاً بالشام.

واستدعى عبد الله بن علي^٢ - أخو داود، وقائد جيش الشام - الإمام الأوزاعي^٣ إمام الشام إلى عسكره فسأله: ما تقول في بني أمية؟ قال: لقد كانت بينك وبينهم عهود، وكان ينبغي أن تفوا بها، قال: ويحك، اجعلني وإياهم لا عهد بيننا. يقول الأوزاعي: فأجهشت نفسي وكرهت القتل، فذكرت مقامي بين يدي الله فقلت: دماؤهم عليك حرام، فانتفخت عيناه وأوداجه وقال: ويحك لم؟ قلت: قال رسول الله: «لا يحل دم امرئ مسلمٍ إلا بثلاث: ثيب زانٍ، ونفس بنفس، وتارك دينه» قال: ويحك أو ليس الأمر لنا ديانة؟ أليس رسول الله ﷺ قد أوصى لعلي؟ فسكتُ، وجعلت أتوقّع رأسي يسقط... وقال: أخرجوه، فخرّجتُ^٤. وروى عبد الله بن علي رماحه من الدم بما لم يسمع التاريخ بمثله! حتَّى إذا ولي أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨) عزل زياد بن عبد الله بن المدان^٥ عن المدينة بمحمد بن خالد القسري، وأمر بحمل زياد بن عبد الله إلى العراق مكبلاً بالحديد.

ثم عزل محمد بن خالد^٦ ووَلَّى مكانه رباح بن عثمان بن حيان سنة ١٤١ هـ. وهو ابن عم

١. هو زياد بن عبيد الله بن عبد الله (أو عبد الدار) بن عبد المدان بن الديان الحارثي الكوفي، خال السَّقَاح وعامله

على المدينة والطائف من سنة ١٣٣ هـ إلى وفاته. راجع أمالي المرتضى: ج ١ ص ٩٩.

٢. تقدّمت ترجمته.

٣. هو عبد الرحمان بن عمرو بن يحمّد الأوزاعي، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسلين، ولد في بعلبك سنة ٨٨ هـ، وتوفّي بها سنة ١٥٧ هـ، وعرض عليه القضاء فامتنع. قال صالح بن يحيى: كان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام، وكان أمره فيهم أعزّ من أمر السلطان، له كتاب «السنن» في الفقه، وكانت الفتيا في الأندلس تدور على رأيه. (الأعلام: ج ٣ ص ٣٢٠).

٤. تذكرة الحفاظ للذهبي: ج ١ ص ١٨١، سير أعلام النبلاء: ج ٧ ص ١٢٩.

٥. الصحيح هو زياد بن عبيد الله بن عبد المدان كما ذكرناه سابقاً.

٦. قيل في سبب عزله: إنّه كان يعلم مكان أولاد الحسن ولم يخبر الخليفة بهما. (تاريخ دمشق: ج ٢٧ ص ٣٨٨).

٧. راجع سير أعلام النبلاء: ج ٦ ص ٢١٢، والبيداية والنهاية: ج ١٠ ص ٨٦. لكن قال العسفرى في تاريخ خليفة، وابن خلدون في تاريخه: إنّ ذلك كان سنة ١٤٤ هـ، وهو ما ذكره المصنّف سابقاً.

مسلم بن عقبة^١ الذي يسميه البعض: مجرم بن عقبة، فهو قائد الجيش الذي دمر المدينة وارتكب الفظائع في معركة الحرّة سنة ٦٣، ففاخر الناس بنقائضه قال: أنا الأفعى بن الأفعى، أنا ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم ابن عقبة المبيد خضراءكم، المفني رجالكم^٢! فوثب عليه الناس فحصبوه بالحصى ورموه بالحجارة^٣.

وفي إمرته اقتحم الجند منازل أهل البيت، فأخرجوا منها رجالهم إلى السجون، ومّرت مواكب أهل البيت في شوارع المدينة وهم في الأصفاد، هزلهم العذاب والأيام الشداد، ثم سيقوا إلى الكوفة، ليودعوا السجن حيث حُبسوا^٤ - كما يقول المسعودي في مروج الذهب - في سرداب تحت الأرض، لا يعرفون الليل من النهار، حتّى مات أكثرهم، ثم خرّ عليهم ليموت تحت أنقاضه الأحياء منهم، ويدفن الذين سبقوهم إلى الموت دون أن يعني بهم أحد! وبقي رباح حتّى خرج محمد بن عبد الله (النفوس الزكية) على المنصور وقبض الخارجون على رباح وأدخلوه سجن المدينة هو وأخاه.

ولما انتهت الحرب عيّن المنصور على المدينة عبد بن الربيع الحارثي^٥ فبقي حتّى سنة ١٤٧ ثم عُزل^٦. فولّى مكانه جعفر^٧ بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، فبقي والياً حتّى سنة ١٤٩، وهو الذي أمر بضرب مالك بن أنس حتّى انخلعت كتفه وطافوا به في المدينة^٨.

١. مسلم بن عقبة بن رباح المري، قائد من الدهاة القساء في العصر الأموي، أدرك النبي وشهد صفين مع معاوية، وكان فيها على الرجال، وقُلت بها عينه، ولأه يزيد قيادة الجيش الذي استباح فيه المدينة في وقعة الحرّة، فسماه أهل الحجاز مسرفاً، ثم تحرك بالجيش لقتال ابن الزبير في مكة، فمات في الطريق سنة ٦٣ هـ. ثم نبش قبره وُصلب في مكان دفنه. (الأعلام: ج ٧ ص ٢٢٢).

٢. تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ٣٧٥.

٣. سير أعلام النبلاء: ج ٦ ص ٢١٣.

٤. سير أعلام النبلاء: ج ٦ ص ٢١٣.

٥. تاريخ ابن خلدون: ج ٣ ص ٢٠١.

٦. ذكر العصفري في تاريخ خليفة: ص ٣٤٨: أنه عزله سنة ١٤٦ هـ.

٧. بل هو جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي، ولي المدينة للمنصور، والبصرة للرشيد، مات عن ثلاثة وأربعين ذكراً وخمس وثلاثين امرأة، كلهم من صلبه. (شرح النهج: ج ١٥ ص ٢٤٥).

٨. الإحكام لابن حزم: ج ٥ ص ٦٦٩. وقيل: إن الذي ضربه هو سليمان بن جعفر بن سليمان.. ضربه سبعين سوطاً. راجع الأنساب للسمعاني: ج ١ ص ١٧٤.

وفي ولاية جعفر بن سليمان مات الإمام الصادق^١.

بهذه الوجازة العجلى لأمر الولاة في نحو قرنٍ من الحكم الأموي والرواني والعباسي للمدينة، عاش فيه الإمام الصادق، تتكشف أمور حسبنا أن ننبه على بعضها الآن:

(١) في حكم بني مروان، لم يكن لأهل البيت - بخاصة - مشكلة مع الدولة، وإنما كانت المشكلة لأهل المدينة عامة مع العاصمة. أما خروج زيد بن علي زين العابدين سنة ١٢١ وابنه يحيى سنة ١٢٥ فكان في أواخر أيام بني مروان، وكذلك كان خروج عبد الله^٣ بن معاوية بن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧، بعد عامين من استشهاد يحيى بن زيد. ولقد سلم عبد الله نفسه لأبي مسلم الخراساني بعد أن انهزم نصر بن سيار والي خراسان لبني مروان، فقتل أبو مسلم عليه بعد أن استسلم.

بهذا يمكن القول: إن زين العابدين وابنه محمداً الباقر عاشا أكثر من نصف قرن في سلام مع السلطة، وبهذا السلام تبوء آ الذروة من الاحترام والطمأنينة اللذين يمهدان للعلم أن ينتشر، وللقدوة الصالحة أن يشيع هداها، كالشعاع ينشر النور في المدينة، ويحمل الدفء إلى الأفئدة الوافدة من شتى الأقطار.

(٢) كان الأمراء على المدينة: إما أقرباء للخلفاء في دمشق والأنبار والكوفة، وإما صنائع

١. في شوال سنة ١٤٨ هـ، وكان عمره الشريف آنذاك خمساً وستين سنة. (منتهى الآمال: ج ٢ ص ١٤٣).

٢. ادعى خالد بن عبد الله القسري مالا قبيل زيد وأبناء الصحابة، فدعاهم الخليفة هشام بن عبد الملك إلى العاصمة وسألهم، فأنكروا مزاعمه، فأعادهم إلى واليه على العراق يوسف بن عمر ليستحلهم - وقيل: إن هشاماً لم يرد السلام على زيد، فأغظ له زيد في الكلام. وكان زيد في الذروة من فقهاء العصر - ولما رجعوا إلى الكوفة استحلهم يوسف فحلوا، لكنه أبقاهم محبوسين في انتظار رأي هشام، فأمره بإخلاء سبيلهم، فخرج زيد من الحبس قاصداً القادسية، واجتمع إليه شيعة الكوفة، وطلبوا إليه الخروج على الخليفة، وتعدوا بنصره، فخرج إليهم، فجمعوا له أربعة آلاف رجل. ثم انفضوا من حوله، فحارب حرب الأبطال حتى استشهد سنة ١٢١ هـ، فكان منهم معه ما كان من آبائهم مع جده، أي «فعلوها حسينية» كما قال. ثم خرج ابنه يحيى فقتل سنة ١٢٥ هـ. (منه).

٣. عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، من شجعان الطالبين وأجوادهم وشعرائهم، طلب الخلافة في أواخر الدولة الأموية (١٢٧ هـ) بالكوفة، وبايع له بعض أهلها، وخلعوا طاعة بني مروان، وأتته بيعة المدائن، ثم قاتله عبد الله بن عمر والي الكوفة، فتفرق عنه أصحابه سنة ١٢٨ هـ، فخرج إلى المدائن ولحق به جماعته، واستفحل أمره، فسير له ابن هبيرة الجيوش لقتاله، فصر حتى انهزم أصحابه ثم فر إلى هراة، فقتله عاملها حتفاً بأمر أبي مسلم الخراساني. (الأعلام: ج ٤ ص ١٣٩).

لهم. لكنهم كانوا - عدا عمر بن عبد العزيز - مستضعفين من الجميع، يُعزلون ويُقامون للناس؛ ليتخذوهم سخرياً أو ينكلوا بهم.

وفي أواخر أيام بني مروان سخر الناس منهم علانيةً، واشتجروا معهم إذا مسوا أمير المؤمنين علياً بسوء.

وكان عبد الملك قد أوصى عامله على المدينة بقوله: «جئني دماء بني هاشم، فإني رأيت آل حرب لئنا تهجموا عليهم لم يُنصروا»^١ وهو الباطش، الذي تولّى له بالعراق: الحجاج، وبخراسان: المهلب بن أبي صفرة، وبمصر: هشام بن إسماعيل وابنه عبد الله، وباليمن: محمد أخو الحجاج، وبالجزيرة: محمد بن مروان (أخو عبد الملك). وكلٌّ من هؤلاء ظالم فاتك.

ولمّا سُئل عبد الله بن المبارك: أبو مسلم خير أم الحجاج؟ أجاب: لا أقول أبو مسلم خير من أحدٍ، لكنّ الحجاج شرٌّ منه^٢.

(٣) أمّا في عهد العباسيين - أبناء العمومة - فقد هبّت عليّ بني علي ربيع صرصر، من الطغيان المدمّر، لتنزل بهم وبأحفاد الصحابة والتابعين الفرع الأكبر، كهيئة ما صنع بنو أمية في كربلاء والحرّة، وطبائع الطغيان واحدة.

أهل المدينة

غاضبت دمشق العراق والحجاز أيام صيرها معاوية حاضرة بني أمية، وتابعت عليّ ذلك دولة بني مروان، لكنّ المدينة بلدة طيبة وشعب كريم، وثبت أهلها بالأمويين بعد كربلاء، ثم تركوهم يجلبون عنها، عليّ موثق من أهلها، ألاّ يدلّوا جند يزيد عليّ عوراتها، وجلا الأمويون إلى الشام إلاّ زوج مروان بن الحكم: عائشة بنت عثمان بن عفّان، توجّهت إلى الطائف في حماية عليّ زين العابدين^٣.

والمدينة واحة في قفر، والرزق نزر في الصحاري الساخنة، إلاّ ما يرد إلى الناس من

١. الصراط المستقيم: ج ٢ ص ١٨٠، الفصول المهمة: ص ١٨٥.

٢. لسان الميزان: ج ٣ ص ٤٣٧.

٣. أيام العرب في الاسلام: ص ٤٢٤، جهاد الامام السجاد: ص ٦٩، الكامل في التاريخ: ج ٤ ص ١١٣، أعيان

الشيعة: ج ٤ ص ١٩٣.

تجارة أو عطاء متقطع كسحائب الصحراء، يجري ويجفّ، حسب الشهوات في دمشق. وأهل البيت تجبئهم حقوقهم في بيت المال أو لا تجي، لكنهم ينفقون المال خفيةً وعلانيةً ولو كان بهم خصاصة.

فعلي زين العابدين مصدر من مصادر الرزق المجهولة للناس، لا يُعرف إلا بعد أن يموت، فيتفقّد الناس المصدر فيعرفونه^١. وكذلك أبناؤه، يتزعمهم الباقر، وهو القائل: «إن استطعت ألا تقابل أحداً إلا ولك الفضل عليه، فافعل»^٢.

أمّا ابن عمهم عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فكان وثيق العرى بالخلفاء، سأله يزيد بن معاوية يوماً: كم عطاؤك؟ قال: ألف ألف درهم، قال يزيد: قد أضعفناها لك. قال ابن جعفر: فذاك أبي وأمي، وما قلتها لأحدٍ قبلك! فضاعف يزيد عطاءه مرّةً ثانية. ولما خرج عبد الله من المجلس، قال جلساء يزيد: تعطي رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف درهم! قال: ويحكم، إنّي أعطيتها أهل المدينة أجمعين، فما يده فيها إلا عارية^٣.

والحق: أن الفقراء كان لهم في أمواله حقّ معلوم، فكانوا يستدينون في انتظار ورود عطاء عبد الله بن جعفر من العاصمة.

وكان الخلفاء يحجرون على شباب قريش أن يبرحوا الحجاز إلا بإذن، فأمسى سجناً واسعاً لمن فيه منهم، وازداد أهله انزعالاً وارتباطاً، فتراحموا وتصاهروا، لتصير المدينة مجتمعاً مقطوع القرين، نرى فيه: سكينه بنت الحسين^٤ يبني بها^٥ مصعب بن الزبير، ثم يبني

١. في الخصال بسنده عن الباقر عليه السلام: «كان علي بن الحسين عليه السلام يخرج في الليلة الظلماء، فيحمل الجراب على ظهره وفيه الصرر من الدنانير والدراهم، وربما حمل على ظهره الطعام أو الحطب، حتّى يأتي باباً باباً فيقرعه ثم يناول من يخرج إليه، وكان يغطّي وجهه إذا ناول فقيراً لئلا يعرفه، فلما توفي فقدوا ذلك، فعلموا أنه كان علي بن الحسين. (أعيان الشيعة: ج ٤ ص ١٩٤).

٢. تحف العقول: ص ٢٩٣، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ١٧٢.

٣. كتاب المنقّ لمحمد بن حبيب البغدادي: ص ٣٧٧، رسائل الجاحظ: ص ٨٨ بتغيير طفيف بالعبارات.

٤. هي سكينه بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، أمها الرباب بنت أمري القيس، قال فيها سيّد الشهداء أبو عبد الله عليه السلام: «وأما سكينه فعالب عليها الاستغراق مع الله تعالى، فلا تصلح لرجل» وذلك عندما خطبها ابن عمها الحسن المثنى. (إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار: ص ٢٠٢).

٥. ذكر جملة من الأعلام أن زوج سكينه هو عبد الله الأكبر ابن الإمام الحسن المجتبي، استشهد يوم الطفّ منهم: أبو الحسن العمري في القرن السادس في كتابه «المجدي»، وأبو علي الطبرسي في إعلام الوري: ص ١٢٧،

بضرة لها عائشة بنت طلحة^١، أي أطراف يوم الجمل تجتمع في بيت واحد.
واليك أطرافاً أخرى في أختها فاطمة^٢: ولدتها أم إسحاق بنت طلحة^٣، وتزوجها عبد
الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، ويُرزقان محمداً^٥، وله بنت من خديجة بنت عثمان بن
عروة بن الزبير تُدعى حفصة^٦، وأم عروة أسماء بنت أبي بكر. فهؤلاء: رسول الله، وخمسة
من العشرة المبشرين بالجنة علي وأبو بكر وعثمان وطلحة والزبير، يجتمعون في حفصة!
أما الإمام جعفر الصادق فأية من الآيات:

جدّه لأبيه: زين العابدين، وزين العابدين وسالم بن عبد الله بن عمر والقاسم بن محمد بن
أبي بكر أولاد خالات ثلاثة، هنّ بنات كسرى يزدرجرد^٧.

وأبوه الباقر، ولدته زين العابدين بنت عمه فاطمة بنت الحسن.
وأمه: أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وقد تزوج أمير المؤمنين علي أم

→ ومحمد الصبان في إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار للشبلنجي: ص ٢٠٢، وأبو الفرج في الأغاني: ج ٤

ص ١٦٣، وابن حبيب في المحبر: ص ٤٢٨، والمدائني في المترادفات: ص ٦٤.

١. عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، أديبة، عالمة بأخبار العرب، فصيحة. أمها أم كلثوم بنت أبي بكر، كانت لا تستر
وجها، فعاتبها زوجها مصعب في ذلك فقالت: «إن الله قد وسمني بميسم جمال، أحببت أن يراه الناس، فما كنت
لاستره، ووالله ما في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحدا!» أخبارها مع الشعراء كثيرة، ولعمر بن أبي ربيعة غزل بها.
توفيت سنة ١٠١ هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ٢٤٠).

٢. فاطمة بنت الحسين بن علي عليه السلام تابعة من راويات الحديث، روت عن جدتها الزهراء مرسلأ، وعن أبيها
وغيرهما. لمّا قُتل أبوها حُمِلت سبيّة إلى الشام، ولدت سنة ٤٠ هـ، وتوفيت سنة ١١٠ هـ. (الأعلام: ج ٥
ص ١٣٠) قال عنها أبوها: «فاطمة هي أكثر شهباً بأمي فاطمة بنت رسول الله، أمّا في الدين فتقوم الليل كله
وتصوم النهار، وفي الجمال تشبه الحور العين». (إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار: ص ٢٠٢).

٣. هي أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله، كانت تحت الحسن عليه السلام، فلما مات تزوجها الحسين عليه السلام بوصيّة
منه.

٤. بل تزوجها الحسن المثنى، وأولدها عبد الله، ثم تزوجها بعد ذلك عبد الله. (مقاتل الطالبيين: ص ١٢٢).

٥. وهو المعروف بالمديج لجماله.

٦. قيل: اسمها عائشة (شرح نهج البلاغة: ج ١٥ ص ٢٦٧).

٧. لم أجد من المؤرخين من يذكر أنّ بنات يزدرجرد ثلاثة، إلاّ الزمخشري في ربيع الأبرار ينقلها عنه الطريحي في
المجمع: ج ٢ ص ٢٧٠، والمعشرات يذكرّون أنّهن اثنتان: زوج الحسن عليه السلام واحدة، وزوج محمد الثانية. منهم
علی سبيل المثال: كشف الغمة: ج ٢ ص ٢٩٥، عمدة الطالب: ص ١٩٢، الغارات: ج ٢ ص ٨٢٦، دلائل الإمامة:
ص ١٩٦، النوادر للراوندي: ص ٢١٨، الإرشاد: ج ٢ ص ١٢٧، بحار الأنوار: ج ٣١ ص ١٣٥ و ج ٤٦ ص ١١،
إعلام الورى: ج ١ ص ٤٨٠، وغيرهم.

محمد؛ أسماء بنت عميس بعد موت أبي بكر، فصار ربيبه، وترعرع في كنفه حتى شهد معه الجمل، وكان على الرجالة، وشهد معه صفين. وولاه مصر حتى قتلته جيوش معاوية في مصر.

وأما أسماء بنت عبد الرحمان بن أبي بكر، عم القاسم وشقيق عائشة، شهد اليمامة مع خالد، وقتل محكم اليمامة في الحصن فاقتحمه المسلمون. وبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم فردّها وقال: (لا أبيع ديني بدنياي) ١. وعبد الرحمان هو القائل وهو يرفض البيعة ليزيد: جعلتموها هرقلية، كلّمّا مات هرقل قام هرقل ٢.

فجعفر قد ولده النبي عليه الصلاة والسلام مرّتين، وعلي مرّتين، والصدّيق مرّتين، ليدلّ بهذا المجد الذي ينفرد به في الدنيا على أنه نسيح وحده.

ومن الناحية الأخرى ولده كسرى مرّتين، ليدلّ الدنيا - من أعلى مواقعها - على أنّ الإسلام للموالي والعرب، فذلك هو الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ، والذي دافع من أجله عن المساواة بين المسلمين كافةً أمير المؤمنين علي.

هكذا وجدت المدينة مجتمعها، ورفعت أبناء الصحابة إلى أعلى مقام، وأهل البيت إلى صدارة المجتمع، يمدّون أنسابهم إلى هاماته، وأسبابهم إلى طبقاته.

وذاث يوم أصهر الحجاج إلى عبد الله بن جعفر في بنته أم كلثوم ٣، فأبرد إليه الخليفة عبد الملك ليسوغ أباه المهر ويعجل طلاقها، لأنه تجاوز قدره، وهي حجة ظاهرة، قد تخفي حجة

١. الاستيعاب: ج ٢ ص ٣٩٢، أسد الغابة: ج ٣ ص ٣٠٦، الإصابة: ج ٤ ص ٢٧٦، مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ٤٧٦،

تاريخ دمشق: ج ٣٥ ص ٣٦، البداية والنهاية: ج ٨ ص ٩٦.

٢. خرّجناه سابقاً.

٣. قيل: إنّ الذي زوجها له هو خالها عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام كما ذكر ابو نصر البخاري في سر السلسلة العلوية: ص ٩٧، إلّا أنّ عبد الملك منعه وسبّ الحجاج وشتمه.

ولعلّ السبب في ذلك واحد من أمرين:

١- كما ذكره المصنّف من أنّه تجاوز قدره، حيث روي: أنّ معاوية خطبها لابنه يزيد فلم يزوجوه. وذكر البلاذري في أنساب الاشراف أنّها كانت تحت عبد الملك فطلقها ثم خطبها الحجاج من بعده، فنهره على ذلك.

٢- ولعلّه بغضاً لهذا البيت الطالبية، فقد وردت روايات عديدة أنّهم منعوا ولاتهم من التزويج من بنات الزبيريين والعلويين. راجع على سبيل المثال: الأغاني: ج ١ ص ٨٥ و ج ١٤ ص ٦٣، وأنساب الأشراف: ج ٤ ص ٨٣، ومقاتل الطالبية: ص ١٦٥.

حقيقية، إذ كان يخشى أن يمدَّ الحجاج بسببِ إلى أسرة قد يشمله هداها، أو يأسره الإخلاص لها، أو يبعده عن أن يكون بجمعه لعبد الملك، ويقسوته على من عداه.

* * *

لكن العلم ظلَّ الخصيصة الكبرى للمدينة، ففيها وضعت القواعد العامة لتطبيق المبادئ الإلهية التي بعثت بها السماء آخر رسلها لإصلاح البشر، ووضعت أسس الدولة ومبادئ الجماعة، وانتشر الدين في القارات الثلاثة المعروفة، لتقدّم الحضارة الإسلامية، سياسة وإدارة، وتشريعاً دولياً ومدنياً وجنائياً واقتصادياً، وقواعد علمية، وعلوماً تطبيقية ورياضية، لم تشهدا القرون قبل، وستبني عليها الحضارات جميعاً، فتكون مجازاً للبشرية من جهالات القرون الأولى إلى حضارات العصور الحديثة العلمية والاقتصادية والتشريعية والاجتماعية.

ولمّا انقضى عهد الرسالة والراشدين الأربعة، تابعت عاصمة الإسلام سوان لم تعد عاصمة الدولة - رسالتها بالفقهاء، وهو في الحضارة الإسلامية كحجارة الأساس في البنيان: أن كانت منه قواعد الفكر الإسلامي كافة، وكانت الحرّية الفكرية لحمته وسداه، والفضيلة الإنسانية مبدأه ومنتهاه، وفيه صلاح الناس، والتخفيف عليهم، وفتح أبواب الرجاء لهم، وتمكينهم من التطوّر لملاحقة حاجات العصر، بأداته الديناميكية المحرّكة نحو التقدّم، وهي اجتهاد الرأي.

وفي أهل البيت كان النبي مدينة العلم وعلي بابها^١، وريحاننا الرسول^٢ من الدنيا: الإمام الحسن والإمام الحسين يمثلون الجيل الأول، وفي الجيل الثاني كان السجّاد - من كثرة السجود^٣ - أو زين العابدين^٤ - من كمال عبادته - وابناه: الإمام الباقر وزيد، وكان لزيد

١. إشارة إلى حديث النبي ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» راجع: المستدرک: ج ٣ ص ١٢٦. ومجمع الزوائد: ج ٩ ص ١١٤، ومعجم الطبراني: ج ١١ ص ٥٥، والفاثق: ج ٢ ص ١٦، وكنز العمال: ج ١٣ ص ١٤٨.
٢. إشارة إلى حديث النبي ﷺ: «هما ريحانتي من الدنيا» راجع: صحيح البخاري: ج ٧ ص ٧٨، ومسند أبي داود: ص ٢٦١، ومسند أبي يعلى: ج ١٠ ص ١٠٦، والمعجم الكبير: ج ٣ ص ١٢٧.
٣. روى ابن بابويه عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إن أبي علي بن الحسين عليه السلام ما ذكر نعمة الله عليه إلا سجد، ولا قرأ آية من كتاب الله عز وجل فيها سجود إلا سجد، ولا دفع الله تعالى عنه سوءاً يخشاه أو كيد كائد إلا سجد، ولا فرغ من صلاة مفروضة إلا سجد، ولا وفق لإصلاح بين اثنين إلا سجد، وكان أثر السجود في جميع مواضع سجوده، فسمي السجّاد لذلك». (علل الشرائع: ص ٢٣٢ ح ١ ب ١٦٦، البحار: ج ٤٦ ص ٦ ح ١٠).

مذهبه.

أما الجيل الثالث من القرون المفضلة فقد تراءى فيه للمسلمين: جعفر بن محمد الصادق، بدر تمام، لجيل كان ختام أجيال.

وأما من عدا أهل البيت فقد نهض عنهم الصحابة وأبناؤهم وأحفادهم بعبء العلم نهضةً جديدةً بدينٍ يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، فاشتهرت بينهم: أمّا المؤمنين: عائشة^١ وأم سلمة، وزينب بنت أبي سلمة^٢. والعبادلة الأربعة: أبناء العباس وعمر والزبير وعمر، وأبو سلمة بن عبد الرحمان بن عوف^٣، وعبدالرحمان بن أبي بكر، وبنته حفصة^٤، وعروة^٥ بن الزبير ابن أخت عائشة، وابن أخيها القاسم^٦ بن محمد بن أبي بكر،

٤. روي أن الزهري إذا حدّث عن علي بن الحسين عليه السلام قال: حدثني زين العابدين علي بن الحسين. فقال له سفيان بن عيينة: ولم تقول له: زين العابدين؟ قال: لأنّي سمعت سعيد بن المسيّب يحدث عن ابن عباس: أنّ رسول الله ﷺ قال «إذا كان يوم القيامة ينادي مناد: أين زين العابدين؟ فكانتني أنظر إلى ولدي علي بن الحسين بن علي يخطر بين الصفوف». (علل الشرائع: ص ٢٣٠، البحار: ج ٤٦ ص ٢) وفي كشف الغمة: أنّه كان سبب لقبه بزين العابدين أنّه كان ليلة في محرابه قائماً في تهجدّه، فتمثّل له الشيطان في صورة ثعبان ليشغله عن عبادته، فلم يلتفت إليه، فجاء إلى إبهام رجله فالتصمها فلم يلتفت إليه، فألمه فلم يقطع صلاته، فلما فرغ منها وقد كشف الله له، فعلم أنّه شيطان، فسبه ولطمه وقال له: إخسء يا ملعون، فذهب وقام إلى تمام ورده، فسمع صوتاً لا يرى قائله، وهو يقول: «أنت زين العابدين حقاً» فظهرت هذه الكلمة واشتهرت لقباً له عليه السلام. (كشف الغمة: ج ٢ ص ٢٨٦).

١. عائشة بنت أبي بكر الصديق، من قریش، تزوّجها النبي في ٢ هـ، وهي أكثر نسائه روايةً للحديث، ولها خطب ومواقف، وما كان يحدث لها أمر إلا أنشدت فيه شعراً، وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض وتوجيههم. وكانت ممن تقم على عثمان عمله في حياته، ثم غضبت له بعد مقتله، فكانت وقعة الجمل، توفيت بالمدينة ٥٨ هـ، ولها في كتب الحديث (٢٢١٠) أحاديث. (الأعلام: ج ٣ ص ٢٤٠).

٢. زينب بنت أبي سلمة بن عبد الأسد بن هلال المخزومية، ربيّة النبي ﷺ وأخت عمر، ولدتها أم المؤمنين بالحبيشة، روت أحاديث عن عائشة وزينب بنت جحش، وأم حبيبة وجماعة. وروى عنها: عروة، وعلي بن الحسين، والقاسم بن محمد وغيرهم. (سير أعلام النبلاء: ج ٣ ص ٢٠٠).

٣. أبو سلمة بن عبد الرحمان بن عوف الزهري المدني، قيل: اسمه عبد الله، وقيل: إسماعيل، وقيل: اسمه كنيته. ثقة مكثر، مات سنة ٩٤ هـ أو ١٠٤ هـ، وولادته لبضع وعشرين من الهجرة. (تقريب التهذيب: ج ٢ ص ٤٠٩).

٤. هي حفصة بنت عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق، قيل: كانت زوجة للحسن عليه السلام فبلغه أن المنذر بن الزبير يهاها، فطلّقها فخطبها المنذر وأبت أن تزوجه، وقالت: شهرني. (البحار: ج ٤٤ ص ١٧٣). وقيل: إن المنذر هذا تزوّجها بإذن عنتها عائشة دون إذن أبيها. (المبسوط للسرخسي: ج ٥ ص ١٠٧).

وراويتها عمرة^٧ بنت عبد الرحمان، وهؤلاء الثلاثة أعلم الناس بحديث عائشة وسالم^٨ ابن عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيّب، وخارجة بن زيد، وعبيد الله^٩ ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وأبو بكر بن عبد الرحمان، وسليمان بن يسار^{١٠}.

وتعلّم عليهم جيل جديد، فيه: محمد بن شهاب الزهري^{١١}، وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، ومحمد بن المنكدر، ومحمد وعبد الله ابنا أبي بكر بن حزم، وربيعة الرأي، وهؤلاء مشيخة مالك بن أنس.

ومالك يعاصر في النصف الثاني من القرن الثاني نهاية الأجيال المفضّلة.

ثم هو شيخ المدرسة التي نجب فيها محمد بن إدريس الشافعي وتلميذه أحمد بن حنبل.

٥. عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، كان عالماً بالدين، صالحاً كريماً، لم يدخل في شيء من الفتن، انتقل إلى البصرة، ومن ثم إلى مصر، فتزوج وأقام بها سبع سنين، وعاد إلى المدينة فتوفّي فيها ٩٣ هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ٢٢٦).

٦. القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، أحد الفقهاء السبعة في المدينة، ولد فيها سنة ٣٧ هـ، وتوفّي بقديد حاجاً أو معتمراً سنة ١٠٧ هـ. كان صالحاً، ثقةً، من سادات التابعين، عمي في أواخر أيامه، قال ابن عيينة: كان القاسم أفضل أهل زمانه. (الأعلام: ج ٥ ص ١٨١).

٧. عمرة بنت عبد الرحمان بن أسعد بن زرارة بن عدسي، من بني النجار، سيّدة نساء التابعين، فقيهة عالمة بالحديث، ثقة، من أهل المدينة، صحبت عائشة وأخذت الحديث عنها. وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنّة ماضية أو حديث عمرة فاكتبه، فأبى خشيت دروس العلم وذهاب أهله، توفّي عام ٩٨ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ٧٢).

٨. سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، أحد فقهاء المدينة السبعة، ومن سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم. إذا دخل على سليمان بن عبد الملك، فما يزال يرحّب به ويرفعه حتّى يقعه معه على سريريه، توفّي بالمدينة سنة ١٠٦ هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ٧١).

٩. عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، الفقيه العلم؛ أبو عبد الله الهذلي المدني الضرير، أحد الفقهاء السبعة، أخذ عن عائشة وأبي هريرة وابن عباس وأبي سعيد الخدري. كان مع إمامته في الحديث شاعراً محسناً، وهو مؤدّب عمر بن عبد العزيز، مات سنة ٩٨ هـ. (تذكرة الحفاظ: ج ١ ص ٧٨).

١٠. سليمان بن يسار، مولى ميمونة أم المؤمنين، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان سعيد بن المسيّب إذا أتاه مستفتياً يقول له: إذهب إلى سليمان فإنه أعلم من بقي اليوم، ولد في خلافة عثمان سنة ٣٤ هـ، وكان أبوه فارسياً، قال ابن سعد: ثقة، عالم، فقيه، كثير الحديث. (الأعلام: ج ٣ ص ١٣٨).

١١. محمد بن شهاب الزهري، جاء في صفته: كان من أهنأ الناس وأقرهم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته. (سبل الهدى والشاد: ج ١١ ص ٤٤٠). كان عاملاً لبني أمية على المدينة، جنى جنائياً وتاب على يد علي بن الحسين وصار من أصحابه.

ولقد طالما زاحم التلاميذ أشياخهم في العلم وإن لم يزاحموهم في مكانتهم عند الله والناس.

ومن المدينة انطلق الفقه الإسلامي إلى العراق، حيث أقام عبد الله بن مسعود زماناً معلماً ووزيراً كما سماه عمر، وتعلم عليه تلاميذه وتلاميذ علي؛ كعبيدة وعلقمة والحارث. وعن طريق علقمة تعلمت مدرسة النخعيين يتقدمها الأسود وعبد الرحمان، ويتوسط عقدها إبراهيم بن يزيد^١ شيخ حماد بن أبي سليمان^٢.

وفي حلقة حماد بالكوفة قضى أبو حنيفة عشرين عاماً يتعلم، ليصبح معلماً على مدرسة الرأي والقياس الذي تعد قواعد الشافعي فانتشر في كل فروع العلم الإسلامي. وهوى أبي حنيفة مع أبناء علي معروف، وصلة فكرة بزعماء أهل البيت واضحة، وأن مذهبه ليقارب المذهب الزيدي أكثر مما يقارب المذهب الحنفي غيره من مذاهب أهل السنة، كما قيل^٣.

ولقد استشهد زيد بن زين العابدين سنة ١٢١، وفي ذلك العهد جلس أبو حنيفة مجلس حماد بن أبي سليمان بعد وفاته، وشرع يدون بعض مذهبه وكثيراً من الفروع، ثم مكّن أبو يوسف^٤ للمذهب^٥ بتولية زملائه القضاء؛ ليلزموا الناس به، ثم نشره محمد بن الحسن^٦

١. إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود؛ أبو عمران النخعي، من مذبح، من أكابر التابعين صلاحاً وصدق رواية وحفظاً للحديث، من أهل الكوفة، مات مختفياً (سنة ٩٦ هـ) من الحجاج. قال فيه الصلاح الصفدي: فقيه العراق، كان إماماً مجتهداً، له مذهب. ولما بلغ الشعبي موته قال: والله ما ترك بعده مثله. (الأعلام: ج ١ ص ٨٠).

٢. حماد بن أبي زياد العلامة الإمام، فقيه العراق، أبو إسماعيل بن مسلم الكوفي، مولى الأشعريين، أصله من إصبهان. روى عن أنس بن مالك، وتفقه بإبراهيم النخعي، وهو أنسب أصحابه وأفقههم وأقيسهم، وأبصرهم بالمناظرة والرأي. روى عنه: أبو حنيفة وسفيان الثوري وخلق كثير. (سير أعلام النبلاء: ج ٥ ص ٢٢١).

٣. انظر: أبو حنيفة لأبي زهرة: ص ١٦٥، بل يذهب إلى أنه «شيعي في ميوله وآرائه في حكام عصره» ومناقب أبي حنيفة للمكي: ج ٢ ص ٤٢، والإمام الصادق والمذاهب الأربعة لأسد حيدر: ج ١ ص ٣١٨.

٤. أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد الأنصاري، توفي سنة ١٨٢ هـ ببغداد، وهو أول من دعى بقاضي القضاة، تولى القضاء لثلاثة من الخلفاء: المهدي والهادي والرشيد، ولولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة، لأنه الذي نشر قوله. (الإمام الصادق لأسد حيدر: ج ١ ص ١٦٦).

٥. قال ابن عبد البر في الانتقاء: ص ٦: «كانت له اليد الطولى في نشر ذكر أبي حنيفة وإعلاء شأنه؛ لما أوتي من قوة السلطان، وسلطان القوة». وقال عمار بن أبي مالك: ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف، لولاه ما ذكر أبو حنيفة ولا محمد بن أبي ليلى، وهو الذي نشر قولهما.

٦. محمد بن الحسن الشيباني؛ ولد سنة ١٣٢ هـ، وتوفي سنة ١٨٩ هـ. نشأ بالكوفة، وعاش تحت ظل الدولة

بتدوينه في كتبه الشهيرة.

وتدوين الفقه في كتاب «المجموع» قد سبق به زيد مدرسة أبي حنيفة، ولعلّ أبا حنيفة تعلم تدوين الفقه عليه، بل أنّ الجميع قد قلدوا فيه صنيع أهل البيت أنفسهم، ولديهم الكتب فيها العلم: أحاديث وفقهاً، يتعلمونه كابراً عن كابر.

فالحجاز والعراق قد تضامنا في إنتاج الفقه، لتتابعهما بعد ذلك شتّى الحواضر، في الفسطاط ودمشق وقرطبة والقيروان، وفي المغرب، وفي المشرق، وفي الاندلس، ووسط آسيا.

وظاهر من هذا التأريخ أمور:

(١) أنّ المذاهب الفقهية جميعاً، بما فيها المذاهب الباقية إلى اليوم لأهل السنّة، يتصدّرها في الظهور مذهب أهل البيت على يد زيد بن علي زين العابدين.

وكذلك يسبق المذهب الزيدي مذهب الإمام جعفر الصادق، الذي تبعه الائمة من نسله، وصار يستمى مذهب الإمامية. فالصادق صار إماماً بموت أبيه الباقر في العقد الثاني من المائة الثانية، ثم كانت وفاته بعد استشهاد عمه زيد سنة ١٢١ بسبعة وعشرين عاماً، سنة ١٤٨.

أمّا أبو حنيفة فمات في سجن أبي جعفر المنصور سنة ١٥٠، وأمّا مالك فمات بعد أبي حنيفة بتسعة وعشرين عاماً سنة ١٧٩، والشافعي مات بعد أبي حنيفة بأربعة وخمسين عاماً سنة ٢٠٤، ولحق بهم ابن حنبل سنة ٢٤١. وأصحاب المذاهب الأخرى بين معاصرين لهم أو لاحقين.

(٢) أنّ الإمام جعفر - كما سنرى - ينهى عن استعمال القياس^١ كمثل ما يرفضه فقهاء المدينة عموماً، والمحدّثون خصوصاً، وهم زعماء الفقه في المائة الأولى.

وسنرى بعد أن نهى الصادق عن القياس، لا يعارض الاجتهاد، بل إنّه ليأمر به، ويسلغ بمنهاجه في الاجتهاد ما يبلغه سواه.

→ العباسية، أدرك أبا حنيفة ولم ينتفع منه لحدائثة سنّه، فأتمّ دراسة المذهب على أبي يوسف، وكان ذا فطنة وذكاء، وأصبح المرجع لأهل الرأي في نبوغه وتقدّمه، وألّف في المذهب كتاباً هي في الحقيقة المرجع الأول فيه.

(الإمام الصادق لأسد حيدر: ج ١ ص ١٦٦).

١ كقوله: «إنّ دين الله لا يُصاب بالقياس» الكافي: ج ١ ص ٥٧. والقياس: هو إثبات حكم الأصل في الفرع لاشتراكهما في العلّة، وله أركان أربعة، مشروحة في مظانّها.

وسنرى أن منهاجه في الاعتبار والاستخلاص هو منهج الفكر الإسلامي، نقله عنه الفكر العالمي.

(٣) أن البيئة التي عاش فيها أهل البيت ستين عاماً بعد مجزرة كربلاء كانت منجبة، يظهر العلم والعلماء من الرجال والنساء، فشاركت المرأة في العلم من عهد أمهات المؤمنين، ووجدت الفقيهات في جيل التابعين وتابعي التابعين من أهل السنة، فتصدّرت نساء أهل البيت: سكينه بنت الحسين (١١٧) رضي الله عنهما، وكانت برزة، تساجل فحول الشعراء^١ بل الفقهاء.

وهي بهذه المساجلات إمام في استعمال الحرية الشخصية والفكرية^٢، تعلّم المسلمون والمسلمات أن المرأة نصف الناس، وأن إظهار مواهبها، وصلها وتنميتها، خير للنصف الذي هو المرأة، وخير للنصف الآخر. ومن المساواة بينهما تقرّرت للمرأة حقوقها كاملة، وسلّم لها

١. قال السيد عبد الرزاق المقرّم في كتابه (سكينه) ص ٤٤: «لقد تجلّى لنا ونحن نسبر المدونات ونمحصّ الأحاديث: أن أول من وضع الأحاديث الشائنة في ابنة الحسين سكينه هو مصعب الزبيري المتوفى سنة ٣٦ هـ في كتابه «نسب قريش» لينصرف المغنّون والشعراء عن ابنتهم سكينه بنت خالد بن مصعب بن الزبير التي كانت تجتمع مع ابن أبي ربيعة الشاعر والمغنّيات يغنين لهما (الأغاني: ج ١ ص ٦٧) وزمر بها في بغداد مرافقه المدائني (الأغاني: ج ١ ص ١٢٧) وزاد عليها الزبير بن بكار وابنه، وتلقاها المبرّد (ت ٢٨٥) عن هؤلاء الوضّاعين، وعنه أخذها تلميذه الزجاجي وغيره من دون تمحيص، فأضلوا كثيراً من الكتاب والمؤرّخين حتّى رووها بلا إسناد، موهمين أنها من المسلمّات».

ووصل السيد في مقام تحقيقه أن هذه المشهورة بالأدب والشعر وتصيف شعر الرأس ليست سكينه بنت الحسين المعروفة بالسكون والوقار، بل سكينه الزبيرية. ومن أراد الاستزادة يرجع إلى كتابين هما: «سكينه بنت الحسين» للفكيكي، «السيدة سكينه» للسيد المقرّم.

٢. زارها الفرزدق بالمدينة، فقالت له: من أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: بل جرير حيث يقول... فعاد لها في الغداة يشعر جديد يسوغ له قصب السبق. قالت: بل جرير حيث يقول... وكذلك صنعت في اليوم الثالث إذ عاد بجديد. ووقفت يوماً على عروة بن أذينة شيخ مالك بن أنس فقالت له: أنت الذي يقال له: الرجل الصالح، وأنت تقول:

عمدت نحو سقاء القوم أبترد
فمن لنار على الأحشاء تتقد

إذا وجدت أوار الحب في كبدي
هيني بردت ببرد الماء ظاهره

قال: نعم، قالت: وأنت القائل:

قد كنت عندي تحبّ الستر فاستر
غطّي هواك وما ألقى على بصري

قالت وابتثتها وجدي وبحث به
ألسنت تبصر من حولي؟ فقلت لها:

قال: نعم، فالتفتت إلى جواركن حولها، وقالت: هنّ حرائر إذا كان خرج هذا من قلب سليم قطاً! (منه).

بالحرية الفكرية التي قد تفهم من كلمات الإمام علي بن أبي طالب يوم لقي عائشة، في إثر انتصاره يوم الجمل، فقال لها: «غفر الله لك» قالت: ولك^١. وما استغفر لها إلا لخطأ منها في الاجتهاد رأه.

وإذا كان النصفان يجتهدان ويجاهدان، فالأمة كلها في حالة تقدم، أو محاولة تقدم - والاجتهاد في ذاته تقدم - بالعلم أو السعي إليه، وهو بعض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبهما وبالتقوى «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ»^٢.

(٤) وفي الهدأة الوقور في هذه البيئة ازدهر العلم على النحو الذي كان حرياً بالمدينة، وبأهل البيت، من حفظٍ لحديث الرسول، وترقيتٍ في النظر والمناظرة، وتلبثٍ في إبداء الآراء، لما فيها من شبهة المخاطرة، وصدقٍ في خدمة حديث النبي بالعمل به، وتعليم الناس إياه.

وأما اشتعلت الثورات، وشققت الفلسفات في العراق، ففيها تعاقبت ثورات: التوابين، والخوارج، والخراجين؛ كابن الزبير وابن الأشعث والآخرين، ومن غليان المراحل هنالك أحدثت المبادئ الهدامة أو الغلواء أو الخصومات آثارها، كمثل ما نسب إلى عبد الله بن سبأ^٣ أو غيره من عقائد الغلاة الذين تبرأ منهم الشيعة^٤، كما تبرأ الإمام علي من آل الهوه فحرقهم بالنار^٥.

لكن آراء الغلاة وأعداء الإسلام لم تكن تكاد تغد على المدينة حتى تخرج منها واهنة أو

١. الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٣٤٥، تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٥٣٧. تاريخ ابن خلدون: ج ٣ ص ١٥٩.

٢. آل عمران: ١١٠.

٣. جاء في ترجمته: «أن عبد الله بن سبأ ألعن من أن يُذكر» رجال أبي علي: ٢٠٣.

وقد ذهبت جميع مصادر الشيعة إلى لعنه وتكفيره، وأنه غال، زعم أن أمير المؤمنين عليه السلام إلى أو نبي مرسل من قبل الله على الأقل؛ راجع: رجال الكشي: ج ١ ص ٣٢٣، ورجال الطوسي: ج ٥١ ص ٧٦، ونقد الرجال: ج ١٩٩ ص ١٣١، والخلاصة: القسم الثاني ص ٢٣٧ رقم ١٩، وتنقيح المقال: ج ٢ ص ١٨٣، وغيرهم. وقد ألف السيد مرتضى العسكري كتاباً حول أسطورة (عبد الله بن سبأ) أوضح فيه حقيقة هذه الأسطورة ومنشؤها.

٤. وهم السبائية، نسبة إلى عبد الله بن سبأ: زعموا أن علياً عليه السلام لم يمض وأنه في السحاب، والرعد صوته، والبرق صوته؛ وأنه ينزل إلى الأرض بعد حين، حتى يقتل أعداءه. (النجاة في القيامة: ص ١٧٢).

٥. الرياض النضرة: ج ٢ ص ٢١٨، الأعلام: ج ٤ ص ٢٩٦، نيل الأوطار: ج ٨ ص ٦، ذخائر العقبين: ص ٩٣، فتح الباري: ج ١٢ ص ٢٣٨، ينابيع المودة: ج ٢ ص ١٨٢.

محطمة. ففي جوها النقي تفتحت أبواب بيت النبي، وتخرج في علومها الأئمة.
زين العابدين (٣٨ - ٩٤ هـ)

تعظم بيت زين العابدين في عدد أفراده يوماً بعد يوم، وقدم «السجاد» لنا ابنه «الباقر» ثم قدم «الباقر» ابنه «الصادق»، فكانوا مثلاً علياً في العزوف عن السلطة، والانصراف إلى تعليم الناس العلم الصحيح والعمل الصالح والأسوة الحسنة.

روى^١ عن جابر بن عبد الله^٢ وابن عمر، إلى جوار روايته علم أهل البيت وحديثهم عن أبيه الحسين وأم المؤمنين أم سلمة، وسمع ابن عباس، ليروي عنه فيما بعد ابنه: عبد الله والباقر، وخلق كثير. ورأى يعينى المريض العاجز عن الاستشهاد مصائر أبيه العظيم، وإخوته وأعمامه وأولادهم يوم كربلاء.

وتجلت فيه الفضائل المنبثقة من الورع والرحمة: يصلي لله في اليوم والليله ألف ركعة^٣، ولهذا سمي: «السجاد» إذ توضع أصفر لونه، وإذا قام أرعد من الفرق، ولما سأله قال: أتدرون من أريد أن أقف بين يديه ومن أناجي؟^٤

ومع تألق عبد الله بن جعفر بالمدينة، وهو الصحابي الذي يحرص الخلفاء في دمشق على

١. يذهب الشيعة إلى أن علم الأنبياء وأوصيائهم هو من العلم الأحيائي الإلهامي؛ صوناً لهم وللأمم من الوقوع في المخالفة والخطأ.

فهم حفظة الشريعة والدين، وإليه مرجع العباد، وهم معصومون من الزلل والخطأ لقوله عليه السلام: «إني تارك فيكم الثقلين»، وكونهم أئمة الخلق يستدعي عدم حاجتهم إلى المفضولين من الخلق؛ لامتناع احتياج الفاضل للمفضول.

ويعضد هذا المعنى الروايات الشريفة المنقول عنهم عليه السلام: «إننا لو كنا نحدّثكم برأينا وهوانا لكنا من الهالكين، ولكننا نحدّثكم بأحاديث نكتنّزها عن رسول الله». وعن الصادق عليه السلام: «إن منّا لمن ينكت في قلبه، وإن منّا لمن يسمع الصوت...، ومنّا من ينكت في قلبه، ومنّا من يقذف في قلبه...» (الاختصاص: ص ٢٨٠) وعليه فحضورهم عند هؤلاء لا لحاجتهم إليهم، وإنما لأجل تعليم الناس احترام العلم والحث على الحضور عند العلماء، فضلاً عن تشجيع العلماء أنفسهم.

٢. جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري، صحابي، من المكثرين في الرواية عن النبي، وروى عنه جماعة من الصحابة، غزا تسع عشرة غزوة، وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي، يؤخذ عنه العلم، روى له البخاري ومسلم، توفي سنة ٧٨ هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ١٠٤).

٣. دعائم الاسلام: ج ٢ ص ٢٣٠، تاريخ ابن خلكان: ج ١ ص ٢٥٠، علل الشرائع: ج ١ ص ٢٣٢، صفوة الصفوة لابن الجوزي: ج ٢ ص ٥٦، العقد الفريد: ج ٢ ص ٣٠٩، ج ٣ ص ٣٩، طبقات الذهبي: ج ١ ص ٧١.

٤. مناقب أهل البيت للمولّي حيدر الشيرازي: ص ٢٥٦، ينابيع المودة: ج ٣ ص ١٠٥.

مرضاته، وتفريق عبد الله عطاءه الجزل في فقراء المدينة، واستشهاد ابنين له يوم الحرّة، وثالث في كربلاء، ومع أنّه زوج زينب بنت علي، عمّة زين العابدين، مع هذا كلّه كان زين العابدين يحتلّ مكانه في الصدارة، ويحمل وصفه بجدارة.

وفي ذلك نصّ يروى عن مالك بن أنس قال: «سمّي زين العابدين لعبادته»^١.

علّمته المحنّة والورع: الحكمة وحسن الخطاب، فكان في باكورة حياته على علمٍ عظيم. قال له يزيد يوم أدخل عليه مريضاً مع نساء أهل البيت الناجيات من كربلاء: أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقّي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت! قال زين العابدين: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِّلَهَا»^٢ قال يزيد: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ»^٣ قال زين العابدين: «هذا في حقّ من ظلم لا من ظلم»^٤.

تتابع على الكذب ولاة الشام والأمصار من عهد معاوية، يشتمون علياً بأمر بني أمية، فكان يبقى من كذبهم شيء في عقول العامة أو الصبية الذين لا يعلمون.

كان عبيد الله بن مسعود من فقهاء المدينة السبعة، وكان معلّم عمر بن عبد العزيز وهو صبي، أودعه أبوه أخواله بني عدي - قوم عمر بن الخطّاب - بالمدينة، فسمع يوماً شتم علي، فقال لعمر: يا بني، متى علمت أنّ الله غضب على أهل بدر؟ قال الصبي: وهل كان علي في

١. تاريخ دمشق: ج ٤١ ص ٣٧٩، سير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٣٩٢، تهذيب الكمال: ج ١٣ ص ٢٤١، تذكرة الحفاظ: ج ١ ص ٧٥.

٢. الحديد: ٢٢.

٣. الشورى: ٣٠.

٤. ولما جيء بزين العابدين في أسرى كربلاء أقيم على درج دمشق، فقال له رجل من أهل الشام: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم، وقطع قرن الفتنة، قال زين العابدين: قرأت القرآن؟ قال الرجل: نعم، قال: قرأت القرآن؟ قال الرجل: نعم، قال: أما قرأت؟ قل لا أسألكم عليه أجر إلا المودة في القربى؟ قال الرجل: فإنكم إيساهم؟ قال: نعم. ويقصد الإمام الآية: ٢٣ من سورة الشورى «ذلك الذي يبشر الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجر إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور». وأول آيات سورة الشورى: «حم» (منه).

٥. مقتل الحسين لأبي مخنف: ص ٢١٣، البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢١١، تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٣٥٢، سير أعلام النبلاء: ج ٣ ص ٣٠٣، بحار الأنوار: ج ٤٥ ص ١٣٥، الإرشاد للمفيد: ج ٢ ص ١٢٠، لواعج الأشجان: ٢٢٤.

بدر؟ قال عبيد الله: وهل كانت بدر كلها إلا لعلي؟! فلما ولي عمر الخلافة أبطل شتم أهل البيت، ورد إليهم حقوقهم.

وقال رجل من أنصار الأمويين بالشام: دخلت المدينة فرأيت رجلاً راكباً على بغلة، لم أر أحسن وجهاً ولا ثوباً ولا سمياً ولا دابةً منه، فسألت، فقيل: هذا علي بن الحسين بن علي، فأتيته - وقد امتلأ قلبي له بغضاً - فقلت له: أنت ابن علي بن أبي طالب؟ قال: أنا ابن ابنه، فقلت: بك وبأبيك أسبّ علياً، فلما انقضى كلامي قال: أحسبك غريباً، مل بنا إلى الدار، فإن احتجت منزلاً أنزلناك، أو إلى مالٍ واسيناك، أو إلى حاجةٍ عاوناك على قضائها، فانصرف من عنده وما على الأرض أحد أحب إليّ منه.^١

ويروى أنه احترق البيت الذي هو فيه وهو قائم يصلي، فلما انصرف (من الصلاة) قيل له: ما بالك لم تنصرف حين اشتعلت النار؟ قال: اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى.^٢

وأته لما حجّ وأراد أن يلتي أراعده واصفرّ وخرّ مغشياً عليه، فلما أفاق سئل، فقال: إني لأخشى أن أقول: لبيك اللهم لبيك، فيقول: لا لبيك ولا سعديك، فشجعوه حتى لبني، فغشي عليه حتى خرّ من راحلته^٤. وكان يرحل من المدينة إلى مكة، فلا يقرع راحلته مرةً واحدة!^٥ يقول الأصمعي: لم يكن للحسين عليه السلام عقب إلا من ابنه زين العابدين، ولم يكن لزين العابدين نسل إلا من ابنة عمه الحسن، فجميع الحسينيين من نسله.^٦

أما أكبر صدقته فبالليل، يقول: «صدقة الليل تُطفئ غضب الرب»^٧. ومع عظم مكانه كان إذا دخل المسجد تخطى الرقاب حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم

١. شرح نهج البلاغة: ج ٤ ص ٥٩، الامام علي لأحمد الرحماني الهمداني: ص ٧٥٢، السيدة فاطمة الزهراء لمحمد بيومي: ص ٩٨.

٢. ذكر ابن الأثير في الكامل: ج ٢ ص ٥٥، وابن أبي الحديد في شرح النهج: ج ١٨ ص ٣٧٨: أنها بحق الحسن بن علي عليه السلام. وذكر في وفيات الأئمة: ص ١٤٠: أنها في حق الحسن بن علي عليه السلام.

٣. البداية والنهاية: ج ٩ ص ١٢٣، عين الحياة: ص ٣٨.

٤. البداية والنهاية: ج ٩ ص ١٢٣، تاريخ دمشق: ج ٤١ ص ٣٧٩، سير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٣٩٢، تهذيب الكمال: ج ١٣ ص ٢٤١، تذكرة الحفاظ: ج ١ ص ٧٥.

٥. حلية الأولياء: ج ٣ ص ١٣٢، بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ٩١، كشف الغمة: ج ٢ ص ٣٤.

٦. البداية والنهاية: ج ٩ ص ١٢٢.

٧. وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٤٠١، بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ١٥٩ و ١٨٠، البداية والنهاية: ج ٩ ص ١٢٣.

إذا كان هنالك، فيقول له نافع بن جبير بن مطعم: أنت سيّد الناس، تأتي تتخطى خلق الله وأهل العلم من قريش حتّى تجلس مع هذا العبد الأسود؟! فيجيب: «إنّما يجلس الرجل حيث ينتفع، وإنّ العلم يُطلب حيث كان»^١.

ولقد كان يريد أن يجلس إلى سعيد بن جبير، وقيل له: ماذا تصنع ببقاء سعيد؟ فأجاب: «أريد أن أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها»^٢.

وزين العابدين لا ينسى أنّ النبي أمرّ زيد بن حارثة - وكان مولىّ للنبي - على جعفر بن أبي طالب، وجعل له القيادة^٤، فإن قُتل كانت لجعفر، فإن قُتل كانت للصحابي عبد الله بن رواحة.

وزين العابدين بهذا يضع السوابق لأهل البيت ليتعلّموا العلم المقارن من فقه المسلمين كافة، ولذلك سيجلس ابنه الباقر إلى نافع مولى ابن عمر^٥. وسيجلس حفيده الصادق إلى

١. تاريخ مدينة دمشق: ج ٤١ ص ٣٦٩، تهذيب الكمال: ج ١٣ ص ٢٣٩، سير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٢٨٨، حلية الأولياء: ج ٣ ص ١٣٧.

٢. وهو بهذا يعلم الجميع أنّ العلم شرف يسعى إليه الشرفاء ولو كانوا قَمّة الشرف، والنبي رسالته التعليم. ومن ذلك كان تنافس أبناء الصحابة على أن يتعلّموا العلم، وأن يعلموه، وكانت المشقّة واقتحام المخاطر والقلاويع لتحصيله وإتقائه في الناس، يستوي في ذلك من لا مال عنده كابن حنبل، ومن عنده الأموال كيحيى بن معين، كان عنده مليون درهم أنفقها في تحصيل الحديث، أو كابن حزم، قال له أبو الوليد الباجي - عالم المالكية -: أنا أعظم منك همّة في طلب العلم، أنت طلبته وأنت تُعان عليه، تسهر بمشكاة الذهب. وأنا طلبته وأنا أسهر بقنديل السوق، فأجابه ابن حزم: أنت طلبته في حال فاقةٍ تريد تبديلها لمثل حالي، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته، لا أرجو إلا علو القدر في الدنيا والآخرة. (منه).

٣. تاريخ مدينة دمشق: ج ٤١ ص ٣٦٩، تهذيب الكمال: ج ١٣ ص ٢٣٩، سير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٣٨٩، طبقات ابن سعد: ج ٥ ص ٢١٦. وقصد الإمام عليه السلام من الذهاب إليه هو معرفة آراء القوم، فقد ذكر في الرواية «إنّ الناس يأتوننا بما ليس عندنا، فإنّه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء» وأشار بيده إلى العراق.

٤. وكذا أمر ابنه أسامة بن زيد - الذي لم يثبت عارضاه - على كبار الصحابة في بعث أسامة.
٥. هو أبو عبد الله المدني، أصله من بلاد المغرب، وقيل: من نيسابور، وقيل: من كابل. روى عن مولاة ابن عمر وجماعة من الصحابة كأبي هريرة وعائشة. وروى عنه خلق من التابعين وغيرهم، كان من الشقات النبلاء والأئمة الأجلّاء. وكان عمر بن عبد العزيز قد بعثه إلى مصر ليعلم الناس السنن. (البداية والنهاية: ج ٩ ص ٣٤٩).

عكرمة^١ (١٠٣) مولى ابن عباس وإلى عطاء بن أبي رباح^٢ (١١٤) مولى قريش، يجلس في المسجد الحرام مجلس ابن عباس، كما يجلس الصادق إلى عبد الله^٣ بن أبي رافع مولى أمير المؤمنين علي.

فإذا جلس زين العابدين في المسجد جلس بين القبر والمنبر، وانعدت حلقة كحلقة أبيه في روضة كرياض الجنة^٤، يقول عنها القائل^٥: «إذا دخلت مسجد رسول الله، فرأيت حلقة كأن علي رؤوسهم الطير، فتلك حلقة أبي عبد الله، مؤتراً إلى أنصاف ساقيه»^٦.

ولقد يتحدث مع سليمان بن يسار (١٠٧) مولى أم المؤمنين ميمونة^٧ إلى ارتفاع الضحى، فإذا أراد أن يقرأ عليهما عبد الله بن أبي سلمة^٨ سورة، فإذا فرغ عبد الله من التلاوة دعوا الله سبحانه.

ولقد يدخل ابن شهاب الزهري (١٢٤) وصحبه فيسأله: فيم كنتم؟ فيجيبه: أنهم كانوا يتذكرون الصوم، وأنهم لم يروه واجباً إلا في رمضان، فيقول السجّاد: «الصوم على أربعين

١. هو عكرمة بن عبد الله البربري المدني، مولى عبد الله بن عباس، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي، طاف بالبلدان، وروى عنه زهاء ثلاثمائة رجل، كان يحدث برأي نجدة الحروري، وأهل المغرب أخذوا عنه رأي (الصفري)، مات في المدينة سنة ١٠٥ هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ٢٤٤)

٢. عطاء بن أبي رباح: أبو محمد، مولى آل أبي خيثم القرشي المكي، سمع ابن عباس وأبا هريرة وأبا سعيد وجابر، وروى عنه عمرو بن دينار وقيس بن سعد. (تاريخ دمشق: ج ٤٠ ص ٢٧).

٣. عبد الله بن أبي رافع: أبو رافع، واسمه أسلم، مولى النبي صلى الله عليه وآله وسلم. (التعديل والتجريح: ج ٢ ص ٩٠٢).

٤. إشارة إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة». علل الدارقطني: ج ٨ ص ٢٢٠، تاريخ دمشق: ج ٢٢ ص ١٧٧، المعجم الكبير: ج ١٢ ص ٢٢٧، تاريخ بغداد: ج ١١ ص ٢٢٨، كتر العمال: ج ١٢ ص ٢٦٠، مستند أبي يعلى: ج ٢ ص ٤٩٦.

٥. القائل هو معاوية لرجل من قريش.

٦. تاريخ دمشق: ج ١٤ ص ١٧٩، ترجمة الإمام الحسين لابن عساكر: ص ٢١٢.

٧. هي أم المؤمنين: ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية، وهي آخر امرأة تزوج بها الرسول، وماتت آخر نسائه، كان اسمها «برة» فسماها «ميمونة»، بايعت بمكة قبل الهجرة، عاشت ثمانين سنة، وتوفيت في «سرف» سنة ٥١ هـ، وهو الموضع الذي كان فيه زواجها من النبي، كانت سالحة فاضلة. (الأعلام: ج ٧ ص ٢٤٢).

٨. هو عبد الله بن أبي سلمة الماحشون، مدني، أصله من إصبيان، ويقال له: الماحشون لحمرة خدي، وهو مولى آل المنكدر، مات سنة ١٠٦ هـ.

وجهاً»^١ ثم يشرحها له وجهاً وجهاً، فمنها ما يجب، ومنها ما هو بالخيار أو الإباحة... إلخ. وفي علمه يقول محمد بن سعد - صاحب الطبقات -: «كان زين العابدين ثقةً مأموناً، كثير الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله، عالماً، ولم يكن من أهل البيت مثله»^٢. ويقول الزهري: «ما رأيت أفتقه من زين العابدين لولا أنه قليل الحديث»^٣. وهذه الشهادة بالفقه من شيخ مالك بن أنس تعلن رأي جيل التابعين. بل أن الزهري يعلن مكانة زين العابدين بين كل الأحياء بقوله: «ما رأيت قرشياً أفضل منه»^٤. قصد إليه يوماً، ونفسه تكاد تبسل من ذنب ألم به، فردّه الإمام إلى صميم الإسلام، قال: «قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم من ذنبك»^٥.

والشافعي الذي يقول في ابن شهاب الزهري: «لولا الزهري لذهبت السنن من المدينة» يضع زين العابدين في أعلى مكان، فيعدّه أعلم أهل المدينة^٦.

كان كثير البكاء من يوم كربلاء، فقيل له في ذلك، فقال: «إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه من الحزن على يوسف - ولم يتحقق موت يوسف - وقد رأيت بضعة عشر رجلاً

١. الهداية للصدوق: ص ١٩٨، الكافي: ج ٤ ص ٨٤، البداية والنهاية: ج ٩ ص ١٣٤، كشف الغمة: ج ٢ ص ٣١٥.
٢. نص عبارته في الطبقات: ج ٥ ص ٢٢٢: «وكان علي بن الحسين ثقةً مأموناً. كثير الحديث، عالياً، رفيعاً، ورعاً». ومثله ما نقله الأعلام عنه، مثل: تاريخ دمشق: ج ٤١ ص ٣٦٢، وتذكرة الحفاظ: ج ١ ص ٩٧، وتهذيب التهذيب: ج ٧ ص ٢٩٦، وإسعاف المبطل برجال الموطأ: ص ٧٨، البداية والنهاية: ج ٩ ص ١٢٢.
٣. تهذيب التهذيب: ج ٧ ص ٢٦٩، سبل الهدى والرشاد: ج ١ ص ٦٩.
٤. تحفة الأحوذى: ج ٦ ص ٢٣٩، ص ٥٠١، كنز العمال: ج ٣ ص ٦٤١، فيض القدير ج ٦ ص ٤٥٤، التعديل والتجريح: ج ٣ ص ١٠٧٩، تاريخ دمشق: ج ٤١ ص ٣٦٦، ٣٧١، تهذيب الكمال: ج ٢٠ ص ٢٨٤، سير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٣٨٧، من له رواية في كتب السنة: ج ٢ ص ٢٧، تهذيب التهذيب: ج ٧ ص ٢٦٩، تقريب التهذيب: ج ١ ص ٦٩٢.
٥. المسترشد: ص ١٥١، تاريخ دمشق: ج ٤١ ص ٣٩٨، البداية والنهاية: ج ٩ ص ١٢٥، ينابيع المودة: ج ٢ ص ٤٦٨.
٦. لم يعاصر الشافعي لا الزهري ولا الإمام زين العابدين، حيث توفي الإمام سنة ٩٥ هـ على أصح الأقوال، وولد الشافعي سنة ١٥٠ هـ، وتوفي ٢٠٤ هـ. ولكن مالك عاصر الامام زين العابدين عليه السلام وقال عنه: «وإن علي بن الحسين كان من أهل الفضل». راجع تهذيب الكمال: ج ٢٠ ص ٣٨٥، وسير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٣٨٨، وقال عنه سعيد بن المسيب: «ما رأيت أروع منه». راجع: تهذيب الكمال: ج ٢٠ ص ٣٨٩، وسير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٣٩١، وقال عنه سفيان بن الزهري: «ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين» راجع تهذيب الكمال: ج ٢٠ ص ٣٤٨، وسير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٣٨٧.

من أهلي يذبحون في غداة واحدة».

وربما فسّر لنا هذا المقال بعض أسباب انصرافه إلى تعليم المسلمين دينهم؛ لصالح دنياهم، وإجماع المسلمين على إجلاله^١.

وفي سنة ٩٤، سنة الفقهاء، مات جمع من فقهاء المدينة: عروة بن الزبير، والسعيدان: ابن جبير وابن المسيّب، وأبو بكر بن عبد الرحمان. وارتفعت فيها أو في سنة ٩٥ روح زين العابدين إلى الرفيق الأعلى، مخلفاً أربعة عشر ولداً، منهم عشرة رجال، كبيرهم: محمد؛ أبو جعفر، المكنى بالباقر، وفيهم: زيد بن علي.

الباقر (٥٧ - ١١٤ هـ)

انصرف الإمام محمد الباقر للعلم بكله، فهذا أول دروس أبيه له، بقر العلم أي تبحر فيه، فسّمى الباقر^٢.

١. حجّ هشام بن عبد الملك في خلافة أبيه - فرأى رجلاً ينحفل الناس إليه، ويفسحون في الطواف له، في حين لا ينحفل الناس بابن الخليفة، فسأل: من هذا؟ وسمع الفرزدق السؤال، فأنشد ميمته الطويلة المشهورة في الأدب العربي، ومما جاء فيها:

هذا التقي النقي الطاهر العَلَم	هذا ابن خير عباد الله كلهم
والبيت يعرفه والحلّ والحرم	هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
إلى مكارم هذا ينتهي الكرم	إذا رأته قريش قال قائلها
عن نيلها عرب الإسلام والعجم	ينمي إلى ذروة العزّ التي قصرت
فلا يكلم إلا حين يستمس	يفضي حياءً ويغضى من مهابته
بجده أنبياء الله قد خُتموا	هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
جرى بذاك له في لوحة القلم	الله شرّفه قدراً وعظّمه
العرب تعرف من أنكرت والعجم	وليس قولك من هذا بضائه
لولا التشهد كانت لاؤه نعم	ما قال «لا» قطّ إلا في تشهده
كفر، وقربهم منجى ومعتم	من معشر حبيهم دين، وبغضهم
فالدّين من بيت هذا ناله الأمم	من يعرف الله يعرف أولية ذا

وغضب هشام، وأرسل زين العابدين للفرزدق أربعة آلاف درهم، ردّها الفرزدق قائلاً: إنّما مدحتك بما أنت أهله، وردّها الإمام قائلاً: «إنا أهل بيت إذا وهبنا شيئاً لا نستعيده». (منه).

٢. «عن عمرو بن شمر قال: سألت جابر بن يزيد الجعفي فقلت له: لِمَ سُمّي الباقر يا قرأ؟ قال: لأنّه بقر العلم بقرأ،

روى علم أبيه وجدّيه: الحسين والحسن، وجدّ أبيه: علي، وجادل عبد الله بن عباس. وعنه روى بقايا الصحابة والتابعين، وكان يقصد الحسن البصري وناقياً مولى ابن عمر. سأل سائل عبد الله بن عمر في مسجد الرسول، فأشار إلى حيث يجلس الباقر، وقال: اذهب إلى هذا الغلام وسله، وأعلمني عمّا يجيبك، فلما عاد إليه بالجواب قال: إنهم أهل بيت مفهمون^١.

وروى عنه الفطاحل: أخوه زيد، وابنه جعفر الصادق، ثم الأوزاعي إمام الشام، وابن جريج^٢ إمام مكة، وأبو حنيفة، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم شيخ مالك إمام المدينة، وحجاج بن أرطاة^٣ (١٤٥) ومكحول بن راشد^٤، وعمرو بن دينار^٥ (١١٥)، ويحيى بن كثير (١٢٩)، والزهري (١٢٤) وربيعة الرأي (١٣٦)؛ شيخاً مالك، والأعمش^٦ (١٤٨)، والقاسم

→ أي: شقّه شقاً، وأظهره إظهاراً «علل الشرائع: ج ١ ص ٢٢٣. وقيل في سبب تسميته الباقر ما ذكره السبط ابن الجوزي: «سُمّي الباقر من كثرة سجوده، بقر السجود جيته، أي: فتحها ووسّعها، وقيل: لغزارة علمه» تذكرة الخواص: ص ٣٣٦. وذكر الجوهري في الصحاح: ج ٢ ص ٥٩٤: التبقّر: التوسّع في العلم. ١. مناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ٣٢٩، بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ٢٨٩، ونقلها ابن أبي شيبة في المصنّف: ج ١ ص ٤٨٠ و ج ٤ ص ٢٧٠ في محمد بن الحنفية.

٢. عبد العزيز بن جريج المكي، مولى قريش، قال ابن حبان في مشاهير علماء الأمصار: ص ١٤٥: ليس له عن صحابي سماع، قال عنه عطاء بن رباح: إنّه سيّد شباب أهل الحجاز. نقله عنه الذهبي في سير الأعلام: ج ٥ ص ٤٣٤.

٣. قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: ج ٥ ص ٤٣٤: إنّه سيّد شباب أهل العراق. وهو الحجاج بن أرطاة النخعي القاضي، سمع عطاء، وروى عنه الثوري وشعبة. وقال ابن المبارك: كان الحجاج مدلساً. (الضعفاء - البخاري: ص ٣٦).

٤. عالم أهل الشام، يكتنّى أبا عبد الله الدمشقي الفقيه، أرسل عن النبي وعن عدّة من الصحابة أحاديث، وروى عن طائفة من التابعين ما أحسبه لقيهم، عداه في أوساط التابعين، من أقران الزهري، وقيل فيه: هو عبد نوبي اعتقته امرأة من هذيل وتركته يسود الشام. (سير أعلام النبلاء: ج ٥ ص ٧٢ و ٨٥ و ١٥٥).

٥. عمرو بن دينار الجمحي بالولاء: أبو محمد الأثرم، فقيه، ولد سنة ٤٦ هـ، كان مفتي أهل مكة، فارسي الأصل، مولده بصنعاء، ووفاته بمكة سنة ١٢٦ هـ. قال شعبة: ما رأيت أثبت في الحديث منه. وقال النسائي: ثقة ثبت. وأتهمه أهل المدينة بالتشيع والتحامل على ابن الزبير. (الأعلام: ج ٥ ص ٧٧).

٦. سليمان بن مهران الأسدي بالولاء، الملقب بالأعمش، تابعي مشهور، أصله من بلاد الري، ومنشؤه ووفاته بالكوفة. كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض، قال الذهبي: كان رأساً في العلم النافع والعمل الصالح. وقال

بن محمد بن أبي بكر (١٠٦)، وأبان بن تغلب^١ (١٤١)، وجابر الجعفي (١٢٨)، ووزارة بن أعين^٢ (١٥٠)، والثلاثة الأخيرون من كبار علماء الشيعة ورواة ابنه جعفر الصادق.

يقول محمد بن المنكدر - شيخ مالك بن أنس - في الباقر: «ما كنت أرى أن مثل علي بن الحسين يدع خلفاً يقاربه في الفضل، حتى رأيت ابنه محمداً الباقر»^٣.

وما هو في سجايه إلا خليفة «السجاد»، يطوف بالبيت فيركع ويسجد، فإذا كان سجوده قد بلله الدمع.

يقول عنه الحسن البصري: «ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء»^٤.

عايش الباقر أباه زماناً طويلاً، ولم يمتحن محنة أبيه في كربلاء^٥، أو محنة أخيه زيد إذ أخرجه أهل الكوفة وخذلوه، ولم تتور حياتاه الامتحانات المتعاقبة التي اعتورت حياة ابنه الإمام الصادق، أو خلافت بني عمومته - أبناء الحسن - أو الإرهاب الفكري أو الفعلي من الخليفة المنصور. فأتى الباقر أن يبلور اتجاه أهل البيت - من نسل الحسين - إلى العلم والتعليم، ويبرز فيه العناية بفقهاء العبادات والمعاملات، وكثير ترديد اسمه مصاحباً لاسم ابنه الإمام الصادق في كتب الفقه الشيعي^٦، وإليه يرجع أصحاب الكلام في العقائد الشيعية، وكثير

→ السخاوي: لم ير السلاطين والملوك والأغنياء في مجلس أحقر منهم في مجلس الأعمش مع شدة حاجته وقره، ولد سنة ٦١ هـ، وتوفي سنة ١٤٨ هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ١٣٥).

١. أبان بن تغلب بن رباح البكري الجريري بالولاء: أبو سعيد، قارئ لغوي، روى عن السجاد والباقر والصادق عليه السلام، مات أيام الصادق عليه السلام، ولما بلغه خبر موته قال عليه السلام: «أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان». ولأه الباقر عليه السلام الجلوس في مسجد المدينة ليفتي الناس، كان موثقاً عند الفريقين. (الإمام الصادق للمظفر: ج ٢ ص ١٣١).

٢. وزارة بن أعين الشيباني، مولاهم، روى عن الصادقين عليه السلام، وأدرك الكاظم عليه السلام. قال ابن النديم في الفهرست: وزارة أكبر رجال الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفةً بالكلام والتشيع. قال له الصادق يوماً: «يا وزارة إن اسمك في أسامي أهل الجنة بغير ألف» وقال «لولا وزارة لظننت أن أحاديث أبي ستذهب». (الإمام الصادق للمظفر: ج ٢ ص ١٤٤).

٣. الإرشاد للمفيد: ج ٢ ص ١٦١، بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ٢٨٧، درر الأخبار: ص ٣٣٦.

٤. ذكر الثعالبي في تفسيره: ج ١ ص ٧٩ هذه العبارة للباقر عليه السلام بحق الحسن البصري، لا العكس.

٥. الثابت تاريخياً أن الباقر حضر الطف، ولكنّه كان صغيراً.

٦. حتى ورد تسميتهما بالباقرين أو الصادقين.

من الفقه المستنبط من القرآن والسنة.

روى عنه جابر الجعفي^١ أكثر من خمسين ألف^٢ حديث، وروى عنه محمد بن مسلم^٣ ثلاثين ألفاً. وكان عبد الملك بن مروان يعرف له حقّه وهو في صدر شبابه، في حياة أبيه. إليك أمثالاً لفكره في السياسة والفقه والتفسير:

* روى الكسائي^٤: دخلت على الرشيد فقال: هل علمت أول من سنّ الكتابة على الذهب والفضة؟ قلت: عبد الملك بن مروان، قال: ما السبب؟ قلت: لا أعرف، قال: كانت القرايطيس للروم، وكان أكثر من بمصر على دينهم، وكانت تطرّز «أباً وابناً وروحاً» وتخرج من مصر تدور في الآفاق، فأمر عبد العزيز - وكان عامله على مصر - بإبطال ذلك، وأن تطرّز بصورة التوحيد، مشهداً الله ألا إله إلا هو، فلما وصلت القرايطيس إلى ملك الروم كتب إلى عبد الملك: إن لم يرد هذا الطراز على ما كان عليه فسينقش على القرايطيس شتم النبي! فاستشار عبد الملك، فلم يجد عند أحد رأياً، فاستشار الباقر، فقال له: لا يعظم عليك هذا الأمر من جهتين: الأولى: أن الله عزّ وجلّ لم يكن ليطلق ما تهدّد به صاحب الروم، والثانية: أن تهدّد من يتعامل بغير دنائيرك. فلما علم الروم أن دنائيره سيبتل التعامل بها إن حوت

١. جابر بن يزيد الجعفي الكوفي، روى عن الصادقين، ومات أيام الصادق سنة ١٢٨ أو ١٣٢هـ، وهو ممّن يحمل أسرار أهل البيت، وله كرامات باهرة، أمره الباقر عليه السلام بإظهار الجنون فأظهره، وذلك لئلا يعلم الإمام أن هشام يريد، فلما طلبوه وجدوه يلعب مع الصبيان على القصب فتركوه. قال عنه الزركلي: تابعي من فقهاء الشيعة، من أهل الكوفة، أثنى عليه بعض رجال الحديث، وكان واسع الرواية، غزير العلم بالدين. (الإمام الصادق للمظفر: ج ٢ ص ١٣٦).

٢. بل قيل: سبعين ألف حديث. كما ذكره المظفر في كتابه (الإمام الصادق: ج ٢ ص ١٣٦).

٣. محمد بن مسلم الثقفي الكوفي القصير، روى عن الصادقين عليهما السلام، وأدرك زمن الكاظم عليه السلام، كان المثل الأعلى للصالح والطاعة لآئمة. وعُدّ فقيه عصره، حتّى قال فيه ابن الحجاج وحماد بن عثمان: ما كان أحد من الشيعة أوفى من محمد بن مسلم. وهو من السنة أصحاب الإجماع الذين أجمعت الطائفة على تصحيح ما يصحّ عنهم، توفي سنة ١٥٠هـ. (الإمام الصادق للمظفر: ج ٢ ص ١٦٥).

٤. علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي: أبو الحسن الكسائي، إمام في اللغة والنحو والقراءة، ولد في الكوفة وتعلّم بها، وقرأ النحو بعد الكبر، وتنقل في البادية، وسكن بغداد، وتوفّي بالري سنة ١٨٩هـ. وهو مؤدّب الرشيد العباسي وابنه الأمين. (الأعلام: ج ٤ ص ٢٨٣).

شتماً، كفَّ عما تهَدَّد به^١.

* وفي الاحتكار ورفع الأسعار، يقول في مسجد الرسول: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا رجلٍ اشترى طعاماً فكبسه أربعين صباحاً، يريد غلاء المسلمين، ثم باعه، فتصدَّق بثمانه، لم يكن كفَّارة لما صنع»^٢.

* واليمين عند الشيعة لا تتعقد إلا قسماً بالله وأسمائه الحسنى وصفاته الدالة عليه صراحةً، فمن حلف بغيرها لا يحنت إذا لم يفعل، سئل الباقر عن قوله تعالى: ﴿والليل إذا يغشى﴾^٣ «والنجم إذا هوى﴾^٤ وما إلى ذلك، فأجاب: «إنَّ لله عزَّ وجلَّ أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به»^٥.

* وسئل: أبالناس حاجة إلى الإمام؟ فأجاب: أجل؛ ليرفع العذاب عن أهل الأرض^٦. وذكر قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^٧.

تعاقب على الخلافة في حياة الباقر أربعة من أبناء عبد الملك^٨، وزوج ابنته عمر بن عبد العزيز - خامس الراشدين في مدة خلافته - وكان عمر يتردد على الإمام الباقر يستنصحه، والباقر يوصيه بالمسلمين أجمعين، فيقول له بين ما يقول: «أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً، وأوسطهم أخاً، وأكبرهم أباً. فارحم ولدك، وصل أخاك، ويزر والدك. فإذا

١. أصل الواقعة يرويها حياة الحيوان للدميري: ج ١ ص ٦٣ عن المحاسن والمسائى لإبراهيم بن محمد البيهقي. وراجع شرح اللمعة الدمشقية: ج ١ ص ٢٩١.

٢. الوسائل: ج ١٧ ص ٤٢٥ ج ١٢ ص ٣١٤، الأمالي للطوسي: ص ٦٧٦، بحار الأنوار: ج ١٠٠ ص ٨٩.

٣. الليل: ١.

٤. النجم: ١.

٥. تهذيب الأحكام: ج ٨ ص ٢٧٧ ح ١٠٠٩، وسائل الشيعة: ١٦ ص ١٦٠، الكافي: ج ٧ ص ٤٤٩.

٦. نقله بالمضمون وهو: «قيل له: لأي شيء يحتاج إلى النبي والإمام؟ فقال: لبقاء العالم على صلاحه، وذلك أن الله عز وجل يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبي أو إمام، قال الله عز وجل: ﴿ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ «علل الشرائع: ج ١ ص ١٢٣، نوادر الأخبار: ص ١١٣.

٧. الأنفال: ٣٣.

٨. هم: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام.

صنعت معروفاً فربه»^١ أي: تعهده.

وكان نشر التشيع لأهل البيت همّه، قال سعد الإسكافي^٢: قلت لأبي جعفر الباقر: إني أجلس فأقص وأذكر حقكم وفضائلكم، قال: «وددت لو أن علي كل ثلاثين ذراعاً قاصاً مثلك»^٣.

وحجّ هشام بن عبد الملك في أيام ملكه (١٠٥ - ١٢٥) فرأى الباقر بالمسجد يعلم الناس في مهابة وجلال تعاليم الإسلام وآدابه وفرائضه وأحكامه، والناس خُشع في مجلسه، وغلبت هشاماً غريزة المعاجزة لأهل البيت، فبعث إليه^٤ من يسأله: ما طعام الناس وشرابهم يوم المحشر؟ وأجابه الباقر بآيات الكتاب الكريم، واستطرد في تعليمه وتعليم من أرسله. وسمعه الحجاج - عامئذٍ - يقول للناس: «الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبياً، وأكرمنا به، فنحن صفوة الناس من خلقه، وخيرته من عباده وخلفائه، فالسعيد من تبعنا، والشقي من عادانا»^٥.

ورجع هشام إلى عاصمته، فأرسل في دعوة الباقر وابنه الصادق إلى قسبة الملك في

١. الأمامي لأبي علي القالي: ج ٢ ص ٣٠٨، بهجة المجالس: ص ٢٥٠.

٢. هو سعد، وقيل: سعيد بن طريف التميمي، وقيل: التيمي بالولاء، الحنظلي، الكوفي، المعروف بالاسكافي، وقيل: الخفاف، وقيل: الحذاء. محدث ناووسي العقيدة، ضعيف الحديث، وقيل: حديثه يُعرف ويُكره، وقيل: حديثه نظر، وقيل: كان صحيح الحديث، ضعفه بعض العامة وتركوه، وكان من قضاة وقته، وله كتاب، روى عن السجاد والباقر عليه السلام. راجع في ذلك: رجال الطوسي: ٩٢ و ١٢٤ و ٢٠٣، ورجال النجاشي: ١٢٧، ومعجم رجال الحديث: ج ٨ ص ٤٥ و ٦٧ و ١٢٠.

٣. مستدرک سفينة البحار: ج ٢ ص ٧٤، اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٤٧٦، إيضاح الاشتباه: ص ١٩١، طرائف المقال: ج ٢ ص ٢٣.

٤. الذي بعثه رجل من النصارى قال له: من أين ادّعيتم أن أهل الجنة يطعمون ويشربون ولا يحدثون؟! فقال عليه السلام: «دليلي ما ندّعي شاهد لا يُجهل، الجنين في بطن أمه يطعم ولا يحدث» راجع: البحار: ج ٦٩ ص ١٨٥، مدينة المعاجز: ج ٥ ص ٧٢، دلائل الإمامة: ص ٢٣٧، منتهى الآمال نقلاً عن جلاء العيون: ج ٢ ص ١٧٧.

٥. الرواية تقول أنه حجّ الباقر والصادق عليه السلام، فقال جعفر بن محمد ذلك. راجع: منتهى الآمال: ج ٢ ص ١٧٣ نقلاً عن جلاء العيون، وكذا نقلها الطبري في دلائل الإمامة: ص ٢٣٣.

دمشق . يقول الصادق: «فلما وردنا دمشق حُجبتنا ثلاثاً، ثم أدخلنا في اليوم الرابع»^١ وكأنا أراد هشام أن يظهرهما عليّ أنه إذا لم تكن له مكانة في جوار البيت العتيق ومسجد الرسول، أو كانت الكرامة كلها في الحج الأكبر لأهل البيت، فإنّ له بيتاً في دمشق وحجّاباً ومواعيد!

والباقر، كالائمة من أبنائه، يفضّلون علياً على سائر الصحابة، لكنهم لا يبرأون من الشيخين، يقول لجابر الجعفي: «يا جابر، بلغني أنّ قوماً بالعراق يزعمون أنّهم يحبّوننا ويتناولون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ويزعمون أنّي أمرتهم بذلك، فأبلغهم أنّي إلى الله منهم بريء، والذي نفس محمد بيده، لو وليت لتقرّبت إلى الله بدمائهم، لانالنتي شفاعة محمد أبداً إن لم أكن أستغفر لهما وأترحم عليهما»^٢.

وهو لا يترحم عليهما فحسب، ولكنّه يأمر تلميذه بأن يتولّاهما، وأن يبرأ من أعدائهما، يقول لتلميذه سالم: «يا سالم، تولّهما، وابرأ من عدوّهما، فإنّهما كانا إمامي هديّ، رضي الله عنهما». بل أنّه يتخذ عمل أبي بكر حجّة في الفقه، سئل عن حلية السيف فجوّزها، قال: «لا بأس به، قد حلّني أبو بكر الصديق عليه السلام سيفه». قال السائل: وتقول الصديق؟! فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال: «نعم، الصديق، فمن لم يقل الصديق فلا صدّق الله له قولاً في الدنيا والآخرة»^٣.

وفي سنة ١١٤ هـ اختاره الله إلى جواره، لتبدأ إمامة ابنه جعفر الصادق.

١. دلائل الإمامة للطبري: ص ٢٣٢، مدينة المعاجز: ج ٥ ص ٦٧، بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ١٨١.

٢. تاريخ مدينة دمشق: ج ٥٤ ص ٢٨٦، البداية والنهاية: ج ٩ ص ٣٤٠، حلية الأولياء: ج ٣ ص ١٨٥.

٣. تاريخ مدينة دمشق: ج ٥٤ ص ٢٨٣، سير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٤٠٨، حلية الأولياء: ج ٣ ص ٨٤ - ١٨٥.

كشف الغمة: ج ٢ ص ٣٦٠.

الفصل الثاني

إمام المسلمين

«إِنَّ اللَّهَ أَرَادَ مِنَّا شَيْئًا، وَأَرَادَ بِنَا شَيْئًا. فَمَا أَرَادَهُ بِنَا طَوَاهُ عَنَّا، وَمَا أَرَادَهُ مِنَّا أَظْهَرَهُ لَنَا. فَمَا بَالُنَا نَشْتَغِلُ بِمَا أَرَادَهُ بِنَا عَمَّا أَرَادَهُ مِنَّا»^١.

(الإمام الصادق)

ولد الإمام الصادق في السابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٢ على قول أو غرة رجب، وفي أقوالٍ أخرى: إنه ولد سنة ٨٠ أو سنة ٨٣. وتتابع بعده أبناء الباقر، ولهذا يكنى الباقر: أبا جعفر، أمّا أخوه الشقيق: فعبد الله.

وأما أولاد الصادق: فإسماعيل وعبدالله - وبه يكنى أبا عبدالله - وأم فروة من زوجته فاطمة بنت الحسين ... بن الحسين بن علي، وموسى (الكاظم)، وإسحاق، ومحمد. وأمهم أم ولد، تدعى: «حميدة»، والعباس وعلي وأسماء من أمهات متفرقات.

واسم جعفر في بيت زين العابدين مذكّر بأول الشهداء من بيت أبي طالب، فعلي هو الثاني فيه، والحسين هو الثالث.

أمّا الأول فجعفر بن أبي طالب قائد جيش مؤتة وشهيدها، الطيّار في الجنة، وذو الجناحين، كما وصفه رسول الله ﷺ، وكما روى البخاري ومسلم: قال له رسول الله:

١. إثنتا عشرة رسالة للمحقّق الداماد: ج ٨ ص ١١٨ نقلًا عن الملل والنحل للشهرستاني، تلخيص المتشابه في الرسم: ج ٢ ص ٨٢٢، من مفردات القرآن: ص ٤٨، تاريخ المذاهب الاسلامية: ص ٧١٨، رسول الله في القرآن: ص ٤٠، مجموعة الرسائل لابن أبي الدنيا: ص ١٠٨.

«أنت أشبهت خلقي وخلقِي»^١.

وهو أول زوج لأسماء بنت عميس^٢ جدّة أم فروة: أم جعفر الصادق.

ولقد مرّ بنا كيف ولده رسول الله مرّتين، وعلي مرّتين، والصدّيق مرّتين، ليدلّ التاريخ على أنّه نسيج وحده، وأنّ كسرى يزدرج ملك الفرس قد ولده مرّتين، ليدلّ على أنّ الإسلام للموالي والعرب.

فالباقر - وهو من هو - أكفأ الناس لأم فروة^٣ المنحدرة من صلب أبي بكر أول الخلفاء الراشدين، والقاسم بن محمد^٤ الذي يرشّحه للخلافة عمر بن عبد العزيز؛ خامس الخلفاء الراشدين.

وكانما سلّم الباقر ابنه شعار حياته في مقولتين صيّرتاه ربانياً من كلّ وجه: الأولي: «شيعتنا من أطاع الله»^٥ والثانية: «إنّ الله خبأ رضاه في طاعته، فلا تحقرنّ من الطاعات شيئاً

١. المجموع: ج ١٨ ص ٨٤ و ٢٢٨، شرح أصول الكافي: ج ٧ ص ١٩٠، خصائص النسائي: ص ٢٢٨ - ٢٤١.

المستدرک للحاکم: ج ٣ ص ١٢٠، الإصابة لابن حجر: ج ٢ ص ٤٣٥.

٢. يقال عن أمها «هند» أكرم الناس أحماء: أمنا أسماء فزوج جعفر ولها منه: عبد الله، وزوج أبي بكر ولها منه: محمد، وزوج علي ولها منه: يحيى. أمنا أخواتها فميمونة أم المؤمنين، ولُبابة زوج العباس عم النبي وجدّة خلفاء الدولة العباسية، وسلمى زوج حمزة بطل أحد وشهيدها وعم النبي، وأم الفضل الكبرى (أخت أسماء لأمها) أم خالد بن الوليد. وهكذا تتصل بأسماء بنت عميس أسماء هي أحرف الهجاء في تاريخ الإسلام: النبي وعميه، وابني عمه، والصدّيق، وسيف الإسلام خالد. (منه).

٣. حجّت أم فروة متنكّرة، فاستلمت الحجر بيدها اليسرى، فقال لها رجل لا يعرفها: يا أمة الله أخطأت السنّة! فأجابت: يا هذا إنّنا عن علمك لأغنياء. (منه).

٤. وللقاسم وأبيه أكبر الصلوات بأم المؤمنين عائشة، إذ ضمّته إليها بعد مقتل أبيه محمد على أيدي جند معاوية، ومحمد ربيب علي، سيّره معها بعد وقعة الجمل إلى المدينة في كوكبة من النساء في ملابس الرجال، وكان تسيير أخيها معها كرامة يحفظ بها أخو الرسول أم المؤمنين.

وفي بيت عائشة سقى القاسم علمها الذي أراد عمر بن عبد العزيز تدوينه عن طريقه، وعمر خليفة، حتّى لا يضيع على المدينة، فكتب بذلك إلى قاضيه وواليه على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم. وسترى الإمام جعفر الصادق يروي عن خاله عبد الرحمان بن القاسم، وعن عروة بن الزبير (ابن أسماء أخت عائشة)، وعروة من كبار رواةها ورواة الصحابة. (منه).

٥. مستدرک الوسائل: ج ١١ ص ٢٥٧، مناقب أمير المؤمنين للكوفي: ج ٢ ص ٢٨٦، الأمالي للطوسي: ص ٢٧٣، حلية الأولياء: ج ٣ ص ١٨٤، الفصول المهمة: ١٩٥، بحار الأنوار: ج ٦٥ ص ١٥٣ و ج ٧٥ ص ١٨٦، البداية والنهاية: ج ٩ ص ٣٤٠، كشف الغمّة: ج ٢ ص ٣٤٥.

فلعلّ رضاه فيه، وخبياً سخطه في معصيته، فلا تحقرنّ من معصية شيئاً فلعلّ سخطه فيه، وخبياً أوليائه في خلقه، فلا تحقرنّ أحداً فلعلّه ذلك الولي»^١.

تلقى الصادق من أبيه كلّ ما وعاه قلبه، وقرأ كلّ ما حوته كتبه، واستمع إلى علماء العصر، وانتفع بعلوم جدّه لأمه القاسم بن محمد بن أبي بكر (١٠٦)، وكان مثلاً عالياً للأمة، وواحداً من الأعمدة السبعة المسّمين «علماء المدينة السبعة»^٢. يعلن عمر بن عبد العزيز أنّه «لولا خوف الفتنة من بني أمية لاستخلفه على الأمة»، ويوصي عمر عمّاله أن يكتبوا السنن من عنده.

فهذا رجل له ورع عمر بن عبد العزيز، وعنده كلّ علم المدينة، وأنه ليستطيع أن يقول - من صلة علي الوثقى بأبيه محمد بن أبي بكر -: إنه أوثق أهل بيته صلةً برسول الله ﷺ، وبأول من تبعه، علياً كان أو أبا بكر، بل بهما معاً.

وعندما نذكر أنّ القاسم بن محمد ظلّ مصدراً للعلم حتّى شارف الصادق ربع القرن من حياته، وأنّ الصادق شهد حلقات عكرمة مولى ابن عباس، (١٠٤) وعطاء بن أبي رباح بمكة حيث كان يجلس ابن عباس، وأنّ أوامر الولاية في الموسم كانت «لا يفتي الناس إلاّ عطاء»^٣، كما شهد بالمدينة حلقة عبد الله ابن أبي رافع - مولى أمير المؤمنين علي - الذي أملئ علي عليه كتابه إلى معاوية، وحلق خاله عبد الرحمان بن القاسم^٤، وعروة بن الزبير (٩٤) الراوية عن خالته عائشة، ومحمد بن المنكدر (١٣٠) شيخ مالك، فليس علينا أن نحاول البحث عمّا تلقاه جعفر بن محمد الصادق في صباه.

١. بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ١٨٧، كشف الغمة: ج ٢ ص ٣٦٠، درر الأخبار: ص ٥٤٦، نزهة الناظر: ص ٩٩، فهرست منتجب الدين: ص ٣٢٠، وهناك مصادر أخرى ذكرتها بنفس المضمون منها: العهود المحمدية: ص ٣٧٤، كنز القوائد: ص ١٣، مستدرک الوسائل: ج ٩ ص ١٠٣، وسائل الشيعة: ج ١١ ص ٢٤٧، معاني الأخبار: ص ١١٢.

٢. يقول فيه يحيى بن سعيد (١٤٣) تلميذ فقهاء المدينة السبعة: «ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضله على القاسم». وابن حنبل يقول في يحيى: «أثبت الناس». (منه).

٣. بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ٢٨١، تهذيب الكمال: ج ٢ ص ٧٨، سير أعلام النبلاء: ج ٣ ص ٨٢، تهذيب التهذيب: ج ٧ ص ١٨١، البداية والنهاية: ج ٩ ص ٣٣٥، وينقل رواية عن الباقر عليه السلام: «ما رأيت فيمن لقيت أفقه عنه».

٤. عبد الرحمان بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق التيمي القرشي، من السادات في أهل المدينة فقهاً وعلماً وديانةً وحفظاً للحديث وإتقاناً، توفي في الشام سنة ١٢٦ هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ٣٢٢).

ولقد كان علم أهل البيت حسبه، فكيف إذا اجتمع إليه علوم هؤلاء، ليملاً بالفقه الشيعي وبالفقه المقارن مدينة الرسول، من يوم مات أبوه وهو بعد في ثلاثيناته؟ والصبي من أهل البيت لا ينفق صباحه في عمل لا شيء، فذلك هو اللهو، أو في عدم عمل شيء، فهذا هو الفراغ، وعلى الأجيال المتعاقبة منهم تبعات في تعاقب الإمامة، لا تدع لهم محيصاً عن الإحاطة الكاملة بما لدى غيرهم من علمٍ فوق علمهم، وما هو إلا القرآن والسنة والسيرة. والقرآن كما يقول ابن عباس: «في بيتهم نزل»^١، والسنة من بيتهم صدرت، والسيرة سيرتهم.

واللغة طريق ذلك كله، وهي بعد حصيلته، وأئك لتدرك منزلة جعفر بن محمد في البيان العربي من تداوله للتفسير في اقتدار على تخريج المعاني لا قرين له، وسنراه غداً عمدته النصوص في الفقه والدين، يستخرج منها أعمق المعاني بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، شأن أمراء البيان، ومن تكن النصوص عمدته الأولى فالبلاغة عدته الكبرى.

ولئن لم يتميز الأطفال أو الصبية في بيت زين العابدين والباقر بخصوصيات تكبر وتنمو، فتبرز إذ هم شيوخ وائمة. إن بيت زين العابدين ذاته كان «خصوصية» في مجتمع الإسلام، فيه المثل الأعلى من العلم المحيط، والورع الكامل، والتفرغ للخدمة العامة، وتعلق القلوب به، واتجاه الأبصار لتلقاه.

على هذا درج بيت زين العابدين، مع الاستمرار والاستقرار، فلم يعكّر الصفو فيه غير مصرع زيد في سنة ١٢١، بعد إذ خذله أهل الكوفة في مخرجه، فمصرع ابنه يحيى. وحمل الصادق الأمانة في ذوي رحمه - منذ صار إماماً بوفاة الباقر سنة ١١٤ - فكان يحنو على الأحياء من أبناء عمه زيد، ويأسو جراحات من سقط أبواهم في الحرب من رجال زيد، فبعث ألف دينار فُرقت في ورتتهم^٢.



وليس أحد بحاجة في ترجمة أئمة أهل البيت ليسترسل في وصف خصال من يرث

١. التفسير والمفسرون للذهبي: ج ٢ ص ١٨٩ ولذا ورد في زيارات الأئمة: بأنهم مهبط الوحي.

٢. روضة الواعظين: ص ٢٧٠، الاحتجاج: ج ٢ ص ١٣٥، كشف الغمة: ج ٢ ص ٣٤٢، الأمالي للصدوق: ص ٤١٦، الإرشاد: ج ٢ ص ١٧٣، بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ١٧٠، سز السلسلة العلوية لأبي نصر البخاري: ص ٥٩.

أخلاق الأنبياء ويعلمها.

فلنستحضر ونحن في بيت النبي، ما كان يصنعه النبي، ولنتيقن أنّ الإمام الصادق كان يحاول أن يصنع نظيره، ولنستحضر فعال علي وزهراء النبي، والحسن والحسين، وزين العابدين، والباقر. فهي أصول يتلقاها الخلف عن السلف، ليعملوا بها، ثم يعلموا بها. وربما أجزأ في هذا المقام ذكر أمثال عادية من الحوادث اليومية تصوّر صميم «الشخصية»، وفيما نذكره دلائل على كثيرٍ لم نذكره.

فحياة الإمام مدرسة وتطبيقاتها، والعمر أيام تتكرّر، والحياة جماع أعمال يدلّ بعضها على البعض الآخر، ومنها الجزئي الذي يستنبط منه الكلي، وكثيراً ما كان العمل الواحد (ردّ فعل) عفوي أو فوري، صادراً عن عدّة قواعد يجري عليها العقل أو الشعور أو السليقة أو الطريقة، فردود الأفعال شهادات عيان بدخائل الإنسان.

(١) مات بين يدي الإمام ولد صغير، فبكى، وقال: «سبحانك ربّي لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت».

وحمله إلى النساء، وعزم عليهنّ ألاّ يصرخن، وقال: «سبحان من يقبض أولادنا ولا نزداد له إلّا حباً، إنا قوم نسأل الله ما نحبّ فيعطينا، فإذا نزل ما نكره فيمن نحبّ رضينا»^١. فأبى قلب في اطمئنانه وأتزانه، كمثّل ذلك الذي يفيض بالشكر، حيث يغيض الصبر عند الغير!

(٢) ونهى أهل بيته عن الصعود، فدخل يوماً فإذا جارية من جواريه تربّي بعض ولده، قد صعدت السلم والصبي معها، فلما نظرت الإمام ارتعدت لعصيانها وسقط الصبي من يدها، فمات! فخرج الصادق متغيّر اللون، فسئل عن ذلك فقال: «ما تغيّر لوني لموت الصبي، وإنّما تغيّر لوني لما أدخلت على الجارية من الرعب» ثم قال لها بعد ذلك: «أنت حرّة لوجه الله، لا بأس عليك»^٢.

فهذا أمر واحد عادي، تبعته وقائع ثلاثة غير عادية، أعقبها من الإمام تصرّفات لا تصدر

١. مستدرک الوسائل: ج ٢ ص ٤٨٠، البحار: ج ٨٢ ص ١٣٣، الغارات: ج ٢ ص ٥٧٦، أمالي المرتضى: ج ٣

ص ٦٣، أمالي الطوسي: ص ١٥٢، مسکن القواد: ص ٨٨

٢. مناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ٣٩٥، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢٤، درر الأخبار: ص ٣٤٠، العدد القوية:

إلا عن الإمام، في كل واحدة منها أنواع فضائل: تبدأ باحترام إنسانية الإنسان، وتنتهي بعطاء، دونه كل عطاء، يختمه بالكلمة الطيبة لا بأس - ويبدوه بأعلى القيم الإنسانية، إذ يمنحها حرمتها.

(٣) وذهب مرة يعزي أحد المصايين بفقد ولده، وانقطع في الطريق شسع^١ نعله، فتناوله من رجله ومشى حافياً، فخلع ابن يعفور شسع نعله وقدمه له، فأعرض عنه كهينة المغضب وقال: «لا، فصاحب المصيبة أولى بالصبر عليها»^٢. فالإمام لا يلقي متاعه على من دونه، بل يتحمل الأذى ليتعلم الناس وجوب العمل، ولزوم التحمل، ولتعلم الكبرياء أنهم كبرياء بما يضرّبونه من المثل، وليدرك الجميع أن الصبر على المصيبة شطر الإيمان، وأحق الناس به من أتاحت الفرصة له.

(٤) وذات يوم دعا للطعام عابر سبيل لم يقرئه السلام، فراجعته حُضارته متسائلين بين يديه: أليست السنة أن يسلم الرجل أولاً ثم يدعى للطعام؟ فأجاب الإمام: «هذا فقه عراقي فيه بخل»^٣.

فقه الإمام «علوي» يبدأ بالعطاء، وعملي فيه مبادرة، واجتماعي يسعى به المعطي إلى الآخذ، وإسلامي إنساني، كله كرامة.

لقد ولد في دار شعارها البدار بالعطاء مع الإخفاء، حتى الصدقة يقول فيها الباقر: «أعطي ولا تُسمِّ، ولا تذلل المؤمن»^٤.

وفي ذلك السنة...، وسرئ تطبيقات شتى من الإمام لهذا الفقه في المنهج الاقتصادي.

(٥) وصحا رجل من الحاج فلم يجد هميانه (الكرم الذي يلقه المحرم حول بطنه وفيه نفقته من النقود) فخرج فوجد الإمام الصادق يصلي، فتعلق به وهو يقول: أنت أخذت همياني! قال الصادق: كم كان فيه؟ قال: ألف دينار، فأعطاه ألف دينار، ومضى الرجل فوجد هميانه، فرجع يعتذر ويرد ألف دينار، فأبى الصادق أن يأخذها وقال: «شيء خرج من يدي

١. الشسع بالكسر، جمعه شسوع: النعل، وهو ما يدخل بين الأصبعين، في النعل العربي ممتد إلى الشراك. (مجمع البحرين: ج ٤ ص ٣٥٣).

٢. الكافي: ج ٦ ص ٤٦٤، شرح أصول الكافي: ج ١٢ ص ١٨٢، وسائل الشيعة: ج ٥ ص ٦٥ و ج ٣ ص ٣٨٤، مكارم الأخلاق: ص ١٢٤.

٣. بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٠٥، مستدرک سفينة البحار: ج ٦ ص ٥٣٦ و ج ٨ ص ٢٨٦.

٤. الوسائل: ج ٦ ص ٢١٩ ب ٥٨ من أبواب المستحقين للزكاة، الحديث الأول.

فلا يعود»، قال الرجل لمن حوله: من هذا؟ قالوا: جعفر الصادق، قال: لا جرم، هذا فعال مثله^١.

فإمام المسلمين لا ينعزل عنهم، فلا يمتاز منهم، حتّى ليخطئ الجاهلون منهم في شخصه، فيعرض عن الجاهلين، ويخفّ ليخفّف كرب المكروب، لا يحزنه وهمه أو اتّهامه، وإنما تحزنه همومه، فيشركه فيها بالصنيع النابه مرةً إثر أخرى. والناس أسمع للصوت الذي لا صرير له، وأبصر بالإخلاص الذي لا يتصايح صاحبه به، والأفضل أفعال تدرك آثارها الحوائس الخمسة.

ولا نستطرد في السرد، ففي كلّ واقعة سلفت «عدسة» صغيرة تريك العالم الكبير الذي وراءها، من مناقب كالنجوم وإن كان أصحابها من البشر. هذه سماء تسعى على الأرض، وهؤلاء بقية النبي عليه الصلاة والسلام، يعيشون في الدنيا!

مجالس العلم

شهد الإمام الصادق انحدار الناس بعد عصر الخلفاء الراشدين، ورأى بعين الصبي المأمول من أهل بيت الرسول ما صنعه عمر بن عبد العزيز في خلافته بين سنتي ٩٨ و ١٠١، إذ أعاد الدين غضّاً في نحو من ثلاثين شهراً، وأثبت للدنيا أنّ المدّة - كما سمى الناس خلافته - كانت كافية لتعيد الناس إلى الإسلام الصحيح، عندما يوجد خليفة صادق العزم، يتّخذ الخلافة - كما قال - سبيلاً إلى الجنّة.

وكان بعض الصالحين يستعجلون عمر ليصنع كلّ ما صنع في أول يوم ولي الخلافة، قال له ابنه عبد الملك: «يا أبت، ما بالك لا تنفذ الأمور، فوالله لا أبالي في الحقّ لو غلت بي القدور» لكن عمر كان يتأثّر للأمر في رفق وأناة وإصرار، قال: «لا تعجل يا بني، إنّ الله تعالى ذمّ الخمر مرّتين، وحرّمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الناس على الحقّ جملةً، فيدفعوه جملةً، فتكون فتنة». وبهذا قدر على أن يرّد المظالم، وأغنى الله الناس على يديه، فأصبح عمر لا يجد فقراء يوزّع المال عليهم، في المدينة أو في القرية.

١. مستدرك الوسائل: ج ٧ ص ٢٠٧، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢٤.

لكن الإمام الصادق تعلم من حياة الخليفة الصادق العزم: أن إصلاحاته لم تؤت ثمارها بعد مماته، إذ دمرها الخلفاء الذين جاءوا بعده، وتتابع الباقون يدرون.
وشهد الإمام الصادق مقدم بني العباس، وكيف ناقضوا شعارات دولتهم، وحكموا حكم جاهلية.

هكذا رأى رأي العيان: أن صلاح الأمر لا يكون بتولي السلطة، أو بمجرد إصلاحها مدة قصيرة أو طويلة، وكلّ عمر قصيرة، وإنما الصلاح في إصلاح الأمة، فكيفما تكونوا يولي عليكم، ولكلّ أمة الحكومة التي تستحقّها.
واستيقنت نفسه الصواب فيما صنعه أبوه وجدّه، وهو أن يعلموا الأمة، فإذا تعلمت صلحت، فلم يستضعفها حكّامها، وهي عندئذ تأمرهم بالمعروف وتنهّاهم عن المنكر، وتشركهم تبعاتهم، فالأمة القوية لا تظلم حكّامها ولا يظلمونها.
وبشعار الثقة بالله سبحانه: «الله وليّي وعصمتي من خلقه»^١ وبنقش الخاتم الذي يعلن مصدر قوته: «ما شاء الله، لا قوّة إلاّ بالله، استغفر الله»^٢.

قصد إلى مجلس العلم، في مسجد النبي أو في داره، يستعمل البعد المكاني حيث يجلس للتعليم في مدينة الرسول، والبعد الزماني فهو تابعي يعيش في جيل التابعين وتابعي التابعين، والبعد الثالث وهو ارتفاع نسبه إلى النبي وعلي، أمّا البعد الرابع فعمق علمه وعلم أبيه وجدّه.



في هذا المجلس المهيب بالمدينة أو بالكوفة، يجلس رجل ربعة، ليس بالطويل ولا بالقصير، أزهر، له لمعان كالسراج، يسعى نوره بين يديه، رقيق البشرة، أسود الشعر جعده، أشمّ الأنف، أنزع، قد انحسر الشعر عن جبينه فبدا مزهراً، له إشراق، وعليّ خدّه خال أسود^٣.

١. الذي هو نقش خاتمه أيضاً عليّ ما رواه الكافي: ج ٦ ص ٤٧٤، والأماشي للصدوق: ص ٥٤٣، ووسائل الشيعة: ج ٥ ص ١٠٠ و ١٠٢ و ج ٣ ص ٤١٠ و ٤١٢، ومكارم الأخلاق: ص ٩١، وحلية الأبرار: ج ١ ص ٤١٩، وبحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٨.

٢. أعيان الشيعة: ج ٤ ص ٣٠. بل وقد حتّ الإمام شيعته عليّ التختّم بهذا النوع من الخاتم المنقوش، فقد روي في ثواب الأعمال: ص ١٨٠ عنه: «من كتب عليّ خاتمه: ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله، استغفر الله، أمن من الفخر المدقع».

٣. ذكر صفته في المناقب لابن شهر آشوب: ج ٣ ص ٤٠٠، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٩، مستدرک سفينة البحار: ج ٦

المسلمون أيامئذٍ أوحج إليه ليعلمهم، منهم إليه ليحكمهم، كل ما يحيط به يوحى بالرجاء في فضل الله، فلما طعن في السنّ زاد جلالاً وسناءً وإحياءً للأمل.
يلبس الملابس التي عناها جدّه عليه الصلاة والسلام حينما قال: «كُلُوا واشربوا والبسوا في غير سرف ولا مخيلة»^١.

رآه سفيان الثوري وعليه جبّة خزّ دكناء، فقال: يا ابن رسول الله، ما هذا لباسك! فقال: «يا ثوري، لبسنا هذا لله» ثم كشف عن جبّة صوف يلبسها، وقال: «ولبسنا هذا لكم»^٢.
كان جدّه علي يختار الخشن من الألبسة، ويلجّ الجوع عليه فيعلّل معدته بقرص شعير، يخيط نعله إن لم يكن مشغولاً، أو يتركه لمن يخيطه بأجرٍ إذا انشغل، لكن الزمان يتغيّر فيغيّر الصادق، ليظهر أثر النعمة، ويقول للناس: «إذا أنعم الله على عبده بنعمةٍ أحبّ أن يراها عليه، لأنّ الله جميل يحبّ الجمال»^٣. ويقول «إنّ الله يحبّ الجمال والتجمل، ويكره البؤس والتباؤس...»^٤.

والنظافة من الإيمان، فيها الكرامة والسلامة للنفس وللأسرة وللمدينة، فعلى المرء كما يقول الإمام: «أن ينظّف ثوبه، ويطيب ريحه، ويخصّص داره، ويكنس أفنيته»^٥.
وذات يوم رآه عبّاد بن كثير البصري^٦ في الطواف، فقال له: تلبس هذه الثياب في هذا

→ ص ٥٦، أعيان الشيعة: ج ٤ ص ٣١.

١. سبل السلام لابن حجر العسقلاني: ج ٤ ص ١٧٩، بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٠٧، مقدمة فتح الباري: ص ٥٩، فتح الباري: ج ١٠ ص ٢١٥، مسند أبي داود: ص ٢٩٩، التواضع والخمول: ص ٢٠٠، بغية الباحث: ١٧٤، تفسير ابن كثير: ج ٢ ص ١٨٩، و ص ٢١٩.

٢. الرواية هكذا: «لبسنا هذا لله تعالى، وهذا لكم، وما كان لله أخفينا، وما كان لكم أبدينا» راجع: بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢٢١، وتحفة الأحوذى: ج ٦ ص ٣٩٥، وتهذيب الكمال: ج ٥ ص ٨٦، وتذكرة الحفاظ: ج ١ ص ١٦٧، وسير أعلام النبلاء: ج ٦ ص ٢٦٢، وكشف الغمة: ج ٢ ص ٣٦٩، والعدد القوية: ص ١٥٠.

٣. الكافي: ج ٦ ص ٤٣٨.

٤. فقه الرضا: ص ٣٥٤، الكافي: ج ٦ ص ٤٤٠، وسائل الشيعة: ج ٥ ص ٥ و ص ٧ و ج ٣ ص ٣٤٠، مكارم الأخلاق: ص ٤١، بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١٤١، درر الأخبار: ص ٥٦٢.

٥. الوسائل: ج ٥ ص ٧ و ج ٣ ص ٣٤١، أمالي الطوسي: ص ٢٧٥، مكارم الأخلاق: ص ٤١.

٦. هو عبّاد بن كثير الثقفي البصري العابد، نزّل مكة، قال عنه شقيق البلخي: «إني أخذت العيادة منه». (سير أعلام النبلاء: ج ٩ ص ٣١٥) قال أبو طالب عن أحمد: روى أحاديث كذب لم يسمعها، وكان صالحاً، قلت: فكيف روى ما لم يسمع؟ قال: البله والغفلة. (تهذيب التهذيب: ج ٥ ص ٨٧).

الموضع، وأنت في المكان الذي أنت فيه من علي؟! فأجاب كما يروي الإمام نفسه: (قللت: فرقيب^١ - نسبة إلى «فرقب» حيث تصنع ثياب كتّان أبيض - اشتريته بدينار، وقد كان علي في زمن يستقيم له ما ليس فيه، ولو لبس مثل ذلك اللباس في زماننا لقال الناس: هذا مرآئي مثل عبّاد...»^٢).

قيل له يوماً: كان أبوك وكان...، فما لهذه الثياب المروية (حرير مرو)؟! فأجاب: «ويلك فمن حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟»^٣.

وإنك لترى آثار النعمة على مالك وأبي حنيفة، وإجابات مشتقة بدقّة من هذه الإجابات، في ردود الرجلين بشأن ملابسهما وأنعم الله عليهما - وكان كلاهما لبّاساً - فالمدموم من الثياب مافيه خيلاء، والمحمود ما كان إظهاراً لنعمة الله على عبده، حتّى تلميذه العظيم الثالث سفيان الثوري - وهو إمام الزهد والورع والحديث والفقه - قد انتفع بدروس الإمام في الملابس، فأمسى يقول^٤: «الزهد في الدنيا هو بقصر الأمل، ليس بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ»، «ازهد في الدنيا ثم نم، لا لك ولا عليك»، «إنّ الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد في الدنيا، وإنّ الرجل ليكون فقيراً وهو راغب فيها».

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يلبس ما تيسر من الصوف تارةً، ومن القطن تارةً، ومن الكتّان تارةً، وكانت مخدّته من آدم حشوها ليف نخل، ولما قال له رجل: يا رسول الله، أنا أحبّ أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسنة، أفمن الكبر ذاك؟ قال: «لا، إنّ الله جميل يحبّ الجمال، الكبر بظر الحقّ وغمط الناس»^٥.

ولم يعب الصحابة بعضهم على بعض الملابس من أعلنى وأدنى، لا يعيب صاحب الخصر

١. الفرقي: ثوب مصري أبيض، من كتّان منسوب إلى «فرقوب» مع حذف الواو، وهو موضع قريب من مصر.
٢. الكافي: ج ٦ ص ٤٤٣، مكارم الأخلاق: ص ٩٧، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٣٦١ و ج ٧٦ ص ٣٦٦، اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٦٨٩، معجم رجال الحديث: ج ١٠ ص ٢٣٢.
٣. الكافي: ج ٤ ص ٤٤٤، تفسير الصافي: ج ٢ ص ١٩٢، تفسير الميزان: ج ٨ ص ٩٣ والآية من سورة الأعراف: ٣٢.
٤. بهذا المعنى مع تفاوت يسير بالألفاظ أورده: فيض القدير: ج ١ ص ٥٩٧، وتفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٣٥٥، وذكر أخبار إصبهان: ج ٢ ص ١٤١، والبداية والنهاية: ج ٨ ص ١١.
٥. الدرر المنثور: ج ٤ ص ١١٥، فتح القدير: ج ٤ ص ١٩٠، مجمع الزوائد: ج ٥ ص ١٣٣ و ١٣٤، المعجم الكبير: ج ٧ ص ٩٦ و ج ١٠ ص ٢٢٢، مسند الشاميين: ج ١ ص ٤٢٤، علل الدارقطني: ج ٨ ص ١٠٦.

علی صاحب الصوف، ولا صاحب الصوف يعيب علی صاحب الخبز.

* * *

في هذا المجلس تتلمذ للإمام جعفر، وروى عنه - كما يقول أرياب الإحصاءات^١ - أربعة آلاف من الرواة، وكتب عنه أربعمائة كاتب، كلهم يقول: قال جعفر بن محمد^٢.
فأي مجلس كان ذلك المجلس! تراءى فيه أشياء من رسول الله ﷺ، بعضها مادي يجري في أصلاب رجل بعد رجل، وبعضه معنوي يتراءى في معانيه وفحوى مقولاته لكل هؤلاء.

ليس بالمجلس لاجحة ولا حجاج عقيم، يقول للتلامذة: «من عرف شيئاً قلّ كلامه فيه، وإنما سمّي البليغ بليغاً لأنه يبلغ حاجته بأدنى سعيه»^٣.
إذا سأل سائل عن خلافت الصحابة أجاب: «علمها عند ربّي في كتاب لا يضلّ ربّي ولا ينسى»^٤.

يهتدي بهديه الكبراء في الامتناع عن الجواب في خلاف الصحابة، يقول أحمد بن حنبل إذ يُسأل عمّا كان بين الصحابة: كان بينهم شيء الله أعلم به^٥. ومع ذلك يعجب ويتساءل عن طلحة والزبير: أكانا يريدان أعدل من علي^٦؟!
ولا يضع الحقّ في المجلس: سمع أنّ أحد الولاة نال من أمير المؤمنين علي! فوقف الصادق فقال: «ألا أتبتكم بأعلی الناس ميزاناً يوم القيامة، وأبينهم خسراناً؟ من باع آخرته لغيره، وهذا هو الفاسق»^٧ وعرف الناس الفاسق: الذي باع آخرته لمن يشتهون أن يقدح لهم

١. لقد صنّف الحافظ الشهير ابن عقدة المتوفى سنة ٣٣٢ هـ كتاب أسماء الرجال الذين رووا عن الإمام الصادق عليه السلام، وقد أوصل عددهم إلى أربعة آلاف نفر، وأخرج فيه عن كل رجل حديثاً ممّا رواه عنه.
٢. أمان الأمة من الاختلاف للطف الله الصافي: ص ٦١، الكليني والكافي: ص ٥٧، إعلام الوری: ص ٢٨٤، الجامع للشرائع: ص ٧، رجال التجاشي: ص ٢٩، وسائل الشيعة: ج ٣٠ ص ٣٤٤ و ج ٢٠ ص ١٦٧.
٣. تحف العقول: ص ٣٥٩، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٤١، مستدرک سفینه البحار: ج ١ ص ٤١٧، میزان الحكمة: ج ١ ص ٢٩٠.
٤. بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٤٣٩، والآية: ٥٢ من سورة طه.
٥. فقد سأله الترمذي عن عائشة والزبير وطلحة، فأجاب ذلك.
٦. ذكرها الأعلام بعبارات شتى تدلّ علی مضمون واحد، منهم تاريخ بغداد: ج ١ ص ١٤٥، تاريخ مدينة دمشق: ج ٤٢ ص ٤٤٦، الكنى والألقاب للشيخ عباس القمي: ج ٢ ص ٣٢٨.
٧. بحار الأنوار: ج ١١ ص ١٦٥، إحقاق الحقّ للستري: ج ٢٨ ص ٣٢٨، الامام الصادق لأسد حيدر: ج ٣ ص ٦٨.

في علي بن أبي طالب.

والمقياس عند صاحب المجلس هو الإخلاص لله والرسول، يقول ويروي عن آبائه عن أمير المؤمنين علي: «قال رسول الله ﷺ: لا قول إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة»^١.

والقاعدة هي المساواة بين الناس، مساواة فطرية - مهما اختلفت العقائد والأجناس - يقول: «الناس في آدم مستون»^٢. حتى عبدة النار يقول فيهم: «سننوا بهم سنة أهل الكتاب»^٣.

وللنساء والبنات عنده المكانة العالية، قياماً بوصية جدّه بالنساء في آخر خطبه عليه الصلاة والسلام - روى الجارود بن المنذر: قال لي أبو عبد الله الصادق: «بلغني أن لك ابنة فتسخطها، ما عليك منها؟ ريحانة تشمها، قد كُفيت رزقها، وقد كان رسول الله أبا بنات»^٤. وأي مثل في الإسلام كمثل رسول الله! وأي نعمة أن يكون للمرء ريحانة أو رياحين! وأي فضل كفضل البنات يكفي رزقهن الله! يقول الصادق: «إن إبراهيم سأل ربه ابنة تبكيه وتندبه بعد موته»^٥ لينبئه على بقاء الوفاء في أفئدة البنات بعد الممات.

ومن الدروس الأولية في هذا المجلس تعليم الناس أن يسعوا لعمارة الدنيا بالعمل للرزق، ومجانبة الخلائق الفاقرة بالتواكل أو البطالة، وبهذا المبدأ أصبح المجتمع الشيعي مجتمع العاملين، وبلغ حظّه - حيثما كان - من النماء والاستغناء، والانتفاع بما منحه الله للبشر من مواهب، وأتاح لهم من وسائل.

جاء مجلس الإمام يوماً جماعة من الزهاد يريدون منه إظهار التقشّف والزهد الكامل،

→ تاريخ المذاهب الاسلامية لمحمد أبي زهرة: ص ٧١٥. الإمام جعفر الصادق للحاج حسين الشاكري: ج ١ ص ١٣٢.

١. كنز العمال: ج ١ ص ٢١٧ ح ١٠٨٣، والرواية عن الامام الرضا عليه السلام عن رسول الله في مستدرك الوسائل للميرزا التوري: ج ١ ص ٨٩.

٢. بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٠٢، كشف الغمة ج ٢ ص ٣٧١ و ٤٢٠، العدد القوية: ص ١٥٢.

٣. المصنّف لابن أبي شيبة: ج ٧ ص ٥٨٤، كنز العمال: ج ٤ ص ٥٠٢ ح ١١٤٩٠، الموطأ: ج ١ كتاب الزكاة ح ٤٢، والحديث ينقله مالك عن جعفر بن محمد، الجوهر النقي: ج ٩ ص ١٩٠، المغني لابن قدامة: ج ١١ ص ٣٨.

٤. فروع الكافي: ج ٦ ص ٩ ح ٩ في فضل البنات.

٥. الكافي: ج ٦ ص ٥، وسائل الشيعة: ج ٢١ ص ٣٦١ و ج ١٥ ص ١٠٠.

فقال لهم: «حَدَّثَنِي أَبِي: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: اِبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، الْأَدْنَى فِالْأَدْنَى...، هَذَا مَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ رَدًّا لِقَوْلِكُمْ...، قَالَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا»^١ أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ^٢ غَيْرَ مَا أَرَاكُمْ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ؟...». فَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِسْرَافِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّقْتِيرِ، فَلَا يُعْطَى جَمِيعَ مَا عِنْدَهُ ثُمَّ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَهُ، لِلْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ: «إِنَّ أَصْنَافًا مِنْ أُمَّتِي لَا يُسْتَجَابُ دَعَاؤُهُمْ: رَجُلٌ يَدْعُو عَلِيَّ وَالِدِيهِ، وَرَجُلٌ يَدْعُو عَلِيَّ غَرِيمَ ذَهَبٍ لَهُ بِمَالٍ فَلَمْ يَكْتُبْ عَلَيْهِ وَلَمْ يَشْهَدْ عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ يَدْعُو عَلِيَّ زَوْجَتَهُ وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَخْلِيَةَ سَبِيلِهَا بِيَدِهِ، وَرَجُلٌ يَقْعُدُ فِي بَيْتِهِ وَيَقُولُ: رَبُّ ارْزُقْنِي، وَلَا يَطْلُبُ الرِّزْقَ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا عَبْدِي، أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ السَّبِيلَ إِلَى الطَّلَبِ، أَلَمْ أَرْزُقْكَ رِزْقًا وَاسِعًا؟ فَهَلَّا اقْتَصَدْتَ كَمَا أَمَرْتُكَ وَلَمْ تُسْرِفْ فِيهِ، وَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنِ الْإِسْرَافِ، وَرَجُلٌ يَدْعُونَنِي فِي قَطِيعَةٍ رَحِمَ...» ثُمَّ عَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَيْفَ يَنْفَقُ، فَقَالَ: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا»^٣ فَهَذِهِ أَحَادِيثُ رَسُولِ اللَّهِ يَصَدِّقُهَا الْكِتَابُ، وَالْكِتَابُ يَصَدِّقُهُ أَهْلُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^٤...، وَفِيهِمْ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ وَأَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فَأَمَّا سَلْمَانُ فَكَانَ إِذَا أَخَذَ عَطَاءَهُ رَفَعَ مِنْهُ قُوَّتَهُ حَتَّى يُحْضِرَ عَطَاؤَهُ مِنْ قَابِلٍ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَنْتَ فِي زَهْدِكَ تَصْنَعُ هَذَا وَأَنْتَ لَا تَدْرِي لَعَلَّكَ تَمُوتُ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا؟ فَكَانَ جَوَابَهُ أَنَّهُ قَالَ: تَرْجُونَ لِي الْبَقَاءَ وَقَدْ خَفْتُمْ عَلَيَّ الْفَنَاءَ، أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ النَّفْسَ قَدْ تَلْتَمَسَتْ عَلَيَّ صَاحِبَهَا مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنَ الْعَيْشِ مَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، فَإِذَا أَحْرَزْتَ مَعِيشَتَهَا اطْمَأْنَنْتَ.

وَأَمَّا أَبُو ذَرٍّ فَكَانَتْ لَهُ نَوَاقِطُ وَشَوْبِيهَاتُ يَحْلِبُهَا، وَيَذْبَحُ مِنْهَا إِذَا اشْتَهَى اللَّحْمَ أَوْ نَزَلَ بِهِ الضَّيْفُ... وَمَنْ أَزْهَدُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَدْ قَالَ فِيهِمَا رَسُولُ اللَّهِ مَا قَالَ؟ وَلَمْ يَبْلُغَا مِنَ الزَّهْدِ أَنْ صَارَا لَا يَمْلِكَانِ شَيْئًا أَلْبَتَةَ، كَمَا تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْقَاءِ أُمَّتَهُمْ وَشَيْئَهُمْ... وَيُؤَثِّرُونَ عَلَيَّ أَنْفُسَهُمْ

١. الفرقان: ٦٧، والقدر: الرقعة من العيش، وأقتر الرجل: افتقر، وقتر على عياله: ضيق عليهم. (لسان العرب: ج ٥ ص ٧٠).

٢. على رواية البحار، ولكن بدلاً من كلمة «تدعونني» كلمة «تدعون»، وفي تحف العقول: «غير ما أراكم تدعون إليه».

٣. الإسراء: ٢٩.

٤. راجع تحف العقول لابن شعبة الحراني: ص ٣٥٠، وبحار الانوار: ج ٤٧ ص ٣٣٤ و ج ٦٧ ص ١٢٤، والكافي: ج ٥ ص ٦٧. وأما صدر الرواية فقد خرَّجها العشرات من علماء السنة في كتبهم الحديثية.

وعيالهم...»^١.

فالإمام يريد مجتمعاً عاملاً متواصلاً، فيه قصد وجدّ. فهذا يعين الله من يعين نفسه من عباده.

التلاميذ الأئمة

كان سفيان الثوري إمام العصر في الورع والسنن والفقه للعراق كافة، وكانت له في مجابهة الخليفة مواقف لا يملّ الحديث فيها، وكان كثيرون من رواد المجلس كسفيان لهم مكانة في المسلمين: منهم عمرو بن عبيد الذي نشأت على يديه فرقة المعتزلة، وأبو حنيفة، ومحمد بن عبد الرحمان بن أبي ليلى تربى أبي حنيفة، وإمام المدينة مالك بن أنس.

وأبو حنيفة هو الإمام الأعظم لأهل السنّة، ومالك أكبر من تلقى عليه الشافعي علماً. وأطولهم في تعليمه زماناً، والشافعي شيخ أحمد بن حنبل.

وكمثلهم كان المحدثون العظام: يحيى بن سعيد محدث المدينة، وابن جريج وابن عيينة محدثا مكة، وابن عيينة هو المعلم الأول للشافعي في الحديث.

فلندع للأئمة وصف مكانهم من الإمام، وفيه وصف مجالس علمه:

يقول مالك بن أنس: «كنت أرى جعفر بن محمد، وكان كثير الدعابة والتبسّم، فإذا ذكر عنده النبي اخضرّ واصفرّ، ولقد اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إمّا مصلياً وإمّا قائماً وإمّا يقرأ القرآن، وما رأيته يحدث عن رسول الله إلا على الظهارة، ولا يتكلّم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد والزهاد الذين يخشون الله، وما رأيته قطّ إلا ويخرج وسادة من تحته ويجعلها تحتي»^٢.

وفي مقولة أخرى يضيف مالك: «وكان كثير الحديث، طيب المجالسة، كثير الفوائد، إذا قال: (قال رسول الله) اخضرّ مرّةً واصفرّ أخرى، حتّى ينكره من يعرفه، ولقد حججت معه سنة فلما استوت به راحلته عند الإجماع، كلّمهم بالتلبية انقطع الصوت في حلقه، وكاد أن يخز عن

١. بالإضافة إلى المصادر السابقة ذكر هذا النصّ الحرّ العاملي في الوسائل: ج ١٧ ص ٤٣٥ وج ١٢ ص ٣٢١.

٢. بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٣٣، شرح الشفاء: ج ١ ص ٦٧ - ٧٢، مستدرک سفينة البحار: ج ٢ ص ٢٣٦، الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض: ج ٢ ص ٤٢، سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي: ج ١٢ ص ٣٩٥، العدد القوية للحلي: ص ١٥٥، أمالي الصدوق: ص ٢٣٤.

راحلته، فقلت: يا ابن رسول الله، أو لا بُدَّ لك أن تقول! قال: كيف أجرؤ أن أقول: لبيك وأخشى أن يقول الله عز وجل: لا لبيك ولا سعديك^١»^٢.

وإننا لنذكر ما كان يصنعه جدّه زين العابدين في هذا المقام^٣.

وأصبح مالك إذا ذكر النبي اصفرّ لونه، فإذا تساءل جلساؤه قال: لو رأيتم ما رأيتم لما أنكرتم عليّ ما ترون، ويذكر لهم حال ابن المنكدر^٤، ثم يعقب بحال جعفر.

إنما كان مالك يجد ريح الرسول في مجلس ابن بنته، ويحسّ أو يكاد يلمس شيئاً مادياً، يتسلسل من الجدّ لحفيده، وأشياء غير مادية تملك اللبّ والقلب، فالرؤية مستعة والسماع نعمة، والجوار - مجرد الجوار - تأديب وتريب، وفي كلّ أوّلئك طرائق قاصدة إلى الجنّة.

وصاحب المجلس طهر كلّّه، لا يتحدث عن جدّه إلا على الطهارة، يقول: «الوضوء شطر الإيمان»^٥، ومن أجل ذلك لم يعد الوضوء عنده أو في مذهبه مجرد وسيلة لغيره - أي للصلاة - بل أمسى مستحبّاً لذاته كالصلاة المستحبّة، يتهبأ به المتوضّئ لدخول المساجد^٦، وقراءة

١. لبيك أي: مقيم على طاعتك إقامة بعد إقامة، وسعديك أي: أسعدك إسعاداً بعد إسعاد.

٢. العدد القوية: ص ١٥٥، أمالي الصدوق: ص ٢٣٤، الخصال للصدوق: ص ١٦٧، علل الشرائع: ص ٢٣٤، بحار الأنوار: ج ٩٩ ص ١٨١ و ج ٤٧ ص ١٦، روضة الواعظين للفتال النيسابوري: ص ٢١٢، مستدرک الوسائل: ج ٩ ص ١٩٧، مدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني: ج ٥ ص ٢١٢، الأنوار البهية للشيخ عباس القمي: ص ١٥٨، معجم رجال الحديث للسيد الخوئي: ج ١٥ ص ١٦٦.

٣. خرّجنه سابقاً.

٤. محمد بن المنكدر (١٣٠) من معادن الصدق بالمدينة وأشياخ مالك، من بني تميم؛ قبيلة أبي بكر، وهم مشهورون بالبرقة والورع، وهم أجداد الإمام جعفر، كان لا يسأل ابن المنكدر أحد عن حديث إلا يكنى، ومالك يقول: كنت إذا وجدت من نفسي قسوة أتى ابن المنكدر، فأنظر إليه نظرة فأبغض نفسي أياماً». وابن المنكدر يقول: «كابدت نفسي في ذلك أربعين عاماً حتّى استقامت». وكان من بني المنكدر إخوة ثلاثة فقهاء: محمد وأبو بكر وعمر، أبناء المنكدر. (منه).

٥. صحيح مسلم: ج ١ ص ٢٠٣، كنز العمال: ج ٩ ص ٣٨٨ ح ٢٦٠٤٤ و ص ٣٦ ح ٢٦٢٠٠، الرسائل التسع للمحقّق الحلّي: ص ٧١، الكافي: ج ٣ ص ٧٢، وسائل الشيعة: ج ١ ص ٣٦٦، سنن ابن ماجه: ج ١ ص ١٠٢، سنن الترمذي: ج ٥ ص ١٩٦، سنن النسائي: ج ٥ ص ٥.

٦. لما رواه ابن بابويه عن كليب الصيداوي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مكتوب في التوراة أن بيوتي في الأرض المساجد، فطوبى لمن تطهر في بيته ثم زارني، وحقّ المزور أن يُكرم». ولأنّه يستحبّ الصلاة تحيّة، وهي مفتقرة إلى الطهارة، مكروهة في المسجد فاستحبّ التقديم. (منتهى المطلب للعلامة الحلّي: ج ١ ص ٧٧).

القرآن^١، بل الزوجان ليلة زفافهما^٢، والمسافر إلى أهله^٣، والقاضي ليجلس للقضاء^٤، والإمام الذي يفتي أو يعلم.

وما هو بدع أن يشغف به مالك - وهو الأموي بهواه - فإتاما هو حب الرسول وأهل بيته، فحبهم إيمان، وما كان تعبير مالك إلا حباً، وهو - بعد - التلميذ النجيب لفقهاء بني تيم (قبيلة أبي بكر) سواء كانوا من مواليهم كربيعة الرأي أو من أنفسهم كمحمد بن المنكدر، أو أهمهم منهم كالإمام جعفر. وأبو بكر الصديق يقف في قمة التاريخ العلمي لمصادر مالك باتباعه واجتهاده، وأبنائه وبني تيم.

تعلم مالك الكثير من السلوك على الإمام جعفر، فكان إذا حدث لا يحدث إلا على الطهارة، ويحمي مجلسه ممن يخرجونه عن قصده، كما يكرم تلامذته، بل صار إماماً لليسر الذي تتمثل فيه خصائص المدينة، وأمسى عنواناً على العلم: فإذا خاصم السلطة خاصمها من أجل النزاهة العلمية فحسب، وفي منهجه: الاحتفال الكامل بالواقع، وفي طريقته: العمل للرزق؛ حتى لا يحتاج لأحد، مما يعبر عن اقتداء كامل بالإمام الصادق.

وكهيمته الإمام الصادق، لم يجار فقهاء العراق في قولهم: رأيت... رأيت، أي: افتراض الفروض، واستباق الحوادث، وإبداء الرأي فيما لم يحدث، حتى سئاهم خصومهم: «الأرأيتين».

ومن رضا الإمام عن التلميذ كان الصادق يشير بإتيان حلقة مالك. روى عنوان البصري أنه كان يختلف إلى الإمام جعفر يتعلم عليه، فغاب الإمام عن المدينة، فاختلف إلى مالك سنتين، ثم عاد الصادق، فعاد عنوان إلى مجلسه، فنصحه أن يجلس إلى مالك^٥.

١. راجع منتهى المطلب للعلامة الحلبي: ج ١ ص ٧٧.

٢. ذكره الميرزا القمي في غنائم الأيام: ج ١ ص ٩٥ وقال: «ولم تقف على نص فيه».

٣. في نزهة الناظر: ص ١٠: «الوضوء إذا قدم من سفر قبل الدخول على أهله؛ لما رواه الصدوق في المقنع» وانظر غنائم الأيام: ج ١ ص ١٠١.

٤. غنائم الأيام: ج ١ ص ١٠٢.

٥. ورد في البحار: ج ١ ص ٢٢٤ نقلاً عن جماعة عن عنوان البصري هذا قال: كنت اختلف إلى مالك بن أنس سنين، فلما قدم جعفر الصادق عليه السلام المدينة اختلفت إليه، وأحببت أن أخذ عنه كما أخذت عن مالك، فقال لي يوماً: أيتي رجل مطلوب، ومع ذلك لي أورايد في كل ساعة من آناء الليل والنهار، فلا تشغلني عن وردي، وخذ عن مالك، واختلف إليه كما كنت تختلف إليه.

ولقد يدخل الإمام المسجد، فيقدّم إليه تلميذ من تلاميذه ابن أبي ليلى^١ (١٤٨) قاضي الكوفي، فيقول الإمام: أنت ابن أبي ليلى القاضي؟ ويجب: نعم، فينبهه الإمام على جلال خطر القضاء بقوله: «... تأخذ مال هذا وتعطيه هذا، وتفرّق بين المرء وزوجه، لا تخاف في ذلك أحداً...، فما تقول إذا جيء بأرض من فضّة وسما من فضّة، ثم أخذ رسول الله بيدك فأوقفك بين يدي ربك فقال: يا ربّي هذا قضى بغير ما قضيت؟!»^٢ واصفرّ وجه ابن أبي ليلى مثل الزعفران، لكنّه خرج من المسجد مزوّداً بزادٍ من خشية الله، زوّده به ابن رسول الله. ولما سُئل^٣ مرةً: أكنت تاركاً قولاً أو قضاءً لرأي أحدٍ؟ أجاب: لا، إلا لرجلٍ واحدٍ، هو جعفر بن محمد الصادق^٤.

وابن أبي ليلى قاضي بني أمية وبني العباس، وهم أعداء الإمام!

في هذا المجلس بالمدينة، أو بالكوفة في إحدى قدمات الإمام جعفر إلى العراق، دخل أئمة الكوفة مجتمعين: أبو حنيفة وابن أبي ليلى وابن شيرمة (١٤٤) على الإمام جعفر، فجعل الصادق ينبّه أبا حنيفة. مكتشف أداة «القياس» على خطرهما في حضور العالمين الآخرين، وفي مواجهة هذين يقول الإمام الصادق لأبي حنيفة: «أتق الله ولا تقس الدين برأيك»^٥.

١. أول من تعلّم عليه أبو يوسف: صاحب أبي حنيفة: هو محمد بن عبد الرحمان بن أبي ليلى، وفي الخلاف بينه وبين أبي حنيفة. وضع أبو يوسف كتابه الشهير «اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى» وكثيراً ما رجّح فيه آراءه، ومن ذلك أخذه برأيه في قضية رُفعت على الخليفة الهادي أمامه، وبهذا دفع الخليفة لصاحب الحقّ حقّه. راجع: «أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح» للمؤلف: ص ١٠٠ طبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية. (منه).

٢. مستند الشيعة للمحقق التراقي: ج ١٧ ص ٩، الكافي: ج ٧ ص ٤٠٨، التهذيب: ج ٦ ص ٢٢٠، الوسائل: ج ٢٧ ص ١٩، الأصول الأصيلة للفيض الكاشاني: ص ١١٢.

٣. السائل هونوح بن درّاج، للقاضي ابن أبي ليلى.

٤. تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ٢٩٢، مناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ٣٧٣، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢٩.

٥. الحدائق الناضرة للمحقق البحراني: ج ١ ص ٦١، حصر الاجتهاد لأقا بزرك الطهراني: ص ٣٨، علل الشرائع: ج ١ ص ٨٦، مستدرك الوسائل: ج ١٧ ص ٢٦١، أمالي الطوسي: ص ٦٤٥، مناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ٣٧٦، الفصول المهمة في أصول الاثمة للحرّ العاملي: ج ٣ ص ٢٣٥، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٦٩١ و ٢٩٢ و ج ١٠ ص ٢١٢، حلية الأولياء: ج ٣ ص ١٩٧.

ولقد يكون أبو حنيفة في حلقة بالكوفة أو في المدينة فيقف عليها الإمام الصادق، ولا تقع عليه عين أبي حنيفة، فإذا لمحت عيناه هب أبو حنيفة واقفاً وهو في مجلس الدرس، فقال: «يا ابن رسول الله، لو شعرت بك أول ما وقفت ما رأيت الله أقعد وأنت قائم»^١ ليشهد الله على دخيلة نفسه أنها لا تقبل الجلوس والإمام قائم. وأبو حنيفة (٨٠ - ١٥٠) أكبر عمراً من الإمام الصادق، لكن الصادق يشدُّ أزره بعبارات مشجعة، فيقول له: «اجلس يا أبا حنيفة، فعلى هذا أدركت آبائي»^٢ يريد بذلك: إعظام مجالس العلم، ووقوف الجميع، وجلوس الأستاذ.

انقطع أبو حنيفة إلى مجالس الإمام طوال عامين قضاها بالمدينة، وفيها يقول: «لولا العامان لهلك النعمان»^٣. وكان لا يخاطب صاحب المجلس إلا بقوله: «جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله».

ولقد يتحدّى الإمام الصادق في مجلسه أبا حنيفة ليختبر رأي صاحب الرأي، فيسأل: ما تقول في محرم كسر رباعية الطبي؟ ويجب أبو حنيفة: يا ابن رسول الله، لا أعلم ما فيه، فيقول له الإمام الصادق: أنت تتداهي! أولاً تعلم أن الطبي لا تكون له رباعية؟! وإنما سكت أبو حنيفة لأنه لم يعلم كما قال، أو لأنه يمتنع عن أن يصحح للإمام السؤال، وما كان أعظم أدب أبي حنيفة بين نظرته! فما بالك به بين يدي الإمام!؟

فإذا جاء ابن شبرمة وحده يسأل عما لم يقع - كدأب تلاميذ أبي حنيفة ومدرسة الكوفة - لم يتردد الإمام في دفعه بالحسن. ذهب إليه ذات يوم يسأله عن القسامة في الدم، فأجابه بما صنع النبي، فقال ابن شبرمة: أرأيت لو أن النبي لم يصنع هذا، كيف كان القول فيه؟ فأجابه: «أما ما صنع النبي فقد أخبرتك به، وأما ما لم يصنع فلا علم لي به». والصادق عليه السلام بالاختلاف بين آراء الفقهاء، أي بعلم المدينة وعلم الشام وعلم الكوفة، وهو يروي عشرات الآلاف من الأحاديث، في حين كانت قلة ما سلمه أهل العراق من الحديث آفة علمائه.

١. نفحات الأزهار للسيد علي الميلاني: ج ١٩ ص ٢٦٥ نقله عن شرح التجريد لابن المطهر الحلي.

٢. المصدر السابق.

٣. التحفة الائمة عشرية للأوسي: ص ٨، الخلاف للشيخ الطوسي: ج ١ ص ٤٩، جامع المقاصد للمحقق الكركي:

ج ١ ص ٢١، نظرات في الكتب الخالدة لحامد حفي داود: ص ١٨٢، تفسير جوامع الجامع للطبرسي: ج ١ ص ١٩٣، مسند زيد بن علي: ص ١٠٣، ورويت بلفظ آخر وهو «لولا الستان لهلك النعمان».

٤. وفيات الأعيان لابن خلكان: ج ١ ص ٣٢٧، مناقب أهل البيت للمولاي حيدر الشيرازي: ص ٢٧٠.

حتى صوّبهم الشافعي في نهاية القرن، بالقوة التي لا نزاع فيها لخبر الواحد، وبوضع قواعد القياس.

والحسن بن زياد اللؤلؤي^١ يعلن رأي صاحبه في إحاطة الإمام الصادق فيقول: «سمعت أبا حنيفة وقد سُئل: من أفقه الناس ممن رأيت؟ فقال: جعفر بن محمد»^٢. ولما استفتي أبو حنيفة في رجلٍ أوصى «للإمام» بإطلاق الوصف، قال: إنها لجعفر بن محمد. فهذا إعلان لتفوّده بالإمامة في عصره.

ولم تكن السنتان اللتان حينئذٍ يسبهما النعمان بن ثابت (أبو حنيفة) ولم يهلك، إلا تكلمة لسنين سابقة كان يتدارس فيها فقه الشيعة، ومن ذلك كان يشدّ أزر زيد بن علي في خروجه على هشام بن عبد الملك^٣. وقيل: مال إلى محمد وإبراهيم؛ ولديّ عبد الله بن الحسن في خروجهما على المنصور. وأن قد جاءته امرأة تقول: إن ابنتها يريد الخروج مع هذا الرجل - في إبان خروج إبراهيم - وأنا أمنعه، فقال لها: لا تمنعني^٤.

ويروي أبو الفرج الإصفهاني عن أبي إسحاق الفزاري: جئت إلى أبي حنيفة فقلت له: أما اتقيت الله؟ أفتيت أخي بالخروج مع إبراهيم حتى قُتل!! فقال: «قُتل أخيك حيث قُتل، يعدل قتله لو قُتل يوم بدر، وشهادته مع إبراهيم خير له من الحياة»^٥.

١. الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي؛ أبو علي، قاضٍ، فقيه، من أصحاب أبي حنيفة، أخذ عنه وسمع منه، وكان عالماً بمذهبه بالرأي، ولي القضاء بالكوفة سنة ١٩٤ هـ ثم استعفى، نسبته إلى بيع اللؤلؤ، وكان أبوه من موالي الأنصار، له من الكتب: «أدب القاضي» و«معاني الايمان» و«النفقات» وغيرها، مات سنة ٢٠٤ هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ١٩١).

٢. مناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ٣٧٨، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢١٧، الأنوار البهية: ص ١٥٣، العدد القوية: ص ١٥٣.

ونقل عن أبي حنيفة قوله: «ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد» راجع المصادر: مناقب أبي حنيفة للموقف: ج ١ ص ١٧٣، جامع أسانيد أبي حنيفة: ج ١ ص ٢٢٢، تذكرة الحفاظ للذهبي: ج ١ ص ١٥٧، تهذيب الكمال: ج ٥ ص ٧٩، سير أعلام النبلاء: ج ٦ ص ٢٥٧ - ٢٥٨، الكامل لابن عدي: ج ٢ ص ١٣٢، نظرات في الكتب الخالدة لحامد حفني داود: ص ١٠٢.

٣. مقاتل الطالبين: ص ٩٩ و ١٠٠، أبو حنيفة لمحمد أبي زهرة: ص ٧١، مناقب أبي حنيفة للبرازي: ج ١ ص ٥٥، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ج ١ ص ٣١٧.

٤. مقاتل الطالبين: ص ٢٥١، مناقب أبي حنيفة للمكي: ج ٢ ص ٨٤.

٥. مقاتل الطالبين: ص ٢٤٢.

ولئن كان مجدداً لمالك أن يكون أكبر أسياف الشافعي، أو مجدداً للشافعي أن يكون أكبر أساتذة ابن حنبل، أو مجدداً للتلميذ أن يتلمذ لشيخيهما هذين، إن التلمذة للإمام الصادق قد سريلت بالمجد فقه المذاهب الأربعة لأهل السنة.

أما الإمام الصادق فمجده لا يقبل الزيادة ولا النقصان، فالإمام مبلغ للناس كافة علم جدّه عليه الصلاة والسلام، والإمامة مرتبته، وتلمذة أئمة السنة له تشوف منهم لمقاربة صاحب المرتبة.

لقد يجيء للمناظرة عمرو بن عبيد (١٤٤) زعيم المعتزلة، الذي لم يضحك أبو حنيفة طول حياته بعد أن قال له عمرو إذ ضحك مرةً في إبان مناظرته: يا فتى، تتكلم في مسألة من مسائل العلم وتضحك؟! والذي يبلغ من وقاره أن يراه الرائي فيحسبه أقبل من دفن والديه! فإذا انتهى الكلام قال عمرو للإمام: «هلك من سلبكم تراثكم، ونازعكم في الفضل والعلم»^٢. ويجيء إمام خراسان عبد الله بن المبارك، وهو إمام فقه، وبطل معارك، تلمذ للإمام زماناً، ولأبي حنيفة، فتعلم ما جعله يخفي بطولاته في الفتوح «لأن من صنعها لأجله - سبحانه - مطلع عليها»^٣. وفي الإمام جعفر شعره الذي ورد فيه:

أنت يا جعفر فوق الـ مدح، والمدح عناء
 إنما الأشراف أرض ولهم أنت سماء
 جاز حدّ المدح من قد ولدته الأنبياء^٤

١. انظر ذيل تاريخ بغداد لابن الدمياطي: ج ٢ ص ٥٠.

٢. البحار: ج ٤٧ ص ١٩، عيون أخبار الرضا: ج ١ ص ٢٨٥ وفيه الحديث مفصلاً، المناقب: ج ٣ ص ٣٧٥، من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ٣٦٨.

٣. استعصى على المسلمين حصن من حصون الروم. فتصدى له فارس ملثم فاقتمه، وتتابع وراءه المسلمون، واخترقى الفارس في الجند، ولما سئل ابن المبارك فيما بعد عن إخفاء نفسه، قال: «لأن من صنعت ذلك لأجله - سبحانه - مطلع عليه».

وخرج إلى الحجّ فمرّ بامرأة رآها تخرج غراباً مبيتاً من حيث ألقى به، فسألها، فقالت: إنّها وزوجها لا يجدان ما يطعمانه، فقال لو كيّله كم معك من نفقة الحجّ؟ قال: ألف دينار، قال: عد منها عشرين تكفي للعودة إلى مرو - عاصمة خراسان - وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حجّنا هذا العام، ورجع ولم يرجع.

وكان الرشيد بالرقّة يوماً وأقبل عليها ابن المبارك، فأنجفل الناس خلفه، ورأته أم ولد الرشيد فقالت: هذا والله الملك، لا ملك هارون الذي يجمع الناس بشرطة وأعوان. ولما مات ابن المبارك جلس الرشيد فتقبل العزاء فيه. (منه).

٤. خرّجناه سابقاً.

فإذا كان الصادق في مواجهة مع المنصور، حيث القواد والعلماء يجلسون على مبعدة منه، فإن مجلس الإمام عن يمينه... حتى ولو دعاه يخوفه، فلقد طالما انتهت اللقاءات بالموعظة يلقيها الإمام من حديث رسول الله، ولحديث رسول الله شرف المجلس، ولا ين رسول الله شرف من رسول الله.

ولو جلس الصادق على مبعدة أو مقربة من الخليفة، لكان الشرف حيث يجلس، وربما قرّبه الخليفة ليلمس نفسه القربى إلى الناس في الدنيا، ويوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، وعندما تلمس الشفاعة.

وأبو جعفر المنصور يقرّ بمكانه من العلم والتقوى مع ضيق صدره بمكانته في الأمة، يقول: «هذا الشجى المعترض في حلقي أعلم أهل زمانه، وأتّه مَن يريد الآخرة لا الدنيا»^١. ومن نصّ الإقرار ما يدلّ على أنّ مجلس «الصادق» للعلم، لم يكن ليسلم من مراقبة أعوان السلطان، وصاحب المجلس شجى معترض في حلقة! وهو قد ينبئ عن أنّ الفرصة متاحة للإمام ليلقي دروسه، مع الحيطة الواجبة، حتى لا يغصّ الخليفة بريقه ممّا يُنقل إليه وإن كان المؤكّد أنّ مجرد وجود الإمام كان فيه الشجى المعترض.

كُلُّ الْعُلُومِ

والمجلس مورد عذب، كثير الزحام، لكلّ فيه ما يغنيه، فالإمام في مجلسه الرفيع يروي السنّة عن آبائه، وما يقوله يجري عند الشيعة مجرى الأصول، فإذا أبدى الرأي في واقعة معيّنة جعله الشيعة جعل السنّة، والتزموها باعتبارها نصّاً عنه. أمّا أهل السنّة فيأخذونه مأخذ اجتهاد الائمة.

واللسان العربي علم العلوم، وإمام المسلمين إمام في البلاغة العربية، عبّر عن أسلوبه أبو عمرو بن العلاء^٢ حين قال عن أساليب العربية: «العرب تُطيل ليسمع منها، وتوجز ليحفظ

١. الأماشي للشيخ الصدوق: ص ٧١٠، عيون المعجزات لحسين بن عبد الوهاب: ص ٧٩، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ١٦٧ و ص ١٧٠، الخرائج والجرائح: ص ٢٣٤، مستدرک سفينة البحار: ج ٦ ص ٢٣٢، العدد القوية للحلي: ص ١٥٨.

٢. هو زيان بن عمّار التميمي المازني البصري؛ أبو عمرو، ويلقب أبوه بالعلاء، من ائمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة، ولد بمكة ٧٠هـ. ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة سنة ١٥٤هـ. قال أبو عبيدة: كان أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر، وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية. (الأعلام: ج ٣ ص ٤١).

عنها»^١.

وعند الصادق: لكلِّ مقامٍ مقال، يسهب ويستطرد - كما ستقرأ بعد - أو يوجز ليحفظ عنه، ويتذوق منه بحروفٍ لها جرس في الأذن، ونغم في النغم، كأن يقول: «لا تصلَّ فيما خفَّ أو شفَّ» وكلاهما كاشف.

ويجري على لسانه الشعر الرفيع، مثل الذي يرويه عنه سفيان الثوري:

لا اليسر يطرونا يوماً فيبطننا ولا لأزمة دهرٍ نظهر الجزعا
إن سرنا الدهر لم نهبج لصحبته أو ساءنا الدهر لم نظهر له الهلعا
مثل النجوم على مضمار أولنا إذا تغيب نجم، آخر طلعا^٢

أو مثل قوله جواباً لسفيان إذ يسأل: يا ابن رسول الله، لِمَ اعترلت الناس؟ قال: «يا سفيان، قد فسد الزمان وتغيّر الإخوان، فرأيت الانفراد أسكن للفؤاد» وأنشد:

ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب والناس بين مخاتل وموارب
يفشون بينهم المودة والصفاء وقسلوبهم محشوة بعقارب^٣

ومثل قوله:

فلا تجزع وإن أعسرت يوماً فقد أيسرت في زمن طويل
ولا تياس فإن اليأس كفر لعلَّ الله يغني عن قليل
ولا تظنَّ بربك ظنَّ سوء فإنَّ الله أولى بالجميل^٤

ومثل قوله:

لا تجزعنَّ من الممداد فإنَّه عطر الرجال وحلية الآداب^٥

١. كتاب الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني: ج ١ ص ٨٣.

٢. بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢٥، مستدرک سفينة البحار: ج ٥ ص ٤٨٤.

٣. بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٦١، مستدرک سفينة البحار: ج ٥ ص ٤٨٤، نهج السعادة للشيخ المحمودي: ج ٨ ص ٤٩، العدد القوية: ص ١٥٣، تذكرة الخواص: ص ٣٤٦.

٤. الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي: ج ١ ص ٦٦ وفيه: «الدهر الطويل» بدل «زمن طويل» وذكرها كالمصنّف في ج ٢ ص ٢٦٩، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٠٣، نهج السعادة: ج ٧ ص ٢٩٧. ونسبت هذه الأبيات لغيره، فقد نسبها الطوماري لابن أبي الدنيا، راجع: الشكر لله: ص ٢١، ونسبها ابن أبي الدنيا إلى محمود الوراق، راجع حسن الظن بالله: ص ١٢٣.

٥. لم أجده للامام الصادق عليه السلام، ولكن ذكرت بهذا المعنى أبيات لأحمد بن يحيى، وهي:

فإذا جاءه المناظرون من كل فج عميق، أو التلاميذ الفقهاء، يحتملون أقطار الإسلام، ويجادلون في الأصول أو الفروع، فهو البحر لا تنزفه الدلاء، يروي العقول ويشفي الصدور. فالديصاني^١ زعيم فرقه ملحدة، وصاحب الإهليلجة^٢ طبيب هندي، وعبد الكريم^٣ بن أبي العوجاء^٤ عربي ملحده، وعبد الملك مصري يتزندق^٥، وعمرو بن عبيد شيخ المعتزلة،

→ لا تسجزعن من المداد

ولطسـخه
وابهـج بـذك أنـما هو زينة
وشمّ المداد لكاتب في ثوبه
إنّ المداد خلوق ثوب الكاتب
هبة من الله الجليل الواهب
سمة تلوح له بحسن مناقب

راجع: أدب الإملاء والاستملاء: ص ١٦٨.

١. هو أبو شاكر الديصاني، كان في بادئ أمره زنديقاً خبيثاً، ديصاني الطريقة، على مذهب ديصان القائل بالتنوية، ثم اجتمع بالإمام عليه السلام وسأله عن معبوده، فهداه الإمام عليه السلام إلى ربّ السماوات والأرض، فأسلم واهتدى، وكان يدعي انتمائه إلى الإمامية. (الملل والنحل: ج ١ ص ٢٥٠، الاحتجاج: ٣٣٣).

٢. الإهليلجة: كتاب منسوب إلى مولانا الإمام الصادق عليه السلام في التوحيد، أو من إملائه، كما في البحار: ج ١ ص ٢٢ و ج ٣ ص ٥٥.

وفيه أنّ الإمام ابتداء في الاستدلال على الهندي بإثبات الله بطريق (أهليلجة) كانت في يده، وكشف الدلالة حتّى أقرّ بذلك بعد مجاحدات من الهندي وإطالة، كما عن ابن طاوس في فرج المهموم: ص ٢٠.

٣. هو عبد الكريم بن أبي العوجاء الزنديق الملحده الوضّاع، ربيب حمّاد بن سلمة، وخال معن بن زائدة، من تلامذة الحسن البصري، كان مانوياً يؤمن بالتناسخ، ويقول بالقدر، ويتخذ من شرح سيرة ماني وسيلة للدعوة وتشكيك الناس في عقائدهم. (ميزان الاعتدال: ج ٢ ص ٦٤٤).

له مناظرة مع الإمام الصادق عليه السلام بادره الإمام بقوله: أنت مصنوع أم لا؟ فقال الزنديق: لا، فقال له الإمام:

صف لي لو كنت مصنوعاً كيف كنت تكون؟ فبقى عبد الكريم مليئاً لا يحير جواباً. (البحار: ج ٣ ص ٤٦).

٤. عبد الكريم بن أبي العوجاء، هو خال معن بن زائدة الشيباني أحد قواد بني مروان، وكبير من كبار الولاة لأبي جعفر، وهو الذي أنقذ أبا جعفر من الموت يوم الراوندية، وأبلى وأهله بنو شيبان أعظم البلاء في الدفاع عن بني العباس. ولما قدّم ابن أبي العوجاء للقتل للزندقة سنة ١٦٦ قال: «لن يقتلوني، لقد وضعت أربعة آلاف حديث، أحللت فيها الحرام وحرّمت الحلال!» لكن علماء الجرح والتعديل فطنوا إليها جميعاً واستبعدوها. (منه).

٥. رجل من مصر، رغب في مناظرة الإمام الصادق، فلقبه في الحجّ فقال له الإمام: ما اسمك، وما كنتيك؟ فقال: اسمي عبد الملك، وكنيتي: أبو عبد الله.

فقال له الامام: فمن الملك الذي أنت له عبد؟ أمن ملوك السماء أم من ملوك الأرض؟ وأخبرني عن ابنك، أعبد إله السماء أم عبد إله الأرض؟ فسكت.

ثم ناظره بأمر عديدة خصّص فيها الزنديق، وأمن عقب المناظرة على يدي أبي عبد الله الصادق عليه السلام. ثم أعطاه

وأبو حنيفة إمام الكوفة، ومالك إمام المدينة، وسفيان الثوري، وغيرهم. كل هؤلاء تملأ مجادلاته معهم الكتب، ولا يضيق صدرأ بجدهم، بل يُضرب الأمثال بمسلكه معهم واتساع صدره لهم، على الحرية الفكرية التي يتيحها الإمام للناس في مجلسه، ليفهموا العلم، أو ليؤمنوا عن فهم، دون إكراه أو إغناء، وعلى سعة الخلاف الفقهي لكل اتجاهات المسلمين، وعلى اليسر والرحمة في الشريعة، فكل هذه أسباب لنشر الإسلام وخلود ققعه.

يقول ابن المقفع - وهو متهم بالمجوسية، أو بالزيف على الأقل - إذ يومئ إلى «الصادق» في موضع الطواف: «هذا الخلق ما منهم أحد أوجب له بالإنسانية إلا ذلك الشيخ الجالس»^١. ويذهب ابن أبي العوجاء ليناظره فتعتربه سكتة، فيسأله الإمام: ما يمنعك من الكلام؟ فيقول: «إجلالاً لك، ومهابةً منك، وما ينطق لساني بين يديك، فأني شاهدت العلماء، وناظرت المتكلمين، فماتداخلني من هيبة أحد منهم ماتداخلني من هيبتك»^٢.

رآه الإمام مرةً بالحرم، فقال له: ما جاء بك؟ قال: عادة الجسد وسنة البلد، ولنبصر ما الناس فيه من الجنون والخلق ورمي الحجارة! قال الصادق: أنت بعد على عتوك وضلالك يا عبد الكريم؟ فذهب يتكلم، فقال الإمام: لا جدال في الحج، ونفض رداءه من يده وقال: إن يكن الأمر كما تقول وليس كما نقول نجونا ونجوت، وإن يكن الأمر كما نقول وليس كما تقول نجونا وهلكت^٣. وأي صبرٍ في حرية الفكر كمثل هذا الصبر من الإمام الصادق؟ وحيث تؤدّي المناسك!

وإنما ترك الإمام رجلاً ملحداً سيقتل بعد في إلحاده سنة ١٦١.



وإذا لم يأخذ الملحدون بالشدة؛ فتحاً لأبواب الهداية لهم، فهو صارم في صدد المغالين

→ لهشام بن الحكم ليعلمه، فعلمه، فكان معلّم أهل مصر وأهل الشام، وحسنت طهارته حتى رضي بها الصادق عليه السلام. (بحار الأنوار: ج ٣ ص ٥١ بتصرف).

١. بحار الأنوار: ج ٣ ص ٤٢، نور البراهين للسيد نعمه الله الجزائري: ج ١ ص ٣٢٦، مستدرك سفينة البحار: ج ٨ ص ٥٥٨، الكليني والكافي للشيخ عبد الرسول الغفاري: ص ٣٢١.

٢. الكافي: ج ١ ص ٧٦، التوحيد للشيخ الصدوق: ص ٢٩٦، بحار الأنوار: ج ٣ ص ٤٦، نور البراهين: ج ٣ ص ١٣١، مستدرك سفينة البحار: ج ٧ ص ٤٦٥.

٣. الكافي: ج ١ ص ٧٨، التوحيد: ص ٢٩٨ نور البراهين: ج ٢ ص ١٣٤.

في علي أو فيه، ليكفهم عن غلوائهم، ومنهم: بيان بن سمعان التميمي^١، كان يعتقد ألوهية علي والحسن والحسين، ثم محمد بن الحنفية، ثم ابنه أبي هاشم، بل زعموا أنه قال: إنه - بياناً - المراد بقوله تعالى: ﴿هذا بيان للناس﴾^٢. وأدعى المغيرة بن سعيد الانتماء إلى الباقر! وصار يؤله علياً، ثم جعفر الصادق، ويكفر أبا بكر وعمر ومن لم يوال علياً^٣. وكذلك كان بشار الشعيري^٤.

يقول جعفر الصادق لمرازم^٥: «تقربوا إلى الله، فإنكم فساق كفار مشركون»^٦ ويقول له: «إذا قدمت الكوفة فأت بشار الشعيري وقل له: يا كافر يا فاسق، أنا بريء منك»^٧.

١. بيان بن سمعان النهدي، من بني تميم، ظهر بالعراق بعد المائة، وقال بألوهية علي، وأن فيه جزءاً إلهياً متحد بناسوته (ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٣٥٧) وهو صاحب (البيانية) أخذها من طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم زوج ابنته الذي سحر رسول الله، وهو أخذها من يهود اليمن. (البداية والنهاية: ج ٩ ص ٣٨٢).

٢. آل عمران: ١٣٨.

٣. ودعواه هي: إن الله على صورة إنسان ويهلك كله إلا وجهه، وروح الله حلت في علي، ثم في ابنه محمد، ثم في ابنه أبي هاشم، ثم في بيان ابنه. وقد كتب كتاباً يدعو فيه الباقر إلى نفسه، وأنه نبي! (ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٣٥٧، نور البراهين: ج ٢ ص ٣٠٨) وقد تظافت الروايات بكونه كذاباً، كان يكذب على أبي جعفر عليه السلام، وفي بعضها كان يدس أحاديث في كتب أصحابه، ووردت عدة روايات من أهل البيت في لعنه، وأنه من أهل النار (جامع الرواة لمحمد علي الأردبيلي: ج ٢ ص ٢٥٥).

٤. هو صاحب مقالة العلانية الذين يقولون بأن علياً هو رب! مُسخ على صورة طير يقال له: علباء، يكون في البحر! كنيته أبو اسماعيل، ولُقّب بالشعيري لأنه يبيع الشعير.

كان يقول عنه الصادق عليه السلام: إن بشار الشعيري شيطان بن شيطان، خرج من البحر فأغوى أصحابي». والروايات في ذمّه كثيرة.

٥. مرازم بين حكيم الأزدي المدائني، روى عن الصادق والكاظم عليه السلام، وقُتل أيام الرضا عليه السلام، أختص بالامام، وكان يحبه لامثاله لأوامره وولائه له. قال النجاشي وغيره: إنه مَن بلي باستدعاء الرشيد له وأخوه، أحضرهما الرشيد مع عبد الحميد بن عوّاص فقتله وسلما. (الإمام الصادق للمظفر: ج ٢ ص ١٦٦).

٦. القول ليس لمرازم، إنما قال أبو عبد الله عليه السلام لمرازم أن يقول للغلاة هذا القول، فالخطاب ليس موجهاً له، بل هو مكلف بنقل الخطاب. راجع من المصادر: شرح العروة الوثقى للسيد الصدر: ج ٣ ص ٣٠٧، نتائج الأفكار للسيد الكلبي يگاني: ج ١ ص ٢٠٠، وسائل الشيعة: ج ٢٨ ص ٣٥٢ و ج ١٨ ص ٥٦٦، اختيار معرفة الرجال للطوسي: ج ٢ ص ٥٨٧، وضوء النبي للشهرستاني: ج ١ ص ٣٧٠.

٧. وضوء النبي: ج ١ ص ٣٧٠، بحار الأنوار: ج ٢٥ ص ٣٠٤، اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٧٠١، معجم رجال الحديث للسيد الخوئي: ج ٤ ص ٢١٧.

دخل عليه بشّار يوماً فصاح به: «أخرج عني لعنك الله، والله لا يظلني وإياك سقف أبداً» فلمّا خرج قال: «ويحه، ما صغّر الله أحد تصغير هذا الفاجر، والله إني عبد الله وابن أمته»^١. ويقول عن المغيرة بن سعيد: «لعن الله المغيرة بن سعيد، لعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلّم منها الشعر والشعبذة والمخاريق، فوالله ما نحن إلا عبيد، خلقنا الله واصطفانا، ما تقدر على ضررٍ ولا نفعٍ إلا بقدرته...، ولعن الله من قال فينا ما لا نقول في أنفسنا»^٢. ويقول: «من قال: إنا أنبياء، فعليه لعنة الله، ومن شكّ في ذلك فعليه لعنة الله»^٣. وينبّه الأذهان على دسائس خصوم الشيعة بالاختلاق عليهم، فيقول: «إنا أهل بيت صادقون، لا نعدم من يكذب علينا عند الناس، يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا»^٤. ويقول لخيشمة^٥: «أبلغ شيعتنا أننا لا نغني من الله شيئاً، وأنه لا ينال ما عند الله إلا بالعمل، وأنّ أعظم الناس يوم القيامة حسرةً من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره...»^٦. وهي مقولات لا تترك مجالاً لدعاوي المغالين في جعفر الصادق وآبائه وبنيه من الأئمة، وتفتي عنه ما ادّعوه من علم الغيب، فلا يعلم الغيب إلا الله، كما تجعل الأئمة مجعل البشر، وهي آراء آبيه وجدّه.

سأل سائل جدّه زين العابدين: متى يُبعث علي؟ فأجاب: «يبعث والله يوم القيامة، وتهمه

١. بحار الأنوار: ج ٢٥ ص ٣٠٧، اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٧٠٢، نتائج الأفكار: ج ١ ص ٢٠٠، معجم رجال الحديث: ج ٤ ص ٢١٨.
٢. بحار الأنوار: ج ٢٥ ص ٢٨٩، ج ٦٤ ص ٢٠٢، اختيار معرفة الرجال: ج ٣ ص ٤٩١، تشديد الأصول للقمي: ج ٢ ص ٧٦، نتائج الأفكار: ج ١ ص ٢٠٠، وضوء النبي: ج ١ ص ٣٦٨.
٣. بحار الأنوار: ج ٢٥ ص ٢٩٦، اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٥٩٠.
٤. نقلها الأعلام بتفاوت في بعض الألفاظ: مستدرک الوسائل للميرزا النوري: ج ٩ ص ٩٠، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢١٧، ج ٢٥ ص ٢٦٣، ج ٢٥ ص ٢٨٧، ج ١٠٨ ص ٣٥٥، اختيار معرفة الرجال: ج ١ ص ٣٢٤، ج ٢ ص ٥٩٣، جامع الرواة لمحمد علي الأردبيلي: ج ٢ ص ٢٢١، طرائف المقال للسيد علي البروجردي: ج ٢ ص ٥٩٠، معجم رجال الحديث للسيد الخوئي: ج ٤ ص ٢٠٥، ج ١١ ص ٢٠٦، ج ١٥ ص ٢٦٣.
٥. خيشمة هو الجعفي، من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، أوصاه الإمام بنقل وصية عنه إلى شيعته.
٦. نقلها الأعلام بتفاوت طويلاً وقصراً، راجع: السرائر لابن إدريس الحلّي: ج ٣ ص ٦٤٩، وإرشاد الأذهان للعلامة الحلّي: ج ١ ص ١٤، ورسائل الشهيد الثاني: ص ٣٣٣، وقرب الاسناد للحميري القمي: ص ٣٣، والكافي: ج ٢ ص ١٧٦، ووسائل الشيعة: ج ١ ص ٩٣، ج ١٢ ص ٨، ج ٨ ص ٤٠٠، ومستدرک الوسائل للميرزا النوري: ج ١ ص ١٢٥، ج ١١ ص ٢٢٢، والحكايات للشيخ المفيد: ص ٩٢، والأمال للشيخ الطوسي: ص ٣٧٠، ومشكاة الأنوار لعلي الطبرسي: ص ٩٦، وبحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٨، ج ٢ ص ٢٩.

نفسه»^١ أي: أنه يُحاسب يوم الحساب كما يُحاسب غيره.

وأما تعبير الأحلام فالصادق يرى أنها «لو كانت كلها تصدق كان الناس كلهم أنبياء، ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة، بل كانت فضلاً لا معنى لها، فكانت تصدق أحياناً لينتفع بها الناس في مصلحةٍ يهتدى لها، أو مضرّةٍ يحذر منها، وتكذب كثيراً لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد»^٢.

فروى الأنبياء حقائق من هدى النبوة، أما روى الآخرين فأصداء أفكار تتحرّك في باطنهم، منها ما يصدقه الواقع ومنها ما يكذبه.

* * *

روى هشام بن الحكم: (كان بمصر زنديق يبلغه عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) أشياء، فخرج إلى المدينة ليناظره، فلم يصادفه وقيل له: إنه خارج بمكة، فخرج إلى مكة، ونحن مع أبي عبد الله، فصادفنا في الطواف، وكان اسمه عبد الملك، وكنيته: أبو عبد الله، فضرب كتفه كتف أبي عبد الله... فقال له أبو عبد الله: ... فمن هذا الملك الذي أنت عبده؟ من ملوك الأرض أو من ملوك السماء؟ وأخبرني عن ابنك عبد إله السماء أم عبد إله الأرض؟ قل ما شئت تُخصم... إذا فرغت من الطواف فائتنا. فلما فرغ أتاه الزنديق فقعده بين يديه، قال أبو عبد الله: أيها الرجل، ليس لمن لا يعلم حجّة على من يعلم، ولا حجّة للجاهل... يا أبا مصر، إن الذين يذهبون إليه ويظنون أنه الدهر، إن كان الدهر يذهب بهم لم لا يردّهم؟ وإن كان يردّهم لم لا يذهب به؟ يا أبا مصر لِمَ السماء مرفوعة، والأرض موضوعة؟ لِمَ لا تنحدر السماء على الأرض؟ لِمَ لا تنحدر الأرض فوق طبقاتها؟ ولا يتماسكان ولا يتماسك من عليها؟

قال الزنديق: أمسكهما الله ربّهما وسيدهما... فأمن الزنديق، فقال: اجعلني من تلامذتك، فقال: يا هشام بن الحكم، خذ إليك، فعلمه هشام، فسار يعلم أهل الشام وأهل

١. البداية والنهاية لابن كثير: ج ٩ ص ١٢٥، كتاب السنّة لعمر بن أبي عاصم: ص ٤٦٨، سير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٣٩٦.

٢. التوحيد للمفضّل بن عمر الجعفي: ص ٤٤، الفصول المهمة في تأليف الائمة للحر العاملي: ج ١ ص ٦٩٠، بحار الأنوار: ج ٣ ص ٨٥ و ٥٨ ص ١٨٣، مجمع البحرين للطريحي: ج ٥ ص ٥٦٦.

مصر الإيمان^١.

ويروي هشام: «أَنَّ زعيم^٢ الديصانية^٣ وفد على مجلس الإمام فقال له: دلّني على معبودي ولا تسألني عن اسمي، فإذا غلام له صغير في كَفِّه بيضة يلعب بها.. فقال: يا ديصاني، هذا حصن مكنون له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهب مائة وفضّة ذاتية، فلا الذهب المائعة تختلط بالفضّة الذاتية، ولا الفضّة الذاتية تختلط بالذهب المائعة، فهي على حالها، لم يخرج بها مصلح فيخبر عن صلاحها، ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها، ولا يدري أَللذكر خُلقت أم للأُنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس، أو لا ترى لها مدبراً؟ فأطرق الديصاني ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنك إمام وحجّة من الله على خلقه، وأنا نائب ممّا كنت فيه»^٤.



قصد إليه في مجلسه ذات يوم نفر من المعتزلة، يطلبون إليه بيعة محمد بن عبد الله النفس الزكية، فطلب إليهم أن يختاروا واحداً منهم لينظره، فاختاروا زعيم المعتزلة عمرو بن عبيد. وظاهر أنّ تاريخ ذلك المجلس كان معاصراً لرفض الإمام الصادق أن يبايع يوم الأبواء قبل قيام الدولة العباسية سنة ١٣٣، فلقد كان عمرو بن عبيد من أنصارها، له صلة خاصّة بالمنصور، واشتهر عنه أنّه لم يبايع محمداً، وقال: إنّه لم يختبر عدله، وربّما كان ذلك المجلس في إثر مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦، أو فترة الحروب الأخيرة لبني مروان التي قامت على أثرها الدولة العباسية.

قال عمرو: قتل أهل الشام خليفتهم، وضرب الله بعضهم بقلوب بعض وشتّت أمرهم،

١. التوحيد للشيخ الصدوق: ص ٢٩٤، بحار الأنوار: ج ٣ ص ٥١، نور البراهين: ج ٢ ص ١٢٥.

٢. هو أبو شاكر الديصاني الزنديق.

٣. الديصانية: هم أصحاب ديصان، أثبتوا أصلين: نوراً وظلمة، فالنور يفعل الخير قصداً واختياراً، والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراً، فما كان من خير ونفع وطيب وحسن فمن النور، وما كان من شرّ وضرر وتتن وقبح فمن الظلام (الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٥٠ بتصرف).

٤. الكافي: ج ١ ص ٧٩، التوحيد للشيخ الصدوق: ص ١٢٣، شرح أصول الكافي للمولى محمد صالح المازندراني: ج ٣ ص ٣٥ و ص ٤٠، الاحتجاج للشيخ الطبرسي: ج ٢ ص ٧١، بحار الأنوار: ج ٣ ص ٣١ و ٣٢ و ج ٤ ص ١٤١، نور البراهين: ج ١ ص ٣٢٢، مستدرک سفينة البحار: ج ٣ ص ٢٣٩، درر الأخبار: ص ٦٨.

فنظرنا فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروءة، وهو محمد بن عبد الله بن الحسن، فأردنا أن نجتمع معه فبايعه، وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك، فإنه لا غناء لنا عنك لفضلك، قال الصادق: إننا نسخط إذا عصي الله، فإذا أطيع الله رضينا، أخبرني يا عمرو: لو أن الأمة قلّدتك أمرها، فملكته بغير قتال ولا مؤونة، فقبل لك ولها من شئت: من كنت تولّي؟ قال عمرو: كنت أجعلها شورى بين المسلمين، قال الصادق: بين كلهم؟ قال: نعم، قال: قريش وغيرهم؟ قال عمرو: العرب والعجم، قال الصادق: يا عمرو، أتولّي أبا بكر وعمر أم تتبرأ منهما؟ قال: أتولّاهما.

قال الصادق: يا عمرو، إن كنت رجلاً تتبرأ منهما فإنه يجوز الخلاف عليهما، وإن كنت تتولّاهما فقد خالفتهما، فقد عمد عمر إلى أبي بكر فبايعه ولم يشاور أحداً، ثم ردّها أبو بكر عليه ولم يشاور أحداً، ثم جعلها عمر شورى بين ستّة فأخرج منها الأنصار، ثم أوصى الناس بشيء، وما أراك ترضى به أنت ولا أصحابك، قال عمرو: وما صنع؟ قال الصادق: أمر صهيياً أن يصلّي بالناس ثلاثة أيام، وأن يتشاور أولئك الستّة ليس فيهم أحد سواهم، إلا ابن عمر يشاورونه وليس له من الأمر شيء، وأوصى من بحضرته من المهاجرين والأنصار إن مضت الثلاثة ولم يفرغوا ولم يبايعوا أن يضرب أعناق الستّة، وإن اجتمع أربعة قبل أن يمضي ثلاثة أيام وخالف اثنان أن يضرب أعناق الاثنتين، أفترضون بهذا فيما تجعلون من الشورى في المسلمين؟ قال: لا، قال الصادق: رأيت لو بايعت صاحبك الذي تدعو إليه، ثم اجتمعت لكم الأمة، ولم يختلف منهم رجلان، أفمضيتم إلى المشركين؟ قال: نعم، قال الصادق: فتفعلون ماذا؟ قال عمرو: ندعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا دعوتناهم إلى الجزية، قال الصادق: فإن كانوا مجوساً وعبدة النار والبهائم، وليسوا أهل الكتاب؟ قال عمرو: سواء...

وبعد محاورة في شأن الجزية والصدقات أقبل على عمرو والناس وقال: (أتق الله يا عمرو، وأنتم أيتها الرهط فاتقوا الله، فإنّ أبي حدّثني، وكان خير أهل الأرض وأعلم بكتاب الله وستّة رسول الله: أن رسول الله قال: «ومن ضرب بسيفه ودعاهم إلى نفسه، وفي المسلمين من هو أعلم منه، فهو ضالّ متكلف»^١.

١. أخرجهما كاملة في الاحتجاج للطبرسي: ج ٢ ص ١١٩، وبحار الأنوار: ج ٣١ ص ٣٥٢، ج ٤٧، ص ٢١٤ و ج ٩٧ ص ١٩، والكافي للكليني: ج ٥ ص ٢٤ وتهذيب الأحكام للشيخ الطوسي: ج ٦ ص ١٤٩.

مع القرآن

كان جدّه علي يقول: «سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم بليل نزلت أم بنهار، في سهل نزلت أم في جبل»^١ فلقد كان دائماً إلى جوار الرسول، وهو باب مدينة العلم، والإمام جعفر يصدر من المنبع ذاته.

يقول مثل جدّه علي: «كان أصحاب محمد يقرأ أحدهم القرآن في شهر أو أقل، إن القرآن لا يقرأ هذرمة^٢ ولكن يرتل ترتيلاً، وإذا مرتت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها وأسأل الله تعالى، وإذا مرتت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوذ بالله من النار»^٣.

للقرآن عنده المقام الأول، يُسأل عمّن يوم القوم، فيجيب: «أن النبي ﷺ قال: يتقدم القوم أقرؤهم للقرآن، فإن كانوا في القراءة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأكبرهم سنّاً، وإن كانوا في السنّ سواء فأعلمهم بالسنة، وأفقههم في الدين، ولا يتقدّم من أحد الرجل في منزله، وصاحب السلطان في سلطانه»^٤.

ونصوص القرآن حاضرة كلما أراد أن يدلي بحجّة، وهو في قمة البلاغة العربية تسعفه اللغة، لا يلجأ إلى التأويل بديلاً من التفسير، فهو في فهم النصوص أنفذ بصيرة، لم يعلم له تفسير نوقض فيه، والتفسير بتخريج مجازات القرآن لا يقدر عليه إلا البلغاء^٥.

١. الإصابة لابن حجر: ج ٢ ص ٥٠٩ في ترجمة الامام علي عليه السلام. الاستيعاب لابن عبد البر: ج ٢ ص ٤٦٣، تهذيب التهذيب: ج ٧ ص ٣٣٧، وسائل الشيعة: ج ١ ص ٦٢، كتاب سليم بن قيس تحقيق محمد باقر الانصاري: ص ٣٣١، الأمالي للطوسي: ٥٢٣، الاحتجاج للطبرسي: ج ١ ص ٣٨٨، بحار الأنوار: ج ١٠ ص ١٢٥ و ج ٤٠ ص ١٨٦ و ص ١٩٠، الصواعق المحرقة: ص ٧٦، فتح الباري لابن حجر: ج ١١ ص ٢٤٩، ذخائر العقبى: ص ٨٣، كنز العمال: ج ١ ص ٢٢٨، تفسير القرطبي: ج ١ ص ٣٥، الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٢ ص ٣٣٨، تاريخ مدينة دمشق: ج ٢٧ ص ١٠٠ و ج ٤٢ ص ٣٩٨، أنساب الأشراف للبلاذري: ص ٩٩، المناقب للخوارزمي: ص ٩٤، نهج الإيمان لابن جبر: ص ٢٦٧، بشارة المصطفى لمحمد بن علي الطبري: ص ٣٣٧.

٢. الهذرمة: السرعة في القراءة، (صحاح الجوهري: ج ٥ ص ٢٠٥٧).

٣. الكافي للكليني: ج ٢ ص ٦١٧، شرح أصول الكافي للمازندراني: ج ١١ ص ٥٣، وسائل الشيعة: ج ٦ ص ٢١٦، و ج ٤ ص ٨٦٣، تفسير الصافي للفيض الكاشاني ج ١ ص ٧٠، تفسير نور الثقلين للحويزي ج ٥ ص ٤٤٧، تفسير الميزان ج ٢٠ ص ٧١.

٤. الكافي: ج ٣ ص ٣٧٦، التهذيب للطوسي: ج ٣ ص ٣١، الوسائل: ج ٥ ص ٤١٩، مستند الشيعة للمحقق التراقي: ج ٨ ص ٤٨.

٥. في القرآن مجاز كثير، مثل عرض الأمانة على السماوات والأرض، ويفسرّها بعض العلماء أنّها الطاعة، ومثل

ومن القرآن ينشئ فقه الإمام في كل باب:

❖ يسأله سائل عن قوله تعالى ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^١ فيجيب: «من أخرجها من هدى إلى ضلال فقد - والله - قتلها»^٢.

❖ ويجيبه زنديق يسأله عن تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَثَلَاثَ رُبَاعٍ فَإِنِ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾^٣ وقوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾^٤ فيفهم الإمام الزنديق فيقول: «أما قوله: ﴿فَإِنِ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ فإتأ عنى النفقة، وأما قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فإتأ عنى المودة، فإنه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين في المودة»^٥.
❖ ويقول عن الرزق الذي يحض الله على الإنفاق منه: ﴿وممّا رزقناهم ينفقون﴾^٦ فيفسرها «وممّا علمناهم يبتون» فالعلم رزق، وإذاعته إنفاق واجب^٧.

→ ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ يفسرها البعض بأنها القدرة، وهؤلاء المخرجون يبدأون من أن ﴿الله ليس كمثله شيء﴾ والآخذون بالتأويل يبدأون من ذلك المبدأ، ثم يؤولون الآيات المتشابهة على أساس الآيات المحكمة: كقوله تعالى ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يفسرونها على أساس قوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فيكون المقصود الرضى عنها. وللمؤولين تفاسير كثيرة، ألقى كثير منها في غياهب الإهمال، وبخاصة تفاسير المعتزلة، بقي منها الكشّاف للزمخشري الفقيه الحنفي، وللإبلاغة العربية فيه أعظم مكان. (منه).

١. المائدة: ٣٢.

٢. الكافي: ج ٢ ص ٢١٠، المحاسن لأحمد بن محمد بن خالد البرقي: ج ١ ص ٢٣٢، شرح أصول الكافي للمازندراني: ج ٩ ص ١٠٥، وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ١٨٧ و ج ١١ ص ٤٤٧، الأمالي للشيخ الطوسي: ص ٢٢٦، بحار الأنوار: ج ٢ ص ١٦ و ج ٢ ص ٢٠ و ج ٧١ ص ٤٠١، مستدرک سفينة البحار: ج ٢ ص ٤٨٣ و ج ٦ ص ٤٧٤، تفسير الصافي للفيض الكاشاني: ج ٢ ص ٣١، التفسير الأصفي للكاشاني: ج ١ ص ٢٧٢، تفسير نور الثقلين للحويزي: ج ١ ص ٦١٩.

٣. النساء: ٣.

٤. النساء: ١٢٩.

٥. تفسير القمي: ج ١ ص ١٥٥ طبعة النجف، تفسير العياشي: ج ١ ص ٢٧٩ - ٢٨٥، وسائل الشيعة: ج ٢١ ص ٣٤٥ و ج ١٥ ص ٨٧، مناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ٣٧٤، بحار الأنوار: ج ١٠ ص ٢٠٢ و ج ١٠١ ص ٥١، تفسير مجمع البيان للطبرسي: ج ٣ ص ٢٠٧.

٦. البقرة: ٢.

٧. بحار الأنوار: ج ٦٤ ص ١٨ و ج ٨٩ ص ٣٧٥، تفسير العياشي: ج ١ ص ٢٦ ومعاني الأخبار ص ٢٣، مستدرک

❖ ومن تعبيره عن حجّية القرآن أبداً يسأله السائل: لِمَ صار الشعر والخطب يُعلَم ما أُعيد منها، والقرآن لا يُعلَم؟ فيجيب: «لأنّ القرآن حجّة على أهل العصر الثاني كما هو حجّة على أهل العصر الأوّل، فكل طائفة تراه عصراً جديداً، ولأنّ كلّ امرئ في نفسه، متى أعاده وفكّر فيه تلقى منه في كلّ مدّة علوماً غضة، وليس هذا كلّه في الشعر والخطب»^١.

❖ ويقول المفضّل^٢: قلت: أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: «وجعلها كلمة باقية في عقبه»^٣ قال: «يعني بذلك الإمامة، جعلها في عقب الحسين إلى يوم القيامة» فقلت: فكيف صارت الإمامة في ولد الحسين دون ولد الحسن، وهما جميعاً ولدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسبطاه، وسيّدا شباب أهل الجنة؟ فقال: «إنّ موسى وهارون كانا نبيّين مرسلين أخوين، فجعل الله النبوة في صلب هارون دون صلب موسى، ولم يكن لأحدٍ أن يقول: لِمَ فعل الله ذلك؟ فإنّ الإمامة خلافة الله عزّ وجلّ، جعلها في صلب الحسين دون صلب الحسن، لأنّ الله هو الحكيم في أفعاله، لا يُسأل عن فعله وهم يسألون»^٤.

❖ ويعلن الامام رأيه بوجوب الإمامة، فيسأله السائل عن منزلة الائمة، ومن يشبهون؟

→ سفينة البحار: ج ٤ ص ١٣٠، تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٢٦، ويثون بمعنى: ينشرون.

١. يروي الشاطبي في كتابه «الاعتصام» ما يوضّح حاجة العصور كافة لهدي القرآن: روى للأوزاعي (١٥٧) قول أحد الصحابة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله بزمان: «لو خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ما عرف شيئاً ممّا كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة» فقال الأوزاعي: فكيف لو كان اليوم؟! كان ذلك في منتصف القرن الثاني للهجرة، وفيه تابعوا التابعين، فكيف الأمر فيما تلاه من قرون وقرون؟! (منه).

٢. هو أبو عبد الله المفضّل بن عمر الجعفي الكوفي، روى عن الصادق والكاظم عليهما السلام. وجمع من فواضل الخصال ما قلّ أن يجمعه سواه من فقهاء الرواة وأعيان الثقات، وكفى من رفيع مقامه أن يقول فيه أبو عبد الله صلى الله عليه وآله: «نعم العبد والله الذي لا إله إلا هو المفضّل بن عمر الجعفي» حتّى أحصي عليه بضعاً وثلاثين مرّة يقولها ويكرّرها. وقال فيه الكاظم عليه السلام: «إنّ المفضّل كان أنسي ومستراحي».

له كتب رواها عنه جملة من الثقات، منها: كتاب «التوحيد» و«الإهليلجة». الإمام الصادق للمعظّم: ج ٢ ص ١٦٩.

٣. الزخرف: ٢٨.

٤. مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ج ٣ ص ٢٠٦، تفسير نور الثقلين للشيخ الحويزي: ج ٤ ص ٥٩٧، اللعة البيضاء للتبريزي الانصاري: ص ٣٧٠، الخصال للشيخ الصدوق: ص ٣٠٥، كمال الدين وتسام النعمة للشيخ الصدوق: ص ٣٥٩، معاني الاخبار للشيخ الصدوق: ص ١٢٦، بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٦٦ و ج ٢٤ ص ١٧٧، تفسير مجمع البيان للطبرسي: ج ١ ص ٣٧٥، تفسير كنز الدقائق للميرزا محمد المشهدي: ج ١ ص ٣٢٢، مجمع النورين للشيخ أبي الحسن المرندي: ص ٢٧٥.

فيقول: «كصاحب موسى وذوي القرنين، كانا عالمين، ولم يكونا نبيين^١». ^٢
 * وفي قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾^٣ يقول الإمام: «وهل يمحو الله إلا ما كان ثابتاً، وهل يثبت الله إلا ما لم يكن»^٤، ويقول: «لو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه»^٥ وإنما يقصد استجابة الله لدعاء العباد، وفي ذلك قوله: «ما عَظَّمَ اللَّهُ بشيءٍ مثل البداء»^٦.
 * ويسأله عمرو بن عبيد عن الكبائر من كتاب الله، فيسردها، ويضع في جوار كل كبيرة النصَّ عليها من الكتاب العزيز، فهي:

١. بحار الأنوار: ج ٢٦ ص ٧٤ و ج ١٢ ص ١٩٧ و ج ١٣ ص ٣٠٤، بصائر الدرجات: ص ١٠٧، الكافي: ج ١ ص ٢٦٩، شرح أصول الكافي: ج ٦ ص ٦٣، تفسير العياشي لمحمد بن مسعود العياشي: ج ٢ ص ٣٣٠ و ج ٢ ص ٣٤٠، تفسير نور الثقلين: ج ٣ ص ٢٧٣ و ج ٣ ص ٢٧٦ و ص ٢٩٤، تفسير الميزان: ج ١٣ ص ٣٥٢.
 ٢. يحدّد الصادق الإمامة بتشبيه قرآني يفتر وجوبها، إذ يُسأل عن حديث الرسول: «من مات وليس له إمام فميتته ميتة جاهلية» هل هي ميتة كفر؟ فيجب «ميتة ضلال». وكذلك يحدّد جدّه زين العابدين معنى العصمة بحدّ قرآني، إذ يُسأل عن معنى المعصوم فيقول: «هو من اعتصم بحيل الله المتين أي القرآن، فلا يفتقر الإمام عن القرآن إلى يوم القيامة، فالإمام يهدي الناس إلى القرآن، والقرآن يهدي الناس إلى الإمام، بقوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هي أقوم﴾...»
 ويلاحظ أنّ الذي فتى الكلام في الإمامة وفضل وأصل فيها هم تلاميذ الإمام، وربما بدأ الكلام فيها في عهده كما يقول المستشرق «رونالدسن»، أمّا التعريفات الوافية فتتنسب إلى الإمام الرضا (٢٠٢) حفيد الإمام الصادق، يقول الإمام الرضا: «الإمامة منزلة الأنبياء ووراثة الأوصياء، الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول، والإمامة زمام الدين ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين» والماوردي من فقهاء أهل السنة يحدّد غرضها فيقول: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا». (منه).

٣. الرد: ٣٩.

٤. مستدرک سفينة البحار: ج ١ ص ٢٩٠، كشف الغمة للأربلي: ج ٣ ص ٢١٥، بحار الأنوار: ج ٤ ص ٩٠ و ص ١١٨، تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢١٥، البرهان: ج ٢ ص ٢٩٩، الصافي: ج ١ ص ٨٧٨، تفسير نور الثقلين: ج ٢ ص ٥١٢.

٥. الكافي: ج ١ ص ١٤٨، شرح أصول الكافي للمازندراني: ج ٤ ص ٢٤٧، الفصول المهمة في أصول الإمامة: ج ١ ص ٢٥٣، بحار الأنوار: ج ٤ ص ١٣٣، تفسير كنز الدقائق للمشهدي: ج ١ ص ٣٥٩.

٦. الوافي: ج ١ ص ٥٠٧، ٥٠٨، الكافي: ج ١ ص ١٤٦، شرح أصول الكافي: ج ٤ ص ٢٣٦، بحار الأنوار: ج ٤ ص ١٣٣، تفسير القمي لعلي بن ابراهيم: ج ١ ص ٣٨، تفسير نور الثقلين للحويزي: ج ٢ ص ٥١٦، وهناك حديث ولكن بصيغة «ما عبّد الله بشيءٍ مثل البداء» رواه الأعلام قدس الله أسرارهم.

- الشرك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ ١.
- اليأس من روح الله: ﴿لَا يَنَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ ٢.
- عقوق الوالدين: ﴿وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ٣.
- قتل النفس: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ ٤.
- قذف المحصنات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ٥.
- أكل مال اليتيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ٦.
- أكل الربا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ٧.
- الفرار من الزحف: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَمِّدُ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ٨.
- السحر: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ ٩.
- الزنا: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ١٠.
- اليمين الغموس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١١.
- العلول: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ١٢.

١. النساء: ٤٨.

٢. يوسف: ٨٧.

٣. مريم: ٣٢.

٤. النساء: ٩٣.

٥. النور: ٢٣.

٦. النساء: ١٠.

٧. البقرة: ٢٧٥.

٨. الانفال: ١٦.

٩. البقرة: ١٠٢.

١٠. الإسراء: ٣٢.

١١. آل عمران: ٧٧.

١٢. آل عمران: ١٦١.

منع الزكاة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^١.

كتمان الشهادة: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾^٢.

شهادة الزور: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾^٣.

نقض العهد وقطيعة الرحم: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^٤.

كفران النعمة: ﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^٥.

بخس الكيل: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾^٦.

وترك الصلاة: (.....)^٧ واللواط: (.....)^٨ وقول الزور: (.....)^٩ وشرب الخمر: (.....)^{١٠} والبدعة: (.....)^{١١}.

✽ ومن علم الامام جعفر بالقرآن أخذ القراءات عليه حمزة بن حبيب التيمي^{١٣}، وفيها مد

١. التوبة: ٣٤.

٢. البقرة: ٢٨٣.

٣. الفرقان: ٧٢.

٤. البقرة: ٢٧.

٥. إبراهيم: ٧.

٦. المطففين: ١.

٧. لقوله ﷺ: «من ترك الصلاة متعمداً من غير علة فقد برئ من ذمة الله وذمة رسوله».

٨. لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَبِئُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ﴾ النجم: ٣٢.

٩. لقوله تعالى: ﴿أَفَأَمَّنُوا بِمَكَرِ اللَّهِ الْأَعْرَافِ﴾ ٩٩.

١٠. لقوله ﷺ: «شارب الخمر كعابد الوثن» راجع هامش ٦.

١١. لقوله ﷺ: «من تبسم في وجه مبتدع فقد أعان على هدم دينه» راجع هامش ٦.

١٢. روى النص كاملاً في الكافي: ج ٢ ص ٢٨٦، من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ٥٦٣، عيون أخبار الرضا للشيخ

الصدوق: ج ٢ ص ٢٥٨، مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ج ٣ ص ٣٧٥، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢١٦،

تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي: ج ٣ ص ٧١.

١٣. حمزة بن حبيب القارئ، أبو عمارة الكوفي التيمي، مولا هم، صدوق، زاهد، كان من علماء زمانه بالقراءات،

وكان من خيار عباد الله فضلاً وعبادة، وورعاً ونسكاً، وكان يجلب الزيت من الكوفة، ولذا يقال له: الزيات.

وإطالة وسكت على الساكن قبل الهمز.

❖ وفي صفات الله يقول الإمام لعبد الملك بن أعين^١: «تعالى الله الذي ليس كمثل شيء وهو السميع البصير، تعالى عما يصفه الواصفون المشبهون لله بخلقه...، إنَّ المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عزَّ وجلَّ، فأنف عن الله تعالى البطلان والتشبيه، فلا نفي ولا تشبيه، هو الله الثابت الموجود»^٢.

❖ ويقول لمن سأله: هل رأى رسول الله ربه: «نعم، لقد رآه بقلبه، أمّا ربنا جلَّ جلاله فلا تدركه أبصار الناظرين، ولا تحيط به أسماع السامعين»^٣.

❖ وسأله الأعمش - شيخ المحدثين - عن مكان الله، فقال: «لو كان في مكان لكان محدثاً»^٤. ولما سُئل عن استوائه على العرش، قال: «إنَّه يعني أنه لا شيء أقرب إليه من شيء»^٥.

→ (تحفة الأحوذى: ج ٩ ص ٢٣١).

أخذ القراءة عرضاً عن الأعمش وحرمان بن أعين، كان عالماً بالقراءات، بصيراً بالفرائض، إليه صارت الإمامة في القراءة بعد عاصم، توفي سنة ١٥٦ هـ. وجاء في كتبنا الرجالية أنه من أصحاب الصادق عليه السلام وأخذ عنه.

١. عبد الملك بن أعين الشيباني: أبو ضريس، وأخو زارة وحرمان، من أصحاب الباقر والصادق، كان مستقيماً، ومات في زمن أبي عبد الله عليه السلام، قيل: لمّا قدم الصادق مكّة سأل عنه، فقيل له: مات، فقال: مات؟ قيل: نعم، قال: فانطلقوا بنا إلى قبره حتّى نصلّي عليه، قيل: نعم، فقال: لا، ولكن نصلّي عليه هنيئاً هاهنا، ورفع يده ودعا له، واجتهد في الدعاء، وترحم عليه. (معجم رجال الحديث للسيد الخوئي: ج ١٢ ص ١٧). كما أنه وثقه جماعة كالذهبي وغيره.

٢. الكافي: ج ١ ص ١٠٠، شرح أصول الكافي للمازندراني: ج ٣ ص ١٩٧ - ١٩٩، التوحيد للشيخ الصدوق: ص ١٠٢ و ص ٢٢٦، بحار الأنوار: ج ٣ ص ٢٦١ و ج ٥ ص ٣٠، نور البراهين للسيد نعمته الله الجزائري: ج ١ ص ٢٦٠.

٣. أمالي السيد المرتضى: ج ١ ص ١٠٣.

٤. بحار الأنوار: ج ٣ ص ٣٢٧، نور البراهين: ج ١ ص ٤٣٦.

٥. ذكرها الأعلام هكذا: «استوى من كل شيء، فليس شيء أقرب إليه من شيء» راجع: الهداية للشيخ الصدوق: ص ١٦، الكافي: ج ١ ص ١٢٧ و ج ٦ ص ١٢٨ و ج ٧، ٨، التوحيد للشيخ الصدوق: ص ٣١٥، معاني الأخبار: ص ٢٩، روضة الواعظين للفتال النيسابوري: ص ٣٧، الاعتقادات للشيخ المفيد: ص ٤٥، الاحتجاج للشيخ الطبرسي: ج ٢ ص ٢١٤.

❖ سئل عن قوله تعالى: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾^١ فقال: «العرش في وجهه: هو جملة الخلق، والكرسي وعاؤه، وفي وجه آخر: هو العلم الذي أطلع الله عليه أنبياءه ورسله وحججه، والكرسي هو العلم الذي لم يطلع عليه أحداً من أنبيائه ورسله وحججه»^٢.

❖ وسئل عن قوله تعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾^٣ وقول البعض: إن العرش كان على الماء والرب فوقه! فأجاب «كذبوا، من زعم هذا فقد صير الله محمولاً، ووصفه بصفة المخلوق، ولزمه أن الشيء الذي يحمله أقوى منه»^٤.

وواضح من ذلك نهي الإمام عن التجسيد والتشبيه، وتصحيحه أفهام تلاميذه، كيوم جاءه يونس بن ظبيان^٥ يقول: إن هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً.. يزعم أن الله تعالى جسم! قال الإمام: «ويله، أما علم أن الجسم محدود متناه، فإذا احتمل الحدّ احتمل الزيادة والنقصان، فإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً!»^٦.

❖ وواضح منحى الإمام في الاحتجاج بنظام الكون، ونظام الجسم الإنساني، وبالعقل، وهو درس من جدّه علي يلفت النظر إلى بديع صنع المبدع جلّ جلاله، وفي ذلك قول علي^٧:
أتحسب أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر^٨

١. البقرة: ٢٥٥.

٢. معاني الأخبار ص ٢٩، بحار الأنوار: ج ٥٥ ص ٢٩، مستدرك سفينة البحار: ج ٥ ص ٣٠٨ و ج ٧ ص ١٥٩ و ج ٩ ص ٩٦، تفسير الصافي للفيض الكاشاني: ج ١ ص ٢٨٣، تفسير الأصفى له أيضاً: ج ١ ص ١٢١.

٣. هود: ٧.

٤. الكافي: ج ١ ص ١٣٣، التوحيد للشيخ الصدوق: ص ٣١٩، مختصر بصائر الدرجات للحسن بن سليمان الحلبي: ص ١٥٩، شرح أصول الكافي: ج ٤ ص ١١٢، بحار الأنوار: ج ٣ ص ٣٣٤ و ج ٢٦ ص ٢٧٧ و ج ٥٤ ص ٩٥، نور البراهين للسيد الجزائري: ج ٢ ص ١٧٩، مستدرك سفينة البحار: ج ٧ ص ١٥٧، تفسير الصافي: ج ٢ ص ٤٣٢، تفسير نور الثقلين للحويزي: ج ٢ ص ٣٣٨، تفسير الميزان للسيد الطباطبائي: ج ٨ ص ١٦٨.

٥. يونس بن ظبيان الكوفي الأزدي، ضعيف الحديث، سقى المعتقد، وكلّ كتبه تخليط، وهناك أقوال أخرى في توثيقه ومدحه. (أصحاب الصادق للشبستري)

٦. الكافي: ج ١ ص ١٠٦، التوحيد للشيخ الصدوق: ص ٩٩، شرح أصول الكافي للمازندراني: ج ٣ ص ٢٣٢، بحار الأنوار: ج ٣ ص ٣٠٢ و ج ١٠ ص ٤٥٣، نور البراهين للسيد الجزائري: ج ١ ص ٢٥٥.

٧. هذا البيت منسوب إلى مولانا سيد الوصيين، وهو في الديوان المرتضوي: ص ١٤٥ مذكور، وقد ذكره جمع من عظماء الفريقين كالشيخ البهائي في شرح الأربعين، والمحقق الجامي في شرح القصص.

٨. فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي: ج ٥ ص ٤٦٦، التفسير الصافي للفيض الكاشاني: ج ١ ص ٩٢، شرح الأسماء الحسنی للملاّ هادي السيزواري: ج ١ ص ١٢، تفسير القرآن للسيد مصطفى الخميني: ج ١ ص ٣٦٠.

❖ يجي الإمام رجل من أهل مصر أوصى أخوه للكعبة بجارية مغنيةً فارهةً كانت له، فقيل له: ادفمها إلى بني شيبه، وفيهم سدانة الكعبة، واختلف الناس في أداء الوصية، وأخيراً أشاروا عليه أن يأتي الإمام، قال الإمام: «إن الكعبة لا تأكل ولا تشرب، وما أهدي إليها فهو لزوارها، فبع الجارية وناد: هل من محتاج؟ فإذا أتوك فسل عنهم وأعطهم»^١.

❖ يُسأل عن القضاء والقدر فيجيب: «هو أمر بين أمرين: لا جبر ولا تفويض»^٢.

ويحسم القضية بين الجبرية والقدرية، فيقول: «ما من قبض ولا بسط إلا الله، فيه مشيئة ورضاء وابتلاء»^٤.

❖ يُسأل عن الجبر والتفويض: جعلت فداك، أجبر الله العباد على المعاصي؟! فيجيب:

١. الكافي: ج ٤ ص ٢٤٣، علل الشرائع للشيخ الصدوق: ج ٢ ص ٤١٠، تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي: ج ٩ ص ٢١٣، وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ١٣ ص ٢٥٢ و ج ٩ ص ٣٥٥، بحار الأنوار: ج ٩٦ ص ٦٧.

٢. الهداية للشيخ الصدوق: ص ١٨، الكافي: ج ١ ص ١٥٥، فقه الرضا: ص ٣٤٨، رسائل المرتضى: ج ١ ص ١٣٥ و ١٣٨، نتائج الأفكار: ج ١ ص ٢٢٥، مقالات الأصول: ج ١ ص ٢١٢ - ٢١٣، عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق: ج ٢ ص ١١٤، التوحيد للصدوق: ص ٢٠٦، تحف العقول لابن شعبة الحراني: ص ٤٦٠، روضة الواعظين للفتال النيسابوري: ص ٣٨، كشف الغمة للأربلي: ج ٣ ص ١٠٢، خاتمة المستدرک للميرزا النوري: ج ١ ص ٢٧٧، الاعتقادات للشيخ المفيد: ص ٢٩، نظرات في الكتب الخالدة: ص ٢٨، الاحتجاج للشيخ الطبرسي: ج ٢ ص ١٩٨، الفصول المهمة في أصول الأئمة للحر العاملي: ج ١ ص ٢٣٩.

٣. الجبر: أن الإنسان مُجبر على أعماله، والتفويض: أن الإنسان مخيرٌ فيها. وهما نظريتان لمفكرين كانوا أحياء في بدايات حياة الإمام، قال بالجر الجعد بن درهم متأثراً بقول بيان بن سميان، وقال بالتفويض غيلان الدمشقي ومعبد الجهني، وقد قُتل الأربعة. الأولان قتلها خالد بن عبد الله القسري والي بني أمية، والأخيران: قتل الأول منهما هشام بن عبد الملك، أما معبد فقتله الحجاج لخروجه عليه في فتنة ابن الأشعث. وتابع جهم بن صفوان الجعد، وقد قتلته سالم بن أحوز المازني بمرور في أواخر أيام بني أمية.

وفي حياة الإمام الصادق ازدهرت نظرية الإرجاء إلى الله، حتى يكون يوم الحساب، فيحاسب الناس على عملهم مع وجوب قيامهم بالعمل الصالح. قال بها سعيد بن جبيرة، وحماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة، ومقاتل بن سليمان وهو من السابقين الأولين في التفسير، وهؤلاء مرجئة السنة، أما مرجئة البدعة فيرجنون الحساب ولا يوجبون العمل الصالح.

والأولون يقولون: إن الله يعاقب مرتكب الكبيرة، لكنه قد يغفرها، ولا يكفره الناس في الحياة الدنيا لذلك الأمل.

(منه).

٤. المحاسن لأحمد بن محمد بن خالد البرقي: ج ١ ص ٢٧٩، الكافي: ج ١ ص ١٥٢، شرح أصول الكافي: ج ٤ ص ٢٧٥، بحار الأنوار: ج ٥ ص ٢١٦، نور البراهين: ج ٢ ص ٢٨٠، مستدرک سفينة البحار: ج ١ ص ٣٥٥، التوحيد للشيخ الصدوق: ص ٣٥٤، اللمعة البيضاء للتبريزي: ص ٤٦٩، مجمع البحرين للطبري: ج ٣ ص ٤٥٠.

«الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصي ثم يعدّهم عليها». فيقول السائل: جعلت فداك ففوّض إليهم؟ فيجيبه: «لو فوّض إليهم لم يحصرهم بالأمر والنهي». فيقول السائل: جعلت فداك، فبينهما منزلة؟ فيجيب «نعم، ما بين السماء والأرض»^١.

وفي مجلس آخر يسأله السائل: وما أمر بين أمرين؟ فيجيب: «مثل ذلك رجل رأيته على معصية، فنهيته فلم ينته، فتركته، ففعل تلك المعصية. فليس حيث لم يقبل منك فتركته، كنت أنت الذي أمرته بالمعصية»^٢.

ويقول لسائل آخر: «قال رسول الله ﷺ: من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله، ومن زعم أن الخير والشرّ بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه، ومن زعم أن المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله، ومن كذب على الله أدخله النار»^٥.

١. الكافي: ج ١ ص ١٥٩، شرح أصول الكافي: ج ٥ ص ٣٠، الفصول المهمة في أصول الائمة: ج ١ ص ٢٣٢، بحار الأنوار: ج ٥ ص ٥٣ و ج ٥ ص ٨٢، نور البراهين للسيد نعمه الله الجزائري: ج ٢ ص ٣٠٦، تفسير نور الثقلين للحويزي: ج ٥ ص ٣٤٥.

٢. الكافي: ج ١ ص ١٦٠، التوحيد للشيخ الصدوق: ص ٣٦٢، شرح أصول الكافي: ج ٥ ص ٣٢، الاعتقادات للشيخ المفيد: ص ٢٩، تصحيح اعتقادات الإمامية للمفيد: ص ٤٦، الفصول المهمة في أصول الائمة: ج ١ ص ٢٤٠، بحار الأنوار: ج ٥ ص ١٧، نور البراهين: ج ٢ ص ٣٠٤، تفسير علي بن إبراهيم القمي: ج ١ ص ٢٢٧، مجمع البحرين للطريحي: ج ١ ص ٣٣٩، اللعة البيضاء للتريزي: ص ٤٨٨.

٣. بيانه: إنك حيث نهيته فلم ينته فتركه على عمله، لست أنت الذي أمرته بالمعصية، كذلك الله تعالى، حيث نهى العبد عن المعصية فلم ينته، فتركه، وخلقى بينه وبين عمله، ليس هو الذي أدخله فيها وأجبره عليها، فالله خلاه فلا جبر، وقادر على منعه إن شاء فلا تفويض.

٤. الكافي: ج ١ ص ١٥٨، التوحيد للشيخ الصدوق: ص ٣٥٨، مختصر بصائر الدرجات للحسن بن سليمان الحلبي: ص ١٣٢، شرح أصول الكافي: ج ٥ ص ٢٣، مستدرک الوسائل للميرزا النوري: ج ٩ ص ٩٢، الفصول المهمة في أصول الائمة: ج ١ ص ٢٣٢، بحار الأنوار: ج ١٠٨ ص ٦٢، نور البراهين: ج ٢ ص ٢٩٣، تفسير العياشي: ج ٢ ص ١١، تفسير البرهان: ج ٢ ص ٨، تفسير نور الثقلين: ج ٢ ص ١٧، تفسير الميزان للطباطبائي: ج ١ ص ١٠٣ و ج ٨ ص ٨٩.

٥. بيانه: من زعم أن الله يأمر بالفحشاء - وهو القائل بالجبر - يقول بالإرادة الحتمية في المعاصي، فقد كذب على الله ونسبه الى الكذب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾. ومن زعم أن الخير والشرّ من الأفعال بغير مشيئة الله - وهم المفوضة - يقولون: إن الأفعال مخلوقة بمشيئة الإنسان دون الله، فقد أخرج الله من سلطانه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾. ومن زعم أن المعاصي بغير قوة الله، بل بقوة الإنسان، فقد كذب على الله حيث يقول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. وبهذا فقد أبطل مزاعم الفريقين: المجبرة والمفوضة، لأن من زعم أن الله يأمر

ويقول: «إِنَّ اللَّهَ أَرَادَ مِنَّا شَيْئًا، وَأَرَادَ بِنَا شَيْئًا، وَمَا أَرَادَهُ مِنَّا أَظْهَرَهُ لَنَا، فَمَا بَالُنَا نَشْتَغِلُ بِمَا أَرَادَهُ مِنَّا أَعْمًا أَرَادَهُ مِنَّا»^١.

مع أهل الكوفة وأبي حنيفة

ولقد يقول له قائل: إن لي جاراً يزعم أنك تبرأ من أبي بكر وعمر! فيجيب: «برئ الله من جارك. والله إني لأرجو أن ينفعني الله بقرابتي من أبي بكر»^٢.
أو يسأله السؤال ذاته سالم بن أبي حفصة، فيجيب بما أجاب أبوه الباقر: «يا سالم تولّهما وأبرأ من عدوّهما، فإنّهما كانا إمامي هدىً رضي الله عنهما»^٣.
يقول سالم: قال لي جعفر: «أيسبّ الرجل جدّه؟ أبو بكر جدّي، لا نالتني شفاعة محمد يوم القيامة إن لم أكن أتولّهما وأبرأ من عدوّهما»^٤.
ولقد كان لجدّه زين العابدين ابن أسماه عمر^٥، وكان زين العابدين يترحم على أبي بكر وعمر وعثمان.

- بالسوء والفحشاء يدعي بأن إرادة الله هي التي تسير الإنسان بنحو لا يملك من أمره شيئاً، ومن زعم أن الخير والشرّ بغير مشيئة الله فقد عزل الله عن سلطانه، فلا بدّ من الوساطة بين القولين. وذلك بأن نقول: مع أن الله قضى وقدر. فقد أعطى الإنسان القدرة على أفعاله، والقوّة، فهو يفعل بالقدرة التي وهبها الله له على الفعل والترك، فاذا فعل أو ترك يصحّ نسبه الفعل أو الترك إليه من حيث تساوي قدرته بالنسبة إليها.
١. اثنتا عشرة رسالة للمحقّق الداماد: ج ٨ ص ١١٨، ينقلها عن الملل والنحل للشهرستاني.
 ٢. الكامل لعبد الله بن عدي: ج ٣ ص ١٣٢، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ج ٣٥ ص ٣٣٢، تهذيب الكمال للمزي: ج ٥ ص ٨٠، سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٦ ص ٢٥٨، تهذيب التهذيب: ج ٢ ص ٨٨.
 ٣. تهذيب الكمال: ج ٥ ص ٨٠ و ج ٣٦ ص ١٤٠، سير أعلام النبلاء: ج ٦ ص ٢٥٨، تهذيب التهذيب: ج ٩ ص ٣١٢.
 ٤. معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري: ص ٥١، تاريخ مدينة دمشق: ج ٥٤ ص ٢٨٥، تهذيب الكمال: ج ٥ ص ٨٠، سير أعلام النبلاء: ج ٦ ص ٢٥٨.
 ٥. وهو الملقّب بالأشرف، وقيل: عمر الأشرف، وذلك بالنسبة إلى عمر الأطراف ابن أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّ هذا لما نال فضيلة النسب إلى الزهراء البتول عليها السلام وأمير المؤمنين عليه السلام كان أشرف من الثاني الذي سُمّي بالأطرف؛ لأنّ فضيلته من طرف واحد، وهو طرف أبيه أمير المؤمنين عليه السلام.
- وعمر الأشرف هو جدّ علم الهدى السيد المرتضى، وقد بيّنه الشّريف المرتضى بقوله: أمّا عمر بن علي الأشرف فهو فخم السيادة جليل القدر والمنزلة، وكان عالماً في دولة بني أمية وبني العباس.
- وقد سئل الباقر عليه السلام: أيّ إخوانك أحبّ إليك؟ فلما وصل إلى عمر قال: «فأمّا عمر فهو عيني التي بها أرى». (منتهى الآمال للقمي: ج ٢ ص ٦٩).

ويقول أبو حنيفة: استأذنت عليه فحجبتني، وجاء قوم من أهل الكوفة استأذنوا لهم فدخلت معهم، فلما صرت عنده قلت: يا ابن رسول الله، لو أرسلت إلى أهل الكوفة فنهيتهم أن يشتموا أصحاب رسول الله ﷺ، فأبى تركت فيها أكثر من عشرة آلاف يشتمونهم! فقال: لا يقبلون مني، فقلت: ومن لا يقبل منك وأنت ابن رسول الله؟ فقال الصادق: أنت أول من لا يقبل مني، دخلت بغير إذني، وجلست بغير أمري، وتكلمت بغير رأيي، وقد بلغني أنك تقول بالقياس، فقلت: نعم أقول به، فقال: ويحك يا نعمان، أول من قاس إبليس حين أمر بالسجود لآدم فأبى وقال: خلقتني من نار وخلقته من طين! أيهما أكبر يا نعمان: القتل أم الزنا؟ قلت: القتل، قال: فلم جعل الله في القتل شاهدين وفي الزنا أربعة؟ أيقاس لك هذا؟ قلت: لا، قال: فأيهما أكبر: البول أو المنى؟ قلت: البول، قال: فلماذا أمر في البول بالوضوء وأمر في المنى بالغسل؟ أيقاس لك هذا؟ قلت: لا، قال: أيهما أكبر الصلاة أم الصوم؟ قلت: الصلاة، قال: فلم يجب على الحائض أن تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ أيقاس ذلك؟ قلت: لا، قال: فأيهما أضعف: المرأة أم الرجل؟ قلت: المرأة، قال: فلم جعل الله للرجل سهمين في الميراث وللرأة سهماً أيقاس ذلك؟ قلت: لا.

قال: وقد بلغني أنك تقرأ آيةً من كتاب الله ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾: أنه الطعام الطيب والماء البارد في اليوم الصائف، قلت: نعم، قال: لو دعاك رجل وأطعمك وسقاك ماءً بارداً، ثم امتنَّ عليك، ما كنت تنسبه إليه؟ قلت: البخل، قال: أفبخل علينا؟ قلت: فما هو؟ قال: حبنا أهل البيت^١.

١. يلاحظ أن مدرسة المحدثين ضائقة الصدر بالقياس، ومدرسة المدينة - وعلى رأسها مالك - تقدر في أهل العراق؛ لكثرة إبداء الآراء باستعمال القياس.

ولئن كان لنا أن نلاحظ تأثر أبي حنيفة الكامل بمنهج الامام الصادق في الاعتبار بالآيات الدالة على الحقائق (أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام للمؤلف صفحة ١٧٨ طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية) أو تأثر مالك بمنهج الامام الصادق في عدم المجازفة بالرسي (مالك بن أنس للمؤلف صفحة ٧٦ وما بعدها طبعة دار المعارف) إننا نقطع كذلك بأثره في النهي عن القياس، فلقد نفع النهي القياسيين أنفسهم، فضبطوا القياس وتحرروا كل الدقة فيه؛ ليتفادوا المجازفة، ثم جاء الشافعي فأصله وقمته، وهو القائل: «والاجتهاد القياس».

يقول الفخر الرازي: «العجيب أن أبا حنيفة كان تعويله على القياس، وخصومه يذمونه بسبب كثرة القياسات، ولم ينقل عنه ولا عن أحد من أصحابه أنه صنف في إثبات القياس ورقة! ولا أنه ذكر في تقريره شبهة، فضلاً عن حجة، ولا أنه أجاب عن دلائل خصومه في إنكار القياس، بل أول من قال في هذه المسألة وأورد فيها الدلائل

والمسلمون يرفعون أبا حنيفة إلى مكانته العليا بين كبار المجادلين من أهل الإسلام، ولا يجدونه ساكناً في يوم من الأيام، كهيئة ما كان في ذلك المقام.
فأما تفسير القرآن بما ينفي البخل عن المعطي جلّ شأنه فحجّة الصادق فيه لا رادّ لها، وأما حجاجه بعدم طاعة أهل الكوفة فظاهر لأبي حنيفة، إمام الكوفة في الفقه والأدب الديني والاجتماعي، الذي دخل وجلس وتكلّم دون أن يطيع، ثلاث مرّات.
أما أسئلته عن القياس فقد وضعت القياس موضع التهمة، ولم يحر أبو حنيفة جواباً، وهو

→ هو الشافعي «. فأبو حنيفة استعمل القياس، والشافعي استعمله وأصله وقعد القواعد للعاملين به. ولقد أفاد الشيعة كثرة ما آل إليهم من السنّة ونصوص الحديث، فلم يلجأوا للقياس، كما كانت قواعدهم الأخرى كافية لبوغ غرضهم، ومن أسباب الإقبال على القياس في العراق قلّة ما سلموه من نصوص السنّة. وأما اتّسع فقه أحمد بن حنبل بكثرة السنن التي جمعها واعتمد أصحابه عليها، مع تعويله على أصل الصحابة، فزاد مصادر الفقه أصلاً بتمامه. والقياس الذي يلجأ إليه المجتهدون من أهل السنّة، هو إلحاق أمر لم يرد في حكمه نصّ أو إجماع، بأمر ورد في حكمه نصّ أو إجماع؛ لاشتراكهما في المعنى الذي شرع هذا الحكم من أجله، فشتمت أركان أربعة: الأصل وهو النصّ، والفرع وهو الأمر الذي لم يرد في حكمه نصّ، والمعنى الذي من أجله شرّع الحكم، والمطلوب وهو الحكم. وهم يضعون للقياس شروطاً:

- ١- أن يكون حكم الأصل ثابتاً بنصّ في الكتاب أو السنّة أو الاجماع.
 - ٢- أن يكون لحكم الأصل علّة يدركها العقل. فمن الأحكام ما هو تنفيذي لا يجوز القياس فيه؛ كتحديد عدد الركعات، ومقدار الأنصبة في الأموال التي تجب فيها الزكاة، وتحديد عدد الطواف حول الكعبة. فهذه مقدّرات لا يقاس عليها؛ لأنّ العقل لا يدرك علّة مقاديرها.
 - وجميع الأحكام إلّا قليلاً منها، كالتي سبق، يمكن للعقل إدراك المعاني التي شرّعت الأحكام لأجلها.
 - ٣- أن يتساوى الفرع والأصل في المعنى الذي شرّع حكم الأصل من أجله، وإلّا كان القياس فيه مع الفارق. وأن يكون المعنى ظاهراً؛ لأنّه معرف للحكم الخفي، والخفي لا يعرف الخفي.
 - ٤- أن لا يكون في الفرع نصّ أو إجماع يدلّ على حكم يخالف القياس.
 - ٥- أن لا يكون حكم الأصل خصوصية من الخصوصيات؛ كاختصاص الرسول بزواج من زدن على الأربع، واختصاص خزيمه بأن تعدل شهادته رجلين. وأن لا تكون العلّة قاصرة على الأصل، لا يمكن تعدية حكمها إلى الفرع. وبالقياس أمكن أهل السنّة البناء على النصوص، واستعمال العلل في تحقيق مقاصد الشارع. (منه).
٢. ذكره المجلسي والقاضي نعمان مفصلاً، وذكر الباقون موضع الحاجة منه: بحار الانوار للعلامة المجلسي ج ١٠ ص ٢٢٠، شرح الاخبار للقاضي نعمان المغربي: ج ٣ ص ٣٠٠ المجدي في أنساب الطالبين لعلي ابن محمد العلوي ص ٩٤، الحدائق الناضرة للمحقق البحراني: ج ١ ص ٦١، دعائم الاسلام للقاضي نعمان: ج ١ ص ٩١، وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٢٧ ص ٤٦، ص ٤٨، مستدرک الوسائل ج ١٧ ص ٢٥٣، مسند أبي حنيفة لابن نعيم الاصبهاني ص ٦٦.

المقتدر. ولو سأل الصادق أبا حنيفة عن حكمة كلِّ حكمٍ لأجاب، وأضاف: أن كلَّ ذلك ليس يمنع القياس عنده. وربما كان أبو حنيفة يومذاك كهيشته يوم سكت عن الردِّ بأنَّ الظبي لا تكون له رباعية^١، مخافة أن يظنَّ به ظانٌّ أنه يريد ردًّا على الإمام، في حين أنه قد جاء إلى مجلسه ليتعلَّم، أو إجلالاً منه لمقام الإمام وهو بين يديه، فذلك أدب الأئمة الذي جعل الشافعي وهو يصلي عند قبر أبي حنيفة^٢ لا يرفع يديه، ويقول: أدباً مع هذا الإمام أن أظهر خلافه بحضرته.

طعم أبو حنيفة يوماً مع الإمام الصادق، فرفع الإمام يده حمداً لله، ثم قال: «اللهم هذا منك ومن رسولك»، قال أبو حنيفة: يا أبا عبد الله، أجعلت مع الله شريكاً؟ قال الإمام: إن الله يقول في كتابه: ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّاءَ أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^٣ فقال أبو حنيفة: لكأنِّي ما قرأتها قطُّ في كتاب، ولا سمعتها إلَّا في هذا الموقف^٤.



ولقد يدخل عليه سفيان الثوري وفيه قول القائل: «ما رأيت الغني أدلَّ منه في مجلس الثوري، ولا الفقير أعزَّ منه في مجلس الثوري»^٥. والذين يجلون ورع الإمام أحمد بن حنبل يشبهونه فيه بسفيان الثوري، وسفيان الثوري يسمَّى أمير المؤمنين في الحديث^٦، وحسبه أن

١. وفيات الأعيان لابن خلكان: ج ١ ص ٣٢٧، مناقب أهل البيت للمولني حيدر الشيرازي: ص ٢٧٠.
٢. ذكر صاحب تاريخ بغداد: ج ١ ص ١٢٣: أن الشافعي قال: «إني لأتبرك بأبي حنيفة، وأجيء قبره كلَّ يوم، فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره، وسألت الله تعالى الحاجة عنده، فما تبعه أن تُقضى». ٣. التوبة: ٧٤.

٤. وقرأ معها الآية: ٥٩ من سورة التوبة: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسينا الله سئوتنا الله من فضله ورسوله﴾ راجع: وسائل الشيعة: ج ٢٤ ص ٣٥١ وج ١٦ ص ٤٨٢، الغيبة للنعماني: ص ١٥١، كنز القوائد لأبي الفتح الكراچكي: ص ١٩٦، ج ١٠ ص ٢١٦ وج ٤٧ ص ٢٤٠ وج ٦٣ ص ٣٨٤، مستدرک سفينة البحار: ج ٦ ص ٥٢٩، درر الأخبار لحجازي خسروشاہي: ص ٣٥٤.

٥. تفسير الثوري لسفيان الثوري: ص ١٧، الجرح والتعديل للرازي: ج ١٠ ص ٩٧، ص ١٠٠، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ج ٩ ص ١٦٢، ويتغير بسيط في سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٧ ص ٢٧٥.
٦. سمَّاه بذلك أحمد بن حنبل، قال: كان [سفيان] يسمَّى أبا الزناد أمير المؤمنين في الحديث. لاحظ الفهارات لإبراهيم بن محمد الثقفي: ج ٢ ص ٩٠٥.

وهذا اللقب ليس من مختصات سفيان الثوري، بل شاركه فيه العشرات من أئمة الحديث: كابن راهويه، ومحمد بن إسحاق، ومالك بن أنس، وشعبة بن الحجاج، وهشام الدستوائي، وغندر محمد بن جعفر البصري المدني... وغيرهم.

يكون من تلاميذه في الحديث ابن جريج إمام مكة، والأوزاعي إمام الشام، ومالك بن أنس إمام المدينة، وابن إسحاق^١ إمام المحدثين في السيرة، وهو فوق كل ذلك إمام عامل، رمى كتاب المهدي له في دجلة - وفيه توليته للقضاء - وهرب من السلطان، فولّى شريكاً^٢ بدله. وكان سفيان كثير المغاضبة للخلفاء، ولهذا كثر ما كان الخليفة يطلب دمه، وكان يخفي عن عيونه.

يستاذن سفيان على الإمام، فلا يرفض الإذن بل يدخله ليعلم له أن ظهوره في المجلس العلمي وهو مختفٍ أمر غير سائع؛ صيانةً للمجلس العلمي من أن يكون مجلس المطلوبين، وحمايةً للمطلوب ذاته، وحفظاً لعلاقة الإمام بالخليفة، ومع ذلك لا يرضن الإمام عليه بالحكمة، يقول ابن أبي حازم^٣: كنت عند جعفر الصادق يوماً وإذا بسفيان الثوري بالباب، فقال: إيدن لي، فدخل، فقال له جعفر: إنك رجل يطلبك السلطان في بعض الأحيان، ونحضر عنده، وأنا أتقي السلطان، فاخرج عني غير مطرود^٤. قال سفيان: حدّثني حديثاً أسمعه وأقوم. قال الإمام: حدّثني أبي، عن جدّي، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «من أنعم الله عليه نعمةً فليحمد الله، ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله، ومن حزنه أمر فليقل: لا حول ولا قوة إلا بالله»^٥.

طلب إليه سفيان يوماً أن يعظه، فقال: «يا سفيان، لا مروءة لكذب، ولا أخ لملول، ولا راحة لحسود، ولا سودد لسيء الخلق». فقال سفيان: زدني، قال: «يا سفيان، يُق باله تكن

١. محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، مولى قيس بن مخرمة بن المطلّب بن عبد مناف، المولود عام ٨٥ والمتوفى عام ١٥١ هـ. يقال له: أمير المؤمنين في الحديث، في السير والغازي. قيل: ينبغي أن يكون له ألف حديث ينفرد بها ولا يشاركه فيها أحد، وله فيها كتب. أنظر تاريخ بغداد: ج ١ ص ٢١٤ رقم ٥١.

٢. شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي: أبو عبد الله، عالم بالحديث، فقيه، اشتهر بقوة ذكائه وسرعة بديته، استتضاه المنصور العباسي على الكوفة سنة ١٥٣ هـ، ثم عزله، وأعاد المهدي، فعزله موسى الهادي. وكان عادلاً في قضائه، مولده في بخارى سنة ٩٥ هـ، ووفاته بالكوفة سنة ١٧٧ هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ١٦٣).

٣. هو إسحاق بن حازم، وكان يقال: ابن أبي حازم البرّاز، مدني، قال الألباني: هو ثقة اتّفاقاً. لاحظ إرواء الغليل للألباني: ج ٤ ص ٢٧، وتذكرة الحفاظ: ج ١ ص ١٩٠.

٤. مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ج ٣ ص ٣٧٣، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢٩ وج ٧٥ ص ٢٠١، فيض الغدير شرح الجامع الصغير للمناوي: ج ٦ ص ١١٧ ح ٨٥٤٠، تاريخ بغداد: ج ٣ ص ٣٩٧، كشف الغمة للاريلي: ج ٢ ص ٣٦٩.

٥. بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٠١، فيض التدير شرح الجامع الصغير: ج ٦ ص ١١٧ ح ٨٥٤٠، تاريخ بغداد: ج ٣ ص ٣٩٧، كشف الغمة: ج ٢ ص ٣٦٩.

مؤمناً، وارض بما قسم الله تكن غنياً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، ولا تصحب الفاجر يعلمك فجوره، وشاور في أمرك الذين يخشون الله عزّ وجلّ» فاستزاده سفيان، فقال: «من أراد عزّاً بغير عشيرة، وغنىً بغير مال، فلينتقل من ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعته»^١. فإذا أوصى زرارة عندما ولي القضاء، ذكره حساب السماء، قال: «إنّه إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق سألهم عمّا عهد إليهم، ولم يسألهم عمّا قضى عليهم»^٢ فالقضاء أمانة الله، وإذا كان القاضي يجري عليه قضاء الله فهو مسؤول عمّا يجري به قضاؤه على غيره. ويوصي الإمام ابنه موسى الكاظم فيقول: «يا بنيّ، من رضي بما قسمه الله له استغنى، ومن مدّ عينه إلى ما في يد غيره مات فقيراً، ومن لم يرض بما قسمه الله له أتهم الله في قضاؤه، ومن استصغر زلّة نفسه استعظم زلّة غيره. يا بنيّ: من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن سلّ سيف البغي قُتل به، ومن احتقر لأخيه بئراً سقط فيها، ومن داخل السفهاء حُقّر، ومن خالط العلماء وقّر، ومن دخل مداخل السوء أتهم. يا بنيّ، إيتاك أن تزري بالرجال فيزرى بك، وإيتاك والدخول فيما لا يضيئك فتذلّ لذلك. يا بنيّ، قل الحقّ لك أو عليك. يا بنيّ، كن لكتاب الله تالياً، وللإسلام فاشياً، وبالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً، ولمن قطعك واصلاً، ولمن سكت عنك مبتدئاً، ولمن سألك معطياً، وإيتاك والنميمة فأنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال، وإيتاك والتعرّض لعيوب الناس، فمنزلة المتعرّض لعيوب الناس بمنزلة الهدف»^٣.

١. ذكر الرواية كاملة في: الخصال للشيخ الصدوق: ص ١٦٩، والأنساب للسمعاني: ج ٣ ص ٥٠٧ و ٥٠٨. وذكرها باقي الأعلام ناقصة. أخذوا منها موضع الحاجة، راجع: بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ٢٦١ و ج ٧٠ ص ٢٩٧ و ج ٧٥ ص ٢٦١، ذكر أخبار إصبيهان للحافظ الإصبهاني: ج ٢ ص ٢٦٢.

٢. حديث الإمام إنّما يشير إلى القضاء الذي في قبال القدر، لا القضاء بمعنى حكم القاضي، وهذا ما تؤكده الروايات:

عن زرارة أنّه قال: قلت للصادق عليه السلام: جعلت فداك، ما تقول في القضاء والقدر؟ قال عليه السلام: «أقول: إنّ الله تبارك وتعالى إذا جمع العباد يوم القيامة سألهم عمّا عهد إليهم، ولم يسألهم عمّا قضى عليهم». راجع ذلك في: الهداية للشيخ الصدوق: ص ١٩، الاعتقادات للشيخ المفيد: ص ٢٤، تصحيح الاعتقاد: ص ٥٩، التوحيد للشيخ الصدوق: ص ٣٦٥، كنز القوائد: ص ١٧١ باختلاف يسير في اللفظ، الكافي: ج ١ ص ١٥٥، مختصر بصائر الدرجات: ص ١٣٤ و ١٣٦، الإرشاد للمفيد: ج ٢ ص ٢٠٤، بحار الأنوار: ج ٥ ص ٦٠ و ٩٧ و ١٠١ و ج ٧ ص ٢٦٤ و ج ٢٥ ص ٢٤ و ج ٧٥ ص ٢٢٨، نور البراهين: ج ٢ ص ٣١٢، نزهة الناظر للحلواني: ص ١١٨، تفسير نور الثقلين للحويزي: ج ٣ ص ٤١٩، تفسير كنز الدقائق: ج ٢ ص ١٤٦، كشف الغمّة للاريلبي: ج ٢ ص ٣٩٢، مجموعة رسائل لطف الله الصافي: ج ١ ص ٣٠٢.

٣. بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٠٢ و ٢٠٤، مستدرک سفينة البحار: ج ١٠ ص ٣٥٥، تهذيب الكمال: ج ٥ ص ٨٩،

وتصبح هذه الوصية تراثاً للامة بعده، فيعلن الإمام الثامن علي الرضا: أنه «ما ترك هذه الوصية إلى أن توفي»^١.

* * *

ولقد يفد على المجلس الكُميت^٢ - شاعر أهل البيت - كما كان يدخل على زين العابدين^٣ والإمام يعرف انبعاث الشاعر، ويخشى عليه من الخيال الصادق في تصوير ظلم يعانیه أهل البيت. وشعر الكُميت من أسير الشعر في الأدب العربي - والبرد تنقل للخليفة

→ كشف الغمة: ج ٢ ص ٣٧٠ و ٤٠٠. العدد القوية لعلي بن يوسف الحلبي: ص ١٥١، سير أعلام النبلاء: ج ٦ ص ٢٦٣.

١. «أنه» الهاء تعود على الإمام الكاظم عليه السلام فقد جاء في كشف الغمة، وفي البحار: ج ٧٥ ص ٢٠٥: قال علي بن موسى الرضا عليه السلام: «فما ترك أبي هذه الوصية إلى أن توفي». أما صاحب تهذيب الكمال: ج ٥ ص ٩٠ فينقل عن الرضا عليه السلام قوله: «فما تركت هذه الوصية إلى أن توفي» ومن ذيل رواية العزي نفهم أن المقصود هو الكاظم عليه السلام، ولكن اشبهه في النقل، والله أعلم.

٢. الكُميت بن زيد الأسدي الكوفي، الشاعر الإمامي المعروف، مادح أهل البيت، كان عالماً بلغات العرب، خبيراً بأيامها، وكان مشهوراً بالتشيع لبني هاشم، وقصائده فيهم تسمى الهاشميات، وهي من جيد شعره ومختاره، وكانت أول منظوماته. يقال: ما جمع أحد من علماء العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكُميت، عاش في أيام بني أمية، ولد سنة ٦٠هـ، وتوفي سنة ١٢٦هـ. (الكنى والألقاب لعباس القمي: ج ١ ص ١٥٦).

٣. دخل الكُميت على زين العابدين فأنشده قصيدته التي مطلعها:

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام

وقال الإمام: ثوابك نعجز عنه، لكن الله لا يعجز عن مكافأتك، اللهم اغفر للكُميت، ثم قسط على نفسه وعلى أهله أربعمائة ألف درهم، أعطاه القسط الأول، قائلاً: خذ يا أبا المستهل، قال الكُميت: لو وصلتني بدانق كان شرفاً لي، ولكن إن أحببت أن تحسن إلي فادفع لي بعض ثيابك التي تلي جسمك أتبرك بها، فترع ثيابه ودفعها إليه كلها ثم قال: اللهم إن الكُميت جاد في آل رسولك وذرية نبيك بنفسه حين ضن الناس، وأظهر ما كنتمه غيره من الحق، فأحبه سعيداً، وأمه شهيداً، وأره الجزاء عاجلاً، وأجزل له المشوية أجلاً، فأبنا قد عجزنا عن مكافأته، قال الكُميت فيما بعد: فما زلت أعرف بركات دعائه.

ولئن كان عطاء الشعراء جوائز تشجيع لهم، فإن تقسيط العطاء آية سخاء في التشجيع، وارتباط طويل بالمودة بين من قرض الشعر وبين من أجازته.

وتعجيل العطاء بالاستدانة درس تعلمه زين العابدين على جدّه عليه السلام، كان يمكث شهراً ما يستوقد ناراً، إن هو إلا النحر واللين، ومع ذلك لا يرد أحد يسأله، بل يعطيه إذا كان عنده وإلاً وعده، وذات يوم جاءه رجل، فقال عليه الصلاة والسلام «ما عندي شيء، ابتع عليّ، فإذا جاء شيء قضينا». قال عمر: يا رسول الله، ما كلّفك الله ما لا تقدر عليه، ففكر ما قال عمر، وقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، فبسم الله وقال: «بهذا أمرت». (منه).

الخبء من أي شيء - فيستأذن الكميّ الإمام قائلاً: جعلت فداك، ألا أنشدك؟ فينبهه الإمام قائلاً: «إنها أيام عظام»^١. فيقول الكميّ عن القصيدة: إنَّها فيكم، ويقول الإمام: هات، فينشده قصيدته التي مطلعها:

أهل عم في رأيه متأمل وهل مدير بعد الإساءة مقبل
إلى أن قال:

كلام النسيب الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية تفعل
رضينا بدنيا لا نريد فراقها على أننا فيها نموت ونُقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها لنا جنة ما نخاف ونعقل

فكثر البكاء وارتفعت الأصوات، إلى أن قال:

كانَ حسيناً والبهايل حوله لأسيافهم ما يختلي المتبعل
فلم أر مخذولاً أجلاً مصيباً وأوجب منه نصرةً حين يُخذل

فرفع جعفر الصادق يديه وقال: «اللهم اغفر للكميت ما قدّم وما أخر، وما أسرّ وما أعلن، وأعطه حتّى يرضى» ثم أعطاه ألف دينار وكسوة، قال الكميّ: والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردتها لأتيت من هي لديه، ولكنّي أحببتكم للآخرة، فأما الثياب التي أصابت أجسامكم فإني أقبلها لبركتها، أما المال فلا أقبله^٢.

المذهب الجعفري

أخرج الحاكم في تاريخه بالإسناد إلى أبي بكر، عن رسول الله قال: «من كتب عليّ علماً أو حديثاً، لم يزل يكتب له الأجر ما بقي ذلك العلم أو الحديث»^٣.

وأجمع أبو بكر أيام خلافته على تدوين الحديث، فجمع خمسمائة حديث، فبات ليلته يتقلب كثيراً، قالت عائشة: فغمّني قلبه، فلما أصبح قال لي: أي بنية، هلّمي الأحاديث التي

١. المقصود: أيام التشريق.

٢. الدرجات الرفيعة للسيد علي بن معصوم: ٥٧١، الهاشميات والعلويات: ص ٦١، الأغاني لأبي الفرج الإصهاني: ج ١٧ ص ٤١، الأعلام للزركلي: ج ٦ ص ٩٢، الغدير: ج ٢ ص ١٩٢ و ص ٢٠٣، خلاصة عقبات الأنوار للسيد النقوي: ج ٩ ص ٢٠٢.

٣. أورده السيوطي في تاريخ الخلفاء: ص ٩٣ تحت التسلسل ٨٩ في آخر تاريخ أبي بكر، ضمن فصل خاص بذكره، مسانيد عن الحاكم في التاريخ. وذكره السيد عبد الحسين شرف الدين في كتابه: النص والاجتهاد: ص ١٣٩. وذكره ريشيري في ميزان الحكمة: ج ٣ ص ٢٦٦٣ نقلًا عن كنز العمال: ج ١٠ ص ١٨٣ ح ٢٨٩٥١.

عندك، فجئت بها فأحرقها^١.

وعن الزهري، عن عروة: أن عمر أراد أن يكتب السنن، فاستفتى أصحاب رسول الله ﷺ، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثم أصبح يوماً فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً قبلكم كتبوا كتباً فأكتبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً^٢.

لكنّ علياً دون، وخلف في شيعته طريقة التدوين، فلقد كان عليّ ثقةً من طريقته، وهو الذي يقول فيه الرسول: «علي مع القرآن والقرآن مع علي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^٣.

وعنه قال الرسول: «يا معشر قريش، والله ليبعثن الله عليكم رجلاً منكم، امتحن الله قلبه للإيمان، فيضربكم على الدين» قال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: «لا»، قال عمر: أنا

١. وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ١ ص ٩، تذكرة الحفاظ للذهبي: ج ١ ص ٥، مستدرک الوسائل للميرزا النبوي: ج ١ ص ٩، نهاية الدراية للسيد حسن الصدر: ص ١٩، كنز العمال للمتقي الهندي: ج ١٠ ص ١٧٤ ح ٢٩٤٧٤، النص والاجتهاد للسيد شرف الدين: ص ١٤٠، أضواء على السنة المحمدية للشيخ محمود أبو رية: ص ٤٩.
٢. وسائل الشيعة: ج ١ ص ١٠، جامع بيان العلم وفضله: ج ١ ص ٦٤، تقويد العلم: ص ٥٠، سنن الدارمي: ج ١ ص ١٢٥، مستدرک الحاكم: ج ١ ص ١٠٤ و ١٠٦، مختصر جامع العلم: ص ٣٦ و ٣٧، بحار الأنوار: ج ٣١ ص ٩١، نهاية الدراية للسيد حسن الصدر: ص ١٩، كنز العمال: ج ١٠ ص ٢٩١ ح ٢٩٤٧٤، النص والاجتهاد للسيد شرف الدين: ص ١٤٠، التقدير للشيخ الأميني: ج ٧ ص ٢٩٧، طبقات ابن سعد: ج ٣ ص ٢٠٦، أضواء على الصحيحين للشيخ النجفي: ص ٥٠، دراسات في الحديث والمحدثين: ص ٢١، مكاتيب الرسول: ج ١ ص ٤٨٥، أضواء على السنة المحمدية: ص ٤٧، وضوء النبي: ج ٢ ص ٢٠، حجية السنة: ص ٣٩٥.
٣. شرح أصول الكافي: ج ٥ ص ٢٦٧، مناقب أمير المؤمنين لمحمد بن سليمان الكوفي: ج ٢ ص ٦٦٦، الأمالي للشيخ الطوسي: ص ٤٦٠، الاحتجاج للشيخ الطبرسي: ج ١ ص ٢١٦، المناقب للخوارزمي: ص ١١٠، كشف الغمة للأربلي: ج ١ ص ١٤٨، الطرائف: ج ١ ص ١٠٣ ح ١٥٢، بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٢٢٣ و ٤٧٦، مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ١٢٤ وقد صححه، الصواعق المحرقة: ص ٧٤، الجامع الصغير: ج ٢ ص ١٤٠، ينابيع المودة: ص ٢٨٥، المعجم الصغير: ج ١ ص ٥٥، كفاية الطالب: ص ٣٩٩، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٣٤، تاريخ الخلفاء: ص ١٧٣، إسعاف الرغبين: ص ١٥٧، نور الأبصار: ص ٧٣، غاية المرام: ص ٥٤٠، فيض القدير: ج ٤ ص ٣٥٨ و ٤٧٠، عقبات الأنوار: ج ١ ص ٢٧٧، فرائد السمطين: ج ١ ص ١٧٧ ح ١٤٠، منتخب كنز العمال المطبوع بهامش مسند أحمد: ج ٥ ص ٣١، أسنى المطالب: ص ١٣٦، أرجح المطالب لعبيد الله الحنفي: ص ٥٩٧، الفتح الكبير للنبهاني: ج ٢ ص ٢٤٢، المعيار والموازنة للاسكافي: ص ٤٦، فضائل الخمسة: ص ٢٥٧، النصائح الكافية: ص ٢١٥، سبيل الهدى والرشاد: ج ١١ ص ٢٩٧، كشف اليقين: ص ٢٣٦.

هو يا رسول الله؟ قال: «لا، ولكن ذلك الذي يخصف النعل»^١ وكان علي يخصف نعلاً للنبي عند ذلك.

وبالتدوين الفقهي استقرّ المذهب في صدور الحَفَظَةِ والنَقْلَةِ، من علي إلى بنيهِ، فبينهم، وبخاصّة زين العابدين وزيد والباقر والصادق، ثم عملت مجالس الإمام الصادق في نشره كمثل عمل التدوين في استقراره، وأدرك الأئمة الذين تلمذوا له وتلاميذهم أموراً ترفع مجلس الصادق فوق المجالس، سواء مجالس أهل السنّة أو «أهل البيت»، منها:

(١) أنّ الذي يلقي هذا العلم إمام موصىّ إليه «باسمه» من أبيه^٢، وبهذا ينماز من عمه زيد بن علي صاحب المذهب الزيدي، ومن غيره من الشيعة.

(٢) أنّ هذا الإمام يقف بين العلماء جميعاً في مكان خاصّ. فالسنّة عند الشيعة بعد موته تثبت عن طريقه، إلّا ما ندر، فعنه يروي آلاف، وعنهم جاءت الأحاديث المروية في كتبهم^٣.

(٣) أنّ الآراء الفقهية في أصول الدين وأصول الفقه وفروع المعاملات والعبادات سيرها اللاحقون منسوبة إليه، وربّما اقترن به أبوه الباقر، أو أشير إلى رأي جدّه السجاد، لكن نبع العلم منه هو الأشهر والأكثر.

وإذا لم يعرف التاريخ إماماً في السنن من درجته، أو إماماً في الفقه من مرتبته، فالتاريخ كذلك - لا يعرف إماماً اجتمعت له الإمامتان مثله.

١. بحار الأنوار: ج ٣ ص ٥٢٥، النصّ والاجتهاد: ص ١٤٦، المراجعات: ص ٣٧٧، الخصائص للنسائي: ص ١١، مسند أحمد: ج ٢ ص ٣٣٨ ح ١٣٣٥، كنز العمال: ج ١٥ ص ١١٢ ح ٣١٧ ج ٦ ص ٣٩٦، قريب منه في ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق لابن عساكر: ج ٢ ص ٣٦٦ ح ٨٦٦، وقرائند السمطين: ج ١ ص ١٦٢ ح ١٢٤، وتذكرة خواصّ الأمة: ص ٤٠، والمستدرک: ج ٢ ص ١٣٧، وشرح معاني الآثار: ج ٢ ص ٤٠٨، والمناقب لابن شهر اشوب: ج ٣ ص ٤٤.

٢. روضة الواعظين للفتال النيسابوري: ص ٢٠٧، الإرشاد للشيخ المفيد: ص ٢٧٠.

٣. قال الشيخ المفيد في الإرشاد: ص ٢٠٧: «وكان الصادق جعفر بن محمد من بين إخوته خليفة أبيه، ووصيه القائم بالإمامة من بعده، وبرز على جماعتهم بالفضل، وكان أثبتهم ذكراً، وأعظمهم قدراً، وأجلهم في العامة والخاصّة. ونقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر ذكره في البلدان، ولم ينقل عن أحد من أهل بيته العلماء ما نقل عنه، ولا لقي أحد منهم من أهل الآثار ونقله الأخبار، ولا نقلوا عنهم كما نقلوا عن أبي عبد الله عليه السلام».

فإن أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف رجل، وكان له عليه السلام من الدلائل الواضحة في إمامته ما بهرت القلوب، وأخرست المخالف عن الطعن فيها بالشبهات.

(٤) أنه الإمام الذي يوثقه أئمة المسلمين جميعاً، ويستوي في ذلك من أهل السنة أئمة الرأي فهم تلاميذه، وأئمة الحديث فهو في القمة منهم. وروايته للحديث يوثقها واضع الأساس العلمي لقبول الحديث: الشافعي، وعلماء الجرح والتعديل؛ كيحيى بن معين، وأبي حاتم، والذهبي، وابن حنبل والآخرين، وتردد في كتب الصحاح أحاديثه. كما يبایعه إمام أهل البيت الذي سبق بفرقة عظيمة وفقه خالد: عمه زيد بن علي زين العابدين، صاحب «المذهب الزيدي»، ويضعه موضع الإمامة فيقول: «في كل زمان رجل من أهل البيت يحتج به الله على خلقه، وحبّة زماننا ابن أخي جعفر، لا يضلّ من كان من شيعته، ولا يهتدي من خالفه»^١.

(٥) أن هذا الإمام هو أول وآخر واحد من صلب آبائه وأجداده من الله عليه بهذه الفرصة: أواخر الدولة المروانية المشغولة عنه بتثبيت دعائمها المهترئة، وأوائل عهد الدولة العباسية التي تمدّ إليه بسبب من السلام أو الخصام، وأصرة من النسب، تخدمانه أو تخدمانها وهي ترفع شعار أهل البيت والدفاع عن الدين، وبهذا أتيحت له حرية الجلوس لكلّ الناس، والتدريس لكلّ العلوم، وأن تسيّل الأباطح بأعناق المطي إليه من بقاع العالم، في حقبة ممتازة من التاريخ العالمي والإسلامي.

(٦) أنه الإمام الذي طمأن الخلفاء (الملوك) في الدولتين، وكانوا سقّاحين غلاظ الأكباد، فهو كما يقول الشهرستاني وأبو نعيم في الملل والنحل وحملة الأولياء: «ما تعرّض للإمامة قطّ، ولا نازع في الخلافة أحداً. ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شطّ، ومن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حطّ»^٢.

(٧) أنه الإمام الذي أتيح له على مدار ثلث قرن^٣ من الزمان بعد موت أبيه سنة ١١٤ أن يكون «الإمام»، فامتدّ به عصر سلام، ضروري لنشر العلم، باطمئنان طالبه وواهبه، والدولة

١. روضة الواعظين للفتال النيسابوري: ص ٢٠٨، الأمالي للشيخ الصدوق: ص ٦٣٧، بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ١٧٣ و ج ٤٧ ص ١٩، وسائل الشيعة: ج ١٩ ص ٣٩٦، مناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ٣٩٧، مستدرک سفينة البحار: ج ٤ ص ٣٨٩، معجم رجال الحديث للسيد الخوئي: ج ١٤ ص ١٠٣.

٢. الملل والنحل للشهرستاني: ج ١ ص ١٦٦، المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين: ص ٤١٨، وينقل القندوزي الحنفي في ينابيع المودة: ج ٣ ص ١٦٠ هذا الكلام عن الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي في (طبقات مشايخ الصوفية) ومن كلامه: «جعفر الصادق، فاق جميع أقرانه من أهل البيت، وهو ذو علم غزير في الدين، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات، وأدب كامل في الحكمة».

٣. وهي مدة خلافته الشرعية، من وفاة أبيه الباقر عليه السلام سنة ١١٤ هـ إلى وفاته عليه السلام في سنة ١٤٨ هـ، أي: ٣٤ سنة.

التي ينتشر في رعاياها.

هذه العناصر التي لم تجتمع لواحد من آبائه أو أبنائه جميعاً هي التي سوّغت لمن تبع فقهه من الشيعة أن يطلقوا على مذهبه: «المذهب الجعفري»، وما هو في صميمه إلا «مذهب علي»، وإنما تخوّل السماء بركاتها لبعض الأسماء في شكل حظوظ، وكان الإمام جعفر الصادق جديراً بنعمة السماء قدر ما صدق وكافح في خدمة الإسلام. وما كان علي بحاجة إلى ما يخلّد اسمه، فالإسلام في أعظم أيامه يقترن باسم علي، قدر ما اقترن اسم علي بالنبي وبيت النبي.

والمذهب يحمل اسم جعفر؛ لأنه صاحب مدرسة سقيت منه السنّة الصحيحة، ومصادر الفقه العظيم، والمنهاج السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي نهجه تابعوه، وروى ذلك كله الآلاف، وروى عنهم أمثالهم.

وفي الجُدود - بمعنى: الحظوظ - جَدَّ وَجَدَّ، لكنّها ليست خبط عشواء، فاسم «أمريكا» قد خلّد اسم أمريجو فسبوتشي، لأنّ أمريجو فسبوتشي كان كاشفاً حقيقياً لبعض شواظها سنة ١٤٩٩.

ولم يغطّ حظّ الكاشف الثاني حقّ كرسطوفو كولمبس^١ الكاشف الأول لها في سنة ١٤٩٣، فاسم «كولومبوس» ما يزال يجري على كلّ لسان، على أنه كاشف العالم الحديث، والتاريخ كلّه يقدمه على فسبوتشي.

ولسنا في مقام مقارنات برجال، فعلي وجعفر فوق المقارنات، بما قدّموا للعالم كلّه - وسيطه وحديثه - من عناصر الحضارة التي نقلت العالم من جهالات العصور القديمة وظلمات العصور الوسطى إلى الحضارة المعاصرة، على عجالات التقدّم، يحركها العلم

١. كرسطوف كولومبس. ولد في جنوب إيطاليا سنة ١٤٥١م وتزوج ابنة فلاح برتغالي، واستقر في البرتغال منذ عام ١٤٧٦م. فشل كولومبس في الحصول على مساعدة ملك البرتغال (جون الثاني) في الوصول إلى اليابان والصين عن طريق الغرب، وعندما حصل على العون بعد ثمان سنوات من التوسّل، رحل من ثغر (بالومس) بإسبانيا وتحت إمرته ثلاث سفن. ورسا في جزيرة (سان سلفادور) في أكتوبر ١٤٩٢م، وفي رحلته الثانية اكتشف (بورتوريكو) و (جزر العذراء) و (جامايكا). وفي رحلته الثالثة سنة ١٤٩٨م اكتشف مصبّ نهر (أورينوكو) في فنزويلا. قاد حملة رابعة ١٥٠٢م لاستعادة مركزه في مستعمرة (هايتي) فوصل إلى ساحل (الهندوراس) لكن مشقّة الرحلة أرغمته على العودة، ومات مغموراً سنة ١٥٠٦م. (موسوعة السياسة: ج ٥ ص ٢٤٦).

الصحيح، والاجتهاد الذي لا يتوقف.

وكسب الأمم من علم الائمة، كاقتران أسماء أصحاب الكشوف بكشوفهم، وأرباب الابتكارات بفتوحهم، ليس صدفةً، ولا محض جزاءٍ، وإنما هو توفيق من الله للإنسانية وللناس، لتكريم أممٍ ورجال فتحوا أرض الله لعباده، أو مكّنوهم من أنعم السماء أو سنن الأنبياء، ليشجع الشجعان، ويستمرّ ضوء الفكر الإنساني في إشراقه؛ حفزاً للغزائم؛ وظهوراً للعلم.

ومنذ القرن الميلادي الماضي يطلق العلماء أسماء الرجال الذين يسرّوا للناس أسرار الطبيعة على «مقاييس الطبيعة»: «الوات»^١ نسبةً إلى Watt، والفرد نسبةً إلى Fataday، والأمبير^٢ نسبةً إلى Ampere، والفولت^٣ نسبةً إلى Volta، والأهم نسبةً إلى Ohm، والميجاهرتز نسبةً لهرتز Hartz، ورونجن^٤ نسبةً إلى Rontigen. وهم: إنجليزيان، وفرنسي، وإيطالي، وثلاثة من الألمان.

وأين تجربة أو تجارب، أو كشف أو كشوف، من شريعةٍ بتمامها، وإمام في الصدر من أئمتها، وطأ نصوصها، وأصل أصولها، وقعد القواعد لها، وأقام عليها دولاً باقية بقاء الزمان، ومجتمعات خالدةً بخلود الإسلام، ينسب المذهب فيها إلى صاحبه، فيكون المذهب «الجعفري» أو المذهب «الإمامي» المنسوب إلى الإمام جعفر، وإلى القول بإمامة الائمة الاثني عشر.

١. جيمس واط، مهندس ومخترع اسكتلندي (١٧٣٦ - ١٨١٩). أدخل تحسينات أساسية عام (١٧٦٥) على آلة ينوكومن (نيوكومن، توماس) البخارية، مما أدى إلى انتشار استخدام الطاقة البخارية في كثير من المصانع. وتكريماً له أطلق اسمه على وحدة القدرة الكهربائية. (موسوعة المورد الحديث).
٢. جان لورون دالامبير، فيلسوف وفيزيائي وعالم رياضي فرنسي. حرّره و (ديدرو) الموسوعة الفرنسية (الموسوعيون). كان أمين السرّ الدائم للأكاديمية الفرنسية، وضع دراسات رياضية استغرقت ثمانية مجلّدات كاملة عام (١٧٨٠). (موسوعة المورد الحديث).
٣. الكونت اليساندرو فولتا، فيزيائي إيطالي (١٧٤٥ - ١٨٢٨م) يعتبر رائداً في دراسة الكهرباء، اكتشف وعزل غاز الميثان (الميثان) عام ١٧٧٨م. وابتكر البطارية الكهربائية عام ١٨٠٠. وتكريماً له أطلق على وحدة القوة الدافعة الكهربائية اسم «الفولت» أو «الفولت». (موسوعة المورد الحديث).
٤. ولهم كونراد رونجن: هو فيزيائي ألماني (١٨٤٥ - ١٩٢٣م) اكتشف الأشعة السينية أو أشعة أكس عام (١٨٩٥) ودرسها، فُقرت باسمه (أشعة رونجن). مُنح جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٠١م فكان بذلك أول فائز بهذه الجائزة منذ إنشائها. (موسوعة المورد الحديث).

القسم الثاني

ويشتمل على ثلاثة أبواب:

الباب الرابع: المدرسة الكبرى

الباب الخامس: المنهج العلمي

الباب السادس: إلى الرفيق الاعلى

الباب الرابع

المدرسة الكُبرى

وفيه فصلان:

الفصل الأول: المدرسة الكبرى

الفصل الثاني: الدرس الكبير

يا أهل بيت رسول الله حببكمو
فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكمو من عظيم القدر منزلة
من لم يصل عليكم لا صلاة له^١

١. هذان البيتان من مدائح الشافعي السائرة، وهما يمكن من الانتشار والاشتهار، وقد أرسلهما عنه إرسال المسلمات غير واحدٍ من الثقات؛ كابن حجر في تفسير قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ» في صواعقه: ص ٨٨، والتهنائي في الشرف المؤيد: ص ٩٩ وذكرهما كل من: ينابيع المودة: ص ٢٥٤، إسعاف الراغبين للصبان بهامش نور الأبصار: ص ١١٨، الاتحاف بحب الأشراف للشبراوي الشافعي: ص ٢٩، نور الأبصار للشبلنجي: ص ١٠٥، السيرة النبوية لأحمد زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية: ج ٣ ص ٢٣٢، شرح المواهب للزرقاني: ج ٢ ص ٣٠٣، مشارق الأنوار للحمزاوي المالكي: ص ٨٨، ديوان الشافعي: ص ٧٢ دار أحياء التراث العربي - بيروت، مستد أحمد: ج ٦ ص ٢٢٣، وغيرهم العشرات.

قال الخفاجي في شرح الشفاء: ج ١ ص ٤٥٣: «يحتمل أن يريد: لا صلاة له صحيحة، فيوافق قوله بوجود الصلاة على الآل، ويحتمل: لا صلاة له كاملة، فيوافق أحد قوليهِ».

وقال الفخر الرازي في تفسيره: ج ٧ ص ٣٩١: «إِنَّ الدَّعَاءَ لِلْأَلِّ مَنْصَبٌ عَظِيمٌ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ هَذَا الدَّعَاءَ خَاتَمَةَ التَّشْهَدِ فِي الصَّلَاةِ، وَقَوْلُهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ. وَهَذَا التَّعْظِيمُ لَمْ يَوْجَدْ فِي حَقِّ غَيْرِ الْآلِ. فَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حَبَّ آلِ مُحَمَّدٍ وَاجِبٌ. وَقَالَ: أَهْلُ بَيْتِهِ ﷺ سَاوُوهُ فِي خَمْسَةِ أَشْيَاءَ: فِي الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ فِي التَّشْهَدِ، وَفِي السَّلَامِ، وَفِي الطَّهَارَةِ، وَفِي تَحْرِيمِ الصَّدَقَةِ، وَفِي الْمَحَبَّةِ».

مقدّمة

في هذا الباب محاولة لرسم خطوط تقريبية للبيان العظيم لفكر الشيعة الجعفرية (الاثني عشرية أو الإمامية) الذي كان الإمام الصادق في طليعة بناته، والذي يحمل اسمه، وإن شاركت في رفع صرحه مدرسة كاملة من السابقين عليه، والآخذين إichذه، من تلاميذه وتلاميذهم.

بدأت بالنبي عليه الصلاة والسلام مدينة العلم، وعلي بابها، وتتابع فيها الصحابة العظماء، والتابعون، وتابعو التابعين، وفي الأجيال الثلاثة: الإمام علي والحسن والحسين، ثم زين العابدين فالباقر فالصادق.

ثم تلمذ للإمام الصادق فريق المخضرمين ممن تعلموا على أبيه أو أبيه وجدّه، ومن الشباب الذين تعاونت قرائحهم في تفتيق الكلام في العقيدة، وتشقيق المعاني في الفقه، ليصبحوا للذين جاءوا بعدهم - حتى اليوم - علامات على الطريق.

وفي مشيخة هذه المدرسة ورد الفصل الأول.

والفصل الثاني يتناول أموراً أساسية في فكر المدرسة، دون حصر لتفاصيله، أو تطرّق للاختلاف عليه بينهم وبين أهل السنّة، أو بينهم وبين فرقهم، حتّى لا نخرج من إطار الصورة التي نحاول رسمها، وتنقيتها ممّا تبرأ منه الشيعة، وتقع التبعات فيه على الغلاة المطرودين.

وقد خصّصنا بالبيان في هذا الفصل مسألتين أصوليتين، لكلّ منهما أثر في الفقه، سواء

أكان فقه معاملات أم فقه عبادات، فبدأنا بـ«الحديث» وشروط قبوله، وثبتنا بـ«الإمامة». وأضافنا كلمات عن مسائل خلافية بين المذهب الجعفري وبين غيره من المذاهب التي تتقاسم أهل السنّة، تخيرناها من شتى مناحي التفكير الفقهي، لتتم أبعاد الصورة للقارئ، ويزداد جانبها الخلفي جلاءً: أنّ الدين واحد عند أهل السنّة والشيعة.

الفصل الأول

المدرسة الكبرى

«ماذا لقينا من أبناء علي، إذا أحببناهم قتلنا،
وإذا عاديناهم دخلنا النار»^١.

(الشمي)

أخذ الفروع والأصول عن الإمام جعفر جمع غفير من ثقات الشيعة، ورووا ذلك لمن بعدهم على سبيل التواتر القطعي، ورواه هؤلاء لمن خلفوهم قرناً بعد قرن. فالصادق يروي علم من قبله، ويروي الائمة من أبنائه علمه، كما يرويه تلامذته، فهو الحلقة التي تتوسط السلسلة، أو العروة الوثقى بين كتب آبائه وبين ما كتب بعده «الإمامية».

المصحف الخاص أو كتاب الأصول

آلى أمير المؤمنين على نفسه بعد الفراغ من تجهيز الرسول ﷺ، ألا يرتدي إلا للصلاة أو يجمع القرآن^٢، فجمعه مرتباً على حسب النزول، وأشار إلى عامته وخاصه، ومطلقه ومقيده، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وعزائمه ورخصه، وسننه وآدابه، وتبه على أسباب النزول فيه.

ومن جلال شأن هذا الكتاب قال فيه محمد بن سيرين: «لو أصبت هذا الكتاب كان فيه

١. الإمام علي عليه السلام لأحمد الرحماني الهمداني: ص ٥٧٨.

٢. كتاب سليم بن قيس: ص ١٤٦ تحقيق محمد باقر الأنصاري، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «آليت نفسي يمينا أن لا أرتدي رداءً إلا للصلاة حتى أؤلف القرآن وأجمعه». وذكره المجلسي في البحار: ج ٢٨ ص ٢٠٥. وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ج ٢ ص ١٦ وقال: أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، ومثله الجوهري في سقيفته، عته كثر العمال: ج ١٣ ص ١٢٧.

العلم»^١. فهو كما يظهر من محتوياته مصحف خاص، وكتاب أصول من صنع علي. والجامعة^٢: كتاب طوله سبعون ذراعاً، من إملاء النبي وخط علي، فيه ما يحتاجه الناس من حلال وحرام وغيره، حتى ليصل في التفصيل إلى أرش الخدش (التعويض عنه). وقد وصفها بذلك الباقر والصادق، وشهدا عندهما الثقات من أصحابهما، ومنهم: أبو بصير. قال الصادق: «أما والله عندنا ما لا نحتاج إلى أحد، والناس يحتاجون إلينا، إن عندنا الكتاب بإملاء رسول الله ﷺ وخط علي بيده، صحيفة طولها سبعون ذراعاً، فيها كل حلال وحرام»^٣.

وقال: «إن الجامعة لم تدع لأحد كلاماً، فيها الحلال والحرام، إن أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس، فلم يزدهم من الحق إلا بعداً، وإن دين الله لا يُصاب بالقياس»^٤. قالوا: سُميت: «الجامعة» و«الصحيفة»، و«كتاب علي»، و«الصحيفة العتيقة». كان أمير المؤمنين بخطب الناس فيقول: «والله ما عندنا كتاب نقرؤه عليكم إلا كتاب الله تعالى وهذه الصحيفة - وكانت معلقة بسيفه - أخذتها عن رسول الله ﷺ»^٥.

ولقد دعا الخليفة أبو جعفر المنصور بكتاب علي هذا، فجاء به الإمام الصادق وقرأ فيه: «أن النساء ليس لهن من عقار الرجل إذا توفي عنهن شيء» وقال أبو جعفر: هذا والله خط

١. الصواعق المحرقة: ص ١٢٦، والتمهيد في علوم القرآن: ج ١ ص ١٨، والطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٢ ص ٢٠١، والاستيعاب بهامش الإصابة: ج ٢ ص ٢٥٣.

٢. راجع: جامع المقاصد للمحقق الكركي: ج ١ ص ٨، الكافي: ج ١ ص ١٨٦، وسائل الشيعة: ج ١٩ ص ٢٧١ و ج ١ ص ٦، بصائر الدرجات: ص ١٥٩ و ص ١٦٢-١٦٦، من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق: ج ٤ ص ٤١٩، عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٩٢، الخصال: ص ٥٢٨، معاني الأخبار: ص ١٠٢، روضة الواعظين: ص ٢١١، مستدرک الوسائل: ج ١ ص ٢٦، الإيضاح للفضل بن شاذان: ص ٤٦١، الإرشاد للمفيد: ج ٢ ص ١٨٦، الاحتجاج للطبرسي: ج ٢ ص ١٣٤، الخرائج والجرائح: ج ٢ ص ٨٩٤، ينابيع المعاجز للسيد البحراني: ص ١٣١، بحار الأنوار: ج ٧ ص ٨٤ و ج ٢٦ ص ٣٣.

٣. الفصول المهمة في أصول الأئمة للحر العاملي: ج ١ ص ٤٨٧، الكافي: ج ١ ص ٢٤١، الوافي: ج ٣ ص ٥٨٢، بصائر الدرجات: ص ١٤٢، البحار: ج ٢٦ ص ٢١.

٤. بصائر الدرجات: ص ١٦٦ و ص ١٧٠، الكافي: ج ١ ص ٥٧، شرح أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٦٣، وصول الأخبار إلى أصول الأخبار لوالد الشيخ البهائي: ص ١٨٤، بحار الأنوار: ج ٢٦ ص ٣٣، الوافي: ج ١ ص ٥٨.

٥. مسند أحمد: ج ١ ص ١٠٠ و ج ١ ص ١٢٦.

علي وإملاء رسول الله ﷺ^١.

وأبو جعفر من العلماء كما قال عنه مالك إمام المدينة، وكما أقرّ له الجاحظ كبير النقدة، فهو قد يقسم لأنّه قرأ كتابةً قبل ذلك لعلي، أو لأنّ لديه من العلم ما يعرفه أنّها بإملاء النبي. وكتاب الديات: وهو يغطّي ما يسمّى في الفقه المعاصر المسؤولية المدنية عن الفعل الضارّ بالجسم، أورد محتوياته ابن سعد في كتابه المعروف بالجامع، وروى عنه أحمد بن حنبل في المسند الأعظم، وذكره البخاري ومسلم، ورويا عنه.

مصحف فاطمة

ومن التراث العلمي عند الشيعة ما يسمّى مصحف فاطمة^٢، حدّثوا عن الصادق إذ سُئل عنه: «أنّ فاطمة مكثت بعد رسول الله خمسة وسبعين يوماً، وكان قد دخلها حزن على أبيها، وكان جبريل يأتيها فيحسّن عزاءها ويطيب نفسها، ويخبرها بما يكون بعدها في ذريّتها، وكان علي يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة»^٣. فليس هذا مصحفاً بالمعنى الخاصّ بكتاب الله تعالى، وإنّما هو أحد المدوّنات.

التدوين

يروي «الصدوق» في الأمالي: أنّ رسول الله ﷺ قال: «المؤمن من إذا مات ترك ورقةً واحدةً عليها علم، تكون تلك الورقة يوم القيامة ستراً بينه وبين النار»^٤.

١. بصائر الدرجات: ١٦٥، وسائل الشيعة: ج ٢٦ ص ٢١٢، بحار الأنوار: ج ٢٦ ص ٥١، ج ١٠١ ص ٣٥٢، المراجعات لشرف الدين: ص ٤١٢.
٢. راجع: بصائر الدرجات: ص ١٧٢، الإمامة والتبصرة لابن بابويه القمي: ص ١٢، الكافي: ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٠. من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٣٦٩، الخصال للصدوق: ص ٥٢٨، معاني الأخبار: ص ١٠٣، روضة الواعظين: ص ٢١١، شرح أصول الكافي: ج ٥ ص ٣٤٢، خاتمة المستدرک: ج ٥ ص ٣١٥، الإيضاح: ص ٤٦١، دلائل الإمامة: ص ١٠٥، الإرشاد: ج ٢ ص ١٨٦، الاحتجاج: ج ٢ ص ١٣٤.
٣. بصائر الدرجات: ص ١٧٤، شرح أصول الكافي: ج ٥ ص ٣٣٨، الإيضاح للفضل بن شاذان: ص ٤٦١.
٤. أمالي الشيخ الصدوق: ص ٤٠ و ٢٤ وذكره أيضاً: إيضاح الفوائد لابن العلامّة: ج ١ ص ٢، مستدرک سفيّنة البحار: ج ١٠ ص ٢٨٥، عدّة الداعي لابن فهد: ص ٦٨، روضة الواعظين للفتال النيسابوري: ص ٨، درر الأخبار: ص ٤٢، بحار الأنوار: ج ١ ص ١٩٨ و ج ٢ ص ١٤٤، وسائل الشيعة: ج ١٨ ص ٦٨.

وفي حياة النبي أو حياة علي، اقتدت بعلي شيعته في التدوين، أو قل: هُديت لتنفيذ أمر الرسول، يقول ابن شهر آشوب:

«أول من صنّف في الإسلام علي بن أبي طالب، ثم سلمان الفارسي، ثم أبوذر»^١.
والاثنان شيعة علي.

والسيوطي يروي: أَنَّ علياً والحسن بن علي مَمَّنْ أباحوا كتابة العلم بين الصحابة وفعلوها^٢.

وَأَلَّف أبو رافع - مولى الرسول، وصاحب بيت مال علي بالكوفة - كتاب السنن والأحكام والقضايا^٣. يقول موسى^٤ بن عبد الله بن الحسن: سأل أبي رجل عن التشهد، فقال أبي: هات كتاب أبي رافع، فأخرجه فأمله علينا^٥.

أما علي بن أبي رافع فكتب كتاباً في فنون الفقه على مذهب أهل البيت - أي آراء علي بن أبي طالب - وكانوا يعظّمون شأن هذا الكتاب، ويحملون شيعتهم عليه^٦.
ومن الشيعة: زيد الجهضمي، حارب مع علي، وألّف كتاباً يحوي خطبه.
ومنهم: ربيعة بن سميع، له كتاب في زكاة النعم^٧.

١. معالم العلماء لابن شهر آشوب: ص ٥٢. وراجع تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام: ص ٢٨٠ و ص ٢٨١.
٢. أعيان الشيعة: ج ١ ص ٢٧٤، المراجعات: ص ٤١٢، تهذيب المقال للسيد الأبطحي: ج ١ ص ١٥٨، الذريعة لأقا بزرك الطهراني: ج ٧ ص ١٩٧.
٣. تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام: ص ٢٨٠، رجال النجاشي: ص ٤، المراجعات: ص ٤١٢، إيضاح الاشتباه للحلي: ص ٨٠، الشيعة في أحاديث الفريقين: ص ١٦٣.
٤. موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، له رسالة للمؤمن، وللمؤمن جوابها. (طرائق المقال للبروجردي: ج ١ ص ٣٢٢) قال عنه السيد الخوئي: لم يظهر كون الرجل من الامامية الاثني عشرية، ولم نر وقوعه في سند رواية، وما ورد في الروايات من ذكر عبدالله بن موسى يحتمل أن يكون غيره. وكيف كان فالرجل غير ثابت الوثاقة، ولم يذكر له كتاب. (رجال الخوئي: ج ١١ ص ٣٧٧) وقال أبو الفرج: يكتنّى أبا الحسن، وأمه هند بنت أبي عبيدة، ولدته ولها ستون سنة. (مقاتل الطالبين: ص ٢٥٩).
٥. معجم رجال الحديث للسيد الخوئي: ج ١ ص ١٦٢، رجال النجاشي: ص ٧، المراجعات لشرف الدين: ص ٤١٣، تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام: ص ٢٩٨.
٦. علي بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، كان من فقهاء الشيعة وخواص أمير المؤمنين عليه السلام. قال النجاشي: وهو تابعي من خيار الشيعة، كانت له صحبة مع أمير المؤمنين، وكان كاتباً له، وحفظ كثيراً، وجمع كتاباً في فنون الفقه: كالوضوء، والصلاة، وسائر الأبواب، وكانوا يعظّمون هذا الكتاب. (رجال النجاشي ص ٥).
٧. وسائل الشيعة: ج ٩ ص ١١١ و ج ١ ص ٩، رجال النجاشي: ص ٦، تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام: ص ٢٨٢، أعيان

ومنهم: عبد الله بن الحرّ الفارسي، له لمعة في الحديث، جمعها في عهد رسول الله^١.
 ومنهم: الأصعب بن نباتة^٢ صاحب علي، روى عنه عهده^٣ إلى الأشر النخعي^٤، ووصيته
 إلى ابنه محمد بن الحنفية^٥.
 ومنهم: سليم بن قيس الهلالي^٦ صاحب أمير المؤمنين، له كتاب في الإمامة، وله مكانة
 عليا في المذهب من حيث الأصول^٧.

→ الشيعة: ج ١ ص ١٢٢، إيضاح الاشتباه للعلامة الحلبي: ص ١٨٤.

١. رجال النجاشي: ص ٦، المراجعات لشرف الدين: ص ٤١٣.

٢. الأصعب بن نباتة المجاشعي، عظيم المجد والجلالة، وهو من فرسان العراق، ومن خواص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، كان عليه السلام شيخاً ناسكاً عابداً، وكان من ذخائر أمير المؤمنين، وهو في عداد شرطة الخميس الذي انعقد بينهم وبين الإمام شرط المجاهدة حتى الممات، وهو شرط لهم الجنة. (منتهى الآمال: ج ١ ص ٣٧٣).

٣. عهد مالك: هو أطول عهد كتبه الإمام علي عليه السلام، ويشتمل على لطائف ومحاسن وحكم جمّة بحيث يكون دستوراً وقانوناً لكلّ الأمراء والسلاطين طول الدهر، وفيه قوانين في الخراج والزكاة، ولا يبقى ظلم وجور إذا عمل بمضمونه. وهذا العهد معروف، وقد شرح وترجم مراراً. (منتهى الآمال: ج ١ ص ٤٠٤).

٤. هو مالك بن الحارث الأشر النخعي، سيف الله المسلول على أعدائه، جليل القدر، عظيم المنزلة، يكتفيه شرفاً قول الإمام علي عليه السلام في حقّه: «رحم الله مالكا، فلقد كان لي كما كنت لرسول الله» وأرسله الإمام عليه السلام إلى مصر والياً علياً، وكتب لأهل مصر رسالة هي المعروفة بالعهد.

فلما وصل الخبر إلى معاوية كتب إلى (زارع عريش) أن يسّمه ويقتله، وفي المقابل يعفيه معاوية من الخراج والضرائب عشرين سنة! فلما وصل الأشر إلى عريش، سمّه بالعسل فقتله، فلما وصل خبر مقتله إلى معاوية فرح فرحاً شديداً، وقال مقولته المشهورة «ألا وإنّ الله جنوداً من عسل».

ولما وصل الأمر إلى الإمام علي قال فيه: «اللهم إني أحتسبه عندك، فإنّ موته من مصائب الدهر، فإنّها من أعظم المصائب». وقال: «لله درّ مالك، وما مالك! أما والله ليهدنّ موتك عالماً وليفرحنّ عالماً، على مثل مالك فلتبك البواكي! وهل مرجو كمالك؟ وهل موجود كمالك؟ وهل قامت النساء على مثل مالك؟» (شرح النهج: ج ٦ ص ٧٧، اختيار معرفة الرجال: ج ١ ص ٢٨٣، الاختصاص: ص ٨١، منتهى الآمال: ج ١ ص ٤٠٤-٤٠٥).

٥. راجع: رجال النجاشي: ص ٦، المراجعات: ص ٤١٣.

٦. سليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي، من أوائل المصنّفين في الاسلام، كان من أصحاب الإمام علي عليه السلام، وعاش في الكوفة إلى أن دخل الحجاج الثقفي العراق وسأل عنه، فهرب إلى النوبندجان (من بلاد فارس) ولجأ إلى دار أبان بن أبي عياش فيروز، فأواه أبان فمات عنده نحو (٨٥هـ).

له كتاب «السقيفة» طبع باسم كتاب سليم بن قيس، وهو من الأصول التي ترجع إليها الشيعة وتعول عليها، قال جعفر الصادق عليه السلام: «من لم يكن عنده كتاب سليم بن قيس فليس عنده من أمرنا شيء، وهو أبجد الشيعة». (الأعلام: ج ٣ ص ١١٩).

٧. تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام: ص ٢٨٢، المراجعات: ص ٤١٣.

وذات يوم كان الحكم بن عيينة^١ عند الباقر يسأله فقال: «يا بني، قم فأحضر كتاب علي، فأحضر كتاباً مدرجاً عظيماً ففتحه، وجعل ينظر حتى أخرج المسألة، وقال: «هذا خطٌ علي، وإملاء رسول الله» وأقبل على الحكم وقال: «أذهب أنت وسلمة والمقداد حيث شئتم يميناً وشمالاً، فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبريل»^٢.
ومن قبل الإمام الباقر وجدت عند الإمام زين العابدين الصحيفة المسماة الصحيفة الكاملة^٣. وعن زين العابدين آلت إلى الشيعة رسائل عدّة، منها: رسالة الحقوق^٤، ورسالة^٥ إلى ابن شهاب الزهري^٦.

١. الحكم بن عيينة أو عتيبة. هو أبو محمد الكندي الكوفي، توفي سنة ١١٥ هـ. عدّه الشيخ من أصحاب الباقر والصادق عليه السلام، وهو زبيدي بتري، ورد في الكشي روايات كثيرة في ذمّه، وقيل: كان أستاذ زرارّة من قبل، وانقطع زرارّة عنه واتصل بأبي جعفر. (اختيار معرفة الرجال: ج ١ ص ٣٥٣، معجم رجال الحديث: ج ٧ ص ١٨٣).

٢. رجال النجاشي: ص ٣٦٠، الذريعة: ج ٢ ص ٣٠٦، وسائل الشيعة: ج ١ ص ٦٢.
٣. قال عنها السيد الأبطحي: «لا نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا إنّها كتاب لفظه دون كلام البارئ، وفوق ما يفوّه به المخلوق؛ لما بلغه من قمتة في بلاغة تعبيره، وعذب بيانه، وروعة تبيينه...، وكيف لا يكون هكذا وسدّته أنوار الوحي والنبوة، ولحمته أشعة علوم الإمامة...، ألم ينصف من قال: إنّ صحيفته عليه السلام زيور آل محمد، وأنجيل أهل البيت؟ وهل ينفخ إلا في رماد من رام محاكاتها؟... فهذا بعض بلغاء البصرة وقد ذكرت عنده الصحيفة الكاملة. فقال: خذوا عني حتى أملي عليكم مثلها! فأخذ القلم، وأطرق رأسه فما رفعه حتى مات!
ولعظم مكانتها فقد تهافت العلماء في مختلف الأعصار على شرحها وترجمتها، وكتبوا عليها الحواشي والتعليق، وعملوا لها الفهارس. (الصحيفة السجادية للأبطحي: ص ١١).

٤. وهي رسالة نقلها عن الإمام زين العابدين أبو حمزة الثمالي الكوفي، المتوفى سنة (١٥٠ هـ) يقول عنها المصنف: «يتصدى فيها بالشرح الشامل والتفصيل الطويل لسلك الجماعات والأفراد، وما يجب لها شرحاً وتفصيلاً تقتضيه حالة الناس وظروف الزمان...، واستقصاء السجّد فيها للأحكام مظهر لتحمله مسؤولية تعليم المسلمين أمور دينهم وشؤون دنياهم...».

وقد شرحها السيد حسن القبانجي وترجمها إلى الفارسية السيد إبراهيم المرتضوي المياني.

٥. ذكر تفصيل الرسالة أو الكتاب مفصلاً. تحف العقول لابن شعبة الحراني: ص ٢٧٤ - ٢٧٧، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ١٣١ - ١٣٥، معادن الحكمة: ج ٢ ص ٦١.

٦. وفي العصر ذاته كان سعيد بن المسيّب أول فقهاء المدينة السبعة يخاف أن يكتب عنه العلم، جاءه رجل فسأله عن شيء فأملأه عليه، ثم سأله عن رأيه فأجاب، وكانوا من كثرة إفتائه يسمّونه سعيد بن المسيّب الجريء، فكتب الرجل، فقال جلساء سعيد: أنكتب يا أبا محمد؟ فقال سعيد للرجل: ناولنيها، فناوله الصحيفة فخرقها. (منه).

وكذلك ألف عمرو بن أبي المقدم^١ جامعاً في الفقه، يرويه عن الإمام زين العابدين^٢. فلما صارت الإمامة للصادق حضّ عليّ تدوين العلم أيّاً كان موضوعه^٣، دينياً أو دنيوياً، فقه عبادات أو معاملات أو علوماً تطبيقية، وكان يقول: «القلب يتكل على الكتابة»^٤. وكان يملي عليّ تلاميذه، ويجيئهم بالدواة والقرطاس، ويقول: «اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا»^٥.

ويلتمس سفيان الثوري إليه أن يحدثه بحديث خطبة الرسول بمسجد الخيف، ويرجوه ليأمر له بقرطاس ودواة ليثبتته، فيأمر له، ثم يمليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، خطبة رسول الله في مسجد الخيف، نصرّ الله عبداً سمع مقالتي فوعاها، وبلغها من لم تبلغه: يا أيّها الناس، ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فزبّ حامل فقهٍ ليس بفقيه، وزبّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه»^٦.

١. عمرو بن أبي المقدم ثابت بن هرمز العجلي مولا هم، الكوفي، تابعي، يقال له: ثابت الحدّاد أو الحدّاء، رجل ممدوح في كتب الرجال، له كتاب لطيف.
٢. روي عن رجل من قريش: كنّا بفناء الكعبة وأبو عبد الله عليه السلام قاعد، فقيل له: ما أكثر الحاجّ! فقال: ما أقلّ الحاجّ! فمرّ عمرو بن أبي المقدم فقال: هذا من الحاجّ. (رجال الكشي: ص ٣٩٢، رجال الطوسي: ص ٢٤٨، نقد الرجال للتفريشي: ج ٣ ص ٣٢٤).
٣. نقد الرجال للتفريشي: ج ٣ ص ٣٢٣، طرائف المقال للسيد علي البروجردي: ج ٢ ص ٦٦، معجم رجال الحديث للسيد الخوئي: ج ١٤ ص ٨٢ رقم (٨٨٦٣).
٤. فقد روي عنه عليه السلام: «اعرفوا منازل الناس منّا، عليّ قدر روايتهم عنّا» و«اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا» (الكافي: ج ١ ص ٦٦) «احفظوا كتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها» (الكافي: ج ١ ص ٥٢) «إنكم صفار قوم، ويوشك أن تكونوا كبار قوم آخرين، فتعلّموا العلم، فمن استطع منكم أن يحفظه فليكتبه وليضعه في بيته» (منية المرید: ص ٣٤٠) وروي عن النبي صلى الله عليه وآله: «قيدوا العلم، قيل: وما تقيده؟ قال: كتابته» (منية المرید: ص ٣٤٠).
٥. الكافي: ج ١ ص ٥٢، وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٨١ و ٣٢٣ و ج ١٨ ص ٥٦ و ص ٢٣٥، مشكاة الأنوار لعلي الطبرسي: ص ٢٥٠، منية المرید للشهيد الثاني: ص ٣٤٠، وصول الأخبار إلى أصول الأخبار لوالد الشيخ البهائي: ص ١٤٩، بحار الأنوار: ج ٢ ص ١٥٢، الوافي: ج ١ باب فضل الكتابة، شرح أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٦٩.
٥. الأصول الستة عشر: ص ٢٨، الكافي: ج ١ ص ٥٢، شرح أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٢٠، وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٨١ و ٣٢٣ و ج ١٨ ص ٥٦ و ٢٣٦، مستدرک الوسائل: ج ١٧ ص ٢٨٥ و ٤١٣، منية المرید: ص ٣٤٠، وصول الأخبار: ص ١٤٩، بحار الأنوار: ج ٢ ص ١٥٢، ١٥٣، الأصول الأصيلة: ص ٥٣.
٦. الكافي: ج ١ ص ٤٠٣، شرح أصول الكافي: ج ٧ ص ١٧، وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٩٠، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٣٦٥.

وكتب عبد الله الحلبي^١ كتاباً عرضه على الصادق، فصَحَّحه واستحسنه. وسنرى حفيده الإمام العسكري يعرض عليه يونس بن عبد الرحمان^٢ كتاب «يوم وليلة»^٣ فيصحَّحه ويأمر بالعمل به.

ولمَّا غاب «المهدي» في النصف الثاني من القرن الثالث، أحوجت «الغيبية» إلى الرجوع للمدونات التي تزخر بها خزائن الشيعة، إذ لم يكن لديهم إمام ظاهر يسألونه، وكثرت الكتابة عندهم في القرن الرابع.



كان أول المستفيدين بالتدوين الباكر أولئك الذين يلوذون بالاتمة من أهل البيت، فيتعلّمون شفاهاً أو تحريراً، أي من فم لقم أو بالكتابة. فما تناقلته كتب الشيعة من الحديث

١. اختلف في أن الكتاب لعبد الله الحلبي أو لعلي بن عبد الله الحلبي. قال ابن النديم في الفهرست: عبد الله الحلبي أو عبيد الله بن علي الحلبي، له كتاب. وذكر صاحب الذريعة: ج ٥ ص ٢٩ لعبد الله الحلبي كتاباً نقل عنه صاحب الإقبال في نوافل شهر رمضان. وقال السيد الجليل علي بن طائوس في رسالة «عدم المضائق» نقلاً عن كتاب علي بن عبيد الله الحلبي الذي عرضه على الصادق عليه السلام فاستحسنه، وقال: «ليس لهؤلاء - يعني المخالفين - مثله». (مستدرک الوسائل: ج ٦ ص ٤٢٨، كتاب الصلاة تقريراً لبحث المحقق الداماد: ص ١٥٣).
- وعليه فيبدو أن الكتاب الذي عرضه على الإمام الصادق عليه السلام هو لعلي بن عبد الله الحلبي.
٢. يونس بن عبد الرحمان، مولى علي بن يقطين بن موسى، مولى بني أسد؛ أبو محمد، كان وجهاً متقدماً، عظيم المنزلة، ولد في أيام هشام بن عبد الملك، ورأى جعفر بن محمد عليه السلام بين الصفا والمروة، ولم يرو عنه، وروى عن أبي الحسن موسى والرضا عليه السلام، وكان الرضا عليه السلام يشير إليه في العلم والفتيا. وكان ممن بذل له على الوقف مال جزيل، فامتنع من أخذه وثبت على الحق، وقد سئل الرضا عليه السلام عن توخذ معالم الدين إن لم يستطاع الوصول إليه، فقال: «خذ عن يونس بن عبد الرحمان» له تصانيف كثيرة. (النجاشي: ٤٤٦ - ٤٤٧).
٣. هذا الكتاب يتضمّن أعمال اليوم والليلة من الأدعية والمغربات. الاستبصار ج ١ ص ٣٢) وقد عرض على الإمام العسكري عليه السلام أكثر من مرة، وعلى الهادي عليه السلام.
- قال بورق: خرجت إلى سمر من رأى ومعى كتاب «يوم وليلة» فدخلت على أبي محمد عليه السلام وأريته ذلك الكتاب، وقلت له: جعلت فداك إني رأيت أن تنظر فيه، فلما نظر فيه وتصفّحه ورقة ورقة، قال: هذا صحيح ينبغي أن يعمل به (التهذيب: ج ١٠ ص ٤٩، الوسائل: ج ٢٧ ص ١٠١).
- وعن داود بن القاسم الجعفري قال: أدخلت كتاب «يوم وليلة» الذي ألّفه يونس بن عبد الرحمان على أبي الحسن العسكري عليه السلام فنظر فيه وتصفّحه كلّ، ثم قال: هذا ديني ودين آبائي (كله) وهو الحقّ كلّ. (الوسائل: ج ٢٧ ص ١٠٠).
- ونقل النجاشي: ص ٤٤٦: «قال الإمام عليه السلام لما وصله الكتاب: أعطاه الله بكلّ حرفٍ نوراً يوم القيامة».

هو التراث النبوي في صميمه، بلغ الشيعة في يسر طوع لعلمهم الازدهار، في حين لم يجمع أهل السنة هذا التراث إلا بعد أن انكب عليه علماءهم قرناً ونصف قرن حتى حصلوا ما دوتونه في المدونات الأولى، ثم ظلوا قروناً أخرى يجوبون الفياقي والقفار في كل الأمصار، فتطابقت السنة - في مجموعها - عند هؤلاء وأولاء، إلا أموراً لا تتصل بأصل الدين، وخلافات في الفروع ليست بدعاً في الأمة.

وربما كان اختلاف مذاهب أهل السنة فيما بينهم وبين أنفسهم أكثر ظهوراً في بعض المسائل من خلافهم فيها مع فقهاء الشيعة.

وإذا لاحظنا أن من الرواة من قيل: إنه روى عشرات الآلاف من الحديث عن الإمام^١، تجلّت كفاية التراث الموثوق به عند الشيعة لحاجات الأمة.

وإذا لاحظنا توثيق الشافعي ومالك وأبي حنيفة ويحيى بن معين وأبي حاتم والذهبي للإمام الصادق^٢ - وهم واضعو شروط المحدثين، وقواعد قبول الرواية وصحة السند - فمن الحقّ التقرير بأنّ حسبنا أن نفتصر على التفتيش عن رواة السنة عن الإمام الصادق.

والشيعة يكتفيهم أن يصلوا بالحديث إلى الإمام، لا يطلبون إسناداً قبل الإمام جعفر، بل لا

١. يقول الشيخ المظفر في كتابه «الإمام الصادق: ج ١ ص ١٤٠»: «وإذا كان الرواة أربعة آلاف أو أكثر، فما كان عدد الرواية؟ ولقد ذكر أرباب الرجال أن أبان بن تغلب وحده روى عنه ثلاثين ألف حديث، ومحمد بن مسلم سنة عشر ألف حديث، وعن الباقر ثلاثين ألفاً، ولا تسل عن مقدار ما رواه جابر الجعفي، فهل يحصى إذن عدد الرواية؟».

٢. قال الذهبي في تذكرة الحفاظ: ج ١ ص ١٦٦ في جعفر الصادق عليه السلام: «وثقه الشافعي ويحيى بن معين، وعن أبي حنيفة قال: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد، وقال أبو حاتم: ثقة لا يسأل عن مثله. وعن صالح بن أبي الأسود: سمعت جعفر بن محمد يقول: سلوني قبل أن تفقدوني فإنه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي. وقال هياج بن بسطام: كان جعفر الصادق يطعم حتى لا يبقى لعياله شيء.. قلت: مناقب هذا السيد جمة».

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: ج ٦ ص ٢٦٠ في ذيل رواية: «وأشهد بالله أنه لبارّ في قوله غير منافق».

وقال ابن حجر: صدوق فقيه إمام.

وقال يحيى القطان: ما كان كذوباً.

وقال أحمد بن سلمة النيسابوري عن إسحاق بن راهويه، قلت للشافعي: كيف جعفر بن محمد عندك؟ قال: ثقة.

وقال عبد الرحمان بن أبي حاتم: سمعت أبا زرعة وستل عن جعفر بن محمد عن أبيه، وسهيل عن أبيه، والعلاء عن أبيه، أيهم أصح؟ قال: لا يقرن جعفر إلى هؤلاء.

وقال: سمعت أبي يقول: جعفر بن محمد ثقة، لا يسأل عن مثله.

وعن عمرو بن أبي المقدم قال: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين.

يطلبون إسناداً قبل الاتمة عموماً؛ لأنّ الإمام بين أن يكون يروي عن الإمام الذي أوصى له، وبين أن يكون قرأ الحديث في كتب آبائه، إلى ذلك فإنّ ما يقوله سنّة عندهم، فهو ممخّص من كلّ وجه، فليست روايته للحديث مجرد شهادة به، بل هي إعلان لصحّته.

وإذ كان مارواه الصادق، رواية الباقر، ورواية السجّاد عن الحسين عن الحسن، أو عن علي عن النبي^١، فهذا يصحّ الحديث على كلّ منهج، فالثلاثة الآخرون من الصحابة المقدمين، يروون عن صاحب الرسالة، إذ يروي الحسن والحسين عن علي عنه.

ولا مزية كان منهج علي ومن تابعه في التدوين خيراً كبيراً للمسلمين، منع المساوي المنسوبة إلى بعض الروايات، وأقلّ الباب دون افتراء الزنادقة والوضّاعين، فالسابق في التدوين فضيلة الشيعة، ولما أجمع العلماء بعد زمان طويل على الالتجاء إليه كانوا يسلمون بهذه الفضيلة - بالإجماع - لعلي وبنيه. والسنة شارحة للكتاب العزيز، وهو مكتوب بإملاء صاحب الرسالة. فهي كمثل حقيقة بالكتابة.

إنّما كان المحدثون من أهل السنّة في القرون الأولى مضطرينّ لسماع لفظ الحديث من الأشياخ أو عرضه عليهم، لأنّ السنن لم تكن مدوّنة^٢، فكانت الرحلة إلى أقطار العالم لتلقّي

١. روى الكليني: ج ١ ص ٥٣ عن هشام بن سالم وحمّاد بن عثمان وغيره، قالوا: سمعنا أبا عبد الله عليه السلام يقول: حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ، وحديث رسول الله ﷺ حديث رسول الله ﷺ، وذكره أيضاً: وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٨٣، الارشاد: ج ٢ ص ١٨٦، الخرائج والجرائع: ج ٢ ص ٨٩٥، الصراط المستقيم: ج ٣ ص ٢٦١، منية المرید: ص ٣٧٣، بحار الأنوار: ج ٢ ص ١٧٩.

٢. وقد استمرّت حالة المنع من التدوين عند أهل السنّة حتّى خلافة عمر بن عبد العزيز الأموي، وانتهاء آخر جيل من الصحابة، ومرّت الكتابة عندهم بمراحل ثلاث:

(مرحلة الجمع): حيث قام كبار أهل الطبقة الثالثة في منتصف القرن الثاني فدونوا الأحكام، فصنّف الإمام مالك (الموطأ) و توخّى فيه القوي، ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين من بعدهم. وصنّف الأزاعي بالشام، وسفيان الثوري بالكوفة. وكان هؤلاء في عصر واحد، ومن جاء بعدهم ألف على منوالهم.

(مرحلة المسانيد): وهي التي أفردت فيها أحاديث النبي ﷺ من سواها، وذلك على رأس المائتين، فصنّف عبيد الله بن موسى العبسي الكوفي مسنداً، وممن اقتفى أثره أحمد بن حنبل فأنف مسنده.

(مرحلة الصحاح): وهي مرحلة إفراد الصحيح من حديث رسول الله ﷺ من غير الصحيح ممّا روي عنه، وأول من اتّجه هذا الاتجاه البخاري، ولذا يعدّ كتابه من أهم الكتب في هذه المرحلة ويسمى «الجامع الصحيح»

الحديث على العلماء وسيلتهم الأكيدة، ولم يغير ذلك النظر انتشار التدوين في نهاية القرن الثاني ومنتصف الثالث، وكثرة الحديث المدون في المسانيد والمجاميع والصحاح التي ألفت بعد تلك الفترة، ومنها: مسند أحمد بن حنبل (٢٤١) حوى ثلاثين ألفاً دون المكرر، اختارها من ثلاثة أرباع مليون، جمعها من أفواه العلماء من أقصى الأرض وأدناها، وحدت بها تلاميذه لينقلوها إلى الأجيال التالية.

وكان في أواخر أيامه يستوثق لنفسه، فيروي للناس الحديث ويطلب المسند يقرأ فيه. ثم جاءت أجيال تأخذ الحديث من الصحف الموثوق بصحة صدورها من صاحبها دون أن يرتحل إليه، وهذا ما أطلقوا عليه الوجادة^١ - (لفظ مولد من «وجد» غير مسموع من العرب) يقولون: وجدنا بخط فلان. وفي القرن الرابع اعتبر ابن يونس الصفدي^٢ (٣٤٧) إماماً حافظاً للحديث وإن لم يرحل.



قلنا في كتابنا «أحمد بن حنبل إمام أهل السنة»^٣: والبعض من المحدثين لم يكونوا

→ أو «صحيح البخاري» نسبة إلى مؤلفه البخاري (٢٥٦ هـ). ومن أهم الكتب عند السنة: صحيح البخاري، وموطأ مالك بن أنس، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وصحيح مسلم (٢٦١ هـ)، وسنن أبي داود (٢٧٥ هـ)، وسنن النسائي (٣٠٢ هـ)، وسنن الترمذي (٢٧٩ هـ)، وسنن ابن ماجه (٢٧٣ هـ). (راجع: علم الحديث للشيخ عبد المحسن البقشي: ص ١٠-١١).

١. الوجادة: وهي مصدر «وَجَدَ»، وهو أن يقف الإنسان على أحاديث بخط راويها معاصراً كان له أو لا، فلا يجوز له أن يروي عنه إلا أن يقول: وجدت أو قرأت بخط فلان، أو في كتابه. ويجوز العمل به عند حصول الوثوق بأن الكتاب بخطه، أو أن الكتاب المطبوع من تأليفه، وهو طريق من طرق ثمانية. تتحمل فيها الرواية: السماع، القراءة، الإجازة، المناولة، الكتابة، الإعلام، الوجادة، الوصية. وقد قلّت العناية بالطرق الأخرى، واكتفى القوم بهذا الطريق، ولعل لهذا التساهل علّة طبيعية.

ونقل ابن كثير في تفسيره: ج ١ ص ٧٤، والسيوطي في تدريب الراوي: ج ٢ ص ٦٠ حديثاً لرسول الله ذيله قال: «قوم يأتون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بها».

فاستدلّ بهذا الحديث على مدح من عمل بالكتب المتقدمة بمجرد الوجادة. (أصول الحديث وأحكامه للشيخ جعفر السبحاني: ص ٢٢٩-٢٣٠).

٢. يونس بن عبد الأعلى الصفدي المصري، وقيل: الصدي، يكنى أبا موسى، من كبار الفقهاء. انتهت إليه رئاسة العلم بمصر، كان عالماً بالأخبار والحديث وافر العقل، صاحب الشافعي وأخذ عنه. قال الشافعي: ما رأيت بمصر أحداً أعقل من يونس، مولده ووفاته بمصر، وقد أخذ عنه كثيرون. (الأعلام: ج ٨ ص ٢٦١).

٣. الطبعة الأولى، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة: ص ٢٦١. (منه).

يروون عن الإمام جعفر الصادق ؛ لأنه يحدث بما قرأه في الكتب...، سئل أبو بكر بن عيَّاش، وهو من أول أشياخ أحمد: لماذا لم تسمع من جعفر وقد أدركته؟ قال: سألتها عمّا يحدث من الأحاديث، شيء سمعته؟ قال: «لا، لكنّها رواية رويها عن آبائنا»^١،...، وعقبنا ذلك بقولنا: والشافعي^٢ ويحيى بن معين^٣ متفقان على توثيقه^٤، وهو شيخ مالك. وليس بعد هؤلاء أدلة على جواز طريقة الإمام جعفر مع علمه الضخم في كلّ باب.

وفي كتابنا «الإمام الشافعي»^٥ أجمّلنا الكلام عن موضع الإمام من الإسلام كلّه في كلمات: «الإمام جعفر... يمثل صميم الإسلام.. يجتمع في نسبه النبي عليه الصلاة والسلام وأبو بكر وعلي، وهو إمام في الدين والفقه، وبحر في العلوم الطبيعية».

وهذا البحر، والقطعة من الإسلام والمسلمين الثلاثة الأولين - بل الأربعة الأولين وفيهم أمّ المؤمنين خديجة - إمام يهتدي بهديه واجتهاده أئمة أهل السنّة كافة. أمّا الشيعة الإمامية فقول الإمام المعصوم يجري عندهم مجرى قول النبي من كونه حجّة على العباد، ولقد توسّع علماؤهم في اصطلاح السنّة إلى ما يشمل «قول كلّ واحد من المعصومين وفعله وتقريره»^٦.

١. كلام أبي بكر بن عيَّاش الذي ذكره المصنّف ذكرها كلّ من: الإيضاح للفضل بن شاذان: ص ٤٧٢، تهذيب التهذيب لابن حجر: ج ٢ ص ٨٨، الإمام علي لأحمد الرحمانى: ص ٥٧٣، الكامل لابن عدي: ج ٢ ص ١٣١، تهذيب الكمال للمزي: ج ٥ ص ٧٧، النصائح الكافية لمحمد بن عقيل: ص ١١٩.

٢. يذكر ابن النديم في الفهرست: «وكان الشافعي شديداً في التشيع، ذكر له رجل يوماً مسألة فأجاب فيها، فقال له: خالفت علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال له: أثبت لي هذا عن علي بن أبي طالب حتّى أضع خدي على التراب وأقول: قد أخطأت، وأرجع عن قولتي إلى قوله».

وحضر الشافعي ذات يوم مجلساً لأحد الطالبين، فقال: «لا أتكلّم في مجلس يحضره أحدهم، هم أحقّ بالكلام، ولهم الرئاسة والفضل». (منه).

٣. يقول فيه أحمد بن حنبل: «كلّ حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس بحديث» وهو من آباء علوم الحديث، ومؤلفاته مراجع فيها، وهي علوم أوصلها الحاكم النيسابوري إلى اثنين وخمسين علماً، وأوصلها النووي إلى خمسة وستين. (منه).

٤. فعن أحمد بن سلمة عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه يقول: قلت للشافعي: كيف جعفر بن محمد عندك؟ قال: ثقة [في مناظرة جرت بينهما]...، وقال: سمعت يحيى بن معين قال: جعفر بن محمد ثقة.

راجع: الجرح والتعديل للرازي: ج ٢ ص ٤٨٧، وتهذيب التهذيب لابن حجر: ج ٢ ص ٨٨.

٥. الإمام الشافعي ناصر السنّة وواضح الأصول: ص ١٧١، الطبعة الثانية، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. (منه).

٦. وذلك لحديث الثقلين الذي يعيّن ويحصّر السنّة التي هي مصدر تشريع، ويلزم المسلمين بالأخذ لها عدلاً

فالائمة المعصومون ليسوا بهذه المثابة من قبيل رواة السنن، بل هم منصوبون من الله تعالى، على لسان النبي، لتبليغ الأحكام عن طريق الإلهام، كالنبي بطريق الوحي إليه وهو خاص به، أو عن طريق التلقي من المعصوم الذي يسبق.

أما فعل المعصوم فدليل على الإباحة، وأما تركه فدليل على عدم الوجوب^١.
وتأليف الإمام الصادق كثيرة، منها: رسالته في شرائع الدين، ووصاياه للإمام الكاظم، ورسالة في الغنائم ووجوب الخمس^٢، وتوحيد المفضل^٣، وكتاب الإهليلجة^٤، وكتاب مصباح الشريعة، وكتاب مفتاح الحقيقة، ورسالة إلى أصحابه^٥، ورسالة إلى أصحاب الرأي والقياس، ورسالة لمحمد بن النعمان^٦، وأخرى لعبدالله بن جندب^٧. ورسالة في وجوه المعاش

→ للقرآن الكريم، في أهل البيت عليهم السلام. ولهذا فالسنة: هي قول المعصوم وفعله وتقريره. (دروس في أصول فقه الامامية للفضلي: ص ٢٠٣) لأن من يحتمل خطؤه عمداً أو سهواً لم يكن قوله وفعله وتقريره حجة، إذ لا يجوز أن يفعل حراماً سهواً ولا غشاضة عليه، فلا حجة في فعله، أو يعمل أحد في محضه عملاً لا يلتفت إليه حتى ينهاه، فلا يكون تقريره حجة (شرح أصول الكافي: ج ٥ ص ٢٣٧).

١. قال السيد الشهيد محمد باقر الصدر في الحلقة الثانية: «يدل صدور الفعل منه (المعصوم) على عدم حرمة بحكم عصمته، كما يدل الترك على عدم الوجوب لذلك (ص ٢٦٠) وأما السكوت فقد يقال: إنه دليل الإبراء (ص ٢٦٢)».

٢. تحف العقول: ص ٣٣٩ وما بعدها.

٣. توحيد المفضل، هو الدروس التي ألقاها الإمام الصادق عليه السلام على المفضل بن عمر الجعفي الكوفي، أحد أصحابه الذين جمعوا بين العلم والعمل، وقد أخذها منه شفاهاً. وأصل تأليف الكتاب أن المفضل رأى ابن أبي العوجاء يتكلم مع أحدهم ويقول: إن الأشياء ابتدأت بإهمال، فانزعج المفضل لذلك وسبه ثم ناظره، وبعدها أقبل على الصادق عليه السلام والحزن لانح عليه، فقال له الصادق: «لأقنن إليك من حكمة الباري جلّ وعلا في خلق العالم... إلى ما يعتبر به المعتبرون، ويسكن إلى معرفته المؤمنون...». (الإمام جعفر الصادق للمظفر: ج ١ ص ١٤٩ - ١٥٠).

٤. الإهليلجة: سُمي هذا التوحيد بالإهليلجة لأن الصادق عليه السلام كان مناظراً فيه لطبيب هندي في إهليلجة كانت بيد الطبيب.

وذلك أن المفضل بن عمر كتب إلى الصادق عليه السلام يخبره أن أقواماً ظهرُوا من أهل هذه الملة يجحدون الربوبية، ويجادلون في ذلك، ويسألونه أن يرد عليهم قولهم، ويحتج عليهم فيما ادّعوا بحسب ما احتج به على غيرهم. فكتب إليه الصادق...، وهذه الرسالة أخذها المفضل من الصادق عليه السلام كتاباً. (الإمام الصادق للمظفر: ج ١ ص ١٦٤).

٥. تحف العقول: ص ٣١٣ وما بعدها.

٦. هو أبو جعفر؛ محمد بن علي بن النعمان الكوفي، المعروف بصاحب الطاق، ومؤمن الطاق. كان صيرفياً في

للعبادة^٨، ووجوه إخراج الأموال^٩، ورسالة في احتجاجه على الصوفية فيما ينهون عنه من طلب الرزق^{١٠}، ورسالة حكم قصيرة^{١١}.

والرسالتان الأخيرتان عملا أساسيان في الاقتصاد والاجتماع، يدلان على منهاج الإمام في صلاح الدنيا بالعمل والعبادة معاً.

وثمة الرسائل العلمية^{١٢} المقترنة بجابر بن حيان^{١٣}.

أما كتاب الجفر^{١٤} المنسوب إلى الإمام الصادق، فيقول عنه ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٦) (١٣٣٢

→ طاق المحامل بالكوفة، يرجع إليه في النقد، فيخرج كما ينقد، فيقال: شيطان الطاق، وهو من أصحاب الصادق والكاظم عليه السلام، كان عليه السلام متكلماً حاذقاً، كثير العلم، حسن الخاطر، حاضر الجواب، له كتب منها: كتاب «الإمامة» وكتاب «المعرفة» ونقل الوصية كاملة (تحف العقول: ص ٣٠٧، ومستدرک الوسائل: ج ١٢ ص ١٩٠، وبحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٨٧).

٧. هو عبد الله بن جندب البجلي الكوفي، ثقة، جليل القدر، من أصحاب الصادق والكاظم والرضا، وأنه من المختبين، وكان وكيلاً للكاظم والرضا عليه السلام، كان عابداً، رفيع المنزلة لديهما على ما ورد في الأخبار، ولطامات قام مقامه علي بن مهزيار، نقل الوصية كاملة في: تحف العقول: ص ٣٠١، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٧٩.

٨ و ٨. يبدو أنهما رسالة واحدة، ذكرهما ابن شعبة الحراني في تحف العقول: ص ٣٣١ وما بعدها.

١٠. المصدر السابق: ص ٣٤٨ وما بعدها.

١١. المصدر المتقدم: ص ٣٥٧ وما بعدها.

١٢. ذكر علم الصادق عليه السلام بالكيمياء كثير من المؤلفين، وأن تلميذه جابر بن حيان أخذ عنه هذا العلم وألف خمسمائة رسالة فيه، في ألف ورقة، وهي تتضمن رسائل جعفر الصادق عليه السلام ذكره ابن خلكان في تاريخه: ج ١ ص ١٠٥ (في أحوال الصادق عليه السلام).

١٣. جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي؛ أبو موسى، فيلسوف وكيميائي، كان يعرف بالصوفي، من أهل الكوفة، وأصله من خراسان، اتصل بالبراقلة وانقطع إلى جعفر بن يحيى، وتوفي بطوس سنة (٢٠٠ هـ)، له تصانيف كثيرة، قيل: عددها ٢٣٢ كتاباً، وقيل: خمسمائة ضاع أكثرها. وترجم بعض ما بقي منها إلى اللاتينية. (الاعلام: ج ٢ ص ١٠٤).

١٤. «الجفر: في الأصل ولد الشاة إذا عظم واستكرش، ولعلّ مبدأ هذا العلم كان يكتب على جلد ولد الشاة فسّمي به، وعلم الجفر اصطلاحاً: هو علم الحروف الذي تعرف به الحوادث المستقبلية. وذكر بعض علماء أهل السنة الجفر وأنه مما يعلمه الصادق عليه السلام.

جاء في الفصول المهمة: نقل بعض أهل العلم: أن كتاب الجفر الذي بالمغرب يتوارثه بنو عبد المؤمن ابن علي من كلام جعفر الصادق، وله فيه المنقبة السنية، والدرجة التي في مقام الفضل عليه «(الإمام الصادق للمظفر: ج ١ ص ٧٩-١٨٠).

١٤٠٦): «واعلم أنّ كتاب الجفر كان أصله أنّ هارون ابن سعيد البجلي^١ - وهو رأس الزيدية - كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم، ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص. وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم، وكان مكتوباً عند جعفر في جلد ثور صغير، فرواه عنه هارون البجلي وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتّب عليه، لأنّ الجفر في اللغة هو الصغير، وصار هذا الاسم علماً على الكتاب عندهم، وكان فيه تفسير القرآن، ومافي باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق، وهذا الكتاب لم تتصل روايته، ولا عُرف عينه، وإنّما يظهر منه شواذٌ من الكلمات لا يصحها دليل، ولو صحّ السند إلى جعفر الصادق لكان نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه، فهم أهل الكرامات، وقد صح عنه أنّه كان يحذّر بعض قرابته بوقائع تكون لهم، فتصبح كما يقول»^٢.

والروايات متضاربة على أنّ «الجفر» غير «الجامعة»^٣، والبعض يقول: إنّ الجفر من مؤلفات علي أملاه عليه النبي^٤.

وهو جفران^٥: الأبيض وهو وعاء^٦ من آدم فيه علوم الأنبياء والوصيّين والذين مضوا من

١. قال عنه العلامة في خلاصة الاقوال: ص ٤١٤: «هو من أصحاب الباقر عليه السلام، مجهول».

٢. تاريخ ابن خلدون: ج ١ ص ٣٣٤. وذكره أيضاً السيد مرتضى العسكري في كتاب معالم المدرستين: ج ٢ ص ٣٣٥.

٣. قال صاحب كشف الظنون: ج ١ ص ٥٩١: «الجفر والجامعة كتابان جليلان، أحدهما ذكره الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام وهو يخطب بالكوفة على المنبر، والآخر أسره رسول الله ﷺ وأمره بتدوينه، فكتب علي عليه السلام حروفاً متفرقة على طريقة سفر آدم في جفر، يعني: في رقّ قد صنع من جلد البعير، فاشتهر بين الناس به، لأنّه وجد فيه ما جرى للأولين والآخرين». وذكره صاحب الوسائل نقلاً عنه: ج ١ ص ٦٢. وفعلاً الروايات متظافرة على أنّ الجفر غير الجامعة، نذكر من مصادرها:

روضة الواعظين للفتال النيسابوري: ص ٢١٠، وشرح أصول الكافي: ج ٢ ص ٣٢٩.

٤. يقول ابن قتيبة عن الجفر في «أدب الكاتب»: إنّ الامام الصادق كتبه، وإنّ فيه كلّ ما يحتاجونه إلى يوم القيامة، وإلى هذا الجفر، واحتوانه عليّ كلّ شيء، يشير أبو العلاء المعري في شعره:

لقد عجبوا لآل البيت لسا
أناهم علمهم في جلد جفر
فمرأة المنجم وهي صغرى
تريه كلّ عامرة وقفر

وربّما نسبوا من أجل ذلك إلى الامام علوم كشف الغيب أو النجامة. (منه).

٥. عن ابن أبي العلاء قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: عندي الجفر الأبيض، قلنا: وأي شيء منه؟ قال: فيه:

علماء بني اسرائيل، والأحمر^٢ فيه علم الحوادث والحروب. كان تلاميذ الصادق مدوّنين كباراً، فلقد عاشوا في عصر نهضة علمية كبرى أعجب بها العالم، تبارت فيها يراعات المدوّنين، ودارت عجالات التدوين كهيئة مادارات عجالات الطباعة عند ظهور المطبعة، بدأها عمر بن عبد العزيز على رأس القرن إذ أمر بتدوين السنّة، وتابها علماء الأمة من أهل السنّة.

ومن بعد وفاة الصادق في عام ١٤٨ دُوّن أربعة آلاف من التلاميذ في كلّ علومه، ومن جملتها ما يستمى «الأصول الأربعمئة»، وهي أربعمئة مصنّف لأربعمئة مصنّف من فتاوى الصادق، وعليها مدار العلم والعمل من بعده، وخير ما جمع منها كتب أربعة هي مرجع الإمامية في أصولهم وفروعهم إلى اليوم، وهي: «الكافي» و«من لا يحضره الفقيه» و«التهذيب» و«الاستبصار»^٨.

→ زبور داود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وصحف إبراهيم، والحلال والحرام، ومصحف فاطمة، ما أزعَم أن فيه قرآناً، وفيه ما يحتاج الناس إلينا، ولا نحتاج إلى أحدٍ، حتّى أن فيه الجلدة ونصف الجلدة...، وعندني الجفر الأحمر، وما يدرهم ما الجفر الأحمر؟ قلنا: وأي شيء فيه؟ قال: السلاح، وذلك أنّها تفتح للدم يفتحها صاحب السيف؛ للقتل...» (بصائر الدرجات ص ١٧٢).

وأيضاً ورد في كمال الديني: ص ٢٥٣ «الجفر: وهو الكتاب المشتمل على علم المنايا والبلايا والرزايا، وعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة الذي خصّ الله به محمداً والأئمة من بعده عليه السلام». ٦. يقول المولى صالح المازندراني في شرح أصول الكافي: ج ٥ ص ٣٣٩: «الظاهر أنّ الجفر الأبيض وعاء فيه هذه الصحف، لا أنّها مكتوبة فيه».

٧. وقال المازندراني في الشرح: ج ٥ ص ٣٤٠: «هو ظرف للسلاح؛ كالصندوق ونحوه». ٨. إنّ تدوين الحديث عند الشيعة سبق تدوينه عند أهل السنّة، حيث التزموا بتدوين الحديث، وكتبوا الصحف الصغيرة والكتب الجامعة. ولعلّ كتاب علي عليه السلام يعدّ أول كتاب كتّب في حديث أهل البيت، وقد مرّت مرحلة التدوين عند الشيعة بمرحلتين أساسيتين:

١- مرحلة المجموعات الصغيرة، ويمكن أن نطلق عليها مرحلة الروايات المباشرة، وهذه المجموعات تقوم في منهج تأليفها على رواية المؤلف عن الإمام مباشرة أو بتوسط راوٍ واحد. وقد بلغت هذه المجموعات أربعمئة، وهي المسمى بالأصول الأربعمئة.

٢- مرحلة المجموعات الكبيرة، وهي مرحلة إعداد وتأليف الكتب الكبيرة التي جُمع فيها مافي مدوّنات المرحلة السابقة، وتختلف عنها في الإضافات على الاستاد بذكر الرواة، من مؤلّف الكتاب الجامع إلى مؤلّف الأصل، وهي على نوعين:

الأول: الجوامع المتقدّمة، وهي الكتب الأربعة المعروفة: الكافي، ما لا يحضره الفقيه، التهذيب، الاستبصار.

- * «والكافي»^١ للكلييني، أبي جعفر محمد بن يعقوب الكلييني (٣٢٩)، أعظمها وأقومها، وأحسنها وأتقنها، فيه (١٦١٩٠) حديثاً ألفه الكلييني في عشرين سنة.
- * وأما كتاب «من لا يحضره الفقيه»^٢ فوضعه ابن بابويه القمي، محمد بن علي بن موسى بن بابويه القمي^٣ الملقب بالصدوق (دخل بغداد سنة ٣٥٠، ومات بالري سنة ٣٨١)، وفيه (٥٩٦٣) حديثاً، وهذا الكتاب أهم مؤلفاته، مع أنه ألف ثلاثمائة كتاب.
- * وأما «التهذيب»^٤ و«الاستبصار»^٥ فوضعهما بعد نحو قرن محمد بن الحسن بن علي

→ الثاني: الجوامع المتأخرة، وقد ألفت في القرون المتأخرة، وهي أربعة: الوافي، الوسائل، بحار الأنوار، مستدرک الوسائل.

١. كتاب الكافي هو للشيخ الجليل محمد بن يعقوب الكلييني ت ٣٢٨ هـ. ألفه خلال فترة (٢٠ سنة) على ما نقل النجاشي، عاش الشيخ زمن الغيبة الصغرى، وعاصر سفراء الإمام المهدي (عج). وكتاب الكافي مركب من ثلاثة أقسام:

(الأصول): وهو جزءان، يبحث أحدهما عما يرتبط بالعقل والجهل وفضل العلم والتوحيد والمعصومين...، ويبحث الثاني عن مسائل الإيمان والكفر والدعاء وفضل القرآن وآداب السلوك الاسلامي.

(الفروع): وهو خمسة أجزاء، يتضمن الأحاديث المرتبطة بأحكام الفقه، من صلاة وصوم و... و.. (الروضة): وهي جزء واحد، وتتضمن بعض مواظ أهل البيت وخطبهم، وبعض القضايا التاريخية المرتبطة بهم. وقد ضمن الشيخ كتابه (١٦١٩٩) حديثاً.

٢. كتاب من لا يحضره الفقيه لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ت (٣٨١) هـ، المولود بركة دعاء الإمام المهدي، ألفه بطلب من الشريف نعمة، وأن يستميه (من لا يحضره الفقيه) يضمّن الحلال والحرام. وقد جرت عادة الشيخ على حذف الأسانيد غالباً، وعلّل ذلك بقوله: وصنّف هذا الكتاب بحذف الأسانيد لئلا تكثّر طرقه وإن كثرت فوائده، ومن هنا احتاج الى ذكر المشيخة في آخر كتابه، وقد ضمّن (٥٩٩٨) حديثاً. قبره معروف بالري، وقيل: إنّه حدث انشقاق في قبره الشريف بسبب طغيان المطر فوجد جثمانه الطاهر لم يتغيّر حتى أثر الحناء الذي كان على أظفاره بالرغم من مرور ٨٥٧ سنة على دفنه.

٣. نسبة إلى مدينة قم في إيران، وهي أقدم المدن التي بدأ فيها الشيعة الإمامية في إيران، وقد نشأت على أيدي جماعة من الناجين من جيش ابن الأشعث (٨٣). (منه).

٤. كتاب التهذيب للشيخ الطوسي ألفه كشرح لكتاب أستاذه الشيخ المفيد المسمّى بالمقنعة، ومن عادته في هذا الكتاب وفي «الاستبصار» أنه لا يذكر تمام السند، بل يذكر اسم صاحب الأصل الذي ينقل عنه الحديث، وأما سنده إلى صاحب الأصل فيذكره في المشيخة، وقد ألف كتاباً أردفه بآخر التهذيب والاستبصار، ذكر فيه طرقه إلى أصحاب الأصول التي نقل عنها الأحاديث، وسمّاه بالمشيخة.

وكتاب التهذيب ليس كتاباً حديثياً محضاً، وإنما هو كتاب فقهي استدلالي حديثي، فيذكر عبارة أستاذه المفيد أولاً بين قوسين، ويقوم بشرحها والاستدلال على ما فيها من أحكام.

الطوسي (٤٦٠) الملقَّب بـ«شيخ الطائفة». وكان فقيهاً في مذهبي الشيعة وأهل السنَّة. وفي التهذيب (١٣٥٩٠) حديثاً، وفي الاستبصار (٥٥١١) حديثاً.

دخل الطوسي^٦ بغداد سنة ٤٠٨ واستقرَّ بها في أيام الشيخ المفيد^٧ محمد بن النعمان (٣٣٦ - ٤١١) صاحب «شرح عقائد الصدوق» و«أوائل المقالات». ونحو مائتي مؤلف.

وتلمذ الطوسي بعد موت الشيخ المفيد للشيخ المرتضى^٨، فنجب في مدرسة الشرف، وفي «دار العلم»^٩ التي أنشأها، وكان يجري عليه اثني عشر ديناراً في الشهر طوال ملازمته له حتَّى وفاة المرتضى، وانتفع بكتب المرتضى والكتب التي حوتها مكتبته، فألف في كلِّ

→ قيل: إنَّ هذا الكتاب هو أوَّل تأليف له، ألقه وعمره خمسة أو ستة وعشرين سنة، وقد أُحصيت أحاديث هذا الكتاب فكانت (١٣٥٩٠) حديثاً على ما ذكره الشيخ التوري.

٥. الاستبصار للشيخ الطوسي قيل: ألقه بسبب تعيير جماعة من المخالفين لنا باختلاف أحاديث كتبنا وتعارضها، فألَّف الكتاب المذكور محاولةً منه لدفع التعارض الذي يبدو بين الأخبار، فهو موضوع ومؤلف لذكر الأخبار المتعارضة، وبيان طريقة الجمع بينها. ومن هنا جاءت تسمية الكتاب بالاستبصار فيما اختلف من الأخبار، وقد حصر الشيخ نفسه أحاديث هذا الكتاب في (٥٥١١) حديثاً، قال: حصرتها لثلاث أسباب فيها زيادة أو نقصان.

٦. محمد بن الحسن بن علي الطوسي، مفسر، نعته السيكي بفتية الشيعة ومصنِّفهم، ولد سنة ٣٨٥ هـ، انتقل من خراسان إلى بغداد سنة ٤٠٨ هـ، وأقام أربعين سنة، ورحل إلى الغري بالنجف فاستقرَّ إلى أن توفِّي سنة ٤٦٠ هـ، احرقت كتبه عدَّة مرَّات بمحض من الناس، له تصانيف عديدة. (الأعلام: ج ٦ ص ٨٤).

٧. هو محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام العكبري، يرفع نسبة إلى قطان، أبو عبد الله المفيد، يُعرف بابن المعلم، محقِّق إمامي، انتهت إليه رئاسة الشيعة في وقته، كثير التصانيف في الأصول والكلام والفقہ، ولد في عكبر (٣٣٦ هـ) وتشا وتوفِّي في بغداد سنة ٤١٣ هـ، له نحو مائتي مصنَّف. (الأعلام: ج ٧ ص ٢١).

وقال ابن حجر في لسان الميزان: ج ٥ ص ٣٦٨: «كان المفيد كثير التفتُّش والتفتُّح والإكباب على العلم...، حتى قيل: له على كلِّ إمام منَّة...». ونقل العماد الحنبلي في (شذراته: ج ٣ ص ١٩٩) عن ابن أبي طي الحنبلي أنَّه قال: «هو شيخ من مشايخ الإمامية، رئيس الكلام والفقہ والجدل وكان يناظر أهل كلِّ عقيدة، مع الجلالة العظيمة في الدولة البويهية».

٨. علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم؛ أبو القاسم، من أحفاد الحسين بن علي، تقيب الطالبين، وأحد الأئمة في علم الكلام والأدب والشعر، ولد ببغداد سنة ٣٥٥ هـ وتوفِّي فيها سنة ٤٣٦ هـ، له تصانيف كثيرة (الأعلام: ج ٤ ص ٢٧٨).

٩. هي دار الشريف المرتضى اتخذها مدرسة عظيمة تضمَّ بين جدرانها ثلَّة من طلاب الفقہ والكلام والتفسير واللغة والشعر والعلوم الأخرى؛ كعلم الفلك والحساب وغيره، حتَّى سمِّيت أو أسماها «دار العلم» وأعدَّ له مجلساً للمناظرات فيها، وهي جامعة إنسانية تلمَّ شتات كثير من الطلبة ومريدي العلم من مختلف المذاهب والنحل. (مقدِّمة الانتصار: ص ٢٢).

علوم الإسلام، واجتهد الاجتهاد المطلق، فكان حجّة في فقه الشيعة والسنة. ومن أجل آثاره: تدرسه في مجالسه، وأماله بالنجف الأشرف في جوار مشهد أمير المؤمنين علي. وبهذا افتتح عصر العلم النجف الأشرف، فصار صنواً للأزهر الأغرّ - الذي أقامته دولة من دول الشيعة - والمعهدان هما اللذان حفظا علوم الإسلام. فالطوسي، والشريفان: الرضي والمرتضى، والشيخان: المفيد والصدوق^١، والكليني^٢، قد وصلوا ما انقطع من التأليف منذ عصر الإمام الصادق حتّى منتصف القرن الخامس، ليستمرّ التيار في التدفق.

والشريفان في مدرسة جدّهما صنوان، أبوهما أبو أحمد الموسوي^٣ (نسبةً إلى جدّه الإمام موسى الكاظم). وفيه قول ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة للشريف الرضي: كان أبوه: أبو أحمد، جليل القدر، عظيم المنزلة في دولة بني العباس وبني بويه، ولُقّب بالطاهر ذي المناقب، ولقّبهُ أبو نصر بن بويه^٤ بالطاهر الأوحد، ولي نقابة الطالبين عدّة دفعات، كما ولي النظر في المظالم، وحجّ بالناس مراراً على الموسم. عاش أبو أحمد طوال القرن الرابع (٣٠٤ - ٤٠٠) وكان يستخلف على الحجّ ولديه: الرضي والمرتضى.

١. هو محمد بن علي بن الحسين بن موسى بابويه القمي، ويُعرف بالشيخ الصدوق، محدث إمامي كبير، لم ير في القميين مثله، نزل بالري، وارتفع شأنه في خراسان، ولد سنة ٣٠٦ هـ، وتوفي في الري سنة (٣٨١ هـ) ودفن بها، له نحو ثلاثمائة مصنف. (الأعلام: ج ٦ ص ٢٧٤).

٢. محمد بن يعقوب بن إسحاق؛ أبو جعفر الكليني، فقيه إمامي من أهل «كُلَيْن» بالري، كان شيخ الشيعة ببغداد، وتوفي فيها سنة ٣٢٩ هـ، له كتب عديدة من أهمها: الكافي. (الأعلام: ج ٧ ص ١٤٥).

٣. هو أبو أحمد الحسين، نقيب الطالبين، ابن موسى الأبرش بن محمد الأعرج بن موسى أبي سبحة ابن إبراهيم المرتضى ابن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. وهو الشريف الملقّب بالطاهر الأوحد ذي المناقب، لقّبهُ بذلك الملك بهاء الدولة البويهبي؛ لجمعه مناقب شتى ومزايا رفيعة جمّة، فهو فضلاً عن كونه علوي النسب فإنّه كان نقيب الطالبين، جمع إلى رئاسة الدين زعامة الدنيا؛ لعلوّ همته، وسماحة نفسه. قال ابن المهنا في عمدة الطالب: «إنّه أجل من وضع على رأسه الطيلسان وجرّ خلفه رمحاً؛ وكان قويّ المنّة، يتلاعب بالدول، ويتجرأ على الأمور... مات سنة ٤٠٠ هـ، ودفن في داره بالكاظمية، ثم نقل إلى مشهد الحسين في كربلاء ودفن في الروضة المقدسة عند جدّه إبراهيم المجاب...». (مقدّمة كتاب الانتصار: ص ٩-١١).

٤. بهاء الدولة ابن عضد الدولة ابن ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه، السلطان أبو نصر، من ملوك الدولة البويهية، ولد سنة ٣٦٠ هـ وتولّى الحكم نحو سنة ٣٨٠ هـ، ومات بأرجان سنة ٤٠٣ هـ. وهو الذي صنّف له عبد الله بن عبد الرحمان الإصفهاني كتابه «إيضاح المشكل لشعر المتنبّي». (الأعلام: ج ٢ ص ٧٥).

والشريف الرضي^١ (٣٥٨ - ٤٠٦) هو شاعر العربية الشهير، وجامع «نهج البلاغة» الأشهر، من خطب أمير المؤمنين علي، تولّى نقابة الطالبين في حياة أبيه ومن بعده، وتولّى النيابة عن الخليفة العباسي. فهذه ولاية ينفرد بها في التاريخ، تجمع بين نقابة الطالبين وبين نيابة الخلافة السنّية.

وللشريف الرضي تأليف عظيمة في تفسير القرآن منها: (١) تلخيص البيان في معجزات القرآن (٢) حقائق التأويل ومتشابه التنزيل (٣) معاني القرآن، كذلك له (٤) مجازات الآثار النبوية (٥) خصائص الأئمة.

أما الشريف المرتضى^٢ (٤٣٦) فيقول عنه الثعالبي^٣ في «يتيمة الدهر»^٣ - وهما متعاصران -: «انتهت الرئاسة اليوم ببغداد إلى المرتضى في المجد والشرف والعلم والأدب والفضل والكرم، وله شعر نهاية في الحسن، ومؤلفاته كثيرة، منها: أمالي المرتضى، الشافي، تنزيه الأنبياء، المسائل الموصلية الأولى، مسائل أهل الموصل الثانية، مسائل أهل الموصل الثالثة، المسائل الديلمية، المسائل الطرابلسية الأخيرة، المسائل الحلبية الأولى، المسائل الجرجانية، المسائل الصيداوية، وتآليف أخرى كبيرة في الفقه والقياس ورفضه. وقد شرح تلميذه الطوسي أكثر من مؤلف له».

ومن أعظم آثاره إنشاء «دار العلم» ببغداد، وصدّه الأموال عليها، وإجراؤه العطاء على التلاميذ وإطعامهم وإسكانهم، وكان يتبع «دار العلم» هذه مكتبته التي تحوي أكثر من ثمانين ألف مجلّد. وحسبه أن يكون الطوسي من تلاميذه.

١. هو محمد بن الحسين بن موسى؛ أبو الحسن، الرضي العلوي الحسيني الموسوي، أشعر الطالبين، على كثرة المجيدين فيهم، ولد ببغداد سنة (٣٥٩هـ) وتوفّي ببغداد سنة (٤٠٦هـ) انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده، وخلع عليه بالسواد، وجدد له التقليد سنة (٤٠٣هـ). (الأعلام: ج ٦ ص ٩٩).

٢. هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، ولد في نيسابور سنة (٣٥٠هـ). قال ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة في حقّه: «كان في وقته راعي تلعات العلم. وجامع أشتات النثر والنظم، ورأس المؤلفين في زمانه، وإمام المصنّفين بحكم قرانه، وسار ذكره سير المثل. وضربت إليه آباط الابل...». وقال فيه البخارزي: إن الثعالبي هو جاحظ نيسابور، وزيدة الأحقاب والزهور. واسمه الثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب وعملها، قيل له ذلك لأنّه كان فراء، وتوفّي سنة ٤٢٩هـ. (مقدمة كتاب فقه اللغة).

٣. لم أعتز على كتاب البيتية، ولكن وجدت عبارة الثعالبي في قرئ الضيف: ج ٥ ص ٦٩ لعبد الله بن محمد ابن عبيد بن سفيان المتوفّي ٣٨١هـ. ينقلها عن البيتية.

وفي آثار هذا السلف العظيم تتابع ركب العلماء والمؤلفين الفحول يخلّدون فقه الإسلام.

مشيخة العلماء

كان مع الكتب التي آلت عن علي ومعاصريه مؤلفات، كبيرة أو صغيرة، وضعها من جاءوا بعده، وسير لهذا الثبت الضخم من شيعته من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. فهذا هو التراث التاريخي للشهداء وأشباع الشهداء، لا تكف الأمة عن ترديده، جهرًا وخفية، يتصدّروهم الصحابة العظماء، وإليك بعض الأسماء:

سلمان الفارسي، (والذي يطلق عليه سلمان المحمدي^١، وأبوذر أصدق الناس لهجة^٢، وعمّار الذي تقتله الفئة الباغية^٣، وهو في التسعين يحارب مع علي، والعباس بن عبد المطلب، وأبو أيوب الأنصاري^٤، والمقداد بن الأسود الكندي^٥ الذي قال لعلي يوم

١. عن منصور قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: ما أكثر ما أسمع منك يا سيدي ذكر سلمان الفارسي: فقال عليه السلام: «لا تقل الفارسي، ولكن قل: المحمدي». (الأمالي للشيخ الطوسي ص ١٣٣، بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٣٢٧، أمالي ابن الشيخ: ص ٨٣).

وعن الباقر عليه السلام: «لا تقولوا سلمان الفارسي، ولكن قولوا: سلمان المحمدي، ذاك رجل من أهل البيت». (بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٣٤٩، رجال الكشي: ص ٨).

قال ابن جبر في نهج الإيمان: ص ٥٨٩: «مثل مناداة سلمان لقعبة لما أخذ السلام، إنّه كان إذا ذكر سلمان الفارسي يقول: سلمان المحمدي».

٢. قال فيه النبي ﷺ: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر» وسائل الشيعة: ج ١ ص ٧٥، الاختصاص للشيخ المفيد: ص ١٣، الأمالي للطوسي: ص ٧١٠، بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٣٣٠، مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ٣٤٢، كنز العمال: ج ١٣ ص ٣١١، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ٣٣٠، الإصابة: ج ٤ ص ٦٣، جامع الأصول لابن الأثير: ج ١٠ ص ٣٤، سير أعلام النبلاء: ج ٢ ص ٥٩.

٣. إشارة إلى حديث النبي المتواتر لعمّار: «تقتلك الفئة الباغية» وفي لفظ «التاكية عن الطريق».

ذكر تواتر الحديث ابن حجر في الإصابة: ج ٢ ص ٥١٢، وتهذيب التهذيب: ج ٧ ص ٤٠٩. وذكر الحديث أيضاً في: جمع الجوامع: ج ٧ ص ٧٤، وكنز العمال: ج ٦ ص ١٨٤، وبحار الأنوار: ج ٤١ ص ١٩، ومسنّد أحمد ج ٢ ص ١٦١ و ج ٣ ص ٥، و ج ٥ ص ٣٠٦ و ج ٦ ص ٣٠٠، وصحيح مسلم: ج ٨ ص ١٨٦، وسنن الترمذي: ج ٥ ص ٣٣٣، والمستدرک: ج ٢ ص ١٤٨.

٤. هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة: أبو أيوب الأنصاري، من بني النجّار، صحابي، شهد العقبة ويدرأ وأحدأ والخندق وسائر المشاهد. وكان شجاعاً صابراً تقياً، محباً للفرز والجهد، عاش إلى أيام بني أمية، وكان يسكن المدينة، فرحل إلى الشام، ولما غزا يزيد القسطنطينية في خلافة أبيه معاوية صحبه أبو أيوب غازياً، فحضر

بيعة السقيفة: «إن أمرتني ضربت بسيفي، وإن أمرتني كفت»، قال: «اكفف»^٦. وخزيمه ذو الشهادتين^٧، وأبو التيهان^٨ وعبد الله والفضل^٩ ابنا العباس، وبلال بن رباح^{١٠}، وهاشم بن عتبة المرقال^{١١}، وأبان^{١٢} وخالد^{١٣} ابنا سعيد بن العاص، وأبي بن كعب^{١٤} سيد القراء.

→ الوقائع، ومرض فأوصى أن يوغل به في أرض العدو، فلما توفي دفن في أصل حصن القسطنطينية سنة ٥٢ هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ٢٩٦).

٥. هو المقداد بن عمرو، ويعرف بابن الأسود، الكندي البهراني الحضرمي؛ أبو معبد، أو أبو عمرو، صحابي، من الأبطال. وهو أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهر الإسلام، وهو أول من قاتل على فرس في سبيل الله. وفي الحديث: «إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم: علي، والمقداد، وأبو ذر، وسلمان»، وكان في الجاهلية من سكان حضرموت، واسم أبيه عمرو بن ثعلبة. شهد بدرًا وغيرها، وسكن المدينة، ومات على مقربة منها سنة ٣٣ هـ. (الأعلام: ج ٧ ص ٢٨٢).

٦. كتاب سليم بن قيس: ص ١٥٦، بحار الأنوار: ج ٢٨ ص ٢٧٥، مستدرک سفينة البحار: ج ٨ ص ٤٢٤. ٧. خزيمه بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصاري؛ أبو عمارة، صحابي، من أشرف الأوس في الجاهلية والإسلام، ومن شجعانهم المقدمين. وكان من سكان المدينة، وحمل راية بني خزيمة يوم فتح مكة، وعاش إلى خلافة الإمام علي عليه السلام، وشهد معه صفين فقتل فيها سنة ٣٧ هـ. روى له البخاري ومسلم وغيرهما (٢٨) حديثاً. (الأعلام: ج ٢ ص ٣٠٥).

٨. هو مالك بن التيهان الأنصاري الأوسي؛ أبو الهيثم، صحابي، كان يكره الأصنام في الجاهلية، ويقول بالتوحيد، هو وأسد بن زرارة، وكان أول من أسلم من الأنصار بمكة، وهو أحد النقباء الاثني عشر. شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها، وتوفي في خلافة عمر (٢٠ هـ)، وقيل: شهد صفين مع علي وقتل بها سنة ٣٧ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ٢٥٨).

٩. الفضل بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، من شجعان الصحابة ووجههم، كان أسن ولد العباس، ثبت يوم حنين وأردفه رسول الله ﷺ وراءه في حجة الوداع، فلُقّب «ردف رسول الله»، وخرج بعد وفاة النبي ﷺ إلى الشام، فاستشهد في وقعة «أجنادين» بفلسطين، وقيل: مات بتاحية الأردن في طاعون «عمراس» سنة ١٣ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ١٤٩).

١٠. بلال بن رباح الحبشي؛ أبو عبد الله، مؤذن رسول الله ﷺ، وخازنه على بيت ماله، من مولدي السراة، وأحد السابقين للإسلام، وفي الحديث: «بلال سابق الحيشة». شهد المشاهد كلها مع رسول الله، ولما توفي الرسول ﷺ أذن بلال ولم يؤذن بعد ذلك، وأقام حتى خرجت البعوث إلى الشام، فصار معهم، وتوفي في دمشق سنة ٢٠ هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ٧٣).

١١. هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، صحابي خطيب، من الفرسان، يُلقَّب بالمرقال، وهو ابن أخي سعد بن أبي وقاص. أسلم يوم فتح مكة. ونزل الشام بعد فتحها، فأرسله «عمر» مع ستة عشر رجلاً من جند الشام، مدداً لسعد بن أبي وقاص في العراق، وشهد القادسية مع سعد، وأصيبت عينه يوم اليرموك فقبل له: «الأعور»، وفتح جلولاء، وكان مع علي في حروبه، وتولّى قيادة الرجال، وقتل في صفين ٣٧ هـ. (الأعلام: ج ٨ ص ٦٦).

وأنس بن الحارث بن نبيه^{١٥}، وعثمان^{١٦} وسهل^{١٧} ابنا حنيف، وبريدة^{١٨}، وحذيفة^{١٩}، وقيس بن

١٢. أبان بن سعيد بن العاص الأموي؛ أبو الوليد، صحابي من ذوي الشرف، كان في عصر النبوة شديد الخصومة للإسلام والمسلمين، ثم أسلم سنة ٧هـ، وبعثه الرسول ﷺ سنة ٩هـ عاملاً على البحرين فخرج بلواء معقود أبيض وراية سوداء، وأقام في البحرين إلى أن توفي رسول الله، فسافر أبان إلى المدينة، ولقيه أبو بكر فلما علم على قدميه، فقال: آليت لا أكون عاملاً لأحد بعد رسول الله، وأقام إلى أن كانت وقعة «أجنادين» في خلافة أبي بكر، فحضرها أبان، فاستشهد بها على الأرجح، وقيل: مات في خلافة عثمان. (الأعلام: ج ١ ص ٢٧).

١٣. خالد بن سعيد بن العاص الأموي، صحابي من الولاة الغازين، قديم الإسلام، أسلم ورسول الله يبيت الدعوة للدين سرّاً، فكان الثالث أو الرابع من الداخلين في الإسلام بعد البعثة، ولزم رسول الله ﷺ، يصلي معه في نواحي مكة خالياً، فيبلغ ذلك (أبا أحيحة) وهو أبوه، فدعاه وكلمه في أن يدع ما هو عليه، فأبى، فضربه بعضا كانت في يده حتى كسرهما على رأسه، ثم حبسه بمكة وضيق عليه، ثم هاجر إلى الحبشة، فأقام بضعة عشرة سنة، وعاد سنة (٧هـ) فزما مع النبي ﷺ وحضر فتح مكة، ثم وقعة تبوك، وكان يكتب للنبي ﷺ بمكة والمدينة. ثم بعثه النبي عاملاً على اليمن، فأقام إلى أن استخلف أبو بكر فعزله عن اليمن ودعاه إليه فجاءه، وخرج مجاهداً فشهد فتح «أجنادين» سنة ١٣هـ، ثم وقعة «مرج الصفر» فاستشهد فيها. (الأعلام: ج ٢ ص ٢٩٦).

١٤. أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجّار، من الخزرج، صحابي أنصاري. كان قبل الإسلام حبراً من أجبّار اليهود، مطلعاً على الكتب القديمة، ولما أسلم كان من كتاب الوحي، شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان يقضي في عهده، وشهد مع عمر وقعة (الجابية) وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس، وأمره عثمان بجمع القرآن، فاشترك في جمعه، توفي سنة ٢١هـ. (الأعلام: ج ١ ص ٨٢).

١٥. أنس بن الحارث بن نبيه أو منبه، كان من أصحاب النبي، من أهل الصفة، قال: سمعت رسول الله ﷺ والحسين في حجره يقول: «إن ابني هذا يقتل في أرض يقال لها: العراق، فمن أدركه فلينصره» فقتل أنس بن الحارث مع الحسين. (ترجم الإمام الحسين لابن عساكر: ص ٣٤٨، مقتل الحسين للخوارزمي: ج ١ ص ١٥٩).

١٦. عثمان بن حنيف بن وهب الأنصاري الأوسي، والي، من الصحابة، شهد أحدًا وما بعدها، وولاه عمر السواد، ثم ولّاه علي البصرة، ولما نشبت فتنة الجمل دعاه أنصار عائشة إلى الخروج معهم على علي، فامتنع، فنتفروا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، واستأذنوا به عائشة، فأمرتهم بإطلاقه، فلحق بعلي وحضر معه الواقعة، توفي في خلافة معاوية سنة ٤١هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ٢٠٥).

١٧. سهل بن حنيف بن وهب الأنصاري الأوسي؛ أبو سعيد، صحابي من السابقين. شهد بدرًا وثبت يوم أحد، وشهد المشاهد كلها. استخلفه علي عليه السلام على البصرة بعد وقعة الجمل، ثم شهد مع صفين، وتوفي بالكوفة سنة ٣٨هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ١٤٢).

١٨. بريدة بن الحبيب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي، من أكابر الصحابة، أسلم قبل بدر، ولم يشهدا، وشهد خيبر وفتح مكة، واستعمله النبي ﷺ على صدقات قومه. وسكن المدينة، وانتقل إلى البصرة، ثم إلى مرو فمات بها سنة ٦٣هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ٥٠).

سعد بن عباد^١ رئيس الأنصار، وهند بن أبي هالة^٢ - أمه أم سلمة^٣ أم المؤمنين - وجعد بن هُبيرة المخزومي^٤ - أمه أم هانئ بنت أبي طالب - وجابر بن عبد الله الأنصاري.

وسيجري في آثار الصحابة: التابعون لهم وتابعو التابعين، فيضيفون إلى التراث العظيم آثار رجال عظماء منهم، من أشياع علي: الأحنف بن قيس، سويد بن غفلة، الحكم بن عيينة، سالم بن أبي الجعد، علي بن أبي الجعد، السعيدان^٥: ابن جُبَيْر وابن المسيب، يحيى بن

١٩. حذيفة بن حسل بن جابر العبسي، واليمان لقب «حسل»، صحابي، من الولاة الشجعان الفاتحين، كان صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، لم يعلمهم أحد غيره، ولما ولي عمر سألته: أفي عمالي أحد من المنافقين؟ فقال: نعم، واحد. قال: من هو؟ قال: لا أذكره. استعمله عمر على المدائن، فأقام بينهم وأصلح بلادهم، وهاجم نهاوند سنة ٢٢هـ، فصالحه صاحبها على مال يؤديه كل سنة، وغزا الدينور، وفاة سندان، فاقتحمها عنوة وفتح غيرها من البلدان. واستقدمه عمر إلى المدينة، فلما قرب وصوله اعترضه عمر في ظاهرها، فأراه على الحال التي خرج بها، فعانقه وسرّ بعفته، ثم أعاده إلى المدائن، وتوفي فيها سنة ٣٦هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ١٧١).

١. قيس بن سعد بن عباد بن دليم الأنصاري الخزرجي المدني، والي صحابي، من دهاة العرب. وذوي الرأي والمكيدة في الحرب، وأحد الأجداد المشهورين، كان شريف قومه غير مدافع، ومن بيت سيادتهم. وكان يحمل راية الأنصار مع النبي ﷺ وولي أموره، وصحب علياً في خلافته، فاستعمله على مصر سنة ٣٦ - ٣٧هـ، وعزله بمحمد بن أبي بكر، وعاد إلى علي وكان على مقدمته في صفين، ثم كان مع الحسن حتى صالح معاوية. فرجع إلى المدينة وتوفي بها في آخر خلافة معاوية (٦٠هـ). كان من أطول الناس وأجملهم. (الأعلام: ج ٥ ص ٢٠٦).

٢. هو هند بن أبي هالة، واسمه النباش بن زرارة التميمي، ربيب النبي ﷺ، وأمّه خديجة بنت خويلد، روى عن النبي صفته وحليته، وكان فصيحاً بليغاً، قتل مع علي في وقعة الجمل (تهذيب التهذيب لابن حجر) وكان الحسن يقول عنه: «خالي» لأنه ربيب رسول الله ﷺ على ما رواه الصدوق في معاني الأخبار: ص ٨٠، والمستدرک ج ٨ ص ٣٩٦ ومن ذهب إلى أنه أخو فاطمة من أمها: ابن شهر آشوب في المناقب ج ١ ص ١٢٧، والشيخ الطوسي في الأمالي: ص ٤٦٣، والقاضي النعمان في شرح الأخبار: ج ٣ ص ١٥، والسيد هاشم البحراني في حلية الأبرار: ج ١ ص ١٤٠، والعلامة المجلسي في البحار: ج ٢٢ ص ٢٤٧، والشيخ علي النمازي في مستدرک سفينة البحار: ج ٣ ص ٣٣.

٣. أكثر الرواة على أن أمه خديجة بنت خويلد (رض)، وبعضهم على أنها هالة اخت خديجة، ولم يذهب أحد إلى أنها أم سلمة (رض).

٤. جعد بن هبيرة المخزومي، ابن أخت أمير المؤمنين عليه السلام، أمه أم هانئ بنت أبي طالب، ولد على عهد النبي، وليست له صحبة، تابعي مدني. وهو الذي صلّى بالناس غداة ضرب الإمام علي في محرابه، استعمله علي على خراسان، توفي في ولاية معاوية بالمدينة. راجع المستدرک للحاكم: ج ٣ ص ١٩١، رجال الطوسي: ص ٥٩، طرائف المقال: ج ٢ ص ٧٧، معرفة الثقات: ج ١ ص ٢٦٨.

٥. سعيد بن جبیر، هو الشهيد الوحيد الذي قتل من الرعب قاتله! سأله الحجاج وهو يقدمه للقتل: أي قتلته تشاء؟

نظير العدواني^١، الخليل بن أحمد الفراهيدي^٢ مؤسس علم العروض، أبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء مؤسس علم الصرف.

وفي مدرسة التابعين هذه برز أبو هاشم؛ عبد الله بن محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين. وأبو هاشم أول من تكلم في علم الكلام، ومن بعده نشأت مدرسة المعتزلة، يتزعمها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، وبأبي هاشم تبدأ مدرسة المتكلمين من الشيعة.

ومن جيل التابعين: هشام بن محمد بن السائب الكلبي^٣، وأبو مخنف الأزدي^٤ المؤرخان.

ويتوالى موكب العلم العظيم من عهد علي، وتتعالى أصوات الدعاة العظماء للمذهب

→ فأجابه: «اختر أنت، فالقصاص أمامك»، ذلك أن القصاص قتل بقتل، فكان الحجاج بعد استشهاد سعيد يهيب من نومه فزعاً وهو يقول: مالي ولسعيد بن جبير!! ثم مات بعده بشهر، مات في رمضان، وسعيد في شعبان سنة ٩٥هـ.

ورفض ابن المسيب أن يبايع لولدي عبد الملك بن مروان - الوليد وسليمان - وتمسك برأيه، فأخذوه ليقتلوه، ثم اكتفوا بضربه بالسياط، وجردوه من ثيابه وطافوا به. ورفض أن يزوج بنته للوليد بن عبد الملك، وهو ولي عهد عبد الملك، وأثر أن يزوجها تلميذاً فقيراً من تلاميذه. (منه).

١. لعله يريد يحيى بن يعمر العدواني الوشقي، التحوي البصري، كان من التابعين، لقي عبد الله بن عباس، وهو أحد قراء البصرة، وعنه أخذ عبد الله بن أبي إسحاق القراءة. وانتقل إلى خراسان، وتولى القضاء بمرمو، وكان عالماً بالقرآن الكريم والنحو ولفات العرب، أخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي. كان شيعياً وأخباره ونسوده كثيرة. توفي سنة ١٢٩هـ. (هامش بحار الانوار: ج ٢٥ ص ٢٤٣).

٢. أبو عبد الرحمان الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري منشئ علم العروض. وشيخ النحاة، ولد سنة ١٠٠هـ، حدث عن أيوب السختياني وعاصم الأحول، وأخذ عنه سيبويه والأصمعي وآخرون، مات سنة ١٧٠هـ بالبصرة. (وفيات الأعيان: ج ٢ ص ٢٤٤، سير أعلام النبلاء: ج ٧ ص ٤٢٩، البداية والنهاية: ج ١٠ ص ١٦٦).

٣. أبو المنذر؛ هشام بن أبي النصر محمد بن السائب بن بشر الكلبي، الكوفي، كان من أعلم الناس بعلم الأنساب، وله في هذا العلم خمسة كتب: المنزلة، الجمهرة، الوجيز، الفريد، الملوكي. نشأ بالكوفة، وكان عالماً بأخبار العرب وأيامها ومثالبها، وأخذ عن أبيه الذي كان عالماً بالتفسير والأخبار. (الكنى والألقاب للقي: ص ١١٨).

٤. هو أبو مخنف؛ لوط بن يحيى بن سعيد الأزدي، الكوفي، صاحب المغازي، شيخ أصحاب الأخبار بالكوفة وهو من آل غامد. ترجم له الشيخ الطوسي: أبوه من أصحاب أمير المؤمنين والحسن والحسين، له كتب كثيرة في السيرة؛ ك مقتل الحسين عليه السلام ومقتل محمد بن أبي بكر، ومقتل عثمان، والجمال، وصفين، وخطبة الزهراء، توفي سنة ١٧٥هـ. (رجال الطوسي: ص ٥٧، هدية العارفين: ج ١ ص ٨٤١، رجال السيد بحر العلوم: ج ١ ص ١٨٦).

الشيعة؛ كالتابغة الجعدي^١ : شهد صفين مع أمير المؤمنين، وله فيها أشعاره المشهورة، وكان معه عروة بن زيد الخيل^٢، وليبد بن ربيعة^٣، وكعب بن زهير^٤ صاحب قصيدة «بانث سعاد»، ومن بعدهم: الفرزدق وكثير عزة من شعراء القرن الأول، ثم الكُميت، وقيس بن ذريح^٥، والسيد الحميري^٦، ودغبل الخزاعي، وأبو تمام^٧، والبُحْثري^٨، وديك الجن^٩.

١. هو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة الجعدي العامري؛ أبو ليلى، شاعر مفلح، صحابي من المعترين، اشتهر في الجاهلية وسُمِّي بالتابغة لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر، ثم نبغ فقاله. وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام، ووفد على النبي ﷺ فأسلم، وأدرك صفين، فشهداها مع علي، ثم سكن الكوفة، فسيرته معاوية إلى إصبهان فمات فيها وقد كَفَّ بصره سنة ٥٠ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ٢٠٧).

٢. عروة بن زيد الخيل بن مهلهل الطائي، قائد شاعر، من رجال الفتوح في صدر الإسلام، عاش مدة في الجاهلية، وشهد مع أبيه بعض حروبها، وأسلم. ويقال: إنه اجتمع بالنبي ﷺ ثم عاش إلى خلافة علي عليه السلام وشهد معه صفين. تولَّى إمرة الجيش الفاتح للديلم والري ودسبتي، وكان ممن شهد وقعة القادسية، وتوفي بعد سنة ٣٧ هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ٢٢٦).

٣. ليبد بن ربيعة بن مالك؛ أبو عقيل العامري، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، أدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ، وبعد من الصحابة ومن المؤلفات قلوبهم، وترك الشعر ولم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، هو: ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه المجلس الصالح وسكن الكوفة وعاش عمراً طويلاً، وهو أحد أصحاب المعلقات المشهورة، توفي سنة ٤١ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ٢٤٠).

٤. كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، شاعر عالي الطبقة، كان ممن اشتهر في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبي ﷺ، وأقام يشبب بنساء المسلمين، فأهدر النبي ﷺ دمه، فجاهه كعب مستأماً وقد أسلم، وأنشد لاميته المشهورة «بانث سعاد» ففقا عنه النبي ﷺ وخلع عليه بردته، توفي سنة ٢٦ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ٢٢٦).

٥. قيس بن ذريح بن سنة بن حذافة الكناني، شاعر، من العشاق المتيمين، وبعد من شعراء العصر الأموي، ومن سكان المدينة، كان رضيعاً للحسين بن علي، أرضعته أم قيس، وشعره عالي الطبقة في التشبيب والوصف والحنين، توفي سنة ٦٨ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ٢٠٦).

٦. هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري؛ أبو هاشم، شاعر إمامي متقدم. قال صاحب الأغاني: يقال: إن أكثر الناس شعراً في الجاهلية والإسلام ثلاثة: بشار وأبو العتاهية والسيد، فإنه لا يعلم أن أحداً قدر على تحصيل الشعر أحد منهم أجمع. وكان أبو عبيدة يقول: أشعر المحدثين: السيد الحميري وبشار. أكثر شعره في مدح بني هاشم وذم أعدائهم، ولد في نعمان (في الشام) سنة (١٠٥ هـ) ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد سنة ١٧٣ هـ. وكان يشار إليه في التصوف والورع. (الأعلام: ج ١ ص ٣٢٢).

٧. أبو تمام؛ حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، الشاعر، الأديب، أحد أمراء البيان. ولد في سوريا سنة ١٨٨ هـ.

والحسين بن الضحَّاك^{١٠}، وابن الرومي^{١١}، والأشجع^{١٢} السلمي^{١٣}....

→ ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد فأجازه وقدمه على شعراء وقته، فأقام في العراق، ثم ولي بريد الموصل، فلم يتم سنتين حتى توفي فيها سنة ٢٣١هـ، كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطع، في شعره شدة وجزالة، اختلف في التفضيل بينه وبين المتنبى والبحتري. (الأعلام: ج ٢ ص ١٦٥).

٨. هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي؛ أبو عبادة البحتري، شاعر كبير، يقال لشعره: (سلاسل الذهب) وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبى وأبو تمام والبحتري.

قيل للمعري: أي الثلاثة أشعر: فقال: المتنبى وأبو تمام حكيمان، والبحتري شاعر. ولد بمنبج سنة ٢٠٦هـ، ورحل إلى العراق فأصلب بجماعة من الخلفاء، أولهم المتوكل، ثم عاد إلى الشام وتوفي بمنبج سنة ٢٨٤هـ. (الأعلام: ج ٨ ص ١٢١).

٩. عبد السلام بن زغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي، المعروف بديك الجن، شاعر مجيد، من شعراء العصر العباسي، سمي ديك الجن لأن عينيه كانتا خضراوين. أصله من سلمية (قرب حماة) ومولده سنة ١٦١هـ في حمص، ووفاته فيها سنة ٢٢٥هـ. لم يفارق بلاد الشام، ولم ينتجع بشعره. (الأعلام: ج ٤ ص ٥).

١٠. الحسين بن الضحَّاك بن ياسر الباهلي، من موالهم، أو هو منهم. شاعر من ندماء الخلفاء، قيل: أصله من خراسان، ولد في البصرة سنة ١٦٢هـ ونشأ فيها، وتوفي ببغداد سنة ٢٥٠هـ. اتصل بالأمين العباسي وناداه ومادحه، ولما ظفر المأمون خاف الحسين فانصرف إلى البصرة، حتى صارت الخلافة للمعتصم، فعاد ومدحه ومدح الوائق، كان يلقب بالأشقر والخليع. (الأعلام: ج ٢ ص ٢٣٩).

١١. هو علي بن العباس بن جريج أو جرجيس الرومي؛ أبو الحسن، شاعر كبير، من طبقة بشار والمتنبى، رومي الأصل، كان جده من موالي بني العباس، ولد في بغداد سنة ٢٢١هـ، ونشأ ومات فيها مسموماً سنة ٢٨٣هـ. قيل: دس إليه السم القاسم بن عبيد الله المعتضد، وكان ابن الرومي قد هجاه. قال المرزباني: لا أعلم أنه مدح أحداً إلا وعاد إليه فهجاه، ولذلك قلت فائدته من قول الشعر، وتحاماه الرؤساء، وكان سبياً لوفاته. (الأعلام: ج ٤ ص ٢٩٧).

١٢. هو ابن عمرو؛ أبو الوليد، من ولد الشريد بن مطرود السلمي، كان شاعراً مقلداً، كثيراً، سائر الشعر، معدوداً في فحول الشعراء في طبقة أبي نواس وأبي العتاهية وبشار. مدح الخلفاء وولاة اليهود والوزراء وأخذ جوانزهم، وحظي عندهم. ودخل على الإمام الصادق عليه السلام فمدحه وأجازه الامام، وقد رثى الإمام الرضا بقصيدة عصماء، ذكرها أبو الفرج في مقاتله: ص ٥٦٨. (هامش بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٣١٠).

١٣. من الطبيعي أن يكون كثرة الشعراء شيعة. فالشعر ضمير الجماعة وصوتها الصداح، والضمير الاسلامي كله، يتقله أو يعذبه، أو يهيج قرائحه، ما أصاب أهل البيت من ظلم الدول، ويخفف عنه ما يعده حول أهل البيت من أمل، لهم وله.

وكلما أحس الشعب ظملاً طلب الرجاء والافتداء بأبناء النبي ﷺ، وبهذا انضاف إلى الثابت الحافل السابق ذكره: ابن هانئ الأندلسي، ومهيار الديلمي، وأبو فراس الحمداني، والناشئ الصغير، والناشئ الكبير، وكشاجم، وأبو

وعلم أهل البيت علم كل الأمة، فأمر المؤمنين علي في قمة السند عند الجميع، من سنة وشيعة، لكن الذين ينقلون عنه - من الشيعة أو أهل السنة - محلّ تفاوت. فالشيعة لا يقبلون كلمة ممن حارب علياً أو ظلمه من الصحابة أو التابعين، وأهل السنة، مع اختلافهم من ناحية شروط الرواية والراوي، لا يقبل بعضهم ما لا يصل إليه بطريقته، ويتشكك بعضهم في بعض ما يرويه الشيعة؛ لأمر تتعلق بالسند أو بالمتن أو براويه من الشيعة.

وفي أسناد الشيعة فحول - بكلّ المقاييس - في العدالة والنزاهة والعلم، تتردّد أسماؤهم عالية في كتب الحديث والصحاح التي يقوم عليها العلم عند أهل السنة. والحقّ أنّ «جواهر الحديث النبوي» واحد عند هؤلاء وأولاء، مع تعدّد الطرق.

ومن هؤلاء

❖ الحارث بن عبد الله الهمداني^١ (٦٥) صاحب أمير المؤمنين علي وخاصته، حديثه في

→ بكر الخوارزمي، والبديع الهمداني، والطغراني، والسري الرفا، وعمارة اليمني.

يل أصبح ثناء على الشاعر أن يقال: «يترفض في شعره» أي: يتشيع، والمتنبي وأبي العلاء شعر شيعي.

وأما أشرف العلويين، فمنهم: الشريف الرضي والشريف المرتضى، وكان الشريف علي الجماني يقول: «أنا شاعر، وأبي شاعر، وجدي شاعر» ومنهم: الشريف الشجري.

يل كان من الأمويين متشيعون: أبان بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد بن العاص، وعمر بن عبد العزيز، وعبد الرحمان أخو مروان بن الحكم، ومروان بن محمد السروجي الذي يقول:

يا بني هاشم بن عبد مناف أنا منكمو بكلّ مكان
ولئن كنت من أمية إنّي لبريء منهمو إلى الرحمان

وأبو الفرج الأصفهاني (٢٨٤ - ٣٥٦) جدّه السابع مروان بن محمد، آخر خلفاء بني مروان. وأبو الفرج صاحب «الأغانى» و«مقاتل الطالبين». ومن العباسيين شيعة: المأمون، والمعتضد، وأحمد بن الموفق. ومن الأيوبيين كان الأفضل بن صلاح الدين.

ومن الفلاسفة متشيعون: الكندي فيلسوف العرب (٢٤٦)، والفارابي (٣٣٩)، وابن سينا (٤٢٨).

ومن الوزراء المشهورين: أبو سلمة الخلال، قتله السفاح، ويعقوب بن داود، حبسه المهدي وأفرج عنه الرشيد، والفضل والحسن ابنا سهل، قتل المأمون الأول وأصهر إلى الثاني ليستلّ سخيّمته، وبنو طاهر الخزاعي، ووزراء المأمون، وأبو دلف العجلي، والصاحب بن عباد... الخ. (منه).

١. الحارث بن عبد الله الهمداني الحوتى: أبو زهير الكوفي الأعور. أحد كبار الشيعة، وهو المخاطب بقول أمير

كتب السنن الأربعة، قال ابن سيرين: «كان من أصحاب ابن مسعود، خمسة يؤخذ عنهم، أدركت أربعة منهم وفاتي الحارث، فلم أره. وكان يفضل عليهم، وكان أحسنهم، ويختلف في هؤلاء أيهم أفضل: علقمة ومسروق وعبيدة»^١.

✽ علقمة بن قيس النخعي^٢ (٦٢) عم الأسود وأخويه أبناء يزيد، كان من أولياء آل محمد، والشهرستاني يعدّه من الشيعة، فهو قد شهد صفين مع أمير المؤمنين، واستشهد فيها أخوه أبي^٣، وخضب علقمة سيفه من دماء الخوارج، ولم يزل عدواً لمعاوية حتى مات. ومكانة علقمة عند أهل السنة من المسلمات، كان عنده كل علم ابن مسعود^٤. وفي بيت علقمة نشأت مدرسة النخعيين، وفيها نجب إبراهيم بن يزيد^٥، واسطة العقد في فقه العراق^٦.

→ المؤمنین :

يا حارهمدان من يموت يرني من مؤمن أو منافق قبلاً

(الغارات: ج ٧ ص ٧١٩)

قال الذهبي فيه: صاحب علي وابن مسعود، كان فقيهاً، كثير العلم، على لين في حديثه.... قد كان من أوعية العلم، ومن الشيعة الأول (سير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ١٥٢).

وقال أبو بكر بن أبي داود: «كان أفقه الناس، وأفرض الناس، وأحسب الناس، تعلم الفرائض من علي». (تاريخ الاسلام: ص ٩٠ حوادث سنة ٧٠).

١. ميزان الاعتدال للذهبي: ج ١ ص ٤٣٧، البيان في تفسير القرآن للسيد الخوئي: ص ٥٠٠. الكنى والألقاب للشيخ القمي: ج ٢ ص ١٠٥، المراجعات لشرف الدين: ص ١١٨.

٢. قال عنه في تقريب التهذيب: ج ١ ص ٦٨٧: «علقمة بن قيس النخعي ابن عبد الله النخعي الكوفي، ثقة، ثبت، فقيه، عابد».

٣. ذكر صاحب البحار: ج ٣٢ ص ٤٧٧: «وقاتلت النخع ذلك اليوم قتالاً شديداً، وقطعت رجل علقمة بن قيس النخعي، وقتل أخوه أبي بن قيس». ومثله أيضاً في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٥ ص ٢٢٥.

٤. يقول ابن مسعود: «لا أعلم شيئاً إلا وعلقمة يعلمه». نصب الراية للزليعي: ج ١ ص ٢٦.

٥. هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود؛ أبو عمران النخعي، من مذجج، من أكابر التابعين صلاحاً. وصدق رواية، وحفظاً للحديث. من أهل الكوفة، ولد سنة (٤٦ هـ) ومات مخفياً من الحجاج سنة (٩٦ هـ). قال فيه الصلاح الصفي: فقيه العراق، كان إماماً مجتهداً، له مذهب. ولما بلغ الشعبي موته قال: والله ما ترك بعده مثله. (الأعلام: ج ١ ص ٨٠).

٦. وقال جرير عن قابوس قال: قلت لأبي: كيف تأتي علقمة وتدع أصحاب النبي ﷺ؟ فقال: لأن أصحاب النبي ﷺ يستفتونه، وله رحلة إلى أبي الدرداء، وإلى عمر، وزيد، وعائشة بالمدينة، وهو ممن جمع علوم الأمصار، وكان خال إمام أهل العراق إبراهيم بن يزيد النخعي «راجع نصب الراية للزليعي: ج ١ ص ٢٦».

* ظالم بن عمرو^١ قاضي البصرة لعلي (أبو الأسود الدؤلي) (٦٩). احتج به أصحاب الصحاح الستة^٢، وهو واضع علم النحو. وكان النحو من اللغة، ومكانة اللغة من القرآن والستة وكل علوم الأمة، يضعان أبا الأسود في أعلى مكان.

* عبد الله بن شذاد بن الهاد^٣ (٨١)، أمه سلمى بنت عميس أخت أسماء أم عبد الله بن جعفر ومحمد بن أبي بكر ويحيى بن علي. وهو أخو عمارة بن حمزة لأمه، وحمزة بطل أحد وشهيدها. روى عن علي وأمي المؤمنين: عائشة وميمونة. خرج مع القراء أيام ثورة ابن الأشعث فقتل يوم دجيل^٤.

احتج بحديثه أصحاب الصحاح، وسائر الأئمة أصحاب المسانيد^٥.

* سليمان بن سرد الخزاعي^٦ (٦٥) كبير الشيعة في

عصره^٧، وبطل من أبطال صفين. يحتج به المحدثون، وحديثه عن رسول الله بلا واسطة،

١. ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني. واضع علم النحو. كان معدوداً من الفقهاء، والأعيان، والأمرء، والشعراء، والفرسان، والحاضري الجواب. من التابعين. رسم له علي عليه السلام شيئاً من أصول النحو، فكتب فيه أبو الأسود. وأخذ عنه جماعة. وفي صبح الأعشى: إن أبا الأسود وضع الحركات والتنوين لا غير. سكن البصرة في خلافة عمر، وولي إمارتها في أيام علي، استخلفه عليها عبد الله بن عباس لما شخص إلى الحجاز، ولم يزل في الإمارة إلى أن قُتل علي عليه السلام. وكان قد شهد معه صفين. في أكثر الأقوال هو أول من نطق المصحف، وله شعر جيد. توفي سنة (٦٩ هـ) (الأعلام: ج ٣ ص ٢٣٦).

٢. ذكره الذهبي في كتابه «من له رواية في الكتب الستة»: ج ٢ ص ٤٠٨ تحت تسلسل (٦٤٩٦).

٣. عبد الله بن شذاد بن الهاد الليثي، عربي كوفي، من خواص أمير المؤمنين عليه السلام، وكان من كبار التابعين وثقاتهم وقال لما منع بنو أمية عن التحدث بفضائل علي عليه السلام: وددت أن أترك فأحدث بفضائل علي بن أبي طالب عليه السلام وأن عنقي تضرب بالسيف. قُتل سنة (٨٢ هـ). (منتهى المقال: ص ١٨٦).

٤. وهي وقعة جرت بين عبد الرحمان بن الأشعث والحجاج بن يوسف الثقفي، وتعدّ الوقعة الخامسة بينهما، كانت في شعبان سنة ٨٢، ليلة الدجيل. (تهذيب الكمال: ج ١١ ص ٣٤).

٥. قال ابن سعد: كان ثقة، قليل الحديث (الطبقات الكبرى: ج ٥، ص ٦١). وقال ابن حجر: كان معدوداً في الفقهاء، مات بالكوفة مقتولاً. (تقريب التهذيب: ج ١ ص ٤٢٢). وقال الذهبي: حديث عبد الله مخرّج في الكتب الستة، ولا نزاع في ثقته. (سير أعلام النبلاء: ج ٣ ص ٤٨٩).

٦. هو سليمان بن سرد بن الجون الخزاعي؛ أبو مطرف الكوفي، صحابي جليل. قال ابن حجر: وكان خيراً فاضلاً، شهد صفين مع علي، وقتل حوشاً مبارزة، ثم كان ممن كاتب الحسين ثم تخلف عنه، ثم قدم هو والمسيب بن نجبة وآخرون، فخرجوا في الطلب بدمه، وهم أربعة آلاف، فالتقاهم عبيد الله بن زياد بعين الوردة بعسكر مروان، فقتل سليمان ومن معه، وذلك في سنة ٦٥ هـ.

٧. قال الذهبي: من شيعة علي، ومن كبار أصحابه. (تاريخ الإسلام: ص ٤٦ حوادث سنة ٦١).

أو بواسطة الصحابي جُبَيْر بن مطعم، موجود في صحيح البخاري ومسلم. وحديثه في غيرهما كثير^١.

وهو أمير التوآيين^٢ الخارجين للتأر لدم الحسين، وكانوا أربعة آلاف، ساروا إلى عبيد الله بن زياد وهو في سبعين ألفاً، فتلاقوا في موضع يقال له: «عين الوردة» حيث استشهد سليمان عن ثلاثة وتسعين عاماً وهو يحارب جيش عبيد الله بن زياد^٣.

أمّا عبيد الله بن زياد فقتله إبراهيم بن الأشتر النخعي بيده^٤.

* صعصعة بن صوحان العبدي^٥، أسلم في عهد النبي ولم يره، وهو من مشاهير خطباء العربية الذين خُلِّدت بلاغتهم^٦، فهو تلميذ في مدرسة أمير المؤمنين، شهد معه «الجملة» ومعه أخواه زيد وسيحان، وكانت الراية بيد سيحان يوم ذلك، فقتل، فأخذها زيد فقتل، فأخذها صعصعة وانتصر^٧، ثم شهد صفين مع أمير المؤمنين.

روى عن علي وابن عباس، ونفاه المغيرة بن شعبة والي العراق بأمر معاوية إلى الجزيرة في البحرين فمات، احتج به النسائي^٨.

١. قال المزني: روى عن النبي ﷺ في الكتب الستة، وعن أبي بن كعب في أبي داود وعمل اليوم والليلة، وعن جبير بن مطعم في البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه، وعن الحسن بن علي وأبيه علي. (تهذيب الكمال: ج ١١ ص ٤٥٤).

٢. سناه جماعته الذين خرجوا لطلب التأر لدم الحسين، كما رواه المزني في تهذيب الكمال: ج ١١ ص ٤٥٦.

٣. ذوب النضار لابن نما الحلبي: ص ٨٩، بحار الأنوار: ج ٤٥ ص ٣٦٠، العوالم للشيخ عبد الله البحراني: ص ٦٧٩.

٤. شرح الأخبار للقاضي النعمان المغربي: ج ٣ ص ٢٥١، البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٨٤، عيون الأخبار: ج ١ ص ٢٩٩، الكنى والألقاب للشيخ عباس القمي: ج ١ ص ٣٠٥.

٥. صعصعة بن صوحان بن حجر بن الحارث العبدي، من سادات عبد القيس، من أهل الكوفة. مولده في دارين قرب القطيف، كان خطيباً بليغاً عاقلاً، له شعر، شهد صفين مع علي، قال الشعبي: كنت أتعلّم منه الخطب. نفاه المغيرة من الكوفة إلى جزيرة (أوال) في البحرين بأمر من معاوية، فمات فيها سنة ٥٦ هجرية، على نحو ٧٠ عاماً. (الأعلام: ج ٣ ص ٢٠٥).

٦. قال الذهبي: «أحد خطباء العرب كان من كبار أصحاب علي عليه السلام. سير أعلام النبلاء: ج ٣ ص ٥٢٨.

٧. راجع الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٦ ص ٢٢١.

٨. قال المزني في تهذيب الكمال: ج ١٣ ص ١٦٧: «روى عن عبد الله بن عباس، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب في سنن النسائي» واحتج بن النسائي: ج ٨ ص ١٦٦ في كتاب الزينة، وأبو داود: ج ٤ ص ٣٠٣ في كتاب الأدب.

* عمرو بن وائلة^١؛ أبو الطفيل (١١٠)، كان صاحب راية المختار بن عبيد الثقفي، وهو آخر الصحابة موتاً. قدم علي معاوية يوماً فقال له:

كيف وجدك علي خليك أبي الحسن؟ (يقصد أمير المؤمنين علياً) فأجاب: كوجد أم موسى علي موسى، وأشكو إلى الله التقصير. قال معاوية: كنت فيمن حصر عثمان؟ قال: لا، ولكن فيمن حضره، قال معاوية: فما منعك من نصره؟! قال: فما منعك أنت من نصر عثمان؟ كنت في أهل الشام وكلهم تابع لك فيما تريد؟ قال معاوية: أو ما ترى طلبي لدمه نصره؟ قال: إنك لكما قال أبو جعفر:

لألفيتك بعد الموت تطلبني وفي حياتي ما زودتني زادا^٢

وحديثه في صحيح مسلم، روى عن رسول الله، وعن علي وابن مسعود وحذيفة بن اليمان وحذيفة بن سعد وابن عباس وعمر ومعاذ^٣.

* إبراهيم بن يزيد النخعي (٩٥)، أبوه يزيد بن عمرو بن الأسود النخعي، وأخواله: الأسود^٤ وإبراهيم^٥

١. عمرو بن وائلة أو عامر بن وائلة - والأخير هو الأشهر - أبو الطفيل الليثي. قال عنه الذهبي: خاتم من رأى رسول الله ﷺ في الدنيا، واستمر الحال على ذلك في عصر التابعين... وكان أبو الطفيل ثقة، صادقاً، عالماً، شاعراً، فارساً، عتد دهرًا طويلاً، وشهد مع علي حروبه. (سير أعلام النبلاء: ج ٣ ص ٤٦٧، ٤٧٠). وقال ابن عدي: وكان الخوارج يذمونه لاتصاله بعلي بن أبي طالب، وقوله بفضلته وفضل أهله، وليس بروايته بأس (الكامل: ج ٥ ص ٨٧ الرقم ١٢٦٤). هو آخر من مات من الصحابة سنة ١١٠ هـ أو ١٠٧ هـ.

٢. الاستيعاب: ج ٤ ص ١٦٩٦، المراجعات: ص ١٤١. خلاصة عبقات الأنوار: ج ٩ ص ٤٨، أسد الغاية: ج ٥ ص ٢٣٤، الكنى والالقباب: ج ١ ص ١١٢. وبعضهم روى البيت هكذا:

لألفيتك بعد الموت تسدني وفي حياتي ما زودتني زادي

٣. له روايات في: الأدب المفرد، ومسلم، وابن ماجه، والترمذي، والسنائي، وأبي داود، كما ذكر المزي في تهذيب الكمال: ج ١٤ ص ٧٩ - ٨١. وقد ترك البخاري الرواية عنه لأنه كان يفرط في التشيع، علي حسب ما ذكره الحافظ أبو عبد الله بن الأحرم. راجع الكفاية في علم الدراية للخطيب البغدادي: ص ١٣١.

٤. الأسود بن يزيد بن قيس، من مذبح ويكنى أبا عمرو، وهو ابن أخي علقمة بن قيس، وكان أكبر من علقمة. روى عن أبي بكر وعمر وعلي وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل، ولم يرو عن عثمان شيئاً. قال الحكم: كان الأسود يصوم الدهر. وعن منصور عن بعض أصحابه: أنه ليصوم في اليوم الشديد الحر الذي أن الجمل الجلد الأحمر ليرتج فيه من الحر. (الطبقات الكبرى: ج ٦ ص ٧٠).

وعبد الرحمان^١ أبناء يزيد بن قيس، يؤلفون - مع علقمة بن قيس - مدرسة النخعيين. وابن قتيبة يعتبر إبراهيم من الشيعة^٢ وروايته في الصحيحين^٣ وعنه يروي حماد بن أبي سليمان، وعن حماد يروي أبو حنيفة.

ومن فحول القرن الثاني كثيرون، نختار منهم بعض الأسماء:

✽ عطية العوفي^٤ (١١١) كان أبوه من أصحاب علي، وعلي هو الذي أعطاه اسمه، ضربه الحجاج ٤٠٠ سوطاً لامتناعه عن سب علي (وحدّ الجلد مائة!) له ذرية نبلاء من الشيعة، منهم: الحسين بن الحسن بن عطية الذي ولي القضاء^٥. يحتج به أبو داود والترمذي^٦.

٥. لا يوجد لابراهيم بن يزيد خال باسم ابراهيم، بل كلّ الترجمين يذكرون له خالين: الأسود وعبد الرحمان ولا ثالث، فلعله اشتباه وقع فيه المصنّف.

١. هو عبد الرحمان بن يزيد بن قيس بن عبد الله النخعي المذحجي، أخو الأسود، المكتنّى أبا بكر الكوفي، ثقة، صدوق، مات سنة ٨٣هـ. له أحاديث كثيرة. (تقريب التهذيب: ج ٢ ص ١٠٦). قال يحيى بن بكير: إنّه مات سنة ٧٣هـ. وقال محمد بن سعد: توفي في ولاية الحجاج قبل الجماجم، وقيل: مات شهيداً. (غريب الحديث: ج ٤ ص ٢٧٨).

٢. المعارف لابن قتيبة: ص ٦٢٤.

٣. قال الذهبي: الإمام الحافظ، فقيه العراق، هو ابن مليكة أخت الأسود بن يزيد (سير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٥٢٠)، واستقر الأمر على أن إبراهيم حجة. (ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٧٤).

وقال ابن حجر: الفقيه، الثقة. وقال ابن حنبل: كان إبراهيم ذكياً، حافظاً صاحب سنة (سير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٥٢٩) وقال المزي: روى عن خاله الأسود بن يزيد في الكتب الستة (تهذيب الكمال: ج ٢ ص ٢٣٤ الرقم ٢٦٥).

٤. هو عطية بن سعد بن جنادة العوفي الجدلي القيسي الكوفي؛ أبو الحسن، من رجال الحديث، كان يعدّ من شيعة أهل الكوفة. خرج مع ابن الأشعث، فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم الثقفي: أدع عطية، فإن سب علي بن أبي طالب وإلّا فاضربه ٤٠٠ سوط، وأحلق رأسه ولحيته، فأبى أن يفعل، فضربه ابن القاسم الأسواط وحلق رأسه ولحيته؛ ثم لجأ إلى فارس، واستقر بخراسان بقية أيام الحجاج، فلما ولي العراق عمر بن هبيرة أذن له في القدوم فعاد إلى الكوفة، وتوفي بها سنة (١١١هـ). (الأعلام: ج ٤ ص ٢٢٧).

٥. هو القاضي الحسين بن الحسن بن عطية العوفي، يكتنّى أبا عبد الله، وكان من أهل الكوفة، وقد سمع كثيراً، قدم بغداد فولّي قضاء الشرقية بعد حفص بن غياث، ثم نقل إلى قضاء عسكر المهدي في خلافة هارون، وتوفي سنة ٢٠١هـ، أو ٢٠٢هـ. (الكنى والالقباب: ج ٢ ص ٤٨٨).

٦. وروى له أيضاً: الحاكم في المستدرک: ج ٢ ص ٢٤٧ و ٢٦٤، وابن حجر في فتح الباري: ج ٦ ص ٣٦٥ و ج ٨

* جابر بن يزيد الجعفي^١ (١٢٧) قالوا: إنه كان يؤمن بالرجعة، وأحاديثه في مسلم^٢، وروى عنه النسائي^٣ والترمذي^٤ وأبو داود^٥ وأخذ عنه شعبة. ومن أجل قولهم عنه ووثاقته يروي ابن عبد الحكم عن الشافعي: «أن سفيان (بن عيينة) قال لشعبة: لئن تكلمت في جابر لأتكلمن فيك»^٦.

→ ص ٣٢٠ وج ١٢ ص ٢٧٨، والمباركفوري في تحفة الأحوذني: ج ٢ ص ١٤٨ وج ٣ ص ٨٤، وقد خرجه الترمذي في باب التطوع في السفر، وأبو يحيى في مسنده: ص ٩٧، وعبد الله المبارك في مسنده: ص ١٦٤، وعبد الرزاق الصنعاني في المصنف: ج ٩ ص ٤٤٤، وعلي بن الجعد في مسنده: ص ٢٩٦، وابن أبي شيبة في المصنف: ج ٧ ص ١٩٥ و ٢٢٣ و ٤١٩.

١. خرجه سابقاً.

٢. صحيح مسلم: ج ١ ص ١٨٨ ح ١٩٦ و ٣٣٠ وج ٢ ص ٨٦٩ ح ١٢٠٩ وج ٣ ص ١٦٧١ ح ٢١١١.

٣. سنن النسائي: ج ٣ ص ١٢ كتاب السهو.

٤. سنن الترمذي: ج ١ ص ١٥٩ وج ٢ ص ٢٠٠، باب ما جاء في الامام ينهض في الركعتين ناسياً، وأيضاً في سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٢٨١ كتاب الصلاة، الحديث رقم ١٢٠٨، وصحيح البخاري: ج ١ ص ٢٥، كتاب العلم وج ٢ ص ١٠٧ باب ما جاء في قبر النبي ﷺ و ص ١٢٢ باب من ملك من العرب و ص ١٥٧ باب فضل الحرم و ص ١٦٠ باب اليمين، و ج ٥ ص ١٠٩، و ج ٦ ص ١٧٦.

٥. سنن أبي داود: ج ١ ص ٢٧٢ كتاب الصلاة، الحديث رقم ١٠٣٦ وج ٢ ص ٨٦٩ وج ٣ ص ٣٠٢١.

٦. تهذيب الكمال: ج ٤ ص ٤٦٥، المسائل الصاغانية: ص ٣٧، كتاب الأم للشافعي: ج ١ ص ١٥٨، الجوهر النقي: ج ٨ ص ٦٣، ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٣٧٩، وليس هذا فقط، بل قال أبو عيسى: سمعت الجارود يقول: سمعت وكيعاً يقول: لولا جابر الجعفي لكان أهل الكوفة بغير حديث (سنن الترمذي: ج ٥ ص ٧٤١). وقال اسماعيل بن عليه، عن شعبة: جابر صدوق في الحديث (تهذيب الكمال: ج ٤ ص ٤٦٧) وعن الجراح بن مليح يقول: سمعت جابراً يقول: عندي سبعون ألف حديث عن أبي جعفر عن النبي ﷺ كلها. (صحيح مسلم: ج ١ ص ٢٠) وعن ابن مهدي، سمعت سفيان يقول: ما رأيت في الحديث أروع من جابر الجعفي. (ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٣٨٢). وقال الذهبي: هو من أكبر علماء الشيعة (الكاشف: ج ١ ص ١٣١، الرقم ٧٤٨).

وذكر المزي أنه يروي له: سنن الترمذي، وسنن ابن ماجه، وعبد الله بن نجفي في تفسيره، وسنن أبي داود (تهذيب الكمال: ج ٤ ص ٤٦٦).

وقال أبو القاسم اللالكائي: مجمع على ثقته (تهذيب الكمال: ج ٤ ص ٥٥٠). وقال النسائي: ثقة (تهذيب الكمال: ج ٤ ص ٥٥٠، والطبقات الكبرى: ج ٧ ص ٣٨١) وقال العجلي: كوفي ثقة، سكن الري. (تاريخ الثقات: ٩٦ الرقم ٢٠٥).

قال المزي: روى عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر في صحيح مسلم، وإسماعيل بن أبي خالد في البخاري،

* شعبة بن الحجاج^١ (١٦٠) أول من فتنش بالعراق عن أمر المحدثين .
 * عبد الرزاق بن همام^٢ (٢١٠) شيخ أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين^٣، وإسحاق بن راهويه^٤. سئل يحيى - وهو أستاذ الجرح والتعديل - عن الرواية عن عبد الرزاق مع تشييعه، فقال: لو ارتد عن الإسلام ما تركنا حديثه^٥.
 وكان عبد الرزاق يتكلم في عثمان. وذكر أمامه معاوية مرة فقال^٦: لا تقذروا مجالسنا

- وأيوب بن عائد في سنن النسائي، والحسن بن عبيد الله في مسلم وأبي داود والترمذي... (تهذيب الكمال: ج ٤ ص ٥٤٠ الرقم ٩١٨).
١. شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي، مولا هم، الواسطي ثم البصري؛ أبو بسطام: من أئمة رجال الحديث حفظاً ودراية وثباتاً، ولد سنة ٨٢ هـ بواسط ونشأ بها، وسكن البصرة إلى أن توفي ١٦٠ هـ.
 - وهو أول من فتنش بالعراق عن أمر المحدثين، وجانب الضعفاء والمتروكين. قال الامام أحمد: هو أمه وحده في هذا الشأن. وقال الشافعي: لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق. وكان عالماً بالأدب والشعر. قال الأصمعي: لم نز أحداً قط أعلم بالشعر من شعبة. له كتاب (الغرائب) في الحديث. (الأعلام: ج ٣ ص ١٦٤).
 ٢. عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري، مولا هم؛ أبو بكر الصنعاني، من حفاظ الحديث الثقات، من أهل صنعاء. ولد سنة ١٢٦ هـ، وكان يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث. له «الجامع الكبير» في الحديث. قال الذهبي: وهو خزنة علم. توفي سنة ٢١١ هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ٣٥٣).
 ٣. يحيى بن معين بن عون بن زياد المري بالولاء، البغدادي؛ أبو زكريا: من أئمة الحديث ومؤرخي رجاله، نعته الذهبي بسيد الحفاظ، وقال العسقلاني: إمام الجرح والتعديل. وقال ابن حنبل: أعلمنا بالرجال. ومن كلامه: كتبت بيدي ألف ألف حديث. ولد بقرية (نقيا) قرب الأنبار سنة (١٥٨ هـ)، وكان أبوه علي خراج الري فخلف له ثروة كبيرة، فأنفقها في طلب الحديث، عاش ببغداد، وتوفي بالمدينة حاجاً سنة ٢٣٣ هـ. (الأعلام: ج ٨ ص ١٧٢).
 ٤. إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم بن عبد الله بن مطر بن عبيد الله بن غالب بن عبد الوارث بن عبيد الله بن عطية المروري، المعروف بابن راهويه؛ أبو يعقوب، محدث، فقيه، رحل إلى الحجاز، وله مع الشافعي مناظرة في بيوت مكة. من تصانيفه: المسند، وكتاب التفسير. توفي سنة ٢٣٨. (معجم المؤلفين لعمر كحالة: ج ٢ ص ٢٢٨).
 ٥. خلاصة عبقات الانوار: ج ٧ ص ٤٨ ينقل عن مخطوط الكمال في معرفة الرجال. المراجعات: ص ١٤٨، معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري: ص ١٤٠، فتح الملك العلي: ص ١٠٥، ضعفاء العقيلي: ج ٣ ص ١١٠، الكامل لعبد الله بن عدي: ج ٥ ص ٣١١، تاريخ مدينة دمشق: ج ٣٦ ص ١٩٢، ميزان الاعتدال: ج ٢ ص ٦١٢، سير أعلام النبلاء: ج ٩ ص ٥٧٣ و ص ٥٧٤ و ج ١٦ ص ١٧٠، تهذيب التهذيب: ج ٦ ص ٢٨١.
 ٦. ذكر مقاله في: ميزان الاعتدال: ج ٣ ص ٦١٠ رقم ٥٠٤٤، ضعفاء العقيلي: ج ٣ ص ١٠٩، تاريخ مدينة دمشق: ج ٣٦ ص ١٨٧، سير أعلام النبلاء: ج ٩ ص ٥٧٠، معجم البلدان: ج ٣ ص ٤٢٩، وضوء النبي: ج ٢ ص ٥٢٢.

بذكر ولد أبي سفيان^١.

✽ الأعمش: سليمان بن مهران الأسدي الكوفي^٢ (١٤٨). يحتج به أصحاب الصحاح الستة^٣. ويروي عنه شعبة وجريير والسفيانان (الثوري إمام الكوفة، وابن عيينة إمام المدينة) بعث إليه هشام بن عبد الملك ليكتب له مناقب عثمان ومساوي علي، فأخذ القرطاس وأدخلها في فم شاة وقال للرسول: قل له هذا جوابه، قال الرسول: لقد أقسم أن يقتلني إن لم آت بجوابك! فكتب: «أما بعد، فلو كان لعثمان مناقب أهل الأرض ما نفعتك، ولو كان لعلي مساوي أهل الأرض ما ضرتك، فعليك بخويصة نفسك، والسلام»^٤.

✽ ابن لهيعة (١٧٤) قاضي مصر^٥. يقول عنه سفيان: «عند ابن لهيعة الأصول، وعندنا

١. سأل الترمذي أحمد بن حنبل عن عائشة والزبير وطلحة، فأجاب: «من أنا حتى أقول في أصحاب رسول الله ﷺ! إكان بينهم شيء الله أعلم به». فأحمد لا يسع قدحاً في الصحابة لورعه، وهم بأعمالهم وآرائهم أصل من أصوله.. حتى أنه ليعث إلى يحيى بن معين يقول له: هو ذا تكثر الحديث عن عبد الله بن موسى العيسبي، وقد سمعته تناول معاوية، وقد أكثر الحديث عنه، فقال يحيى للرسول: اقرأ علي أبي عبد الله أحمد بن حنبل السلام وقل له: أنا وأنت سمعنا عبد الرزاق (بن همام) يتناول عثمان بن عفان، فترك الحديث عنه، فإن عثمان أفضل من معاوية. ولم يترك أحمد حديث عبد الرزاق. (منه).

٢. خرجه سابقاً ونضيف إليه: قال الذهبي: سليمان بن مهران، الإمام، شيخ الاسلام، شيخ المقرنين والمحدثين، الحافظ. (سير أعلام النبلاء: ج ٦ ص ٢٢٦) وقال العجلي: ثقة كوفي، وكان محدث أهل الكوفة في زمانه، وكان فيه تشيع (تاريخ الثقات: ص ٢٠٤ الرقم ٦١٩) وعدة ابن قتيبة في المعارف: ص ٦٢٤، والشهرستاني في الملل والنحل: ج ١ ص ١٧٠ من رجال الشيعة.

٣. مثل صحيح البخاري: ج ١ ص ٢٥، صحيح مسلم: ج ١ ص ٨٦ الحديث ١٣١، سنن أبي داود: ج ٢ ص ٢٦ ح ٢٥٦٢، سنن الترمذي: ج ٥ ص ٦٤٣، سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٤٢ ح ١١٤، سنن النسائي: ج ٨ ص ١١٧. وقد ذكر التخريجات المزي في تهذيب الكمال: ج ١٢ ص ٧٦-٨٢ تحت رقم ٢٥٧٠، فراجع.

٤. وفيات الأعيان: ج ٣ ص ١٨٨، قاموس الرجال: ج ٤ ص ٤٩٥، المراجعات: ص ١٣٣.

٥. هو عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن فرعان بن ربيعة بن ثوبان، قال عنه الذهبي: القاضي، الإمام، العلامة، محدث ديار مصر، الليث، أبو عبد الرحمان الحضرمي الأعدولي... وكان من بحور العلم على لين في حديثه (سير أعلام النبلاء: ج ٨ ص ١١ الرقم ٤).

ويقول أبو عبيد الآجري: سمعت أبا داود يقول: وسمعت أحمد بن حنبل يقول: من كان مثل ابن لهيعة بمصر في كثرة حديثه وضبطه وإتقانه؟! وقال المزي: لا ريب أن ابن لهيعة كان عالم الديار المصرية. (تهذيب الكمال: ج ١٥ ص ٤٩٤). قال ابن عدي: مفرط في التشيع. (نقل عنه ميزان الاعتدال: ج ٢ ص ٤٨٣) وعدة ابن قتيبة من رجال الشيعة. (المعارف ص ٦٢٤).

الفروع»^١.

✽ شريك بن عبد الله النخعي القاضي^٢ (١٧٧). كان يقول: «علي خير البشر، فمن أبى فقد كفر»^٣. سأله الخليفة المهدي يوماً: ماذا تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: ما قال فيه جدّك العباس وعبد الله، قال: ما قالوا؟ قال شريك: أما العباس فمات وعلي عنده أفضل الصحابة، وكان يرى المسلمين يسألونه عما ينزل من النوازل، وما احتاج هو إلى أحدٍ حتّى لحق بالله. وأما عبد الله فأنه كان يضرب بين يديه بسيفين، وكان في حروبه سيفاً منيعاً، وقائداً مطاعاً. فلو كانت إمامته على جور كان أول من يقعد عنها أبوك لعلمه وفقهه في أحكام الله^٤. ولم يمض طويل وقت حتّى عزل شريك^٥.

→ له روايات في: صحيح مسلم: ج ١ ص ٤٣٥ ذيل الحديث ١٩٧، سنن أبي داود: ج ٢ ص ٨ رقم ٢٤٩٧، سنن الترمذي: ج ١ ص ١٥ رقم ١٠، سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٤٤٥ ح ١٣٩٠. ولد سنة ٩٧ هـ، وولي القضاء للمنصور العباسي سنة ١٥٤ هـ، فأجرى عليه ٣٠ ديناراً كل شهر، فأقام عشر سنين، وصرف سنة ١٦٤ هـ، واحترقت داره وكتبه سنة ١٧٠ هـ، توفي بالقاهرة سنة ١٧٤ هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ١١٥). ١. تاريخ دمشق: ج ٣٢ ص ١٤٣، وتاريخ الاسلام: حوادث سنة ١٧١ - ١٨٠ ص ٢٢٠، تهذيب الكمال: ج ١٥ ص ٤٩٥، تذكرة الحفاظ للذهبي: ج ١ ص ٢٣٩، ميزان الاعتدال: ج ٢ ص ٤٧٧، تهذيب التهذيب: ج ٥ ص ٣٢٩. ٢. خرّجه سابقاً.

٣. هذا حديث متواتر عن النبي ﷺ، نقله تارة جابر، وتارة حذيفة بن اليمان. وكان شريك يحدث به. ومسنّ ذكره من علماء السنّة والشيعة: كفاية الطالب: ص ٢٤٥، ترجمة الإمام علي لابن عساكر: ج ٢ ص ٤٤٤، ينابيع المودة: ج ٢ ص ٧٨، كنز العمال: ج ١١ ص ٦٢٥، تاريخ بغداد: ج ٧ ص ٤٣٣، فرائد السمطين: ج ١ ص ١٥٤، موضع أوهام الجمع والتفريق: ج ١ ص ٣٩٤، تهذيب التهذيب: ج ٩ ص ٤١٩، لسان الميزان: ج ٢ ص ٢٥٢، كنوز الحقائق للمناوي: ص ٩٨، المناقب لابن حمزة الطوسي: ص ١٢٤ و ١٣٠، مناقب آل أبي طالب: ج ٢ ص ٢٦٥، الطرائف لابن طاوس: ص ٨٨، أمالي الصدوق: ص ٤٧، علل الشرائع: ص ٥٨، اختيار معرفة الرجال: ج ١ ص ٢٣٧، بحار الأنوار: ج ٣٨ ص ٦، سير أعلام النبلاء: ج ٨ ص ٢٠٥، ميزان الاعتدال: ج ٢ ص ٢٧١، الكامل لعبد الله بن عدي: ج ٤ ص ١٠، تاريخ دمشق: ج ٤٢ ص ٣٧٢، إعلام الوري: ج ١ ص ٣١٩، من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ٤٩٣، وسائل الشيعة: ج ١٩ ص ٣٣٨، ج ٢٠ ص ١٥٠، مناقب أمير المؤمنين لمحمد بن سليمان الكوفي: ج ٢ ص ٥٢٤، المسترشد لابن جرير الطبري: ص ٢٧٢.

٤. تاريخ بغداد: ج ٩ ص ٢٩٢. وقد ذكر رواية الخبر أنّ عزله كان بسبب جوابه لا بسبب رؤيا الخليفة كما يذكرها المؤلف في الهامش التالي.

٥. ربّما كان في هذه الفترة الحرجة ما قيل من أنّه دخل يوماً على المهدي، فقال المهدي: عليّ بالسيف والتطع، قال شريك: ولمّ يا أمير المؤمنين؟ قال المهدي: رأيتك في منامي كأنك تطأ بساطي، وأنت معرض عني،

✽ خالد بن مخلد القطواني (٢١٣) شيخ البخاري^١. قال عنه أبو داود: صدوق، ولكن

يتشيع^٢!

✽ هشيم بن بشير^٣، أول أشياخ أحمد بن حنبل المحدثين (١٦٣).

✽ عبيد الله بن موسى العبيسي^٤ (٢٦٣) من مشايخ البخاري.

→ قصصت رؤياي على من غيرها، فقال لي: يظهر لك طاعته ويضر معصيته!! قال شريك: والله ما رؤياك برؤيا ابراهيم الخليل، ولا معترك بيوسف عليه السلام. أفبالأحلام الكاذبة تُضرب أعناق المؤمنين؟! فاستحي المهدي وقال: اخرج عني، وأبعده.

وكان الحقد على أمير المؤمنين علي غداة يومياً على موائد بني العباس، لا تخلو منه واحدة حتى ولو كانت مائدة لخليفة يتشيع هو المأمون: أنباء عمه ابراهيم بن المهدي - وكان شديد الانحراف عن علي - أنه رأى في المقام علياً فمشيا حتى جاءا قنطرة، فتقدم لعبورها فأمسكه ابراهيم وقال: أنت تدعي هذا الأمر بامرأة (يقصد أمر الخلافة وفاطمة الزهراء وأن علياً يتقدم بزواجه منها). فما رأيت له بلاغة في الجواب.. ما زادني على أن قال: سلاماً سلاماً! فنهزه المأمون على ما افتضح من عقله الباطن في صورة حلم، قال: لقد أجابك أبلغ الجواب، عرفك أنك جاهل لا يُجاب مثلك، قال الله تعالى: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾.

ولقد نهزه أحمد بن أبي دؤاد مرة أخرى إذ لم يتوقر في مجلس القضاء، فقال له: يا ابراهيم، إذا نازعت في مجلس الحكم بحضرتنا امرأاً فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً، ولا أشرت بيدي، وليكن قصدك أمماً وريحك ساكنة، وكلامك معتدلاً. ووفى مجالس الخليفة حقها من التوقير والتعظيم.

وكان مغنياً يعربد، نصبه أهله خليفة لمدة عامين في ثورة على المأمون، ثم عفا عنه المأمون بعد أن ضبطوه يحاول الفرار في ثياب امرأة! (منه).

١. خالد بن مخلد القطواني، أبو الهيثم البجلي، مولا هم، من كبار شيوخ البخاري. قال العجلي: ثقة فيه تشيع. وقال ابن سعد: كان متشيعاً مفرطاً. وقال صالح جزرة: ثقة إلا أنه كان متمهماً بالغلو في التشيع. (مقدمة فتح الباري ص ٣٩٨). لقب بالقطواني لأنه كان بقالاً يبيع القطنية، وقيل: لموضع يقرب الكوفة (الديباج على مسلم ص ٢٣٣).

٢. سؤالات الآجري لأبي داود، لسليمان بن الأشعث: ج ١ ص ٢٦٢.

٣. هشيم بن بشير بن أبي خازم السلمي؛ أبو معاوية الواسطي، نزيل بغداد، مفسر من ثقات المحدثين، كان محدث بغداد، لزمه الإمام أحمد بن حنبل أربع سنين. وكان ممن خرج مع ابراهيم بن عبد الله الطالبي بواسط، وقتل ابنه معاوية مع ابراهيم. ولد في بخارى ١٠٤ هـ، وتوفي سنة ١٨٣ هـ. (الأعلام: ج ٨ ص ٨٩).

٤. عبيد الله بن موسى بن باذام العبيسي؛ أبو محمد، أحد الحفاظ، ثقة، كان يتشيع، (تقريب التهذيب: ج ١ ص ٦٤٠).

قال ابن السكن: روى البخاري عن عبيد الله بن موسى. (الإصابة: ج ١ ص ٥٠٤).

وقال ابن أبي خيشمة: سمعت يحيى بن معين وقيل له: قال أحمد: إن عبيد الله بن موسى يرد حديثه للتشيع. فقال:

✽ معروف الكرخي^١ (٢٠٠) زعيم الصوفية. وصف ابن حنبل معلرفاً لابنه عبدالله بن حنبل عندما سأله: هل عنده علم؟ فقال: كان عنده رأس الأمر كله: تقوى الله^٢.

التلاميذ من الشيعة

صنّف الحافظ أبو العباس ابن عقدة^٣ كتاباً جمع فيه رجال الصادق ورواة حديثه، وأنهام إلى أربعة آلاف. وكتب من أجوبته أربعمائة مصنّف. وأما أمكنه من ذلك انقطاعه المخلص للتعليم عامة، وتعليم السنن والفقہ والتفسير خاصة، للشيعة ولغيرهم.

كان الرواة من تلامذته^٤ ومن غيرهم - كما يقول اليعقوبي - يروون عنه فيقولون: قال العالم. وكثيراً ما جلس في مجلس الإمام المخضرمون إلى جوار الجيل الجديد من المتفهمّة،

→ كان عبد الرزاق - والله الذي لا إله إلا هو - أغلبي في ذلك منه مائة ضعف، ولقد سمعت من عبد الرزاق أضعاف ما سمعت من عبيد الله. (تهذيب التهذيب: ج ٦ ص ٢٨٠).

١. معلرف بن فيروز الكرخي: أبو محفوظ، أحد أعلام الزهاد والمتصوفين، كان من موالى الإمام علي الرضا ابن موسى الكاظم، ولد في الكرخ ببغداد، ونشأ وتوفّي فيها سنة ٢٠٠ هـ. اشتهر بالصلاح، وقصده الناس للتبرك به، حتّى كان الإمام أحمد بن حنبل في جملة من يختلف إليه. (الأعلام: ج ٧ ص ٢٦٩).

قيل: كان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدّب كان يقول له: قل: ثالث ثلاثة! فيقول معلرف: بل هو الواحد، فيضربه فيهرب، فكان والداه يقولان: ليتني رجعت، ثم إن أبويه أسلما. (سير أعلام النبلاء: ج ٩ ص ٣٣٩).

٢. لم أشر على هذا الخبر، ولكن ما وجدته هو أنّه ذكر معلرف عند الإمام أحمد بن حنبل، فقيل: قصير العلم، فقال [أحمد]: أمسك، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معلرف. راجع: تاريخ بغداد: ج ١٣ ص ٢٠٢ وسير أعلام النبلاء: ج ٩ ص ٣٤٠.

ولعلّ العبارة التي ذكرها أحمد إشارة إلى حديث النبي ﷺ: «أوصيك بتقوى الله فإنّه رأس الأمر كله». راجع: تاريخ مدينة دمشق: ج ٢٣ ص ٢٧٥، وفيض القدير: ج ٣ ص ٩٨، وكنز العمال: ج ١٦ ص ١٣٣، والجامع الصغير: ج ١ ص ٤٢٨، وبحار الأنوار: ج ٧٤ ص ٧٢، ووسائل الشيعة: ج ١١ ص ٢٣٠.

٣. أحمد بن محمد بن سعيد بن عقدة الكوفي، مولى بني هاشم، محدّث، حافظ، صنّف وجمع وألّف في الأبواب والتراجم، ولد سنة ٢٤٩ هـ وتوفّي سنة ٣٣٢ هـ. وقال النجاشي: «هذا رجل جليل في أصحاب الحديث، مشهور بالحفظ والحكايات، يختلف عنه في الحفظ وعظمه. وكان كوفياً زديداً جارودياً على ذلك حتّى مات. وذكره أصحابنا الإمامية لاختلاطه بهم، ومدخلته إياهم، وعظم محلّه، وثقته وأمانته». (رجال النجاشي: ص ٩٤).

٤. مرجع الكلام ليس إلى ابن عقدة، بل إلى الإمام الصادق عليه السلام. فقد ذكر اليعقوبي في معرض حديثه عن الإمام: «وكان أفضل الناس وأعلمهم بدين الله، وكان من أهل العلم الذين سمعوا منه، إذا رووا عنه قالوا: أخبرنا العالم». (تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٢٨١).

ومن الأولين: قيس الماصر^١، وأبان بن تغلب؛ ومؤمن الطاق.

وكثيراً ما درّب التلاميذ بين يديه ليصنعوا على عينيه:

يفد على المدينة وافد من الشام، فيعدو إلى المجلس يناقشهم في «وجوب تنصيب الإمام» فيتجارون في جداله حتى يسلم لهم. ثم يعلق الإمام الصادق على طريقتهم أو قدرتهم، فيقول لحمران بن أعين: «تجري الكلام على الأثر فتصيب». ثم يلتفت لهشام بن سالم فيقول له: «تريد الأثر ولا تعرفه». ويلتفت إلى الأحول (الطاقي) ويقول: «قياس رواج، تكسر باطلاً بباطل، لكن باطلك أظهر». ويقول لقيس الماصر: «تتكلم وأقرب ما تكون إلى الخبر عن رسول الله. أنت والأحول قفازان حاذقان».. وأخيراً يقول لهشام بن الحكم: «يا هشام، لا تكاد تقع تلوي رجلك، إذا هممت بالأرض طرت، مثلك يكلم الناس، فاتق الزلّة...»^٢.

ولقد يلاحظ المرء من ذلك تعدّد طرقهم، وتفاوت علمهم، ونفاذ بصر الإمام إلى خصائصهم، ودوره في تصويب وتدريب كلّ منهم. وهو لا يتركهم دون تشجيع: يشير إلى زارة بن أعين^٣ وبريد العجلي^٤ وأبي بصير المرادي^٥ ومحمد بن مسلم^٦ فيقول: «لولا

١. قيس الماصر، وقيل: ابن الماصر، محدث إمامي، حسن الحديث، وكان فاضلاً، ممدوحاً، متكماً، حسن الكلام، مناظراً، بليغاً، ومن شيوخ الشيعة في علم الكلام. تعلم الكلام من الإمام السجاد عليه السلام، وقد أمره الإمام الصادق عليه السلام بمناظرة أحد الشاميين بحضرته عليه السلام. (جامع الرواة: ج ٢ ص ٢٦، معجم رجال الحديث: ج ١٤ ص ٩٩، خاتمة المستدرک: ٨٣٧).

٢. ذكر الواقعة: الكافي: ج ١ ص ١٧٣، شرح أصول الكافي: ج ٥ ص ٩٠، الإرشاد: ج ٢ ص ١٩٨، الاحتجاج: ج ٢ ص ١٢٥، مدينة المعاجز: ج ٥ ص ٢٦٩، بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ١٣، ج ٤٨ ص ٢٠٥، طرائف المقال: ج ٢ ص ٥٦٠، إعلام الوری: ج ١ ص ٥٣٣.

٣. مرّت ترجمته سابقاً.

٤. هو بريد بن معاوية العجلي، كان ممن روى عن الصادقين عليه السلام معاً، ومات في أيام الصادق عليه السلام، وقد بلغ من الجلالة وعظم الشأن عند أهل البيت حداً، فوق الوثاقة، وقد وردت روايات كثيرة في مدحه، ويكفيه أنه من الذين أجمعت العصابة على تصحيح كل ما يصح عنه، والإقرار له بالفقه. (الإمام الصادق للمظفر: ج ٢ ص ١٣٤).

٥. ليث بن البختری؛ أبو بصير المرادي الكوفي، روى عن الصادقين عليه السلام، ومقامه أرفع من أن يطرئ، وكان من المقدمين عند الصادقين عليه السلام، وللصادق عليه السلام فيه كلمات تكشف عن محل لا ينال، ودرجة لا يساوقه فيها إلا قلائل من نخبة رجالهم، وهو من أعظم المحدّثين وأعيان الفقهاء، وهو ممن أجمعت العصابة على توثيقهم وتصحيح كل ما يصح عنهم، وأقرت لهم بالفقاهة. (الإمام الصادق للمظفر: ج ٢ ص ١٦٤).

٦. تقدّم ترجمته سابقاً.

هؤلاء لا تنقطع آثار النبوة واندرست»^١. وكان في أسرة زرارة الحفاظ المدققون، يتصدّروهم تلميذا الإمام: الحسن والحسين ابنا زرارة. والإمام يهب الأسرة جلال الذكرى في التاريخ، فيقول: «لولا أسرة زرارة ونظرائه لانقطعت أحاديث أبي»^٢.

وهو إذ يثني على أسرة زرارة، يشجّع النظراء، وربما لا يتركهم الإمام دون تضييف: فالمستشرق رونلدسن^٣ يصوّر بعض مجالس الإمام مع تلاميذه، فيقول ما تعريبه: ومن الوصف الذي نقرؤهم عن إكرام جعفر الصادق ضيوفه في بستانه الجميل في المدينة، واستقباله الناس على اختلاف مذاهبهم، يظهر لنا أنه كانت له مدرسة شبه سقراطية. وقد ساهم تلاميذه مساهمةً عظيمةً في تقدّم علمي: الفقه والكلام، وصار اثنان من تلامذته وهما أبو حنيفة ومالك فيما بعد من أصحاب المذاهب الفقهية، وأفتوا بالمدينة أنّ اليمين التي أعطيت في بيعة المنصور لا تعتبر، ما دامت أعطيت بالإكراه. ويروى: أنّ تلميذاً آخر من تلامذته وهو واصل ابن عطاء رئيس المعتزلة، جاء بنظريات في الجدل ممّا أدّى إلى إخراجه من حلقة تدريس الإمام جعفر. وكان جابر بن حيان الكيماوي الشهير من تلامذته أيضاً^٤.

١. وردت في هؤلاء الأربعة عدّة أحاديث نذكر منها للتبرك لا للحصر:

عن الصادق: «أوتاد الأرض وأعلام الدين أربعة: محمد بن مسلم، وبريد بن معاوية، وليث بن البخاري المرادي، وزرارة بن أعين».

وقال عليه السلام: «إن أصحاب أبي كانوا زيناً، أحياءً وأمواتاً، أعني: زرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، ومنهم: ليث المرادي، وبريد العجلي، هؤلاء القوامون بالقسط، هؤلاء القوامون بالصدق، هؤلاء السابقون السابقون، أولئك المقربون» وقال فيهم: «أربعة نجباء، أمناء الله على حلاله وحرامه....».

ويقول عليه السلام: «هؤلاء حفاظ الدين وأمناء أبي على حلال الله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والسابقون إلينا في الآخرة...». (الإمام الصادق للمظفر: ج ٢ ص ١٣٤ في ترجمة بريد العجلي).

٢. الحديث هو: «رحم الله زرارة بن أعين، لولا زرارة ونظراؤه لاندرست أحاديث أبي» وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ١٤٤، مستدرک الوسائل: ج ١٧ ص ٣١٤، الاختصاص: ص ٦٦، رجال الكشي: ص ٩٠، الفصول المهمة: ص ٥٨٩، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٣٩٠.

٣. هو المستشرق دوايت م. رونلدسن صاحب كتاب (عقيدة الشيعة). قال الأميني عنه في الغدير: ج ٣ ص ٣٢٠: «قد يحسب الباحث رمزاً من النزاهة في هذا الكتاب، وخلافاً من التذوّق والسياب المقدّع، غير أنّه مهما أمعن النظر فيه يراه مغرباً عن جهل مؤلّفه المطبق، وقصر باعه في آراء الشيعة ومعتقداتهم، وعدم عرفانه برجالهم وتراجمهم وتآليفهم، أو كحاطب ليل لا يدري ما يجمع في حزمته، فجاء يكتب عن أمة عظيمة كهذه، ويبحث عن عقائدهم، ويستند فيها كثيراً إلى كتب قوم المشحونة بالطامات والآراء الساخطة، والمخازي التافهة....».

٤. عقيدة الشيعة: ص ١٤٠ طبعة مؤسسة المفيد بيروت. ونقل عنه شرح إحقاق الحق: ج ٢٨ ص ٥٣٠، وبعض

إليك بعض الأسماء

* أبا بن تغلب^١ (١٤١) تلميذ زين العابدين والباقر والصادق، قال له الباقر: «إجلس في المسجد وأفت الناس، فأنا أحب أن يرى في شيعتي مثلك»^٢. وقال له الصادق: «ناظر أهل المدينة، فأنا أحب أن يكون مثلك من رواتي ورجالي»^٣.

كان إذا دخل على الصادق عانقه، وأمر يوسادة تثنى له، وأقبل عليه بكله^٤. ولما مات قال: «أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان»^٥.

روى عن الصادق ثلاثين ألف حديث^٦. وهو - بهذه المثابة - شاهد على التعاقب والاستمرار والشمول في علم أهل البيت. يُعرّف الشيعة بأنهم (الذين إذا اختلف الناس أخذوا بقول علي، وإذا اختلف الناس عن علي أخذوا بقول جعفر ابن محمد)^٧. فهو القائل في جعفر بن محمد: (ما سألته عن شيء إلا قال: قال رسول الله)^٨.

كان إذا جلس بالمسجد تقوّضت إليه الحلقة، وأُخليت له سارية النبي، فيجيئه الناس يسألونه، فيجيئهم بمختلف الأقوال. ثم يذكر قول أهل البيت ويورد حججه^٩. ومن أجل هذا

→ ماورد من سيرة الإمام جعفر الصادق عليه السلام لمركز المصطفى: ص ٢١٤١، وفي أبي حنيفة لمركز المصطفى: ص ٢٥٩.

١. تقدّمت ترجمته سابقاً.

٢. رجال النجاشي: ص ١٠، فهرست الشيخ: ص ٥٧، وسائل الشيعة: ج ٣٠ ص ٢٩١، مستدرک الوسائل: ج ١٧ ص ٣١٥، شرح أصول الكافي: ج ١١ ص ٨٤، الاحتجاج: ج ٢ ص ٦١، خلاصة الأقوال: ص ٧٣، إيضاح الاشتباه: ص ٨١، رجال ابن داود: ص ٢٩.

٣. وسائل الشيعة: ج ١٩ ص ٣١٧، المراجعات: ص ٤١٥، خلاصة الأقوال: ص ٧٤.

٤. سفينة البحار: ج ١ ص ٧، المراجعات: ص ٤١٥، رجال النجاشي: ص ٨.

٥. من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٤٣٥، وسائل الشيعة: ج ٣٠ ص ٢٢، رجال النجاشي: ص ١٠، اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٦٢٢، إيضاح الاشتباه: ص ٨١، رجال ابن داود: ص ٣٠.

٦. وسائل الشيعة: ج ٣ ص ٢٠٠، حلية الأبرار: ج ١ ص ٥٤، رجال النجاشي: ص ١٢، رجال ابن داود: ص ٢٩ و ٢١٢، معجم رجال الحديث: ج ١ ص ١٣٣.

٧. تهذيب المقال: ج ١ ص ٢٣٠، معجم رجال الحديث: ج ١ ص ١٣٣، أمان الأمة من الاختلاف: ص ٢٥.

٨. نهج السعادة: ج ٧ ص ١٩٤، رجال النجاشي: ص ١٢، معجم رجال الحديث: ج ١ ص ١٢٣، تهذيب المقال: ج ١ ص ٢٣٠.

٩. تهذيب المقال: ج ١ ص ٢٢٩، سفينة البحار: ج ١ ص ٧، الاجتهاد والتقليد للسيد الخميني: ص ٦٧، رجال

المنهج في التدريس كان الصادق يوصي التلاميذ بأن يعتبوا من منابه. يقول لأبان بن عثمان^١: «إيت أبان، فإنه سمع عني ثلاثين ألف حديث، فاروها عنه»^٢ فهو لا يتردد في تفضيله حتى يجعله طبقة بينه وبين سميّه في الرواية عنه.

وقد احتجّ بحديثه مسلم بن الحجاج في صحيحه، وأصحاب السنن الأربعة، وروى عنه سفيان بن عيينة شيخ الشافعي^٣. وله كتب شتى منها: كتاب في الأصول^٤.

✽ ثابت بن دينار^٥ (١٥٠ هـ)؛ أبو حمزة الثمالي، تلميذ الصادق^٦ والسّديّ المفسّر^٧. يقول

→ النجاشي: ص ١١، رجال ابن داود: ص ٢٩، معجم رجال الحديث: ج ١ ص ١٣٣.

١. أبان بن عثمان بن يحيى بن زكريا اللؤلؤي البجلي بالولاء؛ أبو عبد الله، المعروف بالأحمر، عالم بالأخبار والأنساب، إمامي، أصله من الكوفة وكان يسكنها تارة، ويسكن البصرة تارة أخرى. وممن أخذ عنه: أبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو عبد الله محمد بن سلام. له كتب منها: (المغازي) في أخبار المبتدأ والمبعث وغزوات الرسول ﷺ والسقيفة والردة. توفي سنة ٢٠٠ هـ (الأعلام: ج ١ ص ٢٧).

وهو من رجال الحديث، عدّه الكشي من أصحاب الاجماع، روى عن الإمامين: الصادق والكاظم عليهما السلام. (موسوعة مؤلفي الإمامية: ج ١ ص ١١٦).

٢. رجال النجاشي: ص ١٢، المراجعات: ص ٤١٥، معجم رجال الحديث: ج ١ ص ١٣٣.
٣. لم يكن لأبان أي رواية في صحيح مسلم ولا في السنن الحديثية، وإنما روى عن أبان بن عثمان بن عفان الوالي المحدث، ولعلّ المؤلف اشتبه في الاسم فظنّه أبان الأحمر.

٤. ليس له كتاب في الأصول، وإنما عنده أصل من الأصول الحديثية، رواه أحمد بن محمد بن محمد بن عيس عن محسن بن أحمد عنه. راجع موسوعة مؤلفي الامامية: ج ١ ص ١١٦. وعنده كتاب في التاريخ أشار إليه النجاشي: ص ١٣ إلى أنّه حسن كبير يجمع المبتدأ والمغازي والوفاء والردة...، وذكره الطوسي في الفهرست: ص ٧.

٥. ثابت بن دينار الثمالي الأزدي بالولاء؛ أبو حمزة، من رجال الحديث الثقات عند الإمامية، وروى عنه بعض أهل السنة. وهو من أهل الكوفة، قُتل ثلاثة من أولاده مع زيد بن علي، وكان الرضا عليه السلام يقول: «هو لقمان زمانه». وكان أبوه مولئاً للمهلّب بن أبي صفرة. له كتاب في تفسير القرآن، وكتاب الزهد، وكتاب النوادر. توفي سنة ١٥٠ هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ٩٨).

ترجم له البخاري في التاريخ الكبير: ج ٢ ص ١٦٥.. وقال: سمع منه أبو نعيم ووكيع.
٦. المعروف عن أبي حمزة الثمالي عليه السلام أنّه قدم أربعة من الائمة وتشرفّ بخدمتهم، ولذا نال هذه الحظوة، بل أنّ الإمام الرضا عليه السلام عندما أتى عليه علّل قوله بأنّه قدم أربعة متأ: علي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر. راجع اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٤٥٨.

٧. هو إسماعيل بن عبد الرحمان السّديّ، تابعي، حجازي الأصل، سكن الكوفة. قال فيه ابن تفردي بردي: صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس. (الأعلام: ج ١ ص ٣١٧).

فيه الرضا حفيد الصادق: أبو حمزة في زمانه كلقمان في زمانه^١.

استشهد بنوه الثلاثة: حمزة ونوح ومنصور في خروجهم مع زيد بن علي^٢. روى عنه الترمذي^٣.

* ومؤمن الطاق^٤ كما يسميه الشيعة، نسبةً إلى «طاق المحامل» حيث كان متجره، أو «شيطان الطاق»^٥ كما يسميه فقهاء السنة، هو محمد بن علي بن النعمان الأحول، ويقال: إن أبا حنيفة هو الذي لقبه بشيطان الطاق؛ لمناظرة جرت بين الخوارج وبينه أمام أبي حنيفة^٦. والراجح أن خصومه سموه كذلك لعبقريته، أما الإمام الصادق فيناديه بعبارة بارعة يرضاها الجميع: «يا طاق»^٧ أو يقول: «صاحب الطاق»^٨.

١. في بعض المصادر «كسلمان في زمانه» وفي بعضها الرواية عن الصادق عليه السلام. ولا تنافي في أن تُذكر عن أكثر من إمام بأكثر من صيغة، راجع شرح أصول الكافي: ج ٦ ص ٧٧، ووسائل الشيعة: ج ١٩ ص ٤٣٩، والرواشح السماوية: ص ٩٦، واختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٤٥٨، وتفسير أبي حمزة الثمالي: ص ٧ و ٦٧، وخلاصة الأقوال: ص ٨٦، وإيضاح الاشتباه: ص ١٢٥، ورجال ابن داود: ص ٢١٦، والتحرير الطاوسي: ص ١٠٢، ونقد الرجال: ص ٣١١.

٢. وحمزة أكبر أولاده روى ذلك النجاشي في رجاله: ص ٢٨٩ ترجمة رقم ٢٩٤، ومعجم رجال الحديث: ج ٤ ص ٢٩٣.

٣. في سنن الترمذي: ج ٣ ص ٤٨ كتاب الزكاة الحديث ٦٥٩. وينقل المزي في تهذيب الكمال: ج ٤ ص ٣٥٨ جملة أسانيد تنقل عنه في الترمذي وخصائص النسائي.

٤. مرت ترجمة سابقاً.

٥. قال ابن النديم في الفهرست: ص ٢٢٤: وقيل: سُمِّي شيطان الطاق لأنه كان يتصرف ويشهد الدنانير، فلاحاه قوم في دينار جوبوه وبهرجه هو فأصاب وأخطأوا، والزمهم الحجة، فقال: أنا شيطان الطاق، يعني: طاق المحامل بالكوفة، موضع دكانه.

وقال المفيد في الاختصاص: ص ٢٠٤: «ولقبه الناس شيطان الطاق، وذلك أنهم شكوا في درهم فعرضوه عليه، فقال لهم: ستوق [درهم زيف ملبس بالفضة] فقالوا: ماهو إلا شيطان الطاق».

٦. لسان الميزان لابن حجر: ج ٥ ص ٣٠٠.

٧. التحفة السنوية للسيد عبد الله الجزائري: ص ١٠، شرح أصول الكافي: ج ٥ ص ٨٩، الارشاد للمفيد: ج ٢ ص ١٩٥، الاحتجاج: ج ٢ ص ١٢٣، مدينة المعاجز: ج ٥ ص ٢٦٧، بحار الأنوار: ج ٤٨ ص ٢٠٤، طرائف المقال: ج ٢ ص ٥٥٩، معجم رجال الحديث: ج ١٨ ص ٤٢، إعلام الوري للطبرسي: ج ١ ص ٥٣١.

٨. تحف العقول: ص ٣٠٨، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٨٦، مستدرک سفينة البحار: ج ٦ ص ٦٠٢، اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٤٢٤ و ج ٢ ص ٤٣٤.

كان مناظراً لا يشقُّ له غبار، رآه تلميذ آخر^١ يناظر، وأهل المدينة يضحون بمناظرته حتى قطعوا آراءه، وهو لا ينكف عن الجدل، فنتبه على أن الإمام ينهاهم عن الكلام، فالتفت إليه وقال: أو أمرك أن تقول لي؟ قال: لا، ولكنه أمرني أن لا أكلّم أحداً، قال: اذهب فأطعمه فيما أمرك.

وسمع الصادق بالواقعة من التلميذ، فتبسّم، بل هو قال له: «إن صاحب الطاق يكلم الناس فيطير، أمّا أنت إن قصّوك لن تطير»^٢.

ويروى أنه ناظر زيد بن علي في إمامة الإمام الصادق^٣.

كان أبو حنيفة يتهمه بالرجعة، وهو يتهم أبا حنيفة بالقول بالتناسخ^٤. تلاقيا بالسوق يوماً ومع صاحب الطاق ثوب يبيعه، قال أبو حنيفة: أتبيعه إلى حين رجعة؟ قال: إن أعطيتني كفيلاً أن لا تُمسخ قرداً^٥.

ولمّا مات الإمام الصادق قال له أبو حنيفة: مات إمامك، فأجابه: لكنّ إمامك لا يموت إلا يوم القيامة، إمامك إبليس^٦!
وله كتاب في مناظراته لأبي حنيفة^٧.

١. هو أبو خالد الكابلي.

٢. مستدرک سفینة البحار: ج ٦ ص ٦٠٢، اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٤٢٤، معجم رجال الحديث: ج ١٨ ص ٢٧، الكنى والالقب: ج ٢ ص ٤٢٨، هامش تحف العقول: ص ٣٠٨، هامش بحار الأنوار: ج ٧ ص ٢٨٦.

٣. منتهى الآمال: ج ٢ ص ٢٧٧، والمناظرة كاملة في الاحتجاج: ج ٢ ص ١٤١، والبحار: ج ٦ ص ١٨٠ أيضاً.

٤. مواقف الشيعة: ج ٢ ص ٣٥٢، قاموس الرجال: ج ٩ ص ٢١٥، تاريخ بغداد: ج ١٣ ص ٤١١، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: ج ٢ ص ٨٦.

٥. قاموس الرجال: ج ٩ ص ٢١٥، مواقف الشيعة: ج ٢ ص ٣٥٢، تاريخ بغداد: ج ١٣ ص ٤١١، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: ج ٢ ص ٨٦، وقد ورد بلفظ آخر بأن طلب منه ألف درهم أو خمسمائة دينار، أنظر: الاحتجاج: ج ٢ ص ١٤٨، ومختصر بصائر الدرجات: ٢٠٤، وبحار الأنوار: ج ٥٣ ص ١٠٧.

٦. الحدائق الناضرة: ج ٢٤ ص ١٢١، هامش تحف العقول: ص ٣٠٨، الاحتجاج: ج ٢ ص ١٤٩، مناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ١٩٧، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٤٠٠ و ج ٧٥ ص ٢٨٦، مواقف الشيعة: ج ١ ص ٣٣٢، قاموس الرجال: ج ٨ ص ٣١٠ و ج ٩ ص ٢١٥، زهر الربيع: ص ٢٤ و ٣١ و ١٤٢، العقد الفريد: ج ٤ ص ٤٢، نقد الرجال: ج ٤ ص ٢٨٢، رجال الكشي: ١٨٦ ذيل الحديث ٣٢٩، فهرست ابن النديم: ٢٢٤، تاريخ بغداد: ج ١٣ ص ٤١، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: ج ٢ ص ٨٦.

٧. ذكرها: لسان الميزان: ج ٥ ص ٣٠١، فتح الملك العلي: ص ١٤٤.

❖ أبان بن عثمان بن أحمر البجلي^١، يروي عن الصادق ثم عن الكاظم، وله مؤلفات شتى، وذكره ابن حبان في «الثقات».

وهو على رأس الستة الذين أجمع الشيعة على تصحيح ما يصح عنهم، والإقرار بالفقه لهم^٢. وهم: أبان، وجميل بن دراج، وعبد الله بن مسكان، وعبد الله بن بكير، وحماد بن عيسى، وحماد بن عثمان.

❖ هشام بن الحكم (١٧٩)، نشأ بالكوفة، ودخل بغداد للتجارة واستقر بها، ولزم الإمام الصادق، ثم صار خصيصاً بالإمام الكاظم. يقول عنه ابن النديم: هو من جلة أصحاب جعفر، وهو من متكلمي الشيعة ممن فتقوا الكلام في «الإمامة»^٣.

عمل مدة من الزمان قيماً بمجالس الكلام عند يحيى بن برمك وزير الرشيد، وكان أول أمره من أصحاب جهم بن صفوان^٤، ثم انتقل إلى القول بالإمامة في شبابه، فكان الصادق يدعو له: «لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك»^٥.

ونفذ هشام إلى المعتزلة من خلال (النظام)، وظل أثره قوياً في غير المعتزلة حتى ظهر المذهب الأشعري. وهشام هو الذي يقول: «ما رأيت مثل مخالفينا، عمدوا إلى من ولّاه الله من سمائه فعزلوه، وإلى من عزله الله من سمائه فولّوه»^٦ يقصد تبليغ علي سورة براءة بدلاً

١. سبق تخريجه.

٢. قال الكشي: «اجتمعت العصابة على تصحيح ما يصح عن هؤلاء، وتصديقه لما يقولون، وأقرّوا لهم بالفقه... ستة نفر: جميل بن دراج... أبان بن عثمان» رجال الكشي: ص ٣٧٥، ونقل عن الكشي كل من: تنقيح المقال: ج ٢ ص ٢١٨، ورجال الطوسي: ٢٦٤، والرواشح السماوية للداماد: ص ٤٦، والأصول الأصلية: ص ٥٧.

٣. الفهرست لابن النديم: ص ٢٢٢.

٤. جهم بن صفوان السمرقندي: أبو محرز، من موالى بني راسب، رأس الجهمية. قال الذهبي: الضالّ، المبدع، هلك في زمان صفار التابعين، وقد زرع شرّاً عظيماً، كان يقضي في عسكر الحارث بن سريح الخارج على أمراء خراسان، فقبض عليه نصر بن سيار، فطلب جهم استبقائه، فقال نصر: لا تقوم علينا مع الإمامة أكثر مما قامت، وأمر بقتله، فقتل سنة ١٢٨ هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ١٤١).

٥. الفصول المختارة للشيخ المفيد: ص ٤٩، بحار الأنوار: ج ١٠ ص ٢٩٣، ج ٢٩ ص ٦٩، ج ٧٥ ص ٢٩٦، المناظرات في الإمامة: ص ١٤٠ و ١٤٤، الدرجات الرفيعة: ص ٩١، طرائف المقال: ج ٢ ص ٥٦٥، فهرست ابن النديم: ص ٢٢٤.

٦. الفهرست: ص ٢٢٤.

من أبي بكر، وقول جبريل للرسول: «لا يؤدبها عنك إلا أنت أو رجل منك»^١.
 كان إذا قصد إفحام معارضيه لم يثبت أمامه رجل، سمعه الرشيد في بعض مجالس يحيى بن برمك، وكان يحضرها من وراء ستر، فقال: «إن لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف»^٢. ولما فتك الرشيد بالبرامكة طلب هشاماً، فاختمني، فأخذ به خلقاً كثيراً، ثم أطلقهم بعد أن مات هشام مستتراً^٣.

ولم تكن مجالس المناظرات خالية من الخطر، يسأل هشاماً سائل ذات يوم: أما علمت أن علياً نازع العباس - جد الرشيد - إلى أبي بكر؟ فأتهما كان الظالم لصاحبه؟ قال هشام فيما بعد: «قلت في نفسي: إن قلت: العباس بلغ ذلك الرشيد، وإن قلت: علياً ناقضت نفسي» قال هشام: لم يكن فيهما ظالم، قال السائل: أفيختصم اثنان، وهما محققان؟! قال هشام: نعم اختصم الملكان إلى داود، وليس فيهما ظالم، وإنما أراد أن ينتباه، كذلك اختصم هذان إلى أبي بكر ليعلماه ظلمه^٤. فهو ينجو من المزالق، ويكرم الرجلين، ويفضل علياً على أبي بكر. ومن وصية الإمام الصادق له قوله: «يا هشام، من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين، فليفرغ إلى الله في مسألته. إن كلُّ له عقل، فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع استغنى، ومن لم يقنع لم يدرك الغنى أبداً...، يا هشام كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا... العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه، إن الزرع ينبت في السهل...، من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه»^٥.

وكان يحدثه من التشبيه والتجسيم^٦، وقد كانت تبلغه عنه زلات في هذا الشأن، ومع

١. مصباح المتهجد: ص ٦٧٢، سعد السعود: ص ٧٣، إقبال الأعمال: ج ٢ ص ٣٦، بحار الأنوار: ج ٣٥ ص ٢٨٧، الفهرست لابن النديم: ص ٢٢٤.
٢. العبارة كما يرويها الأعلام: «مثل هذا حيّ ويبقى لي ملكي ساعة واحدة؟! فوالله للسان هذا أبلغ في قلوب الناس من مائة سيف». راجع: كمال الدين وتمام النعمة: ص ٣٦٨، وبحار الأنوار: ج ٤٨ ص ٢٠٢ و ج ٦٩ ص ١٥١.
٣. الفهرست لابن النديم: ص ٢٢٣.
٤. الدرجات الرفيعة: ص ٩١، مناقب آل أبي طالب: ج ٢ ص ٢٤٩، بحار الأنوار: ج ٣٨ ص ٣، مواقف الشيعة: ج ٢ ص ٤٧٤، العقد الفريد: ج ٢ ص ٤١٢، عيون الأخبار لابن قتيبة: ج ٢ ص ١٥٠.
٥. تحف العقول: ص ٣٩٦، مستدرك الوسائل: ج ١١ ص ٢٩٩، بحار الأنوار: ج ١ ص ١٥٣ و ج ٧٥ ص ٣١٢، مستدرك سفينة البحار: ج ٢ ص ٣٥٦ و ج ٩ ص ٩، نهج السعادة: ج ٧ ص ٣٤٦.
٦. رد السيد المرتضى في كتابه الشافي دعوى كون هشام يقول بالتجسيم، وأكثر أصحابنا يقولون أنه أورد ذلك

ذلك لا يكف عن تشجيعه، فيستعيده رواية ما وقع منه مع عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة، ويستحي هشام، فيقول له الإمام: «إذا أمرتكم بشيء فافعلوا»، فيقول هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلسه في مسجد البصرة، فعظم ذلك عليّ، فخرجت إليه، ودخلت البصرة يوم الجمعة، وأتيت المسجد، وإذا بحلقة عظيمة فيها عمرو... والناس يسألونه... فقعدت في آخر القوم على ركبتيّ، ثم قلت: أيها العالم، إني رجل غريب، تأذن لي في مسألة...، قلت: ألك عين؟ قال: نعم، فقلت: ألك أنف؟... ألك لسان؟... ألك أذن؟ قال: نعم، قلت: ألك قلب؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أميّز به كلّ ماورد على هذه الجوارح والحواس، قلت: أو ليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ قال: لا، قلت: لا بدّ من القلب وإلا لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم، فقلت: يا أبا مروان، والله تعالى لم يزل جوارحك حتّى جعل لها إماماً يصحّح لها الصحيح، وتتيقن به ممّا شكّت فيه، ويترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم وشكّهم واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك تردّ إليه شكّك وحيرتك؟! فسكت، ثم التفت إليّ وقال: أنت هشام بن الحكم... فضحك الإمام وقال: «من علمك هذا؟» قال: شيء أخذته منك... قال: «هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى»^١.

وظاهر أنّ طريقته كانت طريقة الإمام في استعمال المحسوسات، والاعتبار بها في الإثبات، واستعمال العقل بنزاهة في الاستدلال، وسنعرض لها فيما بعد.

بلغت مؤلّفات هشام سبعة عشر مؤلّفاً^٢، منها: كتاب «الإمامة»، كتاب الوصيّة والرّد على من يطلبها، وكتاب الحكمين.

✽ جابر بن حيّان، أول من استحقّ في التاريخ لقب: كيميائي، كما تسمّيه أوربة المعاصرة^٣. وهو الذي يشير إليه الرازي^٤ (٢٤٠ - ٣٢٠) جالينوس العرب^٥ فيقول: «استأذنا

→ على سبيل المعارضة للمعتزلة. (اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٥٦١-٥٦٢).

١. الكافي: ج ١ ص ١٦٩-١٧١، علل الشرائع: ج ١ ص ١٩٣-١٩٥، الأمل للمصدوق: ص ٦٨٦-٦٨٧، كمال الدين واتمام النعمة: ص ٢٠٧-٢٠٩، شرح أصول الكافي: ج ٥ ص ٨٥ و ص ٨٦، الاحتجاج: ج ٢ ص ١٢٦-١٢٨، بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٦-٨ و ج ٥٨ ص ٢٤٨-٢٤٩.

٢. ذكر ابن النديم في الفهرست: ص ٢٢٣ خمسة وعشرين كتاباً، منها الكتب التي ذكرها المؤلّف.

٣. قال جرجي زيدان في مجلّة «الهلال» على ما حكى عنه: «إنّه من تلامذة الصادق عليه السلام وإن أعجب شيء

أبو موسى جابر بن حيان^٦. والمؤرخون - إلا بعضاً من غير المسلمين^٧ - متفقون على تلمذته للإمام^٨، وعلى صلته أو تأثره به في العلم والعقيدة، وأكثرهم على أنه صار بعد موت الإمام من الشيعة الإسماعيلية، يقول في كتابه «الحاصل»: (ليس في العالم شيء إلا وفيه من جميع الأشياء، والله لقد وبّخني سيدي (يقصد الإمام الصادق) على عملي فقال: «والله يا جابر، لولا أنني أعلم أنّ هذا العلم لا يأخذه عنك إلا من يستأهله، وأعلم علماً يقيناً أنّه مثلك، لأمرتك بإبطال هذه الكتب من العلم»^٩.

وكانت كتب رياضة وكيمياء تسبق العصور بجدتها، قيل: إنه أخذ علمه عن خالد بن يزيد^{١٠}، ثم أخذ عن الإمام جعفر.

→ عثرت عليه في أمر الرجل أن الأوربيين اهتموا بأمره أكثر من المسلمين والعرب، وكتبوا فيه وفي مصنفاته تفاصيل. وقالوا: إنه أول من وضع أساس الشيمي الجديد، وكتبه في مكاتيبهم كثيرة، وهو حجة الشرقي على الغربي إلى أبد الدهر». (انظر معجم رجال الحديث: ج ٤ ص ٣٢٨).

٤. هو أبو بكر: محمد بن زكريا الرازي، المكنى بجالينوس العرب، أو طبيب المسلمين. مولده ومنشؤه بالري، قدم بغداد وله من العمر نيف وثلاثون سنة، وكان في ابتداء أمره يضرب بالعود. اشتغل بالطب على أبي الحسن علي بن زين الطبري، وصار إمام وقته في الطب، وكان متقناً لهذه الصنعة، تشدّ إليه الرجال. وألّف كتباً كثيرة في الطب، عمي في آخر زمانه. توفي قريباً من سنة ٣١١ - ٣٢٠ هـ. (معجم المطبوعات العربية: ج ١ ص ٩١٣).

٥. راجع معجم المطبوعات العربية لالياس سركيس: ج ١ ص ٩١٣.

٦. الفهرست لابن النديم: ص ٤٢١ ويقول: «والرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة: قال استاذنا أبو موسى، جابر بن حيان».

٧. ليس فقط غير المسلمين بل حتّى المسلمين الذين لا يريدون فضلاً لأهل البيت؛ حتّى أنّ بعضهم عدّ جابر بن حيان شخصية أسطورية! وذلك لثبوت أخذ ابن حيان علم الكيمياء عن جعفر الصادق ..

راجع: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة لأسد حيدر: ج ١ ص ٤٢٥.

٨. الفهرست: ص ٤٢٠، هدية العارفين: ج ١ ص ٢٤٩، معجم المطبوعات العربية لالياس سركيس: ج ١ ص ٦٦٤ و ص ٧٠٠، الذريعة: ج ٥ ص ١٢١ و ج ٧ ص ٦٠ و ج ١٧ ص ١٦٠، يتابع المودّة: ج ٣ ص ١٦٠، حياة الامام الرضا عليه السلام: ج ٢ ص ١٨٧.

٩. تقرأ عن كتاب الحاصل لابن حيان ذكره الحاج حسين الشاكري في كتابه: الامام جعفر الصادق عليه السلام: ج ١ ص ٢٠٢، والدكتور محمد يحيى الهاشمي في كتابه الامام الصادق ملهم الكيمياء: ص ١١٦، وأيضاً موجود في رسائل جابر بن حيان: ج ١ ص ٣١١.

١٠. خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي: أبو هاشم، حكيم قریش وعالمها في عصره، اشتغل بالكيمياء والطب والنجوم، فأثقتها وألّف فيها رسائل. اختلفوا في سنة وفاته، إلى أن قال الذهبي: وفيها (أي

وهو يشير إلى الإمام دائماً بقوله: «سيدي»، ويحلف به، ويعتبره مصدر الإلهام له، يقول في مقدمة كتابه «الأحجار»: «وحق سيدي، لولا أن هذه الكتب باسم سيدي - صلوات الله عليه - لما وصلت إليّ حرف من ذلك إلى الأبد»^١.

ذكر له المستشرق كراوس Kraus ناشر كتبه في العصر الحديث أربعين مؤلفاً^٢. وأضاف ابن النديم في القرن الرابع للهجرة عشرين كتاباً أخرى، وينقل ابن النديم قوله: «ألّفت ثلاثمائة كتاب في الفلسفة، وألفاً وثلاثمائة رسالة في صنائع مجموعة وآلات الحرب، ثم ألّفت في الطب كتاباً عظيماً، ثم ألّفت كتباً صغاراً وكباراً. وألّفت في الطب نحو خمسمائة كتاب، ثم ألّفت في المنطق على رأي أرسطاليس، ثم ألّفت كتاب الزيج أيضاً نحو ثلاثمائة ورقة، ثم ألّفت كتاباً في الزهد والمواعظ. وألّفت كتباً في العزائم كثيرة حسنة، وألّفت في الأشياء التي يعمل بخواصها كتباً كثيرة، ثم ألّفت بعد ذلك نحو خمسمائة كتاب نقضاً على الفلاسفة، ثم ألّفت كتاباً في الصنعة يُعرف بكتب الملك، وكتاباً يُعرف بالرياض»^٣.



وتلاميذ الصادق المشهورون، فيما عدا من سلف ذكرهم، من كبار أهل السنّة أسيّاح للفقهاء في جميع المذاهب، منهم: سفيان بن عيينة، وسعيد بن سالم القدّاح، وإبراهيم بن

→ سنة ٩٠هـ) على الأصحّ توفي خالد بن يزيد، وكان موصوفاً بالعلم والدين والعقل. وشكك ابن الاثير في بعض نواحي علمه، فقال: يقال: إنّه أصاب علم الكيمياء، ولا يصحّ ذلك لأحد.

وقال البيروني: كان خالد أول فلاسفة الاسلام. وقال ابن النديم: أمر بنقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي. (الأعلام: ج ٢ ص ٣٠٠).

١. رسائل جابر بن حيان: ج ١ ص ١٦٤، وراجع: الإمام جعفر الصادق للحاج حسين الشاكري: ج ١ ص ٢٠٢، والإمام الصادق ملهم الكيمياء: ص ١٦١، وبعض ماورد من سيرة الامام الصادق لمركز المصطفى: ص ٥٨٠.

٢. المعروف أنّ المستشرق الفرنسي (بول كراوس) ومن قبله استاذة (روسكا) كانا يشككان في نسبة هذه الكتب إلى جابر، بل إلى العقلية العربية، ويدعيان أنّ صورة جابر صورة خيالية، وأنّ الرسائل الخمسمائة لجابر إنّما هي لعدّة علماء!!

وقد قام الكاتب والعالم المصري إسماعيل مظهر بمناقشة آراء كراوس والردّ على ما أورده من شكوك واهية، في سلسلة مقالات نشرتها مجلة «المقتطف» في الأعداد: ٦٨: ٥٤٤ - ٦١٧، ٥٥١ - ٦٢٥).

كما أنّ الأستاذ أحمد زكي صالح نشر سلسلة أخرى من المقالات في نفس الموضوع في مجلة «الرسالة المصرية» السنة الثامنة: ١٢٠٤ - ١٢٠٦، ١٢٣٥ - ١٢٣٧، ١٢٦٨ - ١٢٧٠، ١٢٩٩ - ١٣٠٢.

٣. الفهرست لابن النديم: ص ٤٢٣.

محمد بن أبي يحيى، وعبد العزيز الدراوردي^١، وقد روى الشافعي عن كلِّ هؤلاء. وجريـر بن عبد الحميد^٢، وإبراهيم بن طهمان^٣، وعاصم بن عمر... بن عمر بن الخطاب، وأبو عاصم النبيل^٤ (٢١٢) شيخ أحمد ابن حنبل، وأبو عاصم آخر تلاميذ الصادق وفاة^٥، وقد روى عنه كتاباً^٦ والكسائي عالم اللغة، وعبد العزيز بن عبد الله الماجشون^٧، زميل مالك في الفتيا في موسم الحج، وعبد العزيز بن عمران... بن عبد الرحمان بن عوف، وابن جريج^٨ إمام مكة، والفضيل بن عياض^٩، والقاسم بن معن^{١٠}، وحفص بن غياث^{١١} والثلاثة أصحاب أبي حنيفة،

١. ذكر الطبراني عن أحمد بن رشد بن قال: سمعت أحمد بن صالح يقول: كان الدراوردي من أهل إصبهان، نزل بالمدينة، فكان يقول للرجل إذا أراد أن يدخل: أندرون! فلقبه أهل المدينة الدراوردي (طبقات المحدثين بإصبهان: ج ١ ص ٤١٢).

وقال الزركلي: هو عبد العزيز بن محمد بن عبيد الدراوردي، الجهني بالولاء، المدني: أبو محمد، محدث. روى عنه خلق كثير منهم سفيان وشعبة، وكان سني الحفظ، وتوفي بالمدينة سنة ١٨٦ هـ. (الأعلام: ج ٤ ص ٢٥).

٢. جريـر بن عبد الحميد بن قرط الرازي الضبي، محدث الري في عصره، رحل إليه المحدثون لسعة علمه، وكان ثقة. مولده ووفاته بالري سنة ١٨٨ هـ، وهو كوفي الأصل. (الأعلام: ج ٢ ص ١١٩).

٣. إبراهيم بن طهمان بن شعيب الهروي الخراساني؛ أبو سعيد، حافظ، من كبارهم في خراسان، ولد في هراة، وأقام في نيسابور وبغداد، وتوفي بنيسابور سنة ١٦٨ هـ، وقيل: بمكة.

قال فيه الفيروز آبادي: من أئمة الإسلام على إرجاء فيه، وقيل: رجع عن الإرجاء. ونقل عن أبي زرعة: كنت عند أحمد بن حنبل، فذكر إبراهيم بن طهمان، وكان متكئاً من عليّ، فجلس وقال: لا ينبغي أن يُذكر الصالحون فيتكاؤا. (الأعلام: ج ١ ص ٤٤).

٤. هو الضحاك بن مخلد بن الضحاك بن مسلم الشيباني بالولاء، البصري، المعروف بالنبيل، شيخ حفاظ الحديث في عصره، له جزء في الحديث، ولد بمكة سنة ١٢٢ هـ، وتحوّل إلى البصرة فسكنها وتوفي بها سنة ٢١٢ هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ٢١٥). قال ابن حجر في التهذيب: ج ١ ص ٤٤٤ ثقة ثبت.

٥. ذكره البخاري في التاريخ الكبير: ج ٤ ص ٣٢٦، والرازي في الجرح والتعديل: ج ٤ ص ٤٦٣، والنجاشي في رجاله: ص ٢٠٥.

٦. رواه هارون بن مسلم. راجع رجال النجاشي ص ٢٠٥.

٧. عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة التيمي، مولا هم المدني، فقيه، من حفاظ الحديث الثقات، له تصانيف، كان وقرراً عاقلاً ثقة. أصله من إصبهان، نزل المدينة، ثم قصد بغداد فتوفي فيها سنة ١٦٤ هـ. وصلّى عليه الخليفة المهدي، ودفن في مقابر قريش، وهو يعدّ من فقهاء المدينة. (الأعلام: ج ٤ ص ٢٢).

٨. مرّت ترجمته سابقاً.

٩. الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي البريعي: أبو علي، شيخ الحرم المكي، من أكابر العبّاد الصلحاء. كان

ومنصور بن المعتمر^{١٢}، ومسلم بن خالد الزنجي^{١٣} شيخ الشافعي بمكة، ويحيى بن سعيد القطان^{١٤}.

وإنما أحدثت السياسة الخلافات بين فقهاء السنّة والشيعية، فأنتجت وجوهاً لخلافات فقهية وحديثية، فوجدنا للشيعية رواية ليسوا من رواة الكتب التي يتداولها أهل السنّة ومنها: الصحاح السنّة المشهورة، فالشيعية لا يقبلون أحاديث من حاربوا عليها، أو أخطأوا في حقّه. ومن الناحية الأخرى وجدنا في بعض كتب الحديث لأهل السنّة أوصافاً للرواة من الشيعة، تتضح منها جذور هذه الخلافات، وإليك بعض أمثال:

* كان الشعبي - شيخ المحدثين بالكوفة على رأس المائة الأولى - يكذب الحارث الهمداني صاحب علي، فيسلط الله على الشعبي ثقات أثباتاً من الرواة يستخفون به^{١٥}.

→ ثقة في الحديث. أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعي، ولد في سمرقند سنة ١٠٥ هـ، ونشأ بأبيورد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها، ثم سكن مكة وتوفي بها سنة ١٨٧ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ١٥٣).

١٠. القاسم بن معن بن عبد الرحمان المسعودي الهذلي الكوفي؛ أبو عبد الله، قاضي الكوفة، من حفاظ الحديث، وكان عالماً بالعربية والأخبار والأنساب والأدب، ومن أروى الناس للحديث والشعر. يقال له: شعبي زمانه، وكان سخياً، وهو من أحفاد الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، واليه نسبته. له كتب: (النوادر) في اللغة، و (غريب المصنف) توفي سنة ١٧٥ هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ١٨٦).

١١. حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي الأزدي الكوفي، قاضٍ من أهل الكوفة، ولي القضاء لهارون ببغداد الشرقية، ثم ولّاه قضاء الكوفة ومات فيها سنة ١٩٤ هـ. كان من الفقهاء وحفاظ الحديث الثقات، حدّث بثلاثة أو أربعة آلاف حديث من حفظه، وله كتاب فيه نحو (١٧٠) حديثاً من روايته، وهو صاحب أبي حنيفة، ويذكره الإمامية في رجالهم. (الأعلام: ج ٢ ص ٢٦٤).

١٢. منصور بن المعتمر بن عبد الله السلمي؛ أبو عتاب، من أعلام رجال الحديث، من أهل الكوفة، لم يكن فيها أحفظ للحديث منه، وكان ثقةً ثباتاً. (الأعلام: ج ٧ ص ٣٠٥).

١٣. مسلم بن خالد بن مسلم بن سعيد القرشي المخزومي، مولا لهم، المعروف بالزنجي، تابعي من كبار الفقهاء، كان إمام أهل مكة. أصله من الشام، لقّب بالزنجي لحرمة، أو على الضدّ لبياضه، وبه تفقه الإمام الشافعي قبل أن يلتقى مالكاً، وهو الذي أذن للشافعي بالإفتاء، توفي سنة ١٧٩ هـ. (الأعلام: ج ٧ ص ٢٢٢).

١٤. يحيى بن سعيد بن فروخ القطان التميمي؛ أبو سعيد، من حفاظ الحديث، ثقة حجة، من أقران مالك وشعبة، من أهل البصرة، كان يفتي بقول أبي حنيفة، وأورد له البلخي سقطات، ولم يعرف له تأليف إلا ما في كشف الظنون من أنّ له كتاب «المغازي»، قال أحمد بن حنبل: ما رأيت يعني مثل يحيى القطان. ولد سنة ١٢٠ هـ وتوفي سنة ١٩٨ هـ. (الأعلام: ج ٨ ص ١٤٧).

١٥. وقد سلط الله على الشعبي من الثقات الأثبات من كذّبه واستخفّ به جزاءً وفاقاً، كما نبّه على ذلك ابن عبد البر

✽ وأبان بن تغلب نجية مدرسة السجّاد والباقر والصادق، يقول فيه الحافظ السعدي: زائغ مجاهر^١. ويقول فيه الجوزجاني: زائغ مذموم المذهب^٢. ويقول عنه الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال^٣: شعبي جلد، ولكنّه صدوق، فلنأخذ صدقه وعليه بدعته^٤.

✽ وعلى هذا النحو نجد خالد بن مخلّد القطواني (٢١٣)، وهو من مشايخ البخاري، يقول عنه ابن سعد: إنّه كان مفرطاً في التشيع^٥. ويقول عنه أبو داود: صدوق لكنّه يتشيع^٦.

✽ وتجد تليد بن سليمان، يقول فيه أبو داود - تلميذ أحمد -: رافضي يشتم أبا بكر وعمر، فلنا «صدقه» وعليه «بدعته». لكن ابن حنبل يأخذ عنه^٧. وحسب الرجل شهادة ابن حنبل.

→ في كتابه «جامع بيان العلم» حيث أورد كلمة إبراهيم النخعي الصريحة في تكذيب الشعبي، ثم قال ما هذا لفظه:

وأظنّ الشعبي عوقب لقوله في الحارث الهمداني: حدّثني الحارث وكان أحد الكذّابين! قال ابن عبد البر «ولم يبين من الحارث كذب، وإنما تمّ عليه إفراطه في حبّ علي، وتفضيله له على غيره (قال) ومن هاهنا كذبته الشعبي، لأنّ الشعبي يذهب إلى تفضيل أبي بكر، وإلى أنّه أول من أسلم، وتفضيل عمر...».

راجع: جامع بيان العلم. باب حكم العلماء بعضهم في بعض: ج ٢ ص ١٨٩، ونقل الكلام أيضاً في المراجعات: ص ١١٨، ومعالم المدرستين: ج ١ ص ٢٥٧.

١. سير أعلام النبلاء: ج ١ ص ٥٩، ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٥، تهذيب الكمال: ج ٢ ص ٨، فتح الملك العلي: ص ٢٨٥.

٢. بحر الدم ليوسف بن البرد: ص ١٢، تهذيب التهذيب لابن حجر: ج ١ ص ٨١، ونقل عبد الله بن عدي هذه العبارة عن السعدي في الكامل: ج ١ ص ٣٨٩.

٣. ويقول الذهبي: فلنقاتل أن يقول: كيف ساغ توثيق مبتدع، وحدّ الثقة العدالة والاتقان؟ فكيف يكون عدلاً من هو صاحب بدعة؟

وجوابه: أنّ البدعة على ضريين: فبدعة صغرى كملوّ التشيع، أو كالتشيع بلا غلو ولا تحرّف. فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع! فلو ردّ حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بيّنة. ثم بدعة كبرى كالرفض الكامل والغلوّ فيه، والحط على أبي بكر وعمر....، ولم يكن أبان يعرض للشيوخين أصلاً بل قد يعتقد علياً أفضل منهما. (ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٥، سير أعلام النبلاء: ج ١ ص ٥٩).

٤. ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٥، وراجع سير أعلام النبلاء: ج ١ ص ٥٩.

٥. راجع تهذيب التهذيب: ج ٣ ص ١٠١، وميزان الاعتدال: ج ١ ص ٦٤٠.

٦. المصدران السابقان.

٧. ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٣٥٨، الكشف الحثيث لسبط ابن العجمي: ص ٨٠.

❖ وجعفر بن سليمان يقول فيه ابن عدي: «أرجو أنه لا بأس به»^١، في حين أن أحمد بن حنبل عندما يقال له: إن سليمان بن حرب يقول: لا تكتبوا حديث جعفر بن سليمان، يرد أحمد: «لم يكن ينهى عنه، إنما كان جعفر يتشيع»^٢ فبيّن سبب ظلم سليمان له.

❖ ولقد تجد الراوية يقول بالرجعة، فيضعفه يحيى بن معين، أستاذ الجرح والتعديل، وزميل أحمد بن حنبل، لكنك تجد عبد الرزاق بن همام يقول بالرجعة^٣، ومع ذلك يروي عنه: الأعمش، وسفيان، وشعبة، وابن حنبل، ويحيى نفسه، وسفيان بن عيينة؛ شيخ المحذّثين بمكة وأستاذ الشافعي^٤، وأحمد بن حنبل صاحب المسند الأعظم^٥.

❖ أو تجد زبيد بن الحارث^٦، يقول فيه الجوزجاني: كان ممن لا يحمد الناس مذاهبيهم. ويضيف: احتملهم الناس لصدق أسنتهم في الحديث^٧. لذلك يحتجّ به أصحاب الصحاح

١. شرح معاني الآثار لأحمد بن محمد بن سلمة: ج ١ ص ٤٧، ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٤٠٨ و ٤٠٩ ولكن ابن عدي في عبارته هذه إنما ينقل قول أحمد بن حنبل.

٢. الجرح والتعديل للرازي: ج ٢ ص ٤٨١، الكامل لعبد الله بن عدي: ج ٢ ص ١٤٥، تهذيب الكمال للمزي: ج ٥ ص ٤٦، ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٤٠٩، تهذيب التهذيب: ج ٢ ص ٨١.

٣. وهذه آراء الرجالين في تشييعه: قال الذهبي: عبد الرزاق بن همام بن نافع، الحافظ الكبير، عالم اليمن، أبو بكر الحميري الصنعاني، الثقة الشيعي. (سير أعلام النبلاء: ج ٩ ص ٥٦٣ الرقم ٢٢٠) وقال العجلي: كان يتشيع. (تاريخ الثقات: ص ٣٠٢ الرقم ١٠٠٠) وقال ابن عدي: إلا أنهم نسبوه إلى التشيع.. (الكامل: ج ٥ ص ١٩٥٢). وعده الشيخ الطوسي في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام (رجال الشيخ الطوسي: ص ٢٦٥ الرقم ٢٨٠٥).

٤. راجع في ذلك تهذيب الكمال: ج ١٨ ص ٥٢-٥٦.

٥. ولعل العلة في ذلك أن ابن حنبل لم يكن يرى عبد الرزاق شيعياً.

يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي، قلت: عبد الرزاق كان يتشيع ويفرط في التشيع؟ فقال: أما أنا فلم أسمع منه في هذا شيئاً، ولكن كان رجلاً تعجبه أخبار الناس. (علل أحمد: ج ١ ص ٢٣٣).

٦. قال الذهبي: زبيد بن الحارث الياامي الكوفي، الحافظ، أحد الأعلام (سير أعلام النبلاء: ج ٥ ص ٢٩٦ الرقم ١٤١) ومن ثقات التابعين. (ميزان الاعتدال: ج ٢ ص ٦٦ الرقم ٢٨٢٩) وقال عمرو بن علي عن يحيى بن معين: ثبت (الجرح والتعديل: ج ٣ ص ٦٢٣ الرقم ٢٨١٨) وقال إسحاق بن منصور عن يحيى بن معين، وأبو حاتم، والنسائي: ثقة. (تهذيب الكمال: ج ٧ ص ٢٩١، الطبقات الكبرى: ج ٦ ص ٣١٠) وقال ابن حجر: ثقة، ثبت، عابد. (تقريب التهذيب: ج ١ ص ٢٥٧). وقال الذهبي: فيه تشيع يسير. (ميزان الاعتدال: ج ٢ ص ٦٦ الرقم ٢٨٢٩). روي له في الكتب الستة. (تهذيب الكمال: ج ٩ ص ٢٨٩ الرقم ١٢٥٧).

٧. ميزان الاعتدال للذهبي: ج ٢ ص ٦٦، وعنه نهج السعادة: ج ٥ ص ٥٤، المراجعات: ص ١٧٠ و ١٦١ و ص ١٣٢ و ص ١٢٥، ونص عبارة الذهبي: «وقال أبو إسحاق الجوزجاني كعوائده في فظاظة عبارته: كان من

وأرباب السنن^١، وكمثلهم: الشعبي وإبراهيم بن يزيد النخعي.
 والحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب^٢ يقول في الجوزجاني: «وأما الجوزجاني فلا
 عبرة بحطه على الكوفيين، فالتشيع في عرف الأقدمين هو...^٣ أنّ علياً كان مصيباً في
 حروبه، وأنّ مخالفه مخطئ، مع عدم تقديم الشيخين^٤. وربما اعتقد بعضهم أنّ علياً أفضل
 الخلق بعد رسول الله، وإذا كان معتقد ذلك ورعاً ديناً، صادقاً، مجتهداً، فلا تردّ روايته». وهذا هو الذي جعل روايات الرواة الذين ذكرناهم وأمثالهم، تتردّد في كتب الصحاح والسنن.
 هكذا كان انقسام الأمة تقمّة على العلم، وكان الوقوف على أبواب السلاطين تقمّة أخرى،
 والوسائل طيّعة، من ترهيب وترغيب وبثّ للعيون والأرصاد، وبخاصّة على الشيعة، ممّا
 أورث هؤلاء العمل بالتيّة، والتيّة أو الحذر يوجب الانطواء أو التباعد.
 وفي عصر الخلافة العباسية كان «مذهب السلطان» مذهب أبي حنيفة في المشرق،
 ومذهب مالك بإفريقية في المغرب، في حين كانت المعتزلة تترعّم التجديد وتلتصق
 بالخلفاء. وكان الشافعية - كإمامهم - أساتيد جدل، وكمثلهم كان أهل الظاهر أتباع داود^٥،
 وقد بدأ شافعيّاً. وأما المحذّون فقد كانوا يمثّلون السلف والدفاع عن السنّة. وكانت خلاقات
 المتفكّهة سمة العصر، ومثلهم المالكية.

→ أهل الكوفة قوم لا يحمد الناس مذاهبهم، هم رؤوس محدثي الكوفة، مثل أبي إسحاق، ومنصور، وزيد
 اليامي، والأعمش وغيرهم من أقرانهم، احتملهم الناس لصدق أسنتهم في الحديث، وتوقّفوا عندما أرسلوا». ١.
 راجع في ذلك تهذيب الكمال: ج ٩ ص ٢٨٩ الرقم ١٩٥٧، فقد أسرد الرواة عنه وعمّن روى في الكتب السنّة
 والمسانيد. وانظر أيضاً: صحيح البخاري: ج ١ ص ١٧ كتاب الايمان، صحيح مسلم: ج ٣ ص ١٥٥٣ كتاب
 الاضاحي، سنن أبي داود: ج ٣ ص ٤٠ كتاب الجهاد، الحديث ٢٦٢٥، سنن النسائي: ج ٧ ص ١٢٢ كتاب تحريم
 الدم، باب قتال المسلم، سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٥٠٤ ح ١٥٨٤.

٢. تهذيب التهذيب لابن حجر: ج ١ ص ٨١.

٣. محل الفراغ هو: «اعتقاد تفضيل علي على عثمان و...».

٤. «وتفضيلهما».

٥. هو داود بن علي بن خلف الإصبهاني، الملقّب بالظاهري، أحد الائمة المجتهدين في الإسلام. تنسب إليه
 الطائفة الظاهرية. وسُمّيت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنّة، وإعراضها عن التأويل والرأي والقياس، وكان
 داود أول من جهر بهذا القول. ولد في الكوفة سنة ٢٠١ هـ، وسكن بغداد، وانتهت إليه رئاسة العلم فيها، قال ابن
 خلكان: كان يحضر مجلسه كلّ يوم أربعمائة صاحب طيلسان أخضر. وقال ثعلب: كان عقل داود اكبر من علمه.
 وله تصانيف عديدة، توفي في بغداد سنة ٢٧٠ هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ٣٣٣).

وفي القرن الرابع الهجري جاب المقدسي^١ (٣٨٠) العالم الإسلامي، فذكر: «أنَّ أهل الأندلس كانوا إذا وقعوا على معتزلي أو شيعي قتلوه!» ثم وصف تناحر الوسط العلمي في عصره بعبارات حادة، قال: «قلَّما رأيت في بغداد من فقهاء أبي حنيفة إلا رأيت أربعاً: الرياسة مع لباقة فيها، والحفظ، والخشية، والورع. وفي أصحاب مالك أربعاً: النقل، والبلادة، والديانة، والسنة. وفي أصحاب الشافعي: النظر، والشغب، والمروءة، والحمق. وفي أصحاب داود: الكبر، والحدَّة، والكلام، واليسار. وفي الشيعة: البغضة، والفتنة، واليسار، والوصيت».

أمَّا الصفتان الأوليان اللتان يصف بهما الشيعة فمردهما إلى التمسك بمقدساتهم وعلومهم في مواجهة المتعصبين الذين لا يكفون عن التناؤش معهم من قريب أو بعيد. وأمَّا الصيت، فأَيَّ صيت في الأمة أبعد من صيت أهل البيت أو محبيهم؟! وأمَّا اليسار فمرده إلى فتوح الله عليهم بالعلم الذي طالما علّمهم الإمام جعفر الصادق، في منهج كامل في الاقتصاد، سنعرض له فيما بعد.

١. محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء، المقدسي؛ أبو عبد الله، رحالة جغرافي، ولد في القدس، وتعاطى التجارة، فتجسّم أسفاراً هيأت له المعرفة بغوامض أحوال البلاد، ثم انقطع إلى تتبع ذلك، فطاف أكثر بلاد الإسلام، وصنّف كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» قال المستشرق غلدمسيتير: امتاز المقدسي عن سائر علماء البلدان بكثرة ملاحظاته وسعة نظره. وقال سيزنغر: لم يتجول سائح في البلاد كما تجول المقدسي، ولم ينتبه أحد أو يحسن ترتيب ما علم به مثله. ولد سنة ٣٣٦هـ، وتوفي سنة ٣٨٠هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ٣١٢).

الفصل الثاني

الدرس الكبير

« لكل نبي وصي ووارث، وإن وصي
ووارثي علي بن أبي طالب »^١.

(حديث شريف)

أحدث انقسام الأمة بفعل بني أمية أثره في الفقه، وليس كلام بعض المسلمين في أفراد

١. بحار الأنوار: ج ٣٨ ص ١٤٧ و ١٥٤ و ٣٣٩، العمدة: ص ١٢١، كتاب الأربعين للماحوزي: ص ١٩٢، المناقب لابن المغازلي: ص ٢٠١ رقم ٢٣٨، ترجمة الامام علي من تاريخ دمشق لابن عساكر: ج ٣ ص ٥ ح ١٠٢١ و ١٠٢٢، المناقب للخوارزمي الحنفي ص ٤٢، ذخائر العقبين: ص ٧١، ميزان الاعتدال للذهبي: ج ٢ ص ٢٧٣ في ترجمة شريك، وقال عن رواية محمد بن حميد الرازي: ليس بشقة مع أنه قد وثقه أحمد بن حنبل، وأبو القاسم البغوي والطبري وابن معين وغيرهم. ونقل هذا الحديث عن السيوطي في اللآلئ وعن الحاكم. ينابيع المودة للقندوزي الحنفي: ج ٢ ص ١٦١ و ٢٧٩ و ٢٣٢، كفاية الطالب للكنجي الشافعي: ص ٦٢٠، شرح الهاشميات للرافعي: ص ٢٩، الرياض النضرة للمحب الطبري الشافعي: ج ٢ ص ٢٣٤، كنوز الحقائق للمناوي الشافعي: ص ١٣٠، إحقاق الحق: ج ٤ ص ٧٢، الكامل لعبد الله بن عدي: ج ٤ ص ١٤، تاريخ مدينة دمشق: ج ٤٢ ص ٣٩٢، فردوس الأخبار للدليمي: ج ٣ ص ٣٨٢، جواهر المطالب في مناقب الإمام علي لابن الدمشقي: ج ١ ص ١٠٧، وقال: خرّجه البغوي في معجمه. سمط النجوم: ج ٢ ص ٤٨٧، كشف اليقين للعلامة الحلبي: ص ٢٦٢، نهج الإيمان لابن جبر: ص ١٩٨، مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب خرّجها عن السمعاني في الفضائل: ج ٢ ص ٣٥ و ص ٢٦٤، الروضة في المعجزات والفضائل: ص ١٢٢، معجم رجال الحديث للسيد الخوثي: ج ١٠ ص ٢٧، كتاب الأربعين لمحمد طاهر القمي الشيرازي: ص ٤٧، الصراط المستقيم لعلي بن يونس العاملي: ج ١ ص ٣٢٦، الطرائف لابن طاوس: ص ٢٣، السقيفة لمحمد رضا المظفر: ص ٦٣ ويقول فيه: ويعلم من هذا بصرحة أنها وصية نبوة لا وصاية اعتيادية، ووراثه نبوة على نسق الوصاية لا وراثه مال أو عقار، فإن علياً ابن عمه، وابن العم لا يرث مع البنت، ولا معنى لوراثه النبي لأنه نبي غير أن يكون بمنزلته في الولاية العامة، ووجوب السمع والطاعة.

من الصحابة إلا أثر من آثار هذا الانقسام. ومن الطبيعي ألا تمتنع الألسنة عما لم تمتنع عنه الأسلحة، وأن تستمرّ معارك الكلام وإن توقّفت رحى الحرب.

شقّ أهل الشام عصا الطاعة لأمر المؤمنين منذ استخلف، وانتهت يوم «وقعة الجمل» فتنة عمياء، فيومئذ قال محمد بن الحنفية وهو يحمل الراية: هذه والله الفتنة الكاملة العمياء. وناداه أمير المؤمنين: «هل عندك في جيش، مقدمه أبوك، شيء؟!».

ونفر البطل للقاء أهل الشام في صفّين، ورفع جيش معاوية المصاحف، ثم كانت خدعة التحكيم وخروج الخوارج وهزيمتهم، لكنهم ظلّوا يمثلون التعصّب العميق لفكرٍ لم يتمرس بالسياسة وتبعات القيادة وحقن الدماء، فلاموا علياً لقبوله التحكيم مع معاوية^١. وعندئذ لم يوالوا علياً ولا من والاه، لكنّ الدولة لم تؤل إليهم، ولهذا قلّ أثرهم في الاتجاه العام للأمة. وإنّما الذي أحدث أثره العظيم في الأمة خلاف معاوية، إذ ولي الحكم وألزم ولايته بالظن في علي^٢، والتنكيل بمن والاه. ونظرت العامة إلى مصلحتها العاجلة في توقّي الشرور من السلطة، ونظر المتفقّهون - ومعهم جمهور الأمة - بفقهِ طابعه الشمول، أنزل الخلفاء الراشدين الأربعة منازلهم، وسبحت ثلّة منهم بزوارق السلطة خوفاً أو طمعاً، ورأى البعض إرجاء إبداء الآراء، وبطش بنو أمية جيّارين، فقلّ عدد الشيعة أو توارى بعضهم تقيّةً، كما قلّ اتّصال أهل

١. كفروا علياً لقبوله التحكيم، ورأوا أنّ الخلافة لا بدّ لها من بيعة الجمهور، وأنّها لا تنحصر في بيت معيّن، وبرزوا من علي وعثمان ومعاوية. الأول لقبوله التحكيم، والثاني لمخالفة سياسة الشيخين أبي بكر وعمر، والثالث لاستيلائه على الأمر بالقوة.... يأخذون بظاهر العبارة من القرآن، ولا يأخذون من السنّة إلا ما يرويه من يتولّونهم، وعمدتهم في ذلك الأحاديث المروية على عهد الشيخين، وكلّ من تعدّى حدود الله عندهم فاسق، ولذلك عدّوا أشياع معاوية والذين لم يترنّوا من علي وعثمان - وهؤلاء جمهور الأمة - خارجين على الإسلام! واستحلّوا مالهم وقتلوا وبهذا نفر الناس منهم. (منه).

٢. قال سليم بن قيس في كتابه: ص ٣١٤: «وكان معاوية يومئذ بالمدينة، فعند ذلك نادى مناديه، وكتب بذلك نسخة إلى جميع البلدان إلى عماله: ألا برئت الذمّة ممّن روى حديثاً في مناقب علي بن أبي طالب أو فضائل أهل بيته، وقد أحلّ بنفسه العقوبة! وقامت الخطباء في كلّ كورة ومكان، وعلى كلّ المنابر، بلعن علي بن أبي طالب عليه السلام والبراءة منه، والوقية فيه، وفي أهل بيته عليه السلام بما ليس فيهم، واللّعن لهم».

ونقل مثل هذا المعنى: الطبرسي في الاحتجاج: ج ٢ ص ١٧، وابن شهر آشوب في المناقب: ج ٢ ص ١٧٤، وعلي بن يونس العاملي في الصراط المستقيم: ج ١ ص ١٥١، والمجلسي في بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ١٧٦ و ص ١٩١، وابن أبي الحديد في شرح النهج: ج ١١ ص ٤٤، ومحمد بن عقيل في النصائح الكافية: ص ٩٧، ولطف الله الصافي في مجموعة الرسائل: ج ٢ ص ١٨، ومحمد بيومي في السيدة فاطمة الزهراء: ص ٨٨ و ٨٩.

البيت بالعامية وفقهاء الجمهور، واستمسك الشيعة بفقههم وروايات الأحاديث من أئمتهم أو عن أئمتهم.

ولما قتل معاوية حجر بن عدي^١، لغضب الصحابي الجليل من القدح في أهل البيت، كان معاوية يقتل استقلال الآراء عن السلطة! ثم كانت البطشة الكبرى بأهل البيت في كربلاء (سنة ٦١)، متابعاً من يزيد لأبيه في حماية «العرش» الأموي بغير حساب، ثم صفت وقعة الحرة (٦٣) جيل الصحابة من المهاجرين والأنصار.

وفصلت حروب المختار بن عبيد بين أشياع السلطة وبين علي من جديد، ولم تكن حرب ابن الزبير مع أهل الكوفة، ولا حربهم لبني مروان، إلا أسباباً جديدة لانكماش الشيعة، والحجّاج - والي عبد الملك بن مروان - مصلت سيفه، وكمثله الولاة بعده.

في أخريات هذا العهد كان زين العابدين قد ملأ الأفق بورعه وعلمه وسخائه حتى مات، وبرز نجم الباقر في سماء المدينة، وأعقبه الصادق، ليبدأ إمامة مهّد لها أبوه، ومكّن لهم أن ينشروا العلم: الانصراف عن السياسة أو المطالبة بالحكم، فأشرق الفجر الجديد.

لكن خروج زيد بن علي، ثم هجوم الخوارج على المدينة، ثم هزيمتهم، ثم هزيمة بني مروان أمام العباسيين، ثم فتكات العباسيين بأبناء علي، وقد تضاءلت بالنسبة لها صعقات الأمويين، كل أولئك زاد القطيعة بين أصحاب السلطة وبين أهل البيت، والانطواء من الشيعة على أنفسهم، والانفصال بين معظم الرواة من أهل السنة وبينهم.

فأرأينا عامر بن شراحبيل الشعبي (١٠٤) شيخ المحدثين في العراق، وقاضي بني مروان، يقول: «ماذا لقينا من آل علي؟ إذا أحببناهم قُتلنا، وإن عاديناهم دخلنا النار»^٢.

ومن كثرة ما عمل للخفاء، صار درياً على معاملة الأمراء: سأله الحجّاج كم عطاءك؟

١. وهو حجر بن عدي بن جبلة الكندي، ويسمى حجر الخير، صحابي، شجاع، من المقدمين، وفد على رسول الله ﷺ وشهد القادسية، ثم كان من أصحاب علي، وشهد معه وقعتي الجمل وصفين، وسكن الكوفة إلى أن قدم زياد بن أبي سفيان والياً عليها، فدعا به زياد، فجاءه، فحذره زياد من الخروج على بني أمية، فمالبت أن عرفت عنه الدعوة التي مناوأتهم والاشتغال في السر بالقيام عليهم، فجيء به إلى دمشق، فأمر معاوية بقتله في مرج عذراء سنة ٥١ هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ١٦٩).

٢. الكلمة كما ينقلها أحمد الرحمانى الهمداني في كتابه الإمام علي عليه السلام: ص ٥٧٨: «ماذا لقينا من علي عليه السلام؟! إن أحببناه ذهب ديانا، وإن أبغضناه ذهب ديننا». وأيضاً في «ظلامه علماء الشيعة» لمركز المصطفى: ص ٢، وأيضاً في «اتهامات العامة للشيعة» لمركز المصطفى: ص ٨٠.

قال: ألفين، فاستدرك الحجاج وقال: ويحك كم عطاؤك؟ قال: ألفان، قال: لِمَ لحننت؟ قال: لَمَّا لحن الأمير لحننت، ولَمَّا أعرب أعربت..

وسمعنا الحسن البصري (١١٠) الجسور، إذ يروي عن علي، يقول: «قال أبو زينب»^١. ولَمَّا سأله ابن عيَّاش^٢: ما هذا الذي يقال عنك إنك قلت في علي؟ أجاب: «يا ابن أخي، احقن دمي من هؤلاء الجبابرة، لولا ذلك لسالت بي أعشب»^٣.

ولَمَّا تقطعت بين الشيعة وغيرهم الأسباب، اضمحلَّت أو قلت المشاركة العلمية، وصار هنالك عالمان فقيهان متعاطعان.



ولم يكن غريباً في هذه القطيعة أن تقلَّ رواية أهل السنَّة عن أهل البيت، أو أن نرى مالك بن أنس - في المدينة ذاتها - يُسأل^٤ عن سبب ندرة الرواية منه عن علي وابن عباس، فيجيب: «لم يكونا ببلدي»^٥ يقصد: أن علياً كان بالكوفة، وابن عباس بمكَّة، أو نراه يقتصر، فيما يرويه عن الإمام الصادق، على أحاديث قليلة جداً في الموطأ، وفيه نحو من ألف حديث^٦.

١. المسترشد لابن جرير الطبري: ص ٦٧٦، الأمالي للسيد المرتضى: ج ١ ص ١١٢، مناقب آل أبي طالب: ج ٢ ص ١٧٤، الصراط المستقيم: ج ١ ص ١٥١، بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ٣٨ و ص ١٤٤، وضوء النبي: ج ١ ص ٢٨٠.
٢. هو اسماعيل بن عياش بن سليم العنسي: أبو عتبة، عالم الشام ومحدثها في عصره، من أهل حمص، رحل الى العراق، وولاه المنصور خزانة الكسوة، وكان محتشماً نبيلاً جواداً، ولد سنة ١٠٦، وتوفي سنة ١٨٢ هـ. (الأعلام: ج ١ ص ٣٢٠).

٣. كتاب سليم بن قيس تحقيق محمد باقر الانصاري: ص ١٦٨، ولكن بقوله: «لولا ذلك لسالت بي الخشب». أيضاً في: شرح نهج البلاغة: ج ٤ ص ٩٦، والمناظرات في الامامة للشيخ عبد الله الحسن: ص ١٣٣.
٤. السائل هو الرشيد العباسي.

٥. وتكلمتها: «ولم ألق رجالهما» انظر تنوير الحوالك لجلال الدين السيوطي: ص ٧.
٦. من أدلَّة وحدة العلم أو التقارب فيه حديث، من هذه القلَّة، هو حديث اليمين مع الشاهد. وهي مسألة أريق فيها مداد كثير لفقهاء أهل السنَّة. جاء في الموطأ رواية محمد بن الحسن: أخبرنا مالك، أخبرنا جعفر بن محمد، عن أبيه: أن النبي صلى الله عليه وآله قضى باليمين مع الشاهد.

قال محمد بن الحسن: ذكر ذلك ابن أبي ذئب، عن ابن شهاب، قال: سألت عن اليمين مع الشاهد، فقال: بدعة، وأول من قضى فيها معاوية. وابن شهاب أعلم عند أهل المدينة بالحديث من غيره. وكذلك ذكر ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح قال: كان القضاء الأول: لا يقبل إلا شاهدان، وأول من قضى باليمين مع الشاهد عبد الملك بن

ولمّا قال البخاري - بعد أكثر من مائة عام من قيام الدولة العباسية - عن صحيحه: «ما وضعت فيه إلا الصحيح، وما تركت من الصحاح أكثر»، كان في هذا القول دلالة على الاحتياط العلمي، وعلى أن أحاديث صحاحاً قد أُغفلت، وأنها أكثر ممّا تضمّن كتابه من الصحيح. ولعلّه بهذا يقصد، - فيما يقصد - أحاديث «علي» وأهل البيت فيما تركه من صحاح، فهو لم يرو أحاديث أهل البيت، في حين احتجّ بها الجميع^١، وورد الكثير منها في سائر الصحاح والمسانيد^٢.

→ مروان ...

وهذا الحديث وارد في سنن الترمذي وابن ماجه، ورواه عن ابن عباس مسلم وأبو داود والنسائي ومسنده أحمد، والصحاح الخمسة تذكره موصولاً، وتعمل به المدينة ومكة، وقد ذكر ابن الجوزي أن رواة الحديث يزيدون عن عشرين صحابياً. والمذاهب الثلاثة تعمل به، وأبو حنيفة لا يعمل به. (منه).

١. والشافعي الذي يرى زين العابدين أعلم أهل المدينة، يقول في دفاعه العلمي المجيد عن حجّة خبير الواحد في «الرسالة»: «وفي تشييت خبير الواحد أحاديث يكفي بعض هذا منها ...، ولم يزل سبيل سلفنا والقرون بعدهم إلى من شاهدنا هذا السبيل ...، ووجدنا علي بن الحسين (يقصد زين العابدين) يقول: أخيرنا عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد: أن النبي قال: «لا يرث المسلم الكافر» فثبّتها سنّة، ويثبّتها الناس بخبره سنّة. ووجدنا كذلك محمد بن علي بن حسين (يقصد الباقر) يخبر عن جابر عن النبي، وعن عبد الله ابن أبي رافع عن أبي هريرة، فيثبّت كلّ ذلك سنّة. ووجدنا محمد بن جبير بن مطعم، ونافع ابن جبير بن مطعم، ويزيد بن طلحة بن ركانة، ومحمد بن طلحة بن ركانة، ونافع بن هجير بن عبد يزيد، وأبا سلمة بن عبد الرحمان، وحميد بن عبد الرحمان، وطلحة بن عبد الله بن عوف، وإبراهيم بن عبد الرحمان بن عوف، وخارجة بن زيد بن ثابت. وعبد الرحمان بن كعب بن مالك، وعبد الله بن أبي قتادة، وسليمان بن يسار، وعطاء بن يسار، وغيرهم من محدّثي أهل المدينة، كلّهم يقول: حدّثني فلان لرجل من أصحاب النبي عن النبي، أو من التابعين عن رجال من أصحاب النبي، فيثبّت ذلك سنّة».

وإنك لتلاحظ أن الشافعي يستند إلى رواية زين العابدين والباقر، فيضع زين العابدين في مقام خاصّ به، هو الأول، ويضع ابنه الباقر في المقام التالي لأبيه، ثم يجيء بالأبناء العلماء، للصحابة العظماء، وراء هذين المقامين، ويجيء بهم مجموعين، ثم يجيء بفضل التابعين بعد هؤلاء جماعات. (منه).

٢. روى أحمد بن حنبل أحاديث أهل البيت في مسنده الأعظم، وروى كذلك: مسلم بن الحجاج (٢٦١) وسليمان بن الأشعث السجستاني؛ أبو داود (٢٧٥) ومحمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩) ومحمد بن يزيد ابن ماجه (٢٧٩) والنسائي أحمد بن علي بن شعيب (٣٠٣) بقية أصحاب الصحاح كما يسمّيها أهل السنّة.

والنسائي من شهداء الوفاء لعلي: خرج من مصر إلى الشام، فسألوه عن فضائل معاوية - إذ كان قد آلف في فضائل علي - وقيل: إنّه أجاب: ألا ترضى رأساً برأس حتى تفضّل؟ أو قال: لا أعلم له فضيلة، فما زالوا يدفعونه في خصيته حتى أخرجوه من المسجد وقد أشرف على الموت، فقال: احمولوني إلى مكة، فحُمِل إليها حيث توفي.

(منه).

ومع أنّ الحرب الكلامية، والافتراءات الموجهة للرواة كانت ضروساً، فقد وثق الأئمة الفقهاء والمحدّثون - أعظم التوثيق - الإمام جعفر الصادق، وشرفوا بالرواية عنه. ووقفت المذاهب الأربعة موقف الإجلال له، فكان ذلك إعلاناً من أهل العلم أنّ أئمة أهل البيت للجميع، لا للشيعة وحدهم، وأنّ الحديث متى ثبت عنهم هو حديث جدّهم ﷺ.

كان يوسف بن أبي يوسف^١ يروي عن أبيه، عن أبي حنيفة، عن «جعفر بن محمد» عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر حديث رسول الله. وفي الوقت ذاته يروي عن أبيه، عن أبي حنيفة، عن إسحاق بن ثابت، عن أبيه، عن علي بن الحسين حديث رسول الله، مع أنّ علي بن الحسين (زين العابدين) لم ير جدّه^٢، واللقاء من شروط البخاري. ويروي يوسف عن أبيه، عن أبي حنيفة، عن «جعفر بن محمد» حديث رسول الله، مع أنّ الصادق حفيد زين العابدين. فهذا أبو حنيفة ومن روى عنهم - كمثل مالك وغيره - يروون عن أئمة أهل البيت، ويأخذون بحديثهم عن رسول الله، مع أنّهم لم يلقوه، أو لم يكن بينهم وبين الرسول صحابي. والكتب التي يقوم عليها الفقه الشيعي تروي كلّها عن الإمام جعفر الصادق أو الأئمة المعصومين، يستوي في ذلك الكتب الأربعة الشهيرة وغيرها.

في هذه الأضواء نستطيع أن نفهم انقسام العلم بانقسام مصادره، وانحسار هذا البحر من بحاره عن الجمهور، باقتصاره على الشيعة. ولا جرم كانت فيه كفاية لإنتاج دقّ الفقه وجلّه، بما فيه عن غزارة، وباعتماده على النقل والعقل معاً. وبإقبال الشيعة - شأن الأقليات جميعها - على تعميق علومها، وتقوية شعوبها، وساعدهم انفتاح الفكر واجتهاد الرأي في تطهير وسطهم العلمي والاجتماعي ممّن ينتسبون، أو ينسبهم الخصوم إليهم، من الغلاة في علي بن

١. هو يوسف بن أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي، كان قد نظر في الرأي وفقه، وسمع الحديث من يونس بن أبي إسحاق السبعي، والسري بن يحيى، ونحوهما.... وولي القضاء بالجانب الغربي من بغداد في حياة أبيه، وصلّى بالناس الجمعة في مدينة المنصور بأمر هارون الرشيد، ولم يزل على القضاء ببغداد إلى حين وفاته. (تاريخ بغداد: ج ١٤ ص ٢٩٨).

٢. ذهب الشيعة إلى أنّ علي بن الحسين عليه السلام ولد في حياة جدّه أمير المؤمنين سنة (٣٨ هـ) أي: قبل استشهاد جدّه بثلاث سنوات. انظر الكافي: ج ١ ص ٤٦٦، شرح أصول الكافي: ج ٧ ص ٢٢٦، بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ٨. وكذا ينقل عن التذكرة في بحار الأنوار: ج ٩٥ ص ١٩٣، وذهب ابن عساكر في تاريخ دمشق: ج ٤١ ص ٣٦١ إلى أنّه ولد سنة ٣٣ هـ، وإليه ذهب ابن حجر في تهذيب التهذيب: ج ٧ ص ٢٧٠، فيكون عمره يوم وفاة جدّه ٧ أو ٨ سنوات.

أبي طالب^١، ثم تمييز علمهم من علم المخالفين الذين يتولون غير الإمام جعفر وغير أبيه ؛ كالزيدية^٢.

١. كان وجود غلاة في الشيعة فرصة للمغرضين، إذ نسبوا عمل الغلاة إلى الشيعة كلهم، فأحدثوا بذلك أثراً كاذباً في أفهام الآخرين، بدعوي هم منها براء، مثل أن الإمام هو الله ظهوراً واتحاداً؛ وهو غلوّ يبلغ الكفر، وأكثر المنسوين للشيعة غلوّاً أتباع ابن سبأ وأبي الخطاب الأسدي الذين يؤلهون علياً والأئمة، وهؤلاء ليسوا مسلمين. ولقد حرق علي بالنار من أهوه، وتبرأ الصادق من أبي الخطاب الأسدي، وقتله جند أبي جعفر. وكان ابن سبأ يهودياً من صنعاء، أسلم وانطلق إلى الحجاز والبصرة والشام ومصر، والمؤرخون الأوّلون كالطبري (٢١٠) والمؤرخان الشعيان أبو خلف القمي (٣٠١) والنوبختي (٣١٠) يؤكّدون وجوده، في حين يشكك في وجوده آخرون معن جاءوا بعد ذلك.

كان ابن سبأ يحرض أبناء العشائر ضدّ عثمان، قائلاً: إن لعلي مكاناً فوق الصحابة، بل فوق سائر الخلق، ولما قُتل علي قال: إنّه سيرجع، وقد نفاه علي إلى المدائن إذ كان يقول له: «أنت أنت» ثم صار يقول: «عجياً من الذين يكذبون رجوع محمد، في حين يقولون: إن عيسى يرجع» ويقول: «إن محمداً خاتم النبيين، وعلياً خاتم الأوصياء» ويقول: «إن عثمان ولي الخلافة بغير حق».

وقال البعض: إن ابن سبأ دفع أبا ذر ليقول ما قال لعثمان، ولا شك أن ابن سبأ أقل من أن يرتفع إلى مستوى تحريض أبي ذر، وأن نسبة أثار ضخمة جداً لأرجيف ابن سبأ في محيط صغير جداً وزمان قصير جداً، ليس إلا وجه من تعليق الأوزار التي ارتكبتها أجيال أفرخت فيها الفتن، على عاتق رجل لا قيمة له، والكثيرون من المؤرخين على أن ابن سبأ لم يلق أبا ذر.

وتعليق الأوزار هروب، وهو عيب قديم في المجتمعات التي تفقد صدق الرؤية، فتبرئ نفسها - ظلماً - من عيوبها، فتلقها على الآخرين، وهو أياً كانت الحال غلوّ في تضخيم شأن ابن سبأ وأشباهه لتبقيش الشيعة إلى الآخرين، ولقد طالما أحدث هذا التبقيش من قوم لا يعلمون الحقائق آثاره في نفس قوم مخلصين، وفي ظلمات هذه الجهالات يتوارث المسلمون قرّة، يفرضها عليهم من يفيدون لأنفسهم ومن يجهلون. (منه).

٢. الزيدية: أتباع زيد بن علي زين العابدين أخي الباقر، قالوا: إنّه فوّض في الإمامة قبل أن يستشهد إلى محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية).

وكان زيد يجيز إمامة المفضول مع وجود الأفضل لمصلحة يراها المسلمون، ولهذا أجاز خلافة أبي بكر وعمر، فرفضه شيعة العراق فسّموا رافضة، ومنذئذ أطلق على الشيعة الإمامية اسم الرافضة. وقيل: سمّوا الرافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر. والأول رأي الشهرستاني، والأخير رأي أبي الحسن الأشعري. والشهرستاني من الشيعة، والأشعري من أهل السنة.

وزيد يقول: إن الأدلة اقتضت تعيين علي إماماً بالوصف لا بالشخص، ويقول: إن الشيوخ يختارون «الأفضل» من أولاد علي من فاطمة عموماً بالاجتهاد.

ومن شروط الزيدية أن يجتهد أئمتهم، ولذلك كثر فيهم الأئمة المجتهدون، ومن شروطهم أن يخرج الإمام داعياً لنفسه، وعلى هذا الشرط جادل الباقر أخاه زيدا بقوله: «على قضية مذهبك والدك ليس بإمام، فإنّه لم يخرج

أو من علم الذين يتولون غيره وغير أبيه وجده؛ كالكيسانية^١.
يقول الشيخ المفيد في غلاة الشيعة: «وهم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليه السلام إلى الألوهية والنبوة، ووصفوه^٢ في الدين والدنيا بما تجاوزوا فيه الحد، وخرجوا عن القصد، فهم ضلال وكفار»^٣.
والإمامية لا يجيزون القدر في الصحابة^٤. فإذا وجد قادحون منهم فأراؤهم فردية، في أفراد من الصحابة، يبيدها المتطرفون، وأشباهم موجودون في أهل السنة، ممن قدحوا في

→ قَطْ، ولا تعرّض للخروج». ومن الزيدية: «اليعقوبية» يقولون بولاية أبي بكر وعمر، ولا يتبرّزون ممن يبرأ منهما، وينكرون رجعة الأموات. وبقيّة الزيدية تتوقّف في أمر الرجعة، لا يقولون بها ولا ينكرونها.
وظهرت في المذهب الزيدي مذاهب، منها: الهادوي، والقاسمي، والناصر، والهاروني، التي تخالف الأصل في فروع يسيرة، وتسير عليه في جملة الفروع. وتلتقي بمذاهب أهل السنة، وبخاصة المذهب الهادوي الذي أسسه إمام اليمن الإمام الهادي (يحيى بن الحسن بن إبراهيم بن القاسم) صاحب صعدة (٢٨٠ - ٢٨٩) وكان أئمة المذهب الهادوي من عظم أتفاقهم مع المذهب الحنفي يرون الأخذ بالمذهب الحنفي إذ لم يسجدوا عن الإمام الهادي نصّاً في المسألة، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك فيأخذون بأرجح ما في المذاهب الأخرى!
والزيدية ترى أن كل من دعا لنفسه من أولاد علي من فاطمة الزهراء، وكان مستكمل الصفات، وجب أتباعه. وقد كتب لهم النجاح في اليمن وطبرستان إلى الجنوب من بحر قزوين، والعرب تسمي بحر قزوين بحر طبرستان، وقد ملك طبرستان الحسن بن زيد... بن الحسن بن علي سنة ٢٥٠ حتى سنة ٢٧٠. وكانت ثورة ابن طباطبا في بغداد في أيام المأمون زيدية. (منه).

١. الكيسانية يقولون بإمامة محمد بن الحنفية بعد وفاة أبيه، وإن الحسن والحسين إنما خرجا بإذنه. ومن الكيسانية أشياخ المختار بن عبيد الله الثقفي (٦٧).

ومنهم: الهاشمية، الذين يقولون: إن محمداً أفضى إلى ابنه أبي هاشم بالأسرار التي أفضى إليه بها أبوه. ولما مات أبو هاشم انقسمت فرقته فرقتين: واحدة تقول: إنّه أوصى لأخيه علي، وإن الوصية لا تخرج عنهم حتى «يرجع» محمد بن الحنفية! وواحدة تنقسم إلى فرقتين: منها فرقة تقول: إنّه أوصى إلى معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (وقد قتله أبو مسلم الخراساني). وفرقة تقول: إنّه أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. وهاتان فرقتان تخرجان الإمامة إلى غير أبناء علي، وتفسران أهل البيت تفسيراً يسع غير أبناء علي. (منه).

٢. هنا نقص عبارة «من الفضل» عن المصدر.

٣. تصحيح اعتقادات الامامية: ص ١٣١. وكذا بحار الأنوار: ج ٢٥ ص ٣٤٥، خاتمة المستدرک: ج ٥ ص ٢٣٤.

٤. الشيعة يقسمون الصحابة إلى عدة أنواع، نوعان يُترضى عنهما، والباقي لا يُحترمون، بل يلعنون كما ذمهم ولعنهم الله. فأما المدحوحان فهما: أهل البيت والمطيعون لله والنبي. وأما المذمومون فهم المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرتدون.

بطل الإسلام علي، وريحاتي النبي: الحسن والحسين.

والقدح «معصية» لا تُخرج من الإسلام.

ولا يعتبر معصية اجتهاد «مجتهد» تأوّل فأخطأ. وقد نظر علماء السنّة هذا النظر الأخير إلى خلافات المعتزكين من الصحابة في الجمل وصفين، فاعتبروها اجتهادات فيها الخطأ والصواب.

والإمام علي معلّم أول للأصول والفقه وأدب الدنيا والدين، يقول عن الخوارج الذين كفرّوه! وطلبوا إليه التوبة^١: «إخواننا بغوا علينا»^٢.

والإمامية يقولون: إنّ رسول الله ﷺ أوصى إلى اثني عشر إماماً بأسمائهم. كلّ منهم بيّن خلفه باسمه، إذ يكشفه الله له، أولهم علي الذي أوصى للحسن، وأوصى الحسن للحسين، وتتابعت لزين العابدين، ومنه للباقر الذي أوصى للصادق، وتتابعت الوصية من الصادق إلى ابنه موسى الكاظم (١٨٣)، فابن الكاظم علي الرضا (٢٠٣)، فابن الرضا محمد الجواد (٢٢٠)، فابن الجواد علي الهادي (٢٥٤)، فابن الهادي الحسن العسكري (٢٦٠)، فابن العسكري محمد المهدي المولود بسامرا سنة ٢٥٦، والمختفي بعد عام ٢٦٠، والمنتظر ظهوره ليملاً الدنيا عدلاً.

١. ويقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: «وكلّ من عاداه أو حاربه وأبغضه فإنه عدوّ الله سبحانه وتعالى، وخالد في النار مع الكفّار والمنافقين، إلّا من ثبتت توبته ومات على توبته وحبه، فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولّوا الإمامة قبله... رأيتاه رضي إمامتهم وبايعهم وصلّى خلفهم وأنكحهم وأكل فيهم... ألا ترى أنّه لمّا برئ من معاوية برئنا منه، ولمّا لعنه لعنناه، ولمّا حكم بضلال أهل الشام ومن كان بينهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وعبد الله ابنه حكمتنا أيضاً بضلالهم... والحاصل أنّنا لم نجعل بينه وبين النبي إلّا رتبة النسوة، وأعطيناه كلّ ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه، ولم نطعن في أكابر الصحابة الذين لم يصحّ عندنا أنّه طعن فيهم».

وقول ابن أبي الحديد منطقي في اتّباع علي. ومن المنطق كذلك ترتيب الآثار على بيعة الجمهور لخليفة جديد، هو أمير المؤمنين الحسن بن علي، ثم انعقاد الصلح بينه وبين معاوية في السنة الحادية والأربعين، فلا تسوغ معاملة أشياء معاوية معاملة المحاربين أو الخارجين على الإسلام، فلقد أصلح الله بالحسن بين هاتين الفتنين من المسلمين. (منه).

٢. راجع في ذلك المبسوط للرخسي: ج ٢ ص ٥٣ و ١٨١ و ج ١٠ ص ١٢٨، بدائع الصنائع لأبي بكر الكاساني: ج ١ ص ٣١٢، قرب الاستاد للحميري القمي: ص ٩٤، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٨٣، مستدرک الوسائل: ج ١١ ص ٦٨، الإفصاح للشيخ المفيد: ص ١١٨، الاحتجاج: ج ٢ ص ٤٠.

السنة

يروى الحارث الأعور: قلت: يا أمير المؤمنين، إذا كنا عندك سمعنا منك ما يشد ديننا، وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة ولا ندري ماهي؟ قال: أو فعلتموها؟ ... سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتاني جبريل فقال: يا محمد ستكون في أمك فتن، قلت: فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله»^١ وإذا كان في الكتاب حل لكل مشكلة، فالسنن موضحة ومنفذة لأحكامه.

والسنن إذ تروى عن جعفر بن محمد الصادق، أو عنه عن آبائه، أو تروى عن الأئمة عامة لا يوجد فيها صحابي يختلف الشيعة معه، على أساس هذه الأحاديث قام فقه الشيعة الإمامية، مروياً عن الإمام فلا يناقشونه، فكلامه نصوص، أي هو سنة، في غنى عن الإسناد، تعني عن الاجتهاد، وفي كتبهم كما قيل: ما يكفي الأمة حتى أرش الخدش^٢.

وقد دون علم الأئمة وفقههم في كتبهم، ومنه علم لديني عن الإمام المعصوم، ومنه تفسيرهم للقرآن^٣. والأئمة - عندهم - قد اقتصوا بعلم مالم ينص عليه ومالم يعلنه النبي ﷺ. وأقوال الأئمة حجة تلي الكتاب والسنة، والفقهاء الشيعة لا يتجهون إلى الأدلة إلا في غيبة الإمام أو حديث الإمام.

والسنة أساسها القرآن، يقول الإمام الصادق: «إذا رويت لكم حديثاً فسلوني أين أصله من القرآن»^٤. روى^٥ يوماً نهي النبي عن «القبل والقال، وفساد المال، وكثرة السؤال» فقيل له: أين هذا من كتاب الله؟ فأجاب: «إن الله تعالى يقول: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ﴾

١. التفسير الصافي للفيض الكاشاني: ج ١ ص ١٦، بحار الأنوار: ج ٨٩ ص ٢٤، تفسير العياشي: ج ١ ص ٣، البرهان: ج ١ ص ٧، مسند أحمد: ج ١ ص ٩١.

٢. الكافي: ج ١ ص ٤٨، المهذب: ج ١ ص ١٠، بصائر الدرجات: ص ١٦٢، من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٤١٩، عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٩٣، والكتب التي فيها تلك الصحيفة الجامعة.

٣. والشيعة تنفي قول القائلين بالصرفة، وهو ما يزعمه بعض المعتزلة (النظام) من أن الله صرف المشركين عن أن يحاولوا الإتيان بمثله، فهذا القول مصيره في نفي الإعجاز، والإعجاز آية الرسول ﷺ (منه).

٤. الرواية عن الباقر عليه السلام انظر الكافي: ج ٥ ص ٢٠٠، تهذيب الأحكام: ج ٧ ص ٢٣١، وسائل الشيعة: ج ١٩ ص ٨٣، بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ٣٠٣، فقه القرآن للراوندي: ج ٢ ص ٥٤، تفسير الصافي: ج ١ ص ٥٦، تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٥٤٩.

٥. الرواية أيضاً عن الباقر عليه السلام عن رسول الله ﷺ، انظر المصادر السابقة.

أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِضْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ»^١ وقال تعالى: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا»^٢ وقال تعالى: «لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ»^٣.
فهذه أصول قرآنية ثلاثة لحديث واحد في السلوك، وهو عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى.

وإذا لم يكشف الإجماع عن رأي الإمام المعصوم فباب الاجتهاد مفتوح لطلب الحكم الشرعي فيما ليس فيه نص، والعقل - مع الضوابط التي يضعونها من قواعد وأصول - قدير على أن يبلغ المجتهد طلبه.



روى هشام بن سالم قول الصادق: «إنما علينا أن نلقي إليكم الأصول، وعليكم أن تفرعوا»^٤. وفي نهج البلاغة جملة من الأصول التي نبه عليها أمير المؤمنين علي، وتكلم فيها الأئمة الباقر والصادق والرضا؛ كالكلام عن الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والنوافل والفرائض، والرخصة والعزيمة، والمطلق والمقيّد، والمحكم والمتشابه، والواجب وغير ذلك. ومما ردّه الأئمة الثلاثة قواعد الجمع بين الحديثين المتعارضين، والترجيح بينهما، والتخيير، وأحكام النسخ، ولزوم ردّ المتشابه إلى المحكم، وجواز الأخذ بخبر الواحد، والعمل بالظاهر، ومنع القياس أو تفسير القرآن بالرأي، والعمل بالاستصحاب، وأصالة الحلّ والإباحة، والطهارة والبراءة والصحة، وقواعد الفراغ واليد والقرعة.
وكلام الامام الصادق في هذه الأبواب كثير، ولهشام بن الحكم كتاب في مباحث الألفاظ^٥، وفي الأصول^٦.

١. النساء: ١١٤.

٢. النساء: ٥.

٣. المائدة: ١٠١.

٤. السرائر: ج ٣ ص ٥٧٥، رسائل الكركي: ج ٣ ص ٤٩، الحق المبين: ص ٧، وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٦٢، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٤٥، نور البراهين: ج ١ ص ٤٤.

٥. ذكره صاحب الذريعة: ج ٢ ص ٢٩١ تحت تسلسل ١١٧٧، والنجاشي في الرجال: ص ٤٣٣، والطوسي في الفهرست: ص ٢٥٨، وابن التديم في الفهرست: ص ٢٢٤.

٦. ليس المقصود بالأصول هو علم الأصول، وإنما أصول الحديث التي دوت أول الأمر، وهي أربعمائة أصل. أخذ أصحاب الكتب الأربعة مادتهم منها.

والسنة المتواترة هي التي يتكاثر روايتها ويتفرقون إلى حد لا يمكن معه اتفاقهم على الكذب، وبهذا يتحصّل على قاطع بأنهم لم يجمعهم جامع على الكذب، والتواتر عن الرسول كالتواتر عن الإمام المعصوم.

والإمام الصادق يقول: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله، وحديث رسول الله قوله تعالى»^١.

والتعبير بأنّ حديث الرسول هو قوله تعالى يعدل القول بأنّ السنة هي الحكمة التي ذكر القرآن أنّ الرسول يعلمها للمسلمين.

وخبر الواحد مقبول لدى جمهور الفقهاء عندهم، وحبّتهم في ذلك - على الجملة - كحجج أهل السنة^٢.

والصادق لا يرى بأساً في رواية الحديث بالمعنى، سأله تلميذه: أسمع منك الحديث، فأزيد وأنقص؟ فأجاب: «أن تريد معانيه فلا بأس»^٣.

ولا يضيّقون صدرأ بالإرسال من الثقات^٤، بغير معارض، فلقد تقرأ: «صحيح فلان عن بعض أصحابنا عن الصادق عليه السلام»^٥.

١. الكافي: ج ١ ص ٥٣، شرح أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٢٥، وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٨٣، الإرشاد: ج ٢ ص ١٨٦، الخرائج والجرائح: ج ٢ ص ٨٩٥، الصراط المستقيم: ج ٣ ص ٢٦١، منية المرید: ص ٣٧٢، بحار الأنوار: ج ٢ ص ١٧٩، إعلام الوری: ج ١ ص ٥٣٦.

٢. أمّا الرواة عموماً فيشترط أن يكونوا من الإمامية الاثني عشرية، يروون عن «إمام» عن النبي. وثمة من يقبل رواية غير الإمامية ما دام موثقاً، أي أميناً عند الإمامية، قالوا: «لو كان بعض رجال السند غير إمامي، مصرحاً بالتوثيق، أو مصرحاً بالمدح، لا بدّ من كون الباقي إمامياً موثقاً» (منه).

٣. الكافي: ج ١ ص ٥١، شرح أصول الكافي: ج ٢ ص ٢١١، وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٨٠، وصول الأخيار: ص ١٥٢، الفصول المهمة: ج ١ ص ٥٢٢، بحار الأنوار: ج ٢ ص ١٦٤، مبادئ الوصول للحلي: ص ٢٨٠، المعالم لابن الشهيد الثاني: ص ٢١٣.

٤. فقد قال الشيخ الطوسي في كتاب «العدة»: «٣٨٦ وإذا كان أحد الراويين مسنداً، والآخر مرسلاً، نُظر في حال المرسل، فإن كان ممّن يعلم أنه لا يرسل إلا عن ثقة موثوق به، فلا ترجيح لخبر غيره على خبره، ولأجل ذلك سوّت الطائفة بين ما رواه محمّد بن أبي عمير، وصفوان بن يحيى، وأحمد بن محمد بن أبي نصر، وغيرهم من الثقات الذين عُرفوا بأنهم لا يروون ولا يرسلون إلا ممّن يوثق به، وبين ما يسنده غيرهم، ولذلك عملوا بمراسيلهم إذا انفرد عن رواية غيرهم».

٥. والإرسال لا يمنع قبول الحديث عند أهل السنة. كان إبراهيم النخعي يروي الحديث مرسلأ، فيقول له

ويمكن القول إجمالاً: إنَّ الحديث عندهم: صحيح، وحسن، وموثق، وضعيف.
فالحديث الصحيح: هو الذي ينقله العدل الضابط عن مثله في جميع الطبقات حتَّى الإمام المعصوم^١.

والحديث الحسن: هو المتَّصل السند بالإمام المعصوم، فإن انقطع السند لم يعد حسناً. ويتشترط أن يكون الراوي مدوحاً من غير معارضة ذمَّ وإن لم تثبت العدالة، فلو ثبتت لكان صحيحاً^٢.

ولا يمكن أن تصل رواية غير الإمامية إلى إحدى هاتين الدرجتين مهما كانت منزلته من التقى والفقهاء.

والحديث الموثق: هو ما دخل في طريقه غير إمامي إذا كان الأصحاب الإمامية يوثقونه. وهنا لا يشترط الاتصال بالإمام المعصوم، وهناك من يشترط أن يتوسط غير الإمامي إماميين، وهناك من يرفضه.

والحديث الضعيف: غير هذه الأقسام الثلاثة^٣.

وما لا يبلغ حدَّ التواتر يسمَّى خبر الواحد، فوصف الواحد يُراد به عدم التواتر، وقد يكون عن متعددين. فالخبر المستفيض والمشهور نوع من خبر الواحد، المستفيض: ما رواه أكثر من اثنين^٤، والمشهور: ما اشتهر على الألسن وفي الكتب وإن كان رواية واحد^٥.

→ الأعمش: إذا رويت لي حديثاً فأسنده، فيجيب: إذا قلت: حدثني فلان عن ابن مسعود فهو الذي رواه، وإذا قلت: قال عبد الله فغير واحد. والحسن البصري يقول: «إذا قلت لكم: حدثني فلان فهو حديثه، ومتى قلت: قال رسول الله ﷺ فمن سبعين». (منه).

١. على أن يكون جميع الرواة إمامية.

٢. وهو ما كان رواه كلهم أو بعضهم من الإمامية، ولكنهم لم يوثقوا بل مدحوا.

٣. بأن كان رواه مجهولين أو قد ضعُفوا.

٤. بشرط أن لا يصل إلى حدَّ التواتر.

٥. الخبر الذي يحصل العلم بصدوره من قرائن داخلية أو غيرها مطابقة لظاهر القرآن أو معانيه أو لأدلة العقل، حجة معتبرة، لا للشهرة أو الاستفاضة أو التواتر أو أي شيء آخر، بل للعلم بصدوره الذي هو حجة بنفسه، فالخبر المتواتر أو المعلوم بصدوره لا حاجة لشروط في روايته. وإنما الشروط في خبر الواحد. وقد يعملون بالضعيف إذا اشتهر العمل به بين الأقدمين. أمَّا علامات وضع الحديث فهي كمثلها عند أهل السنة تقريباً.

وليس عجيباً أن تكون السنة التي يتمسك بها الشيعة في مجموعها هي السنة التي يتمسك بها أهل السنة،

أما الشهادة فيقول فيها الإمام جعفر: «لو لم تقبل شهادة المقترفين للذنوب لما قُبلت إلا شهادة الأنبياء والأوصياء، فمن لم تره بعينك يرتكب ذنباً ولم يشهد عليه بذلك شاهدان فهو من أهل العدالة والستر، وشهادته مقبولة وإن كان في نفسه مذنباً»^١.
 وإذا كان في بعض المذاهب من لا يقبل شهادة أصحاب الصنائع التي يسمونها «دنيئة»^٢، فالإمامية يرون قبول شهادتهم، والله يقول: «إِنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم»^٣ فليس في الصناعات شريف ومشروف، وإنما الصناعات فيهم من هؤلاء وهؤلاء.
 والشيععة - مع هذا - ضائق صدرهم بالطفيليين والمستجدين، فهؤلاء متساهلون في عزة النفس التي أمر الله بها المسلمين.



والصادق يقول: «إِنَّ الإجماع لا ريب فيه»^٤. وهو عند الإمامية: «اتفاق جماعة يكشف اتفاقهم عن رأي المعصوم»^٥ فلا يخلو عصر من وجود الإمام ظاهراً أو خافياً^٦. وإذا كان

→ فخلافاً الروايات وإسنادها، أو إضافة مصدر الأئمة، لم تدخل في التراث النبوي العظيم ما يغيره.

ومشايع الإمامية يؤثقون المخطئين في الاعتقاد، والإمام الصادق إذ يقول: «خذوا مارووا، وذروا مارأوا» يقصد آراءهم. ولقد طالما رفض مجتهدوهم أحاديث ذكرت في كتبهم، وأخذوا بما جاء في صحيحي البخاري ومسلم؛ لتفحصهم أحوال رجالهم. (منه).

١. وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٣٩٥، الأمالي للشيخ الصدوق: ص ١٦٣، بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٢٤٧ و ج ٨٥ ص ٣٤ و ج ١٠١ ص ٣٦٤، درر الأخبار: ص ٥١٢، الحدائق الناظرة: ج ١٠ ص ٣٤، مستند الشيعة: ج ١٨ ص ٤٠، مستمسك العروة الوثقى: ج ١ ص ٥١، جامع المدارك: ج ١ ص ٤٩١، فقه الصادق للروحاني: ج ٦ ص ٢٤٥ و ج ٢٥ ص ٢٧٦.

٢. قال المحقق الأربيلي في مجمع الفائدة والبرهان: ج ١٢ ص ٣٢٩: «إنما تقبل شهادة هؤلاء الذين يصنعون الصنائع الدنيئة والمكروهة كالحجّام والزبال، والحائك، والصانع، والآخذ بيع الرقيق صنعة، واللاعب بالحمام... دليل قبول شهادة الكلّ: عموم أدلة قبول الشهادة، مع عدم ما يمنع من ذلك من عقل أو نقل، ومجرد كونها صنائع دنيئة ومكروهة ليست بمناعة من القبول عقلاً ولا شرعاً».

٣. الحجرات: ١٣.

٤. أصل العبارة: «إِنَّ المجمع عليه لا ريب فيه» لاحظ: الكافي: ج ١ ص ٦٧، ووسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ١٠٦ كتاب القضاء، تحريات في الأصول للسيد مصطفى الخميني: ج ٧ ص ١٧٧ و ص ١٧٩، تهذيب الأصول: ج ٢ ص ١٧٠، إفاضة العوائد: ج ٢ ص ٣٨٧.

٥. ذهب إلى ذلك جميع علماء الطائفة.

٦. إن الإجماع الذي تقول به الإمامية هو إجماع المتقدمين المتأخمين لعصر الغيبة: كالصدوق والمرضى والمفيد،

اتفاق جماعة من الإمامية فيخرج غيرهم، ومن أجل ذلك عرفت آراء الصادق من خلال اتفاق تلاميذه.

وليست الحجّة للإجماع، بل هي لرأي الإمام المعصوم الذي يكشف عنه الإجماع^١. والإجماع يثبت بالتواتر والمشاهدة وبخير الواحد. وليس اجتماع الرجال شرطاً عندهم. والإجماع من عصر أو عصرين لا يجعل الحكم ضرورة دينية أو مذهبية، بل يكون اجتهادياً يقبل الجدل، أمّا إجماع الأمة في كلِّ عصر ومصر، من عهد الرسول للآن، فيجعل الحكم من ضرورات الدين. والإجماع من الصحابة يدخل فيه علي بن أبي طالب، فهو الإمام المعصوم.



والعقل يكشف عن نظر الإمام إن لم يوجد نصّ أو إجماع. فالاجتهاد^٢ مفتوح أبدأ في الظنّيات التي ليس فيها دليل من الشرع يفيد اليقين، وليس للعقل فيها حكم واجب حتم؛ كخلاف الصحابة في العول في الموارث، وعدّة الحامل المتوفّي عنها زوجها، وكالمعاملات. أمّا القطعيّات فلا اجتهاد فيها؛ كالعقائد الواجبة، وما ثبت من الأحكام العملية بالتواتر، والعقائد؛ كاتّصاف الله بالكمال وإرسال الرسل وإنزال الكتب والبعث والحساب، والأحكام العملية؛ كالصلاة والصوم والحجّ. وليس من وسائل اجتهاد الشيعة: القياس، فالإمام الصادق يقول: «إنّ السنّة إذا قيست محقّ الدين»^٣. ولتأقيل له: رأيت إن كان كذا وكذا ما يكون القول فيها؟ قال: «ما أجبتك

→ وليس إجماع المتأخّرين عن عصر الغيبة الصغرى بكثير. فعليه الإجماع المعول عليه هو ما كان فيه الإمام حاضراً، ولا يمتد إلى عصرنا الذي يكون فيه الإمام مختفياً.

١. يقول الشيخ المظفر في كتابه «أصول الفقه»: ج ٢ ص ٩٣ ما لفظه: إن الإجماع بما هو إجماع لا قيمة علمية له عند الإمامية ما لم يكشف عن قول المعصوم. فإذا كشف على نحو القطع عن قوله، فالحجّة في الحقيقة هو المنكشف لا الكاشف، فيدخل حينئذٍ في السنّة، ولا يكون دليلاً مستقلاً في مقابلها.

٢. يشترط الشيعة في المجتهد: (١) العلم باللّغة (٢) بالكلام (٣) بكتاب الله والسنّة (٤) بطرق الاستنباط (٥) المسائل المجمع عليها حتّى لا يخالفها اجتهاد (٦) الفطنة وإدراك الحقائق (٧) العلم بمواطن الخلاف، كل ذلك (٨) وهو إمامي. (منه).

٣. من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٨٨ الباب ٢٧، الحديث ١، الكافي: ج ٧ ص ٢٩٩ ح ٦، التهذيب: ج ١٠ ص ١٨٤ ح ٧١٩، وسائل الشيعة: ج ١٩ ص ٢٦٨ باب ٤٤ ح ١، كشف اللثام: ج ٢ ص ٤٦٦، الحدائق الناضرة: ج ١ ص ٦١، رياض المسائل: ج ٢ ص ٥٠٥، المحاسن: ج ١ ص ٢١٤، شرح أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٦٥، بحار الانوار: ج ١٠١ ص ٤٠٥.

فيه من شيء فهو عن رسول الله ﷺ، لسنا من رأيت في شيء»^١ لكن وسائل استعمال العقل مباحة للمجتهد.

والإمام الصادق يقول: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله، ولكن لا تبلغه عقول الرجال»^٢.

وآيات الأحكام قليلة، وكمثلها قلةً أحاديث أصول الأحكام^٣، فوجب الاجتهاد.

ونحن مأمورون باستعمال العقل، وحكم السماء تظهر للعقول بالتدرج.

وكان أصحاب النبي يجتهدون في وجوده، وازدادت حاجتهم للاجتهاد بعد موته، والدنيا أطوار تحتاج للفقه الذي يطبق عليها حكم الشريعة؛ لتبقى الحياة محكومة بالدين، وتتطور في حدود مقاصد الشارع.

وحكم الله في كل مسألة معين، نصب الله دليلاً عليه، فمن المجتهدين من يصل إليه ويصيبه، ومنهم من لا يصل إليه ويظن غيره، فهو مخطئ معذور، مغفور له خطؤه ما دام قد بذل جهده دون هوى، وللمصيب أجران؛ لصوابه واجتهاده، وللمخطئ أجر واحد على اجتهاده^٤. فلذلك حكمه ﷺ^٥. ومن أجله كانت السماحة التي اتصف بها الصحابة إذ

١. المهذب لابن البراج: ج ١ ص ٢١، الكافي: ج ١ ص ٥٨، بصائر الدرجات: ص ٣٢١، شرح أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٧٢ خاتمة المستدرک: ج ١ ص ٢٨، إقبال الأعمال: ج ١ ص ٢٩، وصول الأخيار: ص ١٥٤، بحار الأنوار: ج ٢ ص ١٧٣.

ولما كان مراده: أخبرني عن رأيك الذي تختاره بالظن والاجتهاد، نهاءً عن الظن، وبين له أنهم لا يقولون شيئاً إلا بالجزم واليقين وبما وصل إليهم من جدّهم رسول الله ﷺ.

٢. المهذب: ج ١ ص ١١، المحاسن: ج ١ ص ٢٦٨، الكافي: ج ١ ص ٦٠، ج ٧ ص ١٥٨، تهذيب الأحكام: ج ٩ ص ٣٥٧، شرح أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٨٦، وسائل الشيعة: ج ٢٦ ص ٢٩٤، وصول الأخيار: ص ١٨٥، الفصول المهمة: ج ١ ص ٤٨٢، تفسير الصافي: ج ١ ص ٥٦، تفسير نور الثقلين: ج ٣ ص ٧٥ و ج ٤ ص ٤٣٤، الأصول الاصيلية: ص ٢، الذريعة: ج ١٣ ص ٢٠٦.

٣. آيات الكتاب (٦٢٣٦) آية على طريقة عدّ الكوفيّين، كما ورد في التعليق على المصحف المتداول بمصر من سنة ١٣٣٧ هجرية. أحصى بعض فقهاء أهل السنة نحو (١٤٠) في العبادات، و (٧٠) في المعاملات، و (٧٠) في الأحوال الشخصية والموارث، و (٢٠) في الجنائيات، و (١٣) في المرافعات، و (٢٠) في القضاء والشهادة، و (١٠) في الاقتصاديات، و (١٠) في المسائل الدستورية، و (٢٥) في المسائل الدولية. وأحاديث أصول الأحكام عندهم نحو (٤٥٠) بين آلاف الأحاديث التي أكثرها بيان مجمل أو تفصيل موجز أو تشريع ما سكت عنه. (منه).

٤. يقول الشيخ الثنائي في كتاب الصلاة: ج ١ ص ٧: «[المفتي] إن أصاب فله أجران؛ أجر الإصابة وأجر

يختلفون.

والمنصفون من كلّ المذاهب يعلنون أنّ في المذاهب الفقهية المعتمدة خطأ وصواباً، وليس منها مذهب واحد كلّ خطأ أو كلّ صواب. لذلك كان التعصّب المطلق آفةً تؤوف الفقهاء.

لقد كثرت مخالقات علي لعمر، ونزول عمر عنده رأي علي.

وعلي هو القائل بأنّه ترك لعمر تنفيذ رأيه في «بيع أمهات الأولاد» في حياة عمر، ولما آل إليه الأمر أنفذ رأيه. فعلمنا أموراً، منها:

١ - أنّ المذهب الشيعي وهو يدور حول آراء علي، إنّما هو مذهب حيّ في حياة الخلفاء الراشدين أنفسهم، فلما آل إليه الأمر، وأتاحت له الفرصة التي أتاحت لغيره لتطبيق اجتهاداته، أنفذها، ولكنّ المكان والزمان ضاقا عليه؛ لتوزّع جهده في الحروب، وانحصار سلطانه على الأرض، ومعاجلته بيد الخوارج.

٢ - حقّ الخليفة في إنفاذ رأيه، ومن ثمّة أنفذ عمر رأيه في أمورٍ شتى، كما أنفذ أبو بكر رأيه من قبل، والرأي اجتهاد.

٣ - مشروعية الخلاف، وهو درس تعلّمه الصحابة من أصحابهم ﷺ، مطلوب من الجميع أن يتعلّموه، وأن يعلموا الناس أنّه وسيلة التقدّم.

روى النسائي^٦: أنّ رجلاً أجنب فلم يصل، فذكر ذلك للنبي فقال: «أصبت»، وأجنب رجل فتيّم وصلّى، فذكر ذلك للنبي فقال: «أصبت».

وروى البخاري^٧: عن عمران بن حصين أنّه قال للرجل الذي اعتزل فلم يصلّ في القوم:

→ الإجتهد، وإن أخطأ فله أجر واحد هو أجر الاجتهاد».

وذكر الشافعي مسنداً عن رسول الله ﷺ في كتاب الأم: ج ٦ ص ٢١٦: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر» وذكره أيضاً: المجموع لمحبي الدين النووي: ج ٢٠ ص ١٤٩، والطرائف للسيد ابن طاوس: ص ١٩٢، ومسند أحمد: ج ٤ ص ١٩٨، وسنن ابن ماجه: ج ٢ ص ٧٧٦، وسنن أبي داود: ج ٢ ص ١٥٨، وسنن الترمذي: ج ٢ ص ٣٩٣، وشرح مسلم للنووي: ج ١١ ص ٩١.

٥. يقول عليه الصلاة والسلام لمن سأله: أجتهد وأنت حاضر؟: «نعم، إن أصبت فلك أجران، وإن أخطأت فلك أجر» (منه). أقول: كما رواه الغزالي في المستصفى: ص ٣٤٦.

٦. سنن النسائي: ج ١ ص ١٧٢.

٧. صحيح البخاري: ج ١ ص ٨٩، ٩١. وذكرها أيضاً النسائي في سننه: ج ١ ص ١٧١، والبيهقي في السنن الكبرى: ج ١ ص ١٧٨ و ٢١٦، و ٢١٨، وتحفة الأحوذى: ج ١ ص ٣٢٩، ابن أبي شيبة الكوفي في المصنّف: ج ١ ص ١٨٢.

«فما يمنعك أن تصلي؟» فقال: أصابتني جنابة ولا ماء، قال: «عليك بالصعيد، فإنه يكفيك».

ورأى عمرو بن العاص فيما فهم من قوله تعالى: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»^١ جواز التيمم للجنب إذا خاف على نفسه البرد.

والآثار في الخلاف بين الصحابة كثيرة جداً^٢، والخلاف بين المجتهدين أجل من أن يُحصَر، وفيه ثراء للفكر، وسعة في الدنيا، ورحمة بالأمة.

كان أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الفصد والحجامة والرعاف، فقيل له: فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ، هل تصلي خلفه؟ فقال: كيف لا أصلي خلف مالك وسعيد بن المسيب؟

وكان مالك يفتي الرشيد أنه لا وضوء عليه إذا هو احتجم، فصلّى يوماً بعد الحجامة، وصلّى خلفه أبو يوسف صاحب أبي حنيفة وهو يرى الوضوء من الحجامة.

واغتسل أبو يوسف في الحمام، وأخبر بعد صلاة الجمعة أنه كان في بئر الحمام فأرة مَيْتة، فلم يعد صلاته وقال: نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة: إذا بلغ الماء قَلْتين لم يحمل خبثاً^٣.

فهؤلاء أئمة المذاهب لا يتسامحون في خلافاتهم فحسب، بل يتجاوزون الخلاف العلمي إلى التطبيق العملي. من أجل ذلك يقول أحمد لتلميذه إسحاق بن بهلول^٤ إذ آلف كتاباً يريد

١. البقرة: ١٩٥.

٢. راجع: نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامي، من مطبوعات لجنة تجلية مبادئ الشريعة الإسلامية، لعبد الحليم الجندي، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: قترات ٤٢ إلى ٤٨. (منه).

٣. ومرجع مقاله إلى حديث نبوي هو: «إذا بلغ الماء قَلْتين لم يحمل خبثاً». لاحظ: سنن أبي داود: ج ١ ص ١٧ ح ٦٣، وسنن الترمذي: ج ١ ص ٩٧ ح ٦٧، وسنن النسائي: ج ١ ص ٤٦، وسنن الدارمي: ج ١ ص ٨٧، وسنن البهقي: ج ١ ص ٢٦٠، وسنن الدارقطني: ج ١ ص ١٤ و ١٥، ح ٣٠٢. مستد أحمد: ج ٢ ص ١٢.

ومن كتب الشيعة ذكره: مستدرك الوسائل: ج ١ ص ١٩٨ ح ٧، ومستدرك سفينة البحار: ج ٣ ص ٧، وعوالي اللئالي لابن أبي جمهور: ج ٣ ص ٥٦٢.

وقوله: «قَلْتين» يعني من هذه الحباب العظام، واحدها: قَلَّة، وهي معروفة بالحجاز. وقال بعضهم: إنها الجرار. (غريب الحديث: ج ٢ ص ٢٣٦).

٤. إسحاق بن بهلول بن حسان التنوخي الأنباري، فقيه، من رجال الحديث، من بيت وجاهة في الأنبار، رحل في

أن يسميه كتاب الاختلاف^١: «سمه كتاب السعة». ويقول عمر بن عبد العزيز «ما سرتني باختلافهم حمر النعم».

الإمامة

الإسلام دين ودولة. فالدولة تكفل لمبادئ الإسلام التطبيق والانتشار وانتفاع الجماعة والأفراد به، وبالدين عزّة الفرد والجماعة ورسوخ أركان الدولة. والدين للدولة روح للجسد، وهو للفرد دم نقي يجري في عروقه، أو هواء صحي يتنفسه، ولا حياة إلا بالدم والتنفس. وكان من آيات الإعجاز الإسلامي أن يبلغ المسلمون الذروة أفراداً أو دولاً أو مجتمعات، في عصرٍ أو في أشهرٍ بل في ساعات، بمجرد إخلاصهم في التمسك بالإسلام. لقد بلغوا ما يدعو إليه الإسلام في «خلافة» أبي بكر وعمر، والسنين الستة الأولى من «خلافة» عثمان، وفي أقلّ من ثلاثين شهراً في «خلافة» عمر ابن عبد العزيز. والخلافة الراشدة قيادة مسددة.

ولقد بلغ المحاربون مبالغهم، في يومٍ واحدٍ، هو العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣^٢، إذ كانوا يقتحمون حصون إسرائيل وهم يتنادون: الله أكبر، الله أكبر. والإمامة - أو الخلافة - قد تكون خلافة عن النبي في تبليغ الأمور الدينية، أو في الولاية السياسية، أو فيهما جميعاً. وهي عند الشيعة دينية وسياسية محصورة في أهل البيت^٣. لكنها عند جمهور أهل السنة تجوز لأيّ قرشي عادل، يختاره المسلمون بشورى صحيحة، وبيعة

→ طلب الحديث الي بغداد والكوفة والبصرة والحجاز. له «المتضاد» في الفقه، وكتب في القراءات ومسند كبير. استدعاه المتوكل العباسي إليه وسمع فيه ببغداد وأكرمه. ولد سنة ١٦٤هـ، ومات في الأنبار سنة ٢٥٢هـ. (الأعلام: ج ١ ص ٢٩٤).

١. كتابه اسمه «المتضاد في الفقه» لا الاختلاف، كما ذكره اسماعيل باشا البغدادي في إيضاح المكنون: ج ٢ ص ٤٢٦، وفي هدية العارفين: ج ١ ص ١٩٨، والزركلي في الأعلام: ج ١ ص ٢٩٤، والخطيب في تاريخ بغداد: ج ٦ ص ٣٦٤. المقصود بها حرب تشرين عام ١٩٧٣م.

٢. وقد ألّف عشرات الكتب في ذلك، فيها: كتاب الوصية لهشام بن الحكم، والوصية للحسين بن سعيد، والوصية للحكم بن مسكين، والوصية للبرقي، وهؤلاء من أعلام القرن الأول والثاني. والوصية لعلي ابن رئاب، والوصية للصابوني، وكتاب الوصية والإمامة للمسمودي، والوصية للطوسي، وهم من أعلام القرن الثالث. وأقاموا جميعاً الأدلة العقلية والنقلية عليها.

عامة. ولا تبقى الخلافة إلا ما بقي الخليفة قائماً بالعدل، فإذا انحرف لم تبق خلافة نبوية، بل استحالت سلطة دنيوية، أي ملكاً.

والشافعية والمالكية والحنابلة يرون القرشي العادل إذا تغلب، فبايعه المسلمون بيعة صحيحة راضين مرضيين، تكون البيعة له صحيحة وإن تأخرت عن الولاية التي نالها بالغلبة، أما الحنفية فيشترطون سبق البيعة ضماناً للحرية، وكفالةً للمشورة.

والشيعة الإمامية يرون الإمامة ثابتة لاثني عشر إماماً بذواتهم، لا بالبيعة لهم، ولكن بالوصية إليهم، وهم علي وبقية الاثني عشر، والله يعلن الإمامة لمن قبله فيوصي السلف للخلف، وليست بيعة الجماعة لهم إلا إعلان رضا المسلمين بهم، لا ترشيحهم أو اختيارهم. والشيعة الإمامية يرون واجباً على الله تعالى أن ينصب إماماً للناس؛ لطفاً منه بعباده. وأهل السنة يرون نصب الإمام واجباً على الناس.

أما الخوارج فلا يرون واجباً نصب الإمام، بل يرونه «جائزاً»، إلا إذا قامت الحاجة إليه فيجب. وهم كالمعتزلة يرون أن الخلافة يصلح لها أصلح رجل في الأمة، عربياً أو غير عربي، ويرون أنها تكون بانتخاب حرّ، ويؤثرون أن ينتخب غير قرشي، ليسسر نزعه إن أخطأ.

يقول الإمام الصادق: «لا يموت الإمام حتى يعلم من يكون من بعده فيوصي له» ويقول: «أترون الموصي منّا يوصي إلى من يريد؟ لا والله، ولكن عهد من الله ورسوله لرجلٍ فرجل، حتى ينتهي الأمر إلى صاحبه»^١.

ويقول لتلميذ له: يا أبا محمد، إن الله افترض على أمة محمد ﷺ خمس فرائض: الصلاة والزكاة والصيام والحجّ ولايتنا. فرخص لهم في أشياء من الفرائض الأربعة^٢، ولم يرخص لأحدٍ من المسلمين في ترك ولايتنا، لا والله ما فيها رخصة^٣ وقال النبي عليه الصلاة

١. الكافي: ج ١ ص ٢٨٧ باب أن الإمامة عهد من الله عز وجل معهود من واحد الى واحد عليه السلام ح ٢. شرح أصول الكافي للمازندراني: ج ٦ ص ٩٠.

٢. كقصر الصلاة وتركها لفأقد الطهورين على القول به، وللحائض والنفساء، وترك كثير من أركانها في حال الضرورة والخوف والقتال، وكترك الصيام في السفر والمرض والكبر، وكترك الحجّ والزكاة مع عدم الاستطاعة والمال، ولكنه لم يرخص في ترك الولاية في حال من الأحوال.

٣. الكافي: ج ٨ ص ٢٧١، شرح أصول الكافي: ج ١٢ ص ٣٨١.

والسلام: «من مات وليس عليه إمام مات ميتة جاهلية»^١. عليكم الطاعة فقد رأيتم^٢ أصحاب علي^٣.

ومن توفيق الإمام جعفر وأبنائه، أنهم لم يطلبوا لأنفسهم خلافة دنسوية، وبهذا يتميز تاريخ الشيعة الإمامية من الشيعة الإسماعيلية، التي ستظهر بعد موت الإمام بوقت طويل، والتي كان من أهدافها ولاية السلطة، وإقامة الدول.

قال سليمان بن خالد للإمام الصادق: إن الزيدية قوم عرفوا وخرجوا وشهدهم الناس، وما على الأرض محمدي أحب إليهم منك، فإن أردت أن تدنيهم وتقرّبهم منك فافعل، فأجاب: «إن كان هؤلاء السفهاء يريدون أن يصدّونا عن علمنا إلى جهلهم^٤ فلا مرحباً بهم، وإن كانوا يسمعون قولنا وينظرون أمرنا فلا بأس»^٥.

ومع أن مؤمن الطاق - تلميذ الإمام الصادق - ثبت زيداً عن الخروج، فالصدوق يروي عن الإمام الكاظم قول أبيه: «رحم الله عمي زيداً، إنّه دعا إلى الرضا من آل محمد، ولو ظفر لوفى»^٦. فزيد لم يدع لنفسه، لأن الإمامة كانت للباقر، وأما كان خروجه تجديداً للاستشهاد عندما تدعو دواعيه.

يقول الصادق: «مضى والله عمي زيد وأصحابه شهداء على مثل ما مضى عليه الحسين بن علي بن أبي طالب وأصحابه»^٧ بل هو يعلن الاستعداد للاستشهاد، ويراه واجباً من

١. بصائر الدرجات: ص ٥٢٩ و ٢٧٩، قرب الاسناد للحميري: ص ٢٥١، الإمامة والتبصرة لابن بابويه القمي:

ص ٣٣، الكافي: ج ١ ص ٣٩٧، بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٩٢، الأصول الستة عشر: ص ٧٨، مستدرک الوسائل:

ج ١ ص ١٥١، مجمع الزوائد للهيتمي: ج ٥ ص ٢٢٣ و ٢٢٥، كتاب السنّة لعمر بن أبي عاصم: ص ٤٨٩، مسند

أبي يعلى: ج ١٣ ص ٣٦٦، المعجم الأوسط: ج ٦ ص ٧٠، المستدرک: ج ١ ص ١١٧ وقد وردت الرواية بألفاظ

مختلفة: «من مات وليس عليه إمام»، «من مات وليس له إمام»، «من مات لا يعرف إمامه»....

٢. أي طاعتهم له، فالمراد خواصه عليه السلام، أو رجوعهم عنه وكفرهم بعد إطاعتهم له؛ كالخوارج.

٣. المحاسن: ج ١ ص ١٥٤، الكافي: ج ٨ ص ١٤٦، بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٧٦ و ج ٩٣ ص ٢١١، تفسير العياشي:

ج ٢ ص ٤٩.

٤. أي: يريدون أن تتبّعهم على جهالتهم بما يرون من الخروج بالسيف في غير أوانه.

٥. الكافي: ج ٨ ص ١٦٠، شرح أصول الكافي: ج ١٢ ص ١٨٢.

٦. وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٥٤ ح ١٩٩٧٤، شرح الأخبار: ج ٣ ص ٢٨٧، بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ١٧٤، عيون

الأخبار: ج ١ ص ١٩٤ ح ١، وقريب منه في تهذيب تاريخ دمشق: ج ٦ ص ٢٠.

٧. ذكره صاحب كتاب تنبيه العافلين: ص ١٣٥، تحقيق السيد تحسين آل شبيب، ولكن بهذا اللفظ: «ذهب والله

واجبات أهل البيت عامةً، والأئمة خاصةً، وأبو بصير يروي عنه قوله: «إنَّ الله تعالى أعزىٰ نبيكم أن يلقى من أمته ما لقيت الأنبياء من أممها، وجعل ذلك علينا»^٢.

والشيعة مجمعون أنَّ علياً أولى بالخلافة - دينية أو دنيوية - من الصديق ومن عمر ومن عثمان، لكنَّ علياً سما عن أن يترك في الأمة صدعاً يوم بايع لأبي بكر^٣، وقبل استخلاف أبي بكر لعمر، وبايع لعثمان مع المسلمين.

وتسبب البيعة بأنَّها كانت لرأب الصدع، فيه تسليم بأنَّ ولاية شؤون الدولة يمكن أن تنفصل عن الخلافة الدينية^٤. فلو كانت غير ذلك لما سلَّم علي في أمر يخالف الدين، ولقد طالما عالن الخلفاء الثلاثة برأيه الشجاع، وأجمعوا دائماً على تقديره، ونزلوا عنده، وسيبقئ له في ضمير التاريخ وصحفه أنَّه دخل في إجماع المسلمين، فذلك درس لهم - من دروسه التي لا تكاد تحصى - ليعتصموا بحيل الله جميعاً ولا يتفرَّقوا.

والذين يقولون - من أيِّ فريق -: «إنَّ علياً بايع «مرغماً» يتأولون^٥. فعلي أعلىٰ صوتاً

→ عمي زيد وأصحابه على ما ذهب إليه جدّه علي بن أبي طالب والحسن والحسين، شهداء من أهل الجنة». ومثله في مجالس الصدوق: ص ٦٢.

١. أي وهب الله له العافية، وفيه إظهار لشكر نعمته، حيث إنّه رضي لهم ما رضئ لأوليائه، والإعفاء نعمة، كل ذلك لمصلحة.

٢. الكافي: ج ٨ ص ٢٥٢، شرح أصول الكافي: ج ١٢ ص ٢٤٦، بحار الأنوار: ج ٢٧ ص ٢٠٥.

٣. انظر أصل الشيعة وأصولها لمحمد حسين آل كاشف الغطاء: ص ٢٢٢، وانظر أيضاً: خصائص النسائي: ص ٩٦، ومسنّد أحمد: ج ١ ص ٨٤ و ٨٨، ومستدرک الحاكم: ج ٣ ص ١٠٩ و ١١٠.

٤. يقول السيد كمال الحيدري في كتابه (مدخل الي الإمامة) ص ١٤ - ١٥: إنَّ الإمامة التي تعتقد بها مدرسة أهل البيت عليه السلام تختلف اختلافاً جوهرياً عن دور الامامة التي تنحصر في الخلافة والحكم؛ وذلك لأنَّ هذا الاتجاه يرى أنَّ للإمامة دوراً فوق دور القيادة والزعامة، وهو الدور الذي بيَّنه القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: ﴿إِنِّي جاعل في الارض خليفة...﴾ البقرة: ٣٠، وأشار إليه بقوله لإبراهيم الخليل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جاعلك للناس إماماً﴾ البقرة: ١٢٤، وهي التي عبَّر عنها الإمام الرضا عليه السلام: «هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة، فيجوز فيها اختيارهم؟! إنَّ الإمام أجلّ قدراً، وأعظم شأنًا، وأعلىٰ مكاناً، وأمنع جنباً، وأبعد غوراً، من أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بأرائهم، أو يقيموا إماماً باختيارهم، إنَّ الإمامة خصَّ الله عزَّ وجلَّ بها إبراهيم عليه السلام بعد النبوة والخلَّة مرتبةً ثالثة، وأشاد بها ذكره فقال: ﴿إِنِّي جاعلك للناس إماماً﴾. وراجع الأصول من الكافي: ج ١ ص ١٩٩.

٥. جملة من أعلام السنَّة والشيعة يذهبون إلى هذا المعنى، راجع في ذلك: العقد الفريد: ج ٢ ص ٢٥٢، الجمل للشيخ المفيد: ص ٥٦، الاحتجاج للطبرسي: ج ١ ص ١١١.

ومكاناً من أن يُرغم، أو لا يعلن رأيه مواجهةً، ولما بايع عمر لأبي بكر يوم السقيفة، كان يومئذٍ - كعلي يوم بايع - يرأب الصدع بين المهاجرين والأنصار، وهم بين أظهرهم، ولما جعل عمر الخلافة شورى في الستة بعده، كان مسؤولاً عن المسلمين، كما كان أبو بكر يوم استخلفه، وعلي في طليعة المسؤولين، وكمثله الأئمة بعده.



والذين ينسبون إلى الشيعة ما صنعه أو فهمه الدهماء منهم من قدح في أبي بكر أو في عمر ظالمون، ومن الشيعة مفكّرون يعلنون أن من تعود البعض من الشيعة أن يلعنوه في احتفالات ماتم عاشوراء - وقد ظهرت بعد موت الإمام جعفر الصادق بقرن، في عهد دولة بني بويه - هو عمر بن سعد قائد الجيش الذي قتل الحسين.

جاء في كتاب الأستاذ أحمد مغنية عن الإمام جعفر الصادق: «وقد حورب المذهب الجعفري في عهد العثمانيين والأتراك... كما أن المفرّقين أنفسهم وجدوا في اتفاق الاسمين: عمر بن الخطّاب وعمر بن سعد قاتل الحسين، ميداناً واسعاً يتسابقون فيه في تشويه الحقائق.. [يعرف الناس جميعهم أن الشيعة يعنون عناية تامة في المآتم الحسينية التي تقام أيام عاشوراء وغير عاشوراء من أيام السنة... والحسين هو موضوع تلك المآتم...] وكان طبيعياً أن يكون لعنة اللعنات عمر بن سعد، ومن من المسلمين وغير المسلمين لا يعلن عمر بن سعد قاتل ابن بنت رسول الله؟... لا أنكر وجود أفراد - بالأمس - من سواد الشيعة ويسطّانهم لا يفترقون بين هذين الاسمين، بل لا يعرفون أن في دنيا التاريخ الإسلامي (عمرين: تقياً وشقياً)^١... وساعد على بُعد الشقة وتوسيع نطاق الفتنة شيوخ جهلة مرتزقة، أئمة من كلتا الطائفتين: السنية والشيعة...».

وأياً كانت الجهالة أو العصبية فهي بلاء ابتليت به الأمة، يتفجّر بذاء وخصومات في المناسبات، وفيما كان يقع بين مذاهب أهل السنة مشابه منها، والمؤكّد أن أئمة المذاهب منها براء، وأنّ الجيل الذي تعلّم عليهم بريء من التعصّب أو الافتراء، وأنّ العلماء الصّدق بعيدون

١. في المصدر هكذا: «عمر بن سعد - تقياً أو شقياً - وكلّ الذي يعرفون أن عمر بن سعد هو الذي قتل مولانا الإمام الحسين، وداس صدره الشريف تحت سنايك خيله، ومثل به وبأهل بيته وأصحابه، تمثيلاً لم تعرفه الجريمة البشرية من قبل...».

عن متابعة السواد والبسطاء^١.

وقفه المذهب غزير في الإمامة مذفتق الكلام فيها التلاميذ في حياة الإمام وبعد مماته، مستندين إلى أحاديث للنبي ﷺ وعلى آله، وردت في كتبهم وفي كتب أهل السنة ذاتها، ويرتبون عليها نظرية الإمامة. أما أهل السنة فلهم في شأن هذه الأحاديث وجهات نظر أخرى حول السند، وحول المعنى اللازم.

إليك «بعض» الأحاديث:

يقول عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس، إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي»^٢.

ويقول: «إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله حبل ممدود من السماء، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^٣.

١. يذكر الراغب الأصفهاني في المحاضرات من قرون مضت: سئل رجل كان يشهد بالكفر على آخر عند جعفر بن سليمان، فقال: إنه رجل معتزلي، ناصبي، حروري، جبري، رافضي، يشتم علي بن الخطاب، وعمر بن أبي حفافة، وعثمان بن أبي طالب، وأبا بكر بن عثمان، ويشتم الحجاج الذي هدم الكوفة على أبي سفيان، وحارب الحسين بن معاوية يوم القطانف!! فقال جعفر: قاتلك الله، ما أدري على أي شيء أحسدك، أعلى علمك بالأنساب أم بالأديان أم بالمقاتلات؟! (منه).

٢. أخرجه الترمذي والنسائي عن جابر (منه). وكذا يوجد هذا الحديث الشريف في: نظم درر السمطين للزرندي الحنفي: ص ٢٣٢، وينايع المودة للقندوزي: ص ٣٣ و ٤٥ و ٤٤٥، وتفسير ابن كثير: ج ٤ ص ١١٣، ومصاييح السنة للبقوي: ج ٤ ص ١٨٩، وجامع الأصول لابن الأثير: ج ١ ص ١٨٧، الحديث: ٦٥، ومشكاة المصابيح: ج ٣ ص ٢٥٨، وإحياء الميت للسيوطي بهامش الاتحاف: ص ١١٤، وبحار الأنوار: ج ٢٣ ص ١١٨، وكنز العمال: ج ١ ص ٤٤.

٣. أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم (منه). لاحظ صحيح الترمذي: ج ٥ ص ٣٢٩، وأخرجه أيضاً في درر السمطين: ص ٢٣١، والدرر المنتور للسيوطي: ج ٦ ص ٧ و ٣٠٦، وذخائر العقبين: ص ١٦، والصواعق المحرقة: ص ١٤٧ و ٢٢٦، وأسد الغابة لابن الأثير: ج ٢ ص ١٢، والمعجم الصغير للطبراني: ج ١ ص ١٣٥، وينايع المودة: ج ٣ ص ٤٠ و ٢٢٦ و ٣٥٥، وتفسير ابن كثير: ج ٤ ص ١١٣، وعبقات الأنوار: ج ١ ص ٢٥، وكنز العمال: ج ١ ص ٤٤ ح ٨٧٤، والفتح الكبير للنسائي: ج ١ ص ٤٥١، وتفسير الخازن: ج ١ ص ٤، ومصاييح السنة: ج ٢ ص ٢٧٩، وجامع الأصول: ج ١ ص ١٨٧، ومشكاة المصابيح: ج ٣ ص ٢٥٨، ومنتخب تاريخ ابن عساکر: ح ٥

ويقول: «إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله... وعترتي أهل بيتي»^١.

ويقول: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله عز وجل وعترتي... فانظروا كيف تخلّفوني فيهما»^٢

أو «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وأهل بيتي، وأنهما لن يفترقا...»^٣.

ذلك أنه لما رجع عليه الصلاة والسلام من حجة الوداع نزل بغدير خم يوم ١٨ ذي الحجة

في السنة العاشرة - والشيعنة تعتبره عيداً يسمّى عيد الغدير - وكان قد نزل عليه الوحي ﴿يَا

أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^٤

→ ص ٤٣٦، وتيسير الوصول لابن البديع: ج ١ ص ١٦، والتاج الجامع للأصول: ج ٣ ص ٣٠٨، ورفع

اللبس والشبهات: ص ٥٢، وأرجح المطالب للشيخ عبد الله الحنفي: ص ٣٣٦، والسيف اليماني المسلول:

ص ١٠.

١. أخرجه أحمد بن حنبل بطريقتين صحيحين، وأخرجه الطبراني (منه)، ويوجد هذا الحديث الشريف أيضاً في:

الدرّ المشثور: ج ٢ ص ٦٠، وإحياء الميت بهامش الاتحاف: ص ١١٦، وينايع المودة: ص ٢٨ و ١٨٣، ومجمع

الزوائد للهشيمي: ج ٩ ص ١٦٢، وعبقات الأنوار: ج ١ ص ١٦، وكنز العمال: ج ١ ص ١٥٤ ح ٨٧٣ و ٩٤٨،

والجامع الصغير: ج ١ ص ٣٥٣، والفتح الكبير: ج ١ ص ٤٥١، وأرجح المطالب: ص ٣٣٥، والفضائل لأحمد بن

حنبل بترجمة الامام الحسين: ص ٢٨ ح ٥٦، ومسند أحمد بن حنبل: ج ٥ ص ١٨٢ و ١٨٩، وفرائط السمطين

للحموي: ج ٢ ص ١٤٤.

٢. أخرجه أحمد بن حنبل وآخرون (منه) أقول: أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري من طريقتين: أحدهما في

آخر ص ١٧، والثاني في آخر ص ٢٦ من الجزء الثالث من مسنده. وأخرجه أيضاً: ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن

سعد عن أبي سعيد، وهو الحديث رقم ٩٤٥ من أحاديث كنز العمال في ص ١٦٥ ج ١ وأيضاً في: المناقب لابن

المغازلي: ص ٢٣٥ ح ٢٨٣، الصواعق المحرقة: ص ١٤٨، ذخائر العقبين: ص ١٦، إسعاف الراغبين للصبان

الشافعي بهامش نور الأَبصار: ص ١٠٨، ينايع المودة: ص ٣٥ و ٤٠ و ٢٢٦، السيرة النبوية لزيني دحلان

مطبوع بهامش السيرة الحلبية: ج ٣ ص ٣٣١، المعجم الصغير للطبراني: ج ١ ص ١٣١، مقتل الحسين

للخوارزمي: ج ١ ص ١٠٤، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٦٣، إحياء الميت: ص ١١١، الطبقات الكبرى لابن سعد:

ج ٢ ص ١٩٤، جامع الأصول: ج ١ ص ١٨٧، المواهب اللدنية: ص ٧، راموز الأحاديث للشيخ أحمد الحنفي:

ص ١٤٤، أرجح المطالب: ص ١٣٦، الأنوار المحمدية للشيخاني: ص ٤٣٥، فرائد السمطين: ج ٢ ص ٢٧٢

ح ٥٣٨، عبقات الأنوار: ج ١ ص ١٢٣ و ١٣٤ و ١٥١ و ١٦١ و ١٦٤ و ١٦٨ و ٢٥٣ و ٢٦٥ و ٢٨٣.

٣. أخرجه الحاكم في المستدرک وآخرون ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجه

(منه). وأخرج أيضاً في مناقب علي بن أبي طالب لابن المغازلي: ص ٢٣٤ ح ٢٨١، والمناقب للخوارزمي:

ص ٢٣، وفرائد السمطين: ج ٢ ص ١٤٣ الباب (٣٣) وفيه بعد «وعترتي أهل بيتي»: «ألا وهما الخليفان من

بعدي»، وعبقات الأنوار: ج ١ ص ١٣١، والمستدرک الذي أشار إليه يقع في: ج ٣ ص ١٤٨.

فأمر بدوحات فقممن^١، فقال: «كأنّي دُعيت فأجبت، إنّي قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله تعالى وعترتي، فانظروا كيف تحلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض... ثم قال: إن الله عزّ وجلّ مولاي، وأنا مولى كلّ مؤمن، ثم أخذ بيد علي وقال: اللهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه»^{٣٢}.

وابن حجر في صواعقه يقرّر أنّ لهذا الحديث طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً مع اختلاف في المكان، أهو غدِير خم أم الطائف أم المدينة^٤. أمّا طريقه عن أهل البيت فنحو ثمانين طريقاً^٥.

وفي علي قوله ﷺ: «من أحبّ أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي، ويدخل الجنة التي

١. أي: كنسن.

٢. أخرجه الحاكم من طريقين عن زيد بن أرقم. وأخرجه مسلم في صحيحه حتى كلمة: «الحوض» مع خلاف في بعض الكلمات. (منه).

٣. وأخرج أيضاً في: خصائص أمير المؤمنين للنسائي: ص ٢١، المناقب للخوارزمي الحنفي: ص ٩٢، الصواعق المرحقة: ص ١٣٦ وذكر صدر الحديث وصحّحه، ينابيع المودة: ص ٣٢، كنز العمال: ج ١ ص ١٦٧ ح ٩٥٤ وج ١٥ ص ٩١ ح ٢٥٥، عبقات الأنوار: ص ١١٧ و ١٢١ و ١٢٢ و ١٢٥ و ١٣٢ و ١٤٤ و ١٥٢ و ١٥٩ و ١٦١ و ١٧٧ و ٢١٣ و ٢٤١. وقد أخرجه مسلم في صحيحه: ج ٤ ص ١٨٧٣ برقم (٣٦)، والحاكم عن زيد بن أرقم مرفوعاً في المستدرک: ج ٣ ص ١٠٩ ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بطوله. وأخرجه أيضاً عن طريق آخر عن زيد بن أرقم في: ج ٣ ص ٥٣٣، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأورده الذهبي في تلخيصه معترفاً بصحّته. وممن خرّجه أيضاً: المسترشد لمحمد بن جرير الطبري: ص ٥٥٩، والغدير: ج ١ ص ٣٠ و ٣٠٦ و ٣٧٥، وفضائل الصحابة لابن حنبل: ص ١٥ رقم ٤٥.

٤. قال في الصواعق المحرقة: الفصل الأول باب ١١ ص ٨٩: «ثم اعلم أنّ لحديث التمسك بهما طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً... وفي بعض تلك الطرق أنّه قال ذلك بحجة الوداع بعرفة، وفي أخرى أنّه قال بالمدينة في مرضه، وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفي أخرى أنّه قال ذلك بمكة، وفي أخرى أنّه قال ذلك لمقام خطيباً بعد انصرافه من الطائف...» ثم قال: «ولا تنافي، إذ لا مانع من أنّه كرّر عليهم ذلك في تلك المواطن وغيرها؛ اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترّة الطاهرة».

٥. لشمس الدين محمد بن محمد الجزري الشافعي المتوفى سنة ٨٣٣ كتاب (أسنى المطالب في مناقب علي ابن أبي طالب) أثبت فيه تواتر حديث الغدير من ثمانين طريقاً. راجع كتاب الشهب الثواقب: ص ٧٦.

وقد روى الحديث أحمد بن حنبل من ٤٠ طريقاً، وابن جرير الطبري من نيف وسبعين طريقاً، وابن عقدة من ١٠٥ طرق، وأبو سعيد السجستاني من ١٢٠ طريقاً، وأبو بكر الجعابي من ١٢٥ طريقاً. وفي تعليق هداية العقول ص ٣٠ عن الأمير محمد اليميني أحد شعراء الغدير في القرن الثاني عشر أنّه له ٥٠ طريقاً. راجع الغدير: ج ١ ص ١٤.

وعدني ربّي، فليوال علياً وذريته من بعده، فإنهم لن يخرجوكم من باب هديّ، ولن يدخلوكم في باب ضلالة»^{٢١}.

وفي أهل البيت قوله ﷺ: «ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق»^٢.

و«إنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل، من دخله غفر له»^٥.

١. مسند أحمد بن حنبل، ابن حجر، كنز العمال. وبهذا المعنى في المستدرک. (منه).
٢. وأخرجه أيضاً: منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد: ج ٥ ص ٣٢ حلية الأولياء: ج ١ ص ٨٦، شرح نهج البلاغة: ج ٩ ص ١٧٠، كفاية الطالب للكنجي الشافعي: ص ٢١٤، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٠٨، ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق: ج ٢ ص ٩٥ ح ٥٩٦، ينابيع المودة: ص ٣٧٩ و ٣٨٠ و ٣٨٢، إحقاق الحق: ج ٥ ص ١١١، فرائط السمطين: ج ١ ص ٥٣.
- وباختلاف يسير في بعض الألفاظ انظر: الأمالي للشيخ الطوسي: ص ٥٧٨، الأربعون حديثاً لابن بابويه: ص ٣٢، مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ج ٣ ص ٥، بحار الأنوار: ج ٣١ ص ٢٢٢ و ج ٣٦ ص ٢٢٧ و ص ٢٤٧ و ٢٤٨ و ٢٦٩ و ٣١٤ و ج ٣٨ ص ١٢٠ و ج ٣٩ ص ٢٥٩ و ٢٦٧ و ٢٧٥ و ٢٨٥ و ج ٤٠ ص ٨١ و ٨٣، تاريخ مدينة دمشق: ج ٤٢ ص ٢٤٠ و ٢٤٢، ميزان الاعتدال للذهبي: ج ١ ص ٣٢٥، المنتخب من ذيل المذيل للطبري: ص ٨٣، كفاية الأثر للخزاز القمي: ص ٨٦، مناقب أمير المؤمنين لمحمد الكوفي: ج ١ ص ٤٢٦ و ص ٤٢٧ و ج ٢ ص ٤٧٥، المسترشد لمحمد بن جرير الطبري: ص ٣٥٩ و ٦٣٨ و ٦٣٩، الأمالي للشيخ الصدوق: ص ٨٨، كشف الغمة للأربلي: ج ١ ص ٨٩ و ١٠٢، مجموعة رسائل لطف الله الصافي: ج ٢ ص ٣٢٦.
٣. المستدرک للحاكم باسناده إلى أبي ذر: ج ٣ ص ١٥١، نظم درر السمطين: ص ٢٣٥، ينابيع المودة: ص ٣٠ و ٣٧٠، الصواعق المحرقة: ص ١٨٤ و ٢٣٤، إسعاف الراغبين للصبيان: ص ١٠٩، جواهر البحار: ج ١ ص ٣٦١، الفضائل لأحمد بن حنبل بترجمة الإمام الحسين: ص ٢٨ ح ٥٥.
- ومثل هذا اللفظ لكن يتفاوت يسير انظر: حلية الأولياء: ج ٤ ص ٣٠٦، والمناقب لابن المغازلي: ص ١٣٢ ح ١٧٣ و ١٧٦، وذخائر العقبين: ص ٢٠، ومجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٦٨، وإحياء الميت: ص ١١٣، والجامع الصغير للسيوطي: ج ٢ ص ١٣٢، ومنتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد: ج ٥ ص ٩٢، والفتح الكبير للسبهياني: ج ٣ ص ١٢٣، وينابيع المودة: ص ١٨٧ و ١٩٣.
٤. الصواعق لابن حجر. (منه).
٥. هذا الحديث لوحده تارة، ومنضماً لحديث السفينة أخرى، فأخرجه: الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٤ ص ١٠ و ج ٦ ص ٨٥ عن أبي سعيد، وأيضاً في المعجم الصغير: ج ٢ ص ٢٢، وأخرجه الحاكم في المستدرک: ج ٢ ص ٣٤٣ و ج ٣ ص ١٥٠.
- وراجع أيضاً: مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٦٨، كفاية الطالب للكنجي الشافعي: ص ٣٧٨، إحياء الميت للسيوطي: ص ١١٣، رشفة الصادي لأبي بكر الحضرمي: ص ٧٩، الصواعق المحرقة: ص ٩١، كنز العمال: ج ٦ ص ١٥٣

وقوله: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض من الاختلاف» ٢١.

والشيعة مؤمنون بأنه لا ينقض حجة هذه الأحاديث على منزلة أهل البيت ومكانة علي، تأويلها من بعض أهل السنة أو التشكيك فيها من البعض الآخر. والآخرون يرونها سنداً صحيحاً في تكريم علي، ولا يرونها سنداً في الإمامة بالمعنى الذي يريده الشيعة.



ولقد كان الصحابة يجلبون علياً كلّ الإجلال، والكثرة منهم لا تسلم له بأولوية الخلافة

→ و ٢١٦، تاريخ بغداد: ج ١٢ ص ١٩.

وتغيير بعض اللفظ انظر: المعجم الكبير للطبراني: ج ٣ ص ٤٦، وشواهد التنزيل للحسكاني: ج ١ ص ٣٦١، والكمال: ج ٤ ص ١٩٨، وينايع المودة: ج ١ ص ٩٣ و ٩٤، وج ٢ ص ٤٤٣، وتفسير فرات الكوفي: ص ١٩٠، ودرر الأخبار: ص ٥٣٠، وأمان الأمة من الاختلاف للطف الله الصافي: ص ١٦٢، وخلاصة عقبات الأنوار: ج ٤ ص ٨٥ و ٢١١، وكتاب الأربعين للشيخ الماحوزي: ص ٧٤، والبحار للمجلسي: ج ٧٤ ص ٧٥ وج ٣٧ ص ٨٧، وج ٣٦ ص ٢٩٣ وج ٣٠ ص ٤٠ وج ٢٧ ص ١١٣، مناقب ابن شهر آشوب: ج ١ ص ٢٥٤، والاحتجاج: ج ١ ص ٢٢٩، ومكارم الأخلاق: ص ٤٥٩، والأمالى للطوسي: ص ٦٣٣ و ٥٢٦، وكنز الفوائد للكرجكي: ص ٢١٥، وكتاب الغيبة للنعماني: ص ٤٤، وشرح الأخبار للقاضي النعمان: ج ٢ ص ٤٨٠.

١. أخرجه الحاكم في المستدرک عن ابن عباس. (منه) أقول أخرجه في: ج ٣ ص ١٤٩ ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وأخرجه أيضاً في: الصواعق المحرقة: ص ٩١، وإحياء الميت للسيوطي: ص ١١٤؛ ومنتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد: ج ٥ ص ٩٣، وينايع المودة: ص ٢٩٨، وجواهر البحار للنبهاني: ج ١ ص ٣٦١.

وبلفظ آخر في: ذخائر العقبين للمحب الطبري: ص ١٧، ونظم درر السمطين للزرندي: ص ٢٣٤، وإحياء الميت: ص ١١٢، والجامع الصغير للسيوطي: ج ٢ ص ١٦١، والفتح الكبير للنبهاني: ج ٣ ص ٢٦٧، وإسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار: ص ١٢٨، وفرانط السمطين: ج ٢ ص ٢٤١ ح ٥١٥ وج ٢ ص ٢٥٢ ح ٥٢١، ومجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٧٤، والهداية للصدوق: ص ٣٦، ومسند زيد بن علي: ص ٤٦٣، وعلل الشرائع للصدوق: ج ١ ص ١٢٣، وعيون أخبار الرضا: ج ١ ص ٣٠، والأمالى للصدوق: ص ٢٥٣، وإكمال الدين وإتمام النعمة: ص ٢٠٥، وكفاية الأثر: ص ٢٩، وخاتمة المستدرک: ج ٣ ص ٩٣، ومناقب أمير المؤمنين للكوفي: ج ٢ ص ١٣٣ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٧٤ و ١٧٥، والمسترشد لابن جرير الطبري: ص ٥٧٩، وشرح الأخبار للقاضي النعمان: ج ٢ ص ٥٠٢، ومقتضب الأثر: ص ١٥، والاعتقادات للمفيد: ص ٩٤، والأمالى للطوسي: ص ٢٥٩، والغيبة للطوسي: ٢٩٢، والاحتجاج للطبرسي: ج ٢ ص ٤٨، والخرائج والجرائح: ج ٣ ص ١١١٥، ومناقب ابن شهر آشوب: ج ١ ص ٢٤٥، والطرائف لابن طاوس: ص ١٣١.

٢. وفي مسند أحمد: أن عمر كان أوّل المهتئين لعلي يوم الغدير، كما هنا الصحابة الحاضرون. (منه).

على سابقيه من الخلفاء، ثم جاء جيل جديد أصبح فيه إنكار هذه الأولوية وسيلة للسلطة لتثبيت شرعيتها، بل طريقاً إلى أصحاب السلطة، يسلكه من يلتمسون المصلحة أو الجاه أو الراحة.

لكن الأمة بقيت على حبّ علي وأبنائه، وكثرتها ككثرة الصحابة في إجلاله، فالشافعي - أكبر عقل علمي - يضع حبّ أهل البيت بين فرائض الدين، ويذكر المسلمين بأن الصلاة على أهل البيت جزء من الصلاة لله، يقول:

يا أهل بيت رسول الله حبّكمو فرض من الله في القرآن أنزله

كفلكم من عظيم القدر أنكمو من لم يصل عليكم لا صلاة له^١

والإمام أحمد يقول: «ما جاء لأحدٍ من أصحاب رسول الله من الفضائل ما جاء لعلي»^٢ وتشيع أبو حنيفة محلّ إقرار أو إنكار، وهو القائل: «لولا الستتان لهلك النعمان»^٣ قاصداً مدة دراسته على الإمام الصادق، ومالك بن أنس من أنه تلاميذ الإمام جعفر ذكره^٤. والأربعة أئمة أهل السنة.

أخرج أحمد بن حنبل عن عائشة: جاء رجل فوق في علي وعمّار عند عائشة، فقالت: أما علي فلست قاتلة لك فيه شيئاً، وأما عمّار فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول فيه: «لا يخير

١. خرّجه سابقاً.

٢. شواهد التنزيل للحسكاني: ج ١ ص ٢٦، تاريخ دمشق: ضمن ترجمة الإمام علي ج ٣ ص ٨٣ ح ١١١٧، المستدرک للحاكم: ج ٣ ص ١٠٧، تهذيب التهذيب: ج ٧ ص ٢٣٩، الاستيعاب: ج ٣ ص ٥١، المناقب للخوارزمي: ص ١١ و ٣٤، الصواعق المحرقة: ص ١١٨، تفسير الثعلبي (المخطوط): ص ٧٤، التفسير الكبير: ج ١٢ ص ٢٦، نور الأبصار: ١٥٨، خصائص الوحي المبين لابن البطريق: ص ٨٠، قاموس شتاتم لحسن بن علي السقّاف: ص ١٩٨، نظم درر السمطين للزرندي الحنفي: ص ٨٠، يتاييع المودة للسقندوزي: ص ٢٧٥، فرائض السطين: ج ١ ص ٧٩، تلخيص المستدرک للذهبي: ج ٣ ص ١٠٧، كفاية الطالب للكنجي: ص ٢٥٣، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ١٦٨، الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٩٩، السيرة الحلبية: ج ٢ ص ٢٠٧، الروض الأزهر: ص ٩٦ و ١٠٢، السيرة النبوية لزيني دحلان: ج ٢ ص ١١، إسعاف الراغبين: ص ١٤٨ و ١٤٩، مطالب السؤل لابن طلحة الشافعي: ج ١ ص ٨٧.

٣. التحفة الاثني عشرية للأوسى: ص ٨، الخلاف للشيخ الطوسي: ص ٣٣ و ٤٩، مسندزيد بن علي: ص ١٠٣، تفسير جوامع الجامع للشيخ الطبرسي: ج ١ ص ١٩٣، نظرات في الكتب الخالدة لحامد حنفي داود: ص ١٨٢.

٤. راجع: الصواعق المحرقة: ص ٢٠١.

بين أمرين إلا اختار أَرشدَهُما»^١.

ولقد كان عمّار من أول حياته في الإسلام، حيث كان في آخر يوم في حياته في الدنيا، مع علي وفي جنده، مات في صفّين وهو في التسعين، قتلته الفئة الباغية عليه وعلى علي معه.

ولقد أوصى^٢ النبي لعلي أن يغسّله ويجهّزه ويدفنه، وفي دينه، وينجز وعده، ويبرئ ذمّته، ويبين للناس ما اختلفوا فيه، وما ذلك إلا لأنّ علياً منه ومن أهل بيته حيث هو. من هذه المكانة لعلي كان معه في صفين ثمانون من الصحابة الأحياء كلّهم بدري، وهؤلاء من أهل الجنّة.

أمّا معاوية فمعه الواهمون أو أهل الدنيا الذين يعدّهم ويمتّهم، لتصير الأمور إلى ما انتهت إليه في أيامه وما بعد أيامه.

وأمّا الأمة فجعلت مكان معاوية من علي، مثلاً سائراً في اللسان العربي: «وأين معاوية من علي»^٣.

١. مسند أحمد بن حنبل: ج ٦ ص ١١٢. وأخرجه أيضاً: كنز العمال: ج ٧ ص ٧٣، تاريخ مدينة دمشق: ج ٤٣ ص ٤٠٧، الغدير للأميني: ج ٩ ص ٣٢٥.

٢. ومن نصوص وصية النبي الصريحة بالإمامة لعلي: عن محمد بن حميد الرازي - وقد وثّقه الأئمة: أحمد، ويحيى، وابن جرير الطبري، والبغوي - عن أبي بريدة: «لكلّ نبيّ وصيّ ووارث، وإنّ وصيّ ووارثي علي بن أبي طالب» ومثله بالمعنى مروى عن سلمان الفارسي. وقال عليه الصلاة والسلام لفاطمة: «يا فاطمة، أما ترضين أنّ الله عز وجل اطّلع إلى أهل الأرض فاختار اثنين: أحدهما أبوك، والآخر بعلك؟».

وعن ابن عباس أنّ الرسول قال لها: «أما ترضين أنّي زوّجتك أول المسلمين إسلاماً، وأعلمهم علماً، وأنك سيّدة نساء أمّتي كما سادت مريم نساء قومها، أما ترضين يا فاطمة أنّ الله اطّلع إلى أهل الأرض فاختار رجلين، فجعل أحدهما أباك والآخر بعلك؟».

ومنها: أنّ النبي يقول عن الحسين «ابني هذا إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة، تاسعهم قائمهم» (منه).

٣. وهي عجز بيت من القصيدة الجلجلية المنسوبة لعمر بن العاص مظهرها:

معاوية الحال لا تجهل وعن سبيل الحق لا تعدل

.. إلى أن يقول:

وأين الحصا من نجوم السما وأين معاوية من علي
فإن كنت فيها بلغت المنى ففي عنقي علق الجلجل

يقول الأحنف بن قيس: دخلت على معاوية فقدم إلي الحار والبارد، والحلو والحامض مما كثر تعجبي منه، ثم قدم لونا لم أعرف ماهو، فقلت: ما هذا؟ قال: هذا مصارين البط محشوة بالمخ!! قد قلتي بدهن الفستق، وذّر عليه بالطبرزد^١! فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ قلت: ذكرت علياً...، بينا أنا عنده وحضر وقت الطعام وإفطاره (إذ كان صائماً) وسألني المقام، فجيء له بجراب مختوم، فقلت ما في الجراب؟ قال: سويق شعير، قلت: خفت عليه أن يؤخذ أو يخلت به؟ قال: لا، ولا أحدهما، ولكني خفت أن يلته الحسن والحسين بسمن أو زيت، فقلت: محرّم هو يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكن يجب على أئمة الحق أن يعتدوا أنفسهم من ضعفة الناس لئلا يطغى الفقير فقره، فقال معاوية: ذكرت من لا ينكر فضله^٢.



يرى الشيعة أهل البيت ثاني الثقلين، وأولهما القرآن، والثقل: كلّ خطير نفيس، وهم عدل القرآن في الأمة، وخلفاء الرسول في الحفاظ على الشريعة. فللأئمة جميع ماله من المناصب، ما عدا رتبة النبوة، ولديهم الكتب التي دون فيها علم النبوة، وفيهم ينحدر الهدى النبوي، وتتحصر الإمامة.

وأنّ الله سبحانه وتعالى يختار للنبوة من يشاء، ويختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيّه بالنصّ عليه وتنصيبه للناس بعده للقيام بوظائفه^٣، إلّا أنّ الإمام لا يوحى إليه، بل يتلقّى الأحكام عن النبي مع تسديد السماء له، فهو مبلّغ عن النبي، في حين أنّ النبي مبلّغ عن الله جلّ شأنه.

→ كتبها عمرو إلى معاوية في جواب كتابه إليه يطلب خراج مصر. توجد منها نسختان في مجموعتين في المكتبة الخديوية بمصر في فهرستها المطبوع سنة ١٣٠٧ هـ في: ج ٤ ص ٣١٤. وروى جملة منها ابن أبي الحديد في شرح النهج: ج ٢ ص ١١٧. راجع الفدير: ج ٢ ص ١١٤-١١٧.

١. الطبرزد على وزن سفرجل: نوع من أنواع السكر.
٢. بهج الصباغة: ج ١٢ ص ١٧٩، نثر الدرر للأبي: ج ١ ص ٢٤٣-٢٤٤، شيخ المضيرة للشيخ محمود أبورية: ص ٢٠٨، مواقف الشيعة: ج ٣ ص ١٨٤، تذكرة الخواص ص ١١٨، نهج السعادة: ج ٢ ص ٤٨، حلية الأبرار: ج ٢ ص ٢٣٣، بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ١١٨ وزاد من قول معاوية: رحم الله أبا الحسن، فلقد سبق من كان قبله، وأعجز من يأتي بعده. شرح نهج البلاغة: ج ١١ ص ٢٥٣.
٣. انظر أصل الشيعة وأصولها لمحمد حسين آل كاشف الغطاء: ص ٢٢٠.

والإمامية يرون الإمام إنساناً من البشر، لكنّه أفضل أهل زمانه، ولا تجوز عبادته، فهذا عمل من خداع إبليس. وأنّ من هذا شأنه يجب أن يكون معصوماً من الخطأ، فالناقص لا يكمل غيره.

ووجه الحاجة إلى العصمة فيه وفي النبي واحد^١، وهو حفظ الأحكام عن الخطأ، وإذا كان ذلك كذلك، فما يرد عن الإمام سنّة، سواء أكان رواية عن النبي أم كان رأيه؛ لأنّه نصّ، أما ما لا يرد عن الإمام فهو محلّ للاجتهاد وفق القرآن والسنة والإجماع والدليل العقلي.

أما ولاية الحكم، فقد رأينا الإمام الصادق وآبائه لم يطلبوها، كما لم يطلبها الأئمة بعده. يقول الكاظم لهشام: «كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا»^٢. فما أحرأهم أن يتركوا للملوك ما يتناحرون عليه.

ويعتبر الشيعة الاعتقاد بإمامة الأئمة الاثني عشر من أصول الدين عندهم، وأنها «رديفة» التوحيد والنبوة^٣، وفي حين لا يوافق أهل السنة على ذلك، لا تكفّر الشيعة أهل السنة في إنكارها هذا الأصل، ولا يكفّر أهل السنة الشيعة باعتقادها في الإمامة.

وإنما يشتدّ الخلاف من جراء الغلو في الأئمة، ونسبة أشياء إليهم يختلف في بعضها أهل السنة أنفسهم؛ كالرجعة^٤، أو القدح في بعض الصحابة؛ كعمرو ومعاوية والمغيرة، أو يختلف فيها الشيعة أنفسهم؛ كولاية المفضول، والنصّ على الإمام بالاسم لا بالوصف، ممّا حدا بالأضداد والأشباع إلى تبادل أزمة الثقة، أمّا الفاقهون فأدخلوا خلافاتهم في إطار ما يختلف فيه المجتهدون، وأمّا المتعصبون من كلّ ملة فيتقاطعون، وما يتقاطعون إلّا للمصلحة أو

١. يقول الشريف المرتضى في كتابه «تنزيه الأنبياء»: «قالت الشيعة الإمامية: لا يجوز عليهم (الأنبياء) شيء من المعاصي والذنوب، كبيراً كان أو صغيراً، لا قبل النبوة ولا بعدها، ويقولون في الأئمة مثل ذلك. (منه).

٢. تحف العقول لابن شعبة الحراني: ص ٣٨٩، بحار الأنوار: ج ١ ص ١٤١ و ج ٧٥ ص ٣٠٣، نهج السعادة: ج ٧ ص ٣٤٦.

٣. لاحظ أصل الشيعة وأصولها لمحمد حسين آل كاشف الغطاء.

٤. قال الطريحي في مجمع البحرين مادة «رجع»: «الرجعة بالفتح هي المرّة في الرجوع بعد الصوت بعد ظهور المهدي، وهي من ضروريات مذهب الإمامية، وعليها من الشواهد القرآنية وأحاديث أهل البيت عليه السلام ما هو أشهر من أن يُذكر، حتّى أنّه ورد عنهم عليه السلام: «من لم يؤمن برجعتنا ولم يقَرِّ بعتنتنا فليس منا».

للعلواء أو لضيق الأفق^١.

١. دخل إبراهيم بن هرثمة على المنصور فتهذده لأنه يمدح أهل البيت، ولما خرج إبراهيم لقي علويًا سلم عليه، فصاح به: لا تشط بدمي.

وفي سنة ٣٥٠ استعانت الجماهير بالجند ضد الشيعة، وفي سنة ٣٦٣ قُتل الكثيرون من أجل إقامة الشيعة لشعائرهم، وفي سنة ٤٠٣ صدر مرسوم يلعن العلويين خلفاء مصر وإنكار نسيهم، وكانت موقعة الكرخ فتكاً بأموال الشيعة وأرواحهم وأطفالهم، وفي سنة ٤٣٩ كبست دار الطوسي ببغداد، وفي سنة ٤٤٨ و ٤٤٩ أحرقت مكتبة الطوسي فترك بغداد إلى النجف.

وعدوان المالكية على الشافعي في جامع عمرو مشهور، وطرد المالكية والحنفية من أجل الشعب في جامع عمرو بعد ذلك بأمر القاضي الحارث بن مسكين معروف، وكذلك فتنة الحنابلة في مجلس الطبري (٣١٠)، وفي عهد البرهاري وفيما بعده وقد طالما أُرهِجت ببغداد.

ومن الإزراء بالتعصب المذهبي تتردد على الألسن سخرية الزمخشري، وهو حنفي:

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به	وأكتمه .. كتمانته لي أسلم
فإن حنفيًا قلت، قالوا بأنني	أبيح الطلى وهو الشراب المحرّم
وإن شافعيًا قلت، قالوا بأنني	أبيح نكاح البنت والبنت تُحرم
وإن مالكيًا قلت، قالوا بأنني	أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم

ولقد طالما كُفرت جماعة جماعة أخرى؛ بغياً عليها أو تحاملاً منها في التعبير عن الخلاف معها. كان نظام الملك (٣٨٥) وزيراً عظيماً، ينشر العلم وينشئ المدارس، ويعمل للوحدة، ويحاول أن يجمع الخلافتين: العباسية والفاطمية، أي أهل السنة والشيعة الإسماعيلية، وكان يجتمع لديه علماء الفرق، فدخل عليه عبد السلام بن محمد القزويني شيخ المعتزلة وعنده أبو محمد التميمي ورجل آخر أشعري، فقال له: أيها الصدر، لقد اجتمع عندك رؤوس أهل النار:

أنا معتزلي، وذلك أشعري، وهذا مشبه. وبعضنا يكفر بعضاً!!

وفي سنة ٤١٢ صدر مرسوم في بغداد كُفّر به الخليفة القادر المعتزلة وأمر باستابتهم، وقد سبق منهم العمل عند الخلفاء لقهَر المحذّنين والفقهاء في عصر المأمون والمعتصم والواثق.

وفي حياة الفيروز آبادي الشافعي قامت الفتنة على الشافعية سنة ٤٧٩، وفي سنة ٥٠٧ قال قاضي الحنفية بدمشق: لو كان لي من الأمر شيء لوضعت الجزية على الشافعية! وفي سنة ٥٦٧ قال أبو حامد الطوسي المقال نفسه في الحنابلة! وفي سنة ٥٥٤ حرّقت الأسواق في أصفهان لنزاع الحنفية والشافعية، وفي سنة ٤٦٩ هاج الحنابلة في بغداد إذ ولي القشيري الوعظ بالمدرسة النظامية، ومن قبل ذلك بعام سنة ٤٦٨ انتقل السمعاني من مذهب أبي حنيفة إلى مذهب الشافعي فثار الحنفية بمدينة مرو في خراسان قتلوا سلطانها حقناً لدمه، وفي العصر ذاته أمر ابن تاشفين بإحراق كتب الغزالي في احتفال رسمي بمسجد قرطبة!

وذات يوم رأى الوالي الحنفي في بلاد ما وراء النهر في مخرجه للصلاة في الصباح مسجداً للشافعية فقال: أما أن لهذه الكنيسة أن تغلق؟! وفي جيلان كان القوم حنابلة إذا قدم عليهم حنفي قتلوه! وجعلوا ماله فيناً للمسلمين!

ومردّد عدم التكفير^١ بين الشيعة وأهل السنة مع الخلاف في الاعتقاد بالإمامة، إلى أن الأصول - كما يقول الشيعة - ثلاثة: التوحيد، والنبوة، والبعث. ويكفي من التوحيد الإيمان بوحداية الله تعالى، ويكفي من النبوة الإيمان بأنّ محمداً ﷺ رسول الله صادق فيما أخبر به معصوم، ويكفي من المعاد الاعتقاد بأنّ كلّ مكلف يحاسب بعد الموت. أمّا الفروع التي هي من ضرورات الدين فهي كلّ حكم اتّفقت عليه المذاهب الإسلامية كافة، من غير فرق بين مذهب ومذهب؛ كوجوب الصلاة، فإنكار حكم من هذه الأحكام إنكار للنبوة، وتكذيب لما ثبت في دين الإسلام بالضرورة.

وضرورات المذهب الشيعي نوعان: نوع يعود للأصول وهو الإمامة، فيجب أن يعتقد كلّ شيعي إمامة الاثني عشر إماماً، والنوع الثاني يرجع إلى الفروع؛ كنفى العول^٢ ونفي

→ وأمّا أهل الأندلس فكانوا مالكية يطردون من الأندلس الحنفي أو الشافعي أو الحنبلي إذا وفد عليها، فإن كان معتزلياً فرمّا قتلوه!

ومن سدّ الذريعة أتى البعض بتعزير من يترك مذهباً لمذهب!

وفي القرن الثامن من الهجرة فصل من التدريس بمصر أبو العباس الحنبلي (٧١٦) لأنّه ذكر أنّ عمر منع تدوين الحديث، وأنّ ذلك كان سبب تعارض النصوص في الحديث وخلاف العلماء! وفي القرن العاشر علقت على باب زويلة رأس المولى ظهير الدين الأردبيلي لأنّه قال: إنّ مدح الصحابة ليس بفرض!

وفي تركيا قتل في عهد السلطان سليم الأول (٩٢٦) نحو أربعين ألفاً من الشيعة. وهكذا تدور رحى البطش في كلّ اتجاه، لكن لها قانوناً لا يتخلّف، هو: أنّ الباطشين اليوم مبطوش بهم غدأ. (منه)

١. أهل السنة لا يكفّرون إلا من يجحد فرائض الإسلام لأنه جاحد للأصل. يقول الغزالي: (أعلم أن شرح ما يكفر به ولا يكفر به يستدعى تفصيلاً طويلاً. فاقنع الآن بوصية وقانون. أما الوصية فإن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك، ماداموا قائلين: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وأما القانون فهم أن تعلم أن النظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد وقسم يتعلق بالفروع. وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله ورسوله وباليوم الآخر، وماعداه فروع. وأعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً. إلا في مسألة واحدة. وهي أن ينكر أصلاً دينياً من رسول الله ﷺ بالتواتر. لكن في بعضها تخطئة كما في الفقهيات (...). (منه).

٢. العول: هو زيادة السهام على الفريضة، فتعول المسألة إلى سهام الفريضة، فيدخل النقصان على سهام أهل الفروض بقدر حصصهم، وعليه فهو ردّ السهام الزائدة. (معجم ألفاظ الفقه الجعفري للدكتور أحمد فتح الله: ص ١١٨، القاموس الفقهي للدكتور سعدي أبي حبيب: ص ٢٦٨).

التعصيب^١، فمن أنكر فرعاً منها كان غير شيعي وإن كان مسلماً. والإيمان والإسلام عند الشيعة مترادفان، يثبتان لمن آمن بالتوحيد والنسبة والبعث، ويطلقان على معنى أخصّ هو هذه الأركان، ومعها ركن العمل بدعائم الإسلام - وهي الصلاة والزكاة والصوم والحجّ والجهاد - ويزيدون ركناً خامساً هو الاعتقاد بالإمامة، وأنها منصب إلهي كالنبوة، منصوص على من يليها، وأنّ الامام أفضل أهل زمانه، ومعصوم. فمن اقتصر على الأركان الأربعة الأولى مسلم مؤمن، وإنّما الاعتقاد بالإمامة له أثر في منازل القرب والكرامة يوم القيامة.

يقول الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء^٢: «نعم يظهر أثر التدين «بالإمامة» في منازل القرب والكرامة يوم القيامة، أمّا في الدنيا فالمسلمون بأجمعهم سواء، وبعضهم لبعض أكفأ، وأمّا في الآخرة فلا شك أنّ المسلمين تتفاوت درجاتهم ومنازلهم حسب نيّاتهم وأعمالهم، وأمّر ذلك وعلمه عند الله سبحانه، ولا مساع للبتّ به لأحدٍ من الخلق. والغرض أنّهم ما امتازت به الشيعة عن سائر فرق المسلمين هو القول بإمامة الأئمة الاثني عشر، وبه سمّيت هذه الطائفة الإمامية، إذ ليس كلّ الشيعة تقول بذلك...، والقول بالاثني عشر ليس بغريب عن أصول الإسلام وصحاح كتب المسلمين. فقد روى البخاري وغيره في صحاحه حديث الاثني عشر خليفة بطرق متعدّدة فيها بسنده عن النبي ﷺ «أنّ هذا الأمر لا ينقضي حتّى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة...»^٣.

١. التعصيب: هو ردّ ما فضل من سهام الإرث المفروضة على كلّ من كان من عصبية الميت، وهو من يمت إلى الميت نسباً، الأقرب فالأقرب، من غير ردّ على ذوي السهام. وهو منحصر في صورة وجود البنت المنفردة أو البنّتين المنفردتين. وفي صورة الأخت المنفردة أو الأختين المنفردتين.

وفي المذهب الجعفري (لا تعصيب)، فلا يرد الفاضل من سهام البنت المنفردة أو البنّتين المنفردتين، أو الأخت المنفردة أو الأختين المنفردتين على عصبية المورث: كأخيه، أو عمه لأبيه، أو لأبويه، بل يرد الباقي من السهام المفروضة على أصحاب السهام أنفسهم. (معجم الفاظ الفقه الجعفري: ص ١١٧).

٢. أصل الشيعة وأصولها: ص ٢١٣ و ٢١٧.

٣. في النصف الأول من القرن الحالي جرت «المراجعات» بين شيخ للأزهر هو الشيخ سليم البشري وبين الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي (٢٩٠ - ١٣٧٧) مدة إقامة الأخير بمصر، وهي مراجعات أطراها الطرفان، وثبت منها التزام المسلمين جميعاً بأصول الإسلام، وسعة الفقه للخلاف حول الفروع.

ومن اتّسع الفقه للخلاف وجدنا المأمون المعتزلي الفكر، السنّي الفقه، يولي عهده علياً الرضا إمام الشيعة،

والشيعة يعتقدون أن الأرض لا تخلو من حجة على العباد، من نبي أو وصي، ظاهر أو مستور، فالإمام المهدي الثاني عشر غائب منتظر^١.

→ ووجدنا صاحب بن عبّاد الذي وزر للدولة البويهية ثمانية عشر عاماً من ٣٦٧ إلى ٣٨٥ وزيراً معتزلي الفكر لدولة زيدية العقيدة، تحكم دولة الخلافة السنية، ووجدنا الشريف الرضي نائباً للخليفة العباسي، كما وجدنا الدولة الأدرسية دولة سنية يحكمها الأدراسة وهم شيعة من نسل الحسن ابن علي لكنهم لا يظهرون التشيع، وابن تومرت يقول: إنه - كالأدراسة - من نسل الحسن بن علي ومع ذلك لا يقسر الدولة على التشيع، وكذلك بني حمود من نسل الحسن بن علي يحكمون دولة سنية ولا يقسرونها على التشيع، بل سجد فقهاء عظاماً - كالطوسي - حجة في المذهب الإمامية وفي مذاهب أهل السنة.

وفي سنة ٥٢٥ عين الخليفة الفاطمي بمصر قضاة أربعة: ثلاثة من مذاهب السنة ورابعاً شيعياً، لأن الشعب كان سنياً والدولة شيعية. وكان الحافظ السلفي (٤٧٨ - ٥٧٦) يلقي دروس الشافعية في مدرسة بناها له ابن السلام الوزير الفاطمي.

وفي النصف الأخير من القرن الحالي أفتى المرحوم الشيخ محمود شلتوت: «أن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعاً، كسائر مذاهب أهل السنة، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقرّونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات».

وقال الشيخ شلتوت عن فتواه بعد: (ثم تهيتاً لي بعد ذلك - وقد عهد إليّ بمنصب مشيخة الأزهر - أن أصدرت فتواي في جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول، المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها: مذهب الشيعة الإمامية (الاثنا عشرية) ...، وهاهو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة، فيقرّر دراسة هذه المذاهب الإسلامية سنيهاً وشيعياً دراسة تعتمد على الدليل والبرهان، وتخلو من التعصب لفلان وفلان، كما أنه اهتم في تكوين مجمع البحوث الإسلامية، بأن يكون أعضاؤهم ممثلين لمختلف المذاهب الإسلامية ...).

والشيخ عبد المجيد سليم - شيخ أسبق للأزهر - يقول تحت عنوان «القطعيات والظنّيات»: «قد علمنا من استقراء المذاهب الفقهية، وآراء الفرق الكلامية: أن في كل منها خطأ وصواباً، ولم تعلم مذهباً من المذاهب الإسلامية المعتبرة خطأ كله أو صواباً كله، وإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي أن تظفي العصبية المذهبية على المسلمين، ولا ينبغي أن يكون هم الحنفي مثلاً هو الانتصار لكل ما جاء في مذهب الحنفية، ولا أن يكون هم الإمامي أو الزيدي هو الانتصار والتعصب لكل ما جاء به الإمامية والزيدية، ... وهكذا، بل الواجب على المسلمين أن يأخذوا بما ظهر بالبرهان صوابه، وأن يكون قصاراهم الرغبة الصادقة في الوصول إلى الحق، دون أن يقيموا وزناً لما سوى الحق، بذلك يصبحون فعلاً أمة واحدة. (منه).

١. انظر أصل الشيعة وأصولها للشيخ كاشف الغطاء: ص ٢٢٣ وتعضده الروايات الشريفة عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام: «لم تخل الأرض من حجة الله فيها، ظاهر مشهور أو غائب مستور» راجع: كمال الدين وتمام

والإمامة منصب ديني لا يجوز التنازل عنه؛ لأنه من الله^١. ولمّا تنازل علي للخلفاء السابقين عليه، كان التنازل عن الخلافة الدنيوية وحدها، وبناءً على أسباب.

أمور خلافية في الفقه

يظهر من استعراض كبريات مسائل الخلاف بين الشيعة وبين مذاهب أهل السنّة في الفقه، أنّها لا تمسّ أصل الدين، وأنّها تحتّم الاجتهاد، وتّسع للخلاف عليها، كما اتّسعت أمور أمثالها للخلاف بين مذاهب أهل السنّة ذاتها، إلّا زواج المتعة، فالخلاف فيه يتميّز ممّا عداه. أمّا الفرائض الدينية فواحدة عندهم وعند أهل السنّة:

في الصلاة: الفروض واحدة لدى أهل السنّة ولديهم، وعدد الركعات فيها واحد، أمّا المندوب عندهم فلا حصر له، وأفضله عندهم «الرواتب»، وعددها على المشهور: ثمانية للظهر، وثمانية للعصر قبل الفريضة، وأربع للمغرب بعد الفريضة، وللعشاء ركعتان جالساً، ويجوز قائماً، وثمانية ركعات صلاة الليل، وركعتا الشفع، وركعة الوتر، وركعتا الصبح قبل الفريضة. فالرواتب عندهم كثيرة^٢. ويشترطون القراءة في الصلاة باللغة العربية، ولا يجيزون الترجمة^٣، ويشترطون الجهر بالبسملة^٤.

وفي الزكاة، ووجوه البرّ: لا يختلفون عن جمهور المسلمين، بل هم يضيفون إليها «خمس» الدخل الذي يجبى للإمام، لأنفاقه في مصارفه الدينية^٥.

→ النعمة للصدوق: ص ٢٠٧، والاحتجاج للطبرسي: ج ٢ ص ٤٨، وبحار الأنوار للمجلسي: ج ٢٣ ص ٦، وينابيع المودة للقندوزي الحنفي: ج ١ ص ٧٥.

١. يقول الشيخ كاشف الغطاء في أصل الشيعة وأصولها: ص ٢٢١: «وعرفت أنّ مرادهم بالإمامة: كونها منصباً إلهياً يختاره الله بسابق علمه بعباده، كما يختار النبي ﷺ، ويأمر النبي بأن يدلّ الأمة عليه، ويأمرهم باتباعه. ويعتقدون [الشيعة] أنّ الله سبحانه أمر نبيّه بأن ينصّ عليّ بن أبي طالب، وينصبه علماً للناس من بعده».

٢. عددها ٣٤ ركعة، راجع: المختصر: ج ٢ ص ١٥، واللمعة الدمشقية: ص ٣٤، وشرح اللمعة: ج ١ ص ٤٧٠.

٣. راجع: المختصر النافع: ص ٨، الرسالة السعدية: ص ١٠٤، الدروس: ج ١ ص ١٧١، جامع المقاصد: ج ٢ ص ٢٤٦.

٤. راجع السرائر: ج ١ ص ٢١٨، شرائع الاسلام: ج ١ ص ٦٥، المختصر النافع: ص ٨، تذكرة الفقهاء: ج ١ ص ١١٧، تحرير الاحكام: ج ١ ص ٢٤٧.

٥. راجع كتاب الخمس في الكتب الفقهية التالية: الهداية للصدوق: ص ١٧٧، الانتصار: ص ٢٢٥، المقتعة للمفيد: ص ٢٧٦، الكافي في الفقه للحلي: ص ١٧٠.

وفي الصوم: يرون الكذب على الرسول^١ يفطر الصائم.
وفي الحج: جهاد^٢ لا يسقط بالموت، بل يؤديه الوارث عن مورثه، وللغير أن يؤديه عن
من مال للمورث قبل أن تقسم التركة^٣.
ويكثر من مظاهر «الروح الإسلامي» في العقود، فيستحبون البدء بالبسملة في كل
معاملة^٤، ويحرصون على الصيغة العربية^٥، ويكرهون معاملة تارك الصلاة والمستهتر^٦،
ويحرمون الاتجار بما يترتب عليه فساد المجتمع^٧.
وفيما يلي أنواع خلاف بينهم وبين أهل السنة، لعلها تبين الإطار العام أو المعالم المهمة،
للوفاق وللخلاف بين الفريقين:

١- الجمع بين الصلاتين

المسلمون مجمعون على جواز الجمع في الحج، في جبل عرفة بين الظهر والعصر، وفي
المزدلفة بين المغرب والعشاء للحجاج خاصة، أما غير ذلك فمحل خلاف^٨.
فالشيعية يجيزون الجمع مطلقاً جمع تقديم وتأخير، لعذرٍ وغير عذر، في السفر والحضر
وإن كان التفريق عندهم أفضل، إلا إذا حدث حرج^٩.

١. بل الكذب على الله ورسوله وأهل بيته. راجع: الجامع للشرائع: ص ١٥٦، منتهى المطلب: ص ٥٦٤، المقنعة
للمفيد: ص ٣٤٤، النهاية للطوسي: ص ١٥٣، الانتصار: ص ٦٢، الكافي في الفقه للحلي: ص ١٧٩، المهذب
البارع: ج ١ ص ١٩٢.

٢. «الحج جهاد الضعيف أو الضعفاء» وسائل الشيعة: ج ١١ ص ١٢، و ص ١٠٠ و ص ١٠٢ و ص ١٠٤، الكافي:
ج ٤ ص ٢٥٩، من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٢٢٦ و ج ٤ ص ٤١٦، الخصال: ص ٦٢٠، مستدرک الوسائل: ج ٨
ص ٨.

٣. انظر شرائع الاسلام: ج ١ ص ١٦٩.

٤. راجع المختصر النافع: ص ٩.

٥. راجع في ذلك: كفاية الأحكام: ص ١٥٥، كتاب النكاح للخوئي: ج ٢ ص ١٦٣، فقه الصادق: ج ١٥ ص ٣٣٩، و
ج ٣١ ص ٢١، منهاج الفقهاء: ج ٣ ص ٢٠٨، المبسوط: ج ٢ ص ٤٠٠ و ج ٤ ص ١٩٤، السرائر: ج ٢ ص ٥١٣،
المختصر النافع: ص ٩.

٦. راجع: المختصر النافع: ص ٩.

٧. راجع المصدر السابق.

٨. راجع: تذكرة الفقهاء: ج ٨ ص ١٧٨، المجموع للنووي: ج ٨ ص ٨٠، المقنعة للمفيد: ص ١٦٥.

٩. راجع: الخلاف للطوسي: ج ١ ص ٥٨٨، المعتمد: ج ٢ ص ٣٧، الذكرى: ص ١١٨ و ١١٩، جامع المقاصد: ج ٢

وحجة الشيعة مشتقة من صحاحهم^١، ومن تفسير الإمام الصادق لقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^٢. فالفسق: هو تراكم الليل واشتداد الظلمة، وبهذا تكون أوقات الصلاة الأربعة ممتدة من الزوال إلى نصف الليل^٣، فالظهر والعصر ينتهيان في الغروب، والمغرب والعشاء إلى نصف الليل. أما الصبح فقد اختصها الله بقوله: ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾.

٢- الأذان

كان بلال - مؤذن الرسول - يؤذن لصلاة الصبح، فيقول بعد «حي على الفلاح»: «الصلاة خير من النوم»، وأقره الرسول على ذلك^٤.
والشيعة يقولون: إن الأذان كان فيه «حي على خير العمل» حتى عهد عمر، كما قال

→ ص ٢٦.

١. ليس للشيعة كتب يجزمون بصحة كل ما فيها كما للسنة في صحيحي البخاري ومسلم. هذا وإن صحاح السنة أخرجت: أن النبي ﷺ صَلَّى الظهر والعصر جمعاً، والمغرب والعشاء جمعاً مدة سبعة أو ثمانية أيام من غير خوف أو مطر، وما أراد بذلك إلا رفع الحرج عن أمته. راجع في ذلك: صحيح البخاري: ج ١ ص ١٤٣ باب تأخير الظهر إلى العصر من كتاب مواقيت الصلاة، و ج ١ ص ١٤٧ باب وقت المغرب، وكلاهما عن ابن عباس. وصحيح مسلم: ج ١ ص ٤٨٩ - ٤٩٠ حديث ٤٩٠ و ٤٩٠ باب الجمع بين الصلاتين في الحضر، و ج ١ ص ٤٩١، و ص ٤٩٢، ومسند أحمد: ج ١ ص ٣٦٩ حديث ١٩٥٤. وقال النووي في شرحه لصحيح مسلم: ج ٥ ص ٣١٩: «وذهب جماعة من الأئمة إلى جواز الجمع في الحضر».

فإذن الشيعة لما جمعت الصلوات إنما اعتمدت على الأحاديث الصحيحة المجمع على صحتها عند الفريقين: السنة والشيعة. وراجع في جواز جمع الصلاة عند الشيعة: وسائل الشيعة: ج ٤ ص ٢٢٠ ب ٣٢، ومستدرك الوسائل: ج ٣ ص ١٤٢ ب ٢٦.

٢. الاسراء: ٧٨. ولقوله تعالى من سورة هود: ١١٤: ﴿واقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات﴾.

٣. فدلوك الشمس يعني: زوالها، ويستمر إلى غسق الليل. أي: إلى ظلمة الليل، وبه يدخل وقت المغرب والعشاء حسب الترتيب.

٤. إن إدراج كلمة «الصلاة خير من النوم» في فضول الأذان ليست من السنة، ولا من سنن الأذان ولا الإقامة على عهد الرسول ﷺ، ولا على عهد أبي بكر، ولكن الخليفة عمر هو الذي أمر مؤذنه بأن يجعلها في أذان الصبح، على ما نقله إمام السنة مالك «إذ بلغه أن المؤذن جاء إلى عمر بن الخطاب يؤذنه لصلاة الصبح، فوجده نائماً، فقال: الصلاة خير من النوم، فأمره عمر أن يجعلها في نداء الصبح». (لاحظ الموطأ: ج ١ ص ٧٢).

الإمام الباقر. وسبب رفعها من الأذان: أن المؤذن وجد عمر نائماً عند أذان الصبح، فأضاف «الصلاة خير من النوم» - كما أورد الزرقاني في تعليقه على الموطأ^١ - فاستحسنها عمر، فأمر أن تضاف إلى أذان الصبح^٢. وأخرج ذلك ابن أبي شيبة^٣.
وعلماء الشيعة متفقون على أن قول: «أشهد أن علياً ولي الله» ليس من فصول الأذان وأجزائه، وأن من يأتي به بنية أنه من الأذان فقد أبدع في الدين، أي أدخل فيه ما هو خارج عنه^٤.

ويقول الشيعة: إن إسقاط «حيّ على خير العمل» كان بأمر من أولي الأمر في عهد عمر^٥، حرصاً منهم على أن تفهم العامة أن الجهاد في سبيل الله هو خير العمل، وأن النداء

١. في ج ١ ص ٢٥.

٢. راجع: جامع الأصول: ج ٥ ص ٢٨٦ ح ٣٣٦٠، موطأ مالك: ج ١ ص ٧٢ كتاب الصلاة، بحار الأنوار: ج ٣١ ص ٤٣.

٣. الشيعة يستدلون على أن الأذان كان فيه عبارة «حيّ على خير العمل» بما هو ثابت بالسند الصحيح عن الإمام جعفر: «لما هبط جبرائيل على رسول الله بالأذان، أذن جبرائيل وأقام وعندها أمر رسول الله علياً أن يدعو بلالاً، فدعاه فعلمه رسول الله الأذان وأمره به» وكان أذان الإمام جعفر هكذا:

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر،
أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله
حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة
حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح
حيّ على خير العمل، حيّ على خير العمل
الله أكبر، الله أكبر
لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. (منه).

٤. إن الشهادة الثالثة المشتملة على الشهادة لعلّي عليه السلام بالولاية إنما هي من أحكام الإيمان عند الشيعة، ويؤتى بها إشعاراً بإيمانهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ المائدة / ٥٥ و ٥٦. فإذا كان الله يشهد في قرآنه بأن علياً من أوليائه، فالشيعة أول الشاهدين بأنّه ولي الله وحجّته على خلقه. راجع فيما أورده المؤلف: من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ٢٩٠، وسائل الشيعة: ج ٥ ص ٤٢٢، بحار الأنوار: ج ٨١ ص ١١١.

٥. ذهب العلامة المتأله عند أهل السنة علاء الدين علي بن محمد القوشجي في شرح تجريد الاعتقاد: ص ٣٧٤ (حجري) في مبحث الإمامة: «قال عمر: ثلاث كنّ على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهن وأحرزهن،

على الصلاة بخير العمل مقدّمة لفرائضها الخمسة ينافي التحريض المطلوب للجهاد، فخطب عمر فنهى عنه^١.

٣- المسح على الرجلين

يختلف الناس في أن مسح القدمين هو الفرض، أو الغسل هو الفرض، لأنّ رسول الله ﷺ تَوْضُؤًا ومسح على قدميه. والشيعَة تستدلّ بمسح الرسول على قدميه على أنّ المسح هو الفرض^٢، ومروّي عن ابن عباس أنّه قال: «ما صحّ عن رسول الله الآ غسّلتين ومسحتين»^٣.

→ وأُعاقب عليهنّ، وهي: متعة النساء، ومتعة الحجّ، وحيّ على خير العمل» وراجع الاحكام: ج ١ ص ٨٤، شرح الازهار: ج ١ ص ٢٢٣، الروض النضير: ج ١ ص ٤٢٥.

١. وقد تعاقبت التصرفات في صدد الأذان من المسلمين. كان عليه الصلاة والسلام يأمر في فجر رمضان بأذنين: أولهما بوقف الغافلين ليتسحّروا، والثاني للصلاة. وكان أذان الجمعة في عهده يبدأ عندما يجلس على المنبر، وهو الأذان الوحيد الذي يؤدّى من مكان مرتفع بالمسجد أو القرية: كسقفه ومنارته، فلمّا كثر الناس في عهد عثمان استحدث نداء آخر على الزوراء، وبقي النداء الأول كما كان، وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥) اكتفى بأذان المنارة، ونقل الأذان الثاني وجعله بين يدي الخطيب. هذا وليس الكلام القليل بين يدي الخطيب، ولا عند الأذان، ليبطله. (منه).

٢. فضلًا عن روايات الشيعة في وجوب المسح، راجع من روايات السنّة التي دلّت على المسح ما يلي: مسند أحمد: ج ١ ص ٩٥ و ١١٤ و ١٢٤، شرح معاني الآثار للطحاوي: ج ١ ص ٣٥ و ج ٢ ص ٣٧٢، كنز العمال: ج ٩ ص ٤٤٤ و ٤٤٨ و ٦٠٥، أحكام القرآن للجصاص: ج ١ ص ٣٤٧، الدرّ المنثور: ج ٢ ص ٢٦٢، سنن أبي داود: ج ١ ص ٨٦، سنن النسائي: ج ١ ص ١٦١، سنن ابن ماجّة: ج ١ ص ١٥٦، المستدرک: ج ١ ص ٢٤١، الاستيعاب: ج ١ ص ١٥٩، الاصابة في معرفة الصحابة: ج ١ ص ١٨٥، اسد الغابة: ج ١ ص ٢١٧، كنز العمال: ج ٩ ص ٤٥١، ٤٤٢، عمدة القاري في شرح البخاري: ج ٢ ص ٢٤٠، تفسير ابن كثير: ج ٢ ص ٢٥، ويقول ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: ج ١ ص ٢١٣: «نعم الكتاب والسنة يدلّان على المسح، وأنّ كثيرًا من الصحابة قالوا بالمسح ولكنهم عدلوا عن هذا الرأي».

٣. غسله الوجه وغسله اليدين، ومسحة الرأس ومسحة القدمين. راجع الحديث في: الدرّ المنثور للسيوطي: ج ٢ ص ٢٦٢، تفسير القرطبي: ج ٦ ص ٩٢، كنز العمال: ج ٩ ص ٤٣٣، سنن الدارقطني: ج ١ ص ١٠١، مسند الشاميين: ج ٤ ص ٢٥، المصنف لعبد الرزاق الصنعاني: ج ١ ص ١٩، السنن الكبرى للبيهقي: ج ١ ص ٧٢، الشرح الكبير لعبد الرحمان بن قدامة: ج ١ ص ١١٦، المغني لابن قدامة: ج ١ ص ١٢٠، المبسوط: ج ١ ص ٨، مسند الحميدي: ج ١ ص ٥٠٩.

ويفسرون الآية ﴿وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم﴾^١ بما يسعفهم في المسح^٢.

٤- الزواج والطلاق

في الزواج

❖ المهر لا يقدر قلةً ولا كثرةً، إلا أن يقصر عن التقويم، كأن يقول: حبة قمح! أما الكثرة ففيها قول الله: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾^٣ وإن كان يكره تجاوز مهر السنة الذي أصدقه النبي زوجاته، وهو خمسمائة درهم^٤.

❖ ويجوز النظر إلى وجه المطلوب زواجها دون استئذان، ومع الوجه الكفّين، وينظرها قائمةً وماشيئةً. وللمرأة أن تنظر إلى الرجل^٥. ولا يجوز العزل عن المرأة إلا بإذنها^٦.

❖ وللمرأة - بكرًا أو تيبًا - أن تزوج نفسها ممن تريد إذا بلغت رشدها وإن كان من المستحسن أن تستأذن وليها في ذلك^٧.

في الطلاق

❖ أما الطلاق الثلاث يفم واحد: فجعله عمر ثلاثاً زجرًا للناس^٨. وبقي الأمر كذلك ثلاثة

١. المائدة: ٦.

٢. ووجه الاستدلال عليه: إذا كان القراءة في «أرجلكم» الكسر فالكلمة معطوفة على لفظ «برؤوسكم» والوجه هو المسح، والآية تدل عليه بكل وضوح. وأما بناءً على قراءة النصب «أرجلكم» فالواو عاطفة أيضاً، و«أرجلكم» معطوفة على محل الجار والمجرور «برؤوسكم»، ومحل «رؤوسكم» منصوب، والعطف على المحل مذهب مشهور في علم النحو، فبناءً على القراءتين المشهورتين تكون الآية دالة على المسح دون الغسل.

٣. النساء: ٢٠.

٤. راجع فيما ذكره المؤلف نهاية المرام: ج ١ ص ٣٦٢، فقد استعرض أغلب آراء العلماء فيه.

٥. راجع في ذلك: إيضاح الفوائد: ج ٣ ص ٥، اللمعة الدمشقية: ص ١٦٠، جامع المقاصد: ج ١٢ ص ٢٨ و ص ٣١، شرح اللمعة: ج ٥ ص ٩٧، مسالك الافهام: ج ٧ ص ٤٠.

٦. راجع: الخلاف: ج ٤ ص ٣٥٩، المبسوط: ج ٤ ص ٢٦٦، المهذب: ج ٢ ص ٢٢٣، شرائع الاسلام: ج ٢ ص ٤٩٦، المختصر النافع: ص ١٧٢.

٧. راجع: المقنعة: ص ٥١٠ - ٥١١، الانتصار: ص ٥٨٣ - ٥٨٥، المهذب: ج ٢ ص ١٩٣.

٨. المسائل الصاغانية: ص ٨٤، مشكل الآثار للطحاوي: ج ٣ ص ٥٥، صحيح مسلم: ج ٢ ص ١٠٩٩، المستدرک على الصحيحين: ج ٢ ص ١٩٦، شرح مسلم للنووي: ج ١٠ ص ٧٠، المغني لابن قدامة: ج ٨ ص ٢٤٤، الشرح الكبير: ج ٨ ص ٢٥٨، عمدة القاري، ج ٢٠ ص ٢٢٣، بداية المجتهد: ج ٢ ص ٦١.

عشر قرناً، ظهر فيها ما أحوج إلى العودة إلى الأمر الأول.

والشيعة لم يقبلوا عمل عمر من بادئ الأمر، فالطلاق الثلاث في مجلس واحد يقع مرة واحدة^١، ولا حلف عندهم بالطلاق على عمل^٢. وهذان إصلاحان أحدثتهما مصر في سنة ٣١٩٢٩.

* وهم يوجبون حضور شاهدين للطلاق، في حين لا يوجبون حضور شاهدين للزواج. فالزوجية تنشأ دون شهود، لكن الطلاق واجب له الشهود^٤. والمتفقهة الآن من أهل السنة في مصر يستحسنون إيجاب حضور شاهدين للطلاق، بل هذا تعديل مطلوب في مشروع قانونٍ للأحوال الشخصية.

* وهم يمنعون طلاق المغضب، والمتهيج والمنزعج^٥، ويقررون أن الطلاق الذي أمر به الله ورسوله هو الذي يقع إذا حاضت المرأة وطهرت من حيضتها، فأشهد الرجل شاهدين عدلين قبل أن يجامعها على تطليقه، ثم هو أحق برجعته ما لم تحض ثلاثاً، فإن مضت ثلاثة قروء قبل أن يراجعها فهي أملك لنفسها، فإن أراد أن يخطبها من الخطأب خطبها، فإن تزوجها كانت عنده^٦.

* وليس للمريض أن يطلق، وله أن يتزوج، فإن تزوج ودخل بها فجانز، وإن لم يدخل ومات بطل الزواج، ولا مهر ولا ميراث للزوجة^٧.
فلنلاحظ اليسر في الزواج عندهم، والتشدد في الطلاق، ورعاية المرأة في كل حال.

١. راجع: المسائل الصاغانية: ص ٨٣، الانتصار: ص ٣٠٨، المبسوط: ج ٤ ص ٣٤٧، المهذب: ج ٢ ص ٢٦٨.
٢. راجع في ذلك: المختصر النافع: ص ٢٣٥، كشف الرموز: ج ٢ ص ٣٢٣، منتهى المطالب: ج ٢ ص ٨٥٥، الدروس الشرعية: ج ٢ ص ٩٦، المهذب البارع: ج ٤ ص ١٢١.
٣. راجع الفتاوي: ص ٣٠٥، وأضواء على الصحيحين: ص ٤٢٥.
٤. راجع في ذلك: المراسم العلوية: ص ١٦١، المهذب: ج ٢ ص ٢٧٤، الحدائق الناضرة: ج ٢٤ ص ٢٩٥، الوسيلة: ص ٣٢١.
٥. راجع في ذلك: الانتصار: ص ٣٠٤، جواهر الكلام: ج ٣٢ ص ١٥.
٦. السرائر: ج ٢ ص ٧٤٠، مختلف الشيعة: ج ٧ ص ٥٠٢، مسالك الأفهام: ج ٩ ص ٢٤١، نهاية المرام: ج ٢ ص ٨٧.
٧. المسألة خلافية، فمتمن وافق المؤلف: المهذب: ص ٢٨٩، السرائر: ج ٣ ص ٣٢١، النهاية: ج ٩ ص ٨٧، الحدائق الناضرة: ج ٢٥ ص ٣١٤.

والحرص على الأسرة.

٥- زواج المتعة (إلى أجل معين)

والشيعية يسمونه الزواج المؤقت، ويرجعونه إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾^١. والمفسرون متفقون على أن جماعة من الصحابة العظام أفتوا بإباحتها، منهم: ابن مسعود^٢، وأبي بن كعب^٣، وابن عباس^٤، وجابر بن عبد الله^٥، وعمران بن حصين^٦، بل

١. النساء: ٢٤.

٢. عن عبد الله بن مسعود قال: كنا نزور مع رسول الله ﷺ وليس لنا شيء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل معين... صحيح البخاري: ج ٨ ص ٧، صحيح مسلم: ج ١ ص ٣٥٤، أحكام القرآن للجصاص: ج ٢ ص ١٨٤، السنن الكبرى للنسائي: ج ٦ ص ٣٢٧، سنن البيهقي: ج ٧ ص ٢٠٠، تفسير القرطبي: ج ٥ ص ١٣٠، تفسير ابن كثير: ج ٢ ص ٨٧، الدر المنثور: ج ٢ ص ٣٠٧، فتح الباري: ج ٩ ص ٩٥.

٣. قرأها هكذا: ﴿فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن﴾ ابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب. راجع المسائل الصاغانية: ص ٣٤، نيل الأوطار: ج ٦ ص ٢٧٥، شرح مسلم للنووي: ج ٦ ص ١١٨، مجمع البيان: ج ٣ ص ٣٢، أحكام القرآن للجصاص: ج ٢ ص ١٤٧، السنن الكبرى للبيهقي: ج ٧ ص ٢٠٥، المغني: ج ٧ ص ٥٧١.

٤. فقد جاء عن عمارة قال: سألت ابن عباس عن المتعة: أسفاح هي أم نكاح؟ قال: لا سفاح ولا نكاح، قلت: فما هي؟ قال: هي متعة كما يقال. راجع تفسير غرائب القرآن للنيسابوري: ج ٥ ص ١٦-١٧ وقد أقسم ابن عباس أن الآية «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى» نزلت هكذا، قال: «والله، لأنزلها الله كذلك». راجع: الدر المنثور للسيوطي: ج ٢ ص ١٤٠، وجامع البيان: ج ٥ ص ١٩، والإيضاح: ص ٤٤١.

٥. عن أبي نضرة قال: كنت عند جابر بن عبد الله، فأتاه أت فقال: ابن عباس وابن الزبير اختلفا في المتعتين، فقال جابر: فعلناهما مع رسول الله ﷺ، ثم نهانا عمر فلم نعد لهما... راجع صحيح مسلم: ج ٤ ص ٥٩ ح ١٣١، فتح الباري: ج ٩ ص ١٤٣، نصب الراية: ج ٣ ص ٢٣٨، السنن الكبرى للبيهقي: ج ٧ ص ٢٠٦، وقال أيضاً: «استمتعنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر...» راجع: صحيح مسلم: ج ٤ ص ٣١، المصنف: ج ٧ ص ٤٩٧، مسند أحمد: ج ٣ ص ٣٨٠، نصب الراية: ج ٣ ص ٢٣٨، فتح الباري: ج ٩ ص ١٤١، كنز العمال: ج ١٦ ص ٥٢٣.

٦. قال عمران: «تمتعنا على عهد رسول الله ﷺ، ونزل القرآن، قال رجل برأيه ما شاء» صحيح البخاري: ج ٢ ص ١٥٣.

وقال: «نزلت آية المتعة في كتاب الله ففعلناها مع رسول الله ﷺ ولم ينزل قرآن يحرمه، ولم ينه عنه حتى مات. قال رجل ما شاء. قال محمد (يعني البخاري) يقال: إنه عمر». صحيح البخاري: ج ٥ ص ١٥٨، وذكر مثل

كانوا وهم يتلون الآية ينطقون بتفسيرها فيقرأون: «فما استمعتم به منهنّ إلى أجل مسمى». فالمشروعية ثابتة، والعمل بها ثابت.

وإنما يجزم أهل السنّة بأنها أبيحت لدواعيها، ثم نُسخت بأحاديث جازمة^١. والشيعه لا يرونها أحاديث ثابتة، ويقولون: إنّ الحلال القطعي الثبوت لا ينفيه تحريم غير قطعي^٢.

وهم يقولون: إنّ المتعة سائغة في السفر لطلب العلم والتجارة والجهاد، فلقد كانت مشروعيتها للسفر وللجهاد، وإنّها زواج عادي، لولا أنّه إلى أجل، فالزوجة في زواج المتعة تعتدّ إذا انتهى الأجل؛ ككلّ طلاق، ولا بدّ من المهر...، والابن من الزواج هو ابن عادي، له الميراث والنفقة، أمّا الزوجة فلا نفقة ولا ميراث لها، إلا إذا اشترطت، وليست النفقة من لوازم الزوجية، فالناشر زوجة ولكنّها بلا نفقة، ومن النساء من ترضى وليست زوجة، كمن طلقت في مرض الموت، ومات زوجها قبل مضي سنة^٣.

والثابت أنّ عمر أعلن تحريم المتعة، إذ خطب الناس فقال: «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ، وعلى عهد أبي بكر رضي الله عنه، وأنا أنهي عنهما...» وأنّه حرّمها وهو بصدد قضية

→ هذا المعنى: التفسير الكبير للرازي: ج ١٠ ص ٥٣، الإرشاد للقسطاني: ج ٤ ص ١٦٩، فتح الباري: ج ٤ ص ٣٣٩، صحيح مسلم: ج ١ ص ٢٧٤، مسند أحمد: ج ٤ ص ٤٢٩.

١. راجع: التفسير الكبير للرازي: ج ٢ ص ١٦٧، المنهاج في شرح صحيح مسلم على هامش القسطاني: ج ٦ ص ١٢٨.

٢. وهو ما ذكره - أيضاً - الفخر الرازي في مفاتيح الغيب: ج ١٠ ص ٥٣ - ٥٤ قال: «الحجّة الثانية على جواز نكاح المتعة أنّ الأمة مجمعة على أنّ نكاح المتعة كان جائزاً في الإسلام، ولا خلاف بين أحد من الأمة فيه، إنّما الخلاف في طريان الناسخ فنقول [بتصرّف]:

لو كان الناسخ موجوداً فهو إما متواتراً أو خبر آحاد. فلو كان متواتراً فلماذا أنكره علي وعبد الله بن عباس وعمران وجابر وأبي؟! وهذا الإنكار منهم للتواتر يستدعي تكفيرهم! أو كان خبر آحاد، وخبر الآحاد ظني، وإباحتها معلومة بالإجماع وهي قطعية في زمن النبي ﷺ، والظني لا يرفع القطعي.

ولو تنزلنا وقبلنا النسخ، فإنّ روايات النسخ كانت يوم خيبر، وفي أكثر الروايات أنّه أباح المتعة في حجّة الوداع وفي يوم الفتح، وهذان اليومان متأخران عن خيبر، وهذا يلزم منه تقدّم الناسخ على المنسوخ، وهو باطل.

٣. راجع أحكام المتعة في المقنع للصدوق: ص ٣٣٧ وما بعدها، والهداية للصدوق: ص ٢٦٤ وما بعدها، ورسالة المتعة للشيخ المفيد، ضمن المسائل السروية: ص ٣٠ وما بعدها، والانتصار: ص ٢٦٨ وما بعدها، ورسائل المرتضى: ج ١ ص ٢٣٧ وما بعدها، والكافي في الفقه للحلي: ص ٢٩٨ وما بعدها، والرسائل التسع: ص ١٥٤ وما بعدها.

٤. سنن البيهقي: ج ٧ ص ٢٠٦، أحكام القرآن للجصاص: ج ٢ ص ١٥٢، المغني لابن قدامة: ج ٧ ص ٥٧١.

لعمر وبن حُرَيْث، ثم أطلق النهي^١.

وأهل السنة يقرّون أنّ نهى عمر عنها كان إعلاناً للتحريم ثابت قبل ذلك، ولم تقبل الشيعة نهى عمر من بادئ الأمر، بل قال علي: «لولا نهى عمر عن المتعة ما زنى إلا شفا (قليل أو مشفٍ على الهلكة) أو شقي»^٢.

وثبت عن الإمام الصادق قوله: «ثلاث لا أتقي فهنّ أحداً: متعة الحج، ومتعة النساء، والمسح على الخفّين»^٣.

ومن نوادر يحيى بن أكرم^٤ قاضي المأمون أنّه سأل شيخاً من أهل البصرة: بمن اقتديت

→ و ٥٧٢، الشرح الكبير: ج ٧ ص ٥٣٧، كنز العمال: ج ١٦ ص ٥١٩ و ٥٢١، مسند أحمد: ج ١ ص ٢٥، تاريخ المدينة لابن شبة: ج ٢ ص ٧٢٠، المبسوط: ج ٤ ص ٢٧، المحلى: ج ٧ ص ١٠٧، شرح نهج البلاغة: ج ١ ص ١٨٢، تفسير القرطبي: ج ٢ ص ٣٩٢، الفصول في الأصول: ج ٣ ص ٢٠٥، علل الدارقطني: ج ٧ ص ١٥٦.

١. صحيح مسلم: باب نكاح المتعة: ص ١٠٢٣ ح ١٤٠٥، شرح النووي: ج ٩ ص ١٨٣، المصنّف لعبد الرزاق: ج ٧ ص ٥٠٠، سنن البيهقي: ج ٧ ص ٢٣٧، مسند أحمد: ج ٣ ص ٣٠٤، فتح الباري: ج ١١ ص ٧٦، زاد المعاد: ج ١ ص ٢٠٥، كنز العمال: ج ٨ ص ٢٩٣.

٢. ورد الحديث بألفاظ متغايرة: الكافي: ج ٥ ص ٤٤٨، الاستبصار: ج ٣ ص ١٤١، تهذيب الأحكام: ج ٧ ص ٢٥٠، وسائل الشيعة: ج ١ ص ١٩ و ج ٢١ ص ٥، مستدرک الوسائل: ج ١٤ ص ٤٤٧ و ٤٤٩، الإيضاح: ص ٥١٩، عوالي اللئالي: ج ٢ ص ١٢٥، بحار الأنوار: ج ٣٠ ص ٦٠١ و ج ٥٣ ص ٣١ و ج ١٠٠ ص ٣٠٥، تفسير الطبري: ج ٥ ص ٩، كنز العمال: ج ١٦ ص ٥٢٣، تفسير الفخر الرازي: ج ١٠ ص ٥١.

٣. الثلاثة التي ذكرها الإمام الصادق عليه السلام والتي لا تقية فيها إنما هي: متعة الحج، وشرب المسكر، والمسح على الخفّين. راجع: الكافي: ج ٦ ص ٤١٥، من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٣١٧، الخصال: ص ٢٣، الاستبصار: ج ٢ ص ١٥١، تهذيب الأحكام: ج ٥ ص ٢٦ و ج ٩ ص ١١٤.

٤. ولي يحيى القضاء في البصرة وعمره نحو عشرين سنة، فاستصرفه أهل البصرة، فقال لهم: أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجّه به النبي قاضياً على مكة يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجّه به النبي قاضياً على اليمن، وأنا أكبر من كعب بن أبي الذي وجّه به عمر قاضياً على البصرة.

وكان يحيى حسن التأتّي للأمور، ومنها سياسة القضاء والخلفاء: دخل على المأمون رجل يشكو وكيلاً للمأمون أنّه اشترى منه جواهر بثلاثين ألف دينار، فقال المأمون: لعلّ الوكيل اشترى لنفسه أو سلّم الشاكي المال...، قال الشاكي: فإذاً أدعوك إلى القاضي الذي نصبته لرعيّتك، وجي بيحيى بن أكرم، فقال للمأمون: إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء، قال: قد فعلت، قال: فإني أبدأ بالعامّة، أو لا يصلح المجلس للقضاء...، ففتح الباب -وقد في ناحية من الباب وأذن للعامّة، ثم دعا بالرجل، فقال له يحيى: ما تقول؟ قال: أقول أن تدعو

في جواز المتعة؟ قال: بعمر! قال: كيف وكان من أشد الناس فيها؟^١ قال: إنَّه صعد المنبر فقال: أيُّها الناس، متعتان أحلَّهما الله ورسوله لكم، وأنا أحَرِّمُهما عليكم وأُعاقبُ عليهما! فقبلنا شهادته ولم نقبل تحريمه^٢.

٦- الميراث

للشيعة تفسير في الموارث في صالح البنات، لذواتهنّ، ولمن يتوسل للميراث بهنّ.

→ بخصمي أمير المؤمنين، فنادى المنادي، فإذا المأمون قد خرج ومعه غلام يحمل مصلى حتّى وقف علىّ يحيى وهو جالس، فطرح المصلى ليقعد عليها، فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين، لا تأخذ علىّ صاحبك شرف المجلس... فطرح للرجل مصلى آخر، ثم نظر في دعوى الرجل، وطالب الرجل المأمون باليمين فحلفها المأمون.

ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه، قال المأمون: ما أقامك؟ قال: إنّي كنت في حقّ الله جلّ وعزّ حتّى أخذته منك، وليس الآن من حقّي أن أتصدّر عليك. فأمر المأمون أن يحضر ما ادّعى الرجل من المال، فقال له: خذه إليك، والله يعلم ما دفعت إليك هذا المال إلّا خوفاً من هذه الرعية، لعلّها ترى أنّي تناولتك من وجه القدرة، وإنّها لتعلم الآن أنّي ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال. (منه).

١. كان يحيى مع المأمون عندما رأى - وهو على رأس جيشه لمحاربة الروم - جواز المتعة، فهي أول ما شرّعت في الحرب، فأمر فنودي بتحليلها للمحاربين. قال يحيى لصاحبيه كانا معه في سفر المأمون: بكرا إليه غداً، فإن رأيتما للقول وجهاً فقولوا، وإلّا فأمسكنا حتّى أدخل، فدخلنا عليه فسمعاه مفتاحاً يقول: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبي بكر وأنا أنهى عنهما! ومن أنت... حتّى تنهى عمّا فعله رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ؟! (يقصد عمر بكلامه) فأوماً أحد الرجلين لصاحبه وقال: رجل يقول في عمر بن الخطّاب... نكلّمه نحن! وأمسكنا حتّى جاء يحيى... فقال المأمون ليحيى: مالي أراك متقيراً؟ قال: هم غمّ يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام، قال المأمون: وما حدث في الإسلام؟ قال: النداء بتحليل الزنا، قال المأمون: الزنا! قال: نعم، المتعة زنا، قال تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا، قال: فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث... ولها شرائطها؟ قال: لا، قال يحيى: فقد صار متجاوز هذين من العادين. وهذا الزهري روى عن عبد الله والحسن ابني محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالهني عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها. وقال المأمون: محفوظ هذا من حديث الزهري؟ قال يحيى: رواه جماعة منهم مالك. قال: استغفر الله، نادوا بتحريم المتعة. ولا غرابة في أن يعدل المأمون. فلقد طالما جلس هو وأخوه الأمين وأبوهما الرشيد في حلقة مالك. (منه).

٢. محاضرات الراغب: ج ٢ ص ٩٤، الصراط المستقيم: ج ٣ ص ٢٧٧، بحار الأنوار: ج ٣٠ ص ٦٠٠، شجرة طوبى: ج ١ ص ٧٠، القدير: ج ٦ ص ٢١٢، زهر الربيع: ص ١٦.

يقول تعالى: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَدٌّ وَكَانَتْ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيئُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ هَا وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَتْ ابْنَتَانِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ»^١ وهم يرون البنت ولداً في اللغة والعرف، ولذلك يعطون البنت دائماً، ولا يعطون الأخت أو الأخ إن كان هناك بنت أو ابن، فكلاهما ولد^٢. وهم يسقطون الوصية مادام هناك ولد، ابن أو بنت^٣.

وللشيعة قاعدة: أن كل فريضة لم يهبها الله إلا إلى فريضة، تكون مقدمة عند «العول» وكل فريضة إذا زالت عن فرضها، لم يكن لها إلا ما بقي، تكون مؤخره.

مثال ذلك: للزوج النصف، فإن هبط له الربع، فإن دخل عليه في التقسيم ما يزيد عن السهام رجع إلى الربع المفروض، ولا يزيله عن الفرض شيء، ومثله: الزوجة والأم. أما البنات والأخوات فلهنّ النصف والثلاثان، فإذا أزلتهنّ الفرائض عن ذلك لم يكن لهنّ إلا ما بقي، فإذا اجتمع ما تقدّم الله وما آخر بُدئ بما قدّم الله فأعطي حقه كاملاً، فإن بقي شيء كان لما آخر^٤.

وهو تطبيق لحديث ثابت عندهم^٥، أورده الشهيد الثاني^٦، وأورده الحاكم في المستدرک وقال: إنه صحيح على شرط مسلم^٧. ويستشهد أهل السنة بآيات، ويستشهد الشيعة بآيات^٨.

١. النساء: ١٧٦.

٢. راجع في ذلك: الانتصار للمرتضى: ص ٥٥٩، السرائر: ج ٣ ص ٢٥٤، كشف الرموز: ج ٢ ص ٤٣٨، مسالك الافهام: ج ١٣ ص ١٠٢.

٣. راجع: الدروس الشرعية: ج ٢ ص ٣٦٣، الانتصار: ص ٥٩٧ وما بعدها.

٤. راجع في ذلك: الناصريات: ص ٤٠٦ وما بعدها، مسالك الافهام: ج ١٣ ص ١١٢ وما بعدها، مجمع الفائدة: ج ١١ ص ٥٦٤ وما بعدها، كشف اللثام: ج ٢ ص ٢٨٩، جواهر الكلام: ج ٣٩ ص ١٠٧ وما بعدها.

٥. الكافي: ج ٧ ص ٨٠، من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٢٥٦، علل الشرائع: ج ٢ ص ٥٦٨، وسائل الشيعة: ج ٢٦ ص ٧٩، بحار الانوار: ج ١٠١ ص ٣٣١.

٦. شرح اللمعة الدمشقية: ج ٨ ص ٨٦-٩١.

٧. المستدرک على الصحيحين: ج ٤ ص ٣٤٠ كتاب الفرائض.

٨. فصل في ذلك ابن رشد الحفيد في بداية المجتهد ونهاية المقتصد: ج ٢ ص ٢٨٤، وانظر: معالم المدرستين: ج ٢

وهم ينفردون بما يسمّى «الحبوة»^١ للولد الأكبر: ملابس أبيه وثيابه ومصحفه وخاتمه، زيادة على حصّته في الميراث^٢، كما ينفردون بعدم توريث الزوجة من عقار الزوج ورقبة الأرض عيناً وقيمة^٣، لأخبار وردت عن الأئمة مروية عن النبي^٤.

٧- متعة الحجّ

ينشئ الحاج إحرامه من ميقاته (أماكن القصد إلى البيت الحرام) والمتمتع يأتي مكة ويطوف بالبيت، ثم يقصّر ويحلّ من إحرامه ويقيم بعد ذلك حلالاً، ثم يفيض إلى المشعر الحرام، ثم يأتي بأفعال الحجّ بإحرام جديد. وهذان: التقصير والإحلال، تيسير بإباحة محظورات الإحرام في المدة المتخلّلة بين الإحرامين^٥. وهذا ما كرهه عمر وحرّمه قائلًا: هي سنّة رسول الله، لكنّي أخشى أن يعرّسوا بهنّ - نسائهم - تحت الأراك^٦، ثم يروحون بهنّ حجّاجاً، فخطب ونهى عن هذه المتعة مع متعة الزواج^٧.

- ص ٣٤٥، والدرّ المنتور: ج ٢ ص ١٢٧، وسير أعلام النبلاء: ج ١٣ ص ١٠٨، والنص والاجتهاد: ص ٢٦٠ - ٢٦١، وأجوبة مسائل جار الله: ص ٩٠ - ٩١، والمحلّي لابن حزم: ج ٩ ص ٢٦٤.
١. الحياء: ما يحويه الرجل صاحبه ويكرمه به، وهو العطاء. (لسان العرب: ج ١٤ ص ١٦٢).
٢. راجع في ذلك: الانتصار: ص ٥٨٢، رسائل المرتضى: ج ١ ص ٢٥٧، الدرر المنضود: ص ٢٧٣.
٣. راجع في ذلك: المسائل الصاغانية: ص ٩٨، مختلف الشيعة: ج ٩ ص ٣٥، إيضاح الفوائد: ج ٤ ص ٢٤١، شرح اللعة الدمشقية: ج ٨ ص ١٧٧، مسالك الافهام: ج ١٣ ص ١٨٧، رسائل الشهيد الثاني: ص ٢٥٧ وما بعدها، مجمع الفائدة: ج ١١ ص ٤٤٦.
٤. الكافي: ج ٧ ص ١٢٧، ١٢٨، الاستبصار: ج ٤ ص ١٥٢ ح ٥٧٢، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ٥١٨، التهذيب: ج ٩ ص ٢٩٨ ح ٢٦.
٥. راجع: الانتصار: ص ٢٢٨ وما بعدها، المعتمد: ج ٢ ص ٧٨٢ وما بعدها، إرشاد الأذهان: ج ١ ص ٣١٢ وما بعدها، رسائل الكركي: ج ٢ ص ١٥٨ وما بعدها، جامع المقاصد: ج ٣ ص ١١٠.
٦. الأراك: شجر معروف، وهو شجر السواك. (كتاب العين: ج ٥ ص ٤٠٤).
٧. مسند أحمد: ج ١ ص ٤٩، سنن ابن ماجة: ج ٢ ص ٩٩٢، السنن الكبرى: ج ٥ ص ٢٠، الفائق في غريب الحديث: ج ٢ ص ٣٥١، كنز العمال: ج ٥ ص ١٦٥.

ومع ذلك فابن عمر يقول عن عمل أبيه: «أرأيت إن نهى عنها أبي وصنعها رسول الله، أمر أبي أتبع أم أمر رسول الله؟» وابن عباس كعلي لا يحزمان ما حرّمه عمر^٢.
ولمّا قدم علي من اليمن وجد فاطمة الزهراء قد حلّت ولبست صبيغاً، واكتحلت، فأنكر ذلك عليها، فقالت: «إنّ أبي أمرني بهذا، فذهب إلى رسول الله، فقال: «صدقت صدقت»^٣.
والشيعة لهذا يرون متعة الحجّ^٤.

٨- التفسير بالتأويل

يروى الشيعة عن النبي أنّه قال: «إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن»^٥. ويروون عن علي أنّه قال: «ما من آية قرآنية إلاّ ولها ظاهر وباطن، وحدّ ومطلّع»^٦. ويروى هذا البيان عن سهل التستري^٧، من المفسّرين الصوفيّين. وأنّه أضاف:

١. وردت بلسانين أوردتهما: صحيح الترمذي: ج ٢ ص ١٥٩، تفسير القرطبي: ج ٢ ص ٣٦٥، زاد المعاد: ج ١ ص ١٩٤، هامش شرح المواهب للزرقاني: ج ٢ ص ٢٥٢، ضعيف سنن الترمذي للالباني: ص ٩٦، جامع المدارك: ج ٤ ص ٢٨٩، وسائل الشيعة: ج ١ ص ١٩، بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ٦٢٤، مسند أحمد: ج ٢ ص ٩٥، النصّ والاجتهاد: ص ٢٠٦، القدير: ج ٦ ص ٢٠٢، تفسير الميزان: ج ٢ ص ٨٨.
٢. سنن النسائي: ج ٥ ص ١٥٣، كنز العمال: ج ٥ ص ١٦٤، مسند أحمد: ج ١ ص ١٣٦، صحيح مسلم: ج ٤ ص ٤٦، السنن الكبرى للبيهقي: ج ٥ ص ٢٢، مسند أبي داود: ص ١٦، مسند أبي يعلى: ج ١ ص ٢٨٤، السنن الكبرى للنسائي: ج ٢ ص ٣٤٩، البداية والنهاية: ج ٥ ص ١٤٦، السيرة النبوية لابن كثير: ج ٤ ص ٢٥٢.
٣. مسند أحمد: ج ٣ ص ٣٢٠، صحيح مسلم: ج ٤ ص ٤٠، سنن النسائي: ج ٥ ص ١٤٤، السنن الكبرى للبيهقي: ج ٥ ص ٨، المصنّف لابن أبي شيبة: ج ٤ ص ٤٢٤، منتخب مسند عبد بن حميد: ص ٣٤٢، السنن الكبرى للنسائي: ج ٢ ص ٣٤٢، مسند أبي يعلى: ج ٤ ص ٩٥، المنتقى من السنن المسندة: ص ١٢٢، المعجم الكبير للطبراني: ج ٢٢ ص ٤١٣، نصب الراية: ج ٣ ص ١٣٠، المغني لابن قدامة: ج ٣ ص ٣٠٧، الشرح الكبير: ج ٣ ص ٣٢٦.
٤. راجع في ذلك: منتهى المطلب: ج ٢ ص ٧٨٨، تذكرة الفقهاء: ج ١ ص ٣٣٦، ج ٧ ص ٣٢٥.
٥. عوالي اللئالي: ج ٤ ص ١٠٧، مستدرك سفينة البحار: ج ٨ ص ٤٥٥، تفسير فرات: ص ١٧ ولكن فيه: «إلى سبعين بطناً».

٦. تفسير الصافي: ج ١ ص ٣١، تفسير الميزان: ج ٣ ص ٧٣، فيض القدير: ج ٢ ص ٥٠٠.
٧. سهل بن عبد الله بن يونس التستري: أبو محمد، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم، والمتكلّمين في علوم الإخلاص

فالظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحدّ: حلالها وحرامها، والمطلّع: إشراف القلب على المراد به فقهاً عن الله عز وجل... قيل له: ما الباطن؟ قال: فهمه^١.

ويروون عن الإمام الصادق أنه قال: «إنّ في كتاب الله أموراً أربعة: العبارات، والإشارات، والحقائق، واللطائف. فالعبارات: للعوامّ. والإشارات: للخواصّ، واللطائف: للأولياء، والحقائق: لأنبياء الله»^٢.

والمستعجب لتفسيرات الإمام الصادق وأجوبته على المسائل يجدها تتبع من بحر عميق في فهم القرآن واللسان العربي، أمكنه أن يكشف للناس بين الفينة والفينة ما فيه من شمول، وما بينه وبين السنّة من صلة الأصل بفرعه، وبذلك قدر الإمام أن يفسّر القرآن بالقرآن - ففي بيته نزل - وأن يجد للحديث الواحد أصولاً عدّة، في آيات متفرّقة، بمجرد أن يدلي إليه سائل بسؤال! وهو منهج سيتتابع عليه عظماء الأئمة من أهل السنّة، وفي طليعتهم أحمد بن حنبل. ولا يسوغ لنا أن نعتبر تفسيرات الصادق من أضرب التفسير بالرأي، أو بالمأثور، أو بهما - وهي مصنّفة بين عقلي ونقل، وصوفي ورمزي وقصصي و... الخ - وفي البعض منها تأويل باطني.

وابن عطية^٣ من كبار مفسري أهل السنّة، ينفي صحّة نسبة تفسير باطني أو رمزي إلى

→ والرياضيات وغيوب الأفعال، له كتاب في تفسير القرآن مختصر، وكتاب رقائق المحييين، وقصص الأنبياء. ولد في شوشتر سنة ٢٠٠ هـ، وتوفي بالبصرة سنة ٢٨٣ هـ. (طبقات الصوفية: ٢٠٦، وفيات الأعيان: ج ١ ص ٢١٨، حلية الأولياء: ج ١٠ ص ١٥٩، الأعلام: ج ٣ ص ١٤٣).

١. العبارة ذكرها الفيض الكاشاني عن أمير المؤمنين في تفسير الصافي: ج ١ ص ٣١، وكذا تفسير الميزان: ج ٣ ص ٧٣، وذكرها الزركشي في البرهان: ج ٢ ص ١٥٤ دون إشارة إلى القائل.

٢. بحار الأنوار: ج ٨٩ ص ١٠٣، نزهة الناظر: ص ١١٠، تفسير الصافي: ج ١ ص ٣١. ووردت عن أمير المؤمنين عليه السلام، رواها: عوالي اللئالي: ج ٤ ص ١٠٥، تفسير الصافي: ج ١ ص ٢٩، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٧٨. ووردت عن الحسين بن علي عليه السلام، رواها: بحار الأنوار: ج ٨٩ ص ٢٠، مستدرک سفينة البحار: ج ٨ ص ٤٥٠، ولا تنافي.

٣. عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمان بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الفرناطي، مفسر، فقيه أندلسي من أهل غرناطة، عارف بالأحكام والحديث، وله شعر، ولي قضاء المرية. وكان يكثر الغزوات في جيوش الملتحمين،

الإمام الصادق، ويقول «... وهذا قول جارٍ على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد عليه السلام، ولا ينبغي أن يلتفت إليه»^١.

إليك مثلاً - بين نظائر تجلّ عن الحصر - لاستعمال اللسان العربي في التفسير: يقول زيارة للإمام الصادق: من أين علمت أنّ المسح ببعض الرأس؟ ويجيب الإمام: لمكان الباء في قوله تعالى^٢: «وامسحوا برؤوسكم»^٣. يقصد: أنّ الباء للبعضية^٤.

ولقد تتابع على هذا التفسير الأئمة في اللغة والفقه^٥. جاء في المصباح المنير في مادة «بعض»: «أنّ الباء في قوله تعالى: «وامسحوا برؤوسكم» للتبعيض...، ونصّ على مجيئها للبعض ابن قتيبة...، وأبو علي الفارسي وابن جنّي...، وذهب إلى مجيء الباء بمعنى البعض الشافعي وهو من أئمة اللسان، وقال بمقتضاه أحمد وأبو حنيفة.

ومن استعمال ظاهر اللسان العربي تفسير «الكوثر» بأنّه الذرّية الكثيرة، في قوله تعالى: «إنا أعطيناك الكوثر» فهي صيغة مبالغة من الكثرة «فوعل»، يؤيد ذلك الآية التي تجيء فيما بعد «إنّ شأنك هو الأبر» والأبتر: من لا عقب له. وبهذا ساغ تفسير الشيعة بأنّ الكوثر هو الذرّية^٦، وقد رزق الله النبي الذرّية الكثيرة من فاطمة، فهي الكوثر المقصود. والآخرون

→ توفي بلورقة سنة ٥٤٢ هـ، له كتاب «المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» في عشر مجلدات. (نفع الطيب: ج ١ ص ٥٩٣، الأعلام: ج ٣ ص ٢٨٢).

١. حكاة عنه في تفسير القرطبي: ج ٧ ص ٤، وتفسير الثعالبي: ج ٢ ص ٤٧٤، وفتح القدير: ج ٢ ص ١٢٣.

٢. الكافي: ج ٢ ص ٣٠، من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ١٠٣، علل الشرائع: ج ١ ص ٢٧٩، الاستبصار: ج ١ ص ٦٢، تهذيب الأحكام: ج ١ ص ٦١، وسائل الشيعة: ج ١ ص ٤١٣، مستدرک الوسائل: ج ٢ ص ٥٣٩، عوالي اللئالي: ج ٢ ص ١٩٤.

٣. المائدة: ٦.

٤. بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٤٤٥.

٥. راجع: الميسوط للسرخسي: ج ١ ص ٦٣ و ١٨ ص ٢، تحفة الفقهاء: ج ١ ص ٩، أحكام القرآن للجصاص: ج ٢ ص ٤٢٨ و ٤٢٩ و ٤٩٠، مجمع البحرين للطريحي: ج ١ ص ١٤٦ و ٢٢٠، تاج العروس: ج ١٠ ص ٤٣٠.

٦. راجع: مجمع البيان: ج ١٠ ص ٤٦٠ و ٤٦١، تفسير غريب القرآن: ص ٢٧٥، بحار الأنوار: ج ٨ ص ١٧ و ١٦ ص ٣١١، مجمع البحرين: ج ٤ ص ٢٠.

يقولون: إنَّ الكوثر نهر في الجنة^١. وغيرهم يؤوّلونه بأنّه النبوة^٢.

ولقد أسلفنا طائفة من تفسيرات الإمام؛ كالخوف من عدم العدل بين النساء، والإنفاق من رزق الله، ورؤية الله جلّ شأنه، وقتل النفس بإخراجه من الهدى إلى الضلال، والتفسيرات التي جعلت أبا حنيفة يقول عن آية ﴿وما نموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾^٣: لكأنّي ما قرأتها قطّ في كتاب الله، ولا سمعتها إلا في هذا الموقف^٤. وهي جميعاً صادرة عن فهمٍ دقيقٍ للسان العربي الذي نزل به القرآن.

والتفسير بالظاهر ممّن يفهم البلاغة العربية ومجازاتها المتعدّدة، والاستعارة، والإيجاز اللفظي، وهو بعض خصائص الإعجاز البياني في القرآن. لا ينفي استعمال العقل، بل فيه مجال واسع له. ولا ينفي القيمة العظيمة لتفسير الزمخشري المعتزلي^٥، وهو حجّة في اللغة، وحجّة في الجمع بين الظاهر وبين وجوه الرأي بالمعاني الدقيقة وأسرار البلاغة^٦.

١. انظر: رسائل المرتضى: ج ١ ص ٤٣٨، الإقناع: ج ١ ص ٤٥، مغني المحتاج: ج ١ ص ٦٠، تفسير القمي: ج ٢ ص ١٠ و ٤٤٥، تفسير فرائد الكوفي: ص ٦٠٩، التبيان للطوسي: ج ١٠ ص ٤١٧، مجمع البيان: ج ١٠ ص ٤٥٨.
٢. الكوثر: النبوة والكتاب على ما قال عكرمة، وقيل: هو القرآن عن الحسن، وقيل: هو كثرة الأصحاب والأشياء عن أبي بكر بن عباس. مجمع البيان: ج ١٠ ص ٤٦٠.
٣. التوبة: ٧٤.

٤. راجع: وسائل الشيعة: ج ٢٤ ص ٣٥١، كتاب الغنية: ص ١٥١، بحار الأنوار: ج ١٠ ص ٢١٦، درر الأخبار: ص ٣٥٤.

٥. وهو كتاب الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ هـ. ولقب (جار الله) لأنه سافر إلى مكة وجاور بها زمناً، وقيل: إنه كان أعرج برجل واحدة. راجع مقدمة الكشاف.

٦. يؤوّل المعتزلة الألفاظ ليفسروا معاني الآيات طبقاً لأصولهم، وعلى ذلك أولوا الآيات التي قد تتمّ عن التشبيه والجهة والجسمية. والتفسير بالرأي يقوم على قاعدة كصمام الإيمان للذين ينهجونه، فبالكتاب آيات محكمات وأخر متشابهات، والمحكمة آيات لا يتمازى في معناها أحد، فإذا وردت آية متشابهة فسّرت على أساس الآية المحكمة، مثل قوله تعالى: ﴿إلى ربّها ناطرة﴾ تفسّر على أساس قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ فيكون معناها: الرضى عنها وتوقع النعمة من الله. ومثل قوله: ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ تفسّر على أساس قوله: ﴿إنّ الله لا يأمر بالفحشاء﴾. وأكثر المؤوّلين يلجأون للمجاز، وفي القرآن كثير منه، مثل قوله تعالى: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ فمعناها: القدرة - وهم ككلّ المفسّرين - يبدأون من أنّ الله تعالى ليس كمثل شيء. أمّا التفسير بالمأثور فتصدّره مدرسة الإمام الطبري، يجمع الأقوال والآثار ويختار منها. (منه).

وممن أثارهم الإعجاب به: الإمام يحيى بن حمزة العلوي^١ (٧٤٩) صاحب كتاب «الطراز».

وما من تفسير ثبت عن إمام عن أهل البيت إلا تلقته العقول بالقبول، لأنه لا يغير النص من القرآن والسنة، وإنما يشرحهما في نورانية باهرة^٢، في حين أن المعتزلة يؤولون ليخضعوا المعنى لأصولهم الخمسة^٣. وهذا خلاف عظيم بين المؤولين وبين الإمام جعفر والشيعية الإمامية.

أما الإسماعيلية فلم بعض التأويلات الباطنية التي تهمل المعنى الظاهر، وتحمل الألفاظ ما لا تحتمله. والاسماعيلية فرقة شيعية، لم تظهر إلا بعد موت الإمام جعفر بقرن أو أكثر.

٩- البداء (ومفهومه الشائع: الظهور بعد الخفاء)

نسب إلى الشيعة القول بأن الله يبدو له فيغير ما قرره لظهور طارئ، وأطلقوا على ذلك لفظ

١. يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني العلوي الطالبي، من اكابر أئمة الزيدية وعلماهم في اليمن، يروى أن كراريس تصانيفه زادت على عدد أيام عمره. ولد في صنعاء سنة ٦٦٩ هـ، وأظهر الدعوة بعد وفاة (المهدي) محمد بن المظهر سنة ٧٢٩ هـ، وتلقب بالمؤيد بالله أو المؤيد برب العزة، واستمر إلى أن توفي في حصن هران (قبلي ذمار) سنة ٧٤٥ هـ. من تصانيفه: الشامل في أصول الدين، نهاية الوصول إلى علم الأصول، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. (الأعلام: ج ٨ ص ١٤٣، بلوغ المرام: ج ٥١ ص ٤١٤، البدر الطالع: ج ٢ ص ٣٣١).
٢. إليك مثلاً تفسير «الإمام العسكري» للحروف المقطعة مثل: (١. ل. م. ...) في فواتح السور، يراها تنبيهاً على أن هذا الكتاب الذي أنزله الله هو هذه الحروف المقطعة، وأنه بلغتكم وهجانكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين. وما يزال هذا التفسير في طليعة تفسير الحروف المقطعة، في أوائل السور. (منه).
٣. أصول المعتزلة الخمسة:

- ١- التوحيد الذي ينفي عن الذات صفات الأجسام والمكان، وأهل السنة يرون صفات الله خاصة به، وأنه تعالى «كما وصف نفسه»، فليس في ذلك تشبيه لله بخلقه.
- ٢- العدل، وفحواه أن الله لا يأمر إلا بالحسن، ولا ينهى إلا عن القبيح، وما يفعله الناس عمل من أعمالهم، ولذلك يثابون ويعاقبون، وأهل السنة يقولون: إن الله خالق العمل، والعبد كاسب له.
- ٣- الوعد والوعيد، أو الثواب والعقاب ملازمان للفعل، وأهل السنة يرون التوبة قد يقبلها الله من مرتكب الكبيرة.
- ٤- المنزلة بين المنزلتين، فمركب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر، بل فاسق وإن كان عقابه أقل من الكافر.
- ٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع اشتدادهم في ذلك عندما كانت السلطة في أيديهم. (منه).

البداء^١. والشيعية الإمامية لا تقول شيئاً بهذا المعنى، بل تعتقد أنّ الله عالم بكلّ شيء، وعلمه أزلي بما كان وما يكون^٢.

يقول الإمام الصادق: «ما بدا لله في شيء إلا كان في علمه قبل أن يبدو له»^٣.
وسأله منصور بن حازم^٤: هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله بالأمس؟ قال: «لا، من قال هذا فقد أخزاه الله» قال منصور: ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أليس في علم الله؟ قال: «بلى، قبل أن يخلق الخلق»^٥.

ويروى عنه قوله: «إنّ الله لم يبد له عن جهل»^٦.
فجميع الكائنات الممكنة، قبل أن تخلق، قدّرها الله تعالى وكتبها بمشيئته وإرادته في اللوح المحفوظ، والله تعالى يقول: «يحو الله ما يشاء ويثبت»^٧، وكلّ ما يتعلّق به القضاء والتقدير لا بدّ له من تعلّق الإرادة والمشيئة به، وما لا يكون قضاؤه وتقديره حتماً ممّا هو مورد المحو والإثبات تتعلّق المشيئة بمحوه وإثباته.

وقد يكون وجوده وتكوينه بإرادة الله تعالى منوطاً، أي مشروطاً بتحقق أمر آخر، فيكون

١. كما قال الفخر الرازي في تفسيره للآية ٣٩ من سورة الرعد.
٢. راجع: التوحيد للصدوق: ص ١٣٥، وأوائل المقالات: ص ٥٤ و ٥٥.
٣. الكافي: ج ١ ص ١٤٨، شرح أصول الكافي: ج ٤ ص ٢٤٦، الاحتجاج: ج ٢ ص ١٧٩، الفصول المهمة: ج ١ ص ٢٢١، تفسير نور الثقلين: ج ٢ ص ٥١٦، الوافي: ج ١ ص ١١٣، البيان في تفسير القرآن للنخوني: ص ٣٩١.
٤. أبو أيوب البجلي، كوفي، ثقة، عين، صدوق، من جملة أصحابنا وفقهائهم. روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن موسى عليه السلام، له كتب، منها: أصول الشرائع. هكذا ترجم له النجاشي. وقال عنه المفيد في رسالته العددية: من الفقهاء الأعلام، والرؤساء المأخوذ منهم الحلال والحرام والفتيا والأحكام، الذين لا مطعن عليهم، ولا طريق إلى ذمّ واحدٍ منهم. (معجم رجال الحديث: ج ١٩ ص ٣٧٢ و ٣٧٣).
٥. الكافي: ج ١ ص ١٤٨، التوحيد: ص ٣٣٤، شرح أصول الكافي: ج ٤ ص ٢٤٧، الفصول المهمة: ج ١ ص ١٥٧ و ١٥٩، بحار الأنوار: ج ٤ ص ٨٩ و ١١١، نور البراهين: ج ٢ ص ٢٢٤.
٦. (من جهل) بدل (عن جهل) الكافي: ج ١ ص ١٤٨، شرح أصول الكافي: ج ٤ ص ٢٤٦، الاحتجاج: ج ٢ ص ١٧٩، الفصول المهمة: ج ١ ص ٢٢٢، مستدرک سفينة البحار: ج ١ ص ٢٩١.
٧. الرعد: ٣٩.

قد جرى في علمه تعالى أن يوجد إذا حصل ما اقتضت المصلحة التي يعلمها الله أن تكون شرطاً، والله تعالى يقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴿١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ﴿٢﴾، ويقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٣﴾».

وروى أحمد في المسند: أن النبي قال: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»^١.

وعن أبي سعيد: أن النبي قال: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث: إما أن يستجيب لدعوته، أو يصرف عنه من السوء مثلها، أو يدخر له من الأجر مثلها» قالوا: يا رسول الله، إذن نكثر، قال: «الله أكثر»^٢.

ومن القضاء علم مخزون لا يطلع الله عليه أحداً، فلا بداء فيه، وقضاء أخير به ملائكته ورسله، فهذا أيضاً لا بداء فيه، وقضاء معبر عنه بلوح المحو والإثبات، وفي هذا القسم يرد قول الشيعة بالبداء: «يمحو الله ما يشاء ويثبت»^٣.

والشهرستاني ينفي عن الإمام جعفر ما ينسب إليه من أقوال في الغيبة والبداء بمعنى تغيير إرادة الله.

١. نوح: ١٠-١١.

٢. الأعراف: ٩٦.

٣. مسند أحمد: ج ٥ ص ٢٧٧ و ص ٢٨٢. وذكره أيضاً: مغني المحتاج: ج ١ ص ١٨٢، مستدرک الوسائل: ج ٥ ص ١٧٨، سنن ابن ماجه: ج ٢ ص ١٣٣٤، المستدرک للحاكم: ج ١ ص ٤٩٣ و ج ٣ ص ٤٨١، صحيح ابن حبان: ج ٣ ص ١٥٣، المعجم الكبير: ج ٢ ص ١٠٠، نزهة الناظر: ص ١٧، شرح نهج البلاغة: ج ٢٠ ص ٢٥٩، موارد الظمان: ص ٢٦٨، الجامع الصغير: ج ١ ص ٣٠٢، العهود المحمدية: ص ٤٢٥.

٤. المستدرک: ج ١ ص ٤٩٣، المعجم الصغير: ج ٢ ص ٩٢، كنز العمال: ج ٢ ص ٧٠، تفسير ابن كثير: ج ١ ص ٢٢٤، الدر المنثور: ج ١ ص ١٩٥، فتح القدير: ج ١ ص ١٨٥.

٥. راجع في ذلك: البيان في تفسير القرآن للخوئي: ص ٣٩١ و ٣٩٤، زبدة الأصول: ج ١ ص ٢٣٩، تفسير الميزان: ج ٧ ص ٩، أجود التقريرات: ج ١ ص ٥١٦.

١٠- الرجعة

القول «برجعة» المهدي المنتظر ليس مجمعاً عليه في الفكر الشيعي، فمنهم من لا يعتبرها عقيدة، ومنهم من يأخذ بها، كما أخذ بعض أهل السنّة ببعض أنباء الغيب وحوادث المستقبل وأشراط الساعة، مثل: نزول عيسى من السماء، وظهور الدجال الذي يظهر قبل الإمام بقليل فيقتله الإمام، وخروج السفيناني الذي يخرج من الوادي اليابس حتّى ينزل بدمشق، فلذلك اختراع لحساب بني أمية في الأندلس. وثمة سفيناني قيل: إنّ خالد بن يزيد اخترعه لحساب بني أمية ضد بني مروان، ومن قبلهم وجد (القحطاني) المنتظر - رجل في قحطان - يسوق العرب بعصاه، بل ادّعى عبد الرحمان بن الأشعث أنّه القحطاني المنتظر^١.

بل أنّ سعيد بن المسيّب - علامة التابعين - يعتبر عمر بن عبد العزيز المهدي المنتظر للمدينة^٢. وقد سمّى العباسيون لهم مهدياً (الخليفة المهدي بن المنصور)^٣.

١. لقد خلط المؤلف بين مفهوم «الرجعة» ومفهوم «المهدي». والرجعة كما يعرفها الشيخ المفيد في أوائل المقالات: ص ٧٧: «هي أنّ الله تعالى يردّ قوماً من الأموات إلى الدنيا في صورهم التي كانوا عليها، فيعزّ فریقاً ويذلّ فریقاً، ويبدل المحقّين من المبطلين، والمظلومين منهم من الظالمين، وذلك عند قيام مهدي آل محمد عليه السلام. والراجعين إلى الدنيا فریقان: أحدهما: من علت درجته في الإيمان وكثرت أعماله الصالحات...، فيريه الله دولة الحقّ ويعزّه بها...، والآخر: من بلغ الغاية في الفساد...، وكثر ظلمه لأولياء الله...، فيتنصر الله - تعالى - لمن تعدّى عليه قبل الممات».

وقال في ص ٤٦: «وأتفقت الإمامية على وجوب رجعة كثير من الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة وإن كان بينهم في معنى الرجعة اختلاف». وقد شرح الاختلاف في ص ١٥٢ فراجع.

وقد استدلل لها الشيعة بعدة آيات وروايات وألفت في ذلك الكتب والرسائل، وهي ليست قضية المهدي المنتظر عليه السلام. فإن منكر الرجعة عند الشيعة ليس بكافر، وإن منكر المهدي كافر.

٢. أرجع في هذه الأمور إلى كتاب «معجم أحاديث الإمام المهدي» للشيخ علي الكوراني، فقد فصل في ذلك كثيراً، ونقل كلّ ما يقع في هذه الموضوعات من أحاديث وآراء وأقوال.

٣. تاريخ دمشق: ج ٤٥ ص ١٨٨. وذهب إلى هذا المعنى جماعة؛ لأنّ هناك من يروي أنّ الإمام المهدي من ولد عمر بن الخطّاب، كما في حلية الأولياء: ج ٥ ص ٢٥٤، وكنتز العمال: ج ١٤ ص ٢٦ ح ٢٧٨٤٧. وقد حاولوا تطبيقها على عمر بن عبد العزيز باعتباره من ولد عمر من جهة الأم. ومنهم الجريري انظر مسند أحمد: ج ٣ ص ٣١٧.

وعن إبراهيم بن ميسرة، قال: قلت لطاوس: عمر بن عبد العزيز هو المهدي؟ قال: مهدي وليس به أنّه لم يستكمل العدل كلّهُ. راجع: تاريخ مدينة دمشق: ج ٤٥ ص ١٨٩، وسير أعلام النبلاء: ج ٥ ص ١٣٠.

وأبو جعفر المنصور يقول عن محمد النفس الزكية: «هذا مهدينا أهل البيت»^١. ولقد سُمى الكثيرون من يتولونهم بالمهدي:

فأتباع محمد بن الحنفية لقبوه بالمهدي^٢، وابن سرد يلقب الحسين بالمهدي، وأشيعار المختار الثقفي لقبوه بالمهدي، بل أن كثرة الزيدية يقولون: إن كل واحد من الأئمة مهدي؛ فزيد مهدي، وابنه يحيى مهدي، ومحمد بن عبد الله ابن الحسن «النفس الزكية» مهدي، وكل فاطمي شجاع عالم زاهد يدعو إلى الحق بالجهاد فهو لدى الزيدية إمام^٣ مهدي^٤. ومن الناس من ينتظر عودة من يسمونهم كذلك.

وفي مسند أحمد بن حنبل: سمعت علياً يقول: قال رسول الله: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لبعث الله عز وجل رجلاً منا يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»^٥.

٤. فقد حاول العباسيون تعيين صفات المهدي عليه السلام على المهدي العباسي وغيره بعد محاولتهم تطبيق أحاديث الرايات السود على حركتهم وراياتهم. (معجم أحاديث المهدي: ج ١ ص ٦٤).
١. مقاتل الطالبين: ص ١٤٢ و ١٦٢، عمدة الطالب: ص ١٠٤.

٢. وهم فرقة الكيسانية. راجع فرق الشيعة للنوبختي: ص ٢٣، السرائر: ج ٣ ص ١٦٢، المختصر النافع: ص ١٥٧، جامع المقاصد: ج ٩ ص ٤٢، من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٥٤٣، شرح الأخبار: ج ٣ ص ٣١٦، الفصول المختارة: ص ٣٠٠، الفصول العشرة: ص ١٠٩، رسائل في الغيبة: ج ٢ ص ١٤.

٣. انظر: من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٥٤٣، أوائل المقالات: ص ٣٩، المسائل الجارودية: ص ١٢، الارشاد: ٢٦٨، فرق الشيعة: ص ٥٨، الملل والنحل: ص ١٣٧، الفرق بين الفرق: ص ٣٤.

٤. يقول الإمام محمد آل كاشف الغطاء من أئمة الشيعة الإمامية المعاصرين: «وليس التدوين بالرجعة في مذهب التشيع بلازم، ولا إنكارها بضار وإن كانت ضرورية عندهم، لكن لا يناط التشيع بها وجوداً أو عدماً». ويقول: «وحدث الطعن بالرجعة كان هجيري علماء السنة... فكان علماء الجرح والتعديل إذا ذكر بعض العظماء من رواة الشيعة ومحدثهم ولم يجدوا مجالاً للطعن فيه لوثاقته وورعه وأمانته نبذوه بأنه يقول بالرجعة، فكأنهم يقولون: يعبد صنماً أو يجعل لله شريكاً! ونادرة مؤمن الطاق مع أبي حنيفة معروفة، وأنا لا أريد أن أثبت في مقامها هذا ولا غيره صحة القول بالرجعة، وليس لها عندي من الاهتمام قدر قلامة ظفر...» (منه).

٥. مسند أحمد: ج ١ ص ٩٩. وذكره أيضاً وبألفاظ متعددة: سنن ابن مساجة: ج ٢ ص ٩٢٩، سنن أبي داود: ج ٢ ص ٣٠٩، عون المعبود: ج ١١ ص ٢٥١، حديث خثيمة: ص ١٩٢، صحيح ابن حبان: ج ١٣ ص ٢٨٣، المعجم الأوسط: ج ٢ ص ٥٥، المعجم الكبير: ج ١٠ ص ١٣٣ و ١٣٥، موارد الظمان: ص ٤٦٣، الجامع الصغير: ج ٢ ص ٤٢٨، كنز العمال: ج ١٤ ص ٢٦٤ و ٢٦٦ و ٢٦٧ و ٢٦٩، فيض القدير: ج ٥ ص ٤٢٣، الدر المستثور: ج ٦ ص ٥٨، ذكر أخبار إصبهان: ج ٢ ص ١٩٥، تاريخ ابن خلدون: ج ١ ص ٣١٢، كشف الغمة: ج ٣ ص ٢٣٥.

ويقول بعض الشيعة: إنَّ عقيدة البعث أصل مجمع عليه، وإنَّه عندما يؤخذ القول بالرجعة على أنَّها بعث فلا وجه لنفي العدالة عمَّن يفهمها كذلك^١.

ولقد رَدَّدت كتب السنن الكلام في المهدي وظهوره، ومنها: سنن أبي داود^٢ والترمذي^٣ والنسائي^٤ وابن ماجه^٥، ولم يرد ذكره في صحيحي البخاري ومسلم، وتكلم البعض في أسناد الأحاديث المروية في السنن.

وفي الوقت ذاته نجد السيوطي في كتابه «العرف الوردي في أخبار المهدي»^٦ وابن حجر في كتابه «القول المختصر في أخبار المهدي»^٧ وهما من فحول علماء أهل السنَّة، وآخرين غيرهم، يكتبون عن المهدي، ويروون أحاديث في ظهوره. وفي تفسير الأحاديث إذا صحَّت تتفاير الأنتظار^٨.

١. يقول الشيخ محمد رضا المظفر في كتابه «عقائد الشيعة»: «من يستغرب الرجعة يكون بمثابة من يستغرب البعث فيقول: ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ فيقال: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾...» وينتهي بحثه في هذا الصدد بقوله: «على كلِّ حال، فالرجعة ليست من الأصول التي يجب الاعتقاد بها، وإنَّما اعتقادنا بها كان تبعاً للأثار الصحيحة الواردة عن آل البيت الذين تدين بعصمتهم من الكذب، وهي من الأمور الغيبية التي أخبروا بها ولا يتمتع وقوعها». (منه).

٢. سنن أبي داود: ج ٤ ص ١٠٧ ح ٤٢٨٣ و ٤٢٨٤ و ٤٢٨٥.

٣. سنن الترمذي: ج ٤ ص ٥٠٥ ح ٢٢٣٠ و ٢٢٣١، وج ٤ ص ٥٠٦ ح ٢٢٣٣. وقال عنها: هذا حديث حسن صحيح. وذكر حديثاً رابعاً في: ج ٤ ص ٥٠٦ ح ٢٢٣٢ وقال عنه: هذا حديث حسن.

٤. لم أجده في النسائي.

٥. سنن ابن ماجه: ج ٢ ص ١٣٦٨، وج ٢ ص ١٣٣٦.

٦. العرف الوردي، وهو في عشرة أبواب ومقدمة، الباب الأول: في الأحاديث النبوية والاخبار عنه، وجملته أحواله. والثاني: في نسبه، وأنَّه من أهل البيت، ومن نسل الحسين... وهو مطبوع ضمن كتاب الحاوي للفتاوي.

٧. وقد ذكره أيضاً العجلوني في كشف الخفاء: ج ٢ ص ٢٨٨، وإسماعيل باشا في إيضاح المكنون: ج ٢ ص ٢٥٣، ولكن بعنوان: «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر» وكذا في هدية العارفين: ج ١ ص ١٤٦.

٨. في كتب أهل السنَّة أقاويل شتى: يتكلم الشعراي عن الولاية: أنَّها «مواهب مخصوصة للأوتاد والأبدال والأئمة من أصحاب الدوائر والأعداد وأصحاب النوب والأفراد» ثم يقول: «وقد اجتمعت هذه المراتب كلها في خاتم الولاية المحمدية، وهو المهدي أخو عيسى ﷺ، في الختمية، لقوله في حقِّه: «يقفو أثرى ولا يخطئ».

كما جمع له مرتبة الدعوة إلى الله تعالى بالسيف وإقامة الحجَّة، وهذه هي مرتبة العصمة التي لا يتصف بها إلا نبي أو خليفة الله تعالى... ثم اعلم أنَّ العلوم الحاصلة عن طريق الكسب والوهب من علوم التوحيد يجب سترها عن

وابن الجوزي الحنبلي يسمي القائلين بالرجعة في كتابه «تلبيس إبليس»: الرجعية^١.
ولقد أسلفنا تضعيف بعض محدثي أهل السنة للقائلين بالرجعة.

→ الناس؛ لما فيها من الغرابة والتبرّي من المعقول والمنقول، وقد اقتفت الكمل من الأولياء هذه الآثار عن الصحابة والتابعين؛ شفقةً على ضعفة الناس الجاهلين بهذه الطريقة، اتباعاً لقوله ﷺ: «حدّثوا الناس بما يفهمون، أتحبّون أن يكذب الله ورسوله...».

ومن الآخذين بسبيل تصوّف قائلون يعلم الباطن وما فيه، وفي قواميسهم شطحات ومقولات كثيراً ما تتّجه اتجاهات غريبة عن الإسلام؛ كمقولات: «وحدة الوجود» و«الفناء» و«المحو» و«الحلول»، وما قول الحلّاج من أقوالهم ببعيد: «أنا الحقّ وما في جيبّي إلا الحقّ»!!!

ولقد ازدهرت في القرنين السادس والسابع الهجري أفكار فلسفية غريبة على تصوّف أهل السنة، وهو متمثل في زهد الصحابة وحده، ومن هذه الأفكار: فكرة تطهير الروح بالارتياض والخلاص من مطالب الجسد؛ يصل بها الإشرافيون إلى القول بأنّ الرياضة الروحية وتهذيب النفس هما الوسيلة الوحيدة للمعرفة. أمّا الغلاة فيعدّون الجسد تعذيب البراهمة والبوذيين الهنود، وآخرون يأخذون من الهنود فكرة الوحدة الثابتة الجامعة لكلّ ما في الوجود؛ فالكلّ واحد.

والحلّاج (٣٠٩) ومن ذهب مذهبه يقولون بالحلول الإلهي في بعض المخلوقين!!
ومن المسلمين من أصبحت «الوحدة» أنشودة على لسانه؛ مثل محي الدين ابن عربي، ومنهم من وصل الذات الإنسانية الفانية بذات الله الخالدة وصلّاً، سبيله المحبة التي تبلغ درجة السكر والغيوبة عن الحسّ؛ مثل ابن الفارض (٦٣٨) وابن عطاء السكندري. وعند بعضهم كلام جيد يفهمه البعض فهماً ضارّاً، وقد ترتّب على هذه الأفكار نشوء أفكار أخرى؛ كالإيمان بالخوارق وكرامات الأولياء، وأصبح الولي عند البعض مكشوفاً عنه الحجاب مادام يفتنى في ذات الله ويخرج عن المألوف!! (منه).

١. لم أعثر على كتابه، ولكن وجدت مقالته في كتاب «تاريخ الإمامية» لفياض؛ ص ١٠١.

الباب الخامس

المنهج العلمي

وفيه ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: التجربة والاستخلاص
- الفصل الثاني: في السياسة والاجتماع
- الفصل الثالث: المنهج الاقتصادي

«إنّ العلم هو علم محمد ﷺ، في ميراث محمد ﷺ»^١.

(ابن تيمية)

١. الزهد والورع والعبادة: ج ١ ص ٩٦، مجموع الفتاوى: ج ١٠ ص ٦٦٤ بتفسير طفيف فيهما.

مقدّمة

في الباب الحالي فصول ثلاثة تحاول تصوير منهج الإمام الصادق العلمي والحضاري والسياسي والاقتصادي، كما رسم خطوطه بالفعل وبالقول، وكما اقتفى آثاره وبنى عليه علماء الإسلام، الفقهاء منهم والرياضيون والتطبيقيون، مستمتعين بحريّة الفكر والبحث التي وردت بها نصوص الكتاب العزيز وأمرت بها السنّة. وكان الإمام الصادق من الأوائل في تعليمها للمسلمين، ممّن انتسبوا إليه، وممّن أخذوا عنهم، يستوي في ذلك الشيعة وفقهاء أهل السنّة.

علّى هؤلاء الفقهاء والعلماء تعلّم أهل أوربة منهج النزاهة العلمية والواقعية الذي تبلور في طريقة «التجربة والاستخلاص»، والذي أعلنه جابر بن حيّان، أول من استحقّ في العالم لقب «كيميائي» كما يعبر عنه الأوربيون^١.

ومن المنهج الحضاري: المنهج السياسي والاقتصادي الذي يستهدف عمارة الدنيا بالعدل في الناس، والعمل للحياة، والتكافل بين أعضاء الجماعة، والسعي لاستثمار طاقات الناس وأموالهم. وهي قواعد بلغ بها الفقه الشيعي غايته، ابتداءً من منهج أمير المؤمنين علي، معمولاً به في حياته أو خلافته، أو منصوصاً في عهده للأشتر النخعي، وكلّه سياسة واجتماع واقتصاد، إلى رسالة حفيده زين العابدين في الحقوق، وهي تجري في آثاره، إلى برنامج

١. انظر تدوين الحديث وتاريخ الفقه: ص ٢٢.

حفيده جعفر الصادق العلمي والحضاري، السياسي والاقتصادي، يدلي به للناس، ويطبّقه بنفسه، ويضع به الأسس لدول، أو مجتمعاتٍ، أو جماعاتٍ، أو جمعياتٍ، تعمل بمنهاجه لتبلغ أوجها به.

وهذه خصيصة لا يجاري الصادق فيها عالم من العلماء في التاريخ.
وحسبنا في هذا المقام كلمات، كالإشارات، تضمّنتها الفصول الثلاثة التي حوّاها هذا الباب.

الفصل الأول

التجربة والاستخلاص

« أمّا إذا خرجت من الإنكار إلى منزلة الشكّ،
فإني أرجو أن تخرج إلى المعرفة »^١.

(جعفر الصادق)

« لو أتيت لي الأمر لحرقت كتب أرسطو كلّها،
لأنّ دراستها يمكن أن تؤدّي إلى ضياع
الوقت، وإحداث الخطأ، ونشر الجهالة ».

(دوجير بيكون ١٢٩٠ ميلادية)

« لم يكن روجير بيكون في الحقيقة إلّا واحداً
من رسل العلم الإسلامي والمنهج الإسلامي
إلى أوربة المسيحية ».

(دوبر برينو)

أُتيحت للإمام الصادق حقبة طويلة للتعليم، يتلقّاه أو يلقيه، فلم يُحبس كمثّل ما حُبس
الكثيرون من أهل بيته. أو يُقتل كما قُتل عظماءهم.

ولم يصطدم مذهبه الفقهي بمذهب فقهي للسلطان، فبنو أمية وبنو العباس حتّى عهده لم
يكن لهم مذهب فقهي، إذ لم تظهر المذاهب «رسمياً» إلّا في أخريات القرن الثاني للهجرة،
عندما صير أبو يوسف مذهب أبي حنيفة مذهب السلطان^٢، واستعصمت المدينة بفقهاء^٣، ثم

١. بحار الأنوار: ج ٣ ص ١٥٥.

٢. راجع الامام الصادق والمذاهب الأربعة لأسد حيدر: ص ١٦٠-١٦٣.

٣. المصدر السابق: ص ١٥٠.

ظهر الشافعي في أواخر القرن الثاني^١.

ولم يصطدم الإمام بمذهب سياسي للخليفة، إذ لم يظهر اعتناق الدولة للاعتزال إلا في عصر المأمون، في فاتحة القرن الثالث.

وكان الجهميون^٢ والقدريون^٣ مستضعفين، ولم يكن لمناقشات أصحاب الملل والنحل شأن يستلفت النظر.

بهذا أُتيح للإمام في مجلسه العلمي، واقتداره الذي يسلم به الجميع، أن يرسي في أمانة واطمئنان قواعد «منهج علمي» ما يزال يعبر القرون، باعتباره فتحاً من الفتوح التي فتحها الله على البشر.

وفحوى المنهج: أن العلم «مشاهدة» و «نزاهة فكرية» في «استخلاص» النتائج، لا يقبل الله سواها من عالم أو متعلم.

في هذا الفحوى قول الإمام: «اطلبوا العلم، فإنه السبب بينكم وبين الله»^٤، والسبب إلى الله لا يقوى إلا بقلبٍ خاشع، ومن ثم وجب إخلاص النيّة فيه، وصدق الهمة في تلقّيه، وقبول حقائقه دون تلوّثها بشوائب الهوى أو الغرض أو المقرّرات السابقة، أو العوامل الخارجية.

وبهذه الخصائص تصيح «النزاهة العلمية» سمناً للعبادة، وشأواً للسيادة، يقول الإمام: «الملوك حكّام على الناس، والعلم حاكم عليهم... حسبك من العلم أن تخشى الله، وحسبك من الجهل أن تعجب بعلمك»^٥.

١. المصدر نفسه: ص ١٦٨.

٢. الجهمية: هم أصحاب جهنم بن صفوان السمرقندي مولى بني راسب، نسب إليه أنه يرى أن الأفعال في الحقيقة لله، والإنسان مجبور على أفعاله. (الملل والنحل: ج ١ ص ٨٦، الفرق بين الفرق: ص ١٢٨).

٣. القدرية: هم أصحاب الحسن بن يسار، المتوفى سنة ١١٠ هـ، الذين أضافوا إلى الله سبحانه القهاتح، وقد ورد الذمّ فيهم من قبل الأئمة عليهم السلام، فقد روي عن الصادق عليه السلام: «إن القدرية مجوس هذه الأمة، وهم الذين أرادوا أن يصفوا الله ببدله فأخرجوه عن سلطانه» راجع التوحيد: ٣٨٢، ورسائل المرتضى: ج ٢ ص ١٩٠، الكنى والألقاب: ج ٢ ص ٧٤.

٤. وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٢٨، الأمالي للشيخ المفيد: ص ٢٩، الأمالي للشيخ الطوسي: ص ٥٢١، بحار الأنوار: ج ١ ص ١٧٢، مستدرک سفينة البحار: ج ٧ ص ٣٤٥، ميزان الحكمة: ج ٣ ص ٢٠٧٠.

٥. وسائل الشيعة: ج ١ ص ١٠٥، الأمالي للشيخ الطوسي: ص ٥٦، ولكن عن الرضا عن جده أمير المؤمنين. ومثله البحار: ج ٢ ص ٤٨، وأيضاً مسند الإمام الرضا: ج ٧ ص ٧ وقد وردت في مصادر متعدّدة بلفظ «والعلماء حكّام

ولتحقيق ذلك يأمر الإمام طالب العلم - من بدء أمره - بالتحلي بخصالٍ، وينهاه عن نقيضها، يقول: «لا تطلب العلم لثلاثٍ: لترائي به، ولا لتباهي به، ولا لتماري به. ولا تدعه لثلاثٍ: رغبةً في الجهل، وزهادةً في العلم، واستحياءً من الناس»^١ وما المرء أو الإصرار على عدم المعرفة أو تحقير العلم أو خوف النقد، إلا خروق واسعة تتساقط منها كنوز العلماء، ومواهب المتعلمين، وواجب الفرد في أن يتعلم، في أمةٍ فرض رسولها العلم على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ^٢، فالعلم في الإسلام طريق للبقاء والتقدم.

ويقول لمحمد بن النعمان (مؤمن الطاق)، وهو المناضل الجدل: «يا ابن النعمان، إيتاك والمرء فإنه يحبط عملك، وإيتاك والجدل فإنه يوبقك، وإيتاك وكثرة الخصومات فإنها تبعذك من الله. وإن من قبلكم كانوا يتعلمون الصمت وأنتم تتعلمون الكلام....، إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء... إن أبيضهم إلي المترسسون، المشاؤون بالنمائم، الحسدة لإخوانهم، وإنما أوليائي الذين سلموا لأمرنا، وأتبعوا آثارنا. وليست البلاغة بحدة اللسان، ولا بكثرة الهديان، ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة».

ويضيف: «يا ابن النعمان، إن أردت أن يصفوك ود أخيك فلا تمازحنه ولا تجارينه ولا تباهينه، لا تطلع صديقك من سرك إلا على ما لو أطلع عليه عدوك لم يضرك، فإن الصديق قد يكون عدوك يوماً...»^٣.

ومن أدوات المنهج: طمأنينة المعلم والمتعلم بالاستغناء عن الناس، فالإمام يبحث تلاميذه على العمل للرزق، ويمددهم بالمال ليتجروا، ويستغنوا عن الناس؛ ليستمتع إليهم

→ على الملوك « وفي معناه قول الشاعر:

إن الملوك ليحكمون على الوري وعلى الملوك لتحكم العلماء

١. من وصيته عليه السلام لابن النعمان، لاحظ: تحف العقول لابن شعبة الحراني: ص ٣١٣، مستدرك الوسائل للميرزا النوري: ج ٨ ص ٤٦٧، بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج ٧٥ ص ٢٩٢.

٢. إشارة لقوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» لاحظ: مستدرك الوسائل: ج ١٧ ص ٢٤٩، مشكاة الأنوار: ص ٢٢٦، بحار الأنوار: ج ١ ص ١٧٧، شرح مستد أبي حنيفة: ص ٥٣٧، المحصول للرازي: ج ٦ ص ٧٨.

٣. تحف العقول لابن شعبة الحراني: ص ٣٠٩ ص ٣١٢، مستدرك الوسائل: ج ٩ ص ٧٣ ح ١٠٢٤٠، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٨٨ - ص ٢٩١، ميزان الحكمة: ج ٤ ص ٢٨٩٢. وبعضها في أمالي الصدوق: ص ٣٩٧، مستدرك سفينة البحار: ج ٦ ص ٢٥٧ ج ٩ ص ٦٢.

الناس، وليقدروا على الاستمرار في التلقّي وفي الإلقاء.

ومن أدواته: التعمّق والتخصّص، «فالعلم لا يعطيك بعضه إلا أن تعطيه كلّك»^١ كما يقول أبو يوسف.

فأبان بن تغلب ووزارة بن أعين متخصصان للفقّه، يفتيان الناس في مسجد الرسول، وحمّان بن أعين حجة في علوم القرآن، ومؤمن الطاق للكلام - علم التوحيد - وهشام بن الحكم للكلام في العقائد وفي الإمامة، وأبان بن عثمان للكلام في الاستطاعة وما إليها.

والمنهج شامل: يُسأل الإمام عن قوله تعالى: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا»^٢ فيقول: «الحكمة هي المعرفة والتفقّه في الدين»^٣.

ولمّا جمع للحكمة: المعرفة والتفقّه في الدين، كان يعلمّ الناس أنّ الفقّه وحده ليس الحكمة، وإنّما هو درجة فيها^٤. وهو القائل: «تفقّهوا في الدين، فإنّ من لم يتفقّه منكم فهو أعرابي»^٥.

١. منقولة عن الخليل بن أحمد الفراهيدي كما في محاضرات الأدباء: ج ١ ص ٥٠. وإحياء علوم الدين للغزالي: ج ١ ص ٤٤، وميزان العمل: ص ١١٦، والذريعة إلى مكارم الشريعة: ص ١١٧، الكنى والألقاب للقمي: ج ١ ص ٤٢٤، ونسبها صاحب تاريخ بغداد للنظام نقلًا عن الجاحظ، انظر تاريخ بغداد: ج ٦ ص ٩٤، والى أبي يوسف في: ج ١٤ ص ٢٥١.

٢. البقرة: ٢٦٩.

٣. بحار الأنوار: ج ١ ص ٢١٥، مستدرك سفينة البحار: ج ٢ ص ٣٥٣، ميزان الحكمة: ج ١ ص ٦٧٢، تفسير العياشي: ج ١ ص ١٥١، تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٢٨٧، تفسير كنز الدقائق: ج ١ ص ٦٥٣، تفسير الميزان: ج ٢ ص ٤٠٤.

٤. فقد ورد عنه عليه السلام تعريف للحكمة بألسنة متعددة. قال: «الحكمة معرفة الامام واجتناب الكبائر التي أوجب الله عليها النار» وسرّ الحكمة بهما لأنهما من أعظم أفرادها، لا لا تحصارها فيها. ولعلّ السرّ فيه أنّ الحكمة وهي معرفة ما ينبغي معرفته نور القلب، وبه يعرف المشروعات والمحظورات، والمعقولات والمستحيلات، وأعظم ذلك النور معرفة الإمام، لأنّها أصل لجميع الخيرات، وأعظم ثمراته اجتناب الكبائر؛ لكونها أفخم القربات، واشتماله على أعظم الواجبات. لاحظ: شرح أصول الكافي: ج ٩ ص ٢٧٢. وأورد صاحب المحاسن: ج ١ ص ١٤٨ عن الصادق أنّ الحكمة هي: «طاعة الله ومعرفة الإمام». وكذا عن الكافي: ج ١ ص ١٨٥، وغيرها من المعاني كثير.

٥. المحاسن للبرقي: ج ١ ص ٢٢٩، الكافي للكليني: ج ١ ص ٣١، شرح أصول الكافي: ج ٢ ص ١٤، المسترشد لابن جرير الطبري: ص ٣٨٦، منية المرید للشهيد الثاني: ص ١١٢ و ٣٧٦، بحار الأنوار: ج ١ ص ٢١٥، نهج

ولمّا جعل مطلق المعرفة بعض الحكمة، فتح الباب لكل أنواع العلوم، فليست المعرفة قاصرة على العلم الديني، فهذا ينفيه نصّه على التفقه في الدين معها. وإنما قصد الإمام العلم عموماً، ومنه العلوم التطبيقية، والفلسفات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كان لها في مجالس الإمام الصادق مكان، هو أول مكان تلقاه في حلقة إمام للدين في مدارس الإسلام؛ كمكان جابر بن حيان. وهذه التفرقة بين ألوان المعرفة يوجبها المنهج العلمي على الدارسين، وهذا الجمع لشتى العلوم إيدان بتطبيق المنهج الاسلامي في فنون العلم العالمي، كما سنرى بعد.

وللمنهج - بعد - شعار من حبّ رسول الله، وتقدير أصحابه ﴿محمد رسول الله والذين معه﴾^١، فلا يقبل العلم من رجلٍ، أو يقبل العلم على رجلٍ، قصر إيمانه عن صيانتهم، يقول الإمام لجابر الجفي: «أبلغ أهل الكوفة أنّي بريء ممن يتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأرضاهما»^٢.

فهذا العلم دين، والمجلس العلمي كمجالس العابدين، والشيخان وإن خالفتهما نظريات الشيعة، محلّ إجلال المسلمين.

وكمثل الشيخين في حفظ الكرامة: عثمان بن عفّان، وهم جميعاً كعلي بن أبي طالب، أصحاب بل أصهار لصاحب الشريعة، وتعليم الشريعة أول أعمال الإمام، والإمام سيّد عصره، لا تسقط من حضار مجلسه كلمة نابية.

بهذه النزاهة الفعلية والفكرية، وبالإخلاص للمعرفة، والتزام قيم الإسلام، استعمل الإمام الصادق «العقل» أصلاً من الأصول، إلى جوار القرآن والسنة والإجماع.



والنصّ على العقل واستعماله مستمدّ من القرآن الذي طالما خاطب فطرة البشر «لتعتبر» بما تدركه الحواس من آيات الله^٣ وتدبرها، وتستصحبها، لثري آلاءه على عباده، وتشهد

→ السعادة: ج ٧ ص ٣٥١، تفسير الصافي للكاشاني: ج ٢ ص ٢٨٩، تفسير الأصفى: ج ١ ص ٤٩٩، تفسير نور الثقلين: ج ٢ ص ٢٥٤ و ٢٨٢. المعالم: ص ٢٥، الأصول الأصيلية: ص ١٤٧.

١. الفتح: ٢٩.

٢. خرّجه سابقاً.

٣. إشارة لقوله تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ الحشر: ٢.

تقديره وتدييره، ففتنهم بوجوده ووحدايته وقدرته، فتصبح الدليل ما بعده دليل^١. وكما استعمل الصادق «العقل»، استعمل «الحرية» التي منحها القرآن للإنسان: لا يكره الناس على أن يكونوا مؤمنين^٢، ولا يستعمل في جدالهم إلا التي هي أحسن، ولا في وعظهم إلا الموعدة الحسنة، حتى ثبوت الألوهية لا يرضاه الله بإكراه. والعقل لا يعمل إلا حراً، وإذا أكره تعطل أو انحرف، والجدال بعنفٍ تعسف، وللعقل كرامة، والكرامة هي الحرية.

والاعتبار بالآثار والأشياء المحيطة بالناس، بالمشاهدة والاستخلاص، ثم الحرية والأمانة في التفكير والتقدير، أي النزاهة الفكرية، هما صميم المنهج. وهو لا يتجلى قدر ما يتجلى في الدلالة على الله جل ثناؤه.

إليك مثلاً من زنديقي تحدّاه بقوله: كيف يعبد الله الخلق ولم يروه؟ قال الصادق: «رأته القلوب بنور الإيمان، وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان، وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف، ثم الرسل وآياتها، والكتب ومحكماتها، واقتصر العلماء على ما رأوه من عظمته دون رؤيته»^٣.

فلنلاحظ أنه يبدأ بآثار الله التي يراها الناس في نور الإيمان، ويثبتها العقل والبصر، ثم يثني بالرسل اللافتين أنظار الناس إلى آيات الله، وبالخصوص المحكمة التي جاءوا بها، وأخيراً يذكر ما يحصله العلم المحدود بما يراه العلماء من آثار ذلك. لكنّ الزنديق يستمر: أليس هو قادراً أن يظهر لهم، فيعرفوه، فيعبد على يقين؟ قال الصادق «ليس للمحال جواب»، قال الزنديق: فمن أين أثبتت أنبياءاً ورسلاً؟ قال الصادق: «إننا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً، لم يجوز أن يشاهده خلقه أو يلامسوه... ثبت أن له سفراء في خلقه وعباده يدلونهم على مصالحهم...»^٤.

١. المنهج العلمي المعاصر مستمدّ من القرآن للمؤلف، مطبعة دار الاتحاد العربي، صفحات ١١ إلى ٥٤ (منه).

٢. إشارة لقوله تعالى من سورة البقرة ٢٥٦: ﴿لا إكراه في الدين﴾.

٣. شرح أصول الكافي للمولى محمد صالح المازندراني: ج ٣ ص ١٨١، الاحتجاج للشيخ الطبرسي: ج ٢ ص ٧٧، بحار الأنوار: ج ١٠ ص ١٦٤.

٤. الكافي: ج ١ ص ١٦٨، علل الشرائع: ج ١ ص ١٢٠، التوحيد للصدوق: ص ٢٤٩، شرح أصول الكافي: ج ٥ ص ٧٦، الاحتجاج: ج ٢ ص ٧٧، الرواشح السماوية للمحقق الداماد: ص ٣٦، الفصول المهمة للحر العاملي: ج ١

ومثلاً ممّا يروي محمد بن سنان: حدّثني المفضّل بن عمر قال: كنت ذات يوم بين القبر والمنبر - قبر الرسول بالمدينة - وأنا أفكّر فيما خصّ به الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ... إذ جاء ابن أبي العوجاء فجلس بحيث أسمع كلامه... فخرجت من المجلس محزوناً متفكراً فيما بلي به الإسلام وأهله من كفر هذه العصابة وتعطيلها، فدخلت على مولاي ﷺ منكسراً، فقال: مالك؟ فأخبرته، فقال: بكرّ عليّ غداً...، فلما أصبحت غدوت، فاستؤذن لي، فجلست وقلت بين يديه فقال: «إِنَّ الشُّكَّكَ جَهِلُوا الْأَسْبَابَ وَالْمَعَانِي فِي الْخَلْقَةِ، وَقَصُرَتْ أَفْهَامُهُمْ عَنْ تَأْمَلِ الصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ، فَخَرَجُوا بِقَصْرِ عُلُومِهِمْ إِلَى الْجُحُودِ...، فَهَمُّ فِي ضَلَالِهِمْ وَتَجَبُّرُهُمْ بِمَنْزِلَةِ عَمِيَانٍ دَخَلُوا دَاراً قَدْ بُنِيَتْ أَتَقَنَّ بِنَاءً، وَفُرِشَتْ بِأَحْسَنِ الْفُرَشِ...، وَوَضِعَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَوْضِعَهُ...، فَجَعَلُوا يَتَرَدَّدُونَ فِيهَا يَمِيناً وَشِمَالاً...، مُحْجُوبَةً أَبْصَارَهُمْ عَنْهَا...، وَالْإِنْسَانُ كَالْمَالِكِ لِهَذَا الْبَيْتِ...، ففِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَيَّ أَنَّ الْعَالَمَ مَخْلُوقٌ بِتَقْدِيرِ وَحِكْمَةٍ، وَنِظَامٍ وَمَلَأَمَةٍ، وَأَنَّ الْخَالِقَ لَهُ وَاحِدٌ...»^١.

وهو هنا يدلّل بما تلمسه الحواس على لزوم وجود مالا تلمسه، فهو يستعمل العقل والواقع معاً.

ويروي ابن بابويه القمي (٣٨١): كان ابن أبي العوجاء وابن المقفع يلاحظان الجمع الذي كان يطوف بالكعبة، فقال ابن المقفع لأصحابه: لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الإنسانية إلا هذا الشيخ الجالس - وأشار إلى جعفر بن محمد - فقام ابن أبي العوجاء إلى الشيخ، وتحدّث معه، ثم رجع إلى صاحبه وقال: ما هذا ببشر، إن كان في الدنيا روحاني يتجسّد إذا شاء ظاهراً، أو يتروّح إذا شاء باطناً، فهو هذا!... ظلّ يحصي لي قدرة الله التي في نفسي، والتي لم أستطع رفضها، حتّى ظننت أنّ الله قد نزل بيني وبينه^٢.

ونزول الله بين الإمام وبين ملحد، باعتراف الملحد، آية باقتدار المنهج على بلوغ غرضه،

→ ص ٣٨١، بحار الأنوار: ج ١٠ ص ١٦٤ و ١٩٩ و ج ١١ ص ٣٠، نور البراهين: ج ٢ ص ٤٨، مستدرک سفينة البحار: ج ٩ ص ٥١٠.

١. بحار الأنوار: ج ٣ ص ٥٩ وما بعده، التوحيد للمفضّل بن عمر الجعفي: ص ٩ وما بعدها، شرح أصول الكافي: ج ١ ص ١٠٨.

٢. الكافي للكليبي: ج ١ ص ٧٤ وما بعدها، التوحيد للصدوق: ص ١٢٦ وما بعدها، شرح أصول الكافي: ج ٣ ص ١٧ وما بعدها، بحار الأنوار: ج ٣ ص ٤٢، وما بعدها، نور البراهين: ج ١ ص ٣٢٦، مستدرک سفينة البحار: ج ٨ ص ٥٥٨، الكنى والألقاب: ج ١ ص ٤٢١.

وقدرة مجادل جمع الآيات الربانية حججاً بين يدي منكرٍ أخذته حجة الأمر الواقع فأبلس. فإذا تصدى الإمام لأصحاب الأغلوطنات أزرى بالسفسطات، وبدههم - كدأبه - بالواقع فبهتهم - كأن لم يشهدوها قبل - حقائق الأمر الواقع.

طلب واحد من تلاميذه بياناً عن قول أبي شاعر الديصاني رئيس الطائفة الديصانية^١ - وهي طائفة ملحدة تنعم بحرية العقيدة في بلدان الإسلام -: إن في القرآن ما يدل على أن الإله ليس واحداً: ففيه «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ»^٢ فأجاب الإمام بقوله: «قل له: ما اسمك في الكوفة؟ فيقول: فلان، فقل له: ما اسمك في البصرة؟ فيقول: فلان، فقل له: فكذلك ربنا في السماء إله، وفي الأرض له، وفي البحار إله، وفي كل مكان إله»^٣.



وفي كتاب الإهليلجة المروي عن طريق المفضل بن عمر، يستعمل الجدل العلمي في تنبيه الشكّك على أنهم في بداية الطريق نحو المعرفة، يقول: «... أخبرني هل رقيت إلى الجهات كلها وبلغت منتهاها؟ ... فهل رقيت إلى السماء التي تُرى أو انحدرت إلى الأرض السفلى فجلت في أقطارها؟ ... فما يدريك لعل الذي أنكركه قلبك هو بعض ما لم تدركه حواسك ولم يحط به علمك ... أمّا إذ خرجت من الإنكار إلى منزلة الشكّ فإني أرجو أن تخرج إلى المعرفة»^٤.

فلنلاحظ أنه يجادل الرجل بأن يرتفع من الإدراك المادي إلى حيث يفكر، وأنه يرفع المفكر إلى حيث يستيقن، فيطالب الشاكّ بمزيدٍ من التجربة المحسوسة الملموسة، ليصل من الشكّ إلى المعرفة، وهي مراحل العلم الذي يصل إليه الناس بوسائل مأمونة ومجربة. وهذا المنهج «الواقعي» القائم على النزاهة الفكرية والحرية العقلية هو الآن منهج عالمي، يدين به الجميع للقرآن وأصول الفكر الإسلامي على ما سنرى بعد^٥.

١. الديصانية: هم أصحاب ديصان، أثبتوا أصلين: نوراً وظلاماً. فالنور يفعل الخير قصداً واختياراً، والظلام يفعل الشرّ طبعاً واضطراباً. فما كان من خير ونفع وطيب وحسن فمن النور، وما كان من شرّ وضرر وتتن وقبح فمن الظلام. (الملل والنحل للشهرستاني: ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٥٠).

٢. الزخرف: ٨٤.

٣. بحار الأنوار: ج ٣ ص ١٥٥.

٤. المصدر السابق.

٥. والارتباط بين فروع المعرفة أحد الأساسيات العلمية، وهي جميعاً تستعمل الطريقة التجريبية، وتلتزم حقائق

ففي حين استخلص علماء العالم القديم من اليونان «نظريات» عمّوها ليخضعوا لها نتائج الاستنباط، وفرضت سيادة الفكر الارسططاليسي على العقل في أوربة منطلق النظريات والعمومات، وقاومت الكنيسة في تاريخها القديم حرية التفكير، نرى القرآن ينبّه «العقل» على الاعتبار بالمحسوس الذي يتمثل في «الواقع»، وأن يرفض الاستسلام للعمومات التي تحكم مقدماً أي أمر واقع، ويرشد الإنسان إلى استعمال فكره بحرية من أي قيد. بل نرى الإمام الصادق يعتبر «التقليد» مذلة عقلية «واستعباداً للنفس»، ويحاجج في ذلك حجاج القرآن، ويفسره تفسيره الرائع.

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله الصادق في معنى «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ»^١ قال: «أما والله ما دعوهم إلى عبادة، ولو دعوهم ما أجابوهم، ولكن أحلّوا لهم حراماً وحرموا عليهم حلالاً، فعبدوهم من حيث لا يشعرون»^٢.

وفي تعبير آخر يقول: عن أبي بصير، عن أبي عبد الله الصادق: «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» قال: «والله ما صاموا لهم ولا صلّوا، لكن أحلّوا لهم حراماً وحرموا عليهم حلالاً، فاتبعوهم»^٣. فالاتباع دون فهم، في الحلال والحرام أو غيرهما، ترك لزام النفس في قبضة الغير، وإهدار لحرمتها وقدرتها، وتلك عبادة لغير الله، وليس بعد ذلك

→ الحياة الواقعة وقوانين الكون التي لا تتخلف ولا تدع مجالاً للفراغ أو المجازفة أو الصدفة، كل شيء بمقدار. وكل أمر موزون في الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وفيما بينها، وفي العلوم الطبيعية والرياضية، وفي العلوم الاجتماعية والإنسانية. والعلميون يستعملون مقولات: الوحدة، والتفاضل والتكامل، وأطراد العزل والنسائج، والآخرون يستعملون مقولات: الوحدة، والتناسب والتناسق، والتزاوج والانسجام، في الأشياء والأشكال، والألوان والأحجام، ويستوي في ذلك الذين يلتزمون بالدين أو الذي يلتزمون بإنكاره. ومن الموضوعية «سلطان الإرادة» الإنسانية في التعاقد، أي حرمتها، مع تقيدتها بالقانون الذي يجتمع عليه الناس، وهذا مظهر الحرية الشخصية والفكرية التي أتاحتها الله لعباده، وأمرهم أن يستعملوها: لأنّها وسيلة الحياة الكريمة وللتقدم، وهو معلم من معالم السبق التشريعي الإسلامي. (منه).

١. التوبة: ٣١.

٢. المحاسن للبرقي: ج ١ ص ٢٤٦ الباب ٢٨ ح ٢٤٦، الكافي: ج ٢ ص ٣٩٨، وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ١٢٤، الفصول المهمة: ج ١ ص ٥٢٤، مستدرك سفينة البحار: ج ٨ ص ٥٧٧، تفسير العياشي: ج ٢ ص ٨٧، تفسير الصافي: ج ٢ ص ٣٣٦، تفسير الأصفى: ج ١ ص ٤٦٢.

٣. المحاسن باب ٢٨ ج ١ ص ٢٤٦ ح ٢٤٥، الكافي: ج ١ ص ٥٣، وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ١٢٥، مشكاة الأنوار: ص ٤٥٣، بحار الأنوار: ج ٢٤ ص ٢٤٦، تفسير العياشي: ج ٢ ص ٨٦، تفسير نور الثقلين: ج ٢ ص ٢٠٩، الاستغاثة لأبي القاسم الكوفي: ج ١ ص ٢٥.

كفر.

وليس أبلغ من هذه العبارات في الدعوة للحرية الفكرية، والحث على الاجتهاد واستعمال العقل.

يقول الشافعي عن مكانة علي في علوم الإسلام: «كان علي كرم الله وجهه قد حُصَّ بعلم القرآن والفقهِ؛ لأنَّ النبي ﷺ دعا له، وأمره أن يقضي بين الناس، وكانت قضاياه تُرْفَع إلى النبي ﷺ فيمضيها»^١.

ولقد آلى علي نفسه بعد الفراغ من تجهيز الرسول ﷺ ألا يرتدي إلا للصلاة أو يجمع القرآن - كما أسلفنا - فجمعه مهتماً بأمر «أصولية» في الشريعة وفقهها، تتعلّق بالمحكم والمتشابه، أي بما لا يحتمل الاجتهاد وما يحتمله، وبالنصوص التي نُسخت والتي هي واجبة التطبيق، وبالمطلق منها والذي يحتمل التخصيص، والعزائم والرُخص، وبالفروض والمندوبات، وفيها المحرّم والمكروه^٢، وما هو تهذيب للأمة من فضائل وآداب^٣.

وفي «نهج البلاغة» طائفة من أصول الفقه التي ينبت عليها أمير المؤمنين عليه السلام، وهذه وتلك أساسيات في أصول الفقه.

١. مناقب الامام الشافعي لفخر الدين الرازي: ص ١٢٥. خلاصة عبقات الانوار: ج ٤ ص ٢٩٨. أئمة الفقه التسعة: ج ٢ ص ٢٢، نفحات الأزهار: ج ٤ ص ٢٩٤.

٢. قال صاحب كتاب التسهيل لعلوم التنزيل: ج ١ ص ٣: «إنَّ قرآن علي كان يشتمل على علم كثير»، بل عن الإمام نفسه أنه قال للزندقي: «أنه أحضر الكتاب كلاً مشتملاً على التنزيل والتأويل، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، لم يسقط منه حرف» لاحظ كتاب الصافي: ج ١ ص ٤٢.

٣. بهذا كان علي إمام المفسرين. قال سعيد بن جبیر: قلت لابن عباس: ألمن قتل مؤمناً متعمداً توبة؟ قال: لا، فتلوت عليه الآية التي في «الفرقان»، قال: هذه مكية نسختها آية مدنية ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً﴾.

ورواها: أن ابن عباس ناظر علياً في الآية، فقال علي: من أين لك أنها محكمة؟ قال: تكاتف الوعيد، قال علي: «إنَّ الله نسخها بآيتين: آية قبلها وآية بعدها في النظم، الأولى قوله تعالى: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾، وأما التي بعدها في النظم في قوله تعالى: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً﴾.

والمفسرون يضيفون إلى الآيات قوله تعالى: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ويخلد فيه مهاناً﴾ ثم استثنى بقوله: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾.

لكم صدق ابن عباس حينما سُئل عن علمه وعلم ابن عمه علي، فقال: «كالقطرة إلى جوار البحر المحيط» (منه).

والأصول أدلة في طريق أو نهج، ولا إمامة إلا بمنهج. والفقهاء السني يعتبر الشافعي أول من أتجه إلى تجلية أصول الفقه في كتابه «الرسالة» وقد وضعه والناس يتحلّقون حوله، في جوار الكعبة بعد سنة ١٨٤.

وليس غريباً أن نجد النبوغ الشافعي يتلاقى وأموراً أساسية أهتمت من بادئ الأمر علي بن أبي طالب، أو نجد أفكاراً «علوية» أو آراء «شيعية» تظهر بقوة في مذهب الشافعي وآرائه. والشافعي من أبناء عمومة النبي وعلي^١، يباهي بحب أهل البيت ويتحدّث به، وهو إمام في اللسان العربي، له لغة خاصة تعلقها قواميس اللغة، طوّعت له إمامته فيها أن يفهم القرآن فهم الذين نزل فيهم.

واتّصال اللغة والبلاغة بالفقه في الإسلام أساسي؛ لأنّ الفقه فهم للقرآن، والقرآن عربي، فالشافعي في استنباطه للأصول من القرآن كان موجّهاً بفهم عربي عميق للكتاب الكريم، التي صنعت على أسسه العقلية الإسلامية.

يقول أحمد بن حنبل وهو الإمام الرابع لأهل السنّة في الفقه، فوق أنّه إمام في اللغة: «الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة، واختلاف الناس، والمعاني، والفقه»^٢. وهذه هي الأمور الأساسية في كلّ فقه.

وسواء أنبثقت الأصول من اهتمامات علي في جوار قبر النبي بالمدينة غداة صعود روح النبي إلى الرفيق الأعلى، أو ممّن نحو ذلك النحو من الشيعة، أم انبثقت من «رسالة الشافعي» في جوار البيت الحرام بمكة، وسواء أطلع الشافعي على كتب لأهل البيت أو على آرائهم أم لم يطلع، فالأصول قرآنية المبدأ والمنتهى، مشتقة من نصوص القرآن والسنّة ومنهاجها وأسلوبها، ومن ذلك شرفها في الفكر الديني والعلمي.

وحرية التفكير توجب «الاجتهاد» على أساس العلم - كما يقرّر الشافعي في رسالته^٣ - مع النزاهة الفكرية الكاملة، غير مقيدة إلا بما تثق بوجوده، وتحقيق المناط وتنقيحه، والتدقيق في الفرع وفي الأصل والسند، فيما ليس قطعيّ الورد في السنّة أو قطعيّ الدلالة

١. فهو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي.

٢. تاريخ مدينة دمشق لابن عسّكر: ج ٥١ ص ٣٥٠، سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١٠ ص ٨١، المناقب للبيهقي:

ج ٢ ص ٤١.

٣. الرسالة: ص ٤٨٧، فقد عقد باباً سماه: «الاجتهاد» فراجع.

فيها أو في الكتاب العزيز، ومع اتّخاذ الأهبة والدرية، وهذه كلّها أمور يوجبها القرآن والسنة. والحضارة العالمية مدينة بهذا المنهج للإسلام بما طوّره من فكر الأمم التي دانت به، في أربعة عشر قرناً، ومن أساليبها ووسائلها العلمية، حتّى صبغ فكرها - في شكله وموضوعه - صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة!

وكما ارتفع العرب درجات بالإسلام انتفع به كلّ الأمم، ممّن أسلموا و ممّن لم يسلموا، ومن ثمة كان الإسلام خيراً كلّهُ للعالم كلّهُ، فتلك خصائص رسالته العالمية والأبدية، والسموّ والطريق إليه مفتوحة حتّى يرث الله الأرض ومن عليها.

وما تقدّم الإنسانية إلاّ حاصل دفع الله الناس بعضهم ببعض، وأخذ بعضهم بيد البعض، ومن أجل ذلك اختصّ الفقه الإسلامي بخصيصة القدرة على إحداث التطوّر ومواكبته، مع اليسر وحفظ الدين، بالاجتهاد الذي أمر به الله على أصول القرآن والسنة^١.

أعلن عليّ تمسّكه بالاجتهاد^٢ إذا تولّى إمارة المؤمنين بعد عمر بن الخطّاب، ومن أجل ذلك وحده لم يبايع له عبد الرحمان بن عوف، وأعلن عثمان التزامه بأن «يتّبع» عمل السابقين، فجعل عبد الرحمان يبايع له^٣.

فالاجتهاد شعار من شعارات عليّ من بادئ الأمر^٤، وشعارات الشيعة من بعده، ومن

١. انظر كتاب «نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامي» للمؤلف، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة ١٩٧٤، الفقرات: ٣ إلى ٧٣، والفقرات: ٩٣ إلى ١٢٧. (منه).

٢. لا يذهب الشيعة إلى أن لأئمتهم اجتهاد في مقابل النصّ، بل أنّ كلّ ما عندهم عليهم السلام إنّما هو علم ورثوه عن رسول الله ﷺ، وكتبهم كالجامعة والجفر وغيرها حاوية وشاملة لجميع العلوم حتّى أرش الخدش، فلا يحتاجون بعد ذلك إلى الاجتهاد.

يقول أقا بزرك الطهراني في كتابه «حصر الاجتهاد»: ص ٣٣ (المقدمة): «ونحن حين نبحث عن الاجتهاد وأدواره عند الشيعة نقصد الاجتهاد عند الشيعة لا أئمتهم. لأئمتهم عليهم السلام كانوا امتداداً للنبوّة، فكانت الأحكام الشرعية مكشوفة لديهم، وهم عالمون بها من دون اجتهاد، وهذا ما تقتضيه الإمامة».

٣. ذكر الأعلام من السنة الشيعة أن عبد الرحمان بن عوف طلب من الامام عليّ عليه السلام أن يعمل بالكتاب وسنة رسوله وسنة الشيخين حتّى يبايع له، فرفض الإمام عليّ وقال: «أعمل بكتاب الله وسنة نبيه، وقبلها عثمان وبوبع له. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج ٧ ص ٥٩ وما بعدها، وفي رواية أنّه قال: «أبايع على كتاب الله وسنة رسوله وأجتهد برأي» راجع هامش عقائد السنة وعقائد الشيعة لصالح الورداني: ص ١٢٠.

٤. قال الشيخ الكركي في هداية الأبرار: ص ١٨٠ - ١٨١: «إنّ عمل الأمة كان في زمن رسول الله بالنصّ لا غير، فلما قبضه الله... كان الخليفة منهم يقضي بما اقتضاء الحال من الكتاب والسنة، فربّما سأل من حضرته من

ذلك لم يصح عظاموهم إلى ذلك الصوت البغيض الذي أعلن إقفال باب الاجتهاد في القرن الرابع الهجري^١، لتفتتح أبواب التقليد، وتخبو شعلة الفكر، بل شهد الشيعة في القرن الرابع ذاته نهضة شاملة تترأى في أعمال عظامتهم^٢. فاستعمال العقل أصل، والأصل لا يتعطل. وما الاجتهاد إلا الحرية الفكرية في استخلاص النتائج، والنزاهة العلمية أو الاعتبار بالواقع والصحيح. وهاتان العجلتان اللتان تحملان موكب الفكر الإنساني المنجب، هما شعار مجالس الإمام الصادق كما سلف البيان، بل هما أساس ما استخلصه تلميذه جابر بن حيان من تجاربه العلمية، وعنه انتقل إلى أوربة المنهج التجريبي، أو منهج «التجربة والاستخلاص» كما سُمِّي في العصور الحديثة.

ومن نزاهة المنهج في الفقه: كان الإقرار بضعف الإنسان، فليس الاجتهاد مقابلاً للحقيقة، وإنما هو أحسن أداة يمكن أن يصل بها المرء إليها، يقول أبو حنيفة: «علمنا هذا رأي، فمن جاءنا بأحسن منه كان أولى بالصواب منا»^٣.

ولمَّا قال الشافعي «الاجتهاد القياس»^٤ وإنهما «اسمان لمعنى واحد»، واستطرد فقعد له القواعد، ليجري علماء أهل السنة في مضماره، صلى الأصوليون من أهل السنة بعده في

→ الصحابة، فإن لم يجد نصاً حكم بما يراه من المصلحة، كما هو شأن الملوك والأمراء براعون ما ينتظم به أمر الدولة، وتصلح به الرعية، سواء وافق الشرع أو خالفه، وكانو يسمون مالم يستند إلى النص اجتهاداً، والعامل به مجتهداً.

١. هناك من علماء السنة أيضاً من دعا إلى فتح باب الاجتهاد، واعترض على سده منذ القرون التي أعلن فيها انسداد بابها حتى يومنا هذا، أمثال: أبي الفتح الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)، وأبي إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، والسيوطي (ت ٩١١هـ). وقد آلف السيوطي رسالة سماها «الرد على من أخلد إلى الأرض، وجعل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» وقدم لها بقوله: «إن الناس قد غلب عليهم الجهل، وأعماهم حب العناد وأصنهم، فاستعظموا دعوى الاجتهاد وعدوه منكر بين العباد، ولم يشعر هؤلاء الجهلة أنه فرض من فروض الكفايات في كل عصر، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة في كل قطر» راجع: الاجتهاد والتجديد في التشريع الاسلامي: ص ٩٤.

٢. راجع: الأصول العامة للفقه المقارن: ص ٦٠٠، وحصر الاجتهاد: ص ٧٦ وما بعدها و ص ٤٢ وما بعدها.

٣. الملل والنحل: ج ١ ص ١٨٧ - ١٨٨، قاعدة القرعة لحسين كرمي: ص ١٠٤، الإحكام لابن حزم: ج ٦ ص ٧٩١ و ص ٨٤٢ و ص ٨ ص ١٠٧٧، مجمع البحرين: ج ٢ ص ١٢٤.

٤. قال الشافعي في كتاب الأم: ج ٧ ص ٢٤٠: «الاجتهاد قياس على السنة، فإذا لزم الاجتهاد له صارت نفعاً للسنة، وكانت السنة ألزم له». وقال في الرسالة: ص ٤٧٧ عندما سُئل عن القياس والاجتهاد: «هما اسمان لمعنى واحد».

حلبة الفكر العالمي، منذ القرن الثاني للهجرة، والتاسع للميلاد، فوضعوا القواعد التي لم يبدأ في تعرفها الأوربيون إلا بعد ثمانية قرون تحت عناوين: أطراد العلة، وأنها إذا توقرت ثبت الحكم، أو: قانون أطراد الحوادث، لوجود «نظام» في الكون، أو تناسق تخضع له الأشياء، طرداً وعكساً، بأطراد أسبابها وملابساتها فيها، وهذا ما قرره الأصوليون المسلمون عند تماثل العلة لاستنباط الأحكام.

غير أن الأصوليين المسلمين فاقوا في تمحيصهم «جون ستيوارت مل»^١ في أبحاثه، إذ تعمقوا في مسالك العلة، ودققوا في الاستقراء والاستنباط، مع الورع الكامل والنزاهة الفكرية المثلى، فكان عندهم لكل ركن من أركان «القياس» أبحاثه، وضمانات صحته، بآساع الاختيار وامتحان الاستخلاص، وإيجاب أن تجمع الأصل «المقيس عليه»، والفرع «المقيس» علة، لتنتج ثمرة القياس وهي «الحكم»^٢.

وأولى الأصوليون العلة وتخريجها اهتماماً مقطوع النظر، فشرطوا لها مسالك نقلية من نص أو إجماع، أو عقلية من تحقيق المناط بوجود العلة، وتنقيح المناط بحذف ما لا يدخل في الاعتبار، وبطرائق السبر والتقسيم والطرذ؛ لحصر الأوصاف التي تصلح للعلة، واستبعاد ما لا يصلح منها، ومقارنة الأوصاف للحكم، ودوران العلة مع المعلول وجوداً وعدماً... الخ، مع تكامل اختبار الوقائع، وسلامة النتائج ثم قبولها^٣.

كل أولئك دون دخل لمقررات أو نظريات سابقة، ومع التقرير بأن ما يصل إليه المجتهد ليس الحقيقة، وإنما هو الراجح بغلبة الظن، فإن اجتهداً آخر قد يغيره، والاجتهاد مفتوح، وقانونه الحرية، فإذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ

١. ولد سنة ١٨٠٦ م، وتوفي ١٨٧٣ م، وهو واحد من فلاسفة البراجماتيزم ممن رأوا تحكّم الواقع الاجتماعي في بناء القيم والأفكار. (الإمامة ذلك الثابت الاسلامي المقدس: ص ٤٤).

٢. وهي ما تسمى بأركان القياس:

(١) الأصل أو المقيس عليه: وهو المحل الذي ثبت حكمه في الشريعة، ونص على علة.

(٢) الفرع أو المقيس: وهو الموضوع الذي يراد معرفة حكمه من طريق مشاركته للأصل في علة الحكم.

(٣) العلة: وهي على نحو الإجمال: الجهة المشتركة بينهما التي بنى الشارع حكمه عليها في الأصل.

(٤) الحكم: ويراد به الاعتبار الشرعي الذي جعله الشارع على الأصل، والذي يطلب إثبات نظيره للفرع.

(الأصول العامة للفقهاء المقارن: ص ٣٠٨).

٣. راجع في ذلك تسميات العلة في الأصول العامة للفقهاء المقارن: ص ٣١١ - ٣٢٠.

فله أجر.

وعلى هذا التحديد أخذ المنهج التجريبي في الوجود: تمحيص الواقعة والاستخلاص بحرية ونزاهة.



والقرآن يحوي جميع صور الاستدلالات العقلية، ومنها: قياس الأولي^١، وفي هذه الصور تبرز طريقة الاعتبار بآيات الله المادية الواقعية المحيطة بالناس، والتي تحسّنها حواسهم، وكذلك كانت طريقة الأنبياء في الاستدلال على الله بلفت النظر إلى آياته أو بقياس الأولي، وهو ما يكون الحكم المطلوب فيه أولي بالثبوت من الصورة المذكورة في الدليل الدالّ عليه. وكان أحمد بن حنبل يستعمل هذا القياس، وهو القائل: إنه لا يصار إلى القياس إلا عند الضرورة^٢.

وابن تيمية^٣ يجعل للفطرة مكانها في الميزان الذي تُعرف به الأحكام، ويروي: أن معرفة الاختلاف والتماثل أمر فطري، واستعماله ضروري، والميزان عنده هو العدل، وما يعرف به العدل^٤، وأنه هو القياس العقلي القرآني^٥.

١. قياس الأولي: هو ما كانت العلة فيه في الفرع أظهر منها في الأصل. (معجم لغة الفقهاء: ص ٣٧٢).

٢. والضرورة هي فقد النص كما عبّر عن ذلك السرخسي في كتابه المبسوط: ج ١٠ ص ١٧٤.

٣. هو أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي؛ أبو العباس تقي الدين ابن تيمية، وشيخ الإسلام، ولد في حران ٦٦١ هـ، وتحوّل به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر، وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها فقصدها، فتعصّب عليه جماعة من أهلها، فسُجن مدةً ونُقل إلى الاسكندرية، ثم أُطلق وسافر إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ، واعتقل بها سنة ٧٢٠ هـ، وأُطلق، ثم أُعيد، ومات معتقلاً ٧٢٨ هـ بقلعة دمشق. (الأعلام: ج ١ ص ١٤٤).

٤. أنظر: الردّ على المنطقيين: ج ١ ص ٣٧١ و ص ٣٨٢ و ص ٣٨٤.

٥. يقول: «فليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر، كما يظن ذلك من يظنّه من أهل الكلام. ويجعلون ما يعلم بالعقل قسيماً للعلوم النبوية، وهذا خطأ. إن العلم هو علم محمد ﷺ، وعلم في ميراث محمد ﷺ، وغير هذا العلم لا يكون علماً. لقد بين ﷺ -مختصاً دورة الرسالة العظمى- العلوم العقلية التي يتمّ بها دين الناس علماً وعملاً، وضرب الأمثال، فكانت الفطرة بما ينهها عليه.. ولذلك أتى الخبر من السماء - القرآن والحديث - بهذا، يبيّن الحقائق لا بطريقة خبرية فقط، بل بالمقاييس العقلية، فبيّن طريقة التسوية بين المتماثلين، والتفرقة بين المختلفين».

ويضرب ابن تيمية أمثالاً من الآيات للتسوية بين متماثلين، والتفرقة بين مختلفين، ويقول: «وكذلك أنزل الله

والوزير الصنعاني^١ (٨٤٠) صاحب كتاب «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» يذكر: أن أئمة أهل البيت لم يعرفوا المنطق اليوناني والارسططاليسي، ولم يصوغوا أدلتهم على التوحيد في صورمنطقية، وإنما في منهج قرآني أساسه الاعتبار، وأن الإمام علياً لم يعرفه في خطبه ومواعظه، وأن الأئمة قدّموا أدلة التوحيد من غير ترتيب مقدّمات المنطق ولا تقاسيم المتكلمين.

ويقرّر الوزير الصنعاني: أن أسلوب المسلمين أرجح وأحجى من أسلوب المناطقة «فهذا أسلوب الأنبياء والأولياء والأئمة والسلف في النظر، وخالفهم بعض المتكلمين وأنواع المبتدعة فتكفّوا وتعمّقوا، وعبروا عن المعاني الجليلة بالعبارات الخفية»^٢.

والذين ينكرون القياس، من أهل السنّة؛ كداود (٢٧٠) إمام أهل الظاهر، وابن حزم^٣ (٤٥٦)، أو من المعتزلة كالنظام (إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ)، يعتمدون على النصّ وحده، وقد أسعفتهم النصوص في إقامة مذهب بتمامه، ولم تخذلهم قدرتهم الفقهية في استخراج الفقه باستعمال كليّات الشريعة في الاجتهاد.

فدلّ هؤلاء على أن نصوص الكتاب والسنّة تجعل كليّات الشرع وقواعده كافية «للعقل» ليلبغ بالفقه الإسلامي مبالغه، فيحقّق أنّ الله تعالى ما فرّط في الكتاب من شيء، فلكل واقعة

→ سبحانه الميزان في القلوب... لما بيّنت الرسل العدل وما يوزن به، عرفت القلوب ذلك، فأنزل الله على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتّى تعرف التماثل والاختلاف، وتضع من الآلات الحسيّة ما يحتاج له في ذلك، كما وضعت موازين النقد وغير ذلك... قال الله تعالى: ﴿والسما رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾ فالميزان هو العدل، وهو ما يعرف به العدل، وهو القياس القرآني المنزل، ليتعرّف به صحيح الفكر من باطله، بالإضافة إلى أن تزن الأمور عامّة، حسيّة أو عقلية». (منه).
١. هو محمد بن إبراهيم الشاوري الصنعاني، مقرئ، كان وزيراً للإمام الناصر محمد بن محمد، له «فكاهة البصر والسمع في معرفة القراءات السبع» توفّي بعد سنة ٣٨٩هـ. (الأعلام: ج ٥ ص ٣٠٠).
٢. لم أعر على كتابه.

٣. علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري؛ أبو محمد: عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام. كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه، يقال لهم (الحزمية). ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ، كان من صدور الباحثين، فقيهاً حافظاً، يستنبط الأحكام من الكتاب والسنّة بعيداً عن المصانعة، وانتقد كثيراً من العلماء والفقهاء، فتمالاًوا على بغضه، وأجمعوا على تضليله، وحذروا سلاطينهم من فتنته... فأقصته الملوك وطاردته، فرحل إلى بادية ليلة من بلاد الأندلس، فتوفّي فيها سنة ٤٥٦هـ. وكان يقال: لسان ابن حزم وسيف الحجّاج شقيقان. وقد ألف كتاباً اسمه: «ملخص إبطال القياس» (الأعلام: ج ٤ ص ٢٥٤).

حكم^١، وعلى المجتهد طلبه بالعقل والنقل معاً. والشافعي من حرصه على العمل بهما معاً، يندد بـ «الاستحسان» ويسميه تلذذاً^٢، مع أن الاستحسان في جملة أمره استعمال لنصّ خاصّ أو قاعدة متعلّقة بالواقعة المطلوب لها الحكم^٣.

وأهل القياس مجمعون على أن المنهية عنه هو الاجتهاد مع النصّ القطعي، أو إطلاق العنان لاستخراج الأحكام دون تقييدٍ بالنصوص الخاصة أو العامة، وهم يجمعون على قياس العلة ويختلفون فيما عداه^٤.

ومن المعاني الجامعة التي تتردّد في أبواب الاجتهاد: أن أحكام الشريعة جميعاً - حتّى في الأعمال غير التعبدية - فيها معنى تعبدية، أي: حقّ لله، يُطاع فيه الله ويُعبد، فمن أحسن بيعه وشراؤه، وإجارته وإعارته، أو قضاءه أو فتواه... الخ فهو يطيع الله ويستحقّ ثوابه، ومن ساءت معاملته فهو خاسر في أمرين: قضاء الناس ضده، وغضب الله عليه؛ لأنّه يعصي الله فيما عمل من عمل غير صالح. ومن ثمة تأثير الجانب الروحي أو الوازع الدني في الحياة الواقعية، وفي الدراسة العلمية، وفي طلب الأحكام الفقهية، في المجتمع الإسلامي، وهو امتياز لا تبلغه الأمم الأخرى أو مجتمعاتها.

وفي منهج الاعتبار بالواقع أو بالآثار الدالّة على المطلوب «واقعية» أدنى إلى التصديق من مجازفات الفكر، وفي الواقع المادي ضمان أن لا يبعد الاستخلاص من الملموس والمحسوس بالحواس الخمس، وهذه الواقعية أو النزاهة الفكرية، تسبق واقعية «أوجست كومت»^٥ بقرون عشرة، وعقلانية «ديكارت»^٦ بقرون تسعة، كما تسبق «جون سيتوارت

١. هذا ما نصّ عليه الفقه الجعفري، وأيدته الروايات الشريفة.

٢. يقول في الرسالة: ص ٥٠٧ ضمن تسلسل ١٤٦٤: «إنما الاستحسان تلذذ».

٣. كان داود بن خلف الأصفهاني - صاحب المذهب الظاهري - شافعي المذهب، ثم صار ظاهرياً ينكر القياس ويعتمد على النصّ وحده، قالوا: إنه سُئل: لم تركت مذهب الشافعي؟ قال: قرأت كتاب «إبطال الاستحسان» للشافعي، فوجدت كلّ الأدلّة التي يبطل بها الاستحسان يبطل بها القياس. (منه).

٤. راجع في ذلك الأصول العامة للفقه المقارن: ص ٣٠١ - ٣٦٠.

٥. أوجست كومت Auguste Comte ١٧٩٨ - ١٨٥٧ صاحب الفلسفة الواقعية في القرن الماضي، انتفع بمؤلفات لينتز وديكارت وفرنسيس بيكون والقديس توماس الأكويني وروجير بيكون، والأخيران من أكبر من نشروا العلم الإسلامي وتأثروا به، وكثير من كتاباتهما تستعمل تعبيرات إسلامية. (منه).

مل^١» في نظرية أطراد العلل بقرون عشرة. وبهذه القرون يقاس سبق الحضارة الإسلامية. وإلى جوار المشاهدة الواقعية والتحقيق النزيه والاستخلاص الصادق، يضيف الفقه الإسلامي ضماناً جديداً هو اعتبار الاجتهاد؛ سعياً لبلوغ الحق لا بلوغاً له. فثمة عوامل أخرى قد تكون موجودة، أو قد يدركها عقل آخر فتجعله أدنى إلى السداد، أو تجعله يصل إلى السداد، وهذا الاحتمال الذي يلازم الاجتهاد يحتمل تداخل العناصر، فالنتائج نسبية حتى تقطع التجربة بأنها لا تتخلف أبداً، وهي في الفقه تبقى نسبية حتى تبلغ الحكم الذي شرعه الشارع، فشرع الله هو الثابت، الذي يقصد المجتهدون قصده.



وربما كان الكلام المنقول عن «جابر بن حيان» أوضح كلام في الدلالة على المنهج التجريبي الذي تعلمه في مجلس الإمام أو من كتب الإمام.

يخاطب جابر الإمام في مقدمة كتابه «الأحجار» بقوله: «وحق سيدي، لولا أن هذه الكتب باسم سيدي صلوات الله عليه لما وصلت إلي حرف من ذلك إلى الأبد»^٢.

ويقول جابر في كتابه «الخواص»^٣ عن طريقته: «اتعب أولاً تعباً واحداً، واعلم، ثم اعمل، فإنك لا تصل أولاً، ثم تصل إلى ما تريد».

وفي كتابه «السبعين»^٤ يقول: «من كان درياً (مجرباً) كان عالماً حقاً، ومن لم يكن درياً لم يكن عالماً، وحسبك بالدربة في جميع الصنائع أن الصانع الدرب يحذق، وغير الدرب يعطل».

٦. ديكارت هو رينيه ديكارت، فيلسوف فرنسي، توفي سنة ١٥٦١ م، له كتابان يثور فيهما على الفلسفة القديمة هما «المقال في المنهج» و«قواعد لهداية العقل». راجع دروس في أصول فقه الإمامية: ص ٤٩.

١. جون ستيوارت مل ١٨٠٦-١٨٧٣. (منه).

٢. رسائل جابر بن حيان: ج ١ ص ١٦٤، الإمام جعفر الصادق للحاج حسين الشاكري: ج ١ ص ٢٠٢، الإمام الصادق ملهم الكيمياء للدكتور محمد يحيى الهاشمي: ص ١٦١.

٣. كتاب الخواص الكبير، ذكره اسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين: ج ١ ص ٢٤٩، وذكره أقا بزرك الطهراني في الذريعة: ج ٧ ص ٢٦٩ تحت تسلسل ١٣٠٤، وذكره أيضاً ابن التديم في الفهرست: ص ٥٠١.

٤. اسمه «السبعين في الصنعة» ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون: ج ٢ ص ١٤٢٤، واسماعيل باشا في هدية العارفين: ج ١ ص ٢٤٩، والطهراني في الذريعة: ج ١٦ ص ٢٤٠، وهو كتاب مرتب على سبعين رسالة، لكل منها عنوان: المنى، الهدى، النعوت، الصفات، اللاهوت، وكذا في: ج ٢٦ ص ٣٠٨ من الذريعة.

ويحصل جابر طريقته في عبارته المأثورة: «عملته بيدي وبعقلي، وبحشته حتى صَح، وامتحنته فما كذب». وفي هذا المقام يقول أستاذ الفلسفة الإسلامية المعاصر في جامعة القاهرة د. زكي نجيب محمود: «... فلو شئت تلخيصاً للمنهج الديكارتي^١ كله لم تجد خيراً من هذا النص الذي أسلفناه عن جابر».

ويرى الصيدلي المعاصر د. محمد يحيى الهاشمي: أن «الواقعية» هي التي سوَّغت لجابر أن يقسّم القياس أو الاستدلال والاستنباط إلى ثلاثة أقسام: المجانسة ومجرى العادة وبالأثار، ومن دلالة المجانسة دلالة الأنموذج، كمن يريك بعض الشيء دلالة على كله، وهو استدلال غير قاطع، إذ الأنموذج لا يوجب وجود شيء من جنسه يساويه تماماً في الطبيعة والجوهر، وكذلك دلالة مجرى العادة فإنه كما يقول جابر: «ليس فيه علم يقين واجب اضطرابي برهاني أصلاً، بل علم إقناعي يبلغ أن يكون: أحرى وأولى وأجدر لا غير، لكن استعمال الناس له، وتقبلهم فيه، واستدلّاهم به، والعمل في أمورهم عليه أكثر كثيراً جداً...، وليس في هذا الباب علم يقين واجب، وإنما وقع منه تعلق واستشهاد الشاهد على الغائب؛ لما في النفس من الظنّ والحسيان، فإنّ الأمور ينبغي أن تجري على نظام ومشابهة ومماثلة، فإنك تجد أكثر الناس يجرون أمورهم على هذا الحسيان والظنّ».

يقول جابر: «... وبالجملة فليس لأحد أن يدعي أنه ليس في الغائب إلا مثل ما شاهد... إنما ينبغي له أن يتوقف حتى يشهد البرهان بوجوده من عدمه...» فهو يسنّد القياس من الناحية المنطقية أو الرياضية لترك المجال مفتوحاً للحقائق القاطعة التي تثبت بالتجارب. وحسبك دليلاً على دقّة طريقة التدليل بآثار الأشياء: أن تجدها إحدى المسلّمات في المعامل والجامعات، في القارات جميعاً، منذ بدأ الأخذ بطريقة التجربة والاستخلاص حتى اليوم، وستبقى أبداً.

وعندما توضع أقوال جابر^٢ في القرن الثاني للهجرة إلى جوار أقوال الحسن بن الهيثم^٣

١. ديكارت Rene Descartes ١٥٩٦ - ١٦٥٠. (منه).

٢. يقول جابر: «وكذلك ينبغي إذا ذهب الدهري (القائلون: إنما خلقنا وبهلكنا الدهر، لا الله) يسمع أن يكون العالم مكوّناً مصنوعاً، لأنه لم يشاهد، ولا واحد من الناس، بدء تكوينه، أن يقال له: ما ينكر أن يكون وجود الناس بعد وجود العالم بوقت طويل...، وتذكر كون مدينة أو قصر، ولا يذكر أحد من أهل بلده ابتداء بنائه، فسلم أن يثبت قدم ذلك بالعلة التي أثبت بها قدم العالم. وإذا قال: إنما علمت أن المدينة والقصر التي لم نشاهد، ولا من

(٣٥٤ - ٤٣٠) بعد أكثر من قرنين، وقد عمل في خدمة الدولة الفاطمية، وهي دولة من دول الشيعة، وله ٤٧ كتاباً في الرياضيات، و ٥٨ كتاباً في الهندسة، تتأكد لنا طريقة التجربة والاستخلاص التي سلكها الإمام الصادق وأتقن العمل بها، ووصفها جابر والحسن. وقد أحسن الحسن التعبير عنها بمنهج علمي واضح الفحوى محدّد العبارات^٤.

→ توفي، إبتداء بنائها، أنها مبنية من قبل، أني رأيت مثلها بني، ولم أر مثل العالم مبنياً، قيل له: إن هذا بعينه ما نقول، وندفع كونه في طريق الاستدلال، فمن أين قلت: إن كل عالم تشاهده وليس له شبيه ولا مثيل موجود. وإن كل عالم تشاهده وليس له شبيه ولا مثيل فليس موجود! إذ قد بان تقصيرك وتقصير أمثالك عن مشاهدة جميع الموجودات، فأمكن أن يكون أكثر الموجودات ممّالم تشاهده». (منه).

٣. هو محمد بن الحسن بن الهيثم: أبو علي، مهندس من أهل البصرة، يلقب ببطليموس الثاني، له تصانيف في الهندسة، بلغ خبره الحاكم الفاطمي (صاحب مصر) ونقل إليه قوله: لو كنت بمصر لعملت من نيلها عملاً يحصل به النفع في حالتي زيادته ونقصه، فدعاه الحاكم إليه، وخرج للقاءه، وبالغ في إكرامه، ثم طالبه بما وعد من أمر النيل، فذهب حتّى بلغ الموضع المعروف بالجنادل، فعان ماء النيل واختبره من جانبيه، وضعف عن الاتيان بشيء جديد في هندسته، فاعتذر بما لم يقنع الحاكم، فولاه بعض الدواوين فتولّاها خائفاً، ثم تظاهر بالجنون، فضبط الحاكم ما عنده من حال ومتاع وأقام له من يخدمه، وقيد وترك في منزله، فلم يزل إلى أن مات الحاكم، فأظهر العقل، وخرج من داره، فاستوطن قبة على باب الجامع الأزهر، وأعيد إليه ماله، فانقطع إلى التصنيف والإفادة إلى أن توفي سنة ٤٣٠ هـ. (الأعلام: ج ٦ ص ٨٤).

٤. راجع مقدّمة كتاب الدكتور مصطفىٰ نظيف مدير جامعة عين شمس بالقاهرة عن الحسن بن الحسن الهيثم البصري أكبر عالم في الرياضيات والطبيعة في العصور الوسطى. وقد الحسن من العراق إلى القاهرة ليعمل مهندساً في خدمة الدولة الفاطمية في عصر الحاكم بأمر الله، وكان من رأيه جواز إقامة آلات على النيل يحركها تيار مياهه، والدكتور نظيف يقول: إنّه ينبغي لنا أن نستبدل بأسماء روجير بيكون ومور ليكوس ودافنشي وكبلر ودلاهورتا، اسم الحسن بن الهيثم، فعلى يد الحسن أخذ علم الضوء وجهةً جديداً بمنهجه الإسلامي، وهو «استقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات، وتمييز خواصّ الجزئيات وما يخصّ البصر في حال الإبصار، وما هو مطرّد لا يتغيّر، وظاهر لا يشته من كيفية الإحساس، ثم ترتقى في البحث والمقاييس على التدرّج والترتيب، مع انتقاد المقدّمات والتحقّظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونستصفحه استعمال العدل لا أتباع الهوى، وتحرّى في سائر ما تميّزه وننقده طلب الحقّ لا الميل مع الآراء، فلعلنا ننهي بهذا الطريق إلى الحقّ الذي يثلج الصدور، وتصل بالتدرّج والتلطّف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع النقد والتحقّظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها موادّ الشبهات». فهذا جمع للاستقراء والقياس.

وما هو إلاّ منهج علماء الرياضيات والطبيعة المسلمين تابعهم فيه ابن الهيثم، ونقله علماء أوربة، ابتداءً من الكندي (٢٥٢) عالم الطبيعة أو الطبيب الفيلسوف، والرازي (٣٢٠) جالينوس العرب أو الطبيب الفيلسوف الذي يتخذّ الإحساسات بالجزئيات أساساً لكلّ عمله، ويدلّل بالكائنات الحيّة على وجود الخالق، وابن سينا (٤٢٨)

ويشهد بها من أهل أوربة «درايبر» في كتابه «التزاع بين العلم والدين» فيقول: «كان الأسلوب الذي توخاه المسلمون سبب تفوقهم في العلم، فإنهم تحققوا أن الأسلوب النظري لا يؤدي إلى التقدّم، وأنّ الأمل في معرفة الحقيقة معقود بمشاهدة الحوادث ذاتها، ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم هو «الأسلوب التجريبي»، وهذا الأسلوب هو الذي أرشدهم إلى اكتشاف علم الجبر وغيره من علوم الرياضة والحياة، وإننا لندهش حينما نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنّا نظنّه من ثمرات العلم في هذا العصر»^١.

* * *

والقارئ يلاحظ في هذا المقام أموراً، منها:

الأول: أنّ جابراً يقرّر إذ يقسم بالإمام: استرشاده في طريقته هذه به، وأنّ علمه منه هو سبب توفيقه. ولو كان قد تلقى الطريقة عنه دون لقاء له لما نقص الفضل، فذلك شأن العلماء في كلّ زمان.

الثاني: أنّ ممارسة جابر لطريقته مع إقرار الإمام له، قد ضبطتها مدارس أبي حنيفة للإمام. إذ أنهت القياسين على وجوب ضبط طريقة القياس بوضع حدود له، واستبعاد ما ليس منه^٢.

وظاهر من قبول أبي حنيفة لنهي الإمام عن القياس، وعدم مجادلته للإمام بكلمة: أنّ أبا حنيفة أدرك أنّ النهي عن القياس نهى عن القول في الدين بالرأي، وليس مقصوداً به النهي عن الاجتهاد واستعمال العقل.

→ الرئيس أو الفيلسوف الطيب الذي يمثّل فكرة المثل الأعلى في العصور الوسطى كما يقول سارتون. وللأخيرين صورتان معلقتان على جدران جامعة باريس الآن، مع جراح العظام ابن زهر. راجع «الإمام الشافعي» للمؤلف: ص ١٧٤ - ١٧٥ الطبعة الثانية طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

يراجع كذلك «المنهج العلمي المعاصر مستمد من القرآن» للمؤلف، مطبعة دار الاتحاد العربي للطباعة سنة ١٩٧٦ م، حيث تفصيل الأدلة على أخذ أوربة المنهج العلمي المعاصر عن علماء المسلمين. (منه).

١. راجع في ذلك الإمام الصادق ملهم الكيمياء للدكتور محمد يحيى الهاشمي.

٢. يقول أحمد بن حنبل: «أنا أذهب إلى كلّ حديث جاء، ولا أقيس عليه» و«سألت الشافعي عن القياس فقال: إنّما يصار إليه عند الضرورة» وفي حالة الضرورة هذه أباح أحمد «أن يقاس الشيء إذا كان مثله في كلّ أحواله، فأما إذا أشبهه في حال وخالفه في حال فأردت أن تقيس عليه فهذا.. خطأ، فإذا كان مثله في كلّ أحواله فما أقيمت به وأدبرت به فليس في نفسي شيء منه». (منه).

وظاهر أنّ الإمام بلغ مراده من أبي حنيفة وممن تابعوه في القياس، فلم يقل أحد منهم في الدين برأيه، والتزم القائلون بالقياس كلّ الدقّة، بعد إذ جاء الشافعي وفصل شروطه تفصيلاً. الثالث: أنّه يظهر من محاوراة الإمام لأبي حنيفة يوم استأذن عليه فحجبه، فدخل مع أهل الكوفة التي سلف ذكرها أمران:

١ - أنّ الأحكام التي ذكرها الإمام لأبي حنيفة وارد فيها نصوص، ممّا يجعل لتحريم القول في الدين بالرأي أو مطلق القياس حجّةً مسلمة.

٢ - أنّ الإمام ذكر أبا حنيفة بقياس إبليس، إذ أعلن إبليس أنّه يخرج عن طاعة الله برأيه، فكان رأيه عصياناً صريحاً لأمرٍ صريح، وخروجاً على نصٍّ واردٍ على سبيل الجزم. وليس عجبياً، وإتّما هو التواتر على استعمال العقل، أن يقرّر أئمة أهل السنّة جميعاً أنّ باب الاجتهاد مفتوح إذا لم يكن ثمة نصّ، وأن يجمع علماؤهم أنّ أحداً لا يقول الكلمة الأخيرة فيه، وأن يكون هذا منهج الفقه الشيعي الذي دأب عليه علماؤه.

يقول ابن إدريس^١ (٥٩٨) من فقهاء الشيعة المتقدّمين: «إذا فقدت الثلاثة - الكتاب والسنّة والإجماع - فالمعتمد عند المحقّقين التمسك بدليل العقل»^٢.

ومن فحولهم المحقّق نجم الدين الحلّي^٣ (٦٧٦) يقسّم الدليل العقلي قسمين: الأول: يتعلّق بالخطاب - فحواه ولحنه ودليله - والثاني: ما ينفرد العقل بالدلالة عليه لحسنه أو قبحه^٤.

١. محمد بن إدريس العجلي الحلّي، له تصانيف منها: كتاب السرائر، وقد أثنى عليه علماؤنا المتأخرون، واعتمدوا على كتابه وعلى ما رواه في آخره من كتب المتقدّمين وأصولهم. يروي عن خاله أبي علي الطوسي بواسطة وغير واسطة، وعن جده لأمه أبي جعفر الطوسي، وأمّ أمه بنت المسعود ورام، وكانت فاضلةً صالحّة. ونقل عن ابن داود: أنّه كان شيخ الفقهاء بالحلّة، متقناً للعلوم، كثير التصانيف، لكنّه أعرض عن أخبار أهل البيت عليهم السلام بالكليّة، وأنّه ذكره في قسم الضعفاء، ثم قال: ولعلّ ذكره في باب الموثّقين أولى؛ لأنّ المشهور منه أنّه لا يعمل بخير الواحد، وهذا لا يستلزم الإعراض بالكليّة. (أمل الآمل: ج ٢ ص ٢٤٣).

٢. السرائر: ص ٢.

٣. هو نجم الدين: أبو القاسم جعفر بن الحسن، المعروف بالمحقّق الحلّي، وهو خال العلامة الحلّي. أطراه ابن داود في رجاله، وقال: شيخنا نجم الدين المحقّق المدقّق، الإمام، العلامة، واحد عصره، وكان ألسن أهل زمانه، وأقومهم بالحجّة، وأسرعهم استحضاراً، توفي في شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٦ هـ. له تصانيف حسنة محقّقة محرّرة عذبة، منها: كتاب شرائع الاسلام، والنافع، والمعتبر... وله تلاميذ فقهاء. يُعرف بالمحقّق على الإطلاق، وهو ممّن يفتخر بوجوده الشيعة، وأحد الأعلام والأساطين في الفقهيات. (مرآة الكتب: ص ٤٠٩).

٤. المعتبر في شرح المختصر: ص ٦.

والشَهِيد الأول محمد بن مكي^١ (٧٨٦) يوسّع في القسم الأول ويفصّل في القسم الثاني، فيزيد: البراءة الأصلية، وما لا دليل عليه، والأخذ بالأقلّ عند التردّد بين الأكثر والأقلّ، والاستصحاب^٢.

وربّما أجمل التفصيل قول بعض المتأخّرين^٣ من الأصوليين عن الدليل العقلي: إنّه كلّ حكم للعقل يوجب القطع بالحكم الشرعي، فالدليل العقلي يوجب القطع، وليس بعد القطع حجة^٤.

بالعقل أدرك الإنسان وجود ربّه، ودان بالرسالات، وأدرك المعاني والعلل، وقدر على تمييز القبيح والحسن بفطرة البشر.

فالقبح مفسدة والحسن مصلحة^٥، وما يدركه العقل منهما هو حكم عقلي يستقلّ الإنسان بتقريره، وما يستقلّ العقل بتقريره من مصلحة أو مفسدة هو مصلحة أو مفسدة شرعية، وعلى كليهما تدور الأحكام. فالشرع هادٍ للبشر، والبشر مفظورون على استعمال نعمة الشارع. ولا يمنع هذا التأييد الشرعي للعقل، أو التأييد العقلي للشرع: أن توجد بعض مصالح يراها الشرع ولا يفظن لها العقل العادي فيتردّد أمامها بظنّه.

وإذا كان أصل استعمال العقل يسع كلّ وسائل النظر، فالفقيه ملزم بالاحتياط - وهو أول ما تستوجبه النزاهة العقلية - لوجود احتمال التزاحم والتعارض، فلا تجوز المجازفة بالتحليل والتحرّيم مع وجود هذا الاحتمال.. وإنّما يلجأ الفقيه، لاستخراج الحكم عند عدم ظهور النصّ، إلى استعمال العقل، وبقواعد يملئها العقل والنقل، مثل: وجوب دفع الضرر المحتمل،

١. الشيخ السعيد الشهيد شمس الدين محمد بن مكي العاملي الجزيني، وهو المشتهر بالشهيد على الإطلاق، كان عالماً ماهراً زاهداً متبحراً مجتهداً، فائقاً في زمانه على من في عصره، جامعاً للمعقول والمنقول، قُتل بالسيف سنة ٧٨٦ هـ، ثم صلب ثم رُجم ثم أحرق بدمشق بفتوى القاضي برهان الدين المالكي وعباد بن جماعة الشافعي بعدما حُبس سنة كاملة في قلعة الشام. وفي مدّة الحبس ألف كتاب اللعة الدمشقية في سبعة أيام، وما كان يحضره من الكتب غير المختصر. (أمل الآمل: ج ١ ص ١٨١ - ١٨٢).

٢. راجع في ذلك مقدمة كتابه: «الذكرى».

٣. الشيخ محمد رضا المظفر. (منه).

٤. أصول الفقه: ج ٢ ص ١١٢.

٥. الحسن والقبح قضية يمسك بطرفيها الأشاعرة، فيقولون: إنّ الشرع وحده هو الذي يعطي الفعل وصفه، والشعبة، ويتبعهم في ذلك المعتزلة، يقرّرون: أنّهما وصفان ذاتيان يستقلّ العقل بإدراكهما، فالصدق والمروءة أمران حسنان، والكذب وانعدام المروءة أمران قبيحان. (منه).

ومثل: عدم العقاب بلا بيان^١.

والعقل إذ يقرّر قبح العقاب بلا بيان، يسوّغ للمكلّف أن يصنع ما يراه عند عدم البيان. ويتعبير آخر: تصحيح الإباحة هي الأصل، والحرية هي الأصل، حتّى تتقيّد بنصّ^٢. يقول الإمام الصادق: «كلّ شيء لك حلال حتّى تعلم أنّه حرام بعينه»^٣ ومن هنا اتّسع مجال النشاط الإنساني، فلا حرام إلّا ما حرّم الله.

والنصّ نقطة الثبات، أو حجر الزاوية في الفقه، فلا اجتهاد مع وروده^٤. والتزام فحواه أو التزام مقاصد الشارع التي ينطق النصّ بها، أو يدلّ على معناها مجموع النصوص، لا يدخل بالمصلحة أو بالقياس شيئاً على الشرع ليس منه^٥.

والإمام الصادق يفتح أبواب رحمة الله، ويرفع الحرج، ويبيح الرخص، يقول: «الوضوء نصف الإيمان»^٦ ويقول: «إنّه توبة من غير استغفار»^٧. ومع هذا سئل عن رجلٍ يكون معه

١. راجع: كفاية الأصول: ص ٣٤٨، مبادئ الوصول: ص ٢٤٣.

٢. راجع: مقالات الأصول: ج ٢ ص ١٧٦.

٣. الكافي: ج ٥ ص ٣١٣، تهذيب الأحكام: ج ٧ ص ٢٢٦، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ٨٩، الفصول المهمة: ج ١ ص ٦٣٣، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٧٣، نور البراهين: ج ٢ ص ٤٣٩، مستدرک سفينة البحار: ج ١ ص ١٤٧، الأصول الأصيلة: ص ٧٥، منتهى المطلب: ج ٢ ص ١٠٢٦، تذكرة الفقهاء: ج ١ ص ٥٨٨، مجمع الفائدة: ج ١١ ص ٢٠٦.

٤. راجع: نظرات في الكتب الخالدة لحامد حقني داود: ص ١٨٥، المهذب البارع: ج ٢ ص ٥٣٢، جامع المقاصد: ج ٥ ص ٢١٥، شرح اللمعة: ج ١ ص ٥٦٠، ج ٣ ص ٥٣ و ٤٣٨ و ٣٥٢ و ٣٥١، كشف اللثام: ج ١ ص ١٥ و ١٧٢، الحدائق الناضرة: ج ١١ ص ٢٠٠.

٥. راجع منتهى المطلب: ج ١ ص ٣٥، الرسائل الفقهية للوحيد البهبهاني: ص ٨٩.

٦. لم ترد الرواية بهذا اللفظ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، بل وردت تارة عن رسول الله ﷺ، وتارة عن أمير المؤمنين عليه السلام من عهده لمحمد بن أبي بكر. انظر: تاريخ مدينة دمشق: ج ٣٣ ص ٢٠٥ و ج ١٢ ص ٢٠٨، تاريخ بغداد: ج ١٣ ص ٣٨٨، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: ج ٢ ص ٥٧، مسند الشاميين: ج ٢ ص ١٦٤، حديث خيشمة: ص ١٩٣، الآحاد والمثاني: ج ٥ ص ٣٤٨ و ج ٤ ص ٤٥٤، كتاب الايمان لمحمد بن يحيى العدني: ص ١٢٤، بحار الأنوار: ج ٨٠ ص ٢٢٨ و ج ٧٧ ص ٣٣٤ و ٢٦٦، سنن الترمذي: كتاب الدعاء باب ٨٥، سنن النسائي: كتاب الزكاة باب ١، سنن ابن ماجة: كتاب الطهارة ٥، مسند أحمد: ج ٥ ص ٣٦٥، مستدرک سفينة البحار: ج ١٠ ص ٣٦٠، عوالي اللئالي: ج ١ ص ١١٥، كتاب نوادر الراوندي: ص ١٩٢، أمالي الطوسي: ص ٢٩.

الماء في السفر ويخاف قلته؟ فقال: «يتيمم بالصعيد ويستبقي الماء»^٨. ويقول: «من خاف عطشاً فلا يهريق قطرة، وليتيمم بالصعيد، فالصعيد أحب إلي»^٩.

سئل عن رجلٍ ليس معه ماء، والماء عن يمين الطريق ويساره غلوتين أو نحو ذلك (الغلوة: مسافة مرمى السهم)^{١٠}؟ فقال «لا أمره أن يغزّر بنفسه فيعرض له لص أو سبع»^{١١}. وسئل عن رجل يمرّ بالركية (البئر) وليس معه دلو، قال: «ليس عليه أن يدخل الركبة، لأنّ ربّ الماء هو ربّ الأرض، فليتيمم. إنّ الله جعل التراب طهوراً كما جعل الماء طهوراً»^{١٢}.

ويقول: إنّ أباذر قال: يا رسول الله هلكت، جامعت أهلي على غير ماء، فقال ﷺ: «يا أبا ذر، يكفيك الصعيد عشر سنين»^{١٣}.

→ أمالي المفيد: ص ٢٦٧، الفارات: ج ١ ص ٢٤٥، وسائل الشيعة: ج ١ ص ٣٩٧، مستدرک الوسائل: ج ١ ص ٣٠٦ و ٢٨٨.

٧. أصل الحديث هكذا: «الوضوء على الوضوء نور على نور، ومن جدّد وضوءاً لغير حدّ جدّد الله توبته من غير استغفار». من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ٤١، ثواب الأعمال: ص ١٧، وسائل الشيعة: ج ١ ص ٣٧٧، بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٣٠٤، تذكرة الفقهاء: ج ١ ص ٢١٠، ٢٠٥، الذكرى: ص ٩٦، جامع المقاصد: ج ١ ص ٧٠.

٨. المبسوط للطوسي: ج ١ ص ٤، الحبل المتين: ص ٨٣، تهذيب الأحكام: ج ١ ص ٤٠٥، وسائل الشيعة: ج ٣ ص ٢٨٨، كشف اللثام: ج ١ ص ١٧٨، الحدائق الناضرة: ج ٤ ص ٢٨٩، مستند الشيعة: ج ٢ ص ٣٨٣.

٩. الكافي: ج ٣ ص ٦٥، تهذيب الأحكام: ج ١ ص ٤٠٤، وسائل الشيعة: ج ٣ ص ٣٨٨، منتهى المطلب: ج ١ ص ١٣٤، ج ٣ ص ٢٢، مجمع الفائدة: ج ١ ص ٢١٧، الحبل المتين: ص ٨٢، مستند الشيعة: ج ٣ ص ٣٨٣. وورد مثل هذا المعنى ولكن للمجنب لا للعطشان في أحاديث أهل السنّة، انظر: السنن الكبرى للبيهقي: ج ١ ص ٢٣٤، المصنّف لابن أبي شيبة: ج ١ ص ١٢٨، كنز العمال: ج ٩ ص ٥٩٦، سنن الدار قطنية: ج ١ ص ٢١٠.

١٠. مسالك الافهام: ج ١ ص ١٠٩. وهي بمقدار ٣٠٠ ذراع إلى ٤٠٠ ذراع. انظر كشف اللثام: ج ١ ص ١٤٢.

١١. الكافي: ج ٣ ص ٦٥، تهذيب الأحكام: ج ١ ص ١٨٤، وسائل الشيعة: ج ٣ ص ٣٤٢، عوالي اللئالي: ج ٣ ص ٤٢، منتهى المطلب: ج ٣ ص ٢١ و ٢٢ و ٤٥، تذكرة الفقهاء: ج ١ ص ٥٩ و ج ٢ ص ١٥٤، الذكرى: ص ٢٢، المهذب البارع: ج ١ ص ١٩٩.

١٢. الكافي: ج ٣ ص ٦٤، من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ١٠٥، تهذيب الأحكام: ج ١ ص ١٨٤، وسائل الشيعة: ج ٣ ص ٣٤٣ و ٣٤٥، بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ١٥٣، مستند الشيعة: ج ٣ ص ٢٨٦، الحبل المتين: ص ٨٢.

١٣. من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ١٠٨، تهذيب الأحكام: ج ١ ص ١٩٤ و ص ٢٠٠، وسائل الشيعة: ج ٣ ص ٣٦٩ و ص ٣٨٠ و ٣٨٦، مستدرک الوسائل: ج ٣ ص ٥٤١ و ٥٤٨، الأربعون حديثاً للشهيد الأول: ص ٢٨، عوالي اللئالي: ج ٣ ص ٤٧، الفصول المهمة: ج ٢ ص ٤٩، بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ١٦٩، المعبر: ج ١ ص ٣٩٧، مختلف الشيعة: ج ١ ص ٤٣٨ و ٤٥٣، منتهى المطلب: ج ١ ص ١٢٨ و ١٥٠.

وسئل عن رجلٍ به القروح والجراحات فيجنب؟ قال: «لا بأس بأن يتيمم ولا يغتسل»^١.

والفقيهاء يقولون: إن نفي الحرج في الشريعة من باب الرخصة؛ لأنَّ تحمُّل الألم والمشقة غير منهبي عنه، ونفي الضرر من باب العزيمة؛ لأنَّ الضرر منهبي عنه^٢، يقول تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾^٣.

يقول الصادق: «لا صلاة إلا إلى القبلة» فقيل له: أين حدَّ القبلة؟ قال: «ما بين المشرق والمغرب كلَّه قبلة»^٤. ويشرح ذلك قوله: «يجزي التحريُّ أبداً إذا لم يعلم وجه القبلة»^٥. والفقيهاء يصرحون بالإذن^٦ لمن يشكُّ في الدليل بأن يستعمل قواعد الشرع من أصول الحلِّ والطهارة والتخيير واستصحاب الحال - ومعناه استدامة ما كان ثابتاً، ونفي ما كان منقياً - فمن شكَّ في قيامه بالوضوء قبل أن يصلِّي فعليه أن يتوضأ، لأنَّ الوضوء شرط واجب قبل الصلاة، والحال قبل الوضوء للصلاة حال تقتضي الوضوء. ومن توضأ ثم شكَّ في نقض الوضوء فهو على وضوء. ومن شكَّ في أنه توضأ بعد أن دخل في الصلاة، قطعها وتوضأ؛ ليحرز شرط الصلاة. فإن شكَّ بعد إتمام الصلاة فليس عليه أن يعيدها، فقد فرغ منها، لكن عليه أن يتوضأ للصلاة تالية؛ لأنَّه لم يبدأها ولم ينته منها، أي لم يتجاوز الشيء الذي شكَّ فيه إلى غيره.

سئل الإمام الصادق عن رجلٍ شكَّ في الأذان وقد دخل في الإقامة، قال: «يمضي». قيل له: شكَّ في الإقامة وقد كبر، قال: «يمضي»... وفي التكبير وقد قرأ، قال: «يمضي»... وفي

١. من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ١٠٧، منتهى المطلب: ج ١ ص ١٣٥، الحدائق الناضرة: ج ٤ ص ٢٧٧، مستند الشيعة: ج ٢ ص ٢٠٤، التهذيب: ج ١ ص ٢٩١، الوسائل: ج ٣ ص ٧٣٤.
٢. راجع: مختلف الشيعة: ج ٣ ص ٥٤٥، مجمع الفائدة: ج ٣ ص ٣٧٦، زبدة البيان: ص ٢٨٩، الحدائق الناضرة: ج ١٤ ص ٩٤، وبعضه قوله تعالى: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ الحج: ٧٨.
٣. البقرة: ١٩٥.

٤. من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ٢٧٨، وسائل الشيعة: ج ٤ ص ٣٠٠، الفصول المهمة: ج ٢ ص ٧٢، تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ١٣٧، والرواية عن الباقر عليه السلام.

٥. من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ١٧٩ و ٨٤٥، وسائل الشيعة: ج ٤ ص ٣١١، والرواية هكذا: «يجزي المتحير أبداً أينما توجه إذا لم يعلم وجه القبلة».

٦. راجع في ذلك: كتاب الطهارة للشيخ الأنصاري: ج ١ ص ١٥٩ - ١٦٤، وجواهر الكلام للشيخ الجواهري: ج ٢ ص ٣٤٧ وما بعدها، والحدائق الناضرة للبحراني: ج ٢ ص ٣٩٦ وما بعدها.

القراءة وقد ركع، قال: «يمضي»... وفي الركوع وقد سجد، قال: «يمضي».. إلى أن قال: «إذا خرجت من شيء ثم دخلت في غيره فشكك ليس بشيء»^١.

يقول: «إذا شككت في شيء من الوضوء وقد دخلت في غيره فليس شكك بشيء، إنما الشك إذا كنت في شيء لم تجزه»^٢.

وسئل عن رجل يشك كثيراً في صلاته، فقال فيما قال: «إن الشيطان خبيث معتاد لما عود، فليمض أحدكم في الوهم»^٣ أي لا يحفل به... وبنى الفقهاء على ذلك قاعدة: لا شك لكثير الشك^٤.

يقول الإمام الصادق: «من كان على يقين ثم شك، فلا ينقض اليقين بالشك»^٥. وهذا إعلان عن دليل استصحاب الحال، واعتماد الواقع والظاهر، كمن استأجر أرضاً وشاع أمره في الناس يعامل معاملة المستأجر، ولا يقبل منه ادعاء الملك إلا بدليل. وتتعاون مع هذا الأصل أصول أخرى، مثل: أصل البراءة والإباحة حتى يرد منع الشارع.

ويستثني الفقهاء الشيعة^٦ من المنع من القياس حالتين:

١ - حالة العلة المنصوصة. وكثير ما هي في الكتاب والسنة.

١. تهذيب الأحكام: ج ٢ ص ٣٥٢، وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٢٣٧، الفصول المهمة: ج ٢ ص ١١٥، بحار الأنوار: ج ٨١ ص ١٦٤ و ج ٨٥ ص ١٥٧.

٢. تهذيب الأحكام: ج ١ ص ١٠١، وسائل الشيعة: ج ١ ص ٤٧٠، الفصول المهمة: ج ٢ ص ٢٣، بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٢٦٢.

٣. الاستبصار: ج ١ ص ٣٧٤ - ٣٧٥، تهذيب الأحكام: ج ٢ ص ١٨٨، وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٢٢٨، بحار الأنوار: ج ٨٥ ص ٢٧٠، منتهى الجنان: ج ٢ ص ٣٢٢، منتهى المطلب: ج ١ ص ٤١١، روض الجنان: ص ٣٤٣، الحبل المتين: ص ٢٨، الحدائق الناضرة: ج ٢ ص ٣٩٥.

٤. وهي متصيدة من الروايات، راجع الوسائل: ج ٥ ص ٣٢٩، منية الطالب: ج ٣ ص ٢٨٨ و ٣٩٣، فقه الصادق: ج ٥ ص ٤٢٤ و ج ١٨ ص ٣٩١، القواعد الفقهية للبيجوردي: ج ١ ص ٢١٦ و ٢١٩ و ٢٢٤ و ج ٢ ص ٣٤٣، منة قاعدة فقهية للسيد المصطفوي: ص ٢٤١.

٥. الكافي: ج ٣ ص ٣٥٢، من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ٦١، علل الشرائع: ج ٢ ص ٣٦١، الاستبصار: ج ١ ص ١٨٣ و ص ٣٧٣، تهذيب الأحكام: ج ١ ص ٤٢٢ و ج ٢ ص ١٨٦، وسائل الشيعة: ج ٢ ص ٤٦٦ و ٤٧٧ و ٤٨٣ و ج ٨ ص ٢١٧، خاتمة المستدرک: ج ١ ص ٢٠٩، مصباح الشريعة: ص ٦٧، الفصول المهمة: ج ١ ص ٦٢٨، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٨١ و ٢٨٢ و ج ٧٧ ص ١٢٤ و ج ٨٠ ص ٢٦٨.

٦. راجع شرح اللمعة: ج ٣ ص ٦٥، مسالك الافهام: ج ٦ ص ٢٥٦، رسائل الشهيد الثاني: ص ٨، مجمع الفائدة: ج ٨ ص ١٠٤، تنمة الحدائق الناضرة: ج ١ ص ٢٣٨، المعالم: ص ٢٠٣.

٢ - حالة مفهوم الأولوية، كقول: أفّ للوالدين إذ نهى الله عنها، فمن باب أولى ما هو أشدّ. ويفرّعون على العمومات والمبادئ الكلّية الواردة في النصوص والإجماع كمثل: قواعد الوفاء بالعقود ودرء الحدود بالشبهات، وجواز كلّ شرط إلّا أن يحلّ حراماً أو يحرم حلالاً. وعلى هذه الكلّيات مدار الفقه، والاجتهاد بها واجب، وبالاجتهاد بلغ الفقه الشيعي ما بلغه فقه أهل السنّة، كلّ على شاكلته.

ندب الرسول علياً إلى اليمن، فسأله الإمام: أكون كالسكّة المحمّاة أو الشاهد يرى مالا يرى الغائب؟ - أي اجتهد رأيي فيما بين يدي ممّا ليس بين يديك - قال عليه الصلاة والسلام: «بل الشاهد يرى مالا يراه الغائب»^١. فهو يأذن له أن يجتهد، أو يأمره أن يجتهد. ويقول ابن مسعود للقضاة والمفتين والمجتهدين: «من عرض له منكم قضاء فليقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله فليقض بما قضى به نبيّه صلى الله عليه وآله، فإن جاء أمر ليس في كتاب الله ولم يقض به نبيّه فليقض بما قضى به الصالحون، فإن جاء أمر ليس في كتاب الله ولم يقض به الصالحون فليجتهد رأيّه، فإن لم يحسن فليقم ولا يستحي»^٢.

والشيعة في اجتهادهم يعملون بأصل الاحتياط الواجب مع العلم بالتكليف الملزم، وأصل التخبير إذا تردّد الفعل بين الوجوب والحرمة^٣. ويرون الحسن والقبح أمرين «عقلين»^٤ ثابتين بالعقل، وما أمر الشارع ونهيه في صدها إلّا لأنّ العقل يأمر بهما، فلا حاجة إذن

١. الأماشي للطوسي: ص ٣٢٨، عين العبرة: ص ٥، بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ١٨٦، مستدرک سفينة البحار: ج ٥ ص ٨٩، مسند أحمد: ج ١ ص ٨٣، كنز العمال: ج ٥ ص ٧٧٣ و ص ٨٠٣، فيض القدير: ج ٤ ص ٢٢٦، كشف الخفاء: ج ٢ ص ٣، الفصول في الأصول: ج ٤ ص ٢٧، أصول السرخسي: ج ٢ ص ١٣٧، التاريخ الكبير: ج ١ ص ١٧٧، تاريخ دمشق: ج ٥٤ ص ٤١٦.

٢. سنن الدارمي: ج ١ ص ٥٩، سنن النسائي: ج ٨ ص ٢٣٠ و ٢٣١، السنن الكبرى للبيهقي: ج ١٠ ص ١١٥، المصنّف لعبد الرزاق: ج ٨ ص ٣٠١، المصنّف لابن أبي شيبة: ج ٥ ص ٣٥٩، السنن الكبرى للنسائي: ج ٣ ص ٤٦٩، المعجم الكبير للطبراني: ج ٩ ص ١٨٧، كنز العمال: ج ٥ ص ٨١٣، الإحكام لابن حزم: ج ٦ ص ٧٦٨ و ٧٧٤، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٢ ص ٣٢٢، مع تغاير لا يخلّ بالمعنى في بعض الروايات زيادةً ونقيصةً.

٣. راجع: دروس في علم الأصول: ج ٣ ص ١٥ للسيد الشهيد الصدر.

٤. رسائل المرتضى: ج ٣ ص ١٧٥ وما بعدها، الرسالة السعدية: ص ٥٣ وما بعدها، حصر الاجتهاد: ص ٤٦، فقه الصادق: ج ١٣ ص ٢٠٢، عوالي اللئالي: ج ١ ص ٣٨١ (الهامش)، مبادئ الوصول: ص ٨٦، أصول الفقه: ج ١ ص ١٩٦ وما بعدها، دروس في علم الأصول: ج ١ ص ٣٢٤ وما بعدها.

لسؤال الشرع ابتداءً، بل يسأل العقل، فعدم العلم بالنهي كافٍ للحل، ولا تحتاج الإباحة لدليل، وإنما يحتاج ادعاء عكسها إلى دليله، فالاختراعات الحديثة مباحة استناداً إلى ما ثبت شرعاً من أن كل شيء مطلق حتى يرد فيه نهي.

والجواز في التصرف مطلق لا يقيد به إلا التثبت من حق الغير، فالمعاملات، أية كانت، صحيحة ما لم تترحم حقاً عاماً أو خاصاً، أو يوجد نص أو معنى يحرمها.

وفي كثير من الأحيان، يكون عمل الفقيه مجرد تحكيم النصوص بعضها على بعض، مثل قوله تعالى: «وما جعل عليكم في الدين من حرج»^١، وقول الرسول: «لا ضرر ولا ضرار»^٢، وقاعدة: «الضرورات تبيح المحظورات»^٣ وقاعدة: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان»^٤ وهذه أمثال للأدلة الحاكمة على أدلة سواها، فالعمل بها ليس تخصيصاً للنص بالمصلحة، وإنما هو حكومة نص على نص، أي رفع اليد عن الكتاب والسنة بدليل منهما - أيضاً - مجعول في ظرف خاص يترحم الدليل الآخر أو يحكم عليه.

والشيعة إذ يبنون فهمهم على أن الله يأمر بالفعل لمصلحة، وينهى عن الفعل لمفسدة، لا يعتبرون مخالفاً للأمر والنهي من يوجد في حالة اضطرار، وإنما يشترطون أن تكون المخالفة

١. الحج: ٧٨.

٢. الكافي: ج ٥ ص ٢٩٣، من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ١٠٣، تهذيب الأحكام: ج ٧ ص ١٤٧، شرح أصول الكافي: ج ١٢ ص ٤٦٦ وسائل الشيعة: ج ١٨ ص ٣٢ و ج ٢٥ ص ٤٠٠ و ٤٢٠ و ٤٢٩، مستدرک الوسائل: ج ١٣ ص ٣٠٨ و ج ١٧ ص ١٨ و ج ١٨ ص ٣٢١، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٧٦ و ج ٢٢ ص ١٣٤، كتاب المسند للشافعي: ص ٢٢٤، مسند أحمد: ج ٥ ص ٣٢٧، سنن ابن ماجه: ج ٢ ص ٧٨٤، المستدرک: ج ٢ ص ٥٨، السنن الكبرى للبيهقي: ج ٦ ص ٦٩ و ج ١٠ ص ١٣٣، مجمع الزوائد: ج ٤ ص ١١٠، المصنف لابن أبي شيبة: ج ٣ ص ٢٧٦، المعجم الأوسط: ج ١ ص ٣٠٧، المعجم الكبير: ج ٢ ص ٨٦ و ج ١١ ص ١٨٣ و ٢٤٠، سنن الدارقطني: ج ٣ ص ٦٤، الجامع الصغير: ج ٢ ص ٧٤٩، كنز العمال: ج ٣ ص ٩١٩.

٣. بحار الأنوار: ج ١٠٧ ص ١٠٨، وقال العجلوني في كشف الخفاء: ج ٢ ص ٣٥: «ليس بحديث ومعناه صحيح» وهي متفق على العمل بها عند السنة والشيعة، لاحظ: كشف اللثام: ج ٢ ص ٥٩، الحدائق الناضرة: ج ٨ ص ٢٤٣، مستند الشيعة: ج ١٠ ص ٢٧٠ و ج ١٤ ص ١١٣، المكاسب للأتصاري: ج ١ ص ٣٥٦، حاشية الدسوقي: ج ١ ص ١٥٠، الدر المختار: ج ٣ ص ٥٨٤، كشف القناع: ج ١ ص ٤٨٠، عون المعبود: ج ٥ ص ٣٩، المهود المحمدية: ص ١٥٤، فيض القدير: ج ١ ص ٧٢.

٤. أصلها آية قرآنية من سورة النحل: ٩٠، ولها تطبيقات عديدة عند السنة والشيعة، انظر مثلاً: الانتصار للمرئضي: ص ٤٤٣، الرسالة السعدية: ص ١٥٤، الاحكام ليحيى بن الحسين: ج ١ ص ٣٥، بدائع الصنائع: ج ٢ ص ٣٣٢، القواعد والفوائد: ج ٢ ص ٤٤ و ٣٦٥، نضد القواعد: ص ٣٠٢.

على قدر الضرورة، وارتفاع المسوّغ حالة انتهاء الاضطرار، أو عند تجاوز المقدار، يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^١ و﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾^٢ و﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾^٣.

وبالانتفاع بهذه الرخص يظهر أنّ الاضطرار نسبي، بل يظهر أنّه ليس إلا خيار، وفيه إرادة، والإجبار هو ما يعدم الاختيار بما يزيل من القدرة وهي شرط التكليف، فالمضطرّ في الواقع «يختار» الفعل لعامل خارجي أو داخلي (نفسي)، كمن لا يملك إلا ثوباً واحداً يلبسه ليستره، (ويختار) أن يبيعه ليأكل، إذ يؤثر العرى على الجوع إذا لم يقدر أن يواجه جوعه بطريق آخر.



ولا عجب أن تتأمر كثرة الأوربيين بالصمت عن مناهج العلم الحديث المنقولة من نهج المسلمين، كدأبهم في تنكير صلة آباء العلوم الرياضية والهندسية بالمهد الذي نشأت فيه، فذلك استمرار للحرب الصليبية، وإخضاع للحقائق العلمية للتعصّب الديني المتأصل في الحضارة الأوروبية.

فهم لا يذكرون أنّ «فيثاغورث»^٤

«وأرشميدس»^٥ و«إقليدس»^٦ آباء الرياضيات ألقوا الدروس وتلقوها في مدرسة

١. الحج: ٧٨.

٢. البقرة: ١٨٥.

٣. النساء: ٢٨.

٤. فيثاغورث رياضي وفيلسوف يوناني، مؤسس المدرسة الفيثاغورية، أسهم في تطوير الهندسة، آمن بالتناسخ وقال: بأنّ تطهير النفس ممكن من طريق معرفة الحساب والهندسة والموسيقى. أتبع نظاماً صارماً قوامه تطهير الذات وامتحان النفس. ولد عام ٥٨٠ ق.م، وتوفي عام ٥٠٠ ق.م (موسوعة المورد الحديث: رقم ٩٥٣٩).

٥. أرخميدس (٢٨٧ ق.م - ٢١٢ ق.م) رياضي وفيزيائي ومخترع يوناني من مدينة سيراكوسة، اكتشف مبدأ الثقل النوعي، واخترع آلات حربية ساعدت كثيراً في الدفاع عن سيراكوسة ضد الرومان. (موسوعة المورد الحديث: رقم ٧٧٦).

٦. إقليدس (حوالي ٣٦٥ - حوالي ٣٠٠ ق.م) عالم رياضيات يوناني، أسس مدرسة في الاسكندرية في عهد بطليموس الأول، ودرّس الرياضيات فيها. وضع مبادئ الهندسة المستوية، أشهر آثاره كتاب «الأصول» أو «الأركان» في الهندسة، وهو يقع في ثلاثة عشر جزءاً، حشد فيه إقليدس عدداً من النظريات الهندسية ونسّقها

الإسكندرية بمصر، ولا يذكرون أنهم لم يعرفوا كتاب إقليدس المسمّى «الأساسيات» أو «العناصر» إلا عن نسخة عربية، ولا يذكرون أنّ أوروبية المعاصرة أخذت عن العلم الإسلامي المنهج العلمي المعاصر، أي منهج التجربة والاستخلاص.

يقول الشاعر محمد إقبال^١: «إنّ دبرنج Dubring يقول: «إنّ آراء روجير سيكون أصدق وأوضح من آراء سلفه... ومن أين استمدّ روجير سيكون دراسته العلمية؟ من الجامعات الإسلامية في الأندلس»^٢.

ويقول بريفو^٣ Robert Briffault: «إنّه لا ينسب إلى روجير سيكون (١٢٩٤)٤ ولا

→ تنسيقاً منطقياً. درس الموسيقى وعلم البصريات أيضاً، وقد نُسبت إليه بعض المصنّفات في هذين الموضوعين. (موسوعة المورد الحديث: رقم ١٢٠٧).

١. شاعر وفيلسوف هندي مسلم ولد عام ١٨٧٥ م، نظم باللغة الفارسية، واللغة الأردية، وكان أول من دعا إلى إنشاء دولة باكستان. أشهر آثاره الشعرية قصيدة طويلة عنوانها «أسراري خودي» أي أسرار النفس عام ١٩١٥ م، وأهم آثاره الفلسفية إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام عام ١٩٣٤.
- توفّي سنة ١٩٣٨ م. (موسوعة المورد الحديث: رقم ١١٩٤).
٢. في كتابه: «إعادة تكوين الفكر الديني في الإسلام»

The Reconstruction of Religious Thinking .

(منه).

٣. في كتابه: «صنع الإنسانية» Making of Humanity (منه).

٤. مات روجير سيكون سنة ١٢٩٤، واستمرت الجامعات العربية والعرب في الأندلس قرنين بعد ذلك، إلى جوار المعاهد التي أنشئت لترجمة علومهم في فرنسا والأندلس وإيطاليا وألمانيا.

وكان يجيد اللغة العربية والعربية، ويمارس التجارب العلمية في الطبيعة والكيمياء، وقاومه معاصروه، لكنّ البابا شدّ أزره، وكان جزاؤه السجن في باريس من أجل كتاباته، وهي تعتبر طلائع لكشوف علمية حديثة (كالعدسات والسيارات ذات المحرك البدائي والطائرات) وهو القائل: «الفلسفة مستمدة من العربية، فاللاتيني - على هذا - لا يستطيع فهم الكتب المقدسة والفلسفة إلا إذا عرف اللغة التي نقلت عنها». ومن قبل ذلك بقرون - وعلى التحديد في سنة ٩٢٠ - طلب ملك الصقالية إلى الخليفة أن يبعث إليه معلّمين وفقهاء، فصنع. وكان الجغرافيون العرب في أرمينية منذ القرن التاسع للميلاد.

كذلك تلقّى الباب سلفستر (٩٩٩ - ١٠٠٣) علومه بجامعة قرطبة، وكان اسمه: «الراهب جليبير» قبل أن يصير رئيساً لدير رافنا، وهو ناقل العلوم العربية والأرقام العربية إلى أوروبية. وقد أنشأ مدرسة في إيطاليا، وأخرى في ريمس بألمانيا لنقل العلوم العربية. وثابت أنّ مدرسة الوعّاظ في طليطلة نشأت مدرسة لتدريس اللغة العربية سنة ١٢٥٠ م، ثم أمر مجلس فيينا سنة ١٣١١ م بتدريس العلوم العربية في باريس وسلامنكا وغيرها.

إلى سميّه الآخر فرانسيس بيكون (١٦٢٦) أيّ فضلٍ في اكتشاف المنهج التجريبي في أوروبا،

→ وفي سنة ١٢٠٧ أنشأت «جنوه» جامعة لنقل الكتب العربية، وفي سنة ١٢٠٩ و ١٢١٥ قرّر المجمع المقدّس منع تدريس كتب ابن رشد وابن سينا لما فيها من حرّية فكرية!

وفي سنة ١٢٩٦ قرّر المجمع اللاهوتي تحريم تدريس الفلسفة العربية، وحرمان «كلّ من يعتقد أنّ العقل الإنساني واحد في كلّ الناس»! وكان الامبراطور فردريك الثاني قد أنشأ جامعة نابولي لنقل العلوم العربية فوق ما تنقله مدرسة سالرنو المجاورة. وأنشأ العرب المطرودون من أسبانيا مدرسة «مونييه» في «بروفانس» بجنوب فرنسا. والشريف الإدريسي هو معلّم روجار ملك صقلية، صنع له كرة من فضّة؛ ككرة الأرض سنة ١١٥٣، قبل أن تعرف أوروبا أنّ الأرض كروية.

ومن الثابت أنّ فيروناتشي Fibonacci أول عالم اشتغل بعلم الجبر، قد رحل إلى مصر وسورية في عصر الملك فردريك الثاني ملك صقلية، وأنّ ادلارد البائي Adilard of Bath درس على العرب علمي الفلك والهندسة. وما هؤلاء إلاّ اطلاع للمصر الذي عاشوا فيه.

وفي العصر ذاته كانت مدرسة صقلية، وكمثلها مدرسة سالرنو في جنوب إيطاليا، وجامعة نابولي التي أنشأها الإمبراطور فردريك الثاني، تذيب العلوم العربية. واحتلّ العرب جزر البحر الأبيض ابتداءً من كريت سنة ٢١٢ إلى صقلية سنة ٢١٦. أيّ في النصف الأول من القرن التاسع للميلاد، كما استولوا على باري وبرنديزي في وسط إيطاليا، وتوطّدت سيطرتهم على مقاطعتي كامينا وأبروزي وأقاموا فيها إمارات عربية، وامتد سلطان عرب الأندلس إلى جنوب فرنسا في مقاطعة بروفانس، وحاصروا روما.

وكانت ملابس الباب موشاة بالأحرف العربية، وتأثر «دانتى» بالثقافة العربية واضح في الكوميديا الإلهية، وهو يذكر صلاح الدين الأيوبي والدوق جود فري (الملك جود فري ملك بيت المقدس في حرب الصليبيين) في كتابه. وكانت السفارات بين الملوك والأمراء الفرنجة والسلطين تمدّ إلى أوربة أسباب الحضارة، وكانت كتب ابن رشد والغزالي أيامئذٍ تقدّم الغذاء العلمي للفكر الأوربي، وكتابات القديس توماس الأكويني (القديس توما) ناطقة بالتأثر الظاهر، أو بالنقل الكامل.

وأول مرصد فلكي أقيم في أوربة أقامه العرب بأشبيلية، وأول مدرسة طبّية في أوربة هي التي أقاموها في ساليرت، ومنذ سنة ٩٧٠ كان في غرناطة بأسبانيا ١٢٠ مدرسة، منها ١٧ مدرسة كبيرة، و ٢٧ مدرسة مجانية يتعلّم فيها نبلأ أوربة علوماً عربية.

ولما سقطت طليطلة في سنة ١٠٨٥ في أيدي الأسبان أقاموا المدارس لترجمة العلوم العربية فيها، ولم يتوقّف النقل، بل أتاحت له مصادر جديدة بسقوط قرطبة سنة ١٢٣٦، ثم بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢.

وكان بلاط الفونسو السادس بعد سقوط طليطلة مصطبغاً بالثقافة العربية، بل هو أعلن نفسه امبراطور العقيدتين: المسلمة والمسيحية. وكان الفونسو الخامس الملقّب بالحكيم ملك قشتالة من سنة ١٢٥٢ إلى ١٢٨٤ أكبر دعاة الثقافة العربية، وقد جمع له اليهود كلّ كتب العرب. وفي سنة ١٢٥٠ أنشأت جماعة الوعاظ في طليطلة مدرسة لتدريس اللغة العربية والعبرية بقصد تنصير المسلمين، كما ألّفت الكتب للدفاع عن المسيحية ضدّ المسلمين، وكان الأسقف ستيفن في باريس يناقش كتب ابن رشد، وفي آخر أيام المسلمين بالاندلس أنشئت محاكم

ولم يكن روجير بيكون في الحقيقة إلا واحداً من رسل العلم الإسلامي والمنهج الإسلامي إلى أوربة المسيحية، ولم يكفَّ بيكون عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة... ولقد انتشر منهج العرب التجريبي في عصر بيكون، وتعلمه الناس في أوربة، يحدوهم إلى هذا رغبة ملحة».

ويضيف: «إنه ليس هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربي لم يكن للثقافة الإسلامية عليها تأثير أساسي، وإن أهم أثر للثقافة الإسلامية هو تأثيرها في العلم الطبيعي والروح العلمي، وهما القوتان المميّزتان للعلم الحديث» ثم يضيف: «إن ما يدين به علمنا للعرب ليس ما قدموه لنا من اكتشاف نظريات مبتكرة غير ساكنة، إن العلم مدين للثقافة الإسلامية بأكثر من هذا، فقد أبدع اليونان المذاهب وعمّموا الأحكام، لكن طرق البحث، وجمع المعرفة الوضعية وتركيزها، ومناهج العلم الدقيقة، والملاحظة المفصلة العميقة، والبحث التجريبي، كانت كلها غريبة عن المزاج اليوناني... إن ما ندعوه بالعلم ظهر في أوربة نتيجة لروح جديدة في البحث، ولطرق جديدة في الاستقصاء، طريقة التجربة والملاحظة والقياس، ولتطور الرياضيات صورة لم يعرفها اليونان، وهذه الروح وهذه المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوروبي».

أو كما يقول المستشرق المعاصر برنارد لويس: «إن أوربة القرون الوسطى تحمل ديناً مزدوجاً لمعاصريها العرب، وهم الواسطة التي انتقل بها إلى أوروبة جزء كبير من ذلك التراث الثمين. كما تعلمت أوربة من العرب طريقة جديدة وضعت العقل فوق السلطة، ونادت بوجود البحث المستقل والتجربة. وكان لهذين الأساسين الفضل الكبير في القضاء على العصور الوسطى، والإيدان بعصر النهضة».

وروجير بيكون يعلن تأثره بالمنهج العربي، ورفضه للمنهج الأرسطي الذي سيطر على الفكر الأوروبي من جرّاء الفساد في بعض استنتاجاته في العلوم الطبيعية، فيقول:

→ التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة اللذين خيف انتشارهما من كتب المسلمين!
وفي بحر ثمانية عشر عاماً من (١٤٨١-١٤٩٩) أحرقت هذه المحاكم ٢٢٠ ألفاً و ١٠ رجلاً أحياء! وشنت
١٦٨٦! وعاقبت بعقوبات أخرى سبعة وتسعين ألفاً. وفي سنة ١٥٠٢ قرّر مجمع «لا ترانا» لعن من ينظر في
فلسفة ابن رشد، لأنه يقول بحرية العقل!!
يراجع الفصل الثاني وعنوانه (قوة الحضارة العلمية) من الباب الأول في كتابنا: «توحيد الأمة العربية» فقرات ٤
إلى ١٨. (منه).

«If it had my way, I should burn all books of Aristotle, for the study of them can lead to a loss of time, produce error, increase ignorance».

وتعريبه: «لو أُتِيح لي الأمر لأحرق كل كتب أرسطو؛ لأنّ دراستها يمكن أن تؤدّي إلى ضياع الوقت، والوقوع في الخطأ، ونشر الجهالة».

وكما قال جوستاف لوبون بعد ستّ قرون من وفاة بيكون: «أدرك العرب بعد لأيّ أنّ التجربة والمشاهدة خير من أفضل الكتب، ولذلك سبقوا أوروبا إلى هذه الحقيقة. فالمسلمون أسبق إلى نظام التجربة في العلوم».

الفصل الثاني

في السياسة والاجتماع

«وإنما عماد الدين، وجماع المسلمين،
والعدة للأعداء: العامة، فليكن صفوك لهم،
وميلك معهم»^١.

(أبو جعفر المنصور)

لم تكن خلافة أمير المؤمنين علي هادئة أو هائلة، ولو هدأت لحمل الناس على الجادة بعلمه وعدله، وشجاعة رأيه وزهده. والزهد آية على صدق الولاية، وسبيل معبّدة لهم إلى أنفس الرعية، فالشجاعة تروّعها، أما الزهادة فتقنعها.

وعلي عليه السلام إمام الزاهدين والمتقشفين من الصحابة، أجمع عليه العلماء والفقهاء والبلغاء وأبطال الحروب والحكماء وكلّ محبّ لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

والصوفية يمدّون إليه بالأسباب، فيضعونه في قمتهم، كما يصرح بذلك: الشبلي، والجنيد، وسرى السقطي، وأبو يزيد البسطامي، ومعروف الكرخي. وهم يسندون إليه الخرقة التي يتخذونها شعاراً لزهدهم.

وأحمد بن حنبل - والصوفية يعتبرونه من أئمتهم - يقول: إنه «ما اجتمعت لأحد من الفضائل بالأسانيد الصحاح ما اجتمع لعلي»^٢، يقابله الجاحظ زعيم المعتزلة، أي في الطرف

١. نهج البلاغة: ج ٣ ص ٨٦ تحقيق الشيخ محمد عبدة، طبعة بيروت.

٢. العدة للحافظ ابن البطريق: ص ٦، خصائص الوحي المبين أيضاً: ص ٣٠، مناقب أحمد لابن الجوزي

الحنبلي: ص ١٦٣، قاموس شتاتم لحسن بن علي السقّاف: ص ١٩٨.

الأقصى من الخصومة لأحمد، ومع ذلك يتلاقى الطرفان في «علي» حيث يقول الجاحظ: «لا يعلم رجل من أهل الأرض: متى ذكر السبق في الإسلام والتقدم فيه، ومتى ذكرت النخوة والذب عن الإسلام، ومتى ذكر الفقه في الدين، ومتى ذكر الزهد في الأمور التي يتناحر الناس عليها، كان مذكوراً في هذه الخلال كلها، إلا علي»^١.

والمعتزلة يمدّون إليه أسبابهم الفكرية عن طريق حفيده أبي هاشم بن محمد بن الحنفية. وفي مكان بعيد جداً من المعتزلة يقف محيي الدين بن عربي، من فلاسفة المتصوفة، ليقول: «علي من أصحاب العلم، وممن يعلمون من الله ما لا يعلمه غيره».

ويقول السراج الطوسي^٢: «لأمير المؤمنين علي عليه السلام من بين جميع أصحاب رسول الله «خصوصية» بمعاني جليلة، وإشارات لطيفة، وألفاظ مفردة، وعبارات ومعاني للتوحيد والمعرفة والإيمان والعلم، وغير ذلك، وخصال شريفة تعلق وتخلق بها أهل الحقائق من الصوفية».

ولقد طالما افتتن بشخصيته الناس، ومنهم المستشرقون الذين يتحدثون عنه على طريقتهم في الإيضاح عن آرائهم، مثل «كارادي فو»^٣ حيث يتصوره «ذلك البطل المتوجع

→ ووردت بلفظ آخر هو: «ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما جاء لعلي عليه السلام». بحار الأنوار: ج ٤٠ ص ١٢٤، المستدرك على الصحيحين: ج ٣ ص ١٠٧، تلخيص المستدرك للذهبي مطبوع بذييل المستدرك، تاريخ دمشق: ج ٣ ص ٦٣، ١١٠٨، شواهد التنزيل للحسكاني: ج ١ ص ١٩، ٧ و ٨ و ٩، المناقب للخوارزمي: ص ٣، كفاية الطالب للكنجي: ص ٢٥٣، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ١٦٨، نظم درر السمطين للزرندي: ص ٨٠، الصواعق المحرقة لابن حجر: ص ٧٢، ينابيع المودة للقندوزي: ص ١٢٦، الكامل في التاريخ لابن الأثير: ج ٣ ص ٣٩٩، السيرة الحلبية: ج ٢ ص ٢٠٧، الروض الأزهر: ص ٩٦ و ١٠٢، السيرة النبوية لدحلان: ج ٢ ص ١١، إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار: ص ١٤٨، مطالب السؤول لابن طلحة الشافعي: ج ١ ص ٨٧، فرائط السمطين: ج ١ ص ٣٧٩ ح ٣٠٩.

١. ينقلها الشيخ الأميني في الغدير: ج ١٠ ص ١٧ عن الثعالبي في ثمار القلوب: ص ٦٧. وراجع أيضاً: الاسلام والحضارة العربية: ج ٧ ص ١٤٥، وحياة الامام الحسين للقرشي: ج ٢ ص ١٦٦.

٢. السراج الطوسي: من جملة مشايخ طوس وفقهائهم وزهادهم، مات بنيسابور وهو ساجد، وله بطوس عقب باقي ابنه المعروف بأبي نصر السراج، وهو المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ولسان القوم وفهم أحكامهم وعلومهم مع الاستظهار بعلم الشريعة والكتاب والسنة. (تاريخ دمشق: ج ٣١ ص ٧٥).

٣. هو الذي ترجم كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي الى اللغة الفرنسية. راجع معجم المطبوعات العربية لالياس سركيس: ج ٢ ص ١٧٤٤ ويذهب إلى أن التشيع رد فعل لفكر حرّ طليق كان يقاوم جموداً عقلياً بدأ في مذهب أهل السنة. راجع أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل المصري: ص ٣٩٠ طبعة ١٩٥٥.

المتألم، والفارس الصوفي، والإمام ذو الروح العميق القرار، التي يكمن في مكانها سرّ العذاب الإلهي».

وإذا ذكرت كلمة «الإمام» مطلقاً، انصرفت إلى علي بن أبي طالب دون سائر الصحابة. ولم يكن النهج العلمي الذي أجزنا الإشارة إليه قبل، إلا استعمالاً لأصول تهدي إلى معرفة حكم الشرع ودليله، لبلوغ السعادة في الدنيا والآخرة. وكان طبيعياً، وقد تضافرت في رسم حدود هذه السعادة وضوابطها، والعلاقات الهادية إليها نصوص القرآن والسنة، أن تجلّى الإمام علي في هذا المجال، وأن يتخلف لنا من حياته وسنوات حكمه، على قصرها، وانحسار سلطته فيها، مواقف معلمة، ونصوص شارحة، وأن يتتابع في نسقها أعمال الأئمة من بنيته، ليتشكّل منها مذهب سياسي واجتماعي واقتصادي متكامل.

فترى الحسن يضرب مثلاً في العطاء وحقن الدماء، وترى الحسين يضرب مثلاً للجهاد في حروب الأئمة وللإستشهاد في سبيل الحقّ، وترى الأئمة الثلاثة بعدهما يفضّلون القواعد للمجتمع العظيم، والدولة المثلى، والأسرة الفاضلة، والإنسان الذي يتغيا الكمال. وكان لزاماً، أن تكون بين تعاليمهم تعاليم دستورية واقتصادية واجتماعية، فالإمام علي والأئمة من عقبه بناءة دول وحماة مجتمعات، ازدهرت فيها الأسرة، وصلح بها الرجل والمرأة، واستغنى الناس فيها بكدهم وكدهم.

في الدولة وقواعدها

لم يكد أمير المؤمنين يتلقّى البيعة حتى أطلق كلماته كالصواعق رجوماً للمنحرفين، أو كالبوراق المتألّقة بآمال المصلحين، في منهاجه السياسي والاجتماعي والاقتصادي الجامع.

المساواة أساس الدولة

لقد خطب في اليوم التالي لمبايعته، فقال: «أما بعد.. ألا لا يقولنّ رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارحة، واتخذوا الوصائف الرقيقة، وصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى

حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون: حرمانا ابن أبي طالب حقوقنا»^١. فلما كان الغد غدا الناس لقبض حقوقهم، فأمر كاتبه عبيد الله بن أبي رافع أن يبدأ بالمهاجرين، وأعطى كل من حضر منهم ثلاثة دنانير، ثم ثنى بالأنصار، ثم سائر الناس كلهم، سوى بينهم الأحمر فيهم والأسود، فقال له سهل بن حنيف: هذا غلامي أعتقته بالأمس! قال: «نعطيه كما نعطيك ثلاثة دنانير».

وقد تخلف عن هذه القسمة طلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم^٢.

وقال علي: «ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرقه في البلدان لرددته إلى حاله، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عنه الحق فالجور عنه أضيح»^٣. ولما جاءت امرأتان فسوى بينهما، قالت إحداهما: آتني امرأة من العرب، وهذه أعجمية! فقال: «آتني لا أرى لبني اسماعيل في هذا الغنى فضلاً على بني إسحاق»^٤.

وغضب البعض مما يصنع أمير المؤمنين، وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية يقول: «ما كنت صانعاً فاصنع...»^٥.

ودعا البعض في السر إلى رفض علي لمساواته بينهم وبين الأعاجم^٦! ولما بلغه ذلك صعد المنبر متقلداً سيفه وقال: «.. ليس لأحد عندنا فضل إلا بطاعة الله وطاعة الرسول...»

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٧ ص ٣٧، الأمالي للطوسي: ص ٧٢٩، بحار الأنوار: ج ٣٢ ص ١٧ ص ٢٧.

٢. شرح الأخبار للقاضي النعمان: ج ١ ص ٣٧٤، الاختصاص للمفيد: ص ١٥٢، الأمالي للشيخ الطوسي: ص ٦٨٦ لم يذكر سعد بن أبي وقاص، بل ذكر عبارة «وناس معهم».

٣. نهج البلاغة: ج ١ ص ٤٦، بحار الأنوار: ج ٣١ ص ٢٢٣، تاريخ دمشق: ج ٦ ص ١٢٨، شرح نهج البلاغة: ج ١ ص ٢٦٩.

٤. وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ١٠٧، الفارات لابراهيم بن محمد الثقفي: ج ١ ص ٧٠، بحار الأنوار: ج ٤١ ص ١٣٧، والعبارة فيها كلمة (الفيء) لا (الغنى) وهي الأوفق.

٥. مروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٣٥٤، ما لفظه: «ما كنت صانعاً إذا قشرت من كل شيء تملكه فاصنع ما أنت صانع»، ونقلها الشيخ المحمدي في نهج السعادة: ج ٢ ص ٨٠.

٦. هم طلحة والزبير ومروان وسعيد وعبد الله بن الزبير والوليد بن عقبة وآخرين.. راجع بحار الأنوار: ج ٣٢ ص ٢٠.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^١، ثم صاح بأعلى صوته: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين»^٢....».

في هذه الأيام الأولى وضح منهاجه الدستوري: المساواة في الحقوق، والعدل بين الناس. ومنهاجه الاقتصادي: المساواة في العطاء بين فئات الشعب. ومنهاجه الاجتماعي: ليس في الإسلام شريف ومشروف، ولا أحر وأسود، ولا عربي وأعجمي، وإنما أكرم الناس أتقاهم. وكان عدله مع الذين حاربوه أو كفروه أو قتلوه دروساً في الفقه:

روى الغزالي في «المستصفى»: أن قضاته استشاروه في شهادة الخوارج بالبصرة، فأمر بقبولها كما كانت تُقبل قبل خروجهم عليه، لأنهم إنما حاربوا علياً تأويل، وفي ردّ شهادتهم تعصّب وإثارة خلاف^٣.

حتى قاتله عبد الرحمان بن ملجم نهى عن المثلة به^٤.

وبالمساواة التي هي خصيصة الإسلام الأولى، بعد التوحيد، أهرع أبناء البلاد المفتوحة - من غير العرب - إلى اعتناق الإسلام. ثم اختار كثير منهم الانضمام تحت لواء الشيعة. ولما سادت الدعوة لأهل البيت في خراسان أقبلت جيوشها تقيم دولة الدين على أنقاض بني أمية وبني مروان. وكانت تولية «الرضا» من «أهل البيت» والتسوية بين «الموالي والعرب»، شعار الدولة التي أقامها أبو مسلم الخراساني والتي سرقها بنو العباس من بني علي، كما أوضحنا قبل^٥.

١. الحجرات: ١٣.

٢. الامام لم يقرأها على نحو الآية؛ لأنها قرأناً بلفظ «فإن تولوا» في آل عمران: ٣٢، راجع في ذلك: بحار الأنوار: ج ٣٢ ص ٢٠، وشرح نهج البلاغة: ج ٧ ص ٤٠.

٣. المستصفى: ص ٢٩٧.

٤. المجموع للنووي ج ١٩ ص ٢١٦ الجوهر النقي: ج ٨ ص ٥٩، الشرح الكبير لعبد الرحمان بن قدامة: ج ١٠ ص ٧٣، كشف القناع للبهوتي ج ٦ ص ٢١٢، ذخائر العقبى للطبري: ص ١١٤ و ١١٦، الأحاد والمثاني للضحك: ج ١ ص ١٤٠، الجوهرة في نسب الامام علي وآله للبري: ص ١٢٠، جواهر المطالب في مناقب الامام علي لابن الدمشقي: ج ٢ ص ٨٦.

٥. كان بنو أمية يجعلون للعرب درجة على الموالي، وسُمّي العرب الموالي بالعلوج، بل قال جرير: قالوا نبيبعك ببعاً فقلت لهم يبعوا الموالي واستغنوا عن العرب

ولقد وهم الذين نسبوا أسباب التشيع^١ في خراسان إلى ما زعموه من تشابه تنابع الخلافة النبوية والدينية في بيت الرسول، وتوارث الملك عند الفرس في الدولة الكسروية، وحكم كسرى «بالحق الإلهي»^٢.

→ والميرد يقول: وترجم الرواة أن الذي أنفت منه جلّة الموالى هذا البيت، لأنه حطّمهم ووضعهم وتزوج أعجمي من عربية من بني سليم، فشكاهما محتسب إلى والي المدينة إبراهيم بن هشام صهر الخليفة عبد الملك بن مروان، ففرّق بينهما؛ لعدم الكفاءة؛ وعزّر الزوج لأنه ارتكب جريمة؛ بأن ضربه ماتي جلدة ثم حلق لحيته وشاربه!! فقالوا عن الوالي:

قضيت بسنة وحكمت عدلاً ولم ترث الحكومة من بعيد

وابراهيم بن هشام خال الخليفة هشام بن عبد الملك.

وسأل هشام جلسه في فاتحة القرن الثاني للهجرة عن فقهاء الأمصار، قال: من فقيه المدينة؟ قال: نافع مولى ابن عمر، قال: فمن فقيه أهل مكة؟ قال: عطاء بن أبي رباح، قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى، قال: فمن فقيه اليمن؟ قال: طاوس بن كيسان، قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى، قال: فمن فقيه أهل اليمامة؟ قال: يحيى بن أبي كثير، قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى، قال: فمن فقيه أهل الشام؟ قال: مكحول، قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى، قال: فمن فقيه أهل الجزيرة، قال: الضحّاك بن مزاحم، قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى، قال: فمن فقيه أهل البصرة؟ قال: الحسن وابن سيرين، قال: موليان أم عربيان؟ قال: موليان، قال: قال فمن فقيه أهل الكوفة؟ قال: إبراهيم النخعي، قال: مولى أم عربي؟ قال: عربي، قال: كادت نفسي تهرق ولا تقول واحد عربي!!

ومن هذا التعصّب للعرق وتمييز العرب ثار من عدا العرب في خراسان (ما وراء العراق حتّى وسط آسيا) وأجاء أهل خراسان بني العباس إلى الخلافة بشعارين يكمل كل منهما الآخر:

(١) إعادة حكم الدين وتولية أهل البيت (٢) مساواة الموالى والعرب. وانظمت الدولة العباسية في أغلب أمرها بطابع غير عربي، يقول الجاحظ عن المائة الأولى من عمرها: «دولتهم أعجمية خراسانية، ودولة بني أمية عربية أعرابية».

وكان مؤسسو الدولة العباسية يشيرون إلى خراسان على أنها (باب الدولة).

وفي خواتيم المائة الأولى حاول الرشيد أن يستعيد مقاليد الأمور من الفرس، فكانت مصارع البرامكة، فلم يلبث الفرس إلا سنين حتّى قتلت جيوشهم الأمين - العربي الأب والأم - وجاءوا بالمأمون إلى عرش الخلافة وأمه خراسانية.

وشهدت المائة الثانية من عمر الدولة دولاً قادمة من خراسان تستقلّ بمالكتها، أو تحكم الدولة العباسية كلّها: بني سامان (٢٦١ - ٣٨٩) يحكمون في الشرق من خراسان في عهد المستعين (٢٤٨)، والدولة الصفارية في عهد المعتز (٢٥٢)، ثم بني بويه (٣٢٤ - ٤٢٣) يحكمون فارس والري وأصفهان والجيل، ولم تنشأ دولة عربية إلّا في الموصل وديار بكر وربيعة وهي دولة بني حمدان (٣١٧ - ٣٥٨). (منه).

١. وهو ماذهب إليه المستشرق جوينو وبارون. راجع الامام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة: ج ٣ ص ١٨ - ١٩.

حيث نقل أقوالهم وأقوال من تابعهم.

٢. لقد عقد الشيخ عبد الرسول الغفاري في كتابه الكليني والكافي مبحثاً حول نشأة التشيع في خراسان، ذكر فيه

فلقد ترك الفرس دين كسرى بتمامه إلى الإسلام وقواعده.

إنما كانت تفرقة الولاة والحكام بين العجم وبين العرب سبباً لتصبح المساواة صحيحة التجمّع منهم على أمير المؤمنين علي وبنيه، وكان أهل البيت مضطهدين، تهوى إليهم الأفتدة، وكانوا شجعاناً يستشهدون، فاجتمع على إيجاب الانضمام إليهم: الدين والعقل والمصلحة، وهي دوافع كافية للجهاد ضد بني أمية.

أما زعم الزاعمين^١ أن إصهار الحسين إلى الفرس في أم زين العابدين كان سبباً لتشيعهم، فينقضه أن ابني عمر وأبي بكر أصهرا إليهم في أختين لها، ومع ذلك لم يتعصب الفرس لأبويهما.

لامراء كان طلب المساواة هو الباعث على التشيع لعلي، من قوم سُلبت حقوقهم في المساواة، وهم في قمة المجتمع العلمي والديني، يحملون مسؤوليات الدين الجديد مع العرب^٢.

والدول العظيمة، والحروب الدامية، وتغيير التاريخ، لا يحدثها الغضب من أجل النسب، وإنما تحدثها المبادئ الخالدة، والبطولات الرائعة، وابتغاء مستقبل أفضل. وتفسير التاريخ على أساس النسب تفسير أوربي يدفع المستشرقين إليه سوابق «الزواج السياسي» بين ملوكهم، و«حروب الوراثة» بين دولهم.

العدل ونزاهة الحكم

في حياة علي ومبادئه، وخطبه وأقضيته، عن هذين مالا نظير له في أي عصر، والمقام يضيق عن الاستقصاء. فحسبنا أن نقف قليلاً عند فقرات من عهده لمالك بن الحارث (الأشتر

→ جملة من الأسباب التي دعت إلى انتشار التشيع في خراسان، منها ما ذكره المؤلف. راجع: ص ٩٨-١٠٣.

١. وهو المستشرق بارون حيث قال بعد ذكر نظرية الحقّ الالهي في الحكم الساساني: «ومن جهة أخرى فإنّ الحسين وهو أصغر ولد فاطمة بنت النبي وعلي ابن عمه قد قالوا: إنّه تزوّج من شهربانو ابنة يزيد جرد الثالث آخر ملوك آل ساسان» راجع الامام الصادق والمذاهب الأربعة: ج ٣ ص ١٩.

٢. ومن المستشرقين من يلقي القول على عواهنه: «فلهوزن» مثلاً يخلط بين أشياخ علي وأتباع ابن سبأ الذي يبرأ الشيعة منه، فيقول: إنّ بعض العقيدة الشيعية نبع من اليهودية، أكثر ممّا نبع من الفارسية! «ودوزي» يرى أنّ الأصل في التشيع فارسي؛ لأنّ الفرس يدينون بالملك والوراثة فيه والحقّ الإلهي. «وفسان فلوتن» يرى أنّ التشيع كان مباءة للعقائد الآسيوية. ومن المؤرّخين من تابعوا المستشرقين. (منه).

النخعي)، فهذا عهد مقطوع القرين في شكله وموضوعه، في التراث العالمي والإسلامي، وبخاصة في السياسة الإسلامية، والحكم الصالح، سواء في صياغته أو محتوياته.

وهذا العهد يضع اسم علي في ذروة المؤسسين للدول (واضعي الدساتير)، حيث يتكلم عمّا يسمّى في الدساتير العصرية بالمقومات الأساسية، واجبات الولاية نحو الأمة، وطريقة قيامهم بحقوق الجماعة، بالتفصيل اللازم، والتنبيه على ملء الفراغ، فيما سكت عنه، بالرجوع إلى أصل الشريعة: القرآن والسنة.

ولقد تابعت على هذا العهد شروح الأئمة من بعد، فرأينا لزين العابدين في رسالة الحقوق تفصيلات جديدة يقتضيها الزمان، وشهدنا الإمام جعفر الصادق يضيف التطبيق، والتفصيل الدقيق، لما تضمّنته رسالة زين العابدين وعهد علي، فيجعل من تنفيذهما وشروحه لهما عهداً جديداً للمسلمين وللشيعية، تبلغ به مجتمعاتهم أو دولهم مبالغها كلّما التزموا أو قاربوا الالتزام بهما.

يبدأ «عهد علي» بتحديد مهمّة الوالي «حين وآه مصر: جباية خراجها وجهاد عدوّها، وإصلاح أهلها، وعمارة بلادها» فهو قد جمع له ولاية الخراج وولاية الحكم، وقال: «واعلم أنّ الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلّا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض: فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامة، ومنها قضاة العدل^١، ومنها عمّال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجّار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة، وكلّاً قد سمى الله سهمه.

فالجنود بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاية، وعزّ الدين، وسبيل الأمن، وليس تقوم الرعية إلّا بهم، ثم لا قوام للجنود إلّا بما يخرج الله تعالى لهم من الخراج...، ثم لا قوام لهذين الصنفين إلّا بالصنف الثالث من القضاة والعمّال والكتاب، لما يحكمون من المعاهد، ويجمعون من المنافع، ويؤمنون عليه من خواص الأمور وعوامها.

ولا قوام لهم جميعاً إلّا بالتجّار وذوي الصناعات...، ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحقّ رفدهم ومعوتهم، وفي الله لكلّ سعة. وعلى الوالي حقّ بقدر ما

١. يراجع شرح القسم القضائي من هذا العهد في كتابنا «المنهج العلمي المعاصر مستمدّ من القرآن»: ص ١٤٥ - ١٦٠. (منه).

يصلحه...»^١.

أما ولاية الإدارة عامة، والعمال والكتّاب خاصة، فيقول عنها:
 «قولٌ من جنودك: أنصحهم في نفسك لله ورسوله وإمامك، وأطهرهم جيئاً، وأفضلهم
 حلاًماً...، ثم الصق بذوي المروءات...، ثم تفقّد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما...،
 ولا تحقرن لطفاً تتعاهدن به وإن قل...، وليكن أثر جندك عندك من واساهم في معونته...،
 وإن أفضل قرّة عين الولاية استقامة العدل في البلاد بظهور مودّة الرعية...»^٢.
 وأما عن العدالة، وقوامها القضاء، فيبدأ المشتري العظيم - في التعبير الأوربي - الكلام فيها
 عن القانون الواجب التطبيق، فيقول:

«واردد إلى الله ورسوله ما يضلحك من الخطوب، ويشتهب عليك من الأمور، فقد قال الله
 تعالى لقوم أحبّ إرشادهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ
 فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^٣ فالردّ إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والردّ إلى
 الرسول الأخذ بسنّته الجامعة غير المفترقة».

ويقرن القانون الإلهي بالقاضي كما يتطلّبه الإسلام، فيعقب على ما سبق بقوله عن صميم
 القضاء: «ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيّتك في نفسك، ممّن لا تضيق به الأمور، ولا
 تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلّة، ولا يحصر عن الفئء إلى الحقّ إذا عرفه، ولا تشرف
 نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه، أوقفهم في الشبهات، وأخذهم بالحجج،
 وأقلهم تبرّماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشيف الأمور، وأصرهم عند اتّضاح
 الحكم...، ممّن لا يزهيه إطراء، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل.

ثم أكثر تعاهد قضائه، وأفسح له في البذل ما يزيح عنه وتقلّ حاجته إلى الناس، وأعطه
 من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصّتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك»^٤.

١. نهج البلاغة: ج ٣ ص ٨٩ - ٩١، تحف العقول: ص ١٣١ وما بعدها، وسائل الشريعة: ج ٢٧ ص ٢٢٣ وما بعدها،
 مستدرک الوسائل: ج ١٣ ص ١٦٣ وما بعدها، بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ٦٠٣ و ج ٧٤ ص ٢٤٦ وما بعدها، شرح نهج
 البلاغة: ج ١٧ ص ٤٨ وما بعدها.

٢. المصادر السابقة.

٣. النساء: ٥٩.

٤. المصادر المتقدّمة.

ولئن كانت رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري^١ قد جمعت جمل الأحكام في كلمات مختصرة، لا يجد محقّق عنها معدلاً، إنّ عهد علي للأشتر كان في زمانٍ مختلفٍ، فجاء جامعاً، بل مضيفاً - في الموضوع الذي وردت فيه رسالة عمر - أموراً شتى يحتاجها زمان علي وكلّ زمان بعده.

وورود القانون، والدعوى، واختيار القاضي، وسلوكه، وطريقة القضاء، واستقلال القضاء، في فقرتين بين فقرات ذلك العهد، مظهر من مظاهر شموله واتّساع نطاقه، وأسباب خلوده.

* * *

أما الإدارة العامة - عمّال الوالي - ففيهم يقول أمير المؤمنين:

«انظر في أمور عمّالك فاستعملهم اختياراً، ولا تولّهم محاباةً وأثرةً...، وتوخّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة، والقدم في الإسلام، فإنّهم أكرم أخلاقاً، وأصحّ أعراضاً...، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإنّ ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحبّة عليهم إن خالفوا أمرك أو خانوا أمانتك...، ثم تفقّد أعمالهم...»^٢.

وأما الكتاب ففيهم قوله: «ثم انظر في حال كتابك، فوّل على أمورك خيرهم، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائذك وأسرارك، بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق، ممّن لا تبطره الكرامة فيجتري بها عليك في خلاف لك بحضرة ملاً...، ثم لا يكن اختيارك إيّاهم على فراستك واستقامتك وحسن الظنّ منك... ولكن اخترهم بما وُلوا للصالحين قبلك، فاعمد لأحسنهم في العامة أثراً...»^٣.

١. ذكرها: المجموع للنووي: ج ٢٠ ص ١٦٨، بدائع الصنائع لأبي بكر الكاشاني: ج ٧ ص ٩، سبل السلام لابن حجر العسقلاني: ج ٤ ص ١١٩، السنن الكبرى للبيهقي: ج ١ ص ١٢٥، سنن الدارقطني: ج ٤ ص ١٢٢.

٢. نهج البلاغة: ج ٣ ص ٩٥، مستدرک الوسائل: ج ١٣ ص ١٦٦، بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ٦٠٥، دعائم الاسلام: ج ١ ص ٣٦١، تحف العقول: ص ١٢٢.

٣. و (٢) نفس المصادر السابقة. أما حديث النبي ﷺ فأخرجه في: شرح نهج البلاغة: ج ١٧ ص ٩٠، خصائص الاثمة للشريف الرضي: ص ١٢٢. وورد في بعض المصادر بدون الكاف، بل بلفظ «صلاة أضعفهم»: وسائل الشيعة: الطبعة البيروتية: ج ٥ ص ٤٧١، وفي نصب الراية للزيعلي: ج ٥ ص ٢٩٨ الخطاب موجّه إلى عثمان بن أبي العاص، وفي رواية كنز العمال: ج ٨ ص ٢٧٠، الخطاب لمعاذ بن جبل. ولا تنافي قلعل الرسول قاله أكثر من مرة لأكثر من شخص.

ثم يقول عن الضعفة:

«وتعهد أهل اليتيم وذوي الرقة في السنّ ممن لا حيلة له، ولا ينصبّ للمسألة نفسه... واجعل لذوي الحاجات منك مجلساً عاماً... فلا تكوننّ منفراً ولا مضيقاً، فإن في الناس من به العلة وله الحاجة، وقد سألت رسول الله ﷺ حين وجهني إلى اليمن: كيف أصلي بهم؟ فقال: «صلّ بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيماً»^١.

الشورى والعناية بالعامّة

في بداية العهد إلى الأشتر أمران: الأول: خاصّ بالأشتر، والثاني: خاصّ بالعامّة والخاصة. والأمران عصريان في كلّ عصر، ومطلوبان في كلّ مكان، ومن كلّ الحكام:

أما الأول: ففيه قوله له: «إنّ الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنّما يستدل على الصالحين بما يجري بهم على ألسنة عبادهم... فاملك هواك، وشحّ بنفسك عمّا لا يحلّ لك...، وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين وإمّا نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعظمهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ وترضى أن يعطيك الله...»^٢.

وقوله: «وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك... فإنّ الله يذلّ كلّ جبار ويهين كلّ مختال، أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك وممن لك فيه هوى، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم...»^٣.

ويقول عن الشورى: «ولا تدخلنّ في مشورتك من يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر،

٢. نهج البلاغة: ج ٣ ص ٨٤، تحف العقول: ص ١٢٦، بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ٦٠٠ و ج ٧٤ ص ٢٤١.

٣. ولما عهد لمحمد بن أبي بكر كان ممّا جاء في عهده له قوله: «اعلم يا محمد بن أبي بكر، أنّي قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي، أهل مصر، وأنتم يا أهل مصر فليصدق قولكم فعلكم، وسرّكم علانيتكم، ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم». (منه).

٤. المصادر السابقة.

ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشرَّ بالجور، فإنَّ البخل والجبن غرائز شتى يجمعها سوء الظنِّ بالله...، والصق بأهل الورع والصدق...، ثم رضهم على أن لا يطروك...، ولا تنقض سنَّةً سالحةً عمل بها صدور هذه الأمة...»^١.

وأما الثاني: ففيه قوله: «وليكن أحبَّ الأمور إليك أوسطها في الحقِّ، وأعَمَّها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية، فإنَّ سخط العامة يجحف يرضى الخاصة، وإنَّ سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونةً في الرخاء، وأقلَّ معونةً في البلاء، وأكره للإتصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقلَّ شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأخفَّ صبراً عند ملتمات الدهر، من أهل الخاصة. وإتَّما عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدَّة للأعداء: العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم وميلك معهم»^٢.



بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين! إنَّ رسول الله يقول: «اطَّلعت في الجنَّة فوجدت أكثر أهلها الفقراء»^٣ وأنت في طليعة أهل الجنة، تحبُّ أكثر أهلها عدداً في الحياة الدنيا، ومن أجل ذلك تكرم العامة وهم كثرة الأمة، وتؤثر منها الفقراء.

ولقد كنت دائماً قدوةً، وأردت الخاصة على أن تكون قدوة، وحدَّرتها من مطامعها ومزالتها، ولو حذرت للزمت الجادة، وصلح أمر هذه الأمة.

إنَّ من يضع دستوراً في العصر الحديث خليق بأن يرتوي من عهدك، ويروي الأمة من ينابيعك، في تطبيق الشريعة، وسيادة القانون، واستقلال القضاء، وأمانة الولاية، ونزاهة الإدارة، واحترام العامة، وإلزام الخاصة أن تكون قدوة في الأمة.

يقول ابن المقفَّع في شأن الخاصة بعد مائة عام، في كتابه لأبي جعفر: «وقد علمنا علماً لا يخالطه الشكُّ أنَّ عامة قَطَّ لم تصلح من قبل نفسها، ولم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها...، وحاجة الخواص إلى الإمام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم

١. المصادر المتقدِّمة.

٢. نهج البلاغة: ج ٣ ص ٨٦، دعائم الاسلام: ج ١ ص ٣٥٥، تحف العقول: ص ١٢٨، مستدرک الوسائل: ج ١٣ ص ١٤٧، بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ٦٠١ و ج ٧٤ ص ٢٤٢.

٣. بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ٥٥. وفي مستدرك أسحاق بن راهويه: ج ١ ص ٤٢٦، ومسنَد الشاميين للطبراني: ج ٢ ص ٣١٩: «المساكين» بدل «الفقراء».

وأعظم من ذلك».

ويتصدى الإمام زين العابدين في «رسالة الحقوق» بالشرح الشامل، والتفصيل الطويل، لسلوك الجماعات والأفراد وما يجب لها شرحاً وتفصيلاً، تقتضيها حالة الناس وظروف الزمان في النصف الثاني من القرن: عصر كربلاء، والحرّة، وضرب الكعبة، والدولة الهرقلية، وتغيّر الناس.

واستقصاء السجّاد فيها للأحكام مظهر لتحمله مسؤولية تعليم المسلمين أمور دينهم وشؤون دنياهم، فهي تبدأ بحقوق الله عزّ وجلّ، وأكبرها ما أوجبه الله تعالى من حقّه، فجعل للجوارح حقوقاً، ولأفعالها حقوقاً «ثم تخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي الحقوق الواجبة عليك، وأوجبها عليك: حقّ أمتك، ثم حقوق رعيتك، ثم حقوق رحمك. فهذه حقوق يتشعب منها حقوق، فحقوق أمتك ثلاثة...، وحقوق رعيتك ثلاثة...، وحقوق رحمك كثيرة متصلة... فأوجبها عليك: حقّ أمك ثم حقّ أبيك...، ثم حقّ مولاك المنعم عليك، ثم...»^٢.

١. تحف العقول لابن شعبة الحراني: ص ٢٥٥-٢٥٦، مستدرک الوسائل: ج ١١ ص ١٥٤-١٥٥، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٠، من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٦٢١-٦٢٢، الخصال: ص ٥٦٤-٥٦٥، الأمالي للصدوق: ص ٤٥٣ و ٤٥٤، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ١٧٥-١٧٦.

٢. فأما حقّ الله الأكبر عليك فإن تعبه ولا تشكّ به شيئاً، فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة...، وأما حقّ نفسك عليك...، وأما حقّ اللسان...، وأما حقّ السمع...، وأما حقّ بصرك...، وأما حقّ رجلك...، وأما حقّ يدك...، وأما حقّ بطنك...، وأما حقّ فرجك..

ثم حقوق الأفعال: وحقّ الصلاة... وحقّ الحجّ...، وأما حقّ الصوم...، وأما حقّ الصدقة...، وأما حقّ الهدى...، ثم حقّ الائمة...، فأما حقّ سانسك بالسلطان...، وأما حقّ سانسك بالعلم...، وأما حقّ سانسك بالملك... ثم حقوق الرعية.. فأما حقوق رعيتك بالسلطان.. والعلم.. بملك النكاح.. بملك اليمين..

وأما حقّ الرحم...، وأما حقّ أمتك...، وأما حقّ ولدك...، وأما حقّ أخيك...، وأما حقّ المنعم عليك...، وأما حقّ مولاك الجارية نعمته عليك...، وأما حقّ ذي المعروف عليك...، وأما حقّ المؤدّن...، وأما حقّ إمامك في صلواتك...، وأما حقّ الجلّيس...، وأما حقّ الجار...، وأما حقّ الصاحب...، وأما حقّ الشريك...، وأما حقّ المال...، وأما حقّ الغريم المطالب لك...، وأما حقّ الخليط...، وأما حقّ الخصم المدّعي عليك...، وأما حقّ الخصم المدّعي عليه...، وأما حقّ المستشار...، وأما حقّ المشير عليك...، وأما حقّ المستصح...، وأما حقّ الناصح...، وأما حقّ الكبير...، وأما حقّ الصغير...، وأما حقّ السائل...، وأما حقّ السؤول...، وأما حقّ من سرّك الله به وعلى يديه...، وأما حقّ من ساءك القضاء عليه...، وأما حقّ أهل ملّتك عامة...، وأما حقّ.. وأما حقّ... إلخ (منه).

وتطرقت رسالة الحقوق للعلاقات الحكومية والقضائية والاجتماعية التي تنظم الجماعة الإسلامية، فنظمت آدابها والتزاماتها الخلقية والقانونية بالتفصيل.

وربما أجزأ في تقريب منهاجها إلى الألباب مثل نقله منها عن معاملة السلاطين، حيث يقول: «وأما حق سائسك بالسلطان فأنت تعلم أنك جعلت له فتنة، وأنه مبتلي فيك بما جعله الله له عليك من السلطان، فعليك أن تخلص له في النصيحة. ولا تماحكه وقد بسطت يده عليك، فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه...، وتلطّف لعطائه ما يكفه عنك دون أن يضّرّ دينه، وتستعين عليه في ذلك بالله فلا تعانده...، فإنك إن فعلت ذلك عققته وعققت نفسك وعرضتها للمكروه»^١.

الحكام

تابع الإمام الصادق عمل آبائه في التنبيه على قواعد الحكم الصالح، ومنها حقوق العامة - وهي جسم الجماعة - بنصوص دستورية يوجزها، لتُحفظ عنه وتُنقل منه، وإليك أمثالا:

يقول: «أفضل الملوك من أعطي ثلاث خصال: الرحمة، والجود، والبذل»^٢.

ويقول: «ليس للملوك أن يفرطوا في ثلاثة: حفظ الثغور، وتفقد المظالم، واختيار الصالحين لأعمالهم»^٣.

وماهي إلا أركان الدولة الثلاثة: الجيش، والقضاء، والإدارة. أو مبادئ الحكم الثلاثة: المنعة في الخارج بالجيش، والعزة في الداخل بالعدل، والحكم الصالح بالإدارة الحسنة.

والرسول يقول: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»^٤ وهو مقال موجّه للعامة

١. تحف العقول: ص ٢٦٠، مستدرك الوسائل: ج ١١ ص ١٥٨ - ١٥٩، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٢ وفيها «فرضتها لمكروهه وعرضته للهلكة فيك» بدلاً من «وعرضتها للمكروه».

٢. وردت هكذا في المصادر: «الرأفة، والجود، والعدل» لاحظ: تحف العقول: ص ٣١٩، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٢٢، مستدرك سفينة البحار: ج ٩ ص ٤٤٢.

٣. هو تكملة الحديث السابق. راجع المصادر السابقة، إلا صاحب البحار فقد جعلها حديثين، أعطى للأول تسلسل رقم ٣٧، وللثاني تسلسل ٣٨.

٤. مجمع الزوائد للهيتمي: ج ١ ص ٨٧ و ج ٢ ص ٢٤٨، المعجم الصغير للطبراني: ج ٢ ص ٥٠، المعجم الأوسط للطبراني: ج ٧ ص ٢٧٠، العهود المحمدية للشعراني: ص ٢٠٨، كنز العمال: ج ٩ ص ٤٠، وورد بلفظ «من أصبح

والخاصة في أمة خصّصتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأول المسؤولين عنهما: الولاة والعلماء والقادرون.

والصادق يقول لكلّ هؤلاء: «خير الناس أكثرهم خدمةً للناس»^١، ويقول للحكام: «كفارة عمل السلطان قضاء حاجات الإخوان»^٢، ويقول: «المستبدّ برأيه موقوف على مداحض الزلل (العثرات)»^٣. وهي مقولة تنطق بها سجلّات الطغيان حيثما كان، وفي جميع الحقب. فالزلة الواحدة تززع قوام الطاغية أو المتعصّب أو المتحكّم، فهو كالواقف على قدم واحدة.

وتعاليم الصادق في العدل والرفق بالرعية مقولات دستورية في الأمة، يقول: «ما أوسع العدل وإن قلّ»^٤ ويقول: «أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر ممّا يأخذ الظالم من مال المظلوم»^٥.

ويقول لوالي المنصور على الأهواز إذ استنصحه^٦:

→ لا يهتم... في: فقه الرضا: ص ٣٦٩، الكافي: ج ٢ ص ١٦٤، شرح أصول الكافي: ج ٩ ص ٢٩، وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٣٣٧، مستدرك الوسائل: ج ١٢ ص ٣٨٣، النوادر للراوندي: ص ١٤٢، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٣٣٩. لم يرد هذا الحديث بلفظ «أكثرهم خدمة» كما ذكر المؤلف، بل بلفظ «أنفعهم للناس» تارة ولفظ: «من انتفع به الناس» أخرى، والحديث بلفظه عن رسول الله ﷺ، الناقل له في كتب الشيعة الامام الصادق عليه السلام. راجع: مستدرك الوسائل: ج ١٧ ص ٧٨ و ٣٨٨، الاختصاص للمفيد: ص ٢٤٣، أمالي الصدوق: ص ١٤، بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٢٣ و ٢٨١، مستدرك سفينة البحار: ج ١٠ ص ١٢٢.

٢. من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ١٧٦ ح ٣٦٦ و ص ٣٧٨ ح ٤٣٢٩، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ١٩٢ و ج ٢٢ ص ٤٠٣، مشكاة الأنوار: ص ١٨٣ و ٥٤٦. وفي بعض المصادر بلفظ: «الإحسان الى الاخوان» بدل من «قضاء...» راجع بحار الأنوار: ج ١٠ ص ٢٤٧ و ح ٧٢ ص ٢٠٦.

٣. بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ١٠٥، مستدرك سفينة البحار: ج ٤ ص ١٦، نزهة الناظر وتنبه الخاطر: ص ١١٢. ٤. الحديث هو: «ما أوسع العدل اذا عدل فيه وإن قلّ»، لاحظ: الكافي: ج ٢ ص ١٤٦ و ص ١٤٨، شرح أصول الكافي: ج ٨ ص ٤١٠ و ص ٤١٤، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٢٩٣، مستدرك الوسائل: ج ١١ ص ٣١٧، الاختصاص للمفيد: ص ٢٦١، بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٣٦.

٥. الكافي: ج ٢ ص ٣٣٤، شرح أصول الكافي: ج ٩ ص ٣٨٦، وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٤٩، بحار الانوار: ج ٧٢ ص ٣٢٨، وورد أيضاً بلفظ: «... من دنيا المظلوم» بدلاً من «مال المظلوم» في: الأمالي للصدوق: ص ٣٢٦، ثواب الأعمال للصدوق: ص ٢٧٢، وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٥٠ و ٥٢، بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٣١١ و ج ٧٥ ص ١٨٨، ذرر الأخبار: ص ٥١٦.

٦. الوالي هو عبد الله التجاشي، من أصحاب وأتباع الإمام الصادق عليه السلام، ابتلي بولاية الأهواز، فطلب من الإمام

«... فاعلم أنّ خلاصك ونجاتك في حقن الدماء، وكفّ الأذى عن أولياء الله، والرفق بالرعية. والثاني: حسن المعاشرة مع لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف... وإيّاك والسعاة وأهل النمام... ولا تستصغرنّ من حلو وفضل طعام في بطون خالية... إيّاك يا عبد الله أن تخيف مؤمناً»^١.

تلك دروس جدّه ﷺ، وهو القائل: «سبعة يظلمهم الله يوم القيامة: إمام عادل...» فبدأ بالعدل^٢.

بل يقول عليه الصلاة والسلام: «عدل السلطان يوماً يعدل عبادة سبعين سنة...»^٣.
والدنيا قد تدوم، والدولة قد تقوم، مع العدل والكفر، لكنّها لا تبقى مع الظلم وإن كان الظلم واقعاً على غير مسلم، والله تعالى يقول في محكم كتابه^٤: «كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا غَدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ»^٥.
يقول الإمام الصادق: «من نكد العيش: السلطان الجائر، والجار السوء، والمرأة البذيئة»^٦. فالسلطان الجائر أذى دائم، ومنكر مستمر، تضيق الدنيا به وإن رحبت، كما يضيق

→ الصادق عليه السلام أن يهديه للصواب، قال: «عسى أن يخلصني الله تعالى بهديتك وولايتك، فإنك حجة الله على خلقه، وأمينه في بلائه، لا زالت نعمته عليك». (منهاج الفقاهة للسيد الروحاني: ج ٢ ص ٢٢١).

١. وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ٢٠٧ وما بعدها، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٧١ وما بعدها.
٢. الخصال للشيخ الصدوق: ج ٣٤٣، وسائل الشيعة: ج ٥ ص ١٩٩، مستدرک الوسائل: ج ١ ص ١٢٧، بحار الأنوار: ج ٢٦ ص ٢٦١، صحيح البخاري: ج ١ ص ١٦١ و ج ٢ ص ١١٦ و ج ٨ ص ٢٠، صحيح مسلم: ج ٣ ص ٩٣، سنن الترمذي: ج ٤ ص ٢٤، سنن النسائي: ج ٨ ص ٢٢٢.

٣. لم يرد بهذا اللفظ لا في كتب السنّة ولا في كتب الشيعة، ولكنّه ورد بألفاظ مقاربة: «عدل ساعة يعدل عبادة سبعين سنة» الرسالة السعدية للعلامة الحلبي: ص ١٥٤، مشكاة الأنوار: ص ٥٤٤ ولكن بلفظ: «خير من» بدلاً من «يعدل» وكذا البحار: ج ٧٢ ص ٣٥٢: «ساعة إمام عادل أفضل من عبادة سبعين سنة» المهذب البارع لابن فهد الحلبي: ج ٥ ص ١٢، مستند الشيعة للتراقي: ج ٦ ص ٢٦، الكافي: ج ٧ ص ١٧٥، وسائل الشيعة: ج ٢٨ ص ١٣، ولفظ: «عدل حكم ساعة خير من عبادة سبعين سنة» في كشف الخفاء للعجلوني: ج ٢ ص ٥٨.

٤. المائدة: ٨.

٥. لمّا فتح هو لاكو بغداد استفتى العلماء: أيهما أفضل: السلطان الكافر العادل أو السلطان المسلم الجائر؟ فجمعوا لذلك بالمدسة المستنصرية. وكان علي بن طأوس حاضراً، وهو المقدم المحترم، فتناول الفتيا ووضع خطه عليها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر، ووضع العلماء خطوطهم على ذلك. (منه).

٦. لم يرد الحديث بهذا اللفظ، بل ورد بلفظ: «ثلاثة تكدر العيش: السلطان الجائر، والجار السوء، والمرأة

المكان - على رحبه - بالجار سوء، وتضييق الحياة - وإن طالت أو اتسعت - مع المرأة الطويلة اللسان.

والإمام يبدأ بالسلطان الجائر لأنّ أذاه يفسد الدنيا وإن صلحت، والأسرة وإن هنوت، وإذا عمّ العدل احتل الناس همومهم حيث هم.

ومن فساد السلطان أن يتولّى سدّته المتكبرون والمتعالون، في دخيلتهم منحطون، يقول الصادق: «ما من أحد يتيه^١ إلا من ذلّة وجدها في نفسه»^٢.

ومن ذلك ينحّي عن الرياضات من يجزّون أزهرهم خيلاء، فهؤلاء لا ينتفعون بتجربة من أنفسهم وإلا لما تكبّروا على الناس، أو من غيرهم وإلا لما غرّهم الغرور، يقول: «لا يطمع القليل التجربة المعجب برأيه في الرياسة»^٣ ويقول: «من طلب الرياسة هلك»^٤.

فإذا ولي الحاكم فليخش الله في الناس، وليعلم أنّ فيهم ضعفاً، وأنه مطالب بالعمو والصفح الجميل، يقول الإمام: «أولى الناس بالعمو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من دونه، ولم يصفح عمّن اعتذر إليه»^٥.

والناس مطالبون بأن يمحصوا النصح بإخلاص، وليس الإخلاص مجرد النيّة الحسنة أو البدار بالكلام، وإنما هو الفكر الجادّ، وتقليب الأمور على وجوها، والاستماع إلى المخالفين،

→ البيذية «لاحظ: تحف العقول لابن شعبة: ص ٣٢٠، درر الأخبار: ص ٥٤٦، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٣٤، مستدرك سفينة البحار: ج ٧ ص ٥٠٧، والبيذية: السفينة والتي تفحش في منطقها.

١. «يتيه» بمعنى: يتكبر.

٢. الكافي: ج ٨ ص ٣١٢، شرح أصول الكافي: ج ٩ ص ٣٣١، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٣٨٠، بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٢٥، مستدرك سفينة البحار: ج ٩ ص ١٣.

٣. وردت بقوله عليه السلام: «لا يطمعن القليل التجربة، المعجب برأيه، في رياسته» البحار: ج ٧٢ ص ٩٨. وذكرها جماعة من الأعلام ضمن جملة أمور، بقوله عليه السلام: «لا يطمعن ذو الكبر في الثناء الحسن... ولا القليل التجربة المعجب برأيه في رئاسته» راجع: الخصال للصدوق: ص ٤٣٤، بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ١٩٠ و ج ٧٢ ص ٦٧ و ج ٧٥ ص ١٩٥.

٤. الكافي: ج ٢ ص ٢٩٧، معاني الاخبار للصدوق: ص ١٧٩، شرح أصول الكافي: ج ٩ ص ٣٠١، ج ١١ ص ٣٢٨، وسائل الشيعة ج ١٥ ص ٣٥٠، الفصول المهمة: ج ١ ص ٥٢٥، بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ١٥٠.

٥. بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٢٨ و ص ٢٧٨، نزهة الناظر: ص ١١٢. وخرّجها جماعة عن المنصور العباسي من وصية له لولده المهدي: تاريخ بغداد: ج ١٠ ص ٥٧، تاريخ دمشق: ج ١٦ ص ٣١٤ - ٣١٥، سير أعلام النبلاء: ج ٧ ص ٨٥، البداية والنهاية: ج ١٠ ص ١٣١، وأخرجها ابن عساکر في موضع آخر من تاريخ دمشق عن خالد بن صفوان: ج ١٦ ص ١١٤.

فالإمام يقول: «لا تكن أول مشير، وإياك والرأي الفطير»^١.
وكثيراً ما تأذى الناصح بنصحه، وركبت المنصوح شياطين غلوائه، وقد يستفيد الظنّة
المتنصّح.

وينبّه الإمام الأمة على ألا تشتري الراحة بالرياء، إذ «المؤمن يداري ولا يماري»^٢ كما
يقول، وينبّه الناس - ومنهم الحكّام - على أن يسارعوا إلى الخيرات بإصلاح عيوبهم،
وإعلانها دون تأثم أو تحرّج.

والناس يمدّون أيديهم إلى من يصارحهم بمصاعبه، فيشركونه في متاعبه، يقول: «أنفع
الأشياء للمرء سبقه الناس إلى عيب نفسه، وأشدّها مؤونة إخفاء الفاقة....»^٣.
وكما يقول: «من لم يتفقّد النقص في نفسه دام نقصه، ومن دام نقصه فالموت خير
له...»^٤.

ولعل أنفع الناس للمرء، من يهدي إليه عيوبه: بأن ينبّهه عليها.

المجتمع الجعفري

الإمام مبلغ عن النبي ﷺ علمه، وهذا العلم أجناس وأنواع، نشير في هذا المقام إلى بعض
منها في السياسة والاجتماع والاقتصاد، وهو حسب أيّ مجتمع، ليقيم دولة راسخة الأركان،
وأمة تعمل كخليفة النحل، لا مجرد جمعية للإصلاح أو جماعة متطلّعة للتقدّم؛ كالجمعيات
والجماعات التي تزخر بها المجتمعات في العصور الحديثة، يقصد إصلاح جزئي أو الدعوة
لمبادئ معينة.

وكثير من المبادئ التي تحدّثنا عنها قبل، والتي سنتحدّث عنها بعد، شذرات من دروس
متداولة عن الإمام، لو حاولنا جمعها كنّا كمن يجمع مصابيح السماء. وقد يكفي في هذا

١. نصّ الحديث «لا تكونن» بدل «لا تكن»، بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ١٠٤ و ج ٧٥ ص ٢٢٨، الدرّة الباهرة:
ص ٣٤. والفطير: كلّ ما عجل عن إدراكه، والرأي الفطير: ما لم يتروّ فيه ولم يتعمّق.

٢. بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٧٧ وأخرجه محمد بن الحسين الآجري في كتاب الغرباء: ص ٨١ عن الحسن عليه السلام.

٣. الكافي: ج ٨ ص ٣٤٣، تحف العقول: ص ٣٦٦، شرح أصول الكافي: ج ١٢ ص ٣٣٣، مشكاة الأنوار:
ص ٤٢٤، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٤٩.

٤. النصّ هو: «من لم يتفقّد النقصان» لا «النقص» راجع: البحار: ج ٧٥ ص ٢٧٧، نزهة الناظر ص ١٠٧. وورد
بألفاظ أخرى كقوله: «من لم يتعاهد النقص» الأمالي للصدوق: ص ٤٧٨، وغيرها من المصادر بعبارات شتى.

المقام ذكر بعض توجهيات الإمام «لشيعتنا» كما يقول، أو «للجعفري»^١ الجدير بالانتساب للإمام، كما يسمي تابعيه.

وإذا كانت هذه التوجهيات إشارات إلى مؤهلات الانتساب إليه، فهي تقطع بأنه كان يعدّ «دعاة»^٢ يدعوون لمجتمع يدين بمبادئه.

وهذه المبادئ مضافة إلى الفقه المدني والجزائي ونظرية الإمامة، كافية لإقامة مذهب متكامل تقوم على قواعده «دولة» تكفل الجزاء والثواب، فالقاعدة القانونية، مع العقيدة الدينية والنظريات الخلقية، كالماء الذي يسقي البذور الصالحة التي تنتظر الزمن لتشق الأرض وتظهر، في حماية الدولة.

ولقد كلّل الله بالنجاح سعيه، وظهرت دول ومجتمعات ازدهرت في العالم، مع اصطناع التغييرات التي تستدعيها حاجات السلطان والزمان والمكان، أو الدعاية للدولة، كما كان الشأن في الدول والمجتمعات الاسماعيلية؛ كالفاطميين المنتسبين إلى إسماعيل بن الإمام جعفر.

وأحدثت هذه المبادئ آثاراً منجحة في المجتمعات الشيعية، في أمم إسلامية أو غير إسلامية، أنمت التمسك الديني بفضائل الإسلام، وأمكنت من الدفاع عنه بقوة وإيمان، وأبدعت عبقريتها الاقتصادية التي طالما حضّت عليها تعاليم الإمام.

فالتعاليم الصادرة عن الإمام الصادق ليست مجرد أصول فقهية أو فروع علمية كما هو دأب الأئمة من أهل السنّة، بل هي تتعدى ذلك المجال إلى كلّ مجال للناس فيه نشاط سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي.

ومن أجل ذلك العموم في رسالة الإمام ومقامه في الإسلام، كان شعور أبي حنيفة ومالك وسفيان الثوري وعمرو بن عبيد ونظرائهم أو المقاربين لهم أنّهم في مجلسه تلامذة، واعتبار الأئمة أنّهم هنالك كذلك وإن كانوا أئمة.

١. من وصية للإمام الصادق عليه السلام: «... فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وادى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس؛ قيل: هذا جعفري؛ فإسرنني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفري...». الكافي ج ٢ ص ٦٣٦، وسائل الشيعية: ج ١٢ ص ٦، مشكاة الانوار: ص ١٣٢.

٢. قال الإمام الصادق عليه السلام للمفضل: «قل لشيعتنا: كونوا دعاة إلينا بالكفّ عن محارم الله، واجتناب معاصيه، وأتباع رضوان الله، فإنهم إذا كانوا كذلك كان الناس إلينا مسارعين». (دعائم الاسلام: ج ١ ص ٥٨).

ومن نفاذ البصيرة، وعظمة الطريقة، وجلال السمات، واتساع العلم، كان اعتراف خصوم المسلمين أنفسهم بأنه - بين الحجيج جميعاً - الفرد العلم.

أما المبادئ الفقهية ومبادئ العقيدة والسياسة فقد تكلمنا عنها، وتبقى كلمات، كالإشارات، عن المبادئ الخلقية والاجتماعية التي انتخبنا بعضها، لتدلّ على اتجاهه بها نحو تكوين مجتمع قوي، وإعداد الدعاه له.

أوصى الإمام المفضل بن عمر بخصال يبلغهن من وراءه من شيعة أهل البيت: «أن تؤدّي الأمانة إلى من ائتمنك، وأن ترضى لأخيك ما ترضاه لنفسك. واعلم أنّ للأُمور أواخر فاحذر العواقب، وأنّ للأُمور بفتات فكن منها على حذر، وإياك ومرتقى جبل سهل إذا كان المنحدر وعراً»^١.

وأوصاهم: «صلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاكم، وأدوا حقوقهم، فإنّ الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفري، ويسرني ذلك، وإذا كان غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب «جعفر»! فوالله إنّ الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة علي فيكون زينها، آداهم للأمانة، وأقضاهم للحقوق، وأصدقهم، يحمل إليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه ويقال: من مثل فلان؟»^٢.

وأوصاهم: «أوصيكم بتقوى الله واجتناب معاصيه، وأداء الأمانة لمن ائتمنكم، وحسن الصحابة لمن صحبتهم، وأن تكونوا لنا دعاة صامتين»^٣.

فهو بهذا يربط إحسان العمل بالانتساب لأهل البيت، ويضع القواعد المثلى للتجمّع. دخل عليه المفضل بن قيس^٤ ذات يوم يسأله الدعاء، وكما قال: «فشكوت إليه بعض

١. تحف العقول: ص ٣٦٧، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٥٠، مستدرک سفينة البحار: ج ٤ ص ٤٥٨ وفيها جميعاً: «أداء الأمانة» بدلاً من «أن تؤدّي». واليفتة بمعنى: الفجأة.

٢. الكافي: ج ٢ ص ٦٣٦، شرح أصول الكافي: ج ١١ ص ٩١، وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ٦، مشكاة الأنوار: ص ١٣٢، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٣٧٢، مستدرک سفينة البحار: ج ١٠ ص ٣٥٦، درر الأخبار: ص ٥٥٢ وفيها جميعاً «وعودوا مرضاهم» لا «مرضاكم».

٣. دعائم الإسلام: ج ١ ص ٥٦، وفيها بعد «أوصيكم بتقوى الله»: «العمل بطاعته» ...

٤. هو المفضل بن قيس بن زمانة الأشعري، عن ابن أبي عمير أنّه قال: «وكان خيراً» والظاهر كونه من أصحاب

حالي وسألته الدعاء، فقال: يا جارية هاتي الكيس...، فقال «هذا كيس فيه أربعمائة دينار فاستعن بها»، قلت: ما أردت هذا الكيس، ولكن أردت الدعاء لي، قال: «ولا أدع الدعاء لك، ولكن لا تخبر الناس بكل ما أنت فيه فتَهون عليهم»^١.

هكذا تتابع منه العطاء غير المطلوب، والدعاء المطلوب، والنصح الواجب. فهو معلم في المقام الأول، أعطى فأغنى، ثم نصح، ليقبل النصح منه. والأمال أعلى صوتاً من الأقوال. وهو يزيد العلاقة بين أصحابه وثاقه، قال يوماً لبعض أصحابه: «ما بال أخيك يشكوك؟» قال: يشكوني إذ استقصيت عليه حقِّي، فقال مفضباً: «كأنك إذا استقصيت حقك لم تسي؟ رأيت ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب؟ أخافوا أن يجور عليهم؟ ولكن خافوا الاستقصاء، سمّاه الله سوء الحساب، فمن استقصى فقد أساء»^٢.

أرأيت إلى مدى ما يستنبط الإمام من النص؟ وإلى مقدار ما يدخل في أنفـس أمته من الإحساس الرقيق بمتاعب بعضهم، كالجسم تتداعى أعضاؤه بإدراك مرهف وتكافل كامل؟ ذلك أدب جدّه ﷺ.

والإمام يعلمهم أن تكون لهم اليد العليا بالابتداء بالعطاء.

وفي السؤال رهن، والصلة تفقد رونقها، وربما قيمتها، إن لم تكن فيها مبادرة: دخل عليه رجل من خراسان قال: لقد قلّ ذات يدي ولا أقدر على التوجّه إلى أهلي إلا أن تعينوني... فنظر الإمام للجالسين وقال: أما تسمعون ما يقول أخوكم؟... إنّما المعروف ابتداء، فأما ما أعطيت بعد ما سألت فإنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه... وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي فلق الحَبّ وبرأ النّسمة، ويعثني بالحقّ نبياً، لما يتجشّم أحدكم من مسألته إياك أعظم ممّا ناله من معروفك...» فجمعوا له خمسمائة درهم^٣، وبهذا اشترك الجميع في أداء الواجب.

→ الصادق عليه السلام وله منزلة عنده، على ما يستفاد من بعض الأحاديث. (طرائف المقال: ج ٢ ص ٤٢).

١. وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٤٤٥، نقد الرجال للتعريفي: ج ٤ ص ٤٠٩، معجم رجال الحديث ج ١٩ ص ٣٣٠، اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٤٢١، الكافي: ج ٤ ص ٢١، مستدرك الوسائل: ج ٧ ص ٢٢٦، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٣٤.

٢. تحف العقول: ص ٣٧٢، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٥٦ و ج ١٠٠ ص ١٥٤، مستدرك سفينة البحار: ج ٢ ص ٣٤٥.

٣. مستدرك الوسائل: ج ٧ ص ٢٣٦، بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ١٤٦ و ج ٤٧ ص ٦١.

وهو القائل «أغني الغني الا تكون للحرص أسيراً»^١.
 والتنبية على الإرهاق في الاستقصاء، وعلى انعدام فضل المسؤول على السائل،
 خصيصتان إسلاميتان ترفعان قدر الجماعة، بما فيهما من مؤلفة وتكافل.
 والتعبيرات العالية عنهما تعبيرات إمام:
 قال مصادف^٢: كنت عند أبي عبد الله، فدخل رجل فسأله الإمام: «كيف خلقت
 إخوانك؟» فأحسن الثناء عليهم، فسأله: كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم؟ قال الرجل:
 قليلة، قال الإمام: كيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال: قليلة، قال الإمام: فكيف يزعم
 هؤلاء أنهم شيعتنا؟^٣

الجهاد

يقول أبو الدرداء: «من رأى أن الغدوة إلى العلم ليست بجهاد فقد نقص في عقله ودينه».
 والصادق لا يكتفي بالتعليم، بل يحضّ على الجهاد بالنفس والمال، ويقول للمسلمين:
 «الجهاد واجب مع إمام عادل، ومن قتل دون ماله فهو شهيد»^٤.
 ويرى الانحياز إلى الظالمين تمكيناً لهم، والجهاد مع العادلين تثبيتاً للإسلام، سأل يوماً
 عبد الملك بن عمرو^٥: «لم لا تخرج إلى هذه الديار التي يخرج إليها أهل بلادك؟» أي تجاهد
 مع الولاة، قال عبد الملك: أنتظر أمركم والاقْتداء بكم، قال الإمام: «أي والله لو كان خيراً ما

١. ولفظه: «أغني الغني من لمن يكن للحرص أسيراً» الكافي ج ٢ ص ٣١٦، من لا يحضره الفقيه ج ٤ ص ٣٩٥،
 أمالي الصدوق ص ٧٣، معاني الأخبار ص ١٩٦، وسائل الشيعة ج ١٦ ص ٢٠، بحار الأنوار ج ٧٤ ص ١١٢.
٢. اسمه محمد بن مصادف، محدث إمامي ثقة، وقيل: من الضعفاء، ومن موالي الإمام الصادق عليه السلام، روى عنه
 جماعة منهم: البرقي (أصحاب الإمام الصادق للشستري: ج ٣ ص ١٩٤) يقول الشيخ المظفر: روى عنه أعلام
 الثقات أمثال: الحسن بن محبوب، وعلي بن رثاب وغيرهما، وهذا شاهد على وثاقته وعرفاته بالحديث ومقام
 الإمامة. (الإمام الصادق: ج ٢ ص ١٧٥).
٣. الكافي: ج ٢ ص ١٧٢، شرح أصول الكافي: ج ٩ ص ٤٧، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٤٢٨، شرح الأخبار: ج ٣
 ص ٥٠٤، مشكاة الأنوار: ص ٤٢١، بحار الأنوار: ج ٦٥ ص ١٦٨، ج ٧١ ص ٢٥٣، والجميع بتغيير طفيف ببعض
 الألفاظ.
٤. بحار الأنوار: ج ٩٧ ص ٢٣، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٤٩.
٥. عبد الملك بن عمرو الأحول، الكوفي، من ثقات محدثي الإمامية الممدوحين، وقيل: من الحسان. روى عن
 الباقر عليه السلام أيضاً، روى عنه جميل بن صالح، وجميل بن درّاج. (أصحاب الإمام الصادق: ج ٢ ص ٣٢٠).

سبقونا إليه» قال عبد الملك: إنَّ الزيدية يقولون: ليس بيننا وبين جعفر خلاف إلاَّ أنه لا يرى الجهاد! قال الإمام: «أنا لا أرى الجهاد؟... بلى والله، إني أراه، لكنني أكره أن أدع حلمي إلى جهلهم»^١.

ولقد كان عظيماً جهاد جدّه الحسين في جيوش معاوية، بل جهاد الحسين ضد معاوية نفسه، إذ يخاطبه بقوله: «ثم سلّطته (زياداً) على العراقيين يقطع أيدي المسلمين وأرجلهم ويصلبهم على جذوع النخل...، فكنتب إليه: أن اقتل كلّ من كان على دين علي! فقتلهم ومثّل بهم بأمرك...»^٢.

أمّا كربلاء فملحمة في الإسلام.

فإذا كان الجهاد للدفاع عن الإسلام إذا ما تهدّده العدو، أو حين يغزو أرض المسلمين عدوّ، فذلك فرض عين على كلّ فرد ولو كان تحت إمرة أمير جائر. سئل الإمام الرضا عن الرجل يربط تجاه العدو، كيف يصنع؟ قال: «يقاتل عن بيضة الإسلام، لا عن هؤلاء»^٣ يقصد الحكّام الظلمة.

والمرابطة في الثغور إن كانت للاستطلاع فلها مدّة، وهي مستحبّة^٤، وإذا كانت لملاقاة العدو فهي واجبة^٥. والرجل المسلم كفء لرجلين عند اللقاء، يقول الإمام الصادق: «من فرّ من رجلين فقد فرّ، ومن فرّ من ثلاثة فلم يفرّ»^٦.

والجهاد لغير الدفاع، أي لمجرّد الغزو، فرض كفائي، قال الصادق: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني راغب في الجهاد نشيط، فقال له ﷺ: فجاهد في سبيل الله، قال الرجل: إنَّ

١. وسائل الشيعة، ج ١٥ ص ٤٦، الكافي: ج ٥ ص ١٩، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ١٢٦، جواهر الكلام ج ٢١، ص ١٣. نقلها المؤلّف بتصرّف في النصّ.

٢. الاحتجاج: ج ٢ ص ٢١، بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ٢١٣، العوالم للشيخ عبد الله البحراني: ص ٩٢، اختيار معرفة الرجال ج ١ ص ٢٥٦.

٣. قرب الاسناد: ص ٢٤٦، علل الشرائع: ج ٢ ص ٦٠٤، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ١٢٥، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٣٠ و ٢٣، بحار الأنوار: ج ٩٧ ص ٢٣ و ٦٣، مسند الإمام الرضا: ج ٢ ص ٣٨٠ و ٤١١.

٤. و (٢) تعرض السيد الروحاني في كتابه فقه الصادق عليه السلام: ج ١٣ ص ٤٢ وما بعدها لذكر موارد استحباب ووجوب المرابطة في الثغور، واستطلع آراء الفقهاء، فراجع.

٦. الكافي: ج ٥ ص ٣٤، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ١٧٤، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٨٤، مستدرک الوسائل: ج ١١ ص ١٩، بحار الأنوار: ج ٩٧ ص ٣٤، والرواية قيّدت الفرار «في القتال في الزحف».

لي والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بي ويكرهان خروجي، قال النبي: أقم مع والديك، والذي نفسي بيده لأنسك بهما يوماً وليلة خير من جهاد سنة^١.

والإمام بهذا يعلم الناس إيثار الوالدين بالرعاية، فهما النواة التي تزوج لتصنع الأسرة، وهي بدورها نواة الأمة، والتمكين لهذه تكوين لتلك. أما إذا احتيج للرجل لكفاءة خاصة فيه فالجهاد فرض عين عليه.

والصادق يعلم المسلمين قوانين الإسلام في الحروب، فيقول: «إذا أخذت أسيراً فعجز عن المشي، ولم يكن معك محمل، فأرسله ولا تقتله»^٢ ويعلن أن «إطعام الأسير حق على من أسره وإن كان يراد من الغد قتله، فإنه ينبغي أن يُطعم ويُسقى ويُرفق به، كافرًا كان أو غيره»^٣.

ويعلم المسلمين «أن رسول الله كان إذا بعث سرية دعا أميرها فأجلسه إلى جنبه، وأجلس أصحابه بين يديه، ثم قال: سيروا باسم الله وعلى سبيل الله... ولا تغدروا، ولا تغلّوا، ولا تمثّلوا، ولا تقطعوا شجرة إلا أن تضطرّوا إليها، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة»^٤.

وينهى الصادق عن قتل الرسل، أو قتل الرهن^٥، أو استعمال السم^٦، حتّى في حرب المشركين، فإذا كانت حرب فلتكن حرباً نظيفة، أي إسلامية.

ولنتذكر في هذا المقام قول «علي» وهو يسير الجند للقتال: «لا تقاتلوهم حتّى يبدووكم،

١. الكافي: ج ٢ ص ١٦٠، الأمالي للصدوق: ص ٥٤٧، روضة الواعظين: ص ٣٦٧، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٢٠.

مستدرك الوسائل: ج ١١ ص ٢٢، مستدرك سفينة البحار: ج ١٠ ص ٤٤٠.

٢. الرواية عن الإمام زين العابدين عليه السلام لا عن الصادق عليه السلام، من كلام له للزهري. لاحظ علل الشرائع: ص ٥١٥، بحار الأنوار: ج ٩٧ ص ٣٢، مستدرك سفينة البحار: ج ١ ص ١٣١، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٧٢، جواهر الكلام: ج ٢١ ص ١٢٩، تذكرة الفقهاء: ج ٩ ص ١٦٨، التهذيب: ج ٦ ص ١٥٣.

٣. الكافي: ج ٥ ص ٣٥، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٩١.

٤. الكافي: ج ٥ ص ٣٠، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ١٣٩، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٥٨، جواهر الكلام: ج ٢١ ص ٦٦.

٥. قرب الاسناد: ص ١٣١، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ١١٧، بحار الأنوار: ج ٩٧ ص ٣١.

٦. الكافي: ج ٥ ص ٢٨.

فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى عليهم. فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى... إن كنا لنؤمر بالكفّ عنهنّ وهنّ مشركات...»^١.

وقول الصادق: «نهى رسول الله ﷺ أن يلقي السمّ في جهاد المشركين^٢... وعن قتل النساء والولدان في دار الحرب^٣، وعن الأعمى^٤، والشيخ العاني^٥، وما بيت عدوا قطّ في ليل^٦...».

وقول الصادق لإحسان معاملة أهل الذمّة: «إن رسول الله ﷺ قبل الجزية من أهل الذمّة على ألا يأكلوا الربا ولا لحم الخنزير، ولا ينكحوا الأخوات وبنات الأخ وبنات الأخت، فمن فعل ذلك منهم فقد برئت منه ذمّة الله وذمّة رسوله»^٧.

فعلى المسلمين ألاّ يتعرّضوا لأهل الذمّة بسوء، بل أن عليهم أن يدافعوا عنهم، ماداموا لا ينشرون الدعوة ضدّ الإسلام، ولا يتظاهرون بارتكاب المنكرات، ولا يؤوّن إليهم أعداء الإسلام.

وكّل من له كتاب: كاليهودي والنصراني، أو شبه كتاب؛ كالمجوس، فهو ذمي، إذا قبل شروط الذمّة والتزم بها، فإذا لم يتلزم فحكمه حكم الحربي.

١. نهج البلاغة: ج ٣ ص ١٤، الكافي: ج ٥ ص ٣٨، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٩٢، بحار الأنوار: ج ٣٢ ص ٢١٣، مستدرک سفينة البحار: ج ١٠ ص ٣٤٨، شرح نهج البلاغة: ج ٦ ص ٢٢٨، وقعة صفين لابن مزاحم المنقري: ص ٢٠٣.

٢. الكافي: ج ٥ ص ٢٨، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ١٤٣، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٦٢، مستدرک الوسائل: ج ١١ ص ٤١، بحار الأنوار: ج ١٩ ص ١٧٧، مستدرک سفينة البحار: ج ٢ ص ١٤١.

٣. المحاسن للبرقي: ج ٢ ص ٢٢٨، الكافي: ج ٥ ص ٢٩، من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٥٢، علل الشرائع: ج ٢ ص ٣٧٦، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ١٥٦، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٦٤، بحار الأنوار: ج ١٩ ص ١٧٨.

٤. المغني لابن قدامة: ج ١٠ ص ٥٤٢ و ٥٨٦، الشرح الكبير: ج ١٠ ص ٣٩٧.

٥. المغني لابن قدامة: ج ١٠ ص ٥٤٢، الشرح الكبير: ج ١٠ ص ٣٩٩، المحلّي لابن حزم: ج ٧ ص ٢٩٧، الكافي: ج ٥ ص ٢٧، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ١٣٨، وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ٥١٨، والحديث هو: «ولا تقتلوا شيخاً فانياً» لا «عانياً».

٦. بحار الأنوار: ج ١٩ ص ١٧٧.

٧. من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٥٠، علل الشرائع: ج ٢ ص ٣٧٧، الاستبصار: ج ٣ ص ١٨٢، وسائل الشيعة: ج ٢٠ ص ٣٦٧، بحار الأنوار: ج ٩٧ ص ٦٥.

في المجتمع ودعائه الأسرة

إذا رُتبت تعاليم الإمام تصدر تعاليمه للناس قوله: «أصل الرجل دينه وتقواه، الناس في آدم مستون»^١ وهذه المساواة الفطرية تسبقها البنوة لآدم، ثم يبلغها أغراضها حذب القوي على الضعيف، والعالم على الجاهل، والذي أُتيحت له الفرصة على من لم تتح له. ولما سأل الإمام رجلاً: من سيّد هذه القبيلة؟ فأجاب: أنا، قال الإمام: «لو كنت سيّدهم ما قلت: أنا».

ولما فضّل المكرمات المطلوبة من الناس قال: «المكارم عشر: صدق الناس، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلّة الرحم، وقرى الضيف، وإطعام السائل، والمكافأة على الصنائع، والتذمّم للجار، والتذمّم للمصاحب، ورأسهنّ الحياء»^٢.

فهو يبدأ بالصدق وأداء الأمانة، ثم يتبعها صلة الرحم، ولها عنده أعلى مقام، فيها قيام الأسرة -وهي نواة المجتمع الإسلامي- بتنظيمها القانوني الذي لا ضريب له في أمم غير أمة الإسلام.

يقول: «خمسة لا يعطون شيئاً من الزكاة: الأب والأم والولد والزوجة والمملوك، لأنهم عياله ولازمون له»^٣ فالإنفاق على هؤلاء فرض، والصدقات مع وجوبها وتعميمها والحثّ عليها لا تستحقّ للناس إلا أن يكتفي ذوو الأرحام. يقول الإمام: «لا صدقة وذو رحم محتاج»^٤.

١. العدد القوية: ص ١٥٢، كشف الغمة: ج ٢ ص ٣٧١ و ٤٢٠، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٠٢.

٢. الكافي: ج ٢ ص ٥٥، الخصال: ص ٤٣١، شرح أصول الكافي: ج ٨ ص ١٧٩، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ١٨٣، الأمالي للمفيد: ص ٢٢٦، الأمالي للطوسي: ص ١٠. وفي بعضها: «صدق البأس» و «صدق اليأس» بدلاً من «صدق الناس».

٣. المعبر للمحقق الحلبي: ج ٢ ص ٥٨١، الكافي: ج ٣ ص ٥٥٢، من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٢٢، علل الشرائع: ج ٢ ص ٣٧١، الخصال للصدوق: ص ٢٨٨، الاستبصار: ج ٢ ص ٣٤، تهذيب الأحكام: ج ٤ ص ٥٦، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٢٤٠.

٤. من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٦٨ و ج ٤ ص ٣٨١، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٣٨٠ و ٣٨٤ و ٤١٢، مستدرک الوسائل: ج ٧ ص ١٩٦، الاختصاص للمفيد: ص ٢١٩. وذكره النووي في المجموع: ج ١٥ ص ٣٣٥ عن النبي ﷺ.

ولوطنٍ واصل الرحم أنه يضع المعروف في غير موضعه - وللمعروف دائماً موضع - فالإمام يقول له: «لا تقطع رحمك وإن قطعك»^١.

وقع كلام بينه وبين عبد الله بن الحسن (وربما كان ذلك من جراء يوم الأبوء، وسلف القول فيه) وكان عبد الله أعلى أهل البيت سنّاً، فأغلظ عبد الله القول، فلم يردّ الصادق، ثم افترقا، ثم تلاقيا على باب المسجد فابتدره الصادق يقول «كيف أمسيت يا أبا محمد؟» (فهو أبو محمد المهدي - النفس الزكية - وإبراهيم والباقيين من بني عبد الله بن الحسن)، وقال عبد الله كالمغضب: بخير! قال الصادق: «يا أبا محمد، أما علمت أن صلة الرحم تخفف الحساب؟» ثم تلا قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ»^٢ فقال عبد الله: فلا تراني بعدها قاطعاً رحماً^٣.

يقول الصادق: «إِنَّ رجلاً أتى النبي فقال: يا رسول الله، إني لي أهلاً قد كنت أصلهم وهم يؤذونني، وقد أردت رفضهم، فقال له رسول الله: إن الله يرفضكم جميعاً، قال الرجل: كيف أصنع؟ قال: تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، فإذا فعلت ذلك كان الله عز وجل لك عليهم ظهيراً»^٤.

وكان الإمام يصلي عن ولده في كل ليلة ركعتين، وعند والده في كل يوم ركعتين^٥. يقول في صدد الصلاة عن الميت: إنه «ليكون في ضيق فيوسع عليه ذات الضيق، ثم يؤتى فيقال له: خفف الله عنك ذلك الضيق لصلاة فلان أخيك عنك»^٦.



١. الكافي: ج ٢ ص ٣٤٧، شرح أصول الكافي: ج ٩ ص ٤١٦، وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ٢٧٣ و ج ٢١ ص ٤٩٣، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٢٧، وفي بعضها: «وإن قطعتك» بدلاً من «وإن قطعك».

٢. سورة الرعد: ٢١.

٣. بحار الأنوار، ج ٤٧ ص ٢٧٤، تاريخ دمشق: ج ٢٧ ص ٣٧٨، كشف الغمة، ج ٢ ص ٣٧٧.

٤. بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٠١، مستدرک الوسائل: ج ١٥ ص ٢٥٣، كتاب الزهد للحسين بن سعيد الكوفي: ص ٣٦.

٥. الدعوات للراوندي: ص ٢٧٧، تهذيب الأحكام، ج ١ ص ٤٦٧، وسائل الشيعة: ج ٢ ص ٤٤٥، مستدرک الوسائل ج ٦ ص ٣٤٧، بحار الأنوار: ج ٧٩ ص ٦٣، مستدرک سفينة البحار: ج ٩ ص ٤٦٥.

٦. تفسير نور الثقلين: ج ٥ ص ١٧٠، المعتمد للمحقق الحلبي: ج ١ ص ٣٤٠، بحار الأنوار: ج ٨٥ ص ٣٠٩، الحبل المتين للبهائي: ص ٧٣.

وربما أجمل منهاج الصادق في القول والعمل للناس عامة، كلمات له يتناقلها الناس في كل مكان: «خير من الصدق قائله، وخير من الخير فاعله»^١

فهنا فضائل كثيرة مجتمعة، هي: الخير، وصنعه، وإمكان الاقتداء بصنعه. وإعلان لرأي الإمام بأن الإيمان عقيدة وعمل، وأن العمل الصالح يحوّل الفكر المجرد إلى فعلٍ نافعٍ أو أمرٍ واقعٍ، والعمل هو الوسيلة المنجحة إذا جرى مجرى الأصول: والصادق يروي عن علي: «سمعت رسول الله يقول: عليكم بسنتي: فعمل قليل في سنة خير من كثير في بدعة»^٢.

والإمام يرى أن «رأس الحزم التواضع»^٣ وأن التواضع هو «الرضا بأن تجلس من المجلس بدون شرفك، وأن تسلم على من لقيت، وأن تترك المراء وإن كنت محققاً»^٤. ويقول: «من أكرمك فأكرمك، ومن لم يكرمك فأكرم نفسك عنه»^٥.

ويضيف إلى ذلك «إنك لن تمنع الناس من عرضك إلا بما تنشره عليهم من فضلك»^٦. وهذا الفضل بعض المعروف، أما عن تمام المعروف فيقول: «المعروف لا يتم إلا بثلاثة: تعجيله، وتصغيره، وستره»^٧.

١. الحديث هكذا «خير من الخير فاعله، وأجمل من الجميل قائله» وهو من كلام لمولانا الإمام الهادي عليه السلام لا للصادق عليه السلام. لاحظ في ذلك بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٣٧٠، ونزهة الناظر للحلواني: ص ١٤٢ وعن الإمام الجواد عليه السلام: ج ٢ ص ٣٨١ نقلاً عن التذكرة الحمدونية.
٢. الأمالي للطوسي: ص ٥٢٢، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٦١، المصنّف للصنعاني: ج ١١ ص ٢٩١. ونقل جماعة من الأعلام سنة وشيعة هذه الرواية عن الحسن عليه السلام عن أبيه عن جده، ورواها جماعة مفصلة في خصوص نافلة ليالي رمضان، راجع: الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض: ج ٢ ص ١٣، فيض القدير شرح الجامع الصغير: ج ٤ ص ٤٧٧، الجامع الصغير ج ٢ ص ١٨٠، وسائل الشيعة ج ٨ ص ٤٥.
٣. لم أجد رأس الحزم التواضع» بل «رأس العلم التواضع» منقولاً عن أمير المؤمنين عليه السلام. راجع مطالب السؤول: ص ٤٨.
٤. تحف العقول: ص ٢٩٦ وفيه: «التواضع الرضا بالمجلس دون شرفه...» وكذا في: بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ١٧٦ وج ٧٥ ص ٢٧٧. وقد ورد الحديث مقطوعاً في مصادر أخرى، راجع: الكافي: ج ٢ ص ٦٤٦، الوسائل: ج ١٢ ص ٥٩، الخصال للصدوق: ص ١١، روضة الواعظين ص ٢٨٢ وقال: «رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت، وأن ترضى بالدون من المجلس...». ومثله مشكاة الأنوار: ص ٣٥٠.
٥. بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٦٧ وفيه: «من أكرمك فأكرمك، ومن استخف بك فأكرم نفسك عنه»، وكذا جاء في: ج ٧٥ ص ٢٧٨. مستدرک سفينة البحار: ج ٩ ص ١٠٥، نزهة الناظر: ص ١١١.
٦. نزهة الناظر وتبيينه الخاطر: ص ١١٠، ولكن بلفظ: «تنشر» دون الضمير.
٧. دعائم الإسلام: ج ٢ ص ٣٢١، وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٣١٤، مستدرک الوسائل: ج ١٢ ص ٣٦١ و ص ٣٦٢.

يقول: «العافية نعمة يعجز عنها الشكر»^١ بل يقول: «المعروف زكاة النعم»^٢.
والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^٣، فما أكثر ما يستحقّ الناس من
المعروف عند المسلم الصادق.

والسخاء سموّ ولو من الجاهل، يقول الإمام: «جاهل سخّي أفضل من ناسكٍ بخيل»^٤.
فلنتصوّر مجتمعاً يسود فيه السخاء، ويعمّ العطاء، ويتواتر المعروف، ليتعاون الناس في
دنياهم، وتستوثق القربى فيهم، فتزداد لحمة الأسرة وشاقّة، ثم تلتزم الجماعة والأفراد
بالمكارم العشرة التي نصّ عليها الإمام، إنّه المجتمع الإسلامي!
لنقرأ وصية الإمام لعبد الله بن جندب، لنلمس مواقع الجمال والكمال في هذا المجتمع:
«لا تكن بطراً في الغنى ولا جزءاً في الفقر، ولا تكن فظاً غليظاً يكره الناس قريك، ولا تكن
وأهناً يجفوك من عرفك، ولا تشار من فوقك، ولا تسخر ممّن دونك، ولا تنازع الأمر أهله...
يا ابن جندب: لا تتصدقنّ على أعين الناس يزكوك، فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت
أجرك، ولكن إذا أعطيت بيمينك فلا تطّلع عليها شمالك، فإن الذي تتصدّق له سرّاً يجزيك
علانيةً، فقد علم ما تريد»^٥.

الأخوة

كان طبيعياً أن تمتدّ هذه المبادئ السياسية والاجتماعية الموجهة للأفراد إلى بيئتهم، وأن
يكون المقام العظيم للأصحاب والصحبة، وهي القرابة التي يختارها المرء لنفسه، ولا تُفرض
عليه من أسلافه. والصحبة أداة منجحة للتكافل والتكامل، وبها تجتمع «الخلية الأولى»
للجماعة الهادفة.

→ الأمالي للطوسي: ص ٤٨٠، ونقلها اليعقوبي في تاريخه: ج ٢ ص ٢١٠ عن أمير المؤمنين.

١. الأمالي للشيخ الصدوق: ص ٢٩٩، روضة الواعظين: ص ٤٧٢، مكارم الأخلاق: ص ٣٢٧، بحار الأنوار:
ج ٧٨ ص ١٧٢، مستدرک سفينة البحار: ج ٧ ص ٢٩٣، ولكنها جميعاً بلفظ «يعجز الشكر عنها».

٢. تحف العقول: ص ٣٨١، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٦٨، مستدرک سفينة البحار: ج ٤ ص ٢٩٢.

٣. سورة إبراهيم: ٣٤.

٤. بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ٣٥٧ و ج ٧٥ ص ٢٢٨، مستدرک سفينة البحار: ج ٤ ص ٥٠٩، ومثل هذا المعنى نقله
المنائي في فيض القدير ج ٤ ص ١٨٢ ولكن لا عن الصادق عليه السلام.

٥. تحف العقول: ص ٣٠٤ وما بعدها، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٨٣ وما بعدها، الأنوار البهية: ص ١٥٥ وما بعدها.

ولعل في اهتمام الإمام بالصحة والأخوة دليلاً على اتّجاهه نحو إيجاد مجتمع أو جماعات تتآخى في التشيع، وبمثل هذه الجماعات قامت الدول الشيعية على نظم مشهورة في الدعوة لها، خافية أو معلنة، وبخاصة نظم الدعوة الاسماعيلية.

وكما حفلت مجالس الإمام ومقولاته بوصف «الجعفري»، وبعبارة «شيعتنا»، حفلت بتوكيد أسباب التعاون بين الإخوان.

هو أولاً يجعل المودة بينهم من الدين فيقول: «من حبّ الرجل دينه حبّه إخوانه»^١، ثم ينتقل من الوضع الديني إلى الاجتماعي فيقول: «وطن نفسك على حسن الصحة لمن صحبت، وحسن خلقك، وكفّ لسانك، واكظم غيظك»^٢، «أما يستحي الرجل منكم أن يعرف جاره حقّه ولا يعرف حقّ جاره، ليس منّا من لم يحسن مجاورة جاره»^٣.

وقديماً قيل لأبي الأسود الدؤلي تلميذ «علي عليه السلام»: «بعث دارك؟ قال: «بعث جاري»^٤. وقيل: «الرفيق قبل الطريق»^٥.

والإمام الصادق يقول: «أيسر حقّ من حقوق الإخوان أن تحبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك، وأن تكره لأخيك ما تكره لنفسك، وأن تتجنّب سخطه، وتتبع مرضاته، وتطيع أمره، وتعيّنه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك، وأن تكون عينه ودليله ومرآته، ولا تشيع ويحجوع، ولا تروى ويظمأ، ولا تلبس ويعرى، وأن تبرّ قسمه، وتجبب دعوته، وتعود مريضه، وتشهد

١. الخصال للصدوق: ص ٣، مصادقة الإخوان: ص ٧٤، وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ١٧٩، مستدرك الوسائل: ج ١٢ ص ٢٣٥، الاختصاص: ص ٣١، بحار الأنوار: ج ٦٦ ص ٢٣٧.

٢. والحديث كما هو: «وطن نفسك على حسن الصحابة لمن صحبت في حسن خلقك، وكفّ لسانك، واكظم غيظك» الكافي: ج ٤ ص ٢٨٦، شرح أصول الكافي: ج ١١ ص ١٥٧، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٦٠، منتهى الجمان: ج ٣ ص ١٠٢.

٣. الكافي: ج ٢ ص ٦٣٥ و ج ٨ ص ١٤٦، وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ٦، مشكاة الأنوار: ص ٣٢٣.

٤. تاريخ ابن معين: ج ٢ ص ٢١٧، طبقات المحدّثين بإصبيان: ج ٣ ص ٥٥٧ ولكن بلفظ «جيرانى» لا «جارى».

٥. معني المحتاج لمحمد بن الشرييني: ج ١ ص ٤٦٤، حواشي الشرواني: ج ٤ ص ٢١، نهج البلاغة: ج ٣ ص ٥٦، الكافي: ج ٨ ص ٢٤، تحف العقول: ص ٨٦، مستدرك الوسائل: ج ٨ ص ٢١٠، العهود المحمدية للشعراني: ص ٦٠٤، كنز العمال: ج ٦ ص ٧١٥، كشف الخفاء: ج ١ ص ١٧٩. ولكن هذه المصادر تبتدئ تارة بلفظ «ابتغ» أو «اطلب» أو «التمس» أو «سل عن».

جنازته، فإذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها، ولا تلجئه إلى أن يسألها»^١.
فكل وجه من الوجوه المشار إليها أداة تراحمٍ تمكّن للأخوة الإسلامية، وكلّ تفریط،
مهما قلّ أمره، أو ضاق زمنه، تنقص من الأخوة الإسلامية، فإذا أطال المسلم قطيعة أخيه
فهي إحدى الكبر، فالمجتمع المتقاطع هو كالمجتمع بين أعداء...، أو كالجزر المتنازحة في
اليم، حدود كل منها مصالحتها.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «هجرة الرجل أخاه سنة كسفك دمه»^٢.
وما أدقّ نصح الإمام في معاشرته الناس: «لا تفتش الناس فتبقى بلا صديق»^٣، «المؤمن
يداري ولا يماري»^٤، «مجاملة الناس تلت العقل»^٥.
وهو ينهى عن الظنّة، فالظنين متهم، يقول: «ضع أمر أخيك على أحسنه، ولا تظن بكلمة
خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً»^٦.
أمّا من فرط حيث تجب اليقظة فلا يلومنّ إلا نفسه، يقول الإمام: «من كتم سرّه كانت
الخيرة بيده»^٧، ويقول: «لا تتقن بأخيك كلّ الثقة، فإن سرعة الاسترسال لا تُقال»^٨، ويقول:

١. المؤلف قد تصرّف بالنصّ بأن حذف وقدم وأخر. راجع أصل الحديث في الكافي: ج ٢ ص ١٦٩. الأمالي
للطوسي: ص ٩٨، مستدرك الوسائل: ج ٩ ص ٤٢، مشكاة الأنوار: ص ١٤٧.
٢. المجموع للنووي: ج ١٥ ص ٢٤٣. أسد الغاية: ج ١ ص ٣٨٨، الأمانة والتبصرة لابن بابويه القمي: ص ١٧٧،
مسند أحمد: ج ٤ ص ٢٢٠، سنن أبي داود: ج ٢ ص ٤٥٩، المستدرك للحاكم: ج ٤ ص ١٦٢.
٣. الكافي: ج ٢ ص ٦٥٢، تحف العقول: ص ٣٦٩، وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ٨٦، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٥٣،
مستدرك سفينة البحار: ج ٢ ص ٦١، وفي بعضها: «لا تفتش الناس عن أديانهم...».
٤. بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٧٧.
٥. الكافي: ج ٢ ص ٦٤٣، تحف العقول: ص ٣٦٦، شرح أصول الكافي: ج ١١ ص ١٠٥، وسائل الشيعة ج ١٢
ص ٥٣، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٥٠.
٦. الكافي: ج ٢ ص ٣٦٢، الأمالي للصدوق: ص ٢٨٠، تحف العقول: ص ٣٦٨، وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ٣٠٢،
مستدرك الوسائل: ج ٩ ص ١٤٤، الاختصاص للمفيد: ص ٢٢٦، وفيها جميعاً بعد «أحسنه»: «حتّى يأتيك منه ما
يغلبك»، «ولا تظننّ» بدلاً من «ولا تظن» وقد رواه صاحب تاريخ دمشق: ج ٤٤ ص ٣٦٠ عن عمر بن الخطاب،
وكذا الدرر المنتور: ج ٦ ص ٩٢ و ج ٥ ص ٢٥٠، وتفسير ابن كثير: ج ٤ ص ٢٢٧، وكشف الخفاء: ج ١ ص ٤٤، وكنز
العمال: ج ١٦ ص ٢٦٢.

٧. نقله جماعة عن الصادق عليه السلام عن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام: مشكاة الأنوار: ص ٥٥٧، ونقله صاحب البحار عن
الباقر عليه السلام: ج ٧٢ ص ٦٨، وجماعة عن الإمام علي عليه السلام كما في نهج البلاغة: ج ٤ ص ٤١، خصائص الأئمة

«صدرك أوسع لسرك»^٩ و«سرك من دمك فلا تجرّه في غير أو داجك»^{١٠}، ويقول: «من خان لك خانك، ومن ظلم لك سيظلمك، ومن نمّ إليك سينمّ عليك»^{١١}. ولما سئل عن الرجل العدل قال: «من غصّ طرفه عن المحارم، ولسانه عن المآثم، وكفّه عن المظالم»^{١٢}.

والإخوان - عند الإمام - هم المواسون، فهم بين ثلاثة: «مواسٍ بنفسه، وآخر مواسٍ بماله، وهما الصادقان في الإخاء، وآخر يأخذ منك البلغة ويريدك لبعض اللذة فلا تعدّه من أهل الثقة»^{١٣}.



والإمام يأمر بالرفق بالناس، فينبه الذين يتناولون ليتطامنوا، فيقول: «من الجور قول

→ للشريف الرضي: ص ١٠٨، شرح أصول الكافي: ج ١ ص ٢٦٦، وعن معاوية في كتاب الصمت وآداب اللسان: ص ٢١٤، وأخرى عن عمر في: ص ٣١١، وكذا في كنز العمال: ج ٣ ص ٨٠٤، وجماعة عن الشافعي منهم صاحب العهود المحمدية: ص ٧٦٠.

٨. تحف العقول: ص ٣٥٧ وفيه: «صرعة الاسترسال»، روضة الواعظين: ص ٣٨٨ وفيه: «لن تستقال»، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٧٤ وفيه: «لا يستقال» و«صرعة».

وعلى كلّ حال، فالصرعة: اسم من صرعه: إذا طرحه على الأرض، والاسترسال: الاستيناس والطمانينة والانبساط، والمراد: كثير الانقياد والثقة بالآخر. فإذا وثق الرجل بأخيه كلّ الثقة وأفش إليه أسراره، وانقلب الرجل يوماً منافقاً وعدواً، صرعه صرعة مهلكة لا يرجى فيها الإقالة. وأمّا على «سرعة الاسترسال» فالاسترسال: طلب الرسل، وهو انطلاق الخيل في الغارة والسباق، ومعناه: إذا أطلق الفارس العنان لفرسه حتى أسرع، لا يتمكّن أن يستقبله في سرعته إلا بالكبوة والهلاك. فالمراد إذاً من المعنيين واحد.

٩. بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٧١ وج ٧٥ ص ٢٧٨، مستدرك سفينة البحار: ج ٥ ص ١٥، نزهة الناظر: ص ١١٢.

١٠. بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٧١ وفيه: «لا يجرين» وج ٧٥ ص ٢٧٨ وفيه: «لا تجريه»، مستدرك سفينة البحار: ج ٥ ص ١٥ وج ٩ ص ٦٢، وفيه: «لا تجريه»، نزهة الناظر: ص ١١٢، وقد ورد عن غير الصادق عليه السلام في فيض القدير: ج ١ ص ٦٣٠ بلفظ «سرك من دمك، فإذا تكلمت فقد أرتقته»، والطبري في تاريخه: ج ٦ ص ٣٣٠ عن المنصور: «سرك من دمك، فانظر من تملكه».

١١. تحف العقول: ص ٣١٦، بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ٢٢٩.

١٢. تحف العقول: ص ٣٦٥، مستدرك الوسائل: ج ١١ ص ٣١٧، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٤٨، مستدرك سفينة البحار: ج ٧ ص ١١٩، وجميعها بلفظ «إذا غصّ...».

١٣. تحف العقول: ص ٣٢٤، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٣٩، مستدرك سفينة البحار: ج ١ ص ٧٢.

الراكب للراجل: الطريق»^١، فهو الراكب وييده الزمام، والطريق للناس كافة، وكفى الراجلين أنهم يمشون، وكفاه أنه فوق ظهر.

يقول الإمام: «لا تسم الرجل صديقاً، سمة معرفة، حتى تخبره بثلاثة: تغضبه فتنظر غضبه أخرجته عن الحق إلى الباطل، وعند الدينار والدرهم، وحتى تسافر معه»^٢.

ويقول: «ثلاثة لا تعرف إلا في مواطن: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجة»^٣.

ومن التبذل تنقص الكرامة، يقول: «لا تمار فيذهب بهاؤك، ولا تمزح فيجتراً عليك»^٤ و «لا جهل أضر من العجب»^٥.

والغضب عند الإمام: «مفتاح كل شر»^٦ بما فيه من ذبذبة للذات، وزعزعة للتوازن، فعنده أن «من ظهر غضبه ظهر كيده»^٧، بل أن «من لم يملك غضبه لم يملك عقله»^٨، في حين أن «المؤمن إذا غضب لم يخرج غضبه عن حق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل»^٩.

١. الخصال للشيخ الصدوق: ص ٣، الأمالي للصدوق: ص ٣٧١، روضة الواعظين: ص ٤٦٦، وسائل الشيعة: ج ١١ ص ٤٥٩، بحار الأنوار: ج ٦١ ص ٢١٥ وج ٧٣ ص ٢٩٨، وفيها جميعاً عدا الخصال «للماشي» بدلاً في «للمارجل».

٢. الأمالي للشيخ الطوسي: ص ٦٤٦، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٨٠.

٣. تحف العقول: ص ٣١٦، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٢٩. وفي بعض المصادر عن لقمان، انظر: بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٧٨، الاختصاص: ص ٢٤٦، مستدرک سفينة البحار: ج ١ ص ٥١٧ وفيها «في ثلاث مواطن» أو «ثلاثة مواضع»، و«أخاك» و«لأخ» بدل «الأخ».

٤. الكافي: ج ٢ ص ٦٦٥، تحف العقول: ص ٤٨٦، شرح أصول الكافي: ج ١١ ص ١٤٨، وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ١١٧، بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ٥٩ وج ٧٥ ص ٣٧٠، الأنوار البهية: ص ٣١٧، وفيها جميعاً «ولا تمازح».

٥. فقه الرضا: ص ٣٥٦، الكافي: ج ٨ ص ٢٤٤، تحف العقول: ص ٣٦٠، شرح أصول الكافي: ج ١٢ ص ٣٣٦، الاختصاص للمفيد: ص ٢٢٧، بحار الأنوار: ج ٦٦ ص ٤٠٠ وج ٦٩ ص ٣١٥ وج ٧٥ ص ١٩٨.

٦. الكافي: ج ٣ ص ٣٠٣، مستدرک الوسائل: ج ١٢ ص ٩، الخصال للصدوق ص ٧، مشكاة الأنوار: ص ٣٨٣، تحف العقول: ص ٤٨٨، بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٦٣، روضة الواعظين: ص ٣٧٩، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٣٥٨.

٧. نزهة الناظر وتنبية خاطر: ص ١٠٩.

٨. الكافي: ج ٢ ص ٣٠٥، تحف العقول: ص ٣٧١، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٣٦٠، بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٧٨ وج ٧٥ ص ٢٥٥، مستدرک سفينة البحار: ج ٧ ص ٥٩٨.

٩. الكافي: ج ٢ ص ٢٢٣، تحف العقول: ص ٣٢٤، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٣٥٨، صفات الشيعة للصدوق:

ويهتف الإمام بالشيعة: «يا شيعة محمد، ليس منا من لم يملك نفسه عند الغضب، ويحسن صحبة من صاحبه، ومرافقة من رافقه، ومخالفة من خالفه»^١.

وأبى أدب للنفس والعقل كمثل ذلك الذي يعبر عنه الإمام بإحسان المخالفة! وما هو إلا الحلم والأناة، قرظهما رسول الله للمنذر إذ أتاه، في وفد عبد القيس، فقال له: «فيك خلّتان يحيهما الله عزّ وجلّ: الحلم والأناة»^٢.

وفي عبارات تأخذ شكل ثلاثيات، قليلة العدد جلييلة الفحوى، يجمع الإمام آلاف الرذائل المدمّرة في ستّة أصحاب خرق، هم كالجيوب المخروقة للمجتمع، لا تبقي ولا تذر، وهم: المرائي؛ والكسلان، والمسرف، والمنافق، والحاسد، والظالم، تشتمل بنقائصهم نيران الرذالات جمعاء، وإذ يتكاثرون في كلّ مكان، بالعدوى والتناج، ويستهن الناس بخطرهم على أنفس الأفراد ومقومات الجماعة وقوة الدولة، مع أنّ أخطارهم السلبية تتوازن في ضررها مع أعظم الإيجابيات، فتفقد الأمم تماسكها.

وجمعها في صعيد واحد، وإجمالها في كلمات، آية على نفاذ البصيرة، وإحسان البيان، يقول الإمام:

«للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان الناس عنده، ويحبّ أن يُحمد بما لم يفعل». «وللكسلان ثلاث علامات: يتوانى حتّى يفرط، ويفرط حتّى يضيع، ويضيع حتّى يأنم». «وللمسرف ثلاث علامات: يشتري ما ليس له، ويأكل ما ليس له، ويلبس ما ليس له». «وللمنافق ثلاث علامات: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوّتمن خان». «وللحاسد ثلاث علامات: يغتاب إذا غاب، ويتملّق إذا شهد، ويشمت بالمصيبة». «وللظالم ثلاث علامات: يعصي من فوقه، ويعتدي على من دونه، ويظاھر

→ ص ٢٦، مشكاة الأنوار: ص ٣١٩، وخرّجها كثير من الأعلام عن النبي ﷺ دون وساطة الصادق عليه السلام.

١. أصل الحديث: «يا شيعة آل محمد، أعلّموا أنّه ليس منا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صاحبه، ومخالفة من خالفه، ومرافقة من رافقه، ومجاورة من جاوره، ومخالحة من مالحه...». راجع: الكافي: ج ٢ ص ٦٣٧، شرح أصول الكافي: ج ١١ ص ٩٢، وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ١٠، خاتمة المستدرک: ج ٥ ص ٤٣٥، مشكاة الأنوار: ص ٣٣٩، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٦١، إلّا تحف العقول: ص ٢٨٠، فقد ورد قريباً من نقل المؤلف.

٢. مسند أحمد: ج ٣ ص ٢٢، صحيح مسلم: ج ١ ص ٣٦، سنن الترمذي: ج ٣ ص ٢٤٧، السنن الكبرى للبيهقي: ج ١٠ ص ١٠٤ و١٩٤. وهو المنذر بن عاصم المعروف بأشج عبد القيس.

الظالمين»^١. ولكل واحدة من هذه العلامات شعب يبلغ العلم بها أكثر من ألف باب.

المرأة

في فقه الإمام عناية بالغة بالنساء، في الزواج والطلاق والميراث، وهي دعائم الأسرة وقوائم المجتمع، وقد عرضنا لبعضه قبل، لكن اهتمامه الاجتماعي بالأسرة أو بالمرأة لا يقف عند الحكم الفقهي، وإنما يتعداه إلى الترغيب والتهديب بالنصح الدؤوب. فمرأة المجتمع العظيم: الأسرة السعيدة، وزينتها وحليتها: المرأة الصالحة، وهي نصف الناس، وأم الجميع، يقول الإمام: «أتقوا الله في الضعيفين: اليتيم والنساء»^٢.

ويقول: «البنات حسنات، والبنون نعم. الحسنات يثاب عليها، واليتيم مسؤول عنها». وإذا كان البنات حسنات يلقى بهنّ المرء بارئته فيزدنه درجات، فالإمام يجعل للأمهات درجة في طاعة أو امرهنّ، فيأمر بالمبادرة بطاعة الأم، إذا دعا الأبوان^٣.

ويلقي على الأم في دارها واجب استثمار الزمن في خدمة الأسرة والأمة، ويفرض على المجتمع واجب إحسان أفرادها بالتيسير في المهور، وعلى المرأة واجب التعاون في إنجاح الزوجية بالوفاء بحقّ الزوج، ويجمع بين حسن التبعل وبين حسن الجوار، فيقول: «الشؤم في المرأة: كثرة صداقها وعقوق زوجها، وفي الدار: ضيق ساحتها وشرّ جيرانها»^٤.

١. نقلها الأعلام بعبارات شتى وألفاظ متفاوتة، كلّها تدلّ على معنى واحد. تارة عن النبي ﷺ وأخرى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وثالثة عن الصادق عليه السلام، ورابعة عن لقمان الحكيم عليه السلام. راجع في ذلك: قرب الاستناد: ص ٢٨، تحف العقول: ص ١٠، وسائل الشيعة: ج ١ ص ٧٤، مستدرک الوسائل: ج ١ ص ١١٤، بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ٢٠٦ و ٢٩٦، مستدرک سفينة البحار: ج ٧ ص ٣٧١.

٢. الكافي: ج ٥ ص ٥١١، من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ٣٩٢، الخصال: ص ٣٧، روضة الواعظين: ص ٣٦٩، وسائل الشيعة: ج ٢٠ ص ١٦٨ و ١٧٠ و ١٧٤، مكارم الأخلاق: ص ٢١٨، بحار الأنوار: ج ٧٦ ص ٢٦٨.

٣. الكافي: ج ٦ ص ٦، من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ٤٨١، ثواب الأعمال: ص ٢٠١، تحف العقول: ص ٣٨٢، وسائل الشيعة: ج ٢١ ص ٣٦٥، مكارم الأخلاق: ص ٢١٩، الفصول المهمة: ج ٢ ص ٣٦٣، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٠٦. وفي بعضها «البنون نعمة»، و«يسأل عن النعمة».

وقد وردت الروايات عن النبي بالسنة متعدّدة بحسن صحبة الأم وبرّها قبل الأب، لأنّها ثلثي البرّ. راجع: الشرح الكبير: ج ٩ ص ٢٧٥، المحلّي لابن حزم: ج ١٠ ص ٣٢٣، شرح مسلم للنووي: ج ١٢ ص ١٢، المعجم الكبير: ج ١٩ ص ٤٠٥. وروى السيوطي في الجامع الصغير: ج ٢ ص ١٦١ عن النبي ﷺ: «إذا دعاك أبواك فأجب أمك».

٤. وأصل الرواية: «الشؤم في ثلاثة: في المرأة والدابة والدار. فأما شؤم المرأة فكثرة مهرها وعقوق زوجها، وأما

يقول^١ عليه الصلاة والسلام: «علموا أبناءكم السباحة والرمية، ونعم لهو المرأة في بيتها المغزل»^٢ فهن مطالبات ألا يفتحن الأبواب للشيطان بالفراغ، مطالبات بأن يعملن ما يجمل بهن، والمرأة التي تسمك المغزل بيد، وتهز مهد الطفل بيد، تضم بين ذراعيها أسرة سعيدة. ولقد كان النساء آخر ما أوصى به ﷺ.

يقول الإمام: «صلاح حال التعايش على مكيالٍ ثلثاه: فطنة، وثلثه: تغافل»^٣ وهذه الأثلاث تتردد في مضامين ثلاثيات شتى، تجتمع وتفرق، لكنها كلها أركان لسعادة المجتمع الكبير الذي هو الأمة، والصغير الذي هو الأسرة. وقد سلف علينا في ثلاثية سابقة كيف قرن نكد الزوجية بالنكد في الجيرة والسلطان الجائر^٤. وهنا يستلفت الأنظار إلى ما يجب من إحسان العشرة: بالسلوك الرفيع، والإنفاق اللازم، واحترام الذات، حيث يقول: «إن المرء يحتاج في منزله وعباله إلى ثلاث خلال يتكلفتها وإن لم يكن في طبعه ذلك: معاشرة جميلة، وسعة بتقدير، وغيره بتحصن»^٥.

ثم يقول ليبين أثر المرأة في سلام الأسرة: «ثلاث من ابتلي بهن كان طائح العقل: نعمة مولية، وزوجة فاسدة، وفجيعة نجيب»^٦ فهو يضع فسادها في منزلة بين المنزلتين: النعمة

→ الدابة فسوء خلقها ومنعها ظهرها، وأبواب الدار فضيق ساحتها وشر جيرانها وكثرة عيوبها». راجع: من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ٥٥٦، الخصال: ص ١٠٠، الأمالي: للصدوق ص ٣١١، معاني الأخبار: ص ١٥٢، روضة الواعظين: ص ٣٨٦، وسائل الشيعة: ج ٢١ ص ٢٥٢.
وذكره من علماء السنة عن النبي ﷺ دون تفصيل: مسند الشهاب: ج ١ ص ١٩٦، صحيح البخاري: ج ٦ ص ١٢٤.

١. يعني: النبي ﷺ لا الصادق عليه السلام.
٢. الجامع الصغير: ج ٢ ص ١٦٦، فيض القدير: ج ٤ ص ٤٣٢، أسد الغابة: ج ١ ص ٢٠٥. وفي مصادر الشيعة يوجد صدر الحديث «علموا أبناءكم السباحة والرمية». راجع: الكافي: ج ٦ ص ٤٧، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ٣٣١، النوادر للراوندي: ص ٢٦٤. وورد في ذيل الرواية في مصادر أخرى بلفظ «نعم لهو الحرّة» راجع: كمال الدين: ص ٥٧٥، بحار الأنوار: ج ٥١ ص ٢٥٢.

٣. تحف العقول: ص ٣٣٨، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٤١. وفيهما: «ملء مكيال» لا «على مكيال». نعم توجد في بعض نسخ البحار.

٤. قال عليه السلام: ثلاثة تكدر العيش: السلطان الجائر، والجار سوء، والمرأة البذية» تحف العقول: ص ٣٢٠.

٥. تحف العقول: ص ٣٢٢، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٣٦، مستدرک سفينة البحار: ج ٨ ص ٨٧.

٦. تحف العقول: ص ٣٢٢، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٣٦، وفيهما: «فجيعة بحبيب» لا «فجيعة نجيب» لأنه لا معنى له في المقام. وطائح العقل: يعني مشرف على الهلاك.

الضائعة، والفجيرة الحالة، في حين يقدمها عند صلاح حالها على فلذة الكبد والصديق الصافي إذ يقول: «الأنس في ثلاثة: الزوجة الموافقة، والولد البار، والصديق الصافي»^١. والرجل رأس الأسرة، لا يلقي مقاده أو مقادها إلى الزوجة، وإلا غرقت السفينة، يقول الإمام: «ثلاثة من استعملها فسد دينه ودنياه: من ساء ظنه، وأمكن من سمعه، وأعطى قياده حليلته»^٢.

وفي هذه الثلاثية تجتمع سلبيات خلقية ثلاثة في دنيا الرجل، فتحلّ الأشباح محلّ الأشياء، والأصداة محلّ الأصوات، والنساء محلّ الرجال، وليس هذا عالم المسلمين. وفي ثلاثية أخرى نرى تصنيفاً من نوع خاصّ: «النساء ثلاثة: واحدة لك، وواحدة عليك ولك، وواحدة عليك. أما التي لك فهي العذراء، والتي لك وعليك فهي الثيب، أما التي عليك فهي المتبع التي لها ولد من غيرك»^٣ وإنا ينبت الإمام الرجال ليزداد برهم بمن يمكن أن تكون لهم أو عليهم، كي يتكفّفوا لها خصالاً نصّ عليها: معاشرة جميلة، وسعة بتقدير، وغيره بتحصّن.

العلم

أينما ذهبت في سيرة الإمام فثمّ وجه العلم، والتعويل على العلماء، والتمسك بالخلق العلمي وأساليبه.

يقول لعنوان البصري: «أسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتاً وتجربة، وإياك أن تعمل برأيك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً، واهرب من الدنيا هربك من الأسد...»^٤.

ويقول لحرمان بن أعين: «العمل الدائم القليل على اليقين، أفضل عند الله من العمل

١. تحف العقول: ص ٣١٨ وفيه: «المصافي» بدل «الصافي» هو من أخلص الوَدَّ. و«ثلاث» بدل «ثلاثة». وكذا في

بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٣١ وفي عيون الحكم والمواعظ: ص ٦٥: «الأخ الموافق» بدل «الصديق الصافي».

٢. تحف العقول: ص ٣١٩، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٣٢، وفيهما: «أفسد دينه» بدلاً من «فسد دينه».

٣. تحف العقول: ص ٣١٧، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٣٠، مستدرك سفينة البحار: ج ٤ ص ٣٤٣، ج ١٠ ص ٥٠.

٤. وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ١٧٢، مستدرك الوسائل: ج ١٧ ص ٣٢٢، مشكاة الأنوار: ص ٥٦٤، منية المرید:

ص ١٥٠، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٦٠، مستدرك سفينة البحار: ج ٨ ص ١٢٧، وفيها جميعاً: «واهرب من الفتيا»

لا «الدنيا».

الكثير على غير يقين»^١.

وهذا القولان لعنوان وحرمان نصيحتان نابتان من منهج الإمام في الفقه وأصوله، فهو يلتزم الأشياء الثابتة والنصوص الواضحة، لأنها نقطة الارتكاز، وينصح بعدم المجازفة في طريق غير مؤكدة، يقول: «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق، لا تزيده سرعة السير إلا بعداً»^٢.

ومن المنهج حسن التلقي وحسن الأداء، فهو لا يحبّ المحال والعنت، كما قال لعنوان: «الجهل نقص في الدين والخلق ومعاملة الناس»^٣، أو كما قال: «الجهل في ثلاث: الكيد، وشدة المرء، والجهل بالله»^٤.

ويقول: «ثلاثة يستدلّ بهنّ على إصابة الرأي: حسن اللقاء، وحسن الاستماع، وحسن الجواب»^٥. أمّا البلاغة فهي «ليست بحدّة اللسان، ولا بكثرة الهذيان لكنّها إصابة المعنى وقصد الحجّة»^٦.

وقديماً قيل: البلاغة: الإيجاز^٧. وقيل: من البلاغة حسن الاستماع^٨.

والصادق ينبّه العلماء والأدباء وكلّه صاحب موهبةٍ على أنّ «من أدب الأديب دفن

١. فقه الرضا: ص ٣٥٦، الكافي: ج ٢ ص ٥٧ و ج ٨ ص ٢٤٤، علل الشرائع: ج ٢ ص ٥٦٠. تحف العقول: ص ٣٦٠، مستدرک الوسائل: ج ١١ ص ١٩٨، الاختصاص للمفيد: ص ٢٢٧، مشكاة الأنوار: ص ١٤١، بحار الأنوار: ج ٦٦ ص ٤٠٠ و ج ٦٨ ص ٢١٤ و ج ٧٥ ص ١٩٨.

٢. المحاسن للبرقي: ج ١ ص ١٩٨، الكافي: ج ١ ص ٤٣، من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٤٠١، الأمالي للصدوق: ص ٥٠٧، تحف العقول: ص ٣٦٢، وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٢٤، الأمالي للمفيد: ص ٤٢، مشكاة الأنوار: ص ٢٣٧، بحار الأنوار: ج ١ ص ٢٠٦ و ص ٢٠٨ و ج ٧٥ ص ٢٤٤.

٣. لم أجده لا في كتب الشيعة ولا السنة.

٤. مستدرک الوسائل: ج ١٢ ص ٢٨، الاختصاص للمفيد: ص ٢٤٤، بحار الأنوار: ج ١ ص ١٣١، وفي جميعها «الكبير» لا «الكيد».

٥. تحف العقول: ص ٣٢٣، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٣٧.

٦. تحف العقول: ص ٣١٢، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٩٢، مستدرک سفينة البحار: ج ١ ص ٤١٧، شرح نهج البلاغة: ج ٧ ص ٨٨.

٧. زاد المسير لابن الجوزي: ج ٢ ص ١٤٧، ولكن أضاف إليها: «البلاغة: الإيجاز مع الإفهام، والتصرف من غير إضجار». وقد ورد عن أمير المؤمنين: «قد يكتفى من البلاغة بالإيجاز» راجع غرر الحكم: ٦٦٦٦.

٨. لأمر المؤمنين علي عليه السلام عبارة بهذا المعنى: «أحمد من البلاغة الصمت، حتى لا ينبغي الكلام» غرر الحكم: ٣٢٤٥.

أدبه»^١.

إنما الطريق القاصدة طريق التقوى والاجتهاد والتأمل، يقول: «كثرة النظر في العلم تفتح العقل»^٢ و «كثرة النظر بالحكمة تُلَقِّح العقل»^٣ و «من أخلاق الجاهل الإجابة قبل أن يسمع، والمعارضة قبل أن يفهم، والحكم بما لا يعلم»^٤ و «الرجال ثلاثة: عاقل وأحمق وفاجر: العاقل إن كلّم أجاب، وإن نطق أصاب، وإن سمع وعى. والأحمق إن تكلم عجل، وإن حدّث ذهل، وإن حمل على القبيح فعل. والفاجر إن أتمنته خالك، وإن حدّثته شانك»^٥.
ومن إجلاله وظيفه المعلّم يقول: «أربعة ينبغي لكلّ شريف ألاّ يأنف منها: أولها: خدمته لمن تعلّم منه...»^٦.

و«العلم جنة...، والعالم يزمانه لا تهجم عليه اللوابس»^٧. والله ولي من عرفه. العاقل غفور والجاهل ختور^٨... ومن خاف العاقبة تثبّت فيما لا يعلم. ومن هجم على أمرٍ من غير علم جدع أنف نفسه»^٩. و «أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً»^{١٠}.
و«الخشية طريق العلم، والعلم شعاع المعرفة وقلب الإيمان، ومن حرم الخشية لا يكون

١. نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ص ١١٢، مقصد الراغب: ص ١٥٩ (مخطوط).
٢. الدعوات لقطب الدين الراوندي: ص ٢٢١ بلفظ «يفتح» بدل «تفتح»، وكذا في بحار الأنوار: ج ١ ص ١٥٩.
٣. تحف العقول: ص ٣٦٤، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٤٧، مستدرک سفينة البحار: ج ٢ ص ٣٥٣.
٤. بحار الأنوار: ج ٢ ص ٦٢ و ج ٧٥ ص ٢٧٨، مستدرک سفينة البحار: ج ١ ص ٧٧ و ج ٢ ص ١٤٦، نزهة الناظر: ص ١١٢.
٥. تحف العقول: ص ٣٢٣، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٣٧، ونقلها ابن أبي الدنيا في كتاب العقل وفضله عن أيوب بن القرية.
٦. والحديث كما يرويه الشهيد الثاني في منية المرید: ص ٢٦١: «أربعة لا يأنف الشريف منهنّ وإن كان أميراً: قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته للعالم الذي يتعلّم منه، والسؤال عملاً يعلم، وخدمته للضيف».
راجع أيضاً: تفسير الرازي: ج ٢ ص ١٨٥، تذكرة السامع: ص ١١٠، جامع بيان العلم وفضله: ج ١ ص ١٦٤، عيون الأخبار: ج ٢ ص ١٢٨.
٧. أي: لا تدخل عليه الشبه. (مجمع البحرين: ج ٤ ص ١٠٥).
٨. الختر: شبيه بالقدر والخديعة، وقيل: هو الخديعة بعينها، وقيل: هو أسوأ القدر وأقبحه. (لسان العرب ج ٤ ص ٢٢٩).
٩. الكافي: ج ١ ص ٢٧، تحف العقول: ص ٣٥٦، شرح أصول الكافي: ج ١ ص ٣٢٠، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٦٩.
١٠. الكافي: ج ١ ص ٢٣، شرح أصول الكافي: ج ١ ص ٢٩٥، وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ١٥٠.

عالمًا»^١.

الدعاء

منهج أهل البيت في إصلاح الدنيا هو المعرفة، وأولها معرفة الخالق^٢ جلّ شأنه بالعقل، وتثبيت الفهم بالخشوع والتقوى، فليس في غيرهما قناعة أو جدوى، يقول عليه الصلاة والسلام وعلى آله: «أعوذ بالله من علم لا ينفع، وقلب لا يخضع، ونفس لا تشيع»^٣. وفي ذات يوم ذهب قوم يقولون للإمام الصادق: ندعو فلا يُستجاب لنا! فأجاب: «لأنكم تدعون من لا تعرفونه»^٤ فمعرفة الله مطهرة للحياة، وصلة وثقى بين الرجاء والرضا، وبين الدعاء والاستجابة.

والدعاء تزكية للنفس وسبيل لها إلى خالقها - بإخلاص تامّ - فهو ترياق من نفس الإنسان، ومعراج إلى رضاء السماء بالالتجاء الكامل إلى الله، والانفصال في وقت الدعاء وحواليه عن الرذيلة، فإذا تعددت أوقاته، تكرر الانفصال ممّا يشين، وازداد العبد قرباً، وأوقات قرب من خالقه سبحانه، بالتكرار وإخلاص النية.

ومن أجل ذلك يبرز الدعاء في مناهج الشيعة ومؤلفاتهم؛ كالصحيفة السجادية - نسبة إلى زين العابدين، وفيها عشرات الأدعية، والبعض يسمّيها مزامير أهل البيت^٥ - ومصباح

١. مصباح الشريعة المنسوب للصادق عليه السلام: ص ٢٠، عدّة الداعي لابن فهد الحلبي: ص ٦٨، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٥٢. وفيها جميعاً: «الخشية ميراث العلم» لا «طريق العلم».

٢. قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبة له تسمى التوحيد: «أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيد، وكمال توحيد الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه...» راجع نهج البلاغة: ص ١٥.

٣. صحيح مسلم ج ٨ ص ٨٢، سنن ابن ماجة ج ١ ص ٩٢، سنن أبي داود ج ١ ص ٣٤٥، المجموع للنووي ج ٤ ص ٦٥٤، مستدرک الوسائل ج ٥ ص ٧٠، كنز القوائد ص ١٨١، منية المرید ص ٢١٠، بحار الأنوار ج ٢ ص ٣٢، ج ٦٣ ص ٨٣، ص ١٨.

٤. التوحيد للصدوق: ص ٢٨٩، مستدرک الوسائل: ج ٥ ص ١٩١، فتح الأبواب لابن طاوس: ص ٢٩٧، بحار الأنوار: ج ٩٠ ص ٣٦٨، نور البراهين: ج ٢ ص ١١٨.

٥. لم أجد عنوان «مزامير أهل البيت» بل وجدت عنوان «زبور آل محمد» و«إنجيل أهل البيت» ذكره الشيخ الطوسي في اختيار معرفة الرجال: ج ١ ص ١١٩ وج ٢ ص ٤٦٣، وذكر هذا العنوان العلامة المجلسي في البحار: ج ١٠٧ ص ٤٥ و٤٨ و٧٩ و٨٣.

المتهجّد، ومختصر المصباح^١ وهما من مؤلّفات الطوسي.

ومن ضروب التربية العصرية الإيحاء إلى الذات، وفي الدعاء إيحاء ورجاء، وتوجّه إلى الله، وسعي لمرضاته.

وللأئمة دعوات مأثورة، تحويها صحف مشهورة، ولها مناسبات معلومة، وأوقات تمارس فيها، في الاصبح والأمسية والأيام والليالي والشهور، كأدعية ليلة الجمعة، أو رجب، أو شعبان، أو رمضان.

وللصادق أدعية تتردّد في كتب الصوفية، فيها الإيحاء العميق بالفضائل إلى نفس من يدعو، في موقف يعلم أنّ الله حاضره، وأنّه المرجوّ سبحانه. فهي أداة إصلاح نفساني مقطوع النظر، فوق أنّها نداء، يتعالى نحو السماء في التماس المغفرة.

يقول الشعبي شيخ المحدثين من أهل السنّة: عجبت ممّن يقنط ومعه الممحة، قيل: وما الممحة؟ قال: الاستفغار^٢.

ولقد كان الصادق يدعو الله في كلّ أوقاته، ومنها لقاءاته مع أبي جعفر حيث كان يدعو الله قبل أن يدخل عليه، فثبتت الله جنانه، ويحيل بطش الجبابة إلى ما يشبه طنين الذباب^٣.
ومن المأثور عنه قوله: «إنّ الدعاء يرّد القضاء، وإنّ المؤمن ليذنب فيذهب بذنبه الرزق»^٤.

١. مختصر المصباح: في الأدعية والعبادات، اختصر فيه كتابه الكبير «مصباح المتهجّد» ويقال له «المصباح الصغير». راجع النهاية: ص ٢٦.

٢. الرواية ينقلها الشعبي عن الإمام علي عليه السلام، أنظر: وسائل الشيعة: ج ٧ ص ١٧٧ وج ١٦ ص ٦٩، الأمالي للطوسي: ص ٨٨، بحار الأنوار: ج ٦ ص ٢٢.

٣. بحار الأنوار: ج ٩٢ ص ٢٢٤، مستدرک الوسائل: ج ١٥ ص ٢٤٣. وأبو جعفر هذا هو المنصور الدوانيقي.

٤. بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٣٤٩، قرب الإسناد: ص ٣٢، وفيهما «إنّ المؤمن ليأتي الذنب فيحرم به الرزق»، وفي بحار الأنوار ج ٩٠ ص ٢٨٨: «إنّ المؤمن ليذنب فيحرم بذنبه رزقه».

الفصل الثالث

المنهج الاقتصادي

«ليس خيركم من ترك آخرته لدنياه ولا دنياه
لآخرته، خيركم من أخذ من هذه لهذه»^١.

(حديث شريف)

ليس المنهج السياسي أو الاجتماعي - ومنها الاقتصادي - إلا متابعة للمنهج العلمي من الواقعية، وإعمال العقل، والعمل للتقدم، وفق حاجات الزمن، واختلاف الأقاليم، على أساس المساواة بين الناس، وعمارة الدنيا بالعدل، وإحسان القيام على مرافقتها. والمنهجان - سواء العلمي أو السياسي الاجتماعي - ينبعان من القرآن وتطبيقات السنّة، وهما وجهان لعملة واحدة هي القيم الإسلامية، فكلّ ما أبعد من هذه القيم لا يكون إسلامياً وإن انتظم مسلمين، فالمسلمون لا يصلحون إلا أن يلتزموا قيم دينهم، وقد أصلها الإمام علي، وتابعه فيها الأئمة من بعده.

ومن القيم الاجتماعية السليمة تنشأ القيم الاقتصادية المنجحة، ولذلك تتجلى الوحدة الموضوعية بين الدين والسياسة والاقتصاد، والوحدة الفنية بين علمي المالية والاقتصاد، وبينهما وبين فنّ الإدارة، في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للأشتر النخعي. وسنرى بعض المقولات فيه تكاد تكتب في النصف الثاني من القرن العشرين للميلاد^٢ بأيدي المصلحين الاقتصاديّين العالميين، فهي عصريّة أبداً؛ لأنّها إسلامية خالصة.

١. كشف الخفاء: ج ٢ ص ١٦٩، ذكر أخبار إصبيان: ج ٢ ص ١١٧.

٢. بل وإلى يوم القيامة.

يقول: «وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس عيال على الخراج وأهله...، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في جباية الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً...، ولا يتقلن عليك شيء خففت به المؤونة عليهم، فإنهم ذخر يعود عليك في عمارة بلدك، وتزيين ولايتك، مع استجلاك حسن ثنائهم، وتبجحك^١ باستفاضة العدل فيهم...، فربما حدث من الأمور ما إذا عول فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم»^٢.

أما عن نشاط الأفراد في التجارة والصناعة والزراعة والخدمات، والبيع والشراء، وعن حرية الاتجار والانتقال والعمل كأداة للإنتاج، ففيها التعبير العلمي الرفيع عن التاجر والعامل، إذ يسميها «المضطرب بماله»^٣ و«المترقق ببدنه»^٤. وفيها التأييد والتيسير والإشراف والمتابعة من السلطة، والتعاون بين الراعي والرعية، حيث يقول: «ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب بماله والمترقق ببدنه، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المياعد والمطارح...، فإنهم سلم لاتخاف باتقته، وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً...، وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، فامنع من الاحتكار...»^٥.

أما الطبقة الأخرى، وهي التي تمثل اليد السفلى؛ لعجزها، ولأنها تأخذ من اليد العليا لاقتدارها، فأوامره في صدها قاطعة، يقول: «ثم الله الله في الطبقة السفلى، من الذين لا حيلة لهم، والمساكين، والمحتاجين، وأهل البؤس والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعاً

١. أي: فرحك (منه).

٢. نهج البلاغة: ج ٣ ص ٩٦ وما بعدها، تحف العقول: ص ١٣٧ وما بعدها، بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ٦٠٦ وما بعدها، شرح نهج البلاغة: ج ١٧ ص ٧٠ وما بعدها.

٣ و٥. نهج البلاغة: ج ٣ ص ٩٩. وهما مصطلحان ذكرا في عهد الإمام لمالك الأشتر، ولكن ورد «الترقق بيده» بدل «الترقق ببدنه» راجع: تحف العقول: ص ١٤٠، بحار الأنوار: ج ٧٤ ص ٢٥٦.

والمضطرب بما له هو المتردد بأمواله في الأطراف والبلدان، والمترقق: المكتسب.

٥. نهج البلاغة: ج ٣ ص ٩٩، مستدرک الوسائل: ج ١٣ ص ١٦٧، بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ٦٠٧ و ج ١٠٠ ص ٨٨، شرح نهج البلاغة: ج ١٧ ص ٨٣.

ومعتراً...، واجعل لهم قسماً من بيت مالك...»^١.
 ولقد سلف القول عن المنهج السياسي لدى أمير المؤمنين، وهو المساواة التامة بين المسلمين في العطاء وحقوق بيت المال، وترك الأرضين في أيدي أصحابها بعد الفتح، وغير ذلك ممّا يكشف لنا منهج الاقتصادى بتمامه، وفيما أوضحناه إشارة إلى ما لم نعرض له بتوضيح.

والنظريات تكشفها كليّات، والكليّات والجزئيات والتطبيقات ينتظمها جميعاً أصل ثابت من قول الرسول: «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه، ولكن خيركم من أخذ من هذه لهذه»^٢.

١ - العمل

العمل عند الشيعة قوة الإنتاج الكبرى، ومن أجل ذلك كان العمل للمعاش فرضاً على المؤمن ليحيا في هذه الدنيا، ولا يجوع فيها ولا يعرى، أو تجرّفه القوى، أو يحرقه الفراغ واللهو، أو تفسده طراوة الدعة.

وأول ما ينبغي له: البدء بتقوية النفس، وتبرئتها من الشحّ والطمع، وحثّها على طلب الحلال، يقول الإمام: «مثل الدنيا كمثل ماء البحر، كلّما شرب العطشان منه ازداد عطشاً»^٣ و «أربعة تذهب ضياعاً: الأكل بد الشبع، والسراج في القمر، والزرع في السبخة، والصنيعة عند غير أهلها»^٤.

١. نهج البلاغة: ج ٣ ص ١٠٠. مستدرک الوسائل: ج ١٣ ص ١٦٨، بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ٦٠٧، شرح نهج البلاغة: ج ١٧ ص ٨٥.

٢. ذكر أخبار إصهان: ج ٢ ص ١٩٧. كشف الخفاء للعجلوني: ج ٢ ص ١٦٩، وقال بعد ذكر الحديث: رواه ابن عساكر والديلمي عن أنس بلفظ «ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعاً، فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة، ولا تكونوا كالأعلى الناس». وأخرجه أبو نعيم والخطيب في تاريخه والديلمي من وجه آخر.

٣. الكافي: ج ٢ ص ١٣٦، تحف العقول: ص ٣٩٦، شرح أصول الكافي: ج ٨ ص ٣٨٩، بحار الأنوار: ج ١ ص ١٥٢ وج ٧٠ ص ٧٩ وج ٧٥ ص ٣١١. وهي من وصية له لهشام، وزاد الجميع: «حتى يقتله».

٤. وهي من وصية النبي للإمام علي، راجع وسائل الشيعة: ج ٥ ص ٣٢١. وأما ماورد عن الصادق فقوله: «أربعة يذهب ضياعاً: البذر في السبخة، والسراج في القمر، والأكل على الشبع، والمعروف إلى من ليس بأهله». راجع الخصال للصدوق: ص ٢٦٣، وسائل الشيعة: ٥ ص ٣٣٢ وج ٧١ ص ٤١٠ وج ٧٣ ص ١٦٤.

أما المؤمن فهو «من طاب مكسبه، وحسنت خليقته، ووضحت سريرته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من كلامه، وكفى الناس شره، وأنصف الناس من نفسه»^١، وهو «حسن المعونة، خفيف المؤونة، جيّد التدبير لمعاشه، ولا يُلسع من جحرٍ مرّتين»^٢.

ثم يضع الإمام الضوابط للسعي في الحياة وتحصيل المعاش، فيقول: «ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيع، ودون طلب الحريص الراضي بديناه، المطمئن إليها، أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعقّف، وترقّع بنفسك عن منزلة الواهن الضعيف، وتكسّب ما لا بدّ منه للمؤمنين»^٣.

وهو إذ يوصي بالإجمال في الطلب، ينادي بالحكمة في الإنفاق، فيقول: «إنّ السرف يورث الفقر، وإنّ القصد يورث الغنى»^٤.

وتدبير المعاش أساسي ليجتمع للمرء مال يكفي نفسه، ويفضل منه على غيره، ويؤدّي به واجبه في الدين والدنيا، ومن أجل ذلك كان الصادق يعمل بيده، ويتّجر، وينفق أمواله على الناس، وهو الإمام القدوة، ليوجّه أنظار شيعته للعمل في الحياة الدنيا، كي يقدروا على أعباء الحياة، وأداء الزكاة، وصلة الرحم، والإنفاق في المحتاجين، ولا يمكن المرء من كلّ ذلك إلاّ رزق يحصله من دأبه، يقول الإمام: «من لم يكن فيه خصلة من ثلاث لم يعد نبيلاً: من لم يكن له عقل يزينه، أو جدّة تعينه، أو عشيرة تقصده»^٥.

والصحابية العظماء كانوا يعملون ليعيشوا، وما أكثر ما عمل علي ليعيش، وهو تراث أهل

١. الكافي: ج ٢ ص ٢٣٥، الخصال: ص ٣٥٢، شرح أصول الكافي: ج ٩ ص ١٦٤، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ١٨٩، بحار الأنوار: ج ٦٤ ص ٢٩٣، وفيها جميعاً: «وصحّت سريرته» بدل «ووضحت سريرته».

٢. الكافي: ج ٢ ص ٢٤١، شرح أصول الكافي: ج ٩ ص ١٨١، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ١٩٣، بحار الأنوار: ج ٦٤ ص ٣٦٢، وفي رواية أخرى في الكافي: «لا يلدغ» بدل «لا يلسع» واللسع واللدغ سواء. والبحر: هو ثقب الحية، وهو استعارة هنا. أي لا يدهي المؤمن من جهة واحدة مرتين، فإنه في الأولى يعتبر.

٣. الكافي: ج ٥ ص ٨١، كتاب التمهيص للاسكافي: ص ٥٤، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ٣٢٢، وسائل الشيعة، ج ١٧ ص ٤٨، بحار الأنوار: ج ١٠٠ ص ٣٦ و٣٣، منتهى المطلب: ج ٢ ص ١٠٣٠، تذكرة الفقهاء: ج ١ ص ٥٨١ مع تفسير طفيف.

٤. عوائد الأيام للنراقبي: ص ٢١٧، الكافي: ج ٤ ص ٥٣، من لا يحضره الفقيه، ج ٣ ص ١٧٤، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ٦٤ و٢١ ص ٥٥٢.

٥. تحف العقول: ص ٣١٦، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٢٩، وفيهما: «جدّة تغنيه» و«عشيرة تعضده» والتبيل: هو ذو النجابة، والجدّة: مصدر وجد يجد، وهي الغنى والقدرة.

البيت الذين لا يضيِّعون الزمان سدىً، يقول الإمام: «الأيام ثلاثة: يوم مضى لا يُدرك، ويوم الناس فيه فينبغي أن يعتنموه، وغد في أيديهم أمله»^١ وما الاغتنام إلا بالعمل الصالح للنفس وللناس. أمّا من قعد يلتمس عطاء الآخرين فيده هي السفلى، ومثله مثل القاعد عن العبادة، أو كالذي ينتظر الذهب والفضة تساقطان من السماء، يقول عن القاعدين: «الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر»^٢.

والشيعة في كل مجتمعاتهم يدأبون كدأب آبائهم أو أشدّ، ويتقلّبون في البلاد بتجاراتهم، كهينة ما كانوا يتقلّبون في الأيام الأولى، مع إلزام صاحب المال المسؤولية عن طريقة كسب وأبواب إنفاقه، يقول يحيى بن معاذ^٣: «مصيبتان لم يسمع بمثلهما في الأولين والآخريين للعيد في ماله عند موته: يؤخذ منه كلّهُ، ويُسأل عنه كلّهُ»^٤.

وهم إلى جوار إيجابهم العمل يوجبون الاستقلال فيه، وعدالة توزيع الرزق منه، فلا يجوّزون الشركة المطلقة بين اثنين في كل نشاطهما، وشرط الشركة وجود رأس المال، وهم يسمّون الشركة بدونه «شركة أبدان»^٥ ولا يصحّحونها، لأنّ كل إنسان مستقلّ بجهدِهِ، ومنافع جهده له، فإذا أخذ من الآخر أخذ ما لا يستحقّ، وفي هذا حصّ على الاستقلال الشخصي، والسعي الخاصّ، حتّى لا يكون أحد كلاً على غيره. وكمثلهم الشافعي لا يجوّز هذه الشركة^٦، فكلّ ما سعى.

١. تحف العقول: ص ٣٢٤، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٣٨، وفيهما: «وغداً إنّما في أيديهم أمله».

٢. من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٤١٦، وسائل الشيعة: ج ٧ ص ١٤٥، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٠٨. وقد ورد هذا الحديث عن رسول الله ﷺ أيضاً، راجع: الدعوات للراوندي: ص ١٩، مستدرک الوسائل: ج ٥ ص ٢١٧، بحار الأنوار: ج ٩٠ ص ٣١٢ وغيرها، وعن علي بن أبي طالب عليه السلام أيضاً انظر: نهج البلاغة: ج ٤ ص ٧٩، تحف العقول: ص ١١١، النخصال: ص ٦٢١، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٩٠.

٣. يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي: أبو زكريا، واعظ، زاهد، لم يكن له نظير في وقته، من أهل الري، أقام ببلخ، ومات في نيسابور سنة ٢٥٨ هـ. (الأعلام: ج ٨ ص ١٧٢).

٤. جامع السعادات: ج ٢ ص ٣٨، وقد عبّر عنه «قال بعض الأكابر».

٥. قال الطوسي في الخلاف: ج ٣ ص ٣٣٠: شركة الأبدان عندنا باطلة، وهي أن يشترك الصانعان على أن ما يرتفع لهما من كسبهما فهو بينهما على حسب شرطهما، سواء كانا متقفي الصنعة كالتنجارين والخبازين، أو مختلفي الصنعة كالتنجار والخباز، وبه قال الشافعي.

٦. راجع المجموع: ج ١٤ ص ٧٢، الوجيز، ج ١ ص ١٨٧، كفاية الأخيار: ج ١ ص ١٧٣، مغني المحتاج: ج ٢

وهم أعداء للتواكل، جاء أمير المؤمنين علياً العلاء الحارثي^١ فقال: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصماً، لبس العباءة وتخلّص من الدنيا، قال: عليّ به، فلمّا جاء قال: «يا عدوّ نفسه، لقد استهّام بك الخبيث (الشیطان)، أما رحمت أهلك وولدك، أترى الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها: أنت أهون على الله من ذلك؟» قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك! قال: «ويحك، إني لست كأنت، إنّ الله قد فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس»^٢.

ولكم كان رقيقاً صاحب هذا الملبس الخشن إذا عامل الضعفاء... ولو كانوا غير ناس، أو كانوا من الأعداء: «كان يوصي من في يده إبل الصدقة ألاّ يحول بين ناقه وفصيلها، وأن لا يبالغ في حلبها خشية أن يضرّ ذلك بولدها، وأن لا يركب ناقه ويدع غيرها، بل يسوّي في الركوب بينها وبين صاحباتها»^٣.

ولمّا حال بينه وبين الماء جند معاوية حاربهم عليه فأجلاهم عنه، ثم سقاهاهم منه! ليسوّيهم في الماء بجنده^٤!

المضطرب بماله والمترقّق^٥، بيده أو التجارة والصناعة

إذا كانت الحضارة الغربية لم تفتن إلى أنّ العمل أداة الإنتاج الأولى إلّا في العصور الأخيرة، فلقد طالما أعلنت ذلك السماء، والعمل التجاري أو اليدوي ميراث الأنبياء، ومن

→ ص ٢١٢، السراج الوهاج: ص ٢٤٤ - ٢٤٥، فتح العزيز: ج ١٠ ص ٤١٤، المغني لابن قدامة: ج ٥ ص ١١١، الشرح الكبير، ج ٥ ص ١٨٦، بداية المجتهد: ج ٢ ص ٢٥٢، المبسوط: ج ١١ ص ١٥٤، المحلّي: ج ٨ ص ١٢٣، سبل السلام: ج ٣ ص ٨٩٣.

١. لا يوجد رجل بهذا الاسم، ولعلّه كما قال ابن أبي الحديد في شرح الكلام: ج ١١ ص ٣٥: إنّه الربيع بن زياد الحارثي. وكذا في البحار: ج ٤٢ ص ١٧٣ وج ٦٧ ص ١٢١.

٢. نهج البلاغة: ج ٢ ص ١٨٧ وفيها: «تخلّى عن الدنيا»، مستدرك الوسائل: ج ٣ ص ٣١٥، بحار الأنوار: ج ٤٠ ص ٣٣٦ وج ٦٧ ص ١١٨ وج ٧٣ ص ١٥٥، المعيار والموازنة: ص ٢٤٣.

٣. لاحظ هذه الوصايا في المقنعة للمفيد: ص ٢٥٦، ومستدرك الوسائل: ج ٧ ص ٦٩، والغارات: ج ١ ص ١٢٨.

٤. انظر: وقعة صفين لابن مزاحم المنقري: ص ١٦٢، بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٤٤٠، شرح نهج البلاغة: ج ٣ ص ٣١٩، تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٥٦٩.

٥. هذا مصطلحان ذكرهما الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك، راجع: نهج البلاغة ج ٣ ص ٩٩، تحف العقول: ص ١٤٠، بحار الأنوار: ج ٧٤ ص ٢٥٦.

عمل الصحابة تعلّم الناس جلال قدر المضطرب بماله أو المترفق بيده أو بيدنه، كما يعبر أمير المؤمنين^١.

والصادق يمسك المسحاة ويعمل في بستان له، وحبّات العرق تنساب كالبلّور المذاب على الجبين المزهر! فيهب به تابع له: جعلت فداك، أعطني المسحاة أكفك، فيجيبه: «إني أحبّ أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة»^٢ وكان عندئذٍ يلبس قميصاً، ويفتح الماء بالمسحاة ويقول: «إني لأعمل في بعض ضياعي ولي ما يكفيني، ليعلم الله عزّ وجلّ أنّي أطلب الرزق الحلال»^٣.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يتناوب ركوب راحلته، ويقول لزميليه في السفر: علي وأبي لبابة^٤ حينما أرادا أن يستمر راكباً في نوبتهما: «ما أنتما بأقوى على المشي مني، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما»^٥ وكان ينزل عن بغلته ليركب من يأخذ بزمامها معه. ويقول لمن يريد حمل شيء بدلاً منه: «صاحب الشيء أولى بحمله»^٦.

أما أمير المؤمنين علي فيحمل لأهله التمر والبلح في ثوبه ويقول:

لا ينقص الكامل من كماله ما جرّ من نفعٍ إلى عياله^٧

١. هذا مصطلحان ذكرهما الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك. راجع: نهج البلاغة ج ٣ ص ٩٩، تحف العقول: ص ١٤٠، بحار الأنوار: ج ٧٤ ص ٢٥٦.
٢. الكافي: ج ٥ ص ٧٦، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ٣٩، عوالي اللئالي: ج ٣ ص ١٩٣، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٥٧، مستدرک سفينة البحار: ج ١ ص ٤٧٢ و ج ٣ ص ١٨٥.
٣. الكافي: ج ٥ ص ٧٧، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ٣٩.
٤. هو بشير بن عبد المنذر، وقيل: رفاعة، وهو بكنيته أشهر. سار مع رسول الله يريد بدرأ فردّه من الروحاء واستخلفه على المدينة، وضرب له بسهمه وأجره، فكان كمن شهدها. (أسد الغابة: ج ١ ص ١٩٥). وقال الطوسي في رجاله ص ٢٧: «شهد بدرأ والعقبة الأخيرة». وقال ابن حجر في التهذيب: ج ٢ ص ٤٥٩: «المدني، اسمه بشير، وقيل: رفاعة بن عبد العنذر، صحابي مشهور، وكان أحد التقباء، وعاش إلى خلافة علي».
٥. مسند أبي داود الطيالسي: ص ٤٧، كنز العمال: ج ١٠ ص ٣٧٦، الطبقات الكبرى: ج ٢ ص ٢١.
٦. هذا تعبير عامي مشهور على الألسن ولا يوجد حديث للنبي بهذا اللفظ. ورد بمعناه عندما طلب أبوهريرة من النبي حمل شيء عنه قال عليه السلام: «صاحب الشيء أحقّ بشيئه أن يحمله، إلا أن يكون ضعيفاً فيعجز عنه فيعينه أخوه المسلم». مجمع الزوائد: ج ٥ ص ١٢٢، مواهب الجليل: ج ٨ ص ١٦٤، نيل الأوطار: ج ٢ ص ١٠٣، حاشية السندي على النسائي: ج ٧ ص ٢٨٤، مسند أبي يعلى: ج ١١ ص ٢٥، المعجم الأوسط: ج ٦ ص ٣٥٠، الجامع الصغير: ج ٢ ص ٩١، كنز العمال: ج ٣ ص ١١١، فيض القدير: ج ٤ ص ٢٤٩، كشف الخفاء: ج ٢ ص ١٩.
٧. مناقب آل أبي طالب: ج ١ ص ٣٧٢، حلية الأبرار: ج ٢ ص ٢٦٠، بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٥٤، وفيها جميعاً

ويروي علي: «أن الزهراء أجرت الرحي حتى أثرت الرحي بيدها، وقمت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت القدر حتى اسودت ثيابها وأصابها من ذلك ضرراً».

ويقول عطاء: «إن كانت فاطمة لتعجن حتى أن قصتها لتصيب الجفنة»^٢.

وأى عظمة في الدنيا كعظمة اليد العليا، وهي تعمل لبناية الدنيا فتعطي. لقد قبّل رسول الله اليد التي تحمل المسحاة يوم أقيّل من تيوك، فلقبه سعد الأنصاري فنظر إلى يد سعد وقال: «ما هذا الذي أكتب يديك؟» فقال: يا رسول الله، أضرب بالمرّ والمسحاة فأنفقه على عيالي، فقبّل رسول الله يده وقال: «هذه يد لا تمسّها النار»^٣.

ولمّا أعطى الرسول اليد العاملة أماناً من النار، جعل العمل عبادةً، وإن ورد النصّ على العمل البدني، فما هي إلا إشارة لكلّ عمل، وهو عليه الصلاة والسلام القائل: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي الجبل فيجزيه بحزمة حطبٍ على ظهره فيبيعها ويستغني، خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه»^٤.

وهو عليه الصلاة والسلام وعلى آله ينبّه على قيمة الوقت، والالتزام بالواجب، البدء بالعمل النافع، فيقول: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها، وإن استطاع ألاّ تقوم الساعة حتى يغرسها، فليغرسها»^٥.

→ يحمل: «التمر والمالح» لا «البالح». والمالح: هو السمك المقدود المملح كما نقل عن القيومي في المصباح: ج ٢ ص ١٢٣، وفي بعضها: «التمر والملح».

ونقلها الخطيب البغدادي في تاريخه: ج ٣ ص ٢٣ عن محمد بن كناسة: «وكان يحمل بيده بطن شاة».

١. من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ٣٢٠ و ٣٢١، علل الشرائع: ج ٢ ص ٣٦٦، مكارم الأخلاق: ص ٢٨٠، ذخائر العقبى: ص ٥٠، مسند أحمد: ج ١ ص ١٥٣، سنن أبي داود: ج ٢ ص ٢٩، ٤٨٩ و ٤٩٠، فتح الباري: ج ١١ ص ١٠١، كتاب الدعاء للطبراني: ص ٩٥، كنز العمال: ج ١٥ ص ٥٠٨، تهذيب الكمال: ج ٢٠ ص ٣٢٢، وزاد بعضهم أموراً أخرى غير ما ذكره المؤلف.

٢. ذخائر العقبى: ص ٥١، والقصة: منتهى شعر الرأس حيث يؤخذ بالمقصّ (لسان العرب: ج ٧ ص ٧٣)، والجفنة: القصعة بل هي أعظم القصاع (الصحاح: ج ٤ ص ١٢٨٤).

٣. تاريخ بغداد: ج ٧ ص ٣٥٤، الموضوعات لابن الجوزي: ج ٢ ص ٢٥١، أسد الغابة: ج ٢ ص ٢٦٩.

٤. مواهب الجليل: ج ٦ ص ١١، سبل السلام: ج ٢ ص ١٤٤، شرح أصول الكافي: ج ١ ص ١٩١، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٤٤٣، مسند أحمد: ج ١ ص ١٦٧ و ج ٢ ص ٤٥٥، صحيح البخاري: ج ٢ ص ١٢٩.

٥. فيض القدير: ج ٢ ص ١٦، مستدرک الوسائل: ج ١٣ ص ٤٦٠، مجمع الزوائد: ج ٤ ص ٦٣، مسند أبي داود: ص ٢٧٥، منتخب مسند عبد بن حميد: ص ٣٦٦، الأدب المفرد للبخاري: ص ١٠٦، الجامع الصغير: ج ١ ص ٤٠٩، كنز العمال: ج ٣ ص ٨٩٢ و ج ١٢ ص ٣٤١، الكامل: ج ٥ ص ٣٨.

وأَيّ جلال كجلال رسول الله وهو يعمل بيده، من أجل تحرير شيخ من أشياخ الشيعة العظام، ليحفظ الشيعة لأنفسهم وللدنيا معهم، ذلك الدرس العظيم: أنّ العمل والحرية صنوان، وأنّ كلّاً منهما وسيلة للآخر.

أرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب إلى «خُلَيْسَةَ» مولاة سلمان الفارسي، وكانت قد اشترته بثلاثمائة درهم من أعراب حملوه إلى يثرب، ومكث معها ستة عشر شهراً حتّى قدم النبي يثرب، فسَمَّيت المدينة، فأتاه سلمان، فأرسل النبي علياً إلى خُلَيْسَةَ بعد إذ أسلمت، لتعتق سلمان، قالت: قل للنبي: إن شئت أعتقته، وإن شئت فهو لك، قال صلى الله عليه وسلم: «أعتقيه أنت» فأعتقته، فغرس له رسول الله ثلاثمائة فسيلة^١.

وكان عليه الصلاة والسلام يقول^٢: «سلمان منّا أهل البيت»^٣.
ومع أنّ الإمام الصادق يرى إنفاق المال في البرّ تجارةً مربحةً، فيقول: «إني لأملق أحياناً

١. أسد الغابة: ج ٥ ص ٤٤٠، سير أعلام النبلاء: ج ١ ص ٥١٩، الإصابة: ج ٨ ص ١٠٧ برقم ٣٤٩، تاريخ الخميس: ج ١ ص ٤٦٩.

٢. قد خرّجنا قول النبي ﷺ سابقاً.

٣. أضافه النبي إلى أهل البيت فضلاً من النبي في تنازع المهاجرين والأنصار عليه، إذ كان كلّ من الفريقين يريدُه واحداً منهم.

وكان سلمان في انتسابه لأهل البيت حيث أراد صاحبه ﷺ، فهو صاحب الرأي بحفر الخندق في يوم غزوة الخندق (الأحزاب)، وعلي هو الذي قتل عمرو بن عبدود فارس العرب يوم ذلك، فلأهل البيت في هذه المعركة القدر المعلى.

وكان حكيماً، إذا خلا به رسول الله لم يبع أحداً غيره، عيَّنه عمر أميراً على المدائن عاصمة فارس، فكان يوزّع عطاءه على الناس (خمسة آلاف درهم) ويعمل الخوص بيده ويبيعه بثلاثة دراهم، ينفق واحداً ويتصدّق بواحد ويشترى خوصاً جديداً بواحد! وذات يوم دخلوا عليه دار الإمارة فوجدوه يعجن بيده، قال: بعننا الخادم في عمل فكرهنا أن نجعل عليه عمليين!

رأه رجل قادماً من الشام فحسبه من ضخامة جسمه حملاً، فأعطاه حملاً وقال: اتبعني، فحمله وتبعه! ورآه الناس فتسارعوا يحملون حمل الأمير، قال: لا.... فرجاه الرجل إذ أدرك مقامه، فأبى وقال: لا حتّى أبلغ منزلك، وثمّة وضع الحمل في مكانه وقال: إني احتسبت بما صنعت خصالاً ثلاثة: أنّي نفيت عني الكبر، وأعتت رجلاً من المسلمين على حاجته، وإن لم تسخرني سخرت من هو أضعف منّي فوقيته بنفسي.

فهو يحمل الحمل عن رجل ضعيف، ولا يخزي صاحب الحمل بتعريف نفسه، وينفي عنها الكبر وهو أمير فارس! لكنّه يحفظ وصيّة صاحبه ﷺ فيقول: أوصاني خليلي ألا يكون متاعني من الدنيا إلا كزاد الركب. وحسبه قول أمير المؤمنين علي عنه: «من لكم بمثل لقمان الحكيم» (منه).

فأتاجر مع الله بالصدقة، فيريحني وأتسع^١ أي أنه يوجب الإنفاق في حالي اليسر والإملاق، ويرى علاجاً للفقير أن يتعامل مع الله بعطائه للفقراء. فهو في الوقت ذاته يشجع الناس على العمل.

والمجتمع الشيعي مجتمع العاملين، لا يتسع للمتسولين، والإمام الصادق - من جراء ذلك - يؤثر عطاء الذين لا يسألون الناس على الذين يسألون.

ولو قام أهل الإسلام بواجب الإنفاق لما افتقر مسلم واحد، فالعمل بكل أموال الأمة يجعل الحبة الواحدة مائة حبة، ذلك تقدير العزيز الحكيم في تشريعه^٢، والصدقة تربي^٣ أو على الأقل لا تنقص، يقول عليه الصلاة والسلام: «ما نقصت صدقة من مال»^٤ بل يقول: «إنما ترزقون بضعفائكم»^٥.

والعمل في الصناعة والتجارة مدرسة الدنيا، ووسيلة لعمارتها بالكسب الحلال، وأداء حق المال، وهو محل إكبار المسلمين أجمعين، يترأى في كثير من أسماء جلّة الفقهاء^٦.

١. بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٠٦، كشف الغمة: ج ٢ ص ٤٢٣، وأملق الرجل: أنفق حاله حتى قلّ. وفيهما: «فأتاجر الله بالصدقة».

٢. إشارة لقوله تعالى: «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم» سورة البقرة: ٢٦٦.

٣. إشارة لقوله تعالى: «يمحق الله الربا ويربي الصدقات» سورة البقرة: ٢٧٦.

٤. المجموع: ج ١ ص ٣١، وج ٦ ص ٢٤٤، الموطأ: ج ٢ ص ١٠٠٠، سبل السلام: ج ٤ ص ٢٠٨، شرح أصول الكافي: ج ٨ ص ٣٤٠، منية المرید: ص ١٩٣، مسند أحمد: ج ٢ ص ٢٣٥، سنن الدارمي: ج ١ ص ٣٩٦، صحيح مسلم: ج ٨ ص ٢١.

٥. الحديث هو: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم» مسند أحمد: ج ١ ص ١٧٣ و ج ٥ ص ١٩٨، سنن الدارمي: ج ١ ص ١٠٣، سنن أبي داود: ج ١ ص ٥٨٤، سنن الترمذي: ج ٣ ص ١٢٣.

وأمّا كتب الشيعة فقد بيّنت هؤلاء الضعفاء على نحو القضية الخارجية، فقد جاء في الكافي: ج ٢ ص ٢٤٤: «ضاقَت الأرض بسبعة بهم تُرزقون، وبهم تُنصرون، وبهم تُمطرون، منهم: سلمان الفارسي، والمقداد، وأبوذر، وعمار، وحذيفة رحمهم الله» وكان علي يقول: «وأنا امامهم» وهم الذين صلّوا على فاطمة.

٦. أطلقت الأوصاف من كثير من الحرف على عظماء الفقهاء الذين يحترفونها: الخصاف، القدوري، الكرابيس، القفال، الصابوني، الحلواني، النعالي، البقالي، الصفار، الجصاص، الثباني... الخ، وقد عمل أئمة أهل السنة الأربعة، وعمل الصحابة والتابعون.

والصادق هو القائل: «الشاخص في طلب الحلال كالمجاهد في سبيل الله»^١ والقائل: «أنتي لأرى الرجل فيعجبني فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني»^٢. ويقول الإمام الباقر: «الصدقة لا تحل لمحترف، ولا لذي مرّة سوي»^٣. فالمحترف غني بحرفته، وذو القوة غني باقتداره على العمل.

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «ملعون من أتقى كَلَه على الناس»^٤. سأل إبراهيم بن أدهم^٥ (١٦٢) تلميذه شقيق البلخي^٦ (١٩٥) وهما الزاهدان الشهيران: ما

→ ومن علماء الشيعة نصر بن مزاحم (مؤلف كتاب صفين) وداود بن أبي يزيد. وداود بن سرحان: كانوا عطارين، وميثم التمار يبيع التمر، ومؤمن الطاق وخالد بن سعيد ومحمد بن خالد وصبيح بن أبي الصباح كانوا صيارفة، والشيخ آدم كان يبيع اللؤلؤ، ورفاعة بن موسى كان نحاساً، وابن حدير كان طحاناً، وعبد الله بن ميمون كان قدأحاً بيري القداح (منه).

١. لم أجد نصاً بهذا اللفظ، ولكن ورد بألفاظ متعدّدة تؤدّي المعنى نفسه، منها: «الكاد على عياله (من حلال) كالمجاهد في سبيل الله» راجع: الكافي: ج ٥ ص ٨٨، بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣٢٤، من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ١٦٨، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ٦٧، مستدرک الوسائل: ج ٧ ص ٣٧٨، الهداية: ص ٦٠، فقه الإمام الرضا: ص ٢٠٨.

٢. لم أجدّه عن الصادق عليه السلام، بل عن النبي ﷺ تارة، لاحظ: مستدرک الوسائل: ج ١٣ ص ١١، مستدرک سفينة البحار: ج ٢ ص ٣٧٧، جامع الأخبار: ص ٣٩٠، درر الأخبار: ص ٧٠٤، لسان العرب: ج ٩ ص ٤٤. وعن عمر أخرى، انظر: كنز العمال: ج ٤ ص ١٢٣، فيض القدير: ج ٢ ص ٣٧٢، غريب الحديث: ج ١ ص ٣٢١، النهاية في غريب الحديث: ج ١ ص ٣٥٦.

٣. الكافي: ج ٣ ص ٥٦٠، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٣٢١ و ٢٣٣، بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٦٦، والمرّة: القوة، والسويّ: من اعتدل خلقته.

٤. الكافي: ج ٤ ص ١٢، وج ٥ ص ٧٢، من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٦٨، تحف العقول: ص ٣٧، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ٣٢٧، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ٣٢، بحار الأنوار: ج ٧٤ ص ١٤٠، وفي بعضها: «ملعون ملعون» والكلّ: هو الثقل، أي: قوته وقوت عياله على الناس.

٥. إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي: أبو إسحاق، زاهد مشهور، كان أبوه من أهل الغنى في بلخ، فتفقّه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز، وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة.

كان يعيش من العمل في الحصاد وحفظ البساتين والحمل والطنح، ويشترك مع الغزاة في قتال الروم...، كان يلبس في الشتاء فرواً لا قميص تحته، ولا يتعمّم في الصيف ولا يحتدي، يصوم في السفر والإقامة، وينطق بالعربية الفصحى فلا يلحن، والراجح أنه مات ودفن في (سوقتن) حصن من بلاد الروم سنة ١٦٢ هـ (الأعلام: ج ١ ص ٣١).

٦. شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي: أبو علي، زاهد صوفي، من مشاهير المشايخ في خراسان، ولعلّه

بدء أمرك الذي أبلغك هذا؟ قال شقيق: مررت ببعض الفلوات فرأيت طائراً مكسور الجناحين في فلاة من الأرض، فقلت: أنظر من أين يُرزق هذا، فقعدت بحذائه: فإذا بطيرٍ أقبل وفي منقاره جرادة فوضعهما في منقار الطير مكسور الجناحين، فقلت في نفسي: إن الذي قيض هذا لهذا قادر أن يرزقني حيث كنت، فتركت التكتسب واشتغلت بالعبادة.

قال إبراهيم: ولم لا تكون أنت الطير الصحيح الذي أطعم الطير العليل حتى تكون أفضل منه؟ أما سمعت عن النبي ﷺ: «أنَّ اليد العليا خير من اليد السفلى»^١.

وخرج الإمام الصادق يسمي للرزق في يومٍ صائفٍ شديد الحرِّ، فقالوا: يا ابن رسول الله، هذه حالك عند الله عزَّ وجلَّ، وقرابتك من رسول الله، وأنت تجهد نفسك في هذا اليوم! فقال لمن حدَّته: «خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك»^٢.

ولمَّا أخبروه يوماً عن رجلٍ يقول: لأقعدنَّ ولأصلينَّ ولأعبدنَّ الله، قال: «هذا أحد الذين لا يُستجاب لهم»^٣.



ولا بأس أن يجد العامل في عمله بعض مشقَّة، فما هي إلَّا زيادة في الفضيلة فيه، أو الهناءة به.

جاءه من يرجوه ليدعو الله إلَّا يجعل رزقه على أيدي العباد، فأجابه: «أبى الله عليك ذلك، ألى الله إلَّا أن يجعل رزق العباد بعضهم من بعض، ولكن ادع الله أن يجعل رزقك على

→ أول من تكلم في علوم الأحوال (الصوفية) بكوز خراسان. كان من كبار المجاهدين، استشهد في غزوة (كولان) بما وراء النهر سنة ١٩٤ هـ. (الأعلام: ج ٣ ص ١٧١).

١. تاريخ مدينة دمشق: ج ٢٣ ص ١٣٥، لسان الميزان: ج ٣ ص ١٥٢.

وحديث النبي خرَّجه صحيح البخاري: ج ٢ ص ١١٧ و ١٣٠، صحيح مسلم: ج ٣ ص ٩٤، سنن أبي داود: ج ١ ص ٣٧٢، سنن الترمذي: ج ٢ ص ٩٤، من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٣٧٦، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٣٧٨.

٢. الكافي: ج ٥ ص ٧٤، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ٣٢٥، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٥٥، تفسير نور الثقلين: ج ٥ ص ١٣٥، تفسير الميزان: ج ١٠ ص ١٧٩، والمستفهم هو عبد الأعلى مولى آل سام.

٣. الكافي: ج ٥ ص ٧٧، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ٣٢٣، وسائل الشيعة: ج ٧ ص ١٢٥، مستطرفات السرائر: ص ٦٣٤، عدَّة الداعي: ص ٨٢، بحار الأنوار: ج ٨٦ ص ٢٩.

وأما الاثنان الآخران فرجل عنده أمرأته يدعو عليها فلا يُستجاب له لأنَّ عصمتها بيده، ورجل له حقٌّ على غيره فلم يشهد عليه وجده ذلك.

أيدي خيار خلقه فإنه من السعادة، ولا يجعله على أيدي شرار خلقه فإنه من الشقاوة»^١.
والصادق بهذا التنبيه يلفت النظر إلى أنّ التعامل يقتضي وجود طرفين، والسعيد من صلح طرفه الآخر، وهو فوق ذلك يكمل نقصاً لدى كثير من الصالحين الذين يفوتهم أن خوض الغمرات للرزق، مع النجاة من ارتكاب الإثم في تحصيله، درجة أعلى في الفضل، بل هو يبصرهم بالمكروه الذي يلقاه الناس إذ يبتغون غضارة العيش أو نضارة الحياة، يقول: «ليس من أحدٍ وإن ساعدته الدنيا بمستخلص غضارة عيشٍ إلا من خلال مكروه»^٢. والغضارة: نضارة ووضاءة وصلاح بال، لا يمكن أن تكون بمعدي عن المكاره، ومنها الإيجابي الذي يستوجب النضال، ومنها سلبي، يتراءى فيما يفقده المرء من ذات نفسه بإضعاف قدرته على التحمّل، أو منعها من العمل، أو مصير ذاته إلى الترهّل. ومنها ما يتقاضاه الناس من أعراض الناضرين إذ يمسون أغراضاً لسهام الكلام.

وإنما ينصّر الله عبداً سمع مقال الرسول ووعاه^٣ أسلوباً في الحياة، وما هو إلا الجِدّ وأداء الواجب، والاقتصاد في مظاهر الرفاه وهو أقوم وأسلم.

وينصّر الإمام وجه العمل ذاته ليزيد العامل قوةً، ويزيد الأداء أناةً، وصلات المتعاملين وثاقةً، حيث يقول: «كلّ ذي صناعة مضطرّ إلى ثلاث خصال يجتلب بها الكسب: أن يكون حاذقاً بعمله، مؤدياً للأمانة، مستمياً لمن استعمله»^٤.

ولمّا ختم الخصال الثلاثة بالاستمالة كان يوجّه من استعمل غيره أو استعمله غيره؛ ليدخل قلب عميله في حسابه. فهذا درس إسلامي اجتماعي في المحبّة، مثلما أنّه درس اقتصادي في إحسان الصناعة، ووثاقة العلاقة، ولباقة الأخذ، ولباقة العطاء، والحياة كلّها أخذ وعطاء.

١. تحف العقول: ص ٣٦٢، مشكاة الأنوار: ص ٢٢٤، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٤٤، درر الأخبار: ص ٥٤٦.
٢. تحف العقول ص ٣٨١، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٨٦. والغضارة بالفتح: طيب العيش. ولعلّ المراد: أن النيل بغضارة العيش لكل أحد لا تحصل إلا بعد التعب والمشقة.
٣. إشارة لقوله ﷺ: «نصّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ثم أدأها إلى من لم يسمعها» مستند أحمد: ج ٤ ص ٨٠، سنن الدارمي: ج ١ ص ٧٥، سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٨٦، الكافي: ج ١ ص ٤٠٣، الخصال: ص ١٤٩، وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٨٩، بحار الأنوار: ج ٢ ص ١٤٨.
٤. تحف العقول: ص ٢٢، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٣٦، مستدرک سفينة البحار: ج ٩ ص ١١٢ و ج ٦ ص ٣٨١. ومستمياً: أي عطوفاً.

التجارة

روى المعلّى بن خنيس تابع الإمام^١: رأني أبو عبد الله وقد تأخرت عن السوق، فقال: «اغد إلى عزك»^٢ قال معاذ^٣: قلت لأبي عبد الله: هممت أن أدع السوق، قال: «يسقط رأيك، ولا يستعان بك على شيء»^٤.

وقال لمن ترك التجارة: «لا تركها، فإن تركها مذهبة للعقل، إسع على عيالك، وإياك أن يكونوا هم السعاة عليكم»^٥.

وسأل عن تلميذ له: «ما حبسه عن الحج؟» فقيل: قلّ شيء، فاستوى جالساً - وكان متكئاً - وقال: «لا تدعوا التجارة فتهونوا»^٦.

وكسب المال من حلّه وإنفاقه في محلّه واجبان على المسلم، والتجارة ممارسة وتعامل، أي: مران على الشؤون العامة والخاصة. والتاجر أعلى عيناً بالأمر، وأقدر على مد يد العون

١. قتله داود بن علي - أمير المدينة لأبي جعفر المنصور - وصار ما تحت يديه من أموال. كانت أموال الإمام الصادق^{عليه السلام}، في نوبة من نوبات البطش التي اجتاحت المدينة وأهل البيت، بتهمة أنه لم يدلّ داود على اثنين من العلويين كان يبحث عنهما، وقصد الإمام إلى دار الإمارة يصيح في وجه داود بل يهدّده: «قتلت مولاي وأخذت مالي... أما علمت أن الرجل لا ينام على الحرب؟» فتنصل داود من المسؤولية وأمر بقتل القاتل، فصاح هذا الأخير: يأمروني بقتل الناس، فإذا أمرت بقتلهم قتلوني! (منه).

٢. من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ١٩٢، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ١٠، الحدائق الناضرة: ج ١٨ ص ٥.

٣. هو معاذ بن مسلم - وقيل: ابن كثير - بن أبي سارة الهراء - وقيل: الفراء - بياع الأكسية - وقيل: بياع الكرابيس، الأنصاري بالولاء. من ثقات محدثي الإمامية الممدوحين، ومن شيوخ أصحاب الإمام الصادق^{عليه السلام} وخاصته وبطانته، ومن الفقهاء الرواة الصالحين. كان من أئمة النحو، وأول من وضع علم التصريف، وكان أديباً شاعراً، ألف كتباً في النحو، تخرّج عليه جماعة من العلماء كالكسائي وغيره، توفّي ببغداد سنة ١٨٧ هـ، وقيل: سنة ١٩٠ هـ. (أصحاب الإمام الصادق للشيبستري: ج ٣ ص ٢٦١).

٤. الكافي: ج ٥ ص ١٤٩، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ٣٢٩، وج ٧ ص ٣، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ١٥، منتهى المطلب: ج ٢ ص ٩٩٩، تذكرة الفقهاء: ج ١ ص ٥٨١، وفيها جميعاً بعد «أدع السوق» قوله: «وفي يدي شيء». ومعنى كلام الإمام الصادق^{عليه السلام}: أي ينقص عقلك، ولا يرجع الناس إليك في تدبير أمورهم، ولا يشاورونك في إصلاح أمورهم، فصرت حقيراً في أعين الناس، وعارياً عن الاعتبار.

٥. المقنع للصدوق: ص ٣٦٣، منتهى المطلب: ج ٢ ص ٩٩٩، الكافي: ج ٥ ص ١٤٩، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ١٤.

٦. الكافي: ج ٥ ص ١٤٩، تهذيب الأحكام: ج ٧ ص ٣، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ١٥، منتهى المطلب: ج ٢ ص ٩٩٩، وفيها جميعاً: «ترك التجارة وقلّ شيء»، وفي التهذيب: «قلّ سعيه».

للآخرين، وفي الاضطراب في الأسواق إثراء للجماعة، وتخطيط مشترك للمعاش، وهو قبل ذلك امتحان مستمر للنزاهة والبعد عن المحرمات.

وعناية الشيعة بتوضيح الحلال والحرام في التجارة ظاهرة في نصوص الفقه، فالمحرم مما يكتسب به أنواع^١:

- ١ - الأعيان النجسة؛ كالخمر.
 - ٢ - الآلات المحرمة؛ كآلات القمار.
 - ٣ - ما يقصد به المساعدة على المحرم؛ كبيع السلاح لأعداء الدين.
 - ٤ - ما لا ينتفع به؛ كالمسوخ.
 - ٥ - الأعمال المحرمة؛ كالفناء عدا المغنية لرف العرايس إذا لم تغنّ بالباطل ويدخل عليها الرجال، والنوح بالباطل، أما بالحقّ فجائز، وهجاء المؤمنين، وتعليم السحر والكهانة.
 - ٦ - الأجرة على القدر الواجب من تغسيل الأموات.
- ولا بأس بالرزق من بيت المال، وكذا على الأذان. أما جوائز الظالم فمحرمة إن علمت بعينها، والولاية من العادل جائزة، وربما وجبت، والولاية من الجائر محرمة، إلاّ مع الخوف، فلو تيقن التخلص من المأثم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استحيت.



وكما يعمل الإمام بيده ليتعلم الناس، يتجر بماله ليعلمهم دروساً في التجارة، بالتطبيق العملي الذي تشهده الملايين فتعلم، وهو أجدى عليها من أن تعطى ملايين تنفقها ولا تتعلم. دعا يوماً مولاه «مصادف» فأعطاه ألف دينار وقال له: «تجهّز حتّى تخرج إلى مصر، فإنّ عيالي قد كثروا»، فتجهّز بمتاع، وخرج مع التجار حتّى إذا دنوا من مصر، استقبلتهم غير خارجة منها، فسألوهم عن المتاع الذي يحملونه ما حاله في مصر، وما متاع العامة؟ فعلموا منهم أن ليس بمصر منه شيء، فتحالفوا على ألاّ ينقصوا من ربح دينار ديناراً...، ووسع عليهم في الربح. ثم فصلت العير عن مصر إلى المدينة بالكسب العميم، ودخل مصادف على مولاه ومعه كيسان في كلّ منهما ألف دينار، وقال: جعلت فداك، هذا رأس المال، وهذا الربح، قال الصادق: «إنّ هذا الربح كثير، ماذا صنعتم؟» فحدّثه كيف سألوا، وكيف توافقوا،

١. عقد الشيخ الأنصاري كتاباً كاملاً في المكاسب المحرمة، نقل فيه رأي الطائفة من أئمتها إلى علمائها، فراجع.

وكيف باعوا، قال الصادق: «سبحان الله، تحلفون بالله على قومٍ ألاّ تبعوا أو يريح الدينار ديناراً!» ثم أخذ واحداً من الكيسين فقال: «هذا رأس مالي، ولا حاجة لنا في الريح»، ثم قال: «يا مصادف، مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال»^١.

هكذا يورك لمصر في متاع الإمام، لكنّ الإمام لم يقبض درهماً من أموال مصر: أن قد أساء البيع الوكلاء مذ كانوا محتكرين، و «لا يحتكر إلاّ خاطئ»^٢. وهذا أول الدروس، وهي كثيرة، منها: أنّ زيادة الجهد واجبة عند كثرة العيال، وأنّ ترك ما فيه شبهة هو الحقّ، وأنّ النظر إلى الأمة كلّها واجب، وهو أوجب على العلماء والرعاة.

كان إذا جاع الناس صنع صنيع آباته، فأخذ جراباً فيه الخبز واللحم والدراهم على عاتقه، فذهب إلى ذوي الحاجات من أهل المدينة فقسمها فيهم وهم لا يعرفونه: حتّى إذا مات افتقدوه فعملوا أنّه «الإمام الصادق»^٣.

وما جاع قادر إلاّ ذكر البطون الخاوية.
وفي سعة أرزاق الحمقى عبرة للعقلاء، يقول الإمام: «إنّ الله تعالى وسّع أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء ويعلموا أنّ الدنيا لا ينال ما فيها بعمل ولا حيلة»^٤.

و «كم من طالبٍ للدنيا لم يدركها، ومدرك لها قد فارقتها، فلا يشغلنك طلبها عن عملك، والتمسها من معطيها ومالكها. فكم من حريصٍ على الدنيا قد صرعت...»^٥ ما الدنيا؟ «هل الدنيا إلاّ أكل أكلته، أو ثوب لبسته، أو مركب ركبته؟»^٦.

ولا تعاب القلّة وإنّما تعاب الرذيلة، ومنها التظاهر والإعلان الكاذب، والصدق صفة

١. الكافي: ج ٥ ص ١٦٢، تهذيب الأحكام: ج ٧ ص ١٤، وسائل الشيعة: ج ١٧ ص ٤٢٢، خاتمة المستدرک: ج ٥ ص ٢٦٢، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٥٩، ج ١٠٩ ص ١٠٩.

٢. المجموع للنووي: ج ١٣ ص ٤٤، مسند أحمد: ج ٦ ص ٤٠٠، سنن الدارمي: ج ٢ ص ٢٤٩، صحيح مسلم: ج ٥ ص ٥٦، سنن ابن ماجه: ج ٢ ص ٧٢٨، سنن أبي داود: ج ٢ ص ١٣٤، تذكرة الفقهاء: ج ٥ ص ٥٨٥.

٣. الكافي: ج ٤ ص ٨، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٣٩٩، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٣٨، منتقى الجمان ج ٢ ص ٤٥١.

٤. عوائد الأيام: ص ١٨٣، مستند الشيعة: ج ١٤ ص ١٨، كتاب التمهيص: ص ٥٣، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ٣٢٣.

٥. الكافي: ج ٢ ص ٤٥٥، شرح أصول الكافي: ج ١٠ ص ٢٠٧، مشكاة الأنوار: ص ٤٦٤.

٦. تحف العقول: ص ٣٧٧، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٦٢، عن الصادق عليه السلام، وفي البحار: ج ٧٥ ص ١٨٥، وتاريخ دمشق: ج ٥٤ ص ٢٨١، وسير أعلام النبلاء: ج ٤ ص ٤٥٠، وكشف الغمة: ج ٢ ص ٢٣٣، عن الباقر عليه السلام.

المتعاملين مع الله، والتقليل مع الصدق كثير، ومن ثمة بركات الله في النفس والعقل والمال للصادقين.

والصادق يعد بهذا كله في كلمته الجامعة: «من أراد الله بالقليل من عمله أظهر الله منه أكثر مما أراد»^١.

يقول لمن ساعد - بغير أجرٍ - في عملٍ لم يجد صاحبه مالاً ليكري من يساعده فيه: «أما أنك إن تساعد أخاك أحب إليّ من طواف أسبوع في البيت»^٢.

وترى من ذلك بروز «العمل الصالح» في أبواب العبادة، وتقديمه بين النوافل. والصادق يخصّص بعض ماله للإصلاح أيّاً كان وجهه.

تشاجر رجلان على ميراث، فمرّ بهما المفضل بن عمر - صاحب الإمام - فدعاهما إلى منزله، فأصلح بينهما بأربعمائة دينار من جيبه، حتّى إذا استوثق كلّ منهما من صاحبه، قال المفضل: إنّها ليست من مالي، إنّ الإمام أمرني إذا رأيت اثنين من أصحابنا يتنازعان أن أصلح بينهما من ماله^٣.

٢ - المال

هذه القوة الكبرى للإنتاج وهي العمل، تعاونها قوة أخرى هي المال، شريطة أن يستعمل، فإذا لم يستعمل تنقّصته الزكاة عاماً بعد عام حتّى تقضي عليه، ومن أجل ذلك صار مباحاً الاتجار في مال اليتيم لحسابه حتّى لا يأكله الزمن^٤. وإتّما يستعمل المال في التجارة وفي الصناعة والزراعة وسائر الوجوه، فلا يكتنز ولا يؤخذ عليه ربا، بل يتواصل المسلمون فيه بالمعروف.

١. المحاسن: ج ١ ص ٢٥٥، الكافي: ج ٢ ص ٢٩٦، وسائل الشيعة: ج ١ ص ٦٦، بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ٢٩٠ و ٢٩٩، مستدرک سفينة البحار: ج ٤ ص ٤٣.

٢. كتاب المؤمن للحسين بن سعيد: ص ٥٣، الكافي: ج ٢ ص ١٩٨، مصادقة الإخوان: ص ٧٠، وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٣٧٠، مستدرک الوسائل: ج ١٢ ص ٤١١، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٣٣٥.

٣. مستند الشيعة: ج ١٧ ص ١٢٧، الكافي: ج ٢ ص ٢٠٩، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ٣١٢، وسائل الشيعة: ج ١٨ ص ٤٤٠، خاتمة المستدرک: ج ٤ ص ٩٦، مناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ٣٩٤، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٥٨ و

ج ٧٣ ص ٤٥، درر الأخبار: ص ٥٢٢، معجم رجال الحديث: ج ١٩ ص ٢٢٧.

٤. راجع مصباح الفقاهة للسيد الخوئي: ج ٤ ص ٦١ فقد عقد بحثاً لذلك. الطبعة الثالثة مطبعة أمير - قم.

سئل الصادق: لِمَ حرّم الله الربا؟ وأجاب: «لثلاثا يمتنع الناس المعروف»^١. والمعروف مطلوب في العلاقات العادية والمالية وبين جميع المتعاملين، في القروض ونظرة الميسرة، أو المشاركة في مخاطر الاتجار أو الاستصناع، والمزارعة، والخدمات، وسواها، لتجري الأرزاق لهم من الله على أيديهم.

وأول الواجبات في المال أن يكون أداة تعميرٍ للدنيا باستثماره، وللأنفس بمشاركة المحتاجين إليه، سواء للعمل به أو للعيش منه، وألّا يكون وسيلة للاستعلاء وإنما وسيلة للتواصل، يتأدّى بها المسلم إلى العمل الصالح.

ومن الأوليات في هذه الواجبات: الاقتصاد والترقّق، يقول الإمام: «أَيّما أهل بيت أعطوا حظّهم من الرفق فقد وسّع الله عليهم في الرزق، والرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال، والرفق لا يعجز عن شيء، والتبذير لا يبقى معه شيء»^٢. وفي القليل كفاية مع القناعة، والكثير لا يفي مع السرف.

وفي المعنى ذاته يقول الصادق: «ضمنت لمن اقتصد ألا يفقر»^٣. وإنما يفقر من يتجاوز الحدود، ويبعث قواه، ويخسر أشياءه.

وبالرفق في الأمور تجري الحياة بين الناس على نسق مقبول، يقول الإمام: «من كان رقيقاً في أمره نال ما يريد من الناس»^٤. والله تعالى يحب الرفق في الأمر كلّه^٥.

١. مستدرك الوسائل: ج ١٣ ص ٣٢٢، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٠١، الدرّ المنتور للسيوطي: ج ١ ص ٣٦٥، ذيل تاريخ بغداد: ج ٣ ص ٢١٤، تهذيب الكمال: ج ٥ ص ٨٨، سير أعلام النبلاء: ج ٦ ص ٢٦٢، كشف الغمّة: ج ٢ ص ٣٧٠ و ص ٣٩٩، العدد القوية: ص ١٥٠.

٢. الكافي: ج ٢ ص ١١٩، شرح أصول الكافي: ج ٨ ص ٣٣٥، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٢٧٠، مشكاة الأنوار: ص ٣١٥، بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٦١.

٣. الكافي: ج ٤ ص ٥٢، من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٦٤، الخصال: ص ٩، وسائل الشيعة: ج ٢١ ص ٥٥٢ و ص ٥٥٣، بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ٣٤٦، مستدرك سفينة البحار: ج ٨ ص ٥٢٩، وفي بعض المصادر الأخرى الرواية عن الكاظم عليه السلام.

٤. الكافي: ج ٢ ص ١٢٠، شرح أصول الكافي: ج ٨ ص ٣٣٨، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٢٧٢، بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٦٤، مستدرك سفينة البحار: ج ٤ ص ١٧٧، وفيها جميعاً: «ما يريد» بدل «ما يريد».

٥. من حديث النبي ﷺ ذكره لعائشة. راجع الانتصار للشريف المرتضى: ص ٤٨٢، المجموع للنووي: ج ١٩

العبادة وإنفاق المال

يكاد أكثر ما جمع من تعاليم الإمام في الأبواب الاجتماعية والاقتصادية يتجه بفحواه شطر هذا الوجه من وجوه العبادة، والله تعالى يصف المتقين في محكم كتابه، في أول صفحاته، بأنهم ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^١. وكلّ نعمة رزق، يقول عليه الصلاة والسلام: «نعمتان مغبون فيهما أكثر الناس: الصحة والفراغ»^٢ فهاتان نعمتان يسأل عنهما الإنسان، والإمام يقول: «المعروف زكاة النعم»^٣ فالمعروف زكاة واجبة لمجرد الفراغ من التبعات والسلامة من المرض.



ومن التطبيق الإسلامي للإنفاق ووجوهه المادية والمعنوية يظهر أنه العبادة الإسلامية الشاملة لكلّ الناس، ولكلّ شيء، ولكلّ ساعة في الحياة يتاح فيها مدد يد بالمودة للغير، بالعتاء أو قبول العطاء، والإقراض أو الاقتراض، ودفع الأذى، أو مجرد المعونة بالفعل أو القول، أو بالعمل المادي، أو بمجرد الكفّ عن الأذى، وما إلى ذلك من أبواب التعاون بين أفراد المجتمع، سواء بالمال أو بالسعي أو بالجاه أو بمجرد الاهتمام. واهتمام المسلم بما أهمّ المسلم هو الذي يهب المقرور دفناً، والمكروب برءاً، والمنكوب

→ ص ٤١٣، شرح أصول الكافي: ج ١١ ص ١١٨، مسند أحمد: ج ٦ ص ٣٧ و ٨٥ و ١٩٩، صحيح البخاري: ج ٧ ص ٨٠ و ١٣٣ و ١٦٥ و ٥١، صحيح مسلم: ج ٧ ص ٤.

١. سورة البقرة: ٣.

٢. الدعوات: ص ١١٣، مستدرك الوسائل: ج ١٢ ص ١٤٠، معدن الجواهر: ص ٢٦ الأمالي للطوسي ص ٥٢٦، مكارم الأخلاق: ص ٤٥٩، بحار الأنوار: ج ٦٣ ص ٣١٥، مسند أحمد: ج ١ ص ٣٤٤، صحيح البخاري: ج ٧ ص ١٧٠، سنن ابن ماجه: ج ٢ ص ١٣٩٦، سنن الترمذي: ج ٣ ص ٣٧٧.

٣. تحف العقول: ص ٣٨١، عيون الحكم والمواعظ: ص ٣١، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٦٨، مستدرك سفينة البحار: ج ٤ ص ٢٩٢.

طمأنينةً، يقول صاحب الشريعة: «من لم يهتم بأُمور المسلمين فليس منهم»^١.

ولمّا حصرت الشريعة الفرائض رحمةً من الله بعباده المكلفين، أطلقت المندوبات لتتيح لهم أن يتطوّعوا بالعمل الصالح كيفما قدروا وحيثما وقّوا - وبخاصة في إنفاق المال - ثم أكثرت الحضّ عليه، ثم جعلته ممكناً للجميع، وفي وجوه النشاط الإنساني جميعها، يقول الإمام: «ليعن بعضكم بعضاً، فإنّ أبانا رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان يقول: إنّ معونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر واعتكافه شهراً في المسجد الحرام. وإيّاكم وإعسار أحد من إخوانكم المسلمين، فإنّ أبانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: ليس لمسلم أن يعسر مسلماً، ومن أنظر مسلماً أظله الله يوم القيامة بظله حيث لا ظلّ إلاّ ظلّه...»^٢.

وذات يوم قال رجل: إنّ بيني وبين رجلٍ منازعة في أمرٍ، وإني أريد أن أتركه فيقال لي: إنّ تركك ذلّة، فقال الإمام: «إنّ الذليل هو الظالم»^٣. فهو لا يرى الترك عيباً، وإتّما العيب بالظلم، أيّاً كان مصدره، التارك أو المتروك له. ودخل عليه عمّار الساباطي^٤ فقال له: «يا عمّار، إنّك ربّ مالٍ كثيرٍ، فتودّي ما افترض عليك الله من الزكاة؟ قال: نعم، قال: فتخرج الحقّ المعلوم من مالك؟ قال: نعم، قال: فتصل قرابتك؟ قال: نعم، قال: فتصل إخوانك؟

١. كشف الخفاء: ج ١ ص ١٣٣، ج ٢ ص ٢٧٩، الكافي: ج ٢ ص ١٦٤، وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٣٣٦، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٣٣٨، مستدرک سفينة البحار: ج ١٠ ص ٥٥٥، المعجم الأوسط للطبراني: ج ٧ ص ٢٧٠، تذكرة الموضوعات للفتني: ص ٦٩.

٢. الكافي: ج ٨ ص ٨، ج ٨ ص ٤٠٣، شرح أصول الكافي: ج ١١ ص ١٧١، وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٥٦، ج ١٨ ص ٣٦٦، مستدرک الوسائل: ج ١٢ ص ٤٢٢، بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢١٧، مستدرک سفينة البحار: ج ٧ ص ٢١٨ و ٤٨٩.

٣. بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٠٣، كشف الغمة: ج ٢ ص ٣٧٨، تنبيه الخواطر: ج ١ ص ١٢٥.

٤. عمّار بن موسى الساباطي: أبو الفضل، وقيل: أبو اليقظان. روى عن الصادق والكاظم عليهما السلام، كان ثقة في الرواية، وقيل: ضعفه جماعة من أهل النقل، وذكروا أنّ ما ينفرد بنقله لا يعمل به، لأنّه كان فطحياً، له كتاب جيد معتمد، وقد عدّه البعض في الرؤساء الأعلام المأخوذ عنهم الحلال والحرام، وهو كثير الرواية. (اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٥٢٤، رجال النجاشي: ص ٢٩٠، فهرست الطوسي: ص ١٨٩، رجال الطوسي ٢٥١ و ٢٤٠، نقد الرجال: ج ٣ ص ٣١٦).

قال: نعم، قال: يا عَمَّارُ إِنَّ المَالَ يَفْنَى، وَالبَدَنُ يَبْلَى، وَالعَمَلُ يَبْقَى، وَالدِّيَانُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، يَا عَمَّارُ، مَا قَدَّمْتَ فَلَـمَ يَسْبِقُكَ، وَمَا أَخَّرْتَ فَلَنْ يَلْحَقُكَ»^١.

والأبيادي قروض، والإمام يعد بالردِّ المضاعف، ويعلن فضل من أعطى، ويؤثر عليه فضل الآخذ، والعرف لا يذهب بين الله والناس.

قال له تلميذ^٢: إِنِّي لَا أَتَغَدَّى أَوْ أَتَعَشَى إِلَّا وَمَعِيَ اثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ أَوْ أَكْثَرُ، فَأَرْضَاهُ الإِمَامُ بِالْجِزَاءِ الْمَوْعُودِ، وَأَعْلَنَ لَهُ أَنَّ فَضْلَهُمْ يَفُوقُ فَضْلَهُ، قَالَ: «فَضْلُهُمْ عَلَيْكَ أَكْثَرَ مِنْ فَضْلِكَ عَلَيْهِمْ، إِذَا دَخَلُوا عَلَيْكَ دَخَلُوا بِالرِّزْقِ الْكَثِيرِ»^٣.



والإمام يحضُّ على دوام التواصل، إذ يجعل النعمة التي يخولها المعطي للآخذ نعمةً تتكرَّر، إذ تُشكَّر لتتكرَّر، يقول: «اشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنَّه لا إزالة لها إذا شكرت، ولا إقالة لها إذا كفرت»^٤.

١. الكافي: ج ٣ ص ٥٠١ وج ٤ ص ٢٧، من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٧، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٥٠، تفسير نور الثقلين: ج ٥ ص ٤١٨، وفيها: «فلن يسبقك» بدل «فلم يسبقك» ومعناه: لا يفوتك ولا يتجاوزك بل يصل إليك جزاؤه لا محالة.

٢. هو أبو محمد الواشي قال: ذكر أبو عبد الله عليه السلام أصحابنا فقال: كيف صنيعك بهم؟ فقلت: والله ما أتغدى ولا أتعشى إلا ومعى منهم اثنان أو ثلاثة أو أقل أو أكثر... فقال عليه السلام: «فضلهم عليك - يا أبا محمد - أكثر من فضلك عليهم». فقلت: جعلت فداك، وكيف ذلك وأنا أطعمهم طعامي، وأنفق عليهم مالي، وأخدمهم خدامي؟ فقال: «إذا دخلوا دخلوا بالرزق الكثير، وإذا خرجوا خرجوا بالمغفرة لك». الأمالي للطوسي: ص ٢٣٧، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٣٨٤.

٣. قارن هذا المجتمع الإسلامي الذي يقول فقهاؤه: «ما المعطي عن سعة بأفضل من الآخذ لو كان محتاجاً» بالمجتمع الإنجليزي الذي جاء بعد ذلك بقرون سبعة في عصر الملكة اليزابيث (١٥٥٨ - ١٦٠٣) وفيه صدرت قوانين بإعدام المتسولين! وأعدم بها المئات!! (منه).

٤. مستدرک سفینة البحار: ج ٦ ص ٢٩، الكافي: ج ٢ ص ٩٤، تحف العقول ص ٣٥٩، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٣١٥ وج ١٦ ص ٣١١، ٣١٣، مشكاة الأنوار: ص ٦٩، الجواهر السنية: ص ٤٠، بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٣٦٠ وج ٦٨ ص ٢٨، ص ٥٥ وج ٧٥ ص ٢٤١، وفيها: (لازوال للنعم) بدل (لا إزالة لها)، (ولا بقاء) بدل (لا أقالة).

والبخل قبض القادر يده عن العطاء، ونفسه عن الأمل، فذلك داء البخلاء. والإمام الذي يوجب السخاء عند إقبال الدنيا وحين يفيض الخير، يوجب الرجاء والصبر عند إديارها، فالدنيا تدور، يقول: «عجبت لمن يبخل بالدنيا وهي مقبلة عليه، أو يبخل بها وهي مدبرة عنه، فلا الإنفاق مع الإقبال يضره، ولا الإمساك مع الإديار ينفعه»^١.
فقيم يقف البخلاء دورة المال أو نعمة الرجاء!

والصادق يروي عن جدّه أمير المؤمنين: «قيل: يا نبي الله، أفي المال حقّ سوى الزكاة؟! قال: نعم، برّ الرحم إذا أدبرت، وصلة الجار المسلم، فما أقرّ بي شعبان وجاره المسلم جانع. ثم قال: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت^٢ أنّه سيورثه»^٣.

وفي كلّ مشاركة فضل، يقول صفوان بن يحيى^٤ - من أصحاب الإمام الكاظم - جاءني عبدالله بن سنان^٥ قال: هل عندك شيء؟ قلت: نعم، فبعثت ابني يشتري لحماً بدرهم، فقال: أين أرسلت ابنك؟ فأخبرته، فقال: ردّه، عندك زيت؟ قلت: نعم، قال: هات، فأني سمعت أبا عبد الله الصادق يقول: «هلك امرؤ احتقر لأخيه ما يحضره، وهلك امرؤ احتقر لأخيه ما

١. روضة الواعظين: ص ٤٤٣، مشكاة الأنوار: ص ٤٠٨، بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٣٠٠، مستدرک سفينة البحار: ج ١ ص ٢٨٩. وفي الروضة: «ولا بالبخل والإمساك» بدل «ولا الإمساك».

٢. يقول صاحب الوسائل: إن ظنّ النبي صلى الله عليه وآله ليس بحجة شرعية، فقد يكون غير مطابق للواقع، ومثله كثير جداً، فما الظنّ بظنّ غيره. وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٥٢.

٣. الأُمالي للطوسي: ص ٥٢٠، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٥٢، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٩٤ و ص ١٥١، مستدرک سفينة البحار: ج ٢ ص ١٢٧، وفي بعضها: «فما آمن بي» بدل «فما أقرّ بي».

٤. صفوان بن يحيى، مولى بجيلة؛ أبو محمد، من رجال الحديث عند الإمامية، من أهل الكوفة، له كتب منها (الفرائض) و (الوصايا) و (الآداب).... توفي سنة ٢١٠ هـ (الإعلام: ج ٣ ص ٢٠٦). وقال أبو عمرو: أجمع أصحابنا على تصحيح ما يصحّ عن صفوان بن يحيى يتّباع السابري والإقرار له بالفقه. (التحرير الطواسي: ص ٣٠٤).

٥. عبد الله بن سنان بن طريف مولى بني هاشم، وقيل: مولى بني أبي طالب، أو بني العباس. كان خازناً للمنصور والمهدي والهادي والرشيد، كوفي، ثقة من أصحابنا، جليل، لا يظعن عليه في شيء، روى عن أبي عبد الله عليه السلام، وقيل: عن أبي الحسن موسى عليه السلام. وليس بثبت. له كتاب الصلاة الذي يعرف بعمل يوم ليلة، وكتاب الصلاة الكبير، وكتاب في سائر الأبواب من الحلال والحرام. (رجال النجاشي: ص ٢١٤).

قدّمه إليه»^١.

والجود بالوجود جود، وفي التكليف رفق، وفي كلّ إرهاق أذى، والسمح لا يؤذي، ولا يحسّ الأذى فيما هو طبيعي. ومن السماحة في الأخذ والعطاء ينتشر التواصل، بأيّ شيء وفي كلّ شيء.

فالإمام لا يتكلّف لأحدٍ، ويعلن فضل الطاعم على صاحب الطعام، قال هشام بن سالم^٢: دخلنا على أبي عبد الله ونحن جماعة، فتغذينا وتغذّى معنا، وكنت أحدث القوم سنّاً، فكنت أقصر وأنا آكل فقال لي: «كُل، أما علمت أنّه تعرف مودّة الرجل لأخيه بأكله طعامه»^٣. يقول الإمام لأضيافه: «أشدّهم حباً لنا أكثرهم أكلاً عندنا»^٤.

وكانت «عين زياد»^٥ ضيعة له فجعلها له وللناس، يأمر وكيله بأن يثلّم في كلّ حيّطان الضيعة تلمّاً ليدخل الناس فيأكلوا، ويأمر كلّ يوم بعشر ثينات، يقعد على كلّ واحدةٍ منها عشرة يطعمون، كلّما قام عشرة جاء عشرة، يلقي لكلّ منهم بعض الرطب، أمّا الذين لا يجيئون من جيران الضيعة فكلّ منهم مدّ يرسل إليه، حتّى إذا جاء أوان قطع الثمار أعطى الوكلاء العمّال أجورهم عنه، وأمر الإمام بالباقي فحمل إلى المدينة ففرّق في أهلها، كلّ حسب استحقاقه^٦.

١. المحاسن: ج ٢ ص ٤١٥، الكافي: ج ٦ ص ٢٧٦، بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٤٥٣، مستدرک سفينة البحار: ج ٦ ص ٤٨٧ مع تغيير طفيف ببعض الالفاظ.

٢. هشام بن سالم الجواليقي مولى بشر بن مروان: أبو الحكم، كان من سبي الجوزجان، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليه السلام، ثقة نقي. (رجال النجاشي ص ٤٣٤). والظاهر بل المقطوع أنّه صحيح العقيدة، معروف الولاية. (طرائف المقال: ج ١ ص ٦٢٤).

٣. المحاسن: ج ٢ ص ٤١٣، الكافي: ج ٦ ص ٢٧٨، بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٤٤٩.

٤. الرواية هي: «أشدكم حباً لنا أحسنكم أكلاً عندنا» الدروس للشهيد الأول: ج ٣ ص ٣١، المحاسن: ج ٢ ص ٤١٤، الكافي: ج ٦ ص ٢٧٨، وسائل الشيعة: ج ٢٤ ص ٢٨٤، حلية الأبرار: ج ١ ص ٣٩٦، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٤٠ و ج ٧٢ ص ٤٥٠، مستدرک سفينة البحار: ج ٦ ص ٥٢٩.

٥. في بعض المصادر: «عين أبي زياد» الكافي: ج ٥ ص ٢٢٩، مقاتل الطالبين: ص ١٨٤، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢١٠.

٦. الكافي: ج ٣ ص ٥٦٩، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٢٠٥، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٥١، الحدائق الناضرة: ج ١٢

يقول ابن أبي طيفور: رأيت عند أبي عبد الله ضيفاً، فقام يوماً في بعض حوائجه فنهاه، وقام بنفسه إلى هذه الحاجة، وقال: «نهى رسول الله عن استخدام الضيف»^١.

أداء حقوق الآخرين في المال

وإذا واسبى الصادق أعطى فأغنى. سأله فقير فأعطاه ألف درهم، فلما مضى الرجل أمر خادمه ليرجعه، قال الخادم: يا سيدي سئلت فأعطيت، فماذا بعد العطاء؟ قال: «قال رسول الله ﷺ: خير الصدقة ما أبت غنى» وقال للرجل: «إننا لم نغتك، فخذ هذا الخاتم فقد أعطيت فيه عشرة آلاف درهم»^٢.

ولا مربة في أنه لم يغن الرجل ليأكل، وإنما أغناه بالمال ليعمل، فالعطاء ليس طعاماً يُعطى، وإنما هو فرصة عمل بالتعبير الاقتصادي المعاصر، أي تمكين من أداة إنتاج تحفظ إنسانية الإنسان، وتزيد ثراء الجماعة.

والعطاء وفاء بحقوق، وليس مجرد أريحية، فأمر المؤمنين علي هو القائل: «إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم ما يكفي الفقراء، فإن جاعوا أو عروا فبظلم الأغنياء»^٣ والقائل: «الفرق هو الموت الأكبر»^٤.

→ ص ١٥ و ج ١٨ و ص ٢٤٨ و ص ٢٩١، وفيها جميعاً «عشر بنيات» بدل «عشر ثبنيات» والبنية مصغر البناء، وهو النطم.

١. الكافي: ج ٦ ص ٢٨٣، وسائل الشيعة: ج ٢٤ ص ٣١٥، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٤١، مستدرک سفينة البحار: ج ٦ ص ٤٨٨.

٢. مستدرک الوسائل: ج ٧ ص ١٧٨، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٦١. وورد حديث النبي ﷺ في الدر المنثور: ج ١ ص ٢٥٣، كنز العمال: ج ٦ ص ٣٩٦، الجامع الصغير: ج ١ ص ٦٢٠، المعجم الكبير للطبراني: ج ١٢ ص ١١٥، مجمع الزوائد: ج ٣ ص ٩٨، الأمالي للسيد المرتضى: ج ٢ ص ٦٦ و ص ٦٨، مسالك الأفهام: ج ١١ ص ٣٦٨، المعبر للمحقق الحلبي: ج ٢ ص ٥٩١.

٣. المحلى لابن حزم: ج ٦ ص ١٥٨، الأموال لأبي عبيد: ص ٥٩٥، تاريخ بغداد: ج ٥ ص ٢٠٨، تفسير الميزان: ج ٩ ص ٢٦٠، الدر المنثور: ج ٣ ص ٢٣٣، وفيها: «فبمنع الأغنياء» بدل «فبظلم الأغنياء».

٤. نهج البلاغة: ج ٤ ص ٤١، خصائص الأئمة: ص ١٠٨، روضة الواعظين: ص ٤٥٤، مشكاة الأنوار: ص ٢٢٨.

وسئل الباقر عن الزكاة تجب في مواضع لا يتمكن السائل من أدائها فيها، فأجاب: «اعزلها، فإن أتجرت بها فأنت لها ضامن، ولها الريح»^١.

ويقول الصادق: «إنَّ الله عزَّوجلَّ فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أنَّ ذلك لا يسعهم لزادهم، إنَّهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عزَّوجلَّ....، ولكن أتوا من منعهم حقَّهم، ولو أنَّ الناس أدَّوا حقوقهم كانوا عايشين بخير»^٢.

وبنصَّ عنه: «إنَّ الله تبارك وتعالى شريك بين الفقراء والأغنياء في الأموال، فليس لهم أن يصرفوا إلى غير شركائهم»^٣.

وعلى أساس هذه النصوص يتساءل الفقهاء: هل الفقير «شريك» في ملك العين (في خصوص الزكاة)، أو أنَّ له «مجرد حق» فيها؟ فالبعض على أنه شريك بمقدار حصَّته، والبعض على أنه صاحب حقَّ فيها وهو مقدار نصيبه، وصاحب النصيب من لا يملك مؤونة سنة له ولعياله، والإغنياء من يملكون ذلك المقدار^٤.

يقول الإمام الصادق: «تحرم الزكاة على من يملك قوت سنة»^٥.

ولا يدع الإمام الناس، فقراء أو أغنياء، دون تنبيههم على أصل الداء، وهو الطمع، فيعاليهم بمقولة من مقولاته التي تتناقلها الأجيال: «إن كان ما يكفيك لا يغنيك فكل ما فيها لا

→ شرح نهج البلاغة: ج ١٨ ص ٣٨٦، تفسير العياشي: ج ١ ص ١٢٠، وفي بعض المصادر الحديث منقول عن النبي وعن الباقر وعن الصادق (صلوات الله عليهم أجمعين).

١. وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٣٠٨، غنائم الأيام: ج ٤ ص ٨٦، جواهر الكلام: ج ١٥ ص ٤٤٠، كتاب الزكاة للشيخ الأنصاري: ص ٢٢ و ١٤٧ و ١٩٩ و ٣٧١.

٢. الكافي: ج ٣ ص ٤٩٦، من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٦، تهذيب الأحكام: ج ٤ ص ٤٩، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ١٠، ٢١٠، منتقى الجمان: ج ٢ ص ٣٥٩.

٣. مدارك الأحكام: ج ٥ ص ٩٧، ذخيرة المعاد: ج ٣ ص ٤٤٦، مستند الشيعة: ج ٩ ص ٢١٨، الكافي: ج ٣ ص ٥٤٥، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٢١٥، كتاب الزكاة للأنصاري: ص ١٩٩.

٤. راجع في ذلك منية الطالب: ج ٢ ص ١١١.

٥. الحدائق الناضرة: ج ١٢ ص ١٥٩ و ٢٦٢، مستند الشيعة: ج ٩ ص ٢٦٠، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٢٣٤ و ٢٣٢، الفصول المهمة: ج ٢ ص ١٤١، وفيها جميعاً: «على من عنده» بدل «على من يملك».

يفنيك»^١.



ولحقوق الفقراء على الأغنياء عند الشيعة مصدر آخر زاخر، فوق مصدر الزكاة، وهو خمس المكاسب. والله تعالى يقول: ﴿وَاَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾^٢.

والشيعة تفسر الآية تفسيراً يسع أكثر مال يكتسب، إذ يدخل فيه خمس أرباح التجارات والصناعات والإجازات والعمل والوظائف والهدية والوصية، وأرباح مالك المنجم، والمدخرات من الكسب الحرام إذا اختلط بالحلال ولم يتميز، فإن تميز أخرج كله، واللؤلؤ المستخرج، والمواريث التي لم يؤد عنها الخمس، وذلك بعد أن يستنزل المكلف مؤونة الحفظ مؤونة الذين يعولهم ومركبه ومسكنه، ونفقات أضيافه لمدة سنة كاملة، وما زاد على ذلك ففيه الخمس^٣.

كتب رجل إلى الإمام الباقر^٤: أخبرني عن الخمس أهو على جميع ما يستفيده الرجل من قليل أو كثير...، وكيف ذلك؟ فكتب الإمام بخطه: «الخمس بعد المؤونة»^٥. ولا يُحمل الخمس إلى غير بلده إلا مع عدم وجود المستحق فيه، ويجوز أن تخصص به طائفة واحدة، والأحوط قسمته.

١. الكافي: ج ٢ ص ١٣٩، شرح أصول الكافي: ج ٨ ص ٣٩٦، مستدرک الوسائل: ج ١٥ ص ٢٢٤، مشكاة الأنوار: ص ٢٣٢، بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ١٧٨.

٢. سورة الأنفال: ٤١.

٣. انظر باب الخمس في: المقنع: ص ١٧١-١٧٣، الهداية: ص ١٧٧، المقنعة: ص ٢٧٦-٢٩٢، رسائل المرتضى: ج ١ ص ٢٢٦-٢٢٨، النهاية: ص ١٩٦-٢٠١، شرائع الإسلام: ج ١ ص ١٣٣-١٣٨، شرح اللمعة الدمشقية: ج ٤ ص ٢١١-٢٢٥، كتاب الخمس للشيخ الأنصاري: ص ٧٨.

٤. الرواية عن الجواد عليه السلام والمؤلف اشتبه بالكنية، حيث إن الرواية عن أبي جعفر الثاني.

٥. الاستبصار: ج ٢ ص ٥٥، تهذيب الأحكام: ج ٤ ص ١٢٣، عوالي اللئالي: ج ٣ ص ١٢٦، المعبر للمحقق الحلبي: ج ٢ ص ٦٢٣، منتهى المطلب: ج ١ ص ٥٥٠، شرح اللمعة الدمشقية: ج ٢ ص ٧٤، مجمع الفائدة: ج ٤ ص ٣١٢.

والفقهاء يقرّون أنّ للإمام نصف الخمس، وأنّ نصفه الباقي ليتامى آل النبي ومساكينهم وقرائهم وأبناء السبيل منهم^١.

والآن - حيث الإمام غائب - فالأقوال كثيرة في توزيع حقّ الإمام، وربما جاز من تعدّدها اختيار الإنفاق على المصالح التي تحفظ للأمة دينها وشريعته.

والرسول عليه الصلاة والسلام يكلف المسلمين أن يقصدوا بالبرّ الفقراء، وأن يتطهّروا بين الفقراء، ويتّقوا الله تقوى الفقراء، يقول ﷺ: «من أراد الله فليطلبه عند الفقراء»^٢.

كنز المال

أمير المؤمنين علي هو الذي ذكر عمر بختور نفس رسول الله حتّى وزّع مالا كان عنده^٣، وأعلن ساعة استخلافه أنّ الدولة ليس لها في المال إلّا أن تقسّمه في المسلمين متساويين، فرقى المنبر يقول للمسلمين عن نفسه: «... ألا وإنّه ليس لي دونكم إلّا مفاتيح أموالكم معي، وليس لي أن آخذ درهماً دونكم»^٤.

جاء ذات مساء بمالٍ أفاءه الله على المسلمين، فأشار إليه وقال: «أقسّموه» قالوا: أمسينا، فأخّره إلى غدٍ، قال: «تقبلون لي أن أعيش إلى غدٍ؟» قالوا: ما بأيدينا ذلك، قال: «فلا تؤخّروه» فقسّموه من فورهم^٥.

١. انظر باب الخمس في: المقنع: ص ١٧١-١٧٣، الهداية: ص ١٧٧، المقنعة: ص ٢٧٦-٢٩٢، رسائل المرتضى: ج ١ ص ٢٢٦-٢٢٨، النهاية: ص ١٩٦-٢٠١، شرائع الإسلام: ج ١ ص ١٢٣-١٢٨، شرح اللمعة الدمشقية: ج ٤ ص ٢١١-٢٢٥، كتاب الخمس للشيخ الأنصاري: ص ٧٨.

٢. لم أجد هذا الحديث لا في كتب السنّة ولا في كتب الشيعة، إلّا ما ذكره محمد جواد مغنبة في «الشيعة في الميزان»: ص ٤٠٣ قوله: جاء في الحديث الشريف: «إنّ الفقراء هم صفوة الخلق» وأنّ من أراد الله فليطلبه عند الفقراء».

٣. مسند أحمد: ج ١ ص ٩٤ و ج ٦ ص ٣٣٠، مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٢٣٨، الآحاد والمثاني: ج ٥ ص ٤٣٥، مسند أبي يعلى: ج ١ ص ٤١٥ و ج ١٣ ص ٨، المعجم الصغير: ج ١ ص ١٤٠، شرح نهج البلاغة: ج ١٢ ص ١٠٠.

٤. بحار الأنوار: ج ٣٢ ص ٨، حياة الإمام الحسين لياقرب شريف القرشي: ج ١ ص ٤٠١.

٥. مناقب آل أبي طالب: ج ١ ص ٣٦٤، بحار الأنوار: ج ٤٠ ص ٣٢١ مع تغيير طفيف لا يخلّ بالمعنى.

ولمّا بعث أبو موسى إلى عمر من العراق ألف ألف درهم فرّقها، ففضلت فضلةً، فاختلفوا أين يضعها، خطب عمر الناس قائلاً: أيّها الناس قد فضلت لكم فضلة بعد حقوق الناس، فقام صعصعة - وهو بعد غلام شاب أسلم في حياة النبي ولم يره - وقال: يا أمير المؤمنين إنّما يتشاور الناس فيما لم ينزل فيه قرآن، وأمّا ما نزل به قرآن فضعه مواضعه التي وضعه الله عزّ وجلّ فيها، فقال عمر: صدقت، أنت منّي وأنا منك، فقسّمه بين المسلمين^١.

وصعصعة - كما أسلفنا - بطل «يوم الجمل» إلى جوار أمير المؤمنين علي، استشهد أخواه وهما يحملان الراية، ثم حملها صعصعة وانتصر^٢.

وأبوذر أب من آباء الشيعة العظام، وسيرته درس تحتفي به مجالسهم وأمالي كبرائهم، ينبّه الناس من قديم على خطر الفقر واقترائه بالكفر، وتعريضهما العقيدة والوطنية ووحدة الجماعة للدمار، فيقول: «إذا ذهب الفقر إلى بلد، قال الكفر: خذني معك»^٣.

ولقد حرم كثر المال بحبسه عن المسلمين في بيوت الأموال، أو حرمانهم منه وتعريضهم للافتقار، فأوجب على الدولة توزيع المال في أصحاب الحقّ فيه من الرعية. وحرّم النعيم على من يعيش بين الجياع، فإذا كان إخوة المسلم في عيشة راضية فالنعيم يباح.

ولمّا أرسل إليه عثمان مائتي دينار مع رسول يقول: هذه من مال عثمان، وهو يقول لك: إنّها من صلب ماله ما خالطها حرام، قال أبوذر: هل أعطى أحداً من المسلمين مثلما أعطاني؟ قال: كلا، قال: اذهب أنت والدرهم، إنّما أنا رجل من المسلمين يسعني ما يسعهم، ولست في حاجة إلى المال، قال الرسول: أصلحك الله، إنّني لا أرى في بيتك قليلاً ولا كثيراً، فرفع أبوذر الوسادة وأراه قرصين من خبز الشعير وقال: بل عندي هذان، وإنّي لغنيّ بهما

١. أسد الغابة: ج ٣ ص ٢٠، الاستيعاب المطبوع بهامش الإصابة: ج ٢ ص ١٩٦، قاموس الرجال: ج ٥ ص ١٢١، الغدير: ج ٩ ص ٤٤، وقد ذيل الخبر بأنّه مذكور في: طبقات ابن سعد و مروج الذهب وتاريخ ابن عسّاكر والاستيعاب وأسّد الغابة والإصابة وتهذيب التهذيب و خلاصة الجزري.

٢. وهما زيد وسيحان. راجع الطبقات الكبرى: ج ٦ ص ٢٢١.

٣. نقلًا عن كتاب الشيعة في الميزان: ٢٨٠.

وثقتي بالله^١.

ومرّ أبوذر بمعاوية وهو يبني داره الخضراء، فصاح به: من أين لك هذا؟ إن كنت بنيتها من مال المسلمين فهي الخيانة، وإن كنت بنيتها من مالك فهي الإسراف، فشكاه معاوية إلى عثمان^٢.

وظاهر من هذا النهج: النحو الاقتصادي الذي ينحوه الشيعة من تداول المال، وعدم كثره عن الأمة ولو كان في يد الدولة، ووجوب تقسيمه في المسلمين أو العمل به لهم، والاستكثار من طرحه في التداول^٣، وإنفاق الخمس الذي يُجبى للإمام.

وإذا أضفنا إلى ضخامة نسبة الخمس: تحصيله عن أكثر الكسب، وتيسير حسابه على العاملين على الصدقات، والدافعين للزكوات، والإنفاق الواجب والمندوب، وإلزام القادر العمل بنفسه وبماله، ومعونة المستحقين للعون بالمال دون ربا، مع نظرة الميسرة، ومع التواصل حينما قدر القادرون، واحتاج غير القادرين، يتجلى مبلغ ما تفتّح الميادين الواسعة أمام الجهد الإنساني في المجتمع الإسلامي لتشمير ثرائه، وإغناء فقرائه، وإيلاف أنفس المسلمين فيه.

١. روضة الواعظين: ص ٢٨٥، بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٣٩٨، شجرة طوبى: ج ١ ص ٧٦، مستدرک سفینه البحار: ج ٨ ص ٦٦٧، اختيار معرفة الرجال: ج ١ ص ١١٩، الدرجات الرفيعة: ص ٢٤١، معجم رجال الحديث: ج ٥ ص ١٤١.

٢. الأمالي للمفيد: ص ١٦٢، بحار الأنوار: ج ٣١ ص ١٧٥، ج ٢٢ ص ٤١٥، شرح نهج البلاغة: ج ٣ ص ٥٥، ج ٨ ص ٢٥٦، الفوائد الرجالية: ج ٢ ص ١٥٦، الغدير: ج ٨ ص ٢٩٣، أنساب الأشراف: ج ٥ ترجمة عثمان، طبقات ابن سعد: ج ٤ ص ٢٢٩، الدرجات الرفيعة: ص ٢٤٣، تاريخ دمشق: ج ٦٦ ص ١٧٤.

٣. روى المسعودي في مروج الذهب حادث أبي ذر وكعب الأبحار في مجلس أمير المؤمنين عثمان بن عفان، قال: إن أبادركان في مجلس الخليفة حين أتى بتركة عبد الرحمان بن عوف، فنضت البدر حتى حالت بين عثمان والرجل القائم، فقال عثمان: إني لأرجو لعبد الرحمان خيراً، لأنه كان يتصدق ويقري الضيف وترك ما ترون، وقال كعب الأبحار: صدقت يا أمير المؤمنين...، فشال أبوذر العصا وضرب بها رأس كعب، وقال: يا ابن اليهودي، تقول لرجل مات وترك هذا المال: إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله عهداً بذلك! وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما يسرنى أن أموت وأدع ما يزن قيراطاً»...، وقال عثمان لأبي ذر: وار عني وجهك. (منه).

ذلك قول الإمام جعفر: «لو أدى الناس زكاة أموالهم ما بات مسلم فقيراً»^١.

٣ - التعاون

العنصر الثالث في الاقتصاد - كما هو ظاهر من تعاليم الإمام في فصول هذا الباب - هو التعاون، وليس كمثلته «منظّم داخلي» أو «محرك ذاتي» للنشاط الفردي أو القومي. ولقد مرّ بنا أنه واجب «قانوني» يخرج من الإيمان من بات شعبان وجاره جائع^٢. كما أسلفنا القواعد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شرّعها الإسلام وشرحها الإمام، ليخلف للأمة منهاجه الذي اعتزّت به الأمة فبلغت شأوها العالي بالمنهج العلمي العصري أبداً، والمنهج الاجتماعي الذي جعلها كالبنيان المرصوص، والمنهج الاقتصادي الذي يستعمل العلم والعمل والمال في تعاونٍ مأمور به، أي في تكافل الكامل. ولئن مرّت بها فترات مظلمة، إن مردّها إلى الخروج على قواعد المنهج، وإنما عصمتها في الرجوع إلى الأمر الأول.

١. لفظ الحديث هكذا: «لو أنّ الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً». راجع: من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٧، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ١٢، عوالي النائي: ج ١ ص ٣٧٠.
٢. إشارة لقوله عليه السلام: «ما آمن بالله من بات شعبان وجاره جائع وهو يشعر». راجع: الكافي: ج ٢ ص ٦٦٨، شرح أصول الكافي: ج ١١ ص ١٥٥، وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ١٣٠، مستدرك الوسائل: ج ١٦ ص ٢٦٤، بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٣٦٢، مجمع الزوائد: ج ٨ ص ١٦٧، الجامع الصغير: ج ٢ ص ٤٧٨، كنز العمال: ج ٩ ص ٥٣، فيض القدير: ج ٥ ص ٥٢٠.

الباب السادس

إلى الرفيق الأعلى

«الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا حتى
بيّنت للناس جميع ما تحتاج إليه»^١.

«الإمام جعفر الصادق»

١. تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ٣١٩، من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ١١٢.

إلى الرفيق الأعلى

كان الإمام في لقاءاته الأخيرة مع الخليفة (أبي جعفر المنصور) يقول له: «لا تعجل، لقد بلغت الرابعة والستين، وفيها مات أبي وجدّي»^١. فلقد كان يحسّ باقتراب يومه، ويلتمس من ذلك قوة عند اللقاء، تؤيده في الصدام معه والثبات في وجهه، والدفاع عن حقوق الله والناس عنده، وتذكيره بالآخرة. وهو إلى ذلك يهيء الدولة والناس لما بعد موته.

والناس الذين يتساءلون: منى نصر الله، يولّون وجوههم شطر الإمام. مذ قطع أبو جعفر أسباب الأمل في الأمان والاطمئنان بالنكال يصبّه على من عارضه، وخصّ أهل البيت بكفل زاخر من عذابه، فمال الكثيرون عنه إليهم، ولم يكن باقياً من مشيختهم إلا الإمام الصادق، تهوى إليه الأفئدة من بعيد وقريب، وينكاب عليه التلامذة من أشياخ العلماء.

ومضت الأيام، والناس بين البأساء والنعماء، والفرع والرجاء، والإمام في دروسه ومجالسه يرسى مبادئه للأجيال القادمة، ويهدي بالقول والعمل، ويمجّد أنّ به حياة.

وجاء ذلك اليوم الذي قال فيه، وهو رخيّ البال: «الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا حتّى بيّنت للناس جميع ما تحتاج إليه»^٢.

١. مقاتل الطالبيين: ص ١٨٤، مستدرک سفينة البحار: ج ٦ ص ٢٣٢، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢١٠، وفيها جميعاً: «قد بلغت ثلاثاً وستين، وفيها مات أبي وجدّي علي بن أبي طالب».

٢. الحديث رواه الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام. وكان محمد بن مسلم قد سأل الصادق عليه السلام عن الأخرس، كيف يحلف إذا ادّعى عليه دين، ولم يكن للمدّعي بيّنة؟ فقال: إن أمير المؤمنين عليه السلام أتني بأخرس وادّعى عليه دين فأنكر، ولم يكن للمدّعي بيّنة، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا حتّى بيّنت للأمة جميع ما تحتاج إليه». راجع: من لا

وهو إفصاح عن اكتمال المذهب الشيعي في تعاليمه، ونظام الدولة الشيعية إن أمكن أن تظهر، والمجتمع الشيعي في كل حال، وإن شئت قلت مقاله: المجتمع الجعفري، أو مقال الفقهاء: مجتمع «الشيعية الإمامية».

وجاءت ساعة الموت، وهو في تمام صحوه، وأهل البيت حاقون حوله.
قالت زوجته «حميدة»^١ أم الإمام موسى الكاظم - وكانت من البربر - لرجلٍ من أصحابه^٢: لو رأيت أبا عبد الله عند الموت لرأيت عجباً، فتح عينيه ثم قال: «إن شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاة»^٣.

فهذا إمام تنتهي إمامته يعهد لإمام تبدأ أيامه، فينتبهه، والناس على حقهم في شفاعته أهل البيت وواجبهم لينالوها بإقامة عمود الدين.

وتضيف مولاته «سألته» ساعة الموت حسنات فتقول: «أعني عليه، فلما أفاق قال: أعطوا الحسن بن علي (بن علي بن الحسين)^٤ سبعين ديناراً، وأعطوا فلاناً كذا، وفلاناً كذا، قلت: أعطني رجلاً حمل عليك بالشفرة يريد أن يقتلك؟ قال: أتريدون ألا أكون من الذين قال عنهم الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾^٥? نعم يا سألته، إن الله خلق الجنة وطيب رحيها، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع

→ يحضره الفقيه: ج ٣ ص ١١٢، تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ٣١٩، وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٣٠٢، مستدرک الوسائل: ج ١٧ ص ٤٠٥، عوالي اللئالي: ج ٣ ص ٥٢٢.

١. هي حميدة بنت صاعد البربري، يقال: إنها أندلسية تكنى: لؤلؤة.
عندما أدخلت على الباقر عليه السلام قبل أن يزوجه من الصادق عليه السلام سألتها: ما اسمك؟ قالت: حميدة، فقال: حميدة في الدنيا، محمودة في الآخرة، أخبريني عنك أباك أم ثيب؟ قالت: بكر... فقال: يا جعفر خذها إليك. وقال الصادق عليه السلام: «حميدة مضافة من الأندلس كسبيكة الذهب، ما زالت الأملاك تحرسها حتى أدت إلي كرامة من الله لي، والحجة من بعدي». (الكافي: ج ١ ص ٤٧٧).

٢. هو أبو بصير.

٣. المحاسن: ج ١ ص ٨٠، الأمالي للصدوق: ص ٥٧٢، ثواب الأعمال: ص ٢٢٨، روضة الواعظين: ص ٣١٨، وسائل الشيعة: ج ٤ ص ٢٦، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢ و ٨٠ ص ١٩ و ج ٨١ ص ٢٣٤، الأنوار البهية: ص ١٧٢، مستدرک سفينة البحار: ج ٦ ص ٢٢٦، درر الأخبار: ص ٣٤٠.

٤. وهو الأقطس.

٥. سورة الرعد: ٢١.

رحم»^١.

أجل، كان الإمام قطعة من صميم الإسلام، جدّه عليه الصلاة والسلام خُلِّقَ القرآن^٢، أمّا هو فخُلِّقَ سنّة جدّه، وجده يعلن سنّته حيث يقول: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح»^٣.

ويقول: إنَّ أول الواجبات في المال بعد الزكاة «برّ الرحم إذا أدبرت»^٤.
فالإمام في ساعة الموت يوصي لمن يليه، ويذكر الشفاعة، والصلاة، وصلة الرحم، وهو يريح رائحة الجنّة.



صعدت روح الإمام إلى الرفيق الأعلى في شوال ١٤٨ هـ، لتترك أبا جعفر^٦ في الفزع الأكبر، فلقد غابت عن الدنيا أسباب سلام يثق بها، ولاح في السماء نجم جديد، بإمام جديد، ليس له به عهد.

وأبوجعفر ليس الرجل الذي ينتظر حتّى ينكشف له أمر فيه غرر، بل هو بيتدر الخطر.

١. الكافي: ج ٧ ص ٥٥، وسائل الشيعة: ج ١٩ ص ٤١٨، مستدرک الوسائل: ج ١٤ ص ١٣٨، الغيبة للطوسي: ص ١٩٧، بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ١٨٣، ج ٤٧ ص ٣ و ٢٧٦، ج ٧١ ص ٩٦، الأنوار البهية: ص ١٧٢، الكنى والألقاب: ج ٢ ص ٤٨.

٢. هكذا وصفت أم المؤمنين عائشة رسول الله ﷺ راجع: مستد أحمد: ج ٦ ص ٩١ و ١٦٣ و ٢١٦، فتح الباري: ج ٦ ص ٤١٩، الأدب المفرد: ص ٧٤، خلق أفعال العباد: ص ٧٣، المعجم الأوسط: ج ١ ص ٣٠، شرح نهج البلاغة: ج ٦ ص ٣٤٠، الجامع الصغير: ج ٢ ص ٣٥٤، كنز العمال: ج ٧ ص ١٣٧ و ٢٢٢، فيض القدير: ج ٢ ص ١٥٢، ج ٥ ص ٢١٦، جامع البيان: ج ٢٩ ص ٢٤، زاد المسير: ج ٨ ص ٦٦، تفسير ابن كثير: ج ٤ ص ٤٢٩، الدر المنثور: ج ٥ ص ٢.

٣. الكافي: ج ٤ ص ١٠، من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٦٨، تهذيب الأحكام: ص ٤ ص ١٠٦، وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٢٤٧، مستدرک الوسائل: ج ٧ ص ١٩٤، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٠٣، مستد أحمد: ج ٣ ص ٤٠٢، سنن الدارمي: ج ١ ص ٣٩٧، المستدرک: ج ١ ص ٤٠٦، السنن الكبرى: ج ٧ ص ٢٧، مجمع الزوائد: ج ٣ ص ١١٦، صحيح ابن خزيمة: ج ٤ ص ٧٧، المعجم الأوسط: ج ٣ ص ٣٢٠، الجامع الصغير: ج ١ ص ١٩٠.

٤. وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٥٢، الأمالي للطوسي: ص ٥٢٠، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٩٤ و ١٥١، مستدرک سفينة البحار: ج ٢ ص ١٢٧.

٥. لم يختلف في سنة وفاته (١٤٨ هـ)، وقيل: إنّه توفّي بالعنب المسموم الذي أطعمه به المنصور، وكان عمره الشريف حين استشهاده خمساً وستين سنة. (منتهى الآمال للشيخ القمي: ج ٢ ص ٢٤٣).

٦. يعني المنصور.

قال أبو أيوب الجوزي^١: بعث إليّ أبو جعفر المنصور في جوف الليل، فدخلت عليه وهو جالس على الكرسي وبين يديه شمعة، وفي يده كتاب، فلما سلّمت عليه رمى الكتاب إليّ، وهو يبكي، وقال: هذا ابن سليمان (والي المدينة) يخبرنا أنّ جعفر بن محمد قد مات، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، قالها ثلاثاً، ثم قال: وأين مثل جعفر؟! ثم قال: اكتب، فكتبت صدر الكتاب، ثم قال: اكتب إن كان قد أوصى إلى رجلٍ بعينه فقدّمه واضرب عنقه!!

هكذا يأمر بقتل من يجهله، ويحرمه حقّ المحاكمة، لمجرد أنّ من فحوى الوصية لرجلٍ بعينه أنّها رسالة للأمة تعلن الإمام الجديد!

لكنّ الله كفّ بطش أبي جعفر، فرجع الجواب إليه أنّ الإمام أوصى إلى خمسة، هم: أبو جعفر المنصور، وابن سليمان^٢، وعبد الله، وموسى، وحميذة^٣. والأخرون: ولدا الإمام وزوجه، فليس هنا وصيّ بعينه، والأولان أبو جعفر ذاته وواليه، وليس إلى قتل هؤلاء من سبيل!

وما كانت وصية «الصادق» لأبي جعفر وواليه إلا توصية لهما بالأمة، وتذكيراً لهما بأنّهما ملاقيا الله مثله، وأبو جعفر أجدر خلق الله بأن يذكره الناس بالموت، وأن يذكره عند الموت، إن محبّين له وإن مبغضين، ولما قرن الإمام أبا جعفر بابنيه وزوجه كان يذكره أن يخاف الله فيهم وفي ذوي رحمه.



كان أبو جعفر يسابق الموت إلى من تتمّ الوصية إليه وحده، ففوتت عليه وصية الإمام بغياً، لم يمنعه من مقارفته تساقط دمه، أو أن يسترجع الله مرّات ثلاثة، وكأنّه يجعل الدمع مدداً لأمرٍ يهتبل الفرصة لإصداره، ليقطع رأس إمام جديد من أهل البيت يطاف بها في

١. قيل: هو أبو أيوب النحوي، لم يعرف في كتب التراجم والرجال. إلا أنّ السيد الخوئي قال: إنّه هو الذي روى قصة أمر المنصور بقتل وصيّ الصادق عليه السلام. وقد روى عنه داود بن زريبي. (معجم رجال الحديث: ج ٢٢ ص ٤٤). وقيل: هو أبو أيوب الخوزي البغدادي، وزير أبي جعفر المنصور. (اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٦٧٠). وقيل: هو أبو أيوب الجوزي كما نقل المؤلف. (إعلام الوري: ص ٢٩٠).

٢. هو محمد بن سليمان والي المدينة للمنصور.
٣. الكافي: ج ١ ص ٣١٠، شرح أصول الكافي: ج ٦ ص ١٨٠، مستدرک الوسائل: ج ١٤ ص ١٢٨، الغيبة للطوسي: ص ١٩٧، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٣، تاريخ آل زرارة: ج ١ ص ٨٦، إعلام الوري: ص ٢٩٠، إثبات الهداة: ج ٣ ص ١٥٨، حلية الأبرار: ج ٢ ص ٢٩١، مهج الدعوات: ٢٢٢.

المدائن.

وأنة شياطين الفزع والطمع أن يذكر ما علمه الصادق من صلة الرحم، وازداد نسياناً يوم لا أحد يُنسى!

وجرى المهدي والرشيدي في أثر أبي جعفر، يهتدون به، ويدسون الجواسيس ليعرفوا من يجتمع إليه الناس بعد موت الإمام. سأل سائل موسى الكاظم، فقال الكاظم: «إذا هدأت الرجل^١ وانقطعت الطريق فأقبل^٢». وسأله آخر فقال له: «سل تُخبر، ولا تدع، فإن أذعت فإنه الذبيح^٣».

بل كان هشام بن سالم ينبّه زملاءه الشيعة حتى لا يقعوا في حبال أبي جعفر. وظاهر من ذلك أن المجالس العظيمة التي كانت تنعقد في حياة الإمام الصادق قد ولى زمانها.

ولي الإمامة موسى الكاظم بعد أبيه، فتتابع في حياته عهد الهادي ثم عهد الرشيد، واقتصر - كما سيقتصر الأئمة من بعده - على العلم وإمامة الدين، دون أن يمدوا عيناً أو فكراً إلى الخلافة الدنيوية، ومع هذا حبس الرشيد الإمام الكاظم حتى سنة ١٨٣، ثم أمر فأدخل الناس السجن ليروه ميئاً، ليس به آثار قتل، والشيعة يقولون: مات مسموماً^٤. وخلف الكاظم في الإمامة ابنه علي الرضا، حتى إذا صار المأمون خليفة

١. هدأت الرجل: أي بعد ما سكن الناس بالليل. (صحيح الجوهري: ج ١ ص ٨٢).

٢. المحاسن: ج ٢ ص ٣٠٨، الكافي: ج ٣ ص ٩٣، بحار الأنوار: ج ٤٨ ص ١١٢ و ج ٧٨ ص ٩٨.

٣. الكافي: ج ١ ص ٣٥٢، شرح أصول الكافي: ج ٦ ص ٢٩٧، خاتمة المستدرک: ج ٤ ص ١١١، الارشاد: ج ٢ ص ٢٢٢، الخرائج والجرائح: ج ١ ص ٣٣٢، مناقب آل أبي طالب: ج ٣ ص ٤٠٩، المستجد في الارشاد: ص ٨٨، مدينة المعاجز: ج ٦ ص ٢١٠، بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢٦٣، تاريخ آل زرارة: ج ١ ص ٧٦، اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٥٦٦، إعلام الوری: ج ٢ ص ١٧، كشف الغمة: ج ٣ ص ١٤.

٤. لقد حبس الإمام الكاظم عليه السلام عدّة مرات: منها في أيام المهدي، ومنها في أيام الهادي، ولكنهما لم يتعرّضا له بالأذى لما رأوا منه من الكرامات. قال صاحب العمدة: «وقبض عليه موسى الهادي وحبسه فرأى علي بن أبي طالب في نومه يقول له: يا موسى ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ فانتبه من نومه وقد عرف أنه المراد، فأمر بإطلاقه.... ولما ولي هارون الخلافة أكرمه وأعظمه، ثم قبض عليه وحبسه ببغداد، وقتله بالسّم بعد أربع عشرة سنة من خلافته». راجع عمدة الطالب: ص ١٩٦. وممن نقل أنه مات مسموماً، راجع مثلاً: الإرشاد للمفيد: ص ٢٨٨-٢٠٣، وكشف الغمة: ج ٢ ص ٢١٢-٢٥٨، وأعيان الشيعة: ج ٤ ق ٢ ص ٨، والتحرير الطاوسي: ص ٣٤٤.

ولآه عهده على رغبة^١ سنة ٢٠١، وأمر ابنه وبنو العباس بمبايعته^٢، فصنعوا، وزوّجه من بنته أم حبيب^٣ في سنة ٢٠٢، كما زوّج ابنه محمداً الجواد بنته أم الفضل^٤، إلا أنّ علياً الرضا مات سنة ٢٠٣ فجأة! مسموماً، في أكلة عنبٍ كما يقولون^٥، وفي أثناء عودته في ركب المأمون من مرو إلى بغداد^٦!

وفي رحلة العودة هذه، وفي ركب المأمون ذاته، قُتل وزيره الذي دبّر له كلّ أمره: الفضل بن سهل، وكان شديد التشيع^٧.

وتوجّه محمد الجواد بزوجه إلى المدينة، بعيداً من بغداد، فلما ولي المعتصم أشخصه إليها،

١. لما عرض المأمون ولاية العهد على الرضا عليه السلام رفضها، فغضب المأمون ثم قال: إنك تتلقاني أبداً بما أكرهه وقد أمنت سطوتي، فبإله أقسم لن قبلت ولاية العهد وإلا جبرتك على ذلك، فإن فعلت وإلا ضربت عنقك إراجع العوالم: ج ٢٢ ص ٢٨١، عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٣٩، ح ٣.
وقيل: إنّه لما قبل ولاية العهد مكرهاً رفع يده إلى السماء وقال: «اللهم إنك قد نهيتني عن الاقضاء بيدي إلى التهلكة، وقد أكرهت واضطرت كما اضطّر يوسف ودانيال إذ قبل كل واحد منهما الولاية في طاغية زمانه...».
انظر: العوالم: ج ٢٢ ص ٢٨٤، منتهى الآمال: ج ٢ ص ٤٥٨.

٢. منتهى الآمال: ج ٢ ص ٤٥٨.

٣. عيون أخبار الرضا: ج ١ ص ١٥٩، و ج ١ ص ٢٧٤.

٤. عيون أخبار الرضا: ج ١ ص ١٥٩.

٥. بحار الأنوار: ج ٤٩ ص ٣١٠، الأنوار البهية: ص ٢٣٥، تذكرة الخواص: ص ٣٥٥، مقاتل الطالبين: ص ٣٧٨، الإرشاد: ص ٣١٦، عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ٢٤٠، العوالم: ج ٢٢ ص ٤٩٩، الأمالي للصدوق: ص ٥٢٦، قال العلامة المجلسي: أعلم أنّ أصحابنا اختلفوا: أنّ الرضا عليه السلام هل مات حتف أنفه أو مضى شهيداً بالسمّ. وعلى الأخير: هل سمّه المأمون أو غيره. والأشهر أنّه مضى شهيداً بسمّ المأمون، وينسب إلى السيد ابن طاوس أنّه أنكر ذلك، وكذا أنكره الأربلي في كشف الغمة، وردّ ما ذكره المفيد، حيث قال بعد إيراده كلام المفيد:

بلغني ممّن أتق به أنّ السيد رضي الدين علي بن طاوس عليه السلام كان لا يوافق على أنّ المأمون سقى علياً عليه السلام ولا يعتقد... والذي كان يظهر من المأمون من حنوه عليه وميله إليه واختياره له دون أهله وأولاده ما يؤيد ذلك ويقرّه... الخ. راجع مسند الإمام الرضا: ج ١ ص ١٢٨.

٦. بحار الأنوار: ج ٤٩ ص ٣١١، الفخري لابن الطقطقي: ١٧٦، تاريخ ابن خلدون: ج ٣ ص ٢٤٩.

٧. المعروف عند الشيعة أنّه وأخاه كانا يحرضان المأمون على الرضا عليه السلام. قال الشيخ المفيد في الإرشاد: ج ٢ ص ٢٦٩: «كان الحسن وأخوه الفضل يعارضان المأمون في عزمه على إرجاع الأمر إلى الرضا عليه السلام...»، وقال: وكان سلام الله عليه ينهى المأمون عن الإصغاء إلى قولهما، وعرفا ذلك منه عليه السلام، فجعللا يذكران له عنه ما يبغده منه، ويخوفانه من حمل الناس عليه، فلم يزالا كذلك حتّى قلبا رأيه فيه، وعمل على قتله». وانظر معجم رجال الحديث: ج ٥ ص ٣٤٥.

فقدما لليلتين بقيتا من المحرم سنة ٢٢٠، وفي نهاية السنة مات! والناس تقول في موته ما قالوه عن موت أبيه وجدّه^١، وما سيقولونه في موت ابنه علي الهادي^٢ بعد أن صار إماماً، استفدمه الخليفة إلى العسكر في سرّ من رأى حيث قصر الخلافة^٣، فلما مات الهادي سنة ٢٥٤ قام بالإمامة ابنه الحسن الخالص^٤ حتّى سنة ٢٦٠، عام وفاته^٥، ليخلفه ابنه محمد آخر الأئمة الاثني عشر، قالوا: دخل سرداباً فلم يرجع، والناس ينتظرون رجوعه... وهو عند الشيعة الإمامية^٦ «المهدي المنتظر»^٧.

١. قيل: مات مسموماً، وممن ذهب إلى ذلك: إثبات الوصية: ص ٢٢٧، أعيان الشيعة: ج ٢ ص ٣٥، عيون المعجزات: ص ١٣١ و ١٣٢، البحار: ج ٥٠ ص ١٦، مدينة المعاجز: ج ٧ ص ٤٠٦، إثبات الهداة: ج ٣ ص ٣٤٤، هؤلاء ذهبوا إلى أن الذي سمّه زوجته أم الفضل وأخوها جعفر.

وذهب جماعة آخر إلى أن الذي سمّه هو المعتصم. راجع: المناقب لابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٣٨٤، منتخب الطريحي: ص ٣، وذكر جماعة أنه مات مسموماً دون تعيين للفاعل، منهم: إعلام الوري: ج ٢ ص ١٠٦، الفصول المهمة لابن الصباغ: ج ٢ ص ٣٦١، بحار الأنوار: ج ٥٠ ص ٢، ولا تنافي في أن يكون الفاعل زوجته بأمر من المعتصم ويتدبير من أخيها.

٢. مستدرک سفينة البحار: ج ٧ ص ٤٠٣، إثبات الوصية: ص ٢٠٦، وفيات الأئمة: ص ٣٨٦.

٣. لأن بريحة العباسي كتب إلى المتوكل: إن كان لك في الحرمين حاجة فأخرج علي بن محمد منها، فإنه قد دعا إلى نفسه واتبعه خلق كثير. راجع البحار: ج ٥٠ ص ٢٠٩.

٤. ويلقب بالعسكري، نسبة إلى مدينة عسكر بسامراء، وهو أشهر ألقابه، وإذا أطلق أُريد به الحسن بن علي عليه السلام وأما لقب (الخالص) فهو من ألقابه، ولكنّه قليل الاستعمال عند الشيعة. راجع في ذلك: وفيات الأعيان: ج ٣ ص ٢٧٣، الصواعق المحرقة: ص ٢٠٧، فيض القدير: ج ٥ ص ٤٢٢، الأعلام: ج ٢ ص ٢٠٠، كشف الغمة: ج ٣ ص ١٩٦ و ٢٢٣ و ٢٢٤، يتابع المودّة: ج ٣ ص ٣٠٥.

٥. مات مسموماً كأبائه العظماء. راجع في ترجمته: الإرشاد: ص ٣٣٤ و ٣٤٦، كشف الغمة: ج ٢ ص ٤٠٢ - ٤٣٥، أعيان الشيعة: ج ٤ ص ١٧٣، بحار الأنوار: ج ٥٠ ص ٤٣٥ - ٢٣٧.

٦. ذهب العشرات من علماء العامة إلى ذلك أيضاً. راجع في ذلك (أعيان الشيعة: ج ٤ ص ٨٠ - ١٠٣) منهم: مطالب السؤل في مناقب آل الرسول لكمال الدين محمد بن طلحة القرشي الشافعي، والبيان في أخبار صاحب الزمان، وكفاية الطالب للكنجبي الشافعي، والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي، والفتوحات المكية لمحيي الدين بن العربي، والبيواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر لعبد الوهاب الشعراني، وروضة الأحياب في سيرة النبي والآل والأصحاب لجمال الدين عطاء الله، وفصل الخطاب لمحمد بن محمود البخاري، ومرآة الأسرار للعارف عبد الرحمان الصوفي، والحديث المسلسل لأحمد بن إبراهيم البلاذري، وتواريخ ومواليد الأئمة لابن الخشاب.

٧. الأئمة الاثنا عشرية

بهذا التاريخ يختم الأئمة الاثنا عشر حقبة من الزمن علّموا فيها المسلمين العلم الذي آل إليهم عن آبائهم - عن طريق الإمام الصادق - بعيدين عن السلطة، مدركين جلال ما يقدّمون للأئمة، من تراث جدّهم عليه السلام، يعصّون عليه بالنواجذ، ويبرّؤونه من الزيوف، ويتبرّؤون ممّن غلّوا فيهم^١.

أقامت الأمم الإسلامية الدول تترى، في القارات الثلاثة في العالم المعروف، منتسبة إلى أهل البيت من أبناء الحسين أو أبناء عمومته، ومجتمعات مزدهرة، وحضارات يضرب بها الأمثال: في العراق واليمن وخراسان وإيران وأفغانستان وباكستان والهند ولبنان وسورية

→

[٣] الحسين (٥٦١ هـ)	[٢] الحسن (٥٠ هـ)	محمد ابن الحنفية (٥٢ هـ)
[٤] علي زين العابدين (٩٤ هـ)		أبو هاشم (٩٨ هـ) عبدالله
[٥] محمد الباقر (١١٤ هـ)		محمد وإبراهيم ويحيى وإدريس
[٦] جعفر الصادق		

اسماعيل	[٧] موسى الكاظم (١٨٣ هـ)	
محمد	[٨] علي الرضا (٢٠٣ هـ)	
سعید (عبيدالله المهدي)	[٩] محمد الجواد (٢٢٠ هـ)	
	[١٠] علي الهادي (٢٥٤ هـ)	
	[١١] الحسن العسكري (٢٦٠ هـ)	
	[١٢] محمد المنتظر، ولد بسامراء سنة ٢٥٦ هـ، واختفى بعد سنة ٢٦٠ هـ. (منه).	

١. من الفرق الغالية: العميرية (أصحاب عمير بن بيان العجلي) عبدوا جعفر الصادق فتبرّأ منهم، وصلبه يزيد بن هبيرة والي بني أمية سنة ١٢٨. ومنها: أتباع أبي الخطاب الأسدي محمد بن أبي زينب زعيم الخطابية، زعم أنّ جعفرًا إله، فتبرّأ منه الإمام، فادّعى الألوهية لنفسه! وحاربه المنصور وأسرّه وصلبه في الكوفة، ومنها: البزيفية (أصحاب بزيع بن موسى) عبدوا جعفر الصادق، والمعمرية (أصحاب معمر ابن الخيثم الخياط بالكوفة) وهم فرقة من الخطابية، يقولون: إنّ النور خرج من جعفر ودخل في أبي الخطاب، فصار جعفر ملاكاً وأبو الخطاب إلهاً! والمفضلية (أصحاب المفضل بن عمر الصيرفي ١٧٠) يقولون بإمامة معمر وألوهية جعفر، والسرية (أصحاب السري بن منصور ٢٠٠) يقولون: إنّ السري رسول جعفر، وجعفر هو الله والسلام والإسلام. وكانوا في الحجّ يقولون: لبيك يا جعفر لبيك!!

ويقولون ابن التديم في الفهرست: «إنّ أتباع أبي الخطاب أظهرتهم الفرقة الميمونية» أي: الاسماعيلية» ويقول النوبختي (٣١٠) عن أتباع أبي الخطاب: «خرج من قال بمقاتله من أهل الكوفة وغيرهم إلى محمد بن اسماعيل بن جعفر فدخلوا في فرقته، وسُمّي أتباع محمد بن اسماعيل: الاسماعيلية». (منه).

والكويت والبحرين وشرق أفريقية، وكثير سواها.

ففي المغرب أقام الدولة الإدريسية: إدريس^١ بن إدريس بن عبد الله أخي الشهداء الثلاثة محمد وإبراهيم ويحيى أبناء عبد الله بن الحسن، وكان قد فرّ إلى المغرب الأقصى عن طريق مصر سنة ١٧٢ هارياً من بطش الرشيد، ثم قيل: بعث إليه الرشيد من سعة^٢. وفي المشرق قامت دولة أخرى على يد الحسن^٣ بن زيد بن... الحسن (٢٥٠ - ٢٧٠)، وأعقبه فيها أخوه^٤، وهما ققيهان زيديان^٥. وقامت الدولة الساسانية بخراسان، عاصمتها بخارى في روسيا السوفيتية الآن، وأقام أئمة الشيعة الاسماعيلية دولة كبرى في أفريقية وآسيا (الدولة الفاطمية)، ثم قامت الدولة الإمامية الكبرى^٦ في إيران، حيث بقيت العقيدة الإمامية والفقهاء الإمامية عقيدة وشريعة حتى اليوم، وسيطرت الدولة البويهية (٣٢٤ - ٤٤٧) على الخلافة العباسية بتمامها، ووضعت مراسم التشيع وأعياده، فجعلت يوم كربلاء مأتماً قومياً^٧، ويوم الغدير عيداً إسلامياً^٨.

١. راجع: المسائل الجارودية للمفيد: ص ٧، عمدة الطالب: ص ١٥٨، المجدي في أنساب الطالبين: ص ٦٢.
٢. المعروف أن الذي سُمّيه الرشيد، هو أبوه إدريس بن عبد الله، فقد دعا الرشيد سليمان بن جرير الرقي وأعطاه سناً، فورد سليمان إلى إدريس متوسماً بالمذهب، فسّر به إدريس، فسّر به إدريس، ثم طلب منه غرة، ووجد خلوة من مولاة راشد، فسقاه السمّ وهرب. راجع عمدة الطالب: ص ١٥٧.
٣. هو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن، الحسيني العلوي، مؤسس الدولة العلوية في طبرستان، كان يسكن الري، فحدثت فتنة بين صاحب خراسان وأهل طبرستان (٢٥٠ هـ) فكتب إليه هؤلاء يبايعونه، فجاءهم وزحف بهم إلى أمل فاستولى عليها، وكثر جمعه، ثم قصد سارية فملكها، ثم الري، ودامت إمرته عشرين عاماً كانت كلها حروباً ومعارك. كان حازماً مهيباً، مرهوب الجانب، فاضل السيرة، حسن التدبير، توفي سنة ٢٧٠ هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ١٩١).
٤. هو محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن الحسيني راجع: شرح الأخبار: ج ٣ ص ٣٤٩.
٥. راجع: الذريعة: ج ١٧ ص ٢٧٠، معجم المؤلفين: ج ٣ ص ٢٢٧.
٦. وهي الدولة الصفوية التي أنشأها السلطان إسماعيل الصفوي عام ٩٠٥ هـ في إيران، ثم ضمّ إليها العراق وخراسان وهرات. راجع مقدمة رياض المسائل: ج ١ ص ٦٦، والذريعة: ج ١ ص ٢٩٨.
٧. المنتظم: ج ١٤ ص ١٤٠ - ٣٦١، الهداية للصدوق: ص ١٣٦، الكامل في التاريخ: ج ٥ ص ٣٣١ و ٣٣٥ و ٣٦٥.
٨. شذرات الذهب: ج ٤ ص ٢٧٣ و ٢٩٠، تنمة المنتهى: ص ٣٠٩.

٨. عقد الشيخ الأميني في الغدير: ج ١ ص ٢٨٣ - ٢٨٧ فصلاً عن عيد الغدير كعيد عند العترة الطاهرة قبل أن يولد

وأمر معز الدولة بن بويه فكتب على المساجد في بغداد «لعن الله معاوية ابن أبي سفيان، ولعن من غضب فدكاً، ومع منع أن يدفن الحسن في قبر جدّه عليه السلام، ومن نفى أباذر الغفاري، ومن أخرج العباس من الشورى» فحكّه الناس، فاكتمى بأن أمر أن يكتب على المساجد «لعن الله الظالمين لآل الرسول ﷺ» وأمر ألا يذكر في اللعن إلا معاوية^١.

وتحوّل بنو بويه عن زديتهم، وسلوكوا مسلكاً إمامياً، وولّوا الشريف أبا أحمد^٢ نقابة الطالبين وإمارة الحج^٣ بل ولّوا ابنه الشريف الرضي النيابة عن الخلافة العباسية^٤، ومع ذلك كان بين حين وآخر يشعر بالسخط، فيجري على لسانه الشعر الذي يمجّد الخلافة الإسماعيلية:

أيّ عذرٍ إلى المجد إن ذلّ غلامٌ في غمده المشرفي
أليس الذلّ في ديار الأعادي وبمصر الخليفة العلوي^٥!

فهذا زعيم إمامي، يفاخر بخليفة إسماعيلي، وهو في الوقت ذاته قد ولي نيابة الخليفة السني.

عدالة السماء

والدول - كالكائنات الحيّة، وكالأفراد والمجتمعات - تشتقّ قانونها من أسباب وجودها، وتلتزمه فتبقى وتسلم، أو تخرج عليه فتفقد سبباً أو أكثر من أسباب تقدّمها ونمائها، وربّما

→ آباء البويهيين. ثم ردّ في ص ٢٨٧ - ٢٩٠ على التويري في نهاية الإرب في فنون الأدب: ج ١ ص ١٧٧.

والمقرزي في الخطط: ج ٢ ص ٢٢٢، اللذين ذهبا إلى أن عيد الغدير ابتدعه معز الدولة البويهي، فراجع. ١. راجع: المنتظم: ج ١٤ ص ١٤٠ وقائع سنة ٣٥١، توضيح المقاصد [المجموع] للبهاني العالمي: ص ١١، كتاب الأربعين للشيرازي: ص ٥٢٣، البداية والنهاية: ج ١١ ص ٢٧٤، تاريخ ابن خلدون: ج ٣ ص ٤٢٥ و ج ٤ ص ٤٤٢، الكامل في التاريخ: ج ٥ ص ٣٢٧.

٢. الحسين بن موسى الحسيني العلوي الطالب: أبو أحمد، نقيب العلويين في بغداد، ووالد الشريفين: الرضي والمرضى. ولي نقابة العلويين وإمارة الحج سنة ٣٥٤ هـ، وكتب له منشور من ديوان الخليفة، ثم قبض عليه عضد الدولة البويهي سنة ٣٦٩ هـ، وأطلقه شرف الدولة ابن عضد الدولة سنة ٣٧٢ هـ، وأعيد إليها سنة ٣٩٤ هـ وأضيف إليه الحج والمظالم، فلم يزل على ذلك إلى أن توفيّ ضريراً. (الاعلام: ج ٢ ص ٢٦٠).

٣. أنظر أوائل المقالات للمفيد: ص ٢٤٢.

٤. انظر المصدر السابق.

٥. خصائص الأئمة: ص ٢٤، حقائق التأويل: ص ٣٨ و ٤٤، البداية والنهاية: ج ١٢ ص ٥.

فقدت سبب بقائها، وكلّما أصابها السقم رجعت إلى سبب وجودها تلتمس السلامة.
لقد نشأت الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي على قواعد الإسلام في السنة الأولى للهجرة، فأخضعت دول العالم المعروف في بضعة عشر عاماً من حياة النبي وأصحابه، وأقامت المجتمع الأفضل الذي صُنِعَ على يد الرسول وعلى عينه.
وكلّما أبعد المسلمون من هذا الفضل، قلّ الشبه في الصورة عنه في الأصل، وكلّما فكّروا في العودة إلى الأمر ولّوا وجوههم شطره، وما هو إلّا عمل النبي وآله وصحبه.
فكلّ عملٍ أو بحثٍ لإقامة الدولة المثلى لمجتمعٍ مسلمٍ يتّجه بالطبيعة إلى أيام النبوة، والعمل بالقرآن والسنة.

وآل النبي هم أقرب الرجال إلى الصميم من ذلك وإلى قلوب الأمة، وهم أرفع شعائر يمكن تحريك الجموع به، فهم أهل النبي والقرآن والسنة جميعاً، لا بالعرف وحده، وإنما بسيرتهم التي ليس لها في التاريخ نظير.

والإمام الصادق يتوهج كالنجم الثاقب في هذه السماء، فهو مدرسة العلم مع الزهادة في السلطة، وهو إمام فقه في الدين والعلم، وصاحب مناهج للدنيا، ومعلّم للإصلاح والتشريع والسياسة والاقتصاد، وهي الوسائل المحرّكة للتقدّم في جميع الأمم.
فلا عجب أن كانت دعوات الإصلاح ودعاءات الرجاء في كلّ العصور تلتبس في علمه المدوّن، وسيرته التي يمجدّها المسلمون، ذكريات فضائل تمشي على الأرض، وتطبيقات مفلحة، لتعاليم كفيفة بإقامة حكمٍ صالح يردّ الحكّام إلى الدين، ويعيد الدين غضّاً في أنفس الناس، كما كان في أفئدة السلف الصالح.

ويتراءى مصداق هذه الحقيقة للقانون الطبيعي للإسلام، أو للطبيعة الدينية للمجتمع المسلم، في قيام الدولة العباسية بدعوى «تصحيح التاريخ» وبشعار «الدعوة إلى الرضا من آل محمد»، فلما أجهضت هذه الدولة مبادئها بخعت نفسها، فصارت ملكاً عضوداً خيراته للملوك، فلم يك معدى عن إعادة التصحيح بالعودة إلى رسالة النبي وتعاليمه وآله.
وإنما انحرفت الدولة الإسلامية في تجاربها التي أقامتها الدول: الأموية والمروانية والعباسية لغضبها حقوق أهل البيت، ونصبها العداء لهم، في موجة انصراف الحكّام عن مصالح الأمة وشريعتها إلى شهواتهم، فتصحيح التاريخ يبدأ بإقرار حقّ علي وأبناء النبي والعمل بالشرعية.

والتاريخ خاضع لقانون الطبيعة أو قانون الحركة: «لكلّ فعل ردّ فعلٍ، مساوٍ في المقدار، ومضادّ له في الاتجاه».

والحقائق الكبرى في التاريخ كالظواهر العظمى في الطبيعة، لا تُخفي، والذي يخفي الحرارة أو البرودة لا يبغته الغليان أو التجمّد، أو رعدة الحمى أو رعشة البرد، والذي يخفي الضغط الجوي لا يأخذه الانفجار أخذ الفجاءة.

وعمر بن عبد العزيز^١ والمأمون هما الانفجاران المحتومان في دولتي بني مروان وبني العباس، لأنهما الممثلان الصادقان للضمير الإسلامي في الدولة أو الجماعة أو الأفراد، أو في العلم أو في الحكم أو العدل أو الجهاد، على رأس المائة الأولى ورأس المائة الثانية.



أما عمر فنما في أكناف بيت طالما حاول طمس فضائل علي، فلما شبّ عن الطوق أصبح يعلن للناس إسرار أبيه له أنّ الناس لو عرفوا فضائل علي لانصرفوا إليه عن دولتهم، حتّى إذا ولي إمرة المدينة أبطل سبّ علي على المنابر، وكان عمر يرزح تحت الرقابة الشديدة من الخليفة الوليد، والسباق المجنون من الحجّاج لظلم بني علي، مع استرضاء بني مروان للحجّاج، حتّى ليعزل الوليد عمر بن عبد العزيز عليه السلام، لإرضاء الحجّاج بن يوسف الثقفي^٢!! فلما ولي عمر الخلافة أقسم أن يتخذها طريقاً إلى الجنة، فردّ لأهل البيت مظالمهم، وأعاد لهم فدكاً^٣، وبعث إليهم عشرة آلاف دينار ليعوّضهم عمّا سلبهم سابقوه. وكانت الشهور الثلاثون - مدّة خلافته - تلقي على كاهل رجلٍ هزل الورع جسده، أعباء الدين والدنيا، يدرك أنّ أيامه معدودات، وتهمه أهله بأنّه يوشك أن يخرج الخلافة منهم إلى بني علي^٤.

١. قال الإمام الباقر عليه السلام في حقه: «لكلّ قوم نجبية، ونجبية بني أمية عمر بن عبد العزيز» راجع: تاريخ مدينة دمشق: ج ٤٥ ص ١٤٧، تهذيب الكمال: ج ٢١ ص ٤٣٩، سير أعلام النبلاء: ج ٥ ص ١٢٠، تهذيب التهذيب: ج ٧ ص ٤١٩. وقال الشريف الرضي فيه كما في مناقب ابن شهر آشوب: ج ٣ ص ٢٣:

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين فستى في أمية ليكيتك
أنت زهنتنا عن السبّ والشمم فلو أمكن الجزاء جزيتك .

وراجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٤ ص ٦٠.

٢. راجع في ذلك تاريخ الطبري: ج ٥ ص ٢٥٦.

٣. أنظر: شرح نهج البلاغة: ج ١٦ ص ٢٧٨، الاحتجاج للطبرسي: ج ١ ص ١٢٠، فدك في التاريخ: ص ٣٧.

٤. أتنى «العمرى» مالكاً فقال له: يا أبا عبدالله، بايعني أهل الحرمين، وأنت ترى سيرة أبي جعفر، فماترى؟ فقال له

بل أعلن عمر أنه لو استطاع لعهد بالخلافة لمن كان مثله، فقال:

«لو كان لي من الأمر شيء لاستخلفت أعيمش بنى تيم القاسم بن محمد ابن أبي بكر^١. وهو العليم أنّ محمداً ترعرع في حجر علي قبل أن يستخلف^٢، وأنه حارب معه معاوية، فلما ولّاه مصر، باء بدمه قواد معاوية^٣، فهو عدو بني أمية من كل وجه، وأنّ «القاسم» همزة الوصل بين الصديق وبين أهل البيت، بنته أم فروة تحت جناح الباقر، وابنهما جعفر الصادق في عنفوان صباه، أمل تتجه الأبصار لتلقاه».

وأما المأمون فعبقري العلم، سواء العلم الديني من أصول وفقه ودين وحديث، أو العلم العام، وفيه: التاريخ والفلسفة والعلوم التطبيقية والرياضية والفلكية، وحيث له في جوار قصره مرصد يرصد فيه النجوم^٤، وهو بطل حروب، ورجل دولة عالمي، لا يعرف التاريخ، من عهد اليونان والرومان حتى الآن، ملكاً بلغ مبالغه في كل أولئك مجتمعاً، وهو يقف في القمة من الدولة العباسية، فمن بعده بدأ الانحدار، وكانت الأعوام السبعون التي انصرفت من عمرها وانحرفت في إبانها تشير إلى الحاجة إلى عقل عبقري فيه إنصاف، ليحدث عوداً على بدء، فأعلن تشييعه^٥، بل عهد من بعده لإمام الشيعة في عصره، بل زوجه وابنه من بنتين له^٦.

→ مالك: أندري ما الذي منع عمر بن عبد العزيز أن يولي رجلاً صالحاً؟ قال: لا أدري، قال مالك: لكنتي أنا أدري، إنما كانت البيعة ليزيد (بن عبد الملك) بعده، فخاف عمر إن ولي رجلاً صالحاً أن لا يكون ليزيد بد من القيام، فتقوم هجمة ويفسد ما لا يصلح. (منه).

١. سير أعلام النبلاء: ج ٥ ص ٥٩، وروى الواقدي عن أفلح بن حميد أنها بلغت القاسم، فقال: إني لأضعف عن أهلي، فكيف بأمر الأمة.

٢. لأن أسماء بنت عميس كانت تحت أبي بكر وولدت له محمداً، ثم مات عنها وتزوجها علي بن أبي طالب، فيكون محمد بن أبي بكر ربيب الإمام علي. راجع: الاستيعاب: ج ٤ ص ٢٣٤، الإصابة: ج ٤ ص ٢٣١، أسد الغابة: ج ٧ ص ١٤.

٣. رجال الطوسي: ص ٣٠ و ٥٨، رجال الكشي: ج ١ ص ٢٨١، رجال السيد الخوني: ج ١٤ ص ٢٣٠.

٤. أنظر: عصر المأمون: ج ١ ص ٣٧٥، فهرست ابن النديم: ص ٣٣٤، كشف الظنون: ج ١ ص ٩٠٥.

٥. ذهب إلى تشييع المأمون جماعة من أئمة أهل السنة: كجلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء: ص ٢٤٦ قال: «في سنة إحدى ومائتين خلع المأمون أخاه المؤمن من العهد، وجعل ولي العهد من بعده علي الرضا، حملته على ذلك إفراطه في التشيع». وأيضاً الذهبي في سير أعلام النبلاء: ج ١٠ ص ٢٨٣ - ٢٨٥، منها عبارته: «إن المأمون لتشييعه أمر بإباحة المتعة». بل إن ابن خلدون تعدى ذلك وقال في تاريخه: «إن دولة بني العباس دولة شيعية». وذكر جماعة إلى أن القاضي التستري من علماء الشيعة ذهب أيضاً إلى ذلك في كتابه «مجالس المؤمنين»، إلا أنه

ولقد كان حقيقاً أن يبلغ غرضه لولا أن الإمام «علياً الرضا» مات فجأةً، كمثل ما كان السياسيون في العهد العباسي يموتون فجأةً! ولو لا أن المأمون رأى أن يأمن في سربه انتقاضات أهله، بعد إذ حاربوه بجيوشهم لمدة عامين^٧ من جراء تشييعه، لكان قد ولى عهده بعد علي الرضا زوج بنته الأخرى، الإمام التاسع محمداً الجواد.

وكانت خلافة المأمون تمثل حكماً يحاول أن يستقر على أساس ديني، وهذا ظاهر في عهده لعلي الرضا، وعلى أساس علمي، وهذا ظاهر في عمله لإلزام الناس برأي المعتزلة^٨، وعلى سند سياسي ليقدر على مقاومة تيارات تتناوشه من شتى الجهات، سياسية كالوفاة من الفرس والروم، أو عائلية كنزاعات أهله، أو فكرية كالتقضايا التي آلت إلى المسلمين من موارث اليهودية والمسيحية، يحمل ألوية الجدل فيها المعتزلة، والمأمون من كبرائهم.

ولمّا فقد الذين جاءوا بعده قدرتهم على التوازن بين الزواج، كهيئة توازنه، آلت الدولة إلى الترك، وتتابع تقسيمها أقاليم ودولاً، ولم يعد للدين في الدول الجديدة الكلمة العليا، بل أصبحت للمعايش والأرزاق ومدارة الحكام، وبهذا دبّ التدهور في الأفراد والمجتمعات والدولة، وأفسدت الدولة الفرد، وأفسد الفرد بدوره الدولة.



ومن تصحيح التاريخ للأشياء كانت أول دولة استقلت عن بني العباس في القرن الثاني دولة إدريس بن إدريس بن عبد الله في المغرب، فدولة الحسن بن زيد في المشرق. وتتابع الدول في القرن الثالث بخراسان ومصر وأفريقية، وفي اليمن حيث ملك القاسم

→ عند مراجعة مقدمة كتابه تجده يشير إلى أن تشيع المأمون تشيع بالمعنى العام لا الخاص، حيث إنّه يذهب إلى الاعتقاد بإمامة علي عليه السلام بعد النبي ﷺ بلا فصل، ولكنه لا يذهب إلى أئمة باقي ولده عليه السلام.

٦. وفي سنة ٢١١ أمر المأمون فتودي: يرث الذمة ممن ذكر معاوية بخير وفضله على أحد من الصحابة، كما أمر بتفضيل الإمام علي، وأنه أفضل الناس بعد رسول الله، وأوصى أخاه المعتصم بقوله: وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي، فأحسن صحبتهم، وتجاوز عن مسيئتهم، وأقبل من محسنتهم، وصلاتهم فلا تفلها في كل سنة عند محلها، فإنّ حقوقهم تجب من وجوه شتى. (منه).

٧. راجع: عيون أخبار الرضا: ج ١ ص ١٧٦، بحار الأنوار: ج ٤٩ ص ١٤٣، تاريخ خليفة: ص ٣٧٨، تاريخ بغداد: ج ٦ ص ١٤٠ - ١٤٢، ج ٧ ص ٣٣١، تاريخ دمشق: ج ٧ ص ١٥٥، الأنساب للسمعاني: ج ٣ ص ٥٥١، تاريخ الطبري: ج ٧ ص ١٣٩ وما بعدها، التنبيه والاشراف للمسعودي: ص ٣٠٣.

٨. انظر دائرة المعارف الإسلامية: ج ١ ص ٤٩٢.

بن إبراهيم^١ (٢٤٦ - ٢٨٦) وإليه تنسب الزيدية القاسمية، ثم الهادي بن القاسم^٢ وإليه ينسب الهادوية، وبقيت دولة الشيعة باليمن حتى إعلان الجمهورية سنة ١٩٦٢ للميلاد.

وفي القرن الرابع قامت دولة بني بويه ٣٢٤ - ٤٤٧ هـ، ٩٤٥ - ١٠٥٥ م وهي شيعة زيدية^٤ في العراق وفارس، حيث عاصمتهم شيراز. وقام الحمدانيون في العراق والشام ٣١٧ - ٥٣٥ هـ، وهم شيعة إمامية^٦، يذكر الإسلام لهم الدفاع عنه ضدّ غزوات الإمبراطورية الرومانية من بيزنطة^٧، وتدين لهم الأمة العربية بأحسن أشعار أبي الطيّب المتنبّي^٨، وبشعر

١. هو القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الحسيني العلوي، المعروف بالرسي، فقيه، شاعر، من أئمة الزيدية، فكان يسكن جبال (قدس) من أطراف المدينة، وأعلن دعوته بعد موت أخيه (ابن طباطبا) سنة ١٩٩ هـ، ومات في الرس، وإليه تنسب القاسمية، ولد في سنة ١٦٩ هـ، وتوفّي سنة ٢٤٦ هـ (الحدائق الوردية: ج ٢ ص ٢، الأعلام: ج ٥ ص ١٧١).

٢. الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي (٢٤٥ - ٢٩٨) أول أئمة الزيدية في اليمن، له مقام شامخ عند الزيدية لا يكاد يرقى إليه إمام من أئمتهم غيره، كان على ورع شديد. وهو عالم، فقيه، سياسي، مؤسس دولة الأئمة في اليمن، وواضع أسس الهادوية، حارب القرامطة حروباً شديدة، وكان له ولفقه شأن عظيم في تاريخ اليمن، مقامه بصعدة مشهور مزور. (الإفادة: ص ١٢٨، الأعلام: ج ٨ ص ١٤١، الحدائق الوردية: ج ٢ ص ١٣، الموسوعة اليمنية: ج ٢ ص ١٠١٨).

٣. سنة (٣٣٤ هـ) لا (٣٢٤ هـ) لأنّها قامت ١١٠ سنوات ميلادية، وهو ما يعادل ١١٣ سنة قمرية، فتكون نشأتها ٥٣٣٤ هـ.

٤. هي شيعة إمامية. راجع المقنعة للمفيد: ص ١٢، تصحيح الاعتقادات: ص ٢٢.

٥. حكموا الموصل والديارات (ديار ربيعة وديار بكر وديار مضر) فقط. راجع: الهداية للشيخ الصدوق ص ١٢٥. وقال الشهيد الأول في الدروس: ج ١ ص ٥٠: إنهم حكموا الموصل وحلب، وامتدّ حكمهم من ٣١٧ إلى ٣٩٤ هـ. وبمثله الشهيد الثاني في شرح اللمعة: ج ١ ص ١٣٢.

٦. أنظر: غنية النزوع: ص ٦، معجم البلدان: ج ٢ ص ٢٧٣، أعيان الشيعة: ج ١ ص ٢٠١، الهداية الكبرى: ص ١٧.

٧. شيدها المتنبّي في أشعاره في مدائح سيف الدولة.

٨. هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أبو الطيّب المتنبّي، الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. ولد بالكوفة في محلّة كندة سنة ٣٠٣ هـ، ونشأ بالشام ثم تنقل بالبادية يطلب الأدب والعربية وأيام الناس، وقال الشعر صبيّاً، وفد على سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب سنة ٣٣٧ فمدحه، وحظي عنده، ثم مضى إلى مصر ومدح كافور الأخشيدي، وقصد العراق وقرئ عليه ديوانه، وزار بلاد فارس وشيراز فمدح عضد الدولة الديلمي، عرض له فاتك بن أبي جهل الأسدي في الطريق بجماعة من أصحابه، فقتل أبو الطيّب وابنه وغلّامه في النعمانية سنة ٣٥٤ هـ، وقبره هناك. (الأعلام: ج ١ ص ١١٥).

أبي فراس الحمداني^١، وفلسفة الفارابي^٢ فيلسوف المسلمين - المعلم الأول عند العرب - أو المعلم الثاني^٣ في العالم حيث أرسطو هو المعلم الأول.

وفي القرن الخامس كان بنو حمود بالأندلس^٤ (٤٠٧ - ٤٤٧) وهم من أبناء الأدارسة، وفي القرن السادس كان ابن تومرت^٥ (... بن عبد الرحمن... بن محمد بن الحسن بن علي)^٦

١. هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربيعي؛ أبو فراس الحمداني، أمير، شاعر، فارس، وهو ابن عم سيف الدولة. كان الصاحب بن عباد يقول: بُدئ الشعر بملكك وخُتم بملك. وله وقائع كثيرة. قاتل بها بين يدي سيف الدولة. وكان سيف الدولة يحبه ويجلّه ويستصحبه في غزواته، ويقدمه على سائر قومه، وقلده (منجج وحران) وجرح في معركة مع الروم فأسروه سنة ٣٥١هـ، فامتاز شهرة في الأسر بروميته، وبقي في القسطنطينية أعواماً، ثم فذاه سيف الدولة بأموال عظيمة، قُتل في «صدد» على مقربة في حصص، قتله أحد أتباع سعد الدولة ابن سيف الدولة سنة ٣٥٧هـ، وكان أبو فراس خال سعد الدولة، وبينهما تنافس. (الأعلام: ج ٢ ص ١٥٥).

٢. هو محمد بن محمد بن طرخان؛ أبو نصر الفارابي، ويُعرف بالمعلم الثاني، أكبر فلاسفة المسلمين، تركي الأصل، مستعرب، ولد في فاراب على نهر جيحون سنة ٢٦٠هـ، وانتقل إلى بغداد فنشأ فيها، وآلف بها أكثر كتبه، ورحل إلى مصر والشام، واتصل بسيف الدولة ابن حمدان، وتوفي بدمشق سنة ٣٣٩هـ. كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره. ويقال: إنّه صنع آلة القانون، وعُرف بالمعلم الثاني لأنه شرح مؤلفات أرسطو (المعلم الأول). كان زاهداً في الزخارف، لا يحفل بأمر مكسب أو مسكن، يميل إلى الانفراد بنفسه، ولم يكن يوجد غالباً في مدة إقامته بدمشق إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض. (الأعلام: ج ٧ ص ٢٠).

٣. أنظر: مستدرک سفينة البحار: ج ٥ ص ٢٣٤، شرح الاسماء الحسنی: ج ١ ص ١١٧، ٢٧١، تفسير الميزان: ج ٥ ص ٢٨٠، الذريعة: ج ٥ ص ١٩٨، ج ٨ ص ١٠.

٤. مؤسسها علي بن حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله المحض ابن الحسن المثنى ابن ریحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحسن بن علي بن أبي طالب، الناصر لدين الله، الهاشمي، العلوي، الإدريسي. استولى على الأمر بقرطبة في أول سنة سبع وأربعمئة، وكانت دولته ٢٢ شهراً، ثم خالف عليه الموالي الذين قاموا بنصره وبيعته، فخرجوا عليه، وقدّموا عليه الأمير عبد الرحمان بن محمد بن عبد الملك بن الناصر لدين الله الأموي، ولقبوه بالمرتضى... ثم خافوا من غائلته ففرّوا عنه ودسّوا عليه من قتله. وأما علي بن حمود فوثب عليه غلمان له صقالية في الحمام فقتلوه سنة ٤٠٨هـ، ثم وليها القاسم بن حمود ابن ميمون أخوه، وهكذا استمرت إلى سقوطها سنة ٤٤٧هـ. (سير أعلام النبلاء: ج ١٧ ص ١٣٥-١٣٦).

٥. هو محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي البربري، الملقب بالمهدي، ويقال له: مهدي الموحدين، صاحب الدعوة للسلطان عبد المؤمن بن علي ملك المغرب، وواضع أسس الدولة المؤمنية الكومية. وهو من قبيلة (هرغة) من المصامدة من قبائل جبل سوس بالمغرب الأقصى، وتنسب هرغة إلى الحسن بن علي، وفي نسب

مؤسس دولة الموحّدين^٧، وكانت خطبة الجمعة عندهم تشتمل على الصلاة عليه، باعتباره الإمام المرحوم المهدي المعلوم^٨ وإن كانت دولته ودولة الأدارسة أو بني حمود أو الدولة الفاطمية تحكّم شعوباً سنيّة. ولا شكّ أنّ كبرى الدول التي أقامها الشيعة كانت الدولة الفاطمية (الإسماعيلية).

الإسماعيلية^٩

قامت الدولة الفاطمية (نسبةً إلى فاطمة الزهراء) في المغرب، ثم مصر منتسبةً إلى «إسماعيل^{١٠}» بن الإمام جعفر الصادق، وكان قدماء في حياة الصادق، والإسماعيلية ينفون

→ ابن تومرت أقوال. ولد ٤٨٥ في قبيلته وبها نشأ، ورحل إلى المشرق طالباً للعلم سنة ٥٠٠ هـ، فانتهى إلى العراق. وحجّ وأقام بمكة زمناً، واشتهر بالورع والشدة في النهي عمّا يخالف الشرع، فتعصّب عليه جماعة بمكة، فخرج منها إلى مصر، فطردته حكومتها، فعاد إلى المغرب ونزل بالمهدية، فكسّر ما فيها من آلات اللهب وأواني الخمر، وانتقل إلى بجاية فأخرج منها إلى إحدى قرأها واسمها «ملالة» فلقى بها عبد المؤمن بن علي القيس وكان شاباً نبيلاً، فاتفق معه على الدعوة إليه، واتخذ أنصاراً رحل بهم إلى مراكش ومعه عبد المؤمن، ونزل بموضع حصين، فجعل يعظ سكّانه حتّى أقبلوا عليه، وحرّض على ابن تافشين، ثم هاجم مراكش، ومات قبل أن يفتحها، فكانت الفتوحات من بعده لعبد المؤمن. (الأعلام: ج ٦ ص ٢٢٨).

٦. ونسبه الكامل هو محمد بن عبدالله بن عبد الرحمان بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن رياح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب. (سير أعلام النبلاء: ج ١٩ ص ٥٣٩).

٧. راجع: المعجب: ص ١٧٨ وما بعدها، وفيات الأعيان: ج ٥ ص ٤٥ - ٥٥، سير أعلام النبلاء: ج ١٩ ص ٥٣٩ وما بعدها.

٨. سير أعلام النبلاء: ج ١٩ ص ٥٣٩.

٩. ويلقبون - في مراجع أهل السنّة - ألقاباً أخرى، أهمّها: «الباطنية». (منه).

١٠. هو إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، الهاشمي، المدني، ويعرف بالأعرج. أمه فاطمة بنت الحسين الأثرم. أكبر أولاد الإمام الصادق، وأكثرهم محبّةً لديه. كان رجلاً صالحاً فاضلاً محدثاً جليلاً، روى عنه ابنه الفضل وداود بن فرقد وأبو محمد الرازي، توفي في حياة أبيه بالعريض سنة ١٣٣ هـ، وقيل: ١٤٣ هـ، وحُمل على رقاب الرجال إلى المدينة حتّى دفن في البقيع، وحزن عليه الصادق حزناً عظيماً، وتقدّم سريره بغير حذاء ولا رداء. يعدّ جد الخلفاء الفاطميين، وإمام الفرقة الإسماعيلية. (تنقيح المقال: ج ١ ص ١٣١، معجم رجال الحديث: ج ٣ ص ١١٠، معجم الرجال: ج ١ ص ٢٠٩ و ١١٠).

ذلك، ومنهم من يقول: إن أباه ادعى موته اتقاءً لأذى أبي جعفر المنصور له^١. وفي أواخر القرن كان عبد الله بن ميمون القداح^٢ (١٩٨) من أتباع الخطابية^٣ ينشر دعوة لنفسه بالبلاذ، فأجابه حمدان بن الأشعث - قرمط^٤ - ثم مات القداح، فخلفه أبناؤه ودعوا لأنفسهم باعتبار أنهم من ولد عقيل، ثم هرب أحفاده إلى المغرب في أفريقية، وبجهدهم أو

١. الفصول المختارة للشيخ المفيد: ص ٣٠٥، الفصول العشرة للشيخ المفيد أيضاً: ص ٤٩.

٢. إن عبد الله بن ميمون بن القداح هذا غير عبد الله بن ميمون القداح صاحب الإمام الصادق عليه السلام الذي ذكره ابن النديم في الفهرست: ص ٢٧٨ عند الحديث عن تأسيس الإسماعيلية. قال: «إن عبد الله بن ميمون وكان من أهل قوزح العباس يقرب مدينة الأهواز، وأبوه ميمون الذي تُنسب إليه الفرقة المعروفة بالميمونية التي أظهرت أتباع أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الذي دعا إلى ألوهية الإمام علي عليه السلام، وكان ميمون وابنه ديسانين، وادعى عبد الله أنه نبي مدةً طويلةً، وكان يظهر الشعابذة... صار عبد الله إلى البصرة فنزل على قوم من أولاد عقيل، فلبس هناك، فهرب إلى «سلمية» بقر حمس، وبعث الدعوة إلى سواد الكوفة، فأجابه من هذا الموضع رجل يعرف بحمدان بن الأشعث، ويلقب قرمط. مات عبد الله سنة ٢٦١ هـ. فخلفه ابنه محمد».

وهذا النص يتضمن أن عبد الله صاحب الفرقة توفي ٢٦١ هـ في حين أن صاحب الإمام الصادق توفي سنة ١٤٨ هـ، ولو كان قد توفي ٢٦١ هـ لكان قد صاحب الكاظم والرضا والجواد والهادي والعسكري، ولم يعرف عنه صحبة إلا لأبي عبد الله الصادق والباقر عليه السلام.

أما عبد الله بن ميمون الأسود القداح، فقد ورد فيه أنه قال له الباقر عليه السلام يوماً: «يا ابن ميمون، كم أنتم بمكة؟ قلت: نحن أربعة، قال: إنكم نور الله في ظلمات الأرض». (الخلاصة: ص ١٩٧ رقم ٦١٤).

٣. فرقة منسوبة إلى محمد بن أبي زينب الأجدع الأسدي؛ أبو الخطاب الذي لعنه الصادق عليه السلام، وقتله عيسى بن موسى عامل المنصور. (فرق الشيعة: ص ٤٢).

٤. قرمط: رأس القرامطة من الباطنية، وإليه نسبتهم، اختلف في اسمه، قيل: اسمه (حمدان) أو (الفرج بن عثمان) أو (الفرج بن يحيى) وقرمط لقبه، أصله من خوزستان، وعرف في سواد الكوفة سنة ٢٥٨ هـ فكان يظهر الزهد والتقشف، واستمال إليه بعض الناس، فأراهم كتاباً، قيل: أوله (بسم الله الرحمن الرحيم يقول الفرج بن عثمان وهو عيسى وهو الكلمة وهو المهدي وهو أحمد بن محمد بن الحنفية وهو جبرئيل!) وفيه كثير من كلمات الكفر والتحليل والتحرير، وكثر أتباعه والسالكون سبيله، واندمج أكثرهم في الإسماعيلية والتصيرية وغيرها من الطوائف الباطنية، وقيل: هو الذي قتله المكتفي العباسي سنة ٢٩٣. (الأعلام: ج ٥ ص ١٩٤).

وقال الشيخ الطوسي: حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط، من أهالي الأهواز، الذي كان على مذهب عبد الله بن ميمون القداح، وقد تمكن القرمطي من تبوء الرئاسة بين أتباع ابن ميمون، وبعث دعواته إلى بلاد هجر وجنوب العراق، وفي أواخر القرن الثالث للهجرة استطاع أتباعه من احتلال البحرين وإقامة دولتهم فيها، ومن هناك بدأوا بنشر دعوتهم في الأهواز والعراق والشام واليمن، وهم من فرق الإسماعيلية المدعوة بالباطنية. (عدة الأصول: ج ٢ ص ٤٣٩).

جهد منصور اليمن ابن حوشب ١٢٢٦ في بلاد المغرب ظهر عبيد الله المهدي^٢ مؤسس الدولة الفاطمية سنة ٢٩٨، لتبقى دولةً عظيمة حتى سنة ٥٦٧، فتحت جيوشها فسطاط مصر في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ (٩٦٩/٧/٧)^٣.

وفي ليلة الفتح وضع جوهر الصقلي^٤ قائد الجيش حجارة الأساس لمدينة القاهرة، وتم بناؤها في رمضان سنة ٣٧١ هـ، وفتح الأزهر للصلاة في الشهر ذاته، وهو يوافق يونيو - يوليو سنة ٩٧٢. وفي صفر سنة ٣٦٥ عقد القاضي أبو علي الحسن بن النعمان^٥ أول حلقاته في

١. هو الحسين بن [فرح] بن حوشب بن زادان، الملقب بمنصور اليمن، وهو الذي أوفده الإمام الثالث من أئمة الستر (الحسين بن أحمد بن عبد الله) للدعوة باليمن، وقد استطاع أن ينجح في دعوته في اليمن، وأن يتغلغل في قبائلها، ويركز المذهب الإسماعيلي، وفي سنة ٢٧٠ بنى دار هجرته جنوبي صنعاء بجبل مسور، وقامت فيه أول قوة عسكرية إسماعيلية مرهوية، ومن هنا لقب بمنصور اليمن. (نصر الدين الطوسي لحسن الأمين: ص ٢٣٧ و ٢٣٨ و ٢٤٠ بتصرف).

٢. هو عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وقيل: عبد الله بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر عليه السلام، وقيل: إنه من ولد جعفر الحبيب ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر. ولد المهدي بالله سنة ٢٦٠ هـ، وسلم عليه بالخلافة سنة ٢٩٧ هـ، وبنى المهدي بقرى وأيام خلافته، ومات سنة ٣٢٢ هـ، فقام ولده محمد القائم بالله من بعده. (الذريعة: ج ١ ص ٦٠) وقيل: تأتى للمهدي أول ملوك الشيعة بأفريقية ومصر ملك كبير بالمغرب، فبنى القصور، ورتب السياسة، وأمر بأن يدعى له على المنابر: اللهم صل على عبدك ووليك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك، أبي محمد عبيد الله الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين كما صليت على آياته خلفائك الراشدين... (كنز الدرر: ج ٦ ص ١٠٩).

٣. أنظر: النجوم الزاهرة: ج ٤ ص ٢٨ وما بعدها، البداية والنهاية: ج ١١ ص ٣٥٤.

٤. هو جوهر بن عبد الله الرومي: أبو الحسن، القائد. باني مدينة القاهرة والجامع الأزهر. كان من موالي المعز العبيدي (صاحب أفريقية)، سيره من القيروان إلى مصر بعد موت كافور الأحمدي، فدخلها سنة ٣٥٨ هـ، وأرسل الجيوش لفتح بلاد الشام وضماها إليها، ومكث بها حاكماً مطلقاً إلى أن قدم مولاه المعز سنة ٣٦٢ هـ فحل المعز محله، وصار هو من عظماء القواد في دولته وما بعدها، إلى أن توفي بالقاهرة. وكان كثير الإحسان، شجاعاً، لم يبق في مصر شاعر إلا رثاه، وكان بناؤه القاهرة سنة (٣٥٨ هـ) وسماها: المنصورية، حتى قدم المعز فسماها: القاهرة، وفرغ من بناء الأزهر في رمضان سنة ٣٦١ هـ. (وفيات الأعيان: ج ١ ص ١١٨، النجوم الزاهرة: ج ٤ ص ٢٨، الأعلام: ج ٢ ص ١٤٨، خطط مبارك: ج ٢ ص ٤٥، معجم البلدان: ج ٧ ص ١٩).

٥. البداية والنهاية: ج ١١ ص ٣٥٥.

٦. المصدر السابق.

٧. أبو الحسن علي بن النعمان، من أولاد أبي حنيفة النعمان الغربي، أشركه المعز الفاطمي مع أبي طاهر محمد ابن أحمد قاضي مصر في الحكم، فلم يزالا مشتركين فيه إلى أن لحقت القاضي اباطاهر رطوبة عطلت شفه ومنعته

الجامع الأزهر، فكان أول مدرّس فيه، فدّرّس للناس مختصر أبيه في فقه آل البيت^١. وفي سنة ٣٦٦ عيّن أبو علي بن النعمان قاضياً للقضاة، فعرفت مصر هذه الوظيفة لأول مرّة^٢. هكذا نشأ الأزهر معهداً شيعياً، ثم صار جامعةً لكلّ علوم الإسلام^٣. وهكذا نشرت الدولة الفاطمية ألوية الإسلام وعلوم الشيعة في مصر والشام والحجاز ووسط آسيا، وأقامت مدينة القاهرة، وأنشأت الجامع الأزهر، وخطب لها في مكّة والمدينة على المنابر^٤، وفي سنة ٤٥٠ خطب لها الخطباء على منابر بغداد لمدة نحو عام^٥.
وعليها خرجت طائفة الدرّوز^٦ التي ألّهت «الحاكم بأمر الله»^٧ فقاتلهم المصريون فهربوا

→ الحركة، فقلّده العزيز بن المعزّ القضاء مستقلاً. وكان متفتناً في عدّة فنون، منها: علم القضاء والقيام به بوقار وسكينة، وعلم الفقه، والعربية، والأدب والشعر. وكان شاعراً مجيداً، يعدّ من الطبقة العليا، توفي سنة ٣٧٤هـ. (الكنى والألقاب: ج ١ ص ٥٨).

١-٥) راجع: الأزهر في ألف عام للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي. وبدائع الزهور لابن إياس.
٤. راجع: تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ٥١، وفيات الأيّان: ج ٢ ص ١٥٢، خطط المقرّبي: ج ٢ ص ٢٨٤.
٥. خلفاء الدولة الفاطمية: عبّيد الله المهدي مؤسس الدولة (٣٢٢)، المنصور (٣٤١)، المعزّ لدين الله (٣٦٥)، العزيز بالله (٣٨٦)، الحاكم بأمر الله (٤١٢)، الظاهر (٤٢٧)، المستنصر (من ٤٢٧ حتّى ٤٨٧) ثم تعاقب: الآمر، والحافظ، فالظاهر، والفاتر، والمعاضد وهو الذي أنهى صلاح الدين الدولة الفاطمية بخلعه سنة ٥٦٧.
وبسط الفاطميّون سلطانهم على أفريقية من المحيط الأطلسي حتّى برزخ السويس والشام، وكانت لهم السلطة في اليمن، ولولا هزيمة جيوشهم أمام الأتراك بقيادة طغرل بك سنة ٤٥١ لبلغوا جبال الهملايا، وإتّما أبقى الأتراك الخلفاء العباسيين لمقاومة الفاطميّين.

ففي ذي القعدة سنة ٤٥٠ دخل البساسيري على رأس إمدادات عسكرية من مصر، وخطب في جامع المنصور للخليفة الفاطمي المستنصر أربعين جمعة، وأرسلت عمامة الخليفة العباسي (القائم) إلى القاهرة فبقيت بها أكثر من قرن، وكسر الفاتحون منبر المسجد الجامع وهم يقولون: «هذا منبر نحس، أعلن عليه بغض آل محمد» ولما وردت إلى مصر الأخبار بذلك غثى المغنّون أمام المستنصر غناءً هو في صميمه اعلان بعدالة التاريخ:

يا بني العباس ردّوا ملك الأمر معد (اسم المستنصر)
ملككم ملك معار والعسوّارى تسوّارّد

وبالنفوذ الفاطمي تقوّى الشيعة الإمامية في العراق وفارس، وتقوّى الإسماعيلية في فارس. (منه).
٦. تنسب الطائفة الدرّزية لمحمد بن إسماعيل الدرّزي، وهو فارس الأصل، ويذهب إلى تأليه الحاكم بأمر الله. (الأعلام: ج ٦ ص ٣٥).

٧. منصور (الحاكم بأمر الله) بن نزار (العزيز بالله) بن معد (المعزّ لدين الله) بن إسماعيل بن محمد العبدي الفاطمي، متألّه غريب الأطوار، من خلفاء الدولة الفاطمية بمصر، ولد في القاهرة سنة ٣٧٥هـ، وسلّم عليه بالخلافة في

إلى الشام سنة ٤٠٨ هـ، أمّا «الحاكم بأمر الله» فقد شاركت في قتله أخته «ستّ الملك»^١ لاضطهاده رعيته وفساد آرائه كما قيل، وكانت أمها جارية رومية قبطية من سراري الخليفة العزيز بالله.

وكان التسامح الديني من تقاليد هذه الدولة حتى صار حديث التاريخ، ولقد عين العزيز بالله «أرسانيوس» و «أريسطيس» خالي «ستّ الملك»^٢ بطريقين للاسكندرية ولبيت المقدس، فقوى نفوذ النصارى في الدولة، وكان وزيره يعقوب بن كلس يهودياً السلم^٣. وهو الذي نظّم التدريس^٤ في الأزهر^٥.

أمّا الاسماعيلية في المشرق فعلا نجمهم على يد الحسن بن الصباح^٦. وقد أمضى

→ مدينة «بليس» بعد وفاة أبيه سنة ٢٨٦ وكان عمره إحدى عشرة سنة، فدخل القاهرة في اليوم الثاني ودفن أباه وياشر أعمال الدولة، وخطب له على منابر مصر والشام وأفريقيا والحجاز. (الأعلام: ج ٧ ص ٣٠٥).

١. ست الملك بنت العزيز بالله نزار ابن المعزّ لدين الله، الفاطمية، العلوية، أميرة من الفضليات الحازمات المدبرّات، وهي أخت الحاكم بأمر الله الفاطمي (صاحب مصر). كان الحاكم يستشيرها في معضلاته، ثم تغتبر عليها وهمّ بقتلها، وساءت سيرته بما هو معروف من إحراقه بعض القاهرة، فاتفقت ست الملك مع ابن دواس (من كبار القواد) ووعده بتولية إدارة الملك، فاغتيل الحاكم سنة ٤١١ هـ وبويغ لابنه علي وهو صبي، وجاءها ابن دواس يستنجزها وعدها، فأوعزت إلى خادم لها فقتله، وصاح: يا لتأر الحاكم! ثم قامت بإدارة الدولة مدة أربع سنوات، أظهرت فيها من المقدرة والعدل ما حثّتها إلى رعيته، توفيت بمصر سنة ٤١٥ هـ. (الكامل لابن الأثير: ج ٩ ص ١٠٩ - ١١٠، خطط المقرئ: ج ٢ ص ٢٨٩، الأعلام: ج ٣ ص ٧٨).

٢. ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء: ج ١٥ ص ١٦٧: «نسطورس» ولم يذكر غيره.

٣. يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن كلس: أبو الفرج، وزير من الكتاب الحنّاب، ولد ببغداد سنة ٣١٨ هـ، وسافر به أبوه إلى الشام، ثم أنفذه إلى مصر فاتصل بكافور الأشيدي فولاه ديوانه بالشام ومصر، ووثق به، فكان يشاوره في أكثر أموره، وكان يهودياً فأسلم في أيامه سنة ٣٥٦ هـ، ثم انتقل إلى المغرب الأقصى فخدم المعزّ الفاطمي العبيدي، وفي سنة ٣٦٨ لقبه المعزّ بالوزير الأجلّ، ثم ولي وزارة العزيز وعظمت منزلته عنده، كان يعقد المجالس في الجامع العتيق فيقرّر المسائل الفقهية على حسب مذهبهم، توفي سنة ٣٨٠ هـ. (الإشارة إلى من نال الوزارة: ص ١٩، وفيات الأعيان: ج ٢ ص ٣٣٣، الكامل في التاريخ: ج ٩ ص ٢٧).

٤. راجع: الفاطميون في مصر: ص ١٣٤، التجوم الزاهرة: ج ٤ ص ٢١، أخبار مصر لابن ميسر: ص ٤٥ و ٥١، الإشارة إلى من نال الوزارة: ص ١٩، امرأة الجنان: ج ٢ ص ٢٥٠.

٥. وكان الخليقان: المعزّ والعزيز يعقدان مجالس للمناظرة بين المسيحيين والمسلمين، ومن التسامح أذنت الدولة بأعياد الغطاس ورأس السنة والتيروز وسائر أعياد النصارى. (منه).

٦. الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي، داهية، شجاع، عالم بالهندسة والحساب والنجوم، قيل: إنّه يمانى

سنوات بمصر، اتّصل في إبانها بالخليفة المستنصر، فدعا له بعد إذ عاد إلى إقليم فارس، ثم دعا من بعده لابنه نزار، وفي سنة ١٤٨٣ استولى على قلعة الموت، ثم اشتدّ ساعده بإصفهان، وسيطر الحسن بن الصباح بأساليب السياسة العادية وغير العادية على أقاليم كبيرة في فارس^١، قتل أتباعه الوزير نظام الملك^٢ (٤٠٨ - ٤٨٥) منسئ المدرسة النظامية في بغداد^٣، وفي سنة ٥٠٠ هـ قتلوا الوزير فخر الدين^٤، كما قتلوا من فقهاء الشافعية المشهورين: أبا المظفر الخجندي^٥ سنة ٤٩٦ هـ، وتلميذه أبا جعفر المشاط^٦ سنة ٤٩٨ هـ، وأبا المحاسن ابن إسماعيل الروياني^٧ سنة ٥٠٢ هـ، وكان يقول: «لو احترقت كتب الشافعي

→ الأصل، وولد في مرو سنة ٤٢٨ هـ، كان مقدّم الإسماعيلية بإصفهان، ورحل منها وطاف البلاد، فدخل مصر وأكرمه المستنصر الفاطمي وأعطاه مالاً، وأمره بأن يدعو الناس إلى إمامته.

فعاد إلى الشام والجزيرة وديار بكر والروم، ورجع إلى خراسان ودخل كاشغر وماوراء النهر؛ داعياً إلى المستنصر. ثم استولى على قلعة الموت وطرده صاحبها سنة ٤٨٣ هـ، وضمّ إليها عدّة قلاع، واستقرّ إلى أن توفي فيها سنة ٥١٨ هـ. (الأعلام: ج ٢ ص ١٩٣).

١. راجع في أخبار الحسن بن الصباح والدعوة التزارية: الكامل في التاريخ: حوادث سنة ٤٩٤ وما بعدها، وتاريخ العلويين: ٢٧٣، وميزان الاعتدال: ج ١ ص ٢٣٢، وصبح الأعشى: ج ١ ص ١٢١.

٢. هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، الملقّب بقوام الدين نظام الملك، وزير حازم، عالي الهمة، تأدّب بأداب العرب، وسمع الحديث الكثير، واشتغل بالأعمال السلطانية، واستوزره السلطان إلب أرسلان، ثم ولده ملك شاه حتّى صار الأمر كلّه إليه، وأقام على هذا عشرين سنة، وكان من حسنات الدهر، ودولته دولة علم، قُتل سنة ٤٨٥ هـ. (وفيات الأعيان: ج ١ ص ١٣٩، وفوات الوفيات: ج ١ ص ١٢٩، ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٢٣٨).

٣. من تلاميذ المدرسة النظامية: السعدي شاعر الفرس الكبير، وعماد الدين الإصفهاني وبها الدين بن شدّاد عاملاً صلاح الدين، وابن تومرت مؤسس دولة الموحّدين في أفريقية، وأبو إسحاق الشيرازي أول أشياخها. ومن أشياخ المدرسة وتلاميذها: الفزالي صاحب الكتاب الشهير في فضائح «الباطنية». (منه).

٤. هو ابن الوزير نظام الملك. راجع معجم المؤلفين: ج ١١ ص ٢٦٦.

٥. لم أجد ترجمته.

٦. لم أجد ترجمة له، سوى أنّه أبو جعفر محمد بن محمود المشاط، والد الفقيه المتكلّم الواعظ المفسّر سعد بن محمد بن محمود. (طبقات الشافعية الكبرى: ج ٧ ص ٩٠).

٧. هو عبد الواحد بن إسماعيل؛ أبو المحاسن الروياني، من أهل طبرستان، أحد أئمة الشافعية، ولد سنة ٤١٥ هـ، ورحل إلى الآفاق حتّى بلغ ماوراء النهر، وحصل علوماً جمّة، وسمع الحديث الكثير، وصنّف كتباً في المذهب، منها «البحر في الفروع». قُتل ظلماً يوم الجمعة يوم عاشوراء في الجامع ٥٠٢ هـ. (البداية والنهاية: ج ١٢ ص ٢١٠).

لأُمليتها»^١.

ولا مرأ في أَنَّ الخلاف بين الإسماعيلية وبين المدرسة النظامية راجع إلى الخصومة الشديدة التي تبدى في الصحيفة ٦٧ من كتاب «سياسة نامه» الذي يدين بوجوده «لنظام الملك»، وفيها وجوب الطعن في «الروافض» ووصفهم بأنهم «مارقون عن الدين»^٢.

ولمَّا صار الحسن بن الصباح داعي الدعاة للنزارية الفاطمية، أبى أن يدعي الإمامة، حتَّى توفي سنة ٥١٨، فخلفه آخرون، انتسب واحد منه إلى نسل «نزار» الفاطمي^٣، وفي سنة ٦٥٤ استولى هولوكو على معاقلمهم فقصدوا إلى الشام والهند.

وفي الشام حالقوا الرهبان الصليبيين فترةً، وخالفوا صلاح الدين فترةً، ودخل أتباعهم خيمته في عسكره وطعنوه بخناجرهم. ومنهم الفدائيون الذين قتلوا أمير طرابلس الصليبي الكونت ريمون.

وتمتاز الإسماعيلية بالتنظيم والدعاية السريين، وأنهم يطوِّرون أمورهم، ومن التطوُّر، ومراعاة مقتضى الحال، وجد التباين في تعاليمهم من وقتٍ لآخر، لكن الأصل الأصل عندهم هو أَنَّ الإمام المعصوم من نسل محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق. وعندهم أَنَّ من قام بالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحجَّ والجهاد والولاية، لكنَّه عصى الإمام، فطاعته غير مقبولة^٤.

١. فيض القدير: ج ١ ص ١٦، البداية والنهاية: ج ١٢ ص ٢١٠.

٢. سياسة نامه: ج ١ ص ١٠٢ و ١٠٣.

٣. أصهر الخليفة المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) إلى قائد الأرمني الأصل بدر الجمالي، ولَمَّا مات المستنصر كان ولي عهده ابنه «نزار»، فولَّى بدر مكانه ابن أخته «المستعلي» وحبس نزاراً حتَّى قتله، فأصبحت الشيعة في مصر مستعلية. ومنها إسماعيلية اليمن وبعض بلاد الشام، ومن إسماعيلية اليمن ذهب الدعاة إلى الهند فقامت الإسماعيلية البهرة. (والبهرة معناها تاجر) وأصبح الإسماعيلية في الهند وإيران والشام نزارية. وللإسماعيلية مركز عظيم في بومباي، وهم يدافعون عن الإسلام حينما يكونون: يرون الإمامة سبعية، تتبرَّ بالإمام السابع وهو إسماعيل، ثم تبدأ دورة جديدة أئمتها مستورون، ومن الاستتار لم يعرف بالضيظ كثير من أمورهم، واتَّسمت دعايتهم بالسريَّة مع دقَّة تنظيمها. (منه).

٤. وهم يجعلون للائمة صفات «باطنية» غير بشرية، لا يعرفها الشيعة الآخرون، وتؤخذ عليهم أشعار الشعراء المشهورين منهم، مثل: ابن هاني الأندلسي الذي يقول للخليفة الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وهم يذهبون إلى أنّ لكلّ ظاهر «باطناً»، وأنّ تأويل الباطن من عند الله، اختصّ به علي بن أبي طالب، ومن ذلك يقولون بمشاركة علي للنبي، ويستدلّون بقصة موسى مع الرجل الصالح في سورة الكهف، ويفسّرون القرآن تفسيراتهم، ويقولون: إنّ نور الله حلّ بالإمام^١. ومن تعاليمهم ما تأثر بفلسفات الأقدمين.

وللشيعة الإسماعيلية في العصور الحديثة مواقف مشهورة في الدفاع عن الإسلام ونشره.



كانت الدولة الفاطمية أكبر دول العالم، قوةً عسكريةً وفكريةً، في العصور الوسطى، تتمثّل فيها وحدة المسلمين، وسماحة الدين^٢.

→ والأخفش يقول للخليفة الأمر:

بشر في العين إلاّ أنّه
جلّ أن تدركه أعيننا
عن طريق العقل نور وهدى
وتعالى أن تراه جسداً

وقول شاعر آخر:

هذا أمير المؤمنين بمجلس
وإذا تمثّل ركباً في مجلس
أبصرت فيه العقل والتنزيلاً
عاينت تحت ركابه جبريلاً!

والأمير تميم بن معد يمدح أخاه الخليفة العزيز بالله يقول:

مضى من العلة الأولى التي سبقت
خلق الهيولي وبسط الأرض والمطر

١. راجع في عقائدهم: فرق الشيعة للتوبختي، والمقالات والفرق لسعد الدين الأشعري، وطائفة الإسماعيلية لمحمد كامل حسين، ودولة الإسماعيلية في إيران لمحمد السعيد جمال الدين.

٢. سبق الفاطميين بمصر (٣٥٨ - ٥٦٧) الأخشيديون، وكانوا ينشرون التسامح الديني فيها، وقد خصّص المقرئ في فصلين للكنائس والأديرة وحسن التفاهم بين المسلمين والمسيحيين، وبخاصّة في الدولة الفاطمية. ولم يعكّر صفو هذا التفاهم إلاّ أيام الحاكم بأمر الله، ثم جاء الظاهر (٤١١ - ٤٢٧) فالمستنصر (٤٢٧ - ٤٦٧) يعاقب قائده بالقتل لقيامه باضطهاد المسيحيين، وكان أسقف الأشمونين «ساويرس» يجادل الفقهاء المسلمين في أمور الدين، وتولّى الخليفة الأمر (من سنة ٤٨٥ حتى سنة ٥٢٥) وكان يزور الأديرة ويصادق الرهبان، ومن خواص كتابه: أبو نجاح، وهو مسيحي.

وفي هذا الجوّ ظهر نوابغ المسيحيين، ابتداءً من ساويرس بن المقفع (٣٢٨) وهو مؤلّف كتاب الردّ على اليهود والمعتزلة، ورسالة عن التثليث، وأخرى في الردّ على النساطرة، وشرح الإنجيل، وتاريخ المجامع الكنسية. وفي القرن السادس ظهر أولاد العسال الثلاثة: أبو الفرج والصفى وأبو إسحاق، وظهر المكين جرجس المتوفى سنة ٦٧٢.

وقديماً أصطنع عمر بن الخطاب الكتاب من سبي قيسارية، واستعمل أبو موسى الأشعري كاتباً نصرانياً، وكان بنو أمية يستعملون ابن أثال الطبيب النصراني ويضعون عن الجزية. (منه).

وفيها أثبتت وحدة القاعدة القانونية في الأمة، بل وحدة الدين في المذاهب، اقتدارها على أن تجمع المسلمين في دولة واحدة، هي أعظم الدول حضارةً في القارات المعروفة في ذلك الزمان، عاصمتها مصر - القاهرة، وجامعتها الأزهر، سعد فيها المسلمون والمسيحيون واليهود والذميون، حتى غزاها من الداخل انقسام شعوبها، وقيام إمارات شتى، وسفه الوزراء، وضعف الخلفاء.

وأغرى غزو شعوبها أنفسهم في داخلها بأنقسامهم وتفككهم، الصليبيين، ليقوموا بالغزو الخارجي، وصدّهم المسلمون مرّات، حتى إذا ادلهم الخطب استعانت الدولة الشيعية في مصر الدولة السنية في دمشق^١، وعلى رأسها السلطان نور الدين محمود^٢ (٥٦٩) أستاذ صلاح الدين^٣ (٥٨٩) ليثبت أهل مصر والشام أن الإسلام واحد وإن اختلفت المذاهب. ولما وحد صلاح الدين إمارات المسلمين في بضع سنين^٤ من الموصل إلى حلب ودمشق والقاهرة، استقام له المحور القوي، فنهذ للقاء الصليبيين، ونصره الله في حطين. وهذا درس في الوحدة مطلوب إلى المسلمين أن يتدارسوه.



والمجتمع الإسلامي يمتاز من المجتمعات المعاصرة بأنه مجتمع ديني الأساس بأطوار

١. راجع: سير أعلام النبلاء: ج ٢ ص ٥٢٣.
٢. صاحب الشام، الملك العادل، نور الدين، أبو القاسم محمود بن الأتابك. كان حامل رأيي العدل والجهاد، قل أن ترى العيون مثله، حاصر دمشق ثم تملكها، وملك بلداناً أخرى، وهزم اليرنس صاحب أنطاكية، وأظهر السنة، وبنى المدارس، ووسّع الأسواق، وأنشأ المارستان ودار الحديث، وكسر الفرنج مرّات، وأتاه أسير الجيوش شاور (الفاطمي) مستجيراً به، فأكرمه وبعث معه جيشاً ليرده إلى منصبه، فانتصر، لكنّه خبت وتلاءم ثم استنجد بالفرنج، ثم جهّز نور الدين جيشاً ليجباً، فاقتتح مصر وقهر دولتها، وهربت منه الفرنج وأقام الدولة العباسية. (سير أعلام النبلاء: ج ٢ ص ٥٢٣ - ٥٢٢).
٣. هو يوسف بن أيوب بن شاذي: أبوالمظفر صلاح الدين الأيوبي، الملقّب بالملك الناصر، من أشهر ملوك الإسلام، وهو من الأكراد، نزلت عائلته في تكريت وبها ولد ٥٢٢ هـ. نشأ في دمشق وتفقه وتأدّب وروى الحديث بها وبمصر، وحدث في القدس، ودخل في خدمة نور الدين محمود صاحب دمشق، ثم اشترك في حملة للاستيلاء على مصر سنة ٥٥٩ هـ، وتم له الظفر، ثم اختير لقيادة الجيش والوزارة، ولقبه بالملك الناصر، وهاجم الفرنج في دمياط فصدّهم صلاح الدين، ثم استقلّ بملك مصر وخطب للعباسيين، ثم استدعي للشام بعد وفاة نور الدين، وعمل على صدّ الصليبيين، وأشهر حروبه حطين. (الأعلام: ج ٨ ص ٢٢٠).
٤. راجع: سير أعلام النبلاء: ج ١٩ ص ١٧٩.

تاريخه وطبيعته، وبأن تعاليم القرآن والسنة هي غذاؤه اليومي، وهو أوه النقي الذي يتنفسه المسلمون.

العائلة فيه محكمة قوانين دينية وتقاليد إسلامية، في: الزواج، والطلاق، والأبوة، والبنوة، والنفقة، والحضانة، وسائر علاقات الأسرة.

والفرد فيه واقف بين يدي الله على مدار ساعات النهار وزلماً من الليل.

والمجتمع كله مفروض عليه فرض وجوب، والفرد مفروض عليه فرض كفاية: أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أي يتكافل في دفع كل خروج على الدين.

بهذا صار الحفاظ على الإسلام وقيمه مسؤولية قانونية وعامة، وأصبح التمييز بين الحلال والحرام حجر الأساس في المجتمع، وفي علاقات الأفراد والأسرة. وأمسى لزاماً على كل دولة إسلامية أن تتأخى أو أخى الدين وهي تنظر إلى المصالح المادية والسياسية، لها والناس. ولقد بقي الأمر كذلك طوال القرون العشرة التي كانت فيها الدول الإسلامية مستقلة، تتعلم علومها الحضارة الغربية، حتى إذا اضمحلت ران الظلام السياسي والركود الاقتصادي على القلوب، فانتقلت شمس الحضارة من الشرق إلى الغرب في أوربة، وبدأت العصور الحديثة وحضارتها الأوربية في الظهور، منذ ختام القرن الخامس عشر للميلاد.

ولم يكن مصادفةً، وإنما كان لزاماً للتخلل والتقاطع والتخاذل، أن يبدأ طرد العرب - في ذلك القرن - من اسبانيا، وأن تكون محاولات طردهم معاصرة للثورات الدينية في المسيحية، وللإرهاب الديني في دولها، وأن يكون نصيب المسلمين من هذا الإرهاب فوق ما يتصور البشر، من العذاب والتقتيل والتحريق والتنصير، بل قتل من يتنصر بدعوى عدم الإخلاص في التنصر!!

وفي ظلمات الجهالة والتخلف بهرت المقهورين حضارة أوربة، فلم تبق لهم ذاتهم، ولم يصيروا أوربيين، وعجزوا عن أن يطردوا الغزو الأوربي، في حين قدر آباؤهم على دفع الغزو الصليبي لأنهم كانوا أقرب إلى القيم الإسلامية.

وتلاحق التدهور حتى بداية النهضة الحديثة للمسلمين، حتى إذا أخذت الشعوب الإسلامية بأسباب العلم، نظرت إلى داخلها تلتمس القوة من ذاتها، فاستشعرت حقائق القوة في طاقاتها، وعادت تلتمس الأسباب في صميم حضارتها، وفي تمسكها بعقيدتها التي اشتقت منها منهجها العلمي، وهو الذي صار «المنهج العلمي العالمي» الذي نقلته عنها أوربة

منذ القرون الوسطى^١.

والتاريخ معلّم كبير، وأول علومه: أنّ كثيراً من صفحاته تتكرّر، وأنّه خطاب مستمرّ، مفتوح السجّل لكلّ ذي بصر.

ويعلمنا التاريخ أنّ الوحدة هي التي تصنع النصر، سواء أكانت وحدة شاملة كمثل ما كان الأمر في الصدر الأول، أم كانت وحدة للحرب كما صنع الخليفة الفاطمي «الشيخي» وسلطان دمشق «السنّي»، لردّ غائلة الصليبيّين، أم وحدة القوى كما صنع صلاح الدين ليعيد بيت المقدس للمسلمين... كلّ أولئك صيحات عالية بأنّ الإسلام واحد كلّما جدّ خطر، وأنّ الاعتصام به مصدر الظفر.

ولمّا اتّحد العرب، وتجمّع المسلمون، بعد العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣^٢ حتى العالم هاماته لهم.

ويعلمنا التاريخ أنّ أمتنا بلغت شأواً كلّما استمسكت بعقيدتها والتزمت تعاليمها، وأنّ التقصير في جانب الدين كالخرق الواسع، لا يبقى على شيء مهما يجمع الناس. والصلحون الاجتماعيون والسياسيون الذين تعمى أبصارهم عن هذه الحقيقة يضربون في حديد بارد.

إنّه تعالى يقول: ﴿وَوَيْرِكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾^٣.

والعمل بالقيم الإسلامية داعٍ إلى سنّ القانون الإسلامي الموحد، لتجري أمور المسلمين ومعاملاتهم كافّةً، وعقوباتهم إذا انحرفوا عن الجادة، على نسقٍ واحدٍ، يسمو بهم في معاملاتهم كلّ يوم، ويصحّ الجريمة ويتشلّ الهلكى من أعماق السجون، ويعصون المعنى التعبدي في كلّ حكمٍ فقهي، والجانب الإنساني في كلّ حكمٍ جنائي.

١. يراجع كتاب: «المنهج العلمي المعاصر مستمدّ من القرآن» للمؤلّف، طبع مطبعة دار الاتّحاد العربي بالقاهرة ١٩٧٦. (منه)

٢. يعني حرب تشرين عام ١٩٧٣.

٣. سورة غافر: ٨٠-٨١.

ولا جرم أن تقنين الفقه الإسلامي والعمل به هو الإسهام الأعظم منّا في الحضارة المعاصرة، وبأعظم ما نملك من القيم، ونحن قادرون على ذلك باستعمال مصادرنا العلمية.

وأين من شرع الله قوانين البشر؟!

والخطر اليوم يملأ الأفق: لقد تطرقت إلى الأرض العربية والإسلامية الدعوات الإلحادية والمادية المدمرة للقوى الذاتية للأمة، يؤيدها امتياز القوة، والمال المبدول بسخاء، والتكنولوجيا التي تخطف البصر، ورفع الاستعمار الفكري والسياسي والاقتصادي أعلامه عالية! وما التبشير الديني الأوربي والأمريكي في بلدان المسلمين إلا وجه واحد من وجوهه.

أما الغزو الداخلي للإسلام - من داخل مجتمعات المسلمين - فشرّ مكاناً وأنفذ أثراً، والأوربيون - من كلّ معسكر - يسلطون علينا أسبابه.

إنّ التاريخ يعلمنا أنّ وجود إسرائيل في الأرض التي كان الصليبيون يحتلونها - بالذات - ليس مصادفةً، بل هو فكر غربي قديم، أقام بالفعل وبالقوة دولةً صليبيةً - هنا - في هذا المكان.

وإنّما يكرّر الفكر الأوربي نفسه، بعد سبعة قرون، بغرس دولةٍ «يهودية» بدلاً من دولة «صليبية» في القلب، من جسم العرب.

وإسرائيل دولة «دينية» مدّ الغرب إليها مخالبه، والدفاع ضدّ دولة دينية يهودية يقتضي الالتجاء إلى القيم الدينية وإن لم يستلزم إقامة دولة دينية، ولقد طالما استعملت أوربة الأسلحة الدينية ضدّ المسلمين^١.

إنّ الحضارة الأوربية - من شرق وغرب - تحسب حساب «قوة عربية إسلامية» في

١. كان فرسان المعبد Templars = Knights of the Temple جنوداً محاربين على ميمنة الجيوش الصليبية في كلّ الحروب، وكان على ميسرتها الفرسان الإسطبالية Hospitalars، وكلا التنظيمين تنظيم رهبان متقشّفين لا يتزوّجون، والأولون عملهم حربي محض ضدّ المسلمين. وما تزال كنيسة المعبد في لندن Temple Church شاهدة بعمل فرسان المعبد وقيامت التبشير منذئذ، فقد علينا من دول أوربية وأمريكا، مستعملة كلّ الأسلحة: مالية أو علمية أو طبية أو اجتماعية أو سياسية، وكثيراً ما عملت في خدمة الجيوش المحاربة، أو عملت الجيوش في خدمتها. أمّا العالم الشيوعي فيصدر إلى الشرق والغرب أفكار الملحدّين. (منه)

مفترق الطرق إلى العالم، وفي ملتقى المصالح للدول العظمى، وأنها قوة يبلغ عددها الآن مائة مليون، قد تكون مائتين في نهاية القرن الميلادي^١، يزخر إقليمها بأسباب القوة، وتصنع صحراواتها بالمعادن، فتضيء في صور الأقمار الصناعية الدائرة حول الأرض ليل نهار.

والحضارة الأوربية تحسب حساباً آخر لاجتماع المسلمين على «المبادئ» التي سادوا بها كلّمًا اجتمعوا.

والحضارة الأوربية أو الأمريكية وإن كانت ذات منهاج وثني، راسخة الجذور في الفكر الديني^٢. لقد كانت «الحرب الصليبية» صيحة التجمّع لشعوب أوربة المشتتة في العصور الوسطى، وكانت معاهدة «وستفاليا» راسمة حدود دولها الحالية من (١٦٤٨)، وهي نصفان: نصف ديني لإرضاء البروتستنت^٣، ونصف سياسي لمنع الحروب الدينية بعد منح حرية العقيدة.

وهذه المجتمعات والدول في أوربة وأمريكا آخذة الآن في العودة إلى الدين، وإلى التكتّل تحت أسماء أو صور مختلفة؛ كالحلف أو المعاهدة أو المنظمة أو المؤتمر، ومنها السياسي والاقتصادي والعلمي والاجتماعي.

فما أحرانا أن نتحد على تسامح الإسلام وقيمه العالية... لنبقى ونقوى. ألا و«إنّ هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله»^٤.

١. يجدر أن نشير إلى أنّ هذا الكتاب مؤلّف في عام ١٩٧٧ م.

٢. للبحث عن الحرّية الدينية وصلت السفينة زهرة الربيع Mayflower براكبها في ٢١ ديسمبر سنة ١٦٢٠ إلى شواطئ أمريكا لينشئوا مستعمرة «انجلترا الجديدة» ويطلق عليهم «الآباء الحجاج»، وأعقبهم طلاب «حرّية دينية» آخرون بلغوا في السنوات العشرة من سنة ١٦٣٠ إلى ١٦٤٠ عشرين ألفاً، وهؤلاء نواة الولايات المتّحدة الأمريكية، أمّا دول أمريكا الجنوبية فنواتها الأسباب وأهل البرتغال الذين صنعوا بالمسلمين ما صنعوا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد. (منه)

٣. وهي حركة دينية تنتظم تحتها مختلف الكنائس المسيحية، ما عدا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، والكنيسة الشرقية الأرثوذكسية. وقد نشأت معظم الكنائس البروتستانتية خلال عهد الإصلاح الديني في أوربا في القرن السادس عشر، وهي لا تعترف بسلطة البابا، وتطرح كثيراً من الطقوس الدينية التقليدية، وتؤكد على أنّ الفرد مسؤول تجاه الخالق لا تجاه السلطات الأكليريكية، وعلى أنّ (الكتاب المقدّس) هو المصدر الوحيد لشرعية الله، وأهم فرقها: اللوثرية، الكالفنية، الكنيسة الأنكليكانية. (موسوعة المورد الحديث: رقم ٢٦٥٥).

٤. شرح نهج البلاغة: ج ١ ص ١٦٣، كنز العمال: ج ٥ ص ٦٨١، تاريخ دمشق: ج ٤٤ ص ٢٥٦، تاريخ المدينة: ج ٢ ص ٦٦٧، تاريخ الطبري: ج ٤ ص ١٨٩.